١٩٤٦

مكتبة نوبل

هيرمان هيسه

لعبة الكريات الزجاجية



ترجمة
مصطفى ماهر





علي مولا

لعبة الكريّات الزجاجية

٦٤٩١
مكتبة نوبل

هرمن هيسه

لعبة الكريّات الزجاجية

ترجمة
د. مصطفى ماهر





اســم المــؤلــف : هرمن هيسه
عنوان الكتــاب : لعبة الكريات الزجاجية
المتــــــــرجم : د . مصطفى ماهر
النــاشـــــــر : المدى
الطبـعــة الأولى : ١٩٩٨
الطبـعـة الثـانيـة : ٢٠٠٦

Author : Hermann Hesse
Title : Das Glasperlenspiel
Translator: Dr. Mustafa Maher
Al- Mada P.C.
First Edition : 1998
Second Edition: 2006

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
www.almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

مقدمة

بقلم: د. مصطفى ماهر

ليست رواية «لعبة الكريات الزجاجية» من المؤلفات السهلة التي يقرؤها الانسان على عجل ، فيجد فيها التسلية أو الترفيه . إنها رواية عميقة ، كثيرة الأبعاد ، تريد من القارئ أن يفرغ نفسه لها ، وأن يتناولها بالتفكير الدقيق ، وأن يجشم نفسه مشقة تتبع عناصرها الى أصولها العلمية أو الفلسفية أو الفنية . ولقد صدق المؤلف عندما سماها «محاولة» ، فهي شيء بين الرواية وبين الكتاب . هي رواية بما التمسه كاتبها فيها من خيال ، وما أدخله في تركيبها من عرض لمناظر ، وتصوير لشخصيات ؛ وسرد لأحداث ، واهتمام بانفعالات وأحاسيس . وهي كتاب في الفلسفة ، وفي تاريخ الثقافة وفي التاريخ ، وفي الحكمة ، تناول فيه الكاتب ثقافة العصر الحاضر بالنقد الدقيق ، والتقييم ، وخرج من نقده وتقييمه بآراء جديرة بأن يأخذها الانسان مأخذ الجد ، ويتأملها ، ويتدبرها ويفيد منها .

ورواية «لعبة الكريات الزجاجية» أعظم مؤلفات هرمن هيسه وأقواها ، وهي في تقديري أعظم مؤلفات زمانها . وقد عكف هيسه على كتابتها بين عام ١٩٣١ وعام ١٩٤٢ ، بدأها قبل كارثة استيلاء هتلر على الحكم في المانيا بعامين ، وأتمها قبل أن تبلغ كارثة الحرب الهتلرية ، الحرب العالمية الثانية ، بثلاث سنوات ، فكانت صيحة العقل في عصر ضاع منه العقل . وكان من الطبيعي أن يمنع الحكم النازي نشرها في ألمانيا ، فظهرت الطبعة

الأولى في سويسرا ، ولم تطبع في ألمانيا الا بعد نهاية الحرب ، في عام ١٩٤٦ .

ولد هرمن هيسه في ٢ يوليه من عام ١٨٧٧ ببلدة صغيرة هي « كالف » ، تقع على نهير الناجولد ، الذي ينبع من الغابة السوداء ويحمل الماء الى نهر النيكار فنهر الراين . جاء مولده في منطقة من أجمل المناطق في ألمانيا ، حبتها الطبيعة بالغابات المنيفة ، والمراعي الواسعة ، والنبات المختلف ، والزهور البديعة . وهي تارة ترتفع في شكل جبال شاهقة ، وتارة تنخفض على هيئة سهول منبسطة ، وتارة تستقيم ، وتارة تتلوى ، فتعرض على الناظر اليها مجموعة متنوعة من المناظر الطبيعية الخلابة ، تحرك في النفس أعمق الأحاسيس ، وتحفز الوجدان الخلاق على ابداع كل جميل عميق .

كان أبو هرمن هيسه ، يوهانس هيسه ، يحترف التبشير ، وسافر لهذا الغرض الى الهند حيث عمل مساعداً لمبشر اسمه هرمن جوندرت . وتزوج يوهانس هيسه من ابنة هذا المبشر ، بعد ان توفي زوجها وكان يشتغل بالتبشير هو كذلك وكان اسمه شارل ايزنبرج . وكانت هذه المجموعة من المبشرين تأخذ نفسها في دراسة لغات آسيا وثقافتها بالقسوة والدقة الشديدتين . ومثل ذلك ان هرمن جوندرت (جد هرمن هيسه من ناحية الأم) تولى بعد عودته من الهند ادارة دار للنشر في كالف ، واشتغل لمدة خمس وثلاثين سنة في اعداد قاموس ضخم في لغة المالايام ، لايزال حتى الآن يحتفظ بقيمة علمية . وقد شهد هرمن هيسه جده هذا ، وتأمله وهو يستغرق في أبحاثه الغامضة ، ويقضي وقته كله بين الكتب .

ولم يبق أبو هرمن هيسه في الهند الا ثلاث سنوات ، عاد بعدها لأسباب صحية الى أوروبا في عام ١٨٧٣ ، واشتغل مساعداً للدكتور هرمن جوندرت في دار النشر . وعاش يوهانس هيسه مع زوجته وابنيها من زوجها الأول ، في كالف ، حيث رزقا بستة أولاد آخرين ، كان هرمن هيسه ثانيهم .

ولم تكن العلاقة بين الأب والأم علي خير ما يرام ، كان يوهانس متمسكاً بتقاليد ولهجة كالف ، وكانت قد ورثت عن أمها (جولي دوبوا) الكثير من الطباع الفرنسية ، فأصبح الانسجام بين الزوجين أبعد شيء عن التحقيق . ولكن الحياة كانت تتصل في البيت في هدوء متكلف . وكان أبرز شيء يميز جو البيت هو التدين المفرط ، فما أكثر تلاوة الاناشيد والصلوات ، وما أكثر معالجة الكتاب المقدس وشروحه ، وما أكثر الاحاديث حول الدين وشؤون التبشير .

وكان هرمن بطبيعته متمرداً ، يميل الى الخيال ، ويتمسك بفكره وارادته ، ويكوّن لنفسه عالماً خاصاً به ، يتفق وميوله . وقد تمرد أول ما تمرد على البيت وعلى جوه الصارم ، ثم تمرد بعد ذلك على المدرسة . فقد دفعه أبوه الى المدرسة اللاتينية (المدرسة الأولية) في كالف فبقي فيها أربع سنوات حتى عام ١٨٩٠ ، ثم نقله بعد ذلك الى جمنازيوم (المدرسة الثانوية) جوبنجن . يقول هرمن هيسه عن المدرسة في ذلك الوقت : «لم أجد طوال الأعوام الثمانية التي قضيتها في المدارس الصغيرة الا مدرساً واحداً فقط أحسست تجاهه بالحب والامتنان» . كانت المدرسة في نظره هي العدو الذي يهجم عليه ، ويريد أن يفسد عليه حياته وموهبته . كان يريد أن يندمج في الطبيعة وأن يندمج في كائناتها ليفهم حديث الزهور والحشرات والفراشات ، ويتأمل الشجرة وهي تنمو ، والحيوان وهو يكبر ، ويعيش الطبيعة .

وبدأ هرمن هيسه يعالج الشعر . وقد كتب عن ذلك يقول : «لقد تبينت بوضوح عندما بلغت الثالثة عشرة من عمري ، انني اما أن أصبح شاعراً أديباً ، أو لا أصبح شيئاً على الاطلاق» . ومع هذا الاندفاع الى الشعر ، زاد التمرد على البيت والمدرسة . كان البيت يريد له أن ينجح في الدراسة بالمدرسة أولاً ، وأن ينجح في امتحان الحكومة الذي يعقد كل عام ، ويخول للناجح فيه الحق في الدراسة بالمجان في معهد من المعاهد

الدينية . وتمكن هرمن من النجاح في الامتحان الحكومي ، ودفع به الى المعهد الديني في ماولبرون في عام ١٨٩١ . وكانت هذه المعاهد على مستوى المدارس الثانوية ، وكانت تتسم بالصرامة في التمسك بالمثل الثقافية البروتستنتية . ولم يبق هرمن في ماولبرون الا ستة أشهر ، امتلأت بالنقد للتعليم والمعلمين ، ولكنها مكنته في الوقت نفسه من الحياة الفعلية في داخل «دير» ، ألهمه فيما بعد أكثر من منظر من المناظر الرئيسية في رواية لعبة الكريات الزجاجية ، منظر الاقليم الكاستالي ، ومنظر دير البندكتينيين ، وغرفة هيلاس على سبيل المثال . ويبين تاريخه في ماولبرون أنه هرب من المدرسة ذات مرة ، وأخذ يتجول في المنطقة المحيطة ، فلما عاد تعرض للعقاب . وسرعان ما أصيب بما يشبه المرض ، فقرر أبوه أن يتيح له فرصة للاستجمام . ولكن الازمة كانت قد اتخذت صورة خطيرة في نفسه ، أزمة الانسان الشاعر الحساس ، الحر ، المتمسك بفرديته ، عندما يصطدم بجو العائلة الصارم المفرط في التدين بمعناه الجامد القاسي . وأصبح هرمن في نظر أهله انساناً فاشلاً ، أو انساناً مريضاً نفسياً ، أو به مس من الشيطان . وأخذه أبوه الى كاهن عرف عنه أنه يشفى أمثال هذا المرض . ولكن العلاج لم يفلح ، وأوشك هرمن على الانتحار . وكان على أبيه أن يجرب معه تجربة اخرى فدفع به الى مؤسسة لضعاف العقول في ريمستال ، وظل هرمن فترة من الزمن مع ضعاف العقول . في هذه الفترة بلغت الازمة به مداها : احساس بالعزلة ، رفض للتقاليد . رفض للدين ، رفض للدنيا . وجاءت تجربة جديدة لوضعه في المدارس . وذهب الى مدرسة باد كانشتات ، وبقي فيها عاماً . وكانت حياته في غاية الاضطراب ، كان يعيش في حجرة على سطح بعض البيوت يكثر من القراءة ، ومن صقل موهبته الفنية من ناحية ، ويهمل المدرسة كل الاهمال ، ويكثر من الاستدانة ، ومن إثارة الشغب من ناحية اخرى ، ويتأرجح بعواطفه بين فرح قليل وحزن شديد ، لا سبب له على ما كان يبدو .

وصرف الأب النظر عن التعليم ، ووجه ابنه هرمن الى العمل . فاشتغل هرمن في مكتبة . ولكنه انصرف بعد ثلاثة أيام . وعاد الى البيت ومكث به عدة أشهر لا يعمل شيئاً . وأخيراً أجبره أبوه على العمل في ورشة لصناعة واصلاح الساعات الكبيرة ، واشتغل هرمن عاملاً يدوياً من عام ١٨٩٤ الى عام ١٨٩٥ ، ينشر ويبرد ويخرم ويلحم ويحل ويربط الصواميل بل ويتعلق على السقالة ليصلح ساعات الكنائس وما شاكلها . والغريب ان هرمن هدأت نفسه في هذه الورشة ، وتمكن من التغلب على مشاكله وعقده ، وعرف السبيل الى الخلاص . على أن عمل هرمن في صناعة الساعات ، تلك الصناعة الدقيقة ، قد ترك أثره العميق ، الذي ظهر فيما بعد في لعبة الكريات الزجاجية ، الآلة الدقيقة التي تمثل الثقافة .

وفي أكتوبر من عام ١٨٩٥ انتقل هرمن هيسه الى توبنجن للعمل في مكتبة بها . ولكنه ركز أكثر جهده على القراءة وتثقيف نفسه وتطوير أسلوبه ومفاهيمه الفلسفية والجمالية . وتظهر خطاباته في هذه الفترة اهتماماً خاصاً « بالانسجام » ـ نراه يكتب عن جوته مثلاً أنه « يربي ، ويعلم الإنسجام » ، كذلك تظهر ميلاً شديداً الى الانصراف عن الواقع الى دنيا الاحلام ، وتظهر أخيراً ما يشبه الايمان بوحدة الخلق والخالق .

وكان هرمن قد بدأ منذ عدة سنوات ينشر قصائد متفرقة خاصة في مجلة تصدر في فيينا باسم «دار الشعراء الألمانية» . وفي عام ١٨٩٩ نشر هرمن ديواناً صغيراً باسم «أغاني رومانتيكية» . وفي العام نفسه نشرت له دار أويجين ديتريش في لا يبتسيج كتيباً بعنوان «ساعة بعد منتصف الليل» . عبارة عن مجموعة من القطع النثرية . ـ وترك هرمن وظيفته وانتقل الى وظيفة مشابهة في بازل . واتصل في بازل بالمؤرخ فاكر ناجل الذي كان يعمل مديراً لدار المحفوظات الحكومية ، وعرفه هذا المؤرخ بعدد من رجال الفكر . وتبين هرمن هيسه مدى الأثر الذي تركه المؤرخ العظيم ياكوب بوركهارت على المشتغلين بعلوم التاريخ في بازل جميعاً . ولا شك ان

شخصية ياكوب بوركهارت هذه هي التي أوحت اليه بشخصية ياكوبوس في لعبة الكريات الزجاجية . وكان هرمن هيسه يعرف مؤلفاته وبخاصة كتابه «حضارة عصر النهضة» ، ويعتبرها ، هي ومؤلفات حكماء الصين القدماء ، من أعظم الكتب التي أثرت على تكوينه .

وأمضى حياته بين الوظيفة والدرس ومخالطة الناس والنزهة على الاقدام أو في الجندول . وكانت المنطقة ذات طبيعة جميلة ، الطبيعة السويسرية الرائعة ، فوجد فيها ضالته . وفي مارس من عام ١٩٠١ سافر الى ايطاليا للمرة الاولى . والملاحظ في تاريخ الأدب الألماني ان السفر الى ايطاليا أمر يجذب الادباء ويعتبر في نظرهم بمثابة الحج الى المنبع والمصدر ، والى طبيعة اخرى وبشر آخرين ، ثم هو أمر يحوّل اتجاه العبقرية ويهبه البساطة اذا كانت البساطة تنقصه ، والتنوع اذا كان التنوع لم يتح له ، والانسجام اذا لم يكن الانسجام قد اكتمل له . ويكفينا أن نذكر في هذا المقام رحلة جوته الى ايطاليا ، تلك الرحلة التي حولته من انسان الانفعالات الجامحة ، الى انسان الانسجام والاعتدال ، وحولت أدبه من العصف والقصف الى الكلاسيكية . كذلك هيسه وجد في ايطاليا ما وسع مداركه ، وشحذ عبقريته ، وأعانه على تحديد طريقه في الحياة وسبيله في الفن .

واتصل هيسه في العام نفسه بهانس تروج أحد محرري جريدة «الجمينه شفايتسر تسايتونج» وكتب فيها من حين لآخر . ونشر كتيباً بعنوان «مخالفات هرمن لاوشر من الكتابات والقصائد» . في هذا الكتيب خطا هرمن هيسه خطوة الى أمام ، تتمثل في الحصول ـ على حد تعبيره ـ على قطع من الواقع مكنته من التغلب على احساسه بالعزلة والانفرادية . ويحتوي هذا الكتاب على مجموعة من الموضوعات التي ستلازم أعمال هيسه في المستقبل القريب والبعيد . في هذه القصائد تأتي صورة فقاعة الصابون ، ممثلة لحياته ، رامزة لها ، تلك الصورة التي ستتطور في المستقبل الى صورة «الكرية الزجاجية» . كذلك نلاحظ في هذه القصائد سعيا الى تحقيق درجة

من الجمال الأسلوبي ، لايزال هيسه يتحراه حتى يبلغ بأسلوبه جمالاً فريداً بين أساليب الكتّاب الألمان جميعاً ـ . ولما تبين هرمن هيسه ان عمله في المكتبة يضيع الكثير من الوقت ، ترك هذا العمل ، وعاد الى كالف فيما يشبه الاجازة ، ثم عمل في مكتبة لبيع الكتب القديمة فيها ، أتاحت له قدراً أكبر من الفراغ والتفرغ لفنه . وكان في هذا الوقت يعيش من أجره في المكتبة ومن مكافآته التي كان يحصل عليها من كتابة المقالات في الصحف ، وكانت هذه المقالات غالباً تدور حول انطباعاته عن رحلة ايطاليا . وفي عام ١٩٠٢ نشر ديواناً جديداً من الشعر في سلسلة «الشعراء الألمان الجدد» ، ولقي هذا الديوان قبولاً حسناً من بعض النقاد ، وتحدث البعض عن شاعر رومانتيكي جديد . وكان هذا الديوان ينقسم الى فصول تحمل عناوين مميزة لهرمن هيسه وفنه : تجولات ، كتاب الحب ، طريق الضلال ، الجمال ، الجنوب ، السلام .

وتلقى هيسه خطاباً من دار النشر الكبيرة «فيشر» يطلب فيه الى الكاتب أن يزود الدار بشيء مما ينتجه . وفي عام ١٩٠٤ أرسل هرمن روايته الأولى «بيتر كامينسند» ، فنشرت ونجحت نجاحاً كبيراً ، وجعلت اسم هرمن هيسه على كل لسان . وقد رسمت هذه الرواية ، التي تعتبر الى الآن من الروايات المحبوبة ، عدداً من الخطوط العريضة في فن وفكر هرمن هيسه ، نجدها في أعماله التالية ونجدها بصفة خاصة في درته «لعبة الكريات الزجاجية» : الاهتمام الفائق بالطبيعة ، تمجيد البساطة والسذاجة والفطرة ، نقد المجتمع ، نقد الثقافة ، السعي الى معرفة الانسان وتحديد مفهوم الانسانية ، والسعي الى ايجاد الانسجام في الانسان ، والى احداث انسجام بين الانسان والطبيعة ، محاولة فهم التاريخ بالاتجاه المباشر الى المصادر ، والابتعاد عن الفلسفات التاريخية المتأخرة التي تفرض على التاريخ هذا أو ذاك المعنى ، والخروج من التاريخ بحقائقه ، الاهتمام البالغ بالموسيقى ووضعها في أعلى مكان من سلم الثقافة . كذلك اتخذت هذه الرواية الشكل

الذي ظل هرمن هيسه يفضله على الدوام : شكل قصة الحياة ، قالب النمو البشري الذي يتتبع الانسان من رحلة الى مرحلة . وتميزت هذه الرواية بالاسلوب الجميل الملون المنغم الذي هو أسلوب هرمن هيسه الفريد .

ولقد ظل هرمن هيسه يقدر هذه الرواية أعظم التقدير ، ويعتبرها حجر الزاوية في حياته الفنية كلها . وفي عام ١٩٥١ كتب عن بطلها ، بيتر كامينتسند ـ وهو في كثير من صفاته هرمن هيسه شخصياً ـ يقول : «لم يكن هدفه ومثله الأعلى أن يكون أخا في طائفة ، أو شريكاً في مؤامرة ، أو صوتاً في جوقة . لم يكن يسعى الى المجتمع والزمالة والانتظام في تكوين منظم ، بل كان يسعى الى العكس ، لم يكن يريد طريق الكثرة ، بل كان يريد أن يسير معانداً في طريقه هو ، لم يكن يريد أن يسير مثل الآخرين وأن يتكيف معهم ، بل كان يريد أن يرى الطبيعة والعالم ينعكسان في روحه بصور جديدة . لم يخلق للحياة في الجماعة بل خلق ليكون الملك في مملكة أحلام من صنعه» . ثم يقول عن نفسه : «... وأنا لم أبتعد في طريق تطوري ونموي عن مشكلات عصري ، ولم أعش كما يقول أعدائي في برج عاجي ، ولكن المشكلة الأولى ، المشكلة الملتهبة أشد الالتهاب ، لم تكن في نظري الدولة أو المجتمع أو الكنيسة ، بل كانت الانسان الفرد ، الشخصية ، الفرد الفريد الذي لا تشمله «المعايير»» .

وفي ابريل عام ١٩٠٣ سافر هرمن هيسه الى ايطاليا مرة اخرى ، وتعرف أثناء الرحلة بماريا بيرنولي ، كانت تشتغل مع أختها بفن التصوير الفوتوغرافي ، وكان لهما «محل للتصوير» ، وتزوجها في عام ١٩٠٤ . وقد مكّنه نجاح روايته «بيتر كامينتسند» ، والدخل الذي حققه له ، من الانصراف عن العمل في المكتبة ، ومن الحياة كأديب حر . واذا كان زواج هرمن وماريا قد عقد في بازل ، فقد كان من شروطه أن يعيش الزوجان في الريف وبالفعل انتقلا الى قرية «جاينهوفن» وسكنا في نصف بيت من بيوت الفلاحين لا تتوافر فيه وسائل الراحة الأساسية ولكن المنطقة ، قرب كالف ،

كانت منطقة محببة الى نفسه ، فيها المراعي والجبال وفيها بحيرة . وظل هيسه وزوجته في هذا البيت ثلاث سنوات . في عام ١٩٠٥ رزقا بالابن الأول « برونو » وضاق البيت على الثلاثة ، وبخاصة وقد كثر زوار هيسه من المعجبين والزملاء . وحثت ماريا زوجها على ابتناء بيت في القرية نفسها ، وبالفعل أقام هرمن هيسه على سفح الجبل بيتاً يطل على البحيرة مباشرة ، بحيرة أونترزيه . وكان للبيت حديقة أصبحت ، الى جانب الاعمال الادبية ، شغل هرمن هيسه الشاغل . وكان بجوار بيت هيسه بيت جديد ابتناه صديقه القديم الطيب لودفيج فينك ، وقد التهمت النيران هذا البيت ، ذات يوم ، فلم يبق منه شيء تقريباً ، واشترك هيسه مع صديقه في اعادة بنائه . وقد عاودت ذكرى هذا الحريق هيسه عندما كتب «لعبة الكريات الزجاجية» ، فجعل الحريق يلتهم المدرسة ، فيعاد بناؤها على صورتها القديمة تماماً .

شهدت حياة هيسه في جاينهوفن اتصالات كثيرة ، وصداقات عديدة بين الأديب وبين أدباء وفنانين مشهورين في عصره . منهم مثلاً شتيفان تسفايج (صاحب : « رسالة من امرأة مجهولة » ، « أربع وعشرون ساعة من حياة امرأة » و« ماريا ستوارت » و« فوشيه » وغيرها من الروايات التي لاقت شهرة في العالم ، وترجم بعضها الى اللغة العربية) . وكثر اتصال هيسه بالموسيقيين والمصورين . من الموسيقيين نذكر « أوتمارشوك » ملحن أوبرا « الهاربون » التي وضع هيسه كلماتها ، ولحن بعض قصائده ، كذلك نذكر فولكمار أندريه وفريتس برون وادفين فيشر الذين لحنوا الكثير من قصائد هيسه . على أن هيسه كان يتقن العزف على الكمان منذ نعومة أظفاره ، كذلك كانت زوجته ماريا تتقن العزف على البيانو الى درجة توشك أن تكون درجة المحترفين من العازفين . ونجد في كتابات هيسه في ذلك الوقت تمجيداً للموسيقى ، بل نجده يقول أنه كشاعر يسعى الى « اللحن » أكثر مما يسعى الى « مادة » .

أصبح اسم هيسه اذن مشهوراً . ذكرته دائرة معارف ماير المعروفة... وكيف لا ؟ وقد حصل على جوائز التقدير ، وعرضت عليه الجمعيات الادبية

أن يكون عضواً فيها . وفي عام ١٩٠٦ أخرج هرمن هيسه روايته الثانية «تحت العجلة» . وتبعت هذه الرواية روايات ومجموعات قصصية أخرى نذكر منها «الدنيا» و«جيران» و«طرق ملتوية» و«جرترود» . وكان هرمن هيسه في هذه الاثناء يكثر من الكتابة في الجرائد اليومية والمجلات الاسبوعية والشهرية ، وبخاصة في مجلة «مارس» التي كان من مؤسسيها . ولكنه فيما بعد توقف عن ذلك اللون من النشاط واعتبره لونا من عبث الماضي ، وحديثه في رواية «لعبة الكريات الزجاجية» عن عصر صحافة التسلية ينم عن ذلك بلا شك . وبخاصة مجموعات مختارة من الشعر ، نذكر منها «أغاني لشعراء ألمان» ، فريدريش هيبل» و«النبع السحري» . أما اللون الثالث من النشاط الأدبي الذي كان هرمن هيسه يقوم به فهو القاء المحاضرات في الاندية الادبية خاصة ، وكان هذا اللون من النشاط يتطلب كثرة التنقل ، مرة الى فيينا ومرة الى براغ ومرة الى ميونيخ وهكذا . وقد تبين هيسه فيما بعد أن هذا اللون من النشاط كان أيضاً من قبيل العبث . وفي لعبة الكريات الزجاجية اشارة الى مثل هذه المحاضرات الخفيفة ، ودورها المفسد للثقافة .

وفجأة يعود هرمن هيسه الى الحديث عن العزلة ، وعن الاكتئاب ، وعن عدم الرضا بالحياة التي يحياها . تارة يشكو من كثر العمل : الرد على الخطابات ، كتابة المقالات الصحفية ، الرحلات ، المرض ، الزوجة والأولاد (برونو ١٩٠٥ ـ هاينر ١٩٠٩ ـ مارتين ١٩١١) ، ويقول ان تلك أعمال تصرفه عن طريقه الحقيقي وتبعده عن هدفه . فجأة يعود الى نغمة هذه القصيدة :

«ما أعجب السير في الضباب!
الحياة وحدة .
فليس هناك انسان يعرف الآخر .
كل انسان وحيد» .

وسمع في نفسه صوتا يدعوه الى الهرب الى الهند . كانت تربطه بالهند بعض الروابط ، منهـا أن أمـه ولدت هناك ، وأن أباه عـاش هناك فـتـرة من الزمن ، وأن الهند كانت «موضة» في تلك الفتـرة ، فكُثر من معارفه رحلوا اليهـا ، وعادوا بالغريب من الاخبار . وفي سـبـتمبـر عام ١٩١١ سـافر الى ايطاليا ، الى جنوا ، وركب مع صديقه الرسام هانس شتور تسنئيجر الباخرة المتجهة الى الهند . وتجول في الهند وسيلان وسومطرة وبلغ حدود الصين . واستفاد الكثير من الرحلة ، عرف مثلاً ما يردده الصينيون عن القوة التي لا محيص عنها ، وعن المستقبل المؤكد ، وعرف أن الصلة بين الغرب والشرق حقيقة ، ولكن أهل الغرب يصعب عليهم الاندماج في أهل الشـرق ، فقد فرّق بينهم الزمن ، وأصـبح أهل الغـرب كـالمطرودين من الجنة . ولكنه تبـين في أثناء الرحلة شـيئـاً أهم بكثـيـر وهو أن الانسـان يخطئ عندمـا يهـرب من مشـاكله . من كانت لديه مشكلة ، فعليه أن يجابهها ، وعليه أن ينظر في نفسـه ، وأن يغوص في نفسه الى الاعماق . وفهم هرمن هيسـه فوق هذا وذاك أن عليه أن يبذل الجهود المتواصلة ليسيغ الفكر الغربي والفكر الشـرقي . وقد استمر هذا الأعوام والأعوام .

وعاد هرمن هيسه الى أوربا ، ليجد حياته . فقرر أن يترك بيت جاينهوفن وأن ينتقل الى المدينة . وفكر في دريسدن في ميونيخ ، ولكن زوجتـه أصرت على أن يكون الانتقال الى مدينة سويسرية ، فانتقلت عائلة هيسه الى برن في سبتمبر ١٩١٢ والمؤكد أن العلاقات بين هرمن وزوجتـه كانت سيئـة ، يؤكد ذلك ما نقرؤه في بعض خطاباته في تلك الفترة : «لقد أصبحت علاقتي بعائلتي منذ عدة سنوات مقصورة على أن أعذب نفسي لكي أوفر لها المـال اللازم...» أما الخطابات التالية فتتحدث عن الحياة الزوجية الفاشلة ، وعن زواج الفنان عامة ، هل يؤدي الى الاستقرار أو الى الاضرار بالابداع الفني . ويكاد الانسان يجزم بأن زوجة هيسـه كانت عصبية المزاج يدل على ذلك أنها أصبحت بما يشبه الجنون في عام ١٩١٦ وأدخلت المصحة .

في الفترة بين عودة هيسة من الهند وقيام الحرب العالمية الأولى ظهرت مجموعة من القصص اهمها «بيت الأحلام» و«ثلاث حكايات من حياة كنولب» . كان كنولب هذا رجلاً يضرب في الأرض لايتخذ لنفسه سكنا بعينه ، بل يلوذ دائماً بنفسه... يعيش وحيداً فيها ، لا يؤرقه صديق ولا حبيبة ، ويسعد بالمروج والجبال والطبيعة الصافية ، ولكنه لايجد ضالته . وتنتهي قصة كنولب بكلمات يوجهها اليه الرب : «لم يكن في المستطاع استخدامك الا على هذا النحو... أنت ابني وأخي وقطعة مني ، وأنت لم تذق شيئاً ولم تعان من شيء إلا وكنت فيه معك» .

فلما قامت الحرب العالمية الأولى كان من بين القلائل الذين عارضوها ، وظلوا يعارضونها الى أن انتهت الى لا نهاية . وقد أدى هذا الموقف الذي وقفه هيسه الى كثرة نقاده ومهاجميه ، وظل هيسه في نظر الحكم النازي مثلاً على الاديب اللين ، المائع ، الذي يفتقر الى الشهامة والشجاعة والرجولة . حتى دارت الأيام دورتها وأكدت صدق نظرته ، وجعلت الصواب كل الصواب في جانبه . كانت سنوات الحرب مليئة بالعذاب بما لقيه هيسه في داره وأهله :

« سنوات بلا بركة .
عاصفة على كل الطرق
فلا وطن في أي مكان
بل ضلال وخطأ » .

وأصيب هرمن هيسه بالاكتئاب ، وساءت حاله نفسياً وجسمانياً وبخاصة بعد موت أبيه ، ومرض ابنه الأصغر مرضاً كاد أن يقضي على حياته ، ومرضت زوجته عقلياً ، ولجأ هيسه الى العلاج النفسي ، واستعان بالدكتور برنهارد لانج تلميذ العلامة النفساني الشهير يونج فأفاده هذا العلاج فائدة كبرى ، وفتح السبيل أمامه الى معرفة مدرسة أو مدارس التحليل

النفسي ، والافادة بمناهجها في فنه . لم تكن هذه هي المحنة الأولى التي تعرض لها . لقد انشق ما بينه وبين العالم ، وأصبح العالم في جانب وهو في جانب وبين الجانبين صدع عميق ، أعمق من قبل . كان في الثالثة عشرة من عمره آنذاك ، وتحول من تلميذ مطيع الى انسان يريد أن يحترف الشعر ، تحول من تلميذ منتظم الى فنان صغير سمع صوت الالهام ، وصوت الالهام اذا رن في جوانب النفس لا يسكت . وكان ان وقف هو في جانب وأهله في الجانب الآخر . واضطرب في المدرسة وفي العمل ، ولم يفلح ، حتى تمالك نفسه ، وتولى زمام أمره فحقق أحلامه . وكذلك في الأزمة الثانية . يقول :

«فأصبحت أخفق في كل أمر ، كحالي في الأزمة الأولى ، وأصبحت وحيداً يائساً ، وأصبح الناس يسيئون فهم كل أقوالي وأفكاري ، ويفعلون ذلك بدافع العداوة ، وأصبحت أرى هوة سحيقة كلها يأس تفصل بين الواقع وبين ما يلوح لي جديراً بالرغبة ، معقولاً طيباً... ولم يدم بي هذا الحال طويلاً ، حتى رأيتني مدفوعاً الى الاقرار بأن البحث عن أصل محنتي لا يصح أن يتجه الى ما هو خارج عني ، بل ينبغي أن يتجه الى داخلي ، وأيقنت أنه لا يحق لانسان ، أن يتهم الدنيا كلها بالجنون والغلطة ، وأن محنتي تعني أن الكثير من الاضطراب يعتمل بداخلي ما دمت أجدني مصطدماً مع الدنيا كلها ، وبحثت في نفسي فوجدت فيها بالفعل اضطراباً عظيماً » .

وبدأ هرمن هيسه من جديد . وكانت هذه البداية متمثلة في روايته : «دميان» ، التي يعالج فيها مشكلة المراهقين ومايتعرضون له عندما يبارحون بيوت أهليهم ، ويخرجون الى العالم الخارجي . وقد تبلور اهتمام هيسه بمشكلة المراهقين وتربيتهم في «لعبة الكريات الزجاجية» في شخصيات الصغار الذين يبعدون عن العالم ويحجزون في اقليم منعزل . وقد نجح «دميان» (١٩١٩) نجاحاً كبيراً يذكر بنجاح «بيتر كامينتسند» وكثر النقاش حوله . وقد وصف توماس مان أثر هذه الرواية بقوله انها « كهربت جيل العائدين من الحرب العالمية الأولى وانها كانت بدقتها البالغة تمس

عصب الحياة» ـ وتبع رواية دميان ـ التي ظهرت أول ما ظهرت تحت اسم مستعار ـ كتيب هو «عودة زرادشت» يتكلم لغة شبيهة بلغة «دميان» ، ويؤكد على أهمية الفرد كفرد ، وعلى ضرورة الحياة لمفهوم الفردية المطلقة . ويعتبر هذا الكتيب محاولة من هيسة لتشجيع الجيل الذي خسر الحرب على الاتجاه الى آفاق جديدة ، على فهم نفسه ، وعلى خلق حياة جديدة . وفيه عودة الى المشكلة الاساسية في نظر هيسه : مشكلة العلاقة بين الفردية والجماعية .

كانت حياة هيسه العائلية قد تحطت : الزوجة في المصحة ، الأولاد في مدارس داخلية وفي رعاية معارف أو أصدقاء ، البيت مقفول . كان هرمن هيسه على حد قوله قد أغلق شباكه وأغلق قلبه . وكانت حياته ـ على حد قوله هو أيضاً ـ قد استحالت الى حطام . وحزم هيسه كتبه ومتاعه وانتقل الى سكن آخر ، الى جنوب سويسرا ، الي تيسين . وتنقل في اماكن مختلفة في تيسين الى أن استقر في لوجانو مونتانيولا في مايو ١٩١٩ . وهناك خلا الى نفسه ليصحح ما فسد منها ، وليعدها لحياة جديدة ، وليعيدها الى النشاط . «... ان روحي هي قطعة من تطور الانسانية ، وان كل انتفاضة مهما كانت من الصغر لها أهميتها التي تشبه أهمية الحرب والسلام في العالم الخارجي...» واهتم بالرسم وكثيراً ما حمل أوراقه وقلم الفحم ورسم ما يتراءى له ، أو رسم أحلامه . وانتج عدداً من القصص منها مجموعة باسم «صيف كلينجسور الأخير» ، واشترك في مجلة «فيفوس فوكو» التي كان ينشر فيها وبخاصة مقتطفات من مؤلفاته الجديدة ، وكان دخله من هذا العمل يكفي للصرف على الأولاد . كذلك نشر مجموعة من القصائد المختارة في عام ١٩٢١ وعمل بجد في رواية «سيدهارتا» التي تمت وخرجت للناس في عام ١٩٢٢ ، في جزأين ، الأول مهدى الى الأديب الفرنسي رومان رولان (كتذكار لمساندته إياه في مطلع الحرب العالمية الأولى) والثاني مهدى الى فيلهلم جوندرت ابن الخال المتخصص في لغات

وآداب وفلسفات شعوب آسيا . ولا شك أن هذه القصة الهندية تعتبر بداية لصياغة ما أفاده من رحلة الهند ، وهي كغالبية روايات هيسه ، قصة حياة انسان ، قصة نموه ، هذا الانسان هنا هو سيدهارتا الذي ترك مسقط رأسه وسعى لنيل عالم الروح فكان تارة يصل الى الروحانية ، وتارة يتخلى عنها ويضطرب في المادية . وأخيراً تعلم شيئاً من الاسرار فرأى ان الدوام وراء مظاهر الفناء ، والوحدة وراء مظاهر الاختلاف . وكلمة سيدهارتا تعني بالسنسكريتية : من بلغ هدفه . ولقد بلغ الرجل هدفه عندما فهم سير النهر ، الا وهو الانسجام . ولقد بين هيسه في هذه الرواية مدى فهمه للفكر الهندي والصيني معاً[1] .

وفي عام ١٩٢٣ حصل هرمن هيسه على الجنسية السويسرية . وفي العام نفسه حصل على الطلاق من زوجته الاولى . وتزوج في العام التالي من روت فينجر ، ابنة الأديبة السويسرية ليزا فينجر . ولكن هذه الزيجة لم يكتب لها التوفيق ، فسرعان ما ظهرت الصعوبات التي جعلت الحياة المشتركة مستحيلة ، وانفصمت عروة الزواج في عام ١٩٢٧ . وعاش هرمن هيسه في بيته في مونتانيولا ، وتارة في زيوريخ عند أصدقاء له من أيام رحلة الهند ، وتارة أخرى متنقلاً هنا وهناك . وانتج في هذه السنوات «ضيف في حمامات الاستجمام» (١٩٢٥) «وكتاب الصور» «ورحلة نورنبرج» (١٩٢٧) و«ذئب البطاح» (١٩٢٧) . في «ذئب البطاح» يقدم هرمن هيسه بطلاً لا ينتهي الى السعادة ولا ينتهي الى البؤس ، بل لا ينتهي على الاطلاق ، انه يتنقل من سعادة الى بؤس ، ومن ضحك الى بكاء ، في لعبة دائمة . ويتوصل الى أن هناك مظاهر زائلة عديدة من حرب وتكنيك ومال وجاه ، تخفي وراءها المثل العظيمة الحقيقية التي لا يتمكن انسان من مسها . وفي هذه الرواية عناصر هامة تقربنا من رواية «لعبة الكريات

(١) نحيل القارئ الى كتاب «الطريق والفضيلة» تأليف لاوتسي وترجمة د . عبد الغفار مكاوي ، الذي تشرفت بمراجعته ، فهو حجر الزاوية في الفكر الصيني . (الالف كتاب ٦٢٤) . (المترجم)

الزجاجية» منها : المسرح السحري وموسيقى موتسارت . «الدنيا لها معنى ، معنى يمكن الاحساس به في تشبيه هو الموسيقى» .

وبدأت في هذا العام الحافل صلة هرمن هيسه بـ «نينون دولبين» تتحول من مكاتبات ، الى صداقة ، والى حياة مشتركة معاً . وكانت نينون نمساوية الاصل متخصصة في تاريخ الفنون ، فتلاقت الاهتمامات وتهيأ الطريق لزيجة سعيدة ، عقدت عروتها في عام ١٩٣١ واستمرت حتى مات هرمن هيسه... وترك الزوجان هيسه البيت القديم وانتقلا الى بيت كبير بناه لهما الصديق الدكتور بودمر ، وتركه لهما هبة مدى الحياة . وكان هذا البيت مطابقاً لرغباتهما متفقا مع تصوراتهما : كان أعلى المونتانيولا ، يتوارى وراء الغابة ، ويطل على بحيرة لوجانو الى شاطئها الايطالي ، ويرى الناظر منه سان سالفاتوري وقمم مونتي جينيروزو . وكان هرمن هيسه يقضي وقته في هذا البيت «وكازا هيسه» بين المكتبة العظيمة التي خصها بكتاب وصفها فيه هو «مكتبة الآداب العالمية» ، وبين الحديقة التي زرع فيها الأشجار والأزهار المعروفة الغريبة ، وأتاح لقلبه ووجدانه وعقله امكانية الاختلاط بالطبيعة عن أقرب قرب .

وكان نشاط هرمن هيسه الأدبي يتجه في ناحية منه الى نشر مؤلفات الشعراء الرومانتيكيين الألمان ، وأعمال تاريخية وأدبية من العصر الوسيط ، ومجموعة من قصائد جوته بمناسبة مرور ١٠٠سنة على وفاته (١٩٣٢) واعداد دراسة عن الرومانتيكية الألمانية التي كان يتعلق بها أشد التعلق ، ويعرف لها فضلها عليه في الولوج الى عالم أسرار الطبيعة وعالم الفكر الهندي والفكر الصيني . كذلك استمر نشاط هرمن هيسه في كتابة مقالات النقد ومناقشة الكتب ، حتى بلغ عدد المقالات التي كتبها حوالي الألف ، وتوقف هرمن هيسه عن كتابة هذه المقالات النقدية بعد الحرب العالمية الثانية . وكان بيت هرمن هيسه على المونتانيولا ملجأ للمناهضين والمعارضين للحركة النازية في ألمانيا . فيه توثقت صلته بأدباء ومفكرين مثل توماس

مان (صاحب الروايات الفذة : «أسرة بودنبروك» ، «الجبل السحري» ، «نشأة دكتور فاوستوس» وغيرها) الذي صوره هرمن هيسه في «لعبة الكريات الزجاجية» في شخصية توماس فون درترافه ، ومثل كريستوف شريمف عالم اللاهوت الشفابي مترجم كيركجورد الذي لقي معاملة قاسية من الكنيسة ، بلغت حد الطرد ، نتيجة لأفكاره الحرة ، والذي ذكر هرمن هيسه بشخصية بنجل ، وبنشاط اللاهوت الشفابي في المانيا عموماً ، ما نجد اشارة عليه في «لعبة الكريات الزجاجية» . وقد تبع موقف هرمن هيسه المناهض للفاشية الألمانية هجوم الصحافة النازية عليه بصفة مستمرة . ولكنه كما ظل مناهضاً للحرب العالمية الأولى ، ظل متمسكاً بمناهضة الفاشية ، التي توقع الشر كل الشر على يديها . وقد كتب في ذلك الوقت قصيدة جاء بها :

«خير للانسان أن يموت على يد الفاشيين
من أن يتحول هو الى أحد الفاشيين» .

في عام ١٩٣٠ اخرج هرمن هيسه للناس روايته العظيمة «نرتسيس وجولد موند» التي لقيت نجاحاً لا يقل عن نجاح «ذئب البطاح» ثم نشر بعض القصائد والمؤلفات الخفيفة مثل «أوراق للذكرى» . وفي العام التالي ، عام ١٩٣١ ، بدأ العمل في كتاب العمر : «لعبة الكريات الزجاجية» .

وقد مهد هرمن هيسه لرواية لعبة الكريات الزجاجية ، التي يهديها الى «رحالة الشرق» ، بقصة «رحلة الشرق» الجميلة التي أتمها في ابريل عام ١٩٣٠ . وتدور هذه القصة حول رابطة من اختراع هرمن هيسه تضم جماعة من الناس يسمون أنفسهم «رحالة الشرق» هؤلاء الناس بعضهم من أهل الماضي ، وبعضهم من أهل الحاضر ، يجتمعون على رحلة في طلب العلم ، تجوال من أجل المعرفة ، ومادام الهدف هو العلم والمعرفة والنور فمكانه جغرافياً هو : الشرق . وليس هذا الشرق مكاناً محدداً ، فالقصة لا تتقيد

بزمان ومكان ، هذا الشرق هو «وطن الروح وشبابه ، هو مكان في أي مكان وفي غير مكان ، هو زمان اتحدت فيه كل الأزمان» . وهكذا نرى رحلة رحالة الشرق تأخذهم الى الماضي والحاضر والمستقبل ، وتأخذهم الى ايطاليا والى سويسرا والى مناطق موجودة أو خيالية . في هذه الرواية تخطيط أولي لأقليم لعبة الكريات الزجاجية : النظام الهرمي ، اللافردية ، اقليم الفكر ، دار المحفوظات «الأرشيف» ، وحدة الثقافات ، وحدة قاطعات الثقافة ، البراءة ، الصفاء ، الطفولة أو الصبيانية .

وهرمن هيسه يضع نفسه في داخل الاطار الروائي كعادته في كل أعماله السابقة والتالية ، وهو هنا «الموسيقار هـ . هـ» . عضو رابطة رحالة الشرق . الموسيقار هـ . هـ . يسعى الى المثل التي تتخذ منها الطائفة اهدافاً ، ولكنه يتعرض للشك واليأس ويعتقد أن الرابطة قد تدهورت ، أو أنها تقوم على غير أساس ، وإلا فما معنى فشله ؟ ويحتاج الأمر الى محكمة تقول كلمة العدل في قضية الموسيقار هـ . هـ . الذي سعى الى المثل العليا على طريق الرابطة الفكرية فلم يصل إلا الى اليأس . ويأتي حكم المحكمة على هيئة حكمة انسانية عميقة : اليأس شيء يعتري المفكر الذي يحاول جاداً أن يفهم الحياة الانسانية وأن يجد لها ما يبررها ، اليأس شيء ينتهي اليه المفكر الذي يحاول جاداً أن يعيش الحياة على أساس العدل والعقل والفضيلة . واليأس خط يقسم الانسانية الى حزبين : الى هذه الناحية منه الصبية ، والى تلك الناحية وراءه الكبار .

بقصة «رحلة الشرق» يدخل هرمن هيسه في مرحلة التعبير بالرموز والكنايات . والتعبير بالرموز والكنايات عند هرمن هيسه تعبير فوق واقعي ، ولكنه يعتمد اعتماداً كبيراً على الواقع ، إنه تعبير فيه تعلية وترفيع للواقع في جو فيه الجد الشديد والتهكم اللطيف . ترى الأشخاص المرسومين على هيئة رموز في الرواية ، هم أشخاص عالمه الحقيقي : هو شخصياً ، هانس بودمر ، شوك... الى اخرهم . وهرمن هيسه يكثر من الحديث عن المفاتيح ،

والمفاتيح بين الرمز والواقع ، في دار المحفوظات . وأعماله المتأخرة خاصة تحتاج الى مفاتيح ، وقد تمكن النقد من معرفة أكثرها .

واشتغل هيسه بدأب لا مثيل له في كتابة «لعبة الكريات الزجاجية» . وأخرج بعض أجزاء منها في مجلات . واحتاج تأليف الرواية الى دراسات عميقة في ثقافة القرن الثامن عشر في أوروبا ، والى دراسة الحركة التقوية في شفابن ، والى دراسة الموسيقى . كانت أفكار الرواية وعناصرها حاضرة في ذهنه منذ سنين ، ويمكننا أن نجدها مبعثرة في المؤلفات السابقة ابتداء من «بيتر كامينتسند» : الموسيقى كنواة الثقافة ، التأمل . في رواية بيتر كامينتسند نقرأ عن نيتشه وفاجنر ، نقرأ عنهما كلاماً عاماً . والى الاثنين يرجع الجهد المجدد في رد الثقافة الاغريقية ، أم الثقافة الاوروبية ، الى نواة هي التراجيديا ، ورد هذه النواة الى نواة أولى أكثر عمقاً وصفاء وقدماً هي الموسيقى . ويكفينا أن نشير الى كتاب نيتشه «مولد التراجيديا من روح الموسيقى» والى كتابات فاجنر النظرية جميعاً . ونحن عندما نقرأ خطابات هيسه الى أسرته في شبابه نجد منه اهتماماً بنيتشه وفاجنر ، ونجده يقول مثلاً ان موسيقى شوبان تملك عليه نفسه وفكره ، وانها بالنسبة اليه كموسيقى فاجنر بالنسبة الى نيتشه . وأما التأمل فهو أعظم ما أتى به من الهند والصين ، وما استخلصه من الرومانتيكية الألمانية . هذه هي لعبة الكريات الزجاجية :

... وتبدأ في وجداني
لعبة أفكار ، اهتممت بها منذ سنين
اسمها لعبة الكريات الزجاجية ، اختراعة جميلة ،
هيكلها الموسيقى ، وأساسها التأمل .

(من قصيدة كتبها في عام ١٩٣٦)

واللعبة من ناحية شكلها وليدة ملاحظات متعددة لاحظها الشاعر . من بين هذه الملاحظات ملاحظة الشاعر الحكيم للصبية وهم يلعبون ويحسبون

بالاستعانة بأداة بين اللعبة وبين الجهاز العلمي المبسط هو ما يسمى : العدّاد ، وهو اطار من الخشب به أسلاك مشدودة وعليها كريات خشبية بسيطة مرتبة . انها لعبة بالحساب ، بالاعداد . والعلوم الرياضية تحتل في ترتيب العلوم المكان الثاني بعد الفلك ، وكذلك الاعداد تعتبر مادة مشتركة بين الرياضيات وبين التصوف . اذن فهذه الكريات البسيطة في مظهرها تمثل مضامين هامة . ـ ومن بين ملاحظات الشاعر الحكيم ، ملاحظته للفقاعة ، تلك الكرية التي لا تكتمل الا لتتحطم . وقد جاءت صورة الفقاعة أكثر من مرة في كتاباته النثرية والشعرية ، كرمز للوجود الانساني ، وقد اختار شيئاً وسطاً بين الكرية الخشبية ، وبين الفقاعة : كرية من الزجاج ، (بلية) ، هشة ، تصلح للعب وتصلح للجد . ولسنا نعرف شكل لعبة الكريات الزجاجية بالضبط ، فهرمن هيسه لا يصفها ، بل يلمح اليها تلميحاً . وهو يفضل ان يتحدث عنها بأسلوب فوق واقعي . فليس المهم فيها شكلها ولا طريقة معالجتها ، ولكن المهم فيها انها تعبر تعبيراً متكاملاً منسجماً عن الثقافة ، وعن مضامين الفكر جميعاً ، أو هي ، على الأصح ، قادرة على هذا التعبير ، وعلى المشتغلين بها أن يزيدوها اتساعاً وشمولاً باستمرار . ويكاد هرمن هيسه أن يكون في لعبته المبتكرة معبّراً عن فلسفة شيللر الجمالية التي ترد نشاط الانسان كله الى صورة واحدة هي «اللعب» وترى أن الانسان لا يعبر عن نفسه أكمل تعبير الا عندما يلعب .

هذه اذن هي لعبة الكريات الزجاجية . فأين مكانها ؟ وأين زمانها ؟

مكانها اقليم منعزل عن الدنيا اسمه كاستاليا . وكاستاليا كلمة لها معناها عند اليونان فهي النبع المقدس في البرناس عند دلفي ، النبع الذي يرمز الى الشعر . وكاستاليا لها معناها في الفكر الألماني الحديث : فقد جعل منها أديب ألمانيا الأكبر يوهان فولفجنج جوته علماً على الاقليم التربوي الذي تخيله في روايته التربوية العظيمة «سنوات تجوال فيلهلم مايستر» . هذا الاقليم التربوي عند جوته هو الاقليم الذي أدخل فيه فيلهلم

ابنه فيليكس (=السعد) لينال التربية المثالية . وهو اقليم خصب الأرض فيه صبية وشباب (ذكور) يتعلمون طبقاً لنظام هرمي يذكر الانسان بجمهورية أفلاطون . وتهتم التربية بتنمية الاستعدادات الجسمانية والفكرية معاً في شكل منسجم ، وتجمع بين اللعب والعمل في كيان جماعي صارم بهيج . ويرأس الاقليم هيئة من الحكماء . والمثل الأعلى فيه هو الاحترام . وهذا الاحترام الذي يختلط بمفاهيم التقوى والعبادة ، يجمع كل شيء ، وكأنه هو الأساس الفكري للاقليم . وتؤدي تربية فيليكس في هذا الاقليم الى سعادته في النهاية ـ ولقد استمد هرمن هيسه الكثير من المفهوم اليوناني والمفهوم الجوتوي لكاستاليا . ولكنه أعطى لاقليمه صورة أكثر وضوحاً واكتمالاً . فهذا الاقليم يضم مدارس الصفوة ويضم قرية اللاعبين ويضم معاهد مختلفة ويضم دار المحفوظات أو الارشيف ، ويرعى الاقليم الثقافة ، وينشىء الطبقة التي ترعى الثقافة الانسانية وهي طبقة «لاعبي الكريات الزجاجية» . والناس في الاقليم كلهم من الذكور ، يعيشون كالرهبان ، عيشة متقشفة زاهدة ، لا يريدون شيئاً من عرض الدنيا ، وينكرون ذواتهم كل الانكار ، وينضوون للنظام الهرمي كل الانضواء . وهذا النظام الهرمي نظام له درجات ، وله ديوان أو دواوين وله هيئة عليا ، وله ادارة تملك السلطة . ثم هناك لجنة مشتركة من أهل الاقليم التربوي ومن الحكومة في الخارج ، لأن الحكومة ، أو الدولة هي التي تنفق على هذا الاقليم ، مؤمنة بضرورة بقائه ، مسفيدة من المدرسين الذين يبعث بهم الاقليم الى مدارس الدولة في الخارج للتعليم . وهناك تشابه بين هذا النظام الهرمي وبين نظام الطائفة اليسوعية ، أو نظام الطائفة الماسونية . ولكنه مع ذلك يختلف عنهما كل الاختلاف ، فهو نظام لا شأن له بالسياسة ولا شأن له بالدين والتبشير ، وهو نظام برنامجه واضح ، ومؤسساته فوق الأرض ، فلا هو تكوين سرى ، ولا هو تكوين غامض . المهم في هذا النظام أنه جماعي ، وأنه لا يسمح بالفردية ، وأنه منعزل لا يسمح بالاختلاط بالدنيا وما فيها من حياة ، وأنه يشتغل بالفكر فحسب .

وإذا كان مكان كاستاليا الهيسية محدداً في حد ذاته ، فإننا لا نعرف مكانه من العالم . ولكنه على اية حال في أوروبا ، في مكان ما بأوروبا .

والسؤال الثاني هو السؤال عن زمان اللعبة . إنه المستقبل : القرن الخامس والعشرون على الأرجح ، فالكاتب لايحدد قرناً بعينه . انه يقول انه قرر أن يجعل زمن روايته المستقبل ، عندما سمع أن هتلر ومعاونيه يغرقون الدنيا بالأكاذيب ويدبرون للانسانية الخطر كل الخطر . انه يتجاوز عصراً يسميه أحياناً عصر الحروب ويسميه أحياناً أخرى عصر صحافة التسلية . أما عصر الحروب فيقصد به خاصة عصر الحربين العالميتين ، وقد عاش الكاتب أيام الحرب العالمية الأولى مناهضاً لفكرة الخراب ، ونشر رواية «لعبة الكريات الزجاجية» ونيران الحرب العالمية الثانية مشتعلة على أشدها ، وميزان النصر في صالح الجيوش النازية . والعصر المسمى بعصر صحافة التسلية ، هو عصر السطحية ، هو العصر الذي مجّد الفرد الى أشد درجات التمجيد ، والذي وصل بحركة تحرير الفكر والعقيدة الى طور مرضي شاذ . وأبرز شيء في هذا العصر هو الانتاج «الثقافي» الضخم المتمثل في مقالات الجرائد المتعجلة ، ومحاضرات من يسمون بالمفكرين الأحرار ، ومجموعات الطرائف التي كانت تفرض على العلم فرضاً . هذان العصران ـ وربما كانا عصراً واحداً ـ يتسمان بصفات هي عكس الصفات الكاستالية على خط مستقيم . فقد تجردت فيهما الانسانية من الاعتدال والنظام الفكري ومن الأدب والاحترام ، وأصيبت الانسانية بالاضطراب والبلبلة الفكرية والحمق والغلظة والعنف .

في هذا الزمان والمكان يحكي هرمن هيسه ، أو على الاصح ، يحاول أن يحكي قصة أستاذ لعبة الكريات الزجاجية يوزف كنشت ، قصة رجل كان اسمه «عبد» ولكنه كان «سيدا» . والقصة من نوع روايات النمو ، أي الروايات التي تتبع نمو شخص معين وتصفه في مراحله المتتالية . والقصة تتبع في هذا القالب خطاً مصدره الهند ، هو خط التناسخ . فما تنتهي القصة

حتى يبدأ الكاتب من جديد ، متعللاً بنشر مخلفات يوزف كنشت ، فيحكي ثلاث قصص ، يريد من ورائها أن يوحي بقبوله فكرة تناسخ الأرواح ، ودوام الثقافة ، أو دوام روح الثقافة ، وإن ظهرت في هيئات مختلفة ، كما تظهر الروح الانسانية الواحدة في هيئات مختلفة بمر القرون ـ ويتشبث هرمن هيسه بالمنهج التاريخي العلمي المجرد من فلسفة سبقية مفروضة ، فيفرق بين المعلومات المعتمدة على وثائق ، والمعلومات الواردة على لسان شهود ثقات ، والحكايات الشائعات والأساطير . واهتمام هيسه بالتاريخ قديم تشهد به روايته الأولى «بيتر كامينتسند» التي نجده فيها مهتماً بدراسة التاريخ ، وبخاصة تاريخ الأولياء وعلى وجه التحديد تاريخ حياة القديس فرانتشيسكو الأسيزي الذي كان يؤمن بأخوة الناس والكائنات جميعاً ـ ويخرج هرمن هيسه من المنهج التاريخي الى المنهج الصوفي عندما يدور الحديث عن الطبيعة أو عن الأولياء . هنا نراه يهتم بالاندماج والتأمل ، والصفاء ، والمرح والنورانية .

بطل الرواية يوزف كنشت يدخل الدنيا الكاستالية بديلاً لأستاذ الموسيقى الكبير القديم ـ فكرة قريبة من فكرة التناسخ ـ كلما ازداد أستاذ الموسيقى الكبير ضعفاً ، ازداد يوزف قوة . واللقاء الأول بين يوزف وهذا الولي أو القديس ، يعد بمثابة الهام نزل على وجدان الصبي يقول له : ان رسالة تنتظرك ، ان لك في المستقبل لشأناً عظيماً . وأهم ما يتميز به يوزف هو الموهبة الموسيقية الخارقة ، واليها تنضم مواهب أخرى تجلعه صالحاً لمدارس الصفوة التي تنتقي لاعبي الكريات الزجاجية في المستقبل . ويتطور يوزف ، وينمو في داخل كاستاليا ، وتتاح له فرصة اثبات اخلاصه للفكر الكاستالي ، فترسله الهيئة العليا في كاستاليا ، ليقوم بمهمة في دير ماريافلس ، الدير البندكتيني ، فيلتقي هناك بالأب ياكوبوس (وهي شخصية رسمها نقلاً عن شخصية المؤرخ الكبير ياكوب بوركهارت) الذي يفتح عينيه على أشياء هامة على رأسها الواقع الحاضر ، الواقع التاريخي . ويموت أستاذ

لعبة الكريات الزجاجية توماس فون در ترافه (وهي شخصية منقولة عن شخصية توماس مان) وينتخب يوزف كنشت خلفاً له . ولكن يوزف كنشت يتبين نقطة الضعف في الكيان الكاستالي ، وهي بعده عن المفهوم التاريخي ، بعده عن واقع الناس . ويلتقي يوزف كنشت ببلينيو ديزنيوري ، صديق التلمذة وممثل الدنيا الواقعية ، ويتحدث معه حديثاً يتبين منه أن الاقليم الكساتالي بعزلته وبتعمده الابتعاد عن الدنيا ، يقضي على نفسه بالفناء ، ويظهر هذا الفناء في شخصية تيتو ، ابن بلينيو ، الذي عجز والده عن تربيته ، في حين أن الاقليم التربوي قائم يمارس نشاطه . فماذا لو ظهر جيل كله من أمثال تيتو ؟ من المسؤول عن تدهور هذا الجيل ؟ أين العلاقة بين الثقافة المجردة ، وبين التربية ، بين الثقافة في أعاليها وبين المحتاجين اليها في الدنيا ؟ ـ ويقرر يوزف كنشت الخروج من الاقليم المنعزل ، والنزول الى الدنيا ، مؤمناً بفلسفة كاستالية مطورة ، ليعمل مدرساً ، كي يربي ابن لينيو . ولكنه في اليوم الاول يموت غرقاً ، يموت ميتة كميتة الأولياء ، ميتة هي في حقيقتها رجوع الانسان الى جوهر الطبيعة : انه يغرق في الماء وفي النور في الجبل وفي الغابة .

وأعظم ما في رواية لعبة الكريات الزجاجية ، الى جانب أسلوبها الفذ ، مضامينها الانسانية . الانسانية هي شغل هيسه الشاغل ، انها في رأيه تبقى وتسعد بالحقيقة ، بالصفاء ، بالانسجام ، بالاعتدال بالفكر ، بالروح ، بالتأمل ، بالعقل ، بالمعيار ، بالشجاعة . وهرمن هيسه يعرف لهذا كيف يقدر القرن الثامن عشر تقديراً خاصاً فهو عصر التنوير الفلسفي ، والتنوير الصوفي معاً ، عصر يوهان زباستيان باخ الذي ارتفع بالموسيقى الى قمة توشك ان تكون اسطورية ، وهذه وحدها حقيقة تكفي ، حسب حكمة الصينيين ، للقول بأن العصر كان عصر ازدهار للناس . كان قدماء الصين يقيمون حكمهم على ازدهار أو تدهور الدولة بكل نواحيها ، على الموسيقى . الموسيقى المنسجمة علامة العصر المزدهر ، الموسيقى النافرة علامة العصر المتدهور .

ونحن اذا أخذنا بأن شخصية توماس فون در ترافة هي شخصية توماس مان ، وبأن شخصية يوزف كنشت هي شخصية هرمن هيسه ، أمكننا القول بأن نهاية قصة لعبة الكريات الزجاجية تعد مقارنة بين مذهبي الأديبين الكبيرين ، وتعد نقداً موجهاً من هرمن هيسه الى توماس مان . الاستاذ توماس فون در ترافه يمثل في الرواية الاستاذ العظيم المتمسك باللعبة كشيء قائم بذاته ـ اللعبة تساوي الثقافة ـ والاستاذ يوزف كنشت يضيف الى هذا المفهوم عنصراً آخر هو عنصر الواقع والتاريخ على اعتبار أنه واقع ، وعلى اعتبار أنه علم أو ايديولوجية . وليس هناك ما يحمل على القول بأن المدرسة الأولى فشلت بانصراف كنشت عن كاستاليا ، وكذلك نهاية كنشت نهاية رائعة من الناحية الصوفية ، ولكنها ربما حملت معنى الفشل من الناحية الواقعية .

ونحن عندما نقرأ رواية لعبة الكريات الزجاجية نحس شيئاً من استهتار الكاتب بقالب الرواية ، بل اننا نكاد نقول انه يكسر عناصر مثل التشويق ، والتستر على النهاية ، ويذكرها مبكرا مسبقا . وليس في هذا ما يدهش ، فهي عمل أقرب الى الكتاب منه الى الرواية بمعناها الفني المعروف .

وبنهاية رواية لعبة الكريات الزجاجية تنتهي حياة هرمن هيسه الأدبية تقريباً . في الفترة التالية للحرب مباشرة نجده مشغولاً بكتابة ردود على الخطابات الكثيرة التي وردت اليه تطلب الرأي والنصح بعد الكارثة . أو نراه يدافع عن نفسه علناً في الجرائد بعد أن كثر اتهامه بالوقوف من بلاده أثناء الحرب موقف المهاجم لسياستها ، ما أساء اليها ، وماكان وقوفه ضد وطنه ، بل كان وقوفه ضد النازية والفاشية اللتين سببتا للدنيا كلها تقريباً من الخراب ما يعجز القلم عن وصفه . وفي عام ١٩٤٦ حصل هرمن هيسة على جائزة نوبل ، وحصل في العام نفسه على جائزة جوته ، وفي عام ١٩٤٧ حصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة برن وفي عام ١٩٥٠ حصل على جائزة فيلهلم رابه الالمانية وفي عام ١٩٥٥ على جائزة السلام الالمانية وعلى

جائزة الاستحقاق الفرنسية . ورأى الطبعة الكاملة لمؤلفاته الهامة بين يديه ، ورأى أكثر من كتاب من كتبه مترجماً الى لغات كثيرة .

كان هرمن هيسه في السنوات العشر الاخيرة يعاني من الشيخوخة ومن المرض عامة ، وفي عام ١٩٦١ أصيب بمرض خطير في الدم هو اللويكيميا ، واضطر الى ملازمة البيت وفي اليوم الثامن من أغسطس ١٩٦٢ استمع الى سوناته على البيانو لموتسارت ، واستمع الى زوجته تطالع له كعادتها شيئاً من الكتب ، ونام فلما أشرق نهار التاسع من أغسطس كان هرمن هيسه قد مات بنزيف في المخ . مات الانسان الأديب الفنان الحكيم الذي كرس حياته لخدمة الانسانية المتآخية والثقافة السوية التي تنفع الناس .

د . مصطفى ماهر

لعبة الكريات الزجاجية

محاولة كتابة تاريخ حياة الماجستر لودي يوزف كنشت

مذيلة بما خلفه من كتابات

أخرجها

هرمن هيسه

إهداء

إلى رحّالة الشرق

لعبة الكريات الزجاجية

محاولة تأليف مدخل الى تاريخها

يفهمه عامة القراء

تمهيد

....non entia enim licet quodammodo levibusque hominibus facilius atque incuriosius verbis reddere quam entia, verumtamen pio diligentique rerum scriptori plane aliter res se habet: nihil tantum repugnat ne verbis illustretur, at nihil adeo necesse est ante hominum oculos proponere ut certas quasdam res, quas esse neque demonstrari neque probari potest, quae contra eo ipso , quod pii diligentesque viri illas quasi ut entia tractant, enti nascendique facultati paululum appropinquant.

ALBERTUS SECUNDUS

tract. de cristall . spirit. ed. Claugor . et Collof lib.I, cap 28

في ترجمة يوزف كنشت وبخط يده :

... فإنه إذا صحّ أن بعض الحمقى يرون على نحوٍ ما أن التعبيراللفظي عن الأشياء غير الموجودة ، أسهل وأقل مسؤولية من التعبير اللفظي عن الأشياء الموجودة فإنّ الأمر على عكس ذلك تماماًبالنسبة للمؤرّخ الورع ذي الضمير : لأنه ليس من أمر يستعصي على التعبير اللفظي كل الاستعصاء

وتشتد الحاجة الى إبرازه أمام أعين الناس ، أكثر من أشياء معينة ، لايمكن البرهنة على وجودها ولايمكن حتّى احتمال وجودها ، ولكنّها تقترب خطوة من الكينونة ومن إمكانية التولّد ، لأن رجالاً أتقياء ذوي ضمائر يعالجونها على اعتبار أنها أشياء كائنة نوعاً ما .

قصدنا أن نثبت في هذا الكتاب الآثار القليلة التي استطعنا أن نعثر عليها من تاريخ حياة يوزف كنشت ، أو لودي ماجستر[١] يوزفوس الثالث ، إذا أردنا الاسم الذي يعرف به في سجلاّت لعبة الكريّات الزجاجية ونحن في سعينا هذا لا نغمض أعيننا متجاهلين الحقيقة التي تتمثّل في أن محاولتنا تتعارض الى حدٍّ ما مع قوانين وعادات حياتنا الفكرية ، أو قل تبدو كما لوكانت تتعارض معها . ذلك أن نبذ الفردية وإدخال الأفراد إدخالاً كاملاً ما أمكن في التنظيم الهرمي للهيئة القائمة على التربية والعلوم ، مبدأ من أعلى مبادئ حياتنا الفكرية ، مبدأ تحقّق فعلاً وصارت له تقاليد طويلة ، حتّى أصبح اليوم من الصعب ، بل أصبح في بعض الأحيان من المستحيل كل الإستحالة ، أن يعثر المرء على تفصيلات عن حياة وسيكولوجية أفراد خدموا هذا التنظيم الهرمي خدمة فائقة . بل إنه يستحيل في كثير جداً من الحالات التوصّل الى معرفة مجرّد أسماء الأفراد ذاتها . فالحياة الفكرية في إقليمنا إذن تتميّز بأنّ التنظيم الهرمي فيها يتّخذ له من إغفال الأسماء مثلاً أعلى وأنه يقترب فعلاً من تحقيق هذا المثل الأعلى اقتراباً .

ونحن إن كنّا برغم ذلك قد تمسّكنا بمحاولتنا إثبات شيء عن حياة لودي ماجستر يوزفوس الثالث وتخطيط صورة شخصيّته تخطيطاً تلميحيّاً فإننا لم نفعل ذلك لأننا نؤمن بتقديس الفرد أو لأننا نتمرّد على العادات

---

(١) عبارة باللاتينية = أستاذ اللعبة . (المترجم)

القائمة ، وإنّما نفعله ، على مانعتقد ، خدمة للحقيقة وللعلم . وهناك فكرة قديمة تقول : أننا كلّما أحكمنا صياغة رأي وتشدّدنا في صياغته ، استدعى هذا الرأي ضده حتماً . ونحن نقبل ونحترم الفكرة التي يقوم عليها إغفال سلطاتنا وإغفال حياتنا الفكرية للأسماء . ولكنّنا إذا نظرنا نظرةالى أصل تاريخ هذه الحياة الفكرية ذاتها ، وبنوع خاص الى تطوّر لعبة الكريّات الزجاجية ، تبيّن لنا بما لايدع مجالاً للإنكار ، أنّ كل مرحلة من مراحل التطور ، وكل توسيع للبناء وكل تغيير وكل قطع جوهري ، سواء حمل على أنه تقدّمي أو رجعي ، يظهر أحياناً تاماً ، لا نقول صانعه الفعلي الوحيد ، وإنّما يظهر إظهاراً تاماً وجهه الوضاح متمثّلاً في شخص ذلك الذي أدخل التغيير أو ذلك الذي أصبح أداة التحوير والتحسين .

والحق أن مانفهمه من كلمة شخصية اليوم ، شيء يختلف اختلافاً بيّناً عمّا كان كتاب السير والمؤرّخون في العصور القديمة يعنونه عندما يستعملونها . في نظر هؤلاء الكتّاب والمؤرخين ، خاصة في تلك العصور التي كانت تهتم اهتماماً واضحاً بسير الأفراد ، إن صح تعبيرنا ، إنّ جوهر الشخصية هو ماكان خارجاً عن المألوف متعارضاً مع المعروف فريداً في بابه بل في كثير من الأحيان ما كان مرضيّاً . أمّا نحن أبناء هذه الأيام فنطلق كلمة شخصية هامة على الأشخاص الذين نلقاهم ونجد أنهم تخطّوا الصفة الأصلية أو الميزة الخاصة وأنهم قد نجحوا في إدماج أنفسهم في الجماعة إدماجاً كاملاً ما أمكن . ووفّقوا في تأدية خدمة كاملة ما أمكن ، لما يتجاوز العنصر الشخصي . ونحن إذا فحصنا الأمر فحصاً أدق ، تبيّنّا أن العصور القديمةكانت تعرف هذا المثل الأعلى . فشخصية «الحكيم» أو «الكامل» عند الصينيّين القدماء مثلاً والمثل الأعلى لمذهب الفضيلة السقراطي ، لايكاد يختلف عن مثلنا الأعلى الحالي . كذلك عرفت بعض المنظّمات الفكرية الكبيرة ، مثل الكنيسة الرومانية في أزهى عصورها ، أسساً مشابهة ، ومن

شخصيّاتها الهامة من يبدو لنا كتمثال من التماثيل الاغريقية في عصرها المبكّر ويلوح أقرب الى أن يكون مثلاً كلاسيكيّاً لنمط من أن يكون فرداً واضح الفردية . مثل القدّيس توماس فون أكويينو مثلاً[١] . المهم أن ذلك المثل الأعلى الخالص كان قد ضاع ضياعاً يوشك أن يكون تاماً في العصور التي سبقت حركة إصلاح الحياة الفكرية التي بدأت في القرن العشرين وكنّا نحن ورثتها . والحق أننا ندهش عندما نجد في سير الناس في تلك العصور تفصيلاً مسهباً لعدد أخوة البطل وللجراح النفسية التي تخلّفت لديه وهو يخرج من مرحلة الطفولة والمراهقة لكفاحه من أجل الجدارة ولإلتماسه الحب . أمّا نحن أبناء العصر الحاضر فلا تهمّنا الناحية المرضية الباثولوجية ولا يهمّنا تاريخ العائلة ولاقصة حياة الغرائز ولا كيف كان البطل يهضم الطعام ولا كيف كان ينام . حتّى العوامل التي أثّرت في فكر البطل ، حتّى تثقّفه بمتابعة دراسات محبّبة وقراءات مفضلة ، كلّها أمور لاتهمّنا أهمية خاصة . إنّما نعتبر بطلاً جديراً بالإهتمام الخاص ذلك الإنسان الذي تمكّنه الطبيعة والتربية من تنمية شخصه تنمية توشك أن تكون كاملة وذلك في وظيفة بالتنظيم الهرمي ، دون أن يفقد الدافع القوي المتجدّد المدهش الذي هو معيار وقيمة الفرد كفرد . ونشأة التصادمات بين الشخص والنظام ، هو في رأينا بمثابة محكات لتقييم عظمة الشخصية . ونحن كما نحبس رضاءنا عن المتمرّد الذي تدفعه شهواته وعواطفه الى التمرّد على النظام ، نضع موضع التكريم ذكرى الضحية ، الضحية التراجيدية الحقّة .

فنحن نعتبر إذن الاهتمام بالشخص والاسم والوجه والحركة في حالة الإبطال أي حالة الرجال النموذجيّين حقاً وصدقاً ، أمراً مقبولاً وطبيعيّاً لأننا نرى أن التنظيم الهرمي الأكمل الذي لايعتريه عيب ، ليس تنظيماً آلياً مكوّناً

---

(١) (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) يعتبر مؤسّس علم اللاهوت الكاثوليكي . من مؤلّفاته « الجامع في اللاهوت » و« الجامع في مناهضة الكافرين » . (المترجم)

من أجزاء ميتة لاتتأثر ، وإنّما نرى أنه جسم حي مكوّن من أجزاء وأعضاء ، كل منها له نوعه الخاص وله حرّيته وله نصيبه في معجزة الحياة . على هذا الأساس بنينا جهدنا في سبيل الحصول على أخبار عن حياة أستاذ لعبة الكريّات الزجاجية يوزف كنشت ، وخاصة ماكان منها مكتوباً بيده هو . وقد وصلت الى أيدينا مخطوطات عديدة نعتقد أنها جديرة بالقراءة .

والأخبار التي نحن بسبيل إيرادها عن شخص كنشت وحياته معروفة بلاشك معرفة جزئية أو كلّية لدى أعضاء الطائفة ، أعني لاعبي الكريّات الزجاجية . ولهذا لايتّجه هذا الكتاب الى هذه الجماعة وحدها ، بل يأمل تجاوزها الى قرّاء واعين .

وكتابنا لا يحتاج الى مقدّمة وتفسير إذا اقتصر على هذه الجماعة المحدودة . أمّا ونحن نرغب في اكتساب قرّاء خارج الجماعة يهتمّون بحياة وكتابات بطلنا ، فعلينا أن نتحمّل مهمّة صعبة نوعاً ، مهمّة تصدير الكتاب بمقدّمة شعبية صغيرة للقرّاء قليلي المعرفة بالموضوع ، لتعرّفهم بلعبة الكريّات الزجاجية وتاريخها . ونعود فنؤكّد أن المقدّمة لاتعدو أن تكون مقدّمة شعبية ولاتريد إلا أن تكون كذلك ولاتتطلّع قط الى توضيح المسائل التي يدور حولها النقاش في داخل الطائفة ذاتها ولا الى توضيح مشاكل اللعبة والمشاكل المتعلّقة بتاريخها . ذلك أنّ وقت عرض مثل هذا الموضوع عرضاً موضوعياً لم يحن بعد ولن يحين في القريب .

فلا ينتظرن أحد منّا أن نقصّ عليه القصة الكاملة للعبة الكريّات الزجاجية أو أن نسرد عليه نظريّتها ، فليس هناك اليوم من يقوى على ذلك ، حتّى المؤلّفون الذين يفوقوننا في الجلال والمهارة . وليبق عبء تحقيق هذا في عنق أزمان قادمة إذا لم تضع وتندثر المصادر اللازمة والشروط الفكرية الضرورية لهذا التحقيق ، قبل حلول تلك الأزمان . وليس القصد من وراء كتابنا أن يكون كتاباً في تعليم أصول لعبة الكريّات الزجاجية ، فمثل هذا

الكتاب لن يوضع أبداً . لأنّ تعلّم أصول هذه اللعبة التي هي لعبة الألعاب لايتم إلا بسلوك الطريق المعروف المرسوم لذلك ، وسلوك هذا الطريق يتطلّب سنوات عديدة وليس من بين العالمين باللعبة من يميل الى تبسيط تعليم قواعد هذه اللعبة .

أمّا قواعد اللعبة ورموزها وأصولها فعبارة عن شيء قريب الشبه بلغة سرّية بلغت درجة فائقة من التطوّر ، أسهمت في تكوينها علوم كثيرة وفنون عديدة ، وخاصة الرياضة والموسيقى (أو بالأحرى علم الموسيقى) . ولها القدرة على التعبير عن مضامين ونتائج العلوم كلّها تقريباً وعلى إدخالها في علاقات بعضها مع البعض الاخر . فلعبة الكريّات الزجاجية إذن لعبة بجميع مضامين وقيم ثقافتنا ، تلعب بها لعباً يشابه لعب المصوّر الماهر في عصور ازدهار الفنون ، بألوان لوح الألوان . كل ما أنتجته الإنسانية في عصورها الخلاقة من معارف وأفكار سامية ، وأعمال فنية حولتها العصور التالية الآخذة بالتأمّل العلمي الى مفاهيم وضمّتها الى الثروة الفكرية ، كل هذه المادة الهائلة من القيم الفكرية يلعب بها لاعبو الكريّات الزجاجية ، كأنها الأرغن يلعب به لاعب الأرغن ، أرغن بلغ كمالاً لايكاد العقل يتصوّره ، لوامسه ودوّاساته تلمس الكون الفكري كله ، وقدرته الصوتية لاتحصى ، ويمكن بواسطته نظرياً تمثيل المضمون الفكري للدنيا كلّه في ألعاب . هذه اللوامس والدواسات والقدرة الصوتية تحدّدت وثبتت الآن حتّى أنه لايمكن أن يدخل الإنسان على عددها ونظامها تغييرات أو تحسينات الا من الناحية النظرية فقط : ذلك لأنّ تنمية لغة اللعبة بإدخال مضامين جديدة فيها ، يخضع لرقابة الإدارة العليا للعبة ، وهي رقابة على قدر من القسوة لا يمكن لعقل أن يتصوّر ضخامته . وقد أعطى لكل لاعب في نطاق هذا البنيان الثابت ، أو إذا رجعنا الى تشبيهنا بالأرغن ، في نطاق هذا التنظيم الآلي المعقّد للأرغن الهائل ، أعطى عالماً كاملاً من الإمكانيّات والتشكيلات ، بحيث يكاد يكون من

المحال أن تتشابه لعبتان من ألف لعبة تؤدّى بمنتهى الدقة والقسوة ، تشابهاً يتجاوز ظاهر اللعبتين . وحتّى لو حدث مرة بطريق المصادفة أن لاعبين ضمّنا لعبتيهما نفس النخبة المحدودة الصغيرة من الموضوعات ، فإنّ لعبتيهما تكونان رغم ذلك مختلفتين اختلافاً تاماً في الشكل والتأدية ، حسب طريقة تفكير اللاعبين وشخصيّتهما ومزاجيهما ومهارتيهما الفنية .

وللمؤرّخ آخر الأمر أن يرجع مبدأ وتاريخ لعبة الكريّات الزجاجية الأوّل الى حين يشاء له مزاجه ، لأنّ لعبة الكريّات الزجاجية ، مثلها مثل كل فكرة عظيمة ، لاتعرف لها بداية بالمعنى الصحيح ، بل هي ، كالفكرة العظيمة تماماً ، موجودة دائماً . نجدها على شكل فكرة أو احتمال أو أمل ، مصوّرة بدائيّاً ، في بعض العصور المبكّرة ، عند فيثاغورث مثلاً . ثمّ نجدها بعد ذلك في العصر المتأخّر من الثقافة القديمة ، وفي المدرسة الهللينية الأدرية ، ونجدها بقدر غير ضئيل عند الصينيّين القدماء ، وفي أوقات ازدهار الحياة الفكرية العربية الأندلسية . ثمّ يعرج بنا تاريخها الى المدرسة الكلامية (المدرسية) والى المدرسة الانسانية ثمّ يمر بأكاديميّات الرياضيّين في القرن السابع عشر والثامن عشر ويصل الى الفلسفات الرومانتيكية والى رموز الأحلام السحرية عند نوفاليس . كانت الفكرة الخالدة التي تجسّمت لدينا في لعبة الكريّات الزجاجية هي ذاتها أساس الإتجاه الفكري المثالي نحو هدف مثالي هو ماأطلق عليه «عالم الآداب» ، وأساس كل أكاديمية أفلاطونية وأساس كل محاولة للتقريب بين العلوم الدقيقة والعلوم التي تتمتّع بحرّية أكثر ، وأساس كل محاولة للتوفيق بين العلم والفن أو بين العلم والدين . ولاشكّ في أنّ عقولاً مثل أبيلارد ولايبنتس وهيجل قد هفت الى ضم العالم الفكري في تنظيمات متحدة المركز وحلمت بتوحيد الجمال الحي للفكر وللفن مع قوة الصياغة السحرية التي للعلم الدقيق . وفي العصر الذي بلغت فيه الموسيقى والرياضة معاً تقريباً القمة الكلاسيكية كثرت بينهما

علاقات الصداقة والإخصاب المتبادل . حتّى قبل ذلك العصر بقرنين ، نجد عند نيكولاوس فون كوز جملاً فيها الروح والجو نفسه ، مثلاً : «الفكر يشكّل نفسه حسب القدرة ، لكي يقيس كل شيء على طريقة القدرة ، والفكر يشكّل نفسه حسب الضرورة المطلقة ، لكي يقيس كل شيء على طريقة الوحدة والبساطة كما يفعل الله ، ويشكّل نفسه أخيراً حسب القدرة المحدّدة ، لكي يقيس كل شيء حسب وجوده . ثمّ أن الفكر يقيس أيضاً قياساً رمزيّاً يستخدم الأعداد والأشكال الهندسية ويعتمد عليها على اعتبارها معادلات» . ويجدر بنا أن نذكر أن فكرة كوزانوس هذه ليست الفكرة الوحيدة التي توشك أن تشير الى لعبتنا ، لعبة الكريّات الزجاجية ، إشارة بيّنة أو التي تطابق أو تتفجّر عن اتجاه خيالي مشابه كأنّه من أفكار لعبة الكريّات الزجاجية ذاتها ، بل إن لديه من الجمل العديد يحمل نفس هذا المعنى ، كذلك فإنّ تمتّعه بالرياضيّات وقدرته وشغفه بتطبيق أشكال وبديهيّات الهندسة الأقليدية على مفاهيم لاهوتية فلسفية بقصد توضيحها بالمقارنة ، أمور تبدو قريبة جداً من فكرة اللعبة ، بل إنّ لغته اللاتينية (التي كثيراً ما ابتدع كلماتها ابتداعاً دون أن تكون الكلمات المبتدعة بحيث يسيء فهمها العالم باللاتينية) لتذكّر بلغة اللعبة ومرونتها في حرية اللعب .

كذلك ألبرتوس سكوندوس يعتبر من أجداد لعبة الكريّات الزجاجية كما يدل النص الذي صدرنا به هذه المقالة . ويساورنا الظن ، وإن أعوزتنا الشواهد ، في أنّ فكرة اللعبة تملّكت المؤلّفين الموسيقيّين العلماء في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر الذين بنوا مؤلّفاتهم الموسيقية على أساس من التأمّلات الرياضية . وكثيراً مانصادف في الآداب القديمة أساطيرعن ألعاب فيها السحروالحكمة ، ابتكرها علماء أو رهبان أو مفكّرون في معيّات الأمراء وراحوا يلعبونها ، مثل لعبة الشطرنج مثلاً التي كانت قطعها وتقسيمات رقعتهاتحمل معانٍ سرّية الى جانب المعاني العادية . وكلّنا

نعلم بالروايات والحكايات والأساطيرالتي وصلت الينا من فجر الثقافات كلّها والتي تضفي على الموسيقى ، علاوة على كيانها الفنّي ، قوة تتسلّط على الأرواح والأقوام وتسيّرهم كأنّها وزير آمر أو قانون ينضوي له الناس ودولهم . وهناك منذ أقدم العصورفي الصين وكذلك في الأساطيرعند الإغريق فكرة تلعب دوراً هاماً ، وهي فكرة حياة فكرية مثالية سماوية للإنسان تسيطر عليها الموسيقى . بهذا التقديس للموسيقى (يقول نوفاليس : « إنّ سلطان الموسيقى الخفي للنشيد يحيينا في الدنيا بتحوّرات له خالدة ») ترتبط لعبة الكريّات الزجاجية أيضاً أعمق ارتباط .

ونحن إذا اعترفنا بالرأي القائل بأنّ فكرة اللعبة خالدة ، وأنّها كانت لهذا موجودة فعّالة باستمرار قبل تنفيذها بأزمان ، فلا ضير من أن نرى أن تنفيذها بالشكل المعروف لنا له تاريخه المحدّد . وسنحاول فيما يلي أن نقصّه في أهم مراحله .

يرجع اللقاء الفكري الذي أثمر انشاء الطائفة ولعبة الكريّات الزجاجية وغير ذلك ، يرجع في بدايته الى عصر من التاريخ يحمل اسم « عصر صحافة التسلية » ، وهو الاسم الذي أطلقه عليه مؤرّخ الأدب بلينيوس تسيجنهالس[١] صاحب الدراسات الأساسية على هذا العصر . والحق أنّ مثل هذه الأسماء جميلة ولكنّها خطيرة تدفع الى النظر الى حالة ما ، من حالات الحياة الإنسانية في الماضي بعين الظلم ، فما كان « عصر صحافة التسلية » عصراً مجرّداً من الفكر ولافقيراً الى الفكر . ولكن يبدو ، كما يرى تسيجنهالس ، أن ذلك العصر لم يعرف كيف يفيد من فكره الا قليلاً ، أو على الأصح لم يعرف السبيل الى منح الفكر المكان والوظيفة المناسبين له في نظام الحياة والدولة . ونحن بصراحة لانعرف هذا العصر الا معرفة رديئة

---

(١) اسم من اختراع هرمن هيسة ومعناه : رقبة الماعز! (المترجم)

جداً ، بالرغم من أنّه يمثّل التربة التي خرجت منها مميّزات وخصائص حياتنا الفكرية اليوم . كان هذا العصر كما يرى تسيجنهالس ، عصراً بورجوازيّاً الى درجة كبيرة ، وعصراً يمجّد الفردية الواسعة النطاق . ونحن إذ نذكر بعض خصائص هذا العصر ، لنصوّر جوّه تصويراً سريعاً ، ونلتمس هذه الخصائص من تصوير تيجنهالس ، إنّما نفعل ذلك متأكّدين يقيناً من أنّ هذه الخصائص ليست مختلقة ولا مبالغاً فيها ، لأنّ الباحث العظيم قد أيّدها بعدد لايحصى من الوثائق الأدبية وغيرها . لهذا ننضم الى جانب هذا العالم الذي كان أوّل من خصّ «عصر صحافة التسلية» بدراسة جدّية . ولانريد أن ننسى مع ذلك أنّه من السذاجة والحمق أن يتأفّف المرء من عيوب ورذائل عصور بعيدة .

يبدو أن تطوّر الحياة الفكرية في أوربا قد اتخذ ابتداءً من نهاية العصر الوسيط اتجاهين عظيمين : تحرير الفكر والعقيدة من كل تأثير تعسّفي ، أي كفاح العقل وقد أحس أنه أصبح سيداً رشيداً ضد سيطرة الكنيسة الرومانية ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، سعيه الخفي الذي تميّز رغم ذلك بالهمّة ، الى تحليل وتبرير حرّيته هذه بناء على سلطة جديدة نابعة من نفسه متوافقة معه هو... ويمكن أن يعمّم الإنسان فيقول : إنّ الفكر قد كسب بصفة عامة تلك المعركة التي كثيراً ماااتصفت بالغرابة والتناقض والتي دارت حول غرضين متناقضين من ناحية المبدأ . وليس لنا أن نسأل عمّا إذا كان الكسب الذي تحقّق يعادل الضحايا العديدين الذين سقطوا من أجله ، وعمّا إذا كان النظام الحالي للحياة الفكرية عندنا كافياً كفاية كاملة وعمّا إذا كان ذلك النظام سيدوم مدة طويلة تكفي لإعتبار كل الالام والتشنّجات والشذوذات المتمثّلة في محاكمات المارقين ونيران التعذيب والإعدام وفي حالات العباقرةالذين انتهت حياتهم بالجنون أو الإنتحار ، تكفي لإعتبارها تضحية ذات معنى . لقد حدث التاريخ وانتهى ، ولامعنى للقول بأنه كان خيراً أو بأن الخير كان ألايحدث ولامعنى لفهمنا أو عدم فهمنا إيّاه . هكذا حدثت

المعارك من أجل «حرّية» الفكر وأدّت بالضبط في أواخر عصر صحافة التسلية الى أنّ الفكر قد تمتّع فعلاً بحرّية لم يسمع بها من قبل ، حرّية لاطاقة له هو على احتمالها ، بأن تغلّب على وصاية الكنيسة تغلّباً تاماً وعلى وصاية الدولة تغلّباً جزئيّاً ، دون أن يكون قد تمكّن من التوصّل الى قانون أصيل يصوغه هو ويحترمه ، ولا الى سلطة جديدة أصيلة وأساس للتحليل والشرعية ويورد تسيجنهالس أمثلة على إنحطاط وفساد ودناءة الفكر في ذلك العصر يدهش الإنسان لبعضها كل الدهشة .

وينبغي علينا أن نقرّ بأننا لانستطيع إعطاء تعريف جامع مانع لتلك المصنّفات التي نسمّي العصر نسبة إليها ، ألا وهي «صحافة التسلية» . والظاهر أن مقالات صحافة التسلية كانت جزءً محبّباً من مادة الصحافة اليومية ، وأنها كانت تنتج بالملايين وكانت تكون الغذاء الرئيسي للقرّاء المحتاجين الى التثقيف ، وكانت تروي أخباراً أو على الأصح «تثرثر» في آلاف مؤلّفة من الموضوعات الخاصة بالمعرفة والعلم ويبدو أنّ النابهين من هؤلاء الكتّاب الذين عالجوا كتابة مقالات الصحافة المسلّية كانوا هم أنفسهم يتهكّمون على أعمالهم . ويذكر تسيجنهالس أنه عثر على أعمال عديدة من هذا النوع لامفر للمرء من اعتبارها من قبيل سخرية المؤلّف من نفسه ، فإنّها إن لم تحمل على هذا المحمل ظلّت مبهمة تستعصي على الفهم كل الاستعصاء . أو ربّما كانت بين هذه المقالات المنتجة على طريقة إنتاج المصانع ، ربّما كانت من بينها طائفة قائمة على المصانع ، ربّما كانت من بينها طائفة قائمة على السخرية والسخرية الذاتية ويحتاج المرء لفهمها الى مفتاح ، ينبغي العثور عليه أوّلاً لكشف مكنونها . وكان منتجو هذه الترّهات تارةً من هيئة تحرير الجريدة وتارةً من المؤلّفين «الأحرار» وكان يطلق عليهم أحياناً اسم «أدباء» ويبدو أن كثيراً منهم كانوا من طبقة العلماء ، بل كانوا أساتذة مشهورين في الكلّيات والمعاهد العليا . وكانت أحب

موضوعات هذه المقالات الى نفوسهم طرائف من حياة مشاهير الرجال والنساء ومن رسائلهم . وكانت هذه المقالات تحمل عناوين مثل «فريدرتش نيتشه وموضة النساء حول عام ١٨٧٠» أو «المأكولات التي كان الموسيقار روسيني يحبّها» أو «دور الكلاب المدلّلة في حياة شهيرات العشيقات»وما الى ذلك . كذلك كانوا يحبّون التأمّلات التاريخية في الموضوعات التي تدور حولها أحاديث أصحاب الثراء مثل «علم انتاج الذهب صناعياً على مر القرون» أو «تجارب التأثير على الأحوال الجوّية كيماوياً وفيزيائيّاً» ومئات من الموضوعات المشابهة . ونحن إذا قرأنا العناوين التي أوردها تسيجنهالس لهذه الترّهات ، اندهشنا لا لأنه كان هناك أناس يلتهمون هذه الترّهات بوصفها قراءتهم اليومية ، بل أكثر من ذلك لأنه كان هناك مؤلّفون مشهورون لهم قدرهم وثقافتهم يساعدون على «تمشية» الاستهلاك الهائل لهذه المواد المسلّية التافهة ، و«تمشية» هو الاصطلاح الملائم بالضبط لهذا العمل وكان يستعمل كما هو معلوم في ذلك الوقت للتعبير عن علاقة الإنسان بالآلة . وفي بعض الأحيان كانت الأفضلية لأحاديث مع الشخصيّات المشهورة تسأل فيها عن موضوعات الساعة . وقد خصّص تسيجنهالس لها فصلاً خاصاً ، في هذه الأحاديث الصحفية كان كيميائيون مشهورون أو عازفو بيانو مشهورون على سبيل المثال يسألون عن السياسة وكان ممثلون محبوبون وراقصون ورياضيّون وطيّارون بل وشعراء يسألون عن فوائد ومضار العزوبة أو عن ظنّهم في أسباب الأزمات المالية وهكذا . كان المقصود هو إيراد اسم مشهور مع موضوع يهمّ الناس في ذلك الوقت : وليقرأ القارىء في كتاب تسيجنهالس أمثلة على ذلك فقد ذكر منها المئات وأكثرها يثير الدهشة . ويبدو كما قلنا إنّ هذه الهمّة الإنتاجية كانت مختلطة بجزء كبير من التهكّم ، بل ربّما كان التهكّم تهكّماً شيطانيّاً يائساً ، فنحن لانستطيع أن نغوص بفكرنا في ذلك العصر إلا بكل صعوبة ، ولكنّ المؤكّد أن عامة

الجمهور والظاهر أنه كان مولّعاً بالقراءة ولعاً ظاهراً ، كان يتلقّف هذه الأشياء المضحكة بجدّية حسنة النية . فما تكاد لوحة تنقل من مالك الى مالك ، ومايكاد مخطوط يباع بالمزاد ، أو قصر قديم يحترق أو يتورّط واحد ممن يحملون اسم أسرة شريفة عريقة ، في فضيحة ، حتّى يعلم القراء في آلاف من مقالات صحافة التسلية لا الوقائع فحسب ، بل يتجاوزون ذلك الى الحصول في اليوم نفسه أو في اليوم التالي على كمّية من المواد الطريفة التاريخية السيكولوجية والمثيرة التي تتعلّق بالموضوع . كان كل حدث يومي ينهمر فوقه سيل من الكتابات بذل فيها جهد كبير ، وكان إظهار الأخبار وغربلتها وصياغتها يحمل طابع البضائع المنتجة بالجملة بسرعة وبلا مسؤولية . كذلك يدخل في صحافة التسلية ، على مايبدو ، عدد من الألعاب يحفز القرّاء عليها وتنشّط بها تخمتهم بالمواد العلمية . وقد كتب تسيجنهالس فأسهب في بحث موضوع ألغاز الكلمات المتقاطعة المدهش . كان آلاف وآلاف من الناس في ذلك العصر يجلسون ، وقد فرغوا من عملهم الشاق أو وهم يعيشون عيشة عسيرة ، يجلسون في ساعات فراغهم منكبّين على مربّعات وصلبان ذات حروف ، ليملؤوا الفراغ بحروف حسب قواعد خاصة للعبة . وعلينا أن نحذر من رؤية الناحية المضحكة أو المجنونة فقط من اللعبة ،أن نحرم على أنفسنا السخرية منها . لم يكن هؤلاء الناس بألعاب الألغاز الصبيانية التي يلعبونها وبمقالاتهم التثقيفية التي يلتهمونها ، أطفالاً أبرياء ولا عابثين لاهمّ لهم إلاّ اللعب والعبث ، وإنّما كانوا يجلسون خائفين وسط غليانات سياسية واقتصادية وأخلاقية وزلازل ، وكانوا يشعلون نار عدد من الحروب الفظيعة والحروب الأهلية المرعبة ، ولم تكن ألعابهم الثقافية الصغيرة مجرّد عبث صبياني لطيف لا معنى له ، بل كانت استجابة لحاجة عميقة الى قفل العينين والهرب من المشاكل المستعصية وتوقّعات الفناء الرهيبة الى عالم خيالي يقل به الأذى ما أمكن ذلك . وهكذا تعلّموا مثابرين قيادة

السيّارات ولعب ألعاب ورق صعبة وانهمكوا حالمين في حل ألغاز الكلمات المتقاطعة ـ لأنهم كانوا يواجهون الموت والخوف والألم والجوع ولايكاد يحميهم من ذلك شيء ، فلم تعد الكنيسة تواسيهم وكذلك تركهم الفكر بلا نصيحة . أمّا هم ، وقد قرؤوا الكثير من المقالات وسمعوا الكثير من المحاضرات ، فلم يمنحوا أنفسهم وقتاً ولا جهداً ليقووا أنفسهم أمام الخوف وليقهروا في أنفسهم الخوف من الموت ، بل ساروا بحياتهم مرتعدين لا يؤمنون بغد .

فقد كانت محاضرات تلقى ، وينبغي علينا أن نشير الى هذا النوع الراقي من صحافة التسلية إشارة قصيرة ، كان يلقيها المتخصّصون كما يلقيها لصوص الفكر على مواطني ذلك العصر الذين كانا يتمسّكون بمفهوم الثقافة بعد تجرّده عن معناه القديم ، محاضرات كثيرة العدد تقدّم اليهم علاوة على المقالات ، ولاتشبه الكلمات التي تلقى في الأعياد والاحتفالات والمناسبات الخاصة ، وإنّما هي محاضرات تلقى في تنافس عنيف وبكمّية لايكاد يتصوّرها العقل . كان المواطن من أهل المدن المتوسطة أو زوجته يستطيع أن يسمع محاضرة كل اسبوع وكان المواطن من أهل المدن الكبيرة يستطيع أن يستمع الى محاضرة كل يوم تعلّمه موضوعاً ما من الموضوعات النظرية ، فتحدّثه عن أعمال فنّية ، عن شعراء علماء باحثين ، عن رحلات حول العالم ، محاضرات يظل المستمع إليها سلبيّاً سلبية خالصة وتفترض في صمت وجود علاقة ما تربط المستمع بالمضمون ووجود ثقافة ما لدى المستمع واستعداداً ما لتقبّل الموضوع وقدرة على تفهّمه ، تفترضها دون أن تكون موجودة بالفعل في أغلب الأحوال . كانت هناك إذن محاضرات مسلّية أو مفعّمة بانفعالات أو محشوة بالنكتة ، تدور حول جوته[1] وتعرضه وهو يلبس بدلة

---

(١) شاعر وأديب ألمانيا الأعظم ، صاحب «فاوست» و «آلام الشاب فرتر» و «الديوان الغربي الشرقي» وغيرها . (المترجم)

فراك زرقاء وينزل من عربة حنطور ليغوي بنات من شتراسبورج أو فتسلار ، وتدور حول الثقافة العربية وتساق فيها كلمات ثقافية موضة مختلطة اختلاطاً كأنّها مكعّبات الزهر ترج وتخلط في كأس وكان كل واحد يفرح عندما يتعرّف على واحدة منها ثانية على وجه التقريب . كان الحاضرون يستمعون الى محاضرات عن شعراء ، وأعمالهم لم يقرأها أحد منهم ولا فكّر في الإطّلاع عليها ، وكان الحاضرون يشاهدون أحياناً مع هذه المحاضرات صوراً تلقيها أجهزة العرض أمام أعينهم ويكافحون أثناء ذلك ، كفعلهم في صفحات التسلية بالجرائد تماماً ، للحصول على فيض من القيم الثقافية المتفرّقة والشذرات العلمية التي سلبت معناها . أي أن الناس ، كانوا يواجهون ، بإختصار ، عملية تجريد للكلمة من قيمتها تجريداً فظيعاً ، عملية أدّت الى تلك الحركة البطولية الزاهدة المضادة التي قامت سرّاً وفي أضيق الدوائر في بادئ الأمر ثمّ مالبثت أن ظهرت للعيان وازدادت قوة وأنتجت تربية ذاتية جديدة وكرامة للفكر جديدة .

ونحن ، أهل العصر الحاضر ، نفسّر اضطراب وزيف الحياة الفكرية في ذلك الوقت الذي كان له من ميادين أخرى على نحو ما قوة وعظمة ، نفسّرها بأنّها علامة على الفزع الذي حلّ بالفكر عندما وجد نفسه في نهاية عصر من الانتصار والازدهار الظاهري يواجه العدم : يواجه أزمة مادية كبيرة ، يواجه فترة من العواصف السياسية والحربية ويواجه ريبة مفاجئة انطلقت بين عشيّة وضحاها ، ريبة في نفسه وفي قوّته وفي كرامته بل حتى في وجوده . ومع ذلك فقد عرف هذا العصر الذي خيّم عليه الاحساس بالفناء ، أعمالاً فكرية عظيمة ، منها نشأة علم الموسيقى الذي ورثناه شاكرين ، وبقدر مايسهل على الإنسان وضع فترات من الماضي في مكانها من تاريخ العالم وضعاً جميلاً مرتّباً له معنى ، بقدر مايستحيل على الحاضر مثل ذلك التنظيم المنتصب على ذاته ، ولقد أدّى هذا في ذلك الوقت عندما انحدرت المطالب

والأعمال الفكرية إنحداراً سريعاً الى مستوى متواضع جداً ، الى انتشار قلق فظيع ويأس فظيع بين أهل الفكر خاصة . وكانوا قد اكتشفوا لتوّهم (اكتشافاً كان متوقّعاً هنا وهناك منذ نيتشه) أن شباب ثقافتنا وعصرنا الخلاق قد ولّى ، وأن عصر الأفول قد بدأ . هذه الفكرة التي أحسّها الجميع فجأة وصاغها الكثيرون صياغة غليظة ، كانت أساس تفسير كثير من الظواهر المخفية التي ظهرت آنئذ : تحوّل الحياة الى صورة آلية جرداء ، تدهور الأخلاق ، إلحاد الشعوب ، زيف الفن ، كانت موسيقى الأفول قد بدأت تنطلق أنغامها ـ كما تقول الحكاية الصينية العجيبة ـ وتختلج كنغمة الأرغن الواطئة عشرات السنين ، فتطيل الزئير والهدير وتعدو في صورة فساد الى المدارس والمجلات والاكاديميّات وتتصل في صورة إنتاج مفرط غشيم عابث في ميدان الفنون كلّها . واختلفت تصرّفات الناس حيال هذا العدو الذي نفذ اليهم ولم يعد هناك وسيلة ولا السحر نفسه ، للتخلّص منه ، فمن الناس من استطاع أن يعترف بالحقيقة المُرّة صامتاً ويتحمّلها على الطريقة الرواقية ، هكذا فعل بعض الأخيار . ومن الناس من استطاع أن يحاول إنكار وجودها ، فإذا الأدباء المبشّرون بمذهب أفول الثقافة يتحوّلون الى هدف هجوم سهل ميسور . وكان أولئك الذين يشنّون الهجوم على المتنبّئين بالأفول ، يجدون آذاناً صاغية ويكتسبون نفوذاً لدى المواطنين الذين كانوا يرون في القول بأنّ الثقافة التي كانت بين يديهم بالأمس وكانت موضع فخرهم لارجاء في بقائها على قيد الحياة وأنّ الأدب والفن الذين يحبّونهما ليسا بالأدب الأصيل والفن الأصيل ، كانوا يرون في هذا القول وقاحة وعنتاً ، رأيهم في التضخّمات المالية المفاجئة والتهديد الذي تعرّضت له رؤوس أموالهم على يد الثورات . وإلى جانب هذا كان هناك موقف يتّسم بالاستخفاف حيال التوقّع الكبير للأفول ، فكان أصحابه يرقصون ويعلنون أنّ كل خوف على المستقبل غباء مستحكم من أيّام الأجداد ، وكانوا يغنّون أغاني مرحة من قبيل صحافة

التسلية موضوعها قرب نهاية الفن والعلم واللغة وكانوا يتبيّنون بمتعة انتحارية في عالم صحافة التسلية الذي ابتنوه هم أنفسهم من ورق ، تسفيهاً كاملاً للفكر ، وتضخّماً في المفاهيم ويظهرون كمن ينظر في استهتار واستخفاف أو في اندفاع وعربدة الى الفن والأخلاق والاستقامة بل والى أوربا و«الدنيا» وهي تأفل . وسيطر على الأخيار تشاؤم ساكن رهيب وعلى الأشرار تشاؤم ساخر ، وأصبح من الضروري أن يتم أولاً إزالة البقية الباقية من القديم وإجراء تعديل خاص في الدنيا وفي الأخلاق بواسطة السياسة والحرب ، قبل أن تستعيد الثقافة القدرة على التأمّل في ذاتها تأمّلاً فعليّاً وعلى إجراء تنظيم جديد .

الا أن هذه الثقافة لم تخلد الى النوم أثناء فترة الإنتقال التي طالت الى عشرات السنين ، وإنّما تمكّنت بالذات في فترة تدهورها واستسلامها الظاهري بفضل الفنّانين وأساتذة الجامعات وكتّاب صحافة التسلية من بعث اليقظة البالغة الحدّة في ضمير البعض وبعث فكرة امتحان الذات فيه . فقد انتشرت في قلب عصر صحافة التسلية في كل مكان جماعات صغيرة متفرّقة قرّرت أن تظل مخلصة للفكر وأن تنقذ بكل قواها من هذا العصر بذرة من التقاليد الطيبة ومن الأدب ومن المنهج ومن الضمير العلمي . وعلى قدر ماتتّضح لنا هذه الجهود اليوم ، يمكن القول بأنّ عملية إمتحان الذات والتفكّر والمناهضة الواعية للتدهور ، يبدو أنها اكتملت في جماعتين . فقد لاذ وعي العلماء الثقافي بأبحاث ومناهج تعليم تاريخ الموسيقى ، ذلك لأن هذا العلم وصل في ذلك الوقت الى الذروة . وقام وسط دنيا صحافة التسلية هذه معهدان ذاعت شهرتهما ، بتدعيم منهج عملي مثالي في نظافته وفي دقّته . ويبدو أنّ القدر شاء أن يلوح بالسلوى لجهود طائفة مقدامة ضئيلة العدد ، فقد حدثت وسط ذلك العصر الكئيب البالغ الكآبة معجزة كريمة ، أو هي مصادفة في حد ذاتها . كان لها فعل المساندة الإلهية ، ونقصد بذلك :

التسلية موضوعها قرب نهاية الفن والعلم واللغة وكانوا يتبيّنون بمتعة انتحارية في عالم صحافة التسلية الذي ابتنوه هم أنفسهم من ورق ، تسفيهاً كاملاً للفكر ، وتضخّماً في المفاهيم ويظهرون كمن ينظر في استهتار واستخفاف أو في اندفاع وعربدة الى الفن والأخلاق والاستقامة بل والى أوربا و«الدنيا» وهي تأفل . وسيطر على الأخيار تشاؤم ساكن رهيب وعلى الأشرار تشاؤم ساخر ، وأصبح من الضروري أن يتم أولاً إزالة البقية الباقية من القديم وإجراء تعديل خاص في الدنيا وفي الأخلاق بواسطة السياسة والحرب ، قبل أن تستعيد الثقافة القدرة على التأمّل في ذاتها تأمّلاً فعليّاً وعلى إجراء تنظيم جديد .

الا أن هذه الثقافة لم تخلد الى النوم أثناء فترة الإنتقال التي طالت الى عشرات السنين ، وإنّما تمكّنت بالذات في فترة تدهورها واستسلامها الظاهري بفضل الفنّانين وأساتذة الجامعات وكتّاب صحافة التسلية من بعث اليقظة البالغة الحدّة في ضمير البعض وبعث فكرة امتحان الذات فيه . فقد انتشرت في قلب عصر صحافة التسلية في كل مكان جماعات صغيرة متفرّقة قرّرت أن تظل مخلصة للفكر وأن تنقذ بكل قواها من هذا العصر بذرة من التقاليد الطيبة ومن الأدب ومن المنهج ومن الضمير العلمي . وعلى قدر ماتتّضح لنا هذه الجهود اليوم ، يمكن القول بأنّ عملية إمتحان الذات والتفكّر والمناهضة الواعية للتدهور ، يبدو أنها اكتملت في جماعتين . فقد لاذ وعي العلماء الثقافي بأبحاث ومناهج تعليم تاريخ الموسيقى ، ذلك لأن هذا العلم وصل في ذلك الوقت الى الذروة . وقام وسط دنيا صحافة التسلية هذه معهدان ذاعت شهرتهما ، بتدعيم منهج عملي مثالي في نظافته وفي دقّته . ويبدو أنّ القدر شاء أن يلوح بالسلوى لجهود طائفة مقدامة ضئيلة العدد ، فقد حدثت وسط ذلك العصر الكئيب البالغ الكآبة معجزة كريمة ، أو هي مصادفة في حد ذاتها . كان لها فعل المساندة الإلهية ، ونقصد بذلك :

العثور على أحد عشر مخطوطاً ليوهان زيباستيان باخ كانت من قبل في حوزة ابنه فريدمن! أمّا المركز الثاني الذي اتخذته حركة مناهضة الإنحلال والتدهور فكان رابطة رحالة الشرق . وكان أعضاؤها يمارسون مذهباً روحانياً أكثر منه عقليّاً ، ويهتمّون برعاية التقوى والخشوع ــ من هذه الناحية اكتسب الشكل الحالي لرعاية الفكر عندنا وللعبة الكريّات الزجاجية دوافع هامة ، خاصة في إتجاه التأمّل . كذلك أسهم رحّالة الشرق هؤلاء بنصيب في إدخال الأفكار الجديدة الى كيان ثقافتنا وإلى إمكانيات دوامها ، ولم تكن جهودهم في هذا المضمار جهوداً لها الصفة العلمية التحليلية المؤكّدة وإنّما كانت تلك الجهود خاصة متمثّلة في قدرتهم على الولوج السحري في الأزمنة البعيدة والأحوال الثقافية البعيدة ، قدرة مبنية على تمرينات سرّية قديمة . كان بين رحالة الشرق أولئك على سبيل المثال موسيقيّون ومغنّون تؤكّد الرواية أنهم كانت لديهم القدرة على أداء موسيقات العصور القديمة في صفائها القديم الكامل ، كانوا على سبيل المثال يستطيعون تأدية موسيقى من عام ١٦٠٠ أو ١٦٥٠ بالعزف والغناء تأدية من يجهل كل ما ظهر بعد ذلك العصر من بدع وتحسينات ومهارات . كان هذا أمراً إدّاً في عصر ساده التهوّر في الدينامية والمبالغة في كل ماهو عزف ، وأوشك الناس فيه أن ينسوا الموسيقى نفسها وألا يعنوا إلا بتأدية قائد الأوركسترا وبـ« رأيه فحسب » . ويروى أن المستمعين كانوا تارة مستنكرين كل الاستنكار وتارة مأخوذين منصتين يعتقدون أنهم يستمعون لأوّل مرة في حياتهم الى موسيقى ، عندما قدم أوركسترا رحالة الشرق لأوّل مرة في حفل عام متتابعة موسيقية من العصر السابق على هندل وعزفها بدون تصعيدات ولا تنزيلات مطلقاً ، عزفاً فيه سذاجة وعفاف عصر آخر وعالم آخر ، كذلك أنشأ أحد أعضاء هذه الرابطة ، في قاعة الرابطة الواقعة بين بريمجارتن وموربيو أرغناً على طريقة باخ ، فجاء بالضبط كما لو كان باخ نفسه هو الذي ابتناه

لنفسه ، لو قد أتيحت له الوسائل والإمكانية . وأخفى منشئ ذلك الأرغن اسمه متبعاً في ذلك قاعدة كانت سائدة آنذاك في الرابطة ، وسمّى نفسه زيلبرمن على اسم سلفه الذي كان يعيش في القرن الثامن عشر .

بهذا نكون قد اقتربنا من المصادر التي صدر عنها مفهوم ثقافتنا الحالية . من أهم هذه المصادر : أحدث علم بين العلوم كلّها ، وهو علم تاريخ الموسيقى والاستطيقا الموسيقية ، ثم يتبعه بعد ذلك تقدّم الرياضيّات ، وينصبّ على المصدرين قطرة زيت من حكمة رحالة الشرق والموقف المنشرح المتمثل الشجاع حيال مسألة أعمار الثقافة ، ذلك الموقف الذي يتّصل إتّصالاً وثيقاً بمفهوم وتأثير الموسيقى الجديدين . وليست هناك فائدة من إطالة الحديث عن هذه الأمور فهي معلومة لكل إنسان . أمّا النتيجة ذات الأهمّية القصوى التي نتجت عن هذا المذهب الجديد أو على الأصح عن هذا الترتيب الجديد في داخل العملية الثقافية ، فكانت تخلياً واسع النطاق عن إنتاج أعمال فنّية وإنفصالاً تدريجيّاً لأهل الفكر عمّا يجري في الدنيا وإبتكار لعبة الكريّات الزجاجية التي لا تقل أهمّية عن النتائج الأخرى والتي تعتبر ثمرة هذه الأمور في مجموعها .

كان لتعمّق علم الموسيقى الذي بدأ بعد عام ١٩٠٠ بقليل أي في وسط عصر ازدهار صحافة التسلية ، أكبر أثر يمكن تصوّره على أصول اللعبة ، ونحن ، ورثة هذا العلم ، نعتقد أننا نفهم موسيقى القرون الخلاقة العظيمة ، وخاصة موسيقى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فهماً أحسن ، بل نعتقد أننا على نحو ما نفهم هذه الموسيقى أحسن من فهم كل العصور السابقة لها (بما في ذلك حتّى عصور الموسيقى الكلاسيكية ذاتها) . لأننا ، بطبيعة الحال ، وقد أتينا بعد تلك العصور الخلاقة ، نقف من موسيقاها موقفاً آخر يختلف عن موقف الناس الذين عاشوا فيها . وإنّ احترامنا للموسيقى الأصلية ، ذلك الإحترام الروحاني والذي لم يتحرّر للآن من حزن التواكل ،

.

لهو شيء آخر يختلف كل الإختلاف عن الشغف الساذج الظريف بالموسيقى الذي كانت تعرفه تلك العصور التي نميل الى حسدها على مانسبه اليها من سعادة أكثر مما بين أيدينا ، كلّما نسينا في معرض اهتمامنا بموسيقاها ، الظروف والمحن التي نشأت تلك الموسيقى فيها . ونحن منذ أجيال وأجيال ، مثلنا كمثل القرن العشرين كلّه تقريباً ، لانرى في الفلسفة أو في الأدب ولاحتّى في الرياضيّات والموسيقى ، النتاج العظيم الدائم لتلك الفترة من الثقافة التي تمتد بين نهاية العصور الوسطى وبين أيّامنا هذه . منذ تخلّينا بصفة عامة على الأقل ، عن التنافس في نواحي الإبداع مع تلك الأجيال ، ومنذ رفضنا مبدأ سيادة الانسجام وسيادة الدينامية الحسّية البحتة في العزف الموسيقي ، ذلك المبدأ القدسي الذي كان يسود الموسيقى من أيّام بتهوفن والرومانتيكية الأولى لقرنين من الزمان ، ونحن نعتقد ـ على طريقتنا التي لاتعرف الإبداع ولاتقوى الا على المحاكاة ولكنها مع ذلك طريقة لها احترامها! ـ أننا نرى صورة تلك الثقافة ، التي ورثناها ، أكثر صفاء وأكثر صحة . لم يعد لدينا شيء ممّا كان لتلك العصور من شغف بالإنتاج المسرف المثقل . إنّما تقف أمام أعيننا في صورة تمثيلية لانكاد نقدر على فهمها ، الأساليب الموسيقية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ولانعرف كيف أمكنها أن تظل مدة طويلة محتفظة بنقاوتها لايعتريها تغيير وكيف أنه لايبدو من الممكن العثور بين القدر الهائل من الموسيقى التي ألّفت في ذلك الوقت على شيء رديء قط ، وكيف أن القرن الثامن عشر ، قرن بداية الإنحلال ، قد أطلق كالصواريخ أساليباً وطرقاً ومدارس فنية وضاحة شاعرة بذاتها ـ ولكننا نعتقد أننا فهمنا فيما نسمّيه اليوم بالموسيقى الكلاسيكية ، سر تلك الأجيال وفكرها وفضيلتها وتقواها واتخذناها مثلاً لنا نحتذيه . إننا على سبيل المثال ، لانقيم وزناً هاماً أو لانقيم وزناً إطلاقاً لما كان للقرن الثامن عشر من علم لاهوت ومن ثقافة كنسية ومن فلسفة عصر التنوير ،

ولكنّنا نرى في منشدات باخ وقصص الآلام التي وضعها والمقدّمات الموسيقية التي ألّفها ، نرى فيها أعظم ترقية للثقافة المسيحية .

والعلاقة بين ثقافتنا وبين الموسيقى تعرف لها مثلاً أعلى بالغ القدم عظيم القدر ، تكنّ له لعبة الكريّات الزجاجية أعلى احترام وتبجيل . فنحن نذكر ، في الصين الاسطورية أيام كان يحكمها «قدماء الملوك» ، أن الموسيقى كانت تلعب في حياة الدولة والبلاط دوراً قيادياً وكان الناس هناك في ذلك الوقت يساوون بين ازدهار الموسيقى وبين ازدهار الثقافة والأخلاق بل وازدهار الدولة كلّها ، وكان على الأساتذة الموسيقيّين أن يسهروا على المحافظة على «الأنغام القديمة» والإبقاء على نقاوتها . فإذا تدهورت الموسيقى كان ذلك لديهم علامة مؤكّدة على تدهور الحكومة والدولة . وكان الأدباء يحكون حكايا مرعبة عن الأنغام المحرّمة الشيطانية المطرودة من السماء ، مثل نغمة تسنج شانج وتسنج تسي ، «موسيقى التدهور» التي مادقت نبراتها الآثمة في قصر الملك إلا أظلمت السماء وتزلزلت الأسوار وسقط الأمير ودالت دولته . وبدلاً من أن نعمد الى كلام كثير من كلام قدماء المؤلّفين ، نورد هنا فقرات من باب الموسيقى في «لو بو في» «ربيع وخريف» :

«ترجع أصول الموسيقى الى زمان بعيد . نشأت الموسيقى من القسط وجذورها ممتدّة في الواحد الأعظم . والواحد الأعظم خلق قطبين ، وخلق القطبان قوة الظلام وقوّة النور .

فإذا كانت الدنيا في سلام ، وكانت الأشياء كلّها مطمئنة ، وكانت تتبع في تحوّراتها تلك التي تعلوها ، اكتملت الموسيقى . وإذا لم تكن الرغبات والعواطف في مسالك الضلال ، تحسّنت الموسيقى وصارت الى الكمال . والموسيقى الكاملة لها أصل . فقد نشأت من التوازن . والتوازن ينشأ من العدل ، والعدل ينشأ من روح الدنيا . لذلك لايمكن أن يتكلّم المرء عن الموسيقى الا مع من عرف روح الدنيا .

الموسيقى تعمد على الانسجام بين السماء والأرض ، وعلى التوافق بين الظلام والنور .

والدول المتدهورة ، والرجال الذين نضجوا للتدهور ، لا يفتقرون طبعاً الى الموسيقى ، لكن موسيقاهم ليست مرحة صافية . إذن : فكلّما كانت الموسيقى صاخبة ، أصبح الناس منقبضين وأصبحت الدولة معرّضة للخطر ، وازداد انحدار الأمير . ومن ثمّ يضيع جوهر الموسيقى أيضاً .

كان الشيء الذي قدّره جميع الأمراء المقدّسين في الموسيقى هو صفاؤها . أمّا الطاغيان جيادشوسن فكانا يصنعان موسيقى صاخبة . كانا يعتبران النغمات القوية جميلة ويعتبران التأثيرات على الجموع أموراً مهمة . وكانا يسعيان لإنتاج مؤثّرات نغمية جديدة وغريبة ، نغمات لم تكن إذن قد سمعتها من قبل . واجتهدا في العلو الواحد على الآخر وتجاوزا القسط والهدف .

وسبب تدهور دولة تشو ، كان اختراعها الموسيقى السحرية . كانت مثل هذه الموسيقى بالطبع صاخبة ، ومكانتها في الحقيقة قد ابتعدت عن جوهر الموسيقى ، فإنها لم تكن صافية . وإذا لم تكن الموسيقى صافية ، تذمّر الشعب واعترى الضر الحياة . كل هذا ينشأ من إنكار المرء جوهر الموسيقى واهتمامه بالمؤثّرات النغمية الصاخبة وحدها .

لهذا كانت موسيقى عصر منتظم حسن الإنتظام موسيقى هادئة صافية ، وكانت الحكومة فيه متّزنة ، و موسيقى عصر مضطرب ، موسيقى ثائرة صاخبة ، والحكومة فيه معكوسة . و موسيقى دولة منحلّة عاطفية وحزينة والحكومة بها في خطر» .

هذه الجمل التي كتبها الصيني توضح لنا في جلاء أصول الموسيقى وتوضح لنا أيضاً معناها الحقيقي الذي أوشك النسيان أن يطويه . والموسيقى مثل الرقص ومثل كل ممارسة فنية ، كانت في أزمان ماقبل التاريخ وسيلة من وسائل السحر ، وسيلة من الوسائل القديمة المشروعة للسحر . والموسيقى

قد بدأت بالإيقاع (التصفيق ، الضرب بالأرجل ، الدق بالخشب ، الطبلة البدائية) كانت وسيلة مؤكّدة لتوحيد جماعة من الناس وعدد كبير من الأفراد في نغمة واحدة ، كانت وسيلة مؤكّدة لضبط تنفّسهم ونبضهم وحالتهم النفسية في وحدة موحّدة ، ولحثّهم على دعاء ومناداة القوى الأبدية والقيام للرقص والنزال وللزحف وللأعمال المقدّسة . هذا الجوهر الأصلي النقي ، جوهر السحر ، بقي يلازم الموسيقى زمناً أطول من بقائه يلازم الفنون الأخرى ، وما على الانسان إلا أن يذكر أقوال المؤرّخين والأدباء عن الموسيقى ، ابتداء من الإغريق لغاية جوته في «أقصوصته» . فمن الناحية العملية لم يفقد المشي ولا الرقص معناهما أبداً . ـ لكن لنرجع الآن الى موضوعنا الأصلي!

لا نريد أن نقول عن أصل لعبة الكريّات الزجاجية إلا ماكان جديراً بالمعرفة الى أقصى حد ، ولا نريد إلا أن نقوله بإختصار . نشأت لعبة الكريّات الزجاجية ، على مايبدو ، في وقت واحد في المانيا وإنكلترا ، ونشأت في البلدين معاً على هيئة تمرين في تلك الجماعات الصغيرة من علماء الموسيقى ومن الموسيقيّين الذين يعملون ويدرسون في المعاهد النظرية الجديدة للموسيقى . والإنسان إذا قارن الحالة الأولى للعبة بحالتها بعد ذلك وبحالتها اليوم ، تبيّن أن تلك المقارنة تشبه تمام المشابه مقارنة بين نوتة موسيقية من العصر السابق على عام ١٥٠٠ برموزها البدائية القديمة التي لم تكن تبيّن حتّى خطوط الميزان الموسيقي وبين نوتة موسيقية من القرن الثامن عشر أو حتّى من القرن التاسع عشر بما فيها من حشد مربك من المختصرات الدالة على الحركة والأزمان وسعة الجملة وما إلى ذلك ، كثيراً ماجعل طباعة مثل هذه النوت الموسيقية مشكلة فنّية عويصة .

لم تكن اللعبة في أوّل الأمر أكثر من شيء يشبه التمرين الفكه على التذكّر والتركيب يمارسه الطلبة والموسيقيّون فيما بينهم ، في انجلترا

وألمانيا ، كما سبق أن ذكرنا ، قبل أن يجري «اختراعها» هنا في المعهد العالي للموسيقى في كولونيا وتسمّى باسمها آلذي ظلّت تحمله للآن بعد أجيال وأجيال ، بالرغم من أنّها لم تعد تعتمد منذ وقت طويل على كريّات زجاجية . وكان صاحب الإختراع باستيان بيروت الكالفي ، ذلك العالم الموسيقي الغريب الأطوار الذي يتميّز رغم ذلك بالمهارة وبحب الناس ، يستخدم تلك الكريّات الزجاجية بدلاً من الحروف والأعداد والعلامات الموسيقية وغيرها من الرموز الخطّية . وكان بيروت ـ الذي خلف بحثاً عن «ازدهار وتدهور الكونترابنكتو» ـ وقد وجد في معهد كولونيا بين الطلاب عادة من عادات اللعب متقدّمة في التطوّر : كان الواحد منهم يصيح في الآخر مستعملاً الصيغ المختصرة للعلم الذي يتعلّمونه بلحن مستحسن أو بمطلع مفضّل من مطالع المؤلّفات الكلاسيكية ، فيرد الآخر بإكمال القطعة أو يرد بصوت أعلى أو أوطأ أو يرد بلحن مناقض إن أراد إحساناً . كانت تلك العادة تمريناً للذاكرة وتمريناً للإرتجال من نوع لعب المجتهدين من دارسي الموسيقى والكونترابنكتو في العصر السابق على شوتس وباخلبل وباخ (وإن كان لعب هؤلاء لايجري نظريّاً في صيغ ، بل عمليّاً على الة الشيمبالو أو العود أو الناي أو بالغناء) . كان باستيان بيروت محبّاً للأعمال اليدوية ، صنع بيده عدة بيانات وكلافيكوردات على الطراز القديم ، والأرجح أنه كان من طائفة رحالة الشرق وتروي الأسطورة عنه أنه صنع كمانات على الطراز القديم الذي اندثر واحتواه النسيان منذ ١٨٠٠ والذي كان ذا قوس شديد الإنحناء له شعر مشدود يضبط باليد ـ فصنع على غرار العدّاد الساذج ذي الكريّات ، الذي يعد عليه الأولاد ، إطاراً له إثنا عشر سلكاً نظم فيه كريّات زجاجية من مختلف الأحجام والأشكال والألوان . أمّا الأسلاك فكانت تقابل سطور النوتة الموسيقية ، أمّا الكريّات فكانت تقابل درجات النوتة ، وهكذا استطاع أن يكوّن من الكريّات الزجاجية جملاً موسيقية معروفة أو جملاً موسيقية

مبتكرة واستطاع أن يغيّرها وينقلها ويطوّرها ويحوّرها ويواجهها بأخرى . كان هذا من الناحية التكنيكية لعباً ، ولكنه حظي بإعجاب التلاميذ فقلّده من قلّده وأصبح موضة في ألمانيا وإنكلترا كذلك وظلّ الناس زمناً يؤدّون لعب التمرين الموسيقي على هذه الطريقة اللطيفة الساذجة . وقد حدث هنا ، كما يحدث كثيراً ، أن اتخذ ابتكار دائم هام اسمه من شيء ثانوي عابر . فقد حمل الشيء الذي صارت اليه لعبة تلاميذ المعهد وأسلاك بيروت ذات الكريّات ، حمل ومازال يحمل الى يومنا هذا الاسم الذي انتشر بين الناس ، ألا وهو لعبة الكريّات الزجاجية .

وما انقضى عقدان أو ثلاثة من الزمان حتّى لاحت اللعبة كأنّها بدأت تفقد شغف تلاميذ الموسيقى بها . فتلقّفها المشتغلون بالرياضيّات . وقد بقيت تلك ميزة من مميزات اللعبة طوال تاريخها : يفضّلها ويطوّرها ويستخدمها العلم الذي يكون في ازدهار أو نهضة . فلمّا تناول الرياضيّون اللعبة بلغوا بها درجة عالية من المرونة وقدرة عالية على التسامي واكتسبت اللعبة شيئاً كأنه الوعي بذاتها وإمكانيّاتها ، وكان ذلك أمراً يسير على خط موازٍ للتطوّر العام للوعي الثقافي في ذلك الوقت ، ذلك الوعي الثقافي الذي تغلّب على الأزمة الكبرى ووجد نفسه ، كما يقول بلينيوس تسيجنهلس «بإعتزاز متواضع يؤدّي دور الإنتماء الى ثقافة أخيرة ، الى وضع يقابل وضع العصر الأخير من الثقافة القديمة ، من العصر الهلليني السكندري» .

هذا قول تسيجنهلس . ولنحاول نحن أن نختم عرضنا المختصر لتاريخ لعبة الكريّات الزجاجية . في الوقت الذي خرجت فيه لعبة الكريّات الزجاجية من بين يدي المعاهد الرياضية (وهو تحوّل تمّ في فرنسا وانجلترا أسرع مما تمّ في ألمانيا) .كانت قد بلغت درجة من التطوّر ، تستطيع فيها أن تعبّر بعلامات خاصة واختصارات معيّنة عن عمليّات رياضية . فكان اللاعبون يتطارحون تلك الصيغ المجرّدة وينمّونها الواحد تجاه الآخر وكل يعرض على

صاحبه صفوفاً مبتكرة وإمكانيّات جديدة من علمه . وكان هذا اللعب الرياضي الفلكي بالصيغ يتطلّب يقظة كبيرة وتركيزاً كبيراً . وكان لاعب الكريّات الزجاجية المجيد يتمتّع بين الرياضيّين بشهرة لها قدرها ، ويساوي في المعنى : الرياضي المجيد إجادة عظيمة .

تلقّفت العلوم كلّها تقريباً ، كل علم على حدة ، لعبة الكريّات الزجاجية وقلّدتها ، أعني : طبّقتها في ميدانها ، والدليل قائم على تطبيقها في ميدان فيلولوجيا اللغات القديمة وميدان المنطق ، وكان التأمّل التحليلي في القيم الموسيقية قد أدّى الى التمكّن من صب متتابعات موسيقية في قالب معادلات فيزيائية رياضية . ولم يمض وقت طويل على هذه الطريقة حتّى بدأت الفيلولوجيا تتبعها وراحت تقيس الصور اللغوية كما يقيس علم الطبيعة الظواهر الطبيعية . ثمّ انضمّت الفنون التشكيلية ، وكانت العلاقة بين فن العمارة والرياضيّات قد توطّدت منذ أمد بعيد . وظلّ المكتشفون يكتشفون بين الصيغ المجرّدة التي أمكن التوصّل اليها عن هذا الطريق ، علاقات جديدة وتشابهات جديدة وتناظرات جديدة . وأصبح كل علم يتمكّن من اللعبة ، ينشىء لنفسه لهذا الغرض لغة لعب من صيغ واختصارات وإمكانيّات تركيبية ، وحظيت الألعاب بالصيغ المتتابعة وبالصيغ الحوارية بحب الصفوة المفكّرة من الشباب في كل مكان . ولم تكن اللعبة مجرّد تمرين أو مجرّد استمتاع ، بل كانت وعياً مركّزاً بتدريب فكري ، وكان الرياضيّون خاصة يمارسونها بمهارة فيها الزهد وفيها الفتوة والتدقيق الشكلي الشديد ويجدون فيها متعة كانت تخفّف عنهم وطأة تخلّي المفكّرين تخلّياً فعليّاً عن المتع الدنيوية والمساعي الدنيوية . وقد كان للعبة الكريّات الزجاجية نصيب كبير في التغلّب الكامل على صحافة التسلية وفي التمكين للتمتّع الجديد بالتمرينات الفكرية الدقيقة ، ذلك التمتّع الذي أثمر نظاماً فكريّاً جديداً له صرامة الرهبانية . كانت الدنيا قد تغيّرت . ويستطيع الإنسان أن يشبّه الحياة

الفكرية في عصر صحافة التسلية بنبات منحل يهدّد كيانه في تكوين تضخّمات وزيادات مفرطة الضخامة ، وأن يشبّه حركات الإصلاح التالية بعملية شملت النبات كلّه ولم تترك إلا جذوره . وكان الشباب الذين أرادوا آنئذ أن يهبوا أنفسهم للدراسات الفكرية ، لايعتبرون الدراسة عملية استمتاع في الكلّيات ، ينقل اليهم فيها أساتذة مشهورون مفوّهون يفتقرون الى السلطة ، بقايا ثقافة كانت رفيعة فيما مضى من الزمان ، وإنّما تحتّم عليهم أن يتعلّموا بطريقة منهجية قاسية تشبه بل تفوق في طرقها تلك التي كان المهندسون فيما مضى يتّبعونها في المعاهد الصناعية العالية . كان أمام هؤلاء الشباب طريق صعب الإرتقاء كان عليهم أن يقوموا بتمرينات أرسطوطاليسية كلامية في الرياضة لتنقية قدرتهم الفكرية والارتفاع بها وكان عليهم أن يتعلّموا علاوة على ذلك التخلّي تخلّياً كاملاً عن كل الأعراض التي كانت طائفة من أجيال العلماء من قبل تعتبرها أهلاً للسعي : كسب المال بطريق سريع سهل والشهرة وتكريم الرأي العام ومدح الصحف والزواج من بنات أصحاب البنوك والشركات والنعومة والترف في الحياة المادية . واختفت بلا رجعة الى يومنا هذا شخصيّات الأدباء الذين يصدرون مؤلّفاتهم في طبعات ضخمة رنّانة الشهرة ويحصلون على جوائز نوبل ويسكنون البيوت الريفية الجميلة ، ورجال الطب العظام حملة الأوسمة الذين يسعى بين أيديهم خدم يرتدون زيّاً خاصاً منمّقاً ، وأساتذة الجامعات المتزوّجين من ربّات الثراء الذين يعقدون صالونات تبهر الأبصار ، وعلماء الكيمياء الذين يشغلون مناصب المستشارين بالمؤسّسات الصناعية ، والفلاسفة أصحاب مصانع إنتاج صحافة التسلية والمحاضرات الأخّاذة والقاعات التي تعجّ بالجماهير وتدوي بالتصفيق وتهدي فيها الى المحاضر أكاليل الزهور ، والحق أنه كانت هناك طائفة من الشباب الموهوب ماتزال تحسد هذه الشخصيّات وتتطلّع اليها تطلّعها الى القدوة ، ولكن الطرق الموصلة الى التكريم العام والى الثروة والشهرة والترف

لم تعد ، كما كان الحال فيما مضى ، تمرّ بقاعات المحاضرات والندوات الدراسية ورسالات الدكتوراه ، لأنّ المهن الفكرية وقد هوت الى الحضيض ، أصبحت في نظر الناس في الدنيا مفلسة ، ولكنّها أدّت الى العودة الى الإهتمام بالفكر اهتماماً يتّسم بالندم والتعصّب . وتحتّم على أصحاب المواهب هؤلاء ، الذين كانوا يسعون الى المظهر البرّاق والى الحياة الرغدة أن يديروا ظهورهم الى تلك الأمور الفكرية التي لم تعد حبيبة الى النفوس ، وأن يبحثوا لأنفسهم عن المهن التي ترك لها الترف وكسب المال .

ونحن لو أردنا أن نصف عن قرب الطريقة التي شقّ بها الفكر طريقه في الدولة بعد أن تمّت تنقيته لتجاوزنا حدودنا تجاوزاً بعيداً . المهم أن الخبرة لم تلبث إلا قليلاً أن بيّنت أن أجيالاً قليلة من المتهاونين في النظام الفكري المفتقرين الى الضمير حياله ، كانت كافية لإصابة النظام الفكري بل والحياة العملية نفسها بأضرار بليغة ، وأنّ القدرة والمسؤولية ظلاّ ينحسران عن المهن العالية حتّى الصناعية منها وبهذه الطريقة أصبحت رعاية الفكر في الدولة والشعب بالتدريج ، ونعني بذلك نظام التعليم خاصة ، حكراً على أهل الفكر ، وهذا هو ماننزال نلاحظه في أغلب البلدان الأوربية ـ إذ نجد المدرسة ، في حالة عدم خضوعها لإشراف الكنيسة الرومانية ـ في أيدي تلك الطوائف التي لا تتسمّى باسم خاص والتي تتكوّن من أناس مختارين من صفوة أهل الفكر . وبالرغم من أنّ الرأي العام قد تبرّم أحياناً من قسوة تلك الطائفة الموجّهة للفكر وتكبّرها المزعوم ، بالرغم من أنّ أفراداً قد ثاروا عليها مراراً ـ فإنّ الطائفة تمسك بزمام هذا التوجيه ويحميه ليس فقط نقاوة ذيله وتخلّيه عن النعم والميزات ، إلا الفكرية وحدها ، وإنّما يبقيه ويحميه ماقد انتشر منذ زمن طويل بين الناس من العلم أو الإحساس بضرورة وجود تلك المدرسة القاسية لبقاء واستمرار الحضارةفهم يعرفون أو يحسّون أنه إذا انحرف التفكير عن النقاء واليقظة ولم يعد توقير الفكر أمراً قائماً ، فلن تلبث

السـفن كـذلك والسـيّارات أيضـاً أن تختـل وتضطـرب قيـمـة وسلطة مـسطرة المهندس الحاسبة وتضطرب قيمة وسلطة رياضيّات المصرف وسوق الأوراق المالية ، ثمّ يدب الفساد في الأرض . وهناك حقيقة شقّت لنفسها بعد جهد طويل طريقاً الى الناس ، مفادها أنّ الناحية الخارجية من الحضارة وكذلك الهندسة والصناعة والتجارة ومـالى ذلك تعتمـد على الأساس المشتـرك لأخلاقية فكرية وأمانة فكرية عامة .

وكان الشيء الذي تفتقر اليه لعبة الكريّات الزجاجية في ذلك الوقت هو القدرة على العمومية وتجاوز المواد المختلفة . فقد كان الفلكيّون وعلماء الإغريقية وعلماء اللاتينية والمدرّسون وطلبة الموسيقى يمارسون ألعابهم المنظّمة على أساس فكري كلّه فعلاً ، ولكن كل كلّية وكل علم وكل فرع كان يستخدم لغة وقواعد خاصة به . ودام الحال على هذا نصف قرن من الزمان الى أن حدثت أوّل خطوة لتجاوز هذه الحدود ، وكان سبب هذا البطء بلا شك سبباً أخلاقيّاً أكثر من كونه سبباً شكليّاً أو فنّياً : كان من الممكن التوصّل الى وسائل لتجاوز هذه الحدود ، ولكنّ الأخلاقية القاسية التي أتيحت للنزعة الفكرية الحديثة النشأة كانت متّصلة مختلطة بخوف متزمّت من «التشعّب» ومن خلط العلوم والمقولات معاً ، خوف عميق محقّق من الوقوع في ذنب العبث وصحافة التسلية .

كانت تلك الحركة التي بلغت بلعبة الكريّات الزجاجية الوعي بإمكانيّاتها وبلغت بها بالتالي عتبة القدرة التربوية العالمية ، حركة فرد واحد ، وكانت تلك الحركة في هذه المرّة كذلك مرتبطة بالموسيقى التي منحت اللعبة هذا التقدّم . فقد قام عالم موسيقي سويسري ، يجمع الى علمه بالموسيقى حبّاً متعصّباً للرياضيّات ، بتحويل اللعبة تحويلاً جديداً ومنحها بذلك القدرة على أعظم نمو . أمّا الاسم المدني لهذا الرجل العظيم فلا سبيل الى التوصّل اليه ، إذ أنّ عصره كا ن لايعرف تقديس الأفراد في الميادين الفكرية ، ولكنّ

التـــاريخ يذكـــر هذا الرجل تحت اسم لوزور (وكـــذلك : يوكـــولاتور) بازيلينزيس . وقد جاء اختراعه ، شأن كل اختراع ، وإن صحّ أنه كان ثمرة جهده الخاص وفضله ، عن غير حاجة وسعي شخصي بل جاء يدفعه محرّك أقوى من ذلك بكثير . كان أهل الفكر في عصره يضطربون في كل مكان برغبة ملحّة في التوصّل الى إمكانية تعبيرية للتعبير عن مضامينهم الفكرية الجديدة ، كانوا يشتاقون الى فلسفة ويشتاقون الى تركيب وتجميع ورأوا السعادة التي كان السابقون يحسّونها إذ يقتصرون على مواد تخصّصهم اقتصاراً ، سعادة ناقصة . وظهر هنا وهناك من العلماء من انطلق يتجاوز حدود العلم الذي تخصّص فيه ويسعى الى ماهو عام : وكان هناك من يحلم بأبجدية جديدة وبلغة جديدة من الرموز للتعبير عن الخبرات الفكرية الجديدة وتبادلها . ويشهد على ذلك على نحوٍ فيه إلحاح خاص ماكتبه عالم باريسي في تلك السنوات تحت عنوان «تنبيه صيني» . كان مؤلّف هذه المقالة في عصره موضع سخرية الكثيرين الذين كانوا يرون فيه نموذجاً شبيهاً بدون كيخوته ، ولكنه كان عالماً له قدره في ميدانه وهو فقه اللغة الصينية . وقد ناقش في مقالته الأخطار التي يتعرّض لها العلم وتتعرّض لها رعاية الفكر رغم ثباتهما الشجاع ، إذا تخلّيا عن إنشاء لغة رمزية عالمية تكون قادرة ـ كاللغة الصينية القديمة ـ على التعبير عن أصعب الأمور دون حذف للخيال الشخصي ولقوّة الإبتداع تعبيراً مكتوباً يفهمه العلماء في جميع أنحاء العالم . وقد خطا يوكولاتور بازيلينزيس الخطوة الأولى لتحقيق هذا المطلب . فاخترع للعبة الكريّات الزجاجية أسس لغة جديدة ، لغة ذات رموز وصيغ تشترك فيها الرياضة والموسيقى بأنصبة متساوية ويمكن باستخدامها ربط صيغ فلكية وموسيقية معاً وتوحيد الرياضة والموسيقى على أساس واحد . لم يكن هذا العمل هو التطوير الكامل النهائي للعبة . ولكن عالِم بازل المجهول وضع بعمله هذا كل ما استجدّ بعد ذلك في تاريخ لعبتنا الغالية .

كانت لعبة الكريّات الزجاجية تستهوي تارة الرياضيّين وتارة علماء اللغة وتارة الموسيقيّين يتسلّون بها تسلية خاصة بكل طائفةٍ ، فإذا بها تجتذب بالتدريج أكثر فأكثر أهل الفكر الحقيقيّين جميعاً . فإتّجهت اليها أكاديميّاتٌ قديمة ومجامع هامة وإتجهت اليها بصفة خاصة رابطة رحالة الشرق . كذلك وجد أهل بعض الطوائف الكاثوليكية فيها نسمة فكرية جديدة فانتشوا بها ، فقد حظيت اللعبة في بعض الأديرة البندكتينية بإهتمام كبير أثار السؤال الذي تردّد بعد ذلك من حين الى حين وهو : هل تقبل الكنيسة والبلاط البابوي هذه اللعبة وتساندها أو تحرّمها ؟

وقد تطورت اللعبة منذ العمل العظيم الذي قام به عالِم بازل تطوّراً سريعاً الى أن وصلت الى ماهي عليه الآن : أصبحت ذروة النشاط الفكري والفنّي ، أصبحت عبادة رفيعة المستوى ، أصبحت إندماجاً صافياً يجمع شتات عالم الأدب . وتقمّصت اللعبة في حياتنا تارة دور الفن وتارة دور الفلسفة التأمّلية . وأطلق عليها مثلاً في عصر بلينيوس تسيجنهالس أحياناً اسم نابع من أدب عصر صحافة التسلية كان يطلق في ذلك العصر على مطمح ماكان موجوداً آنئذ من فكر ، هذا هو الاسم : المسرح السحري .

وإذا كانت لعبة الكريّات الزجاجية منذ نشأتها قد نمت نمواً لانهائيّاً من الناحية التكنيكية ومن ناحية كمّية المواد التي تشملها وأصبحت من ناحية المتطلّبات الفكرية التي تتطلّبها من لاعبيها فنّاً وعلماً عاليين ، فإنها كانت حتّى عصر عالم بازل تفتقر الى شيء جوهري . كانت اللعبة حتّى ذلك العصر عبارة عن عملية ترتيب وتنظيم وتجميع ومقابلة تصوّرات مركّزة مأخوذة من ميادين الفكر والجمال ، كانت عبارة عن عملية تذكّر سريع لقيم وأشكال غير مرتبطة بزمن معيّن كانت عبارة عن طيران قصير حاذق عبر ميادين الفكر . ثمّ بعد ذلك بوقت جدّ طويل دخل في اللعبة بالتدريج مفهوم التأمّل آتياً من السجل الفكري للتربية والتعليم ، وبصفة خاصة من عادات

وتقاليد رحالة الشرق . فقد إتّضح السوء في تمكّن أصحاب الذاكرة القوية الذين لايمتلكون قدرات أخرى غير الذاكرة من تأدية ألعاب حاذقة مدهشة ومن إذهال وتحيير المشتركين بإيراد تصوّرات لاحصر لها بسرعة . فما لبث أن شمل هذا الحذق بالتدريج المنع والحظر البات وأصبح التأمّل عنصراً عظيم الأهمّية في اللعبة بل أصبح التأمّل بالنسبة لمشاهدي ومستمعي اللعبة أهم شيء . كان هذا يعني تحوّلاً ناحية الدين . فلم يكن المهمّ متابعة مااللعبة من تسلسلات ومنوعات فكرية شبيهة بالفسيفساء بإنتباه سريع وذاكرة علمية مدرّبة فحسب ، وإنّما نشأت الحاجة الى الإندماج الروحي العميق فكان رئيس اللعبةِ يذكر رمزاً ويقوم اللاعبون بالتأمّل الساكن الصارم في مضمون الرمز ومصدره ومعناه تأمّلاً يدفع كل واحد منهم الى استحضار مضامين الرمز استحضاراً مركّزاً عضويّاً ، وكان أعضاء الطائفة وأعضاء إتّحادات اللعبة يتعلّمون طريقة التأمّل في مدارس الصفوة ويتمرّنون عليه فيها ، تلك المدارس التي كانت تهتم بفن التأمّل والتبصّر أعظم الإهتمام . وهكذا حيل بين الرموز المقدّسة للعبة وبين التدهور والتحوّل الى أحرف مجرّدة .

حتّى ذلك الحين كانت لعبة الكريّات الزجاجية لعبة خاصة محضة رغم ولع العلماء بها . كان لاعبها يلعبها وحده أو مع آخر أو مع آخرين ، وكانت الألعاب الممتازة في فكرتها والجميلة في تركيبها والناجحة تسجّل أحياناً وتنتقل من مدينة الى مدينة ومن بلد الى بلد فيعرفها من يعرفها ويعجب بها من يعجب وينقدها من ينقد . ثمّ بدأت اللعبة في هذا الوقت تضيف الى نفسها ببطء وظيفة جديدة بتحوّلها الى احتفال عام . صحيح أن اللعبة مازالت الى يومنا هذا تحتفظ بصفتها كلعبة خاصة يمارسها الشباب بنوع خاص . لكن اسم «لعبة الكريّات الزجاجية» يثير في مخيلّة كل من يسمعه الآن اللعبة في صورتها العامة الاحتفالية . وكانت الألعاب في هذه الصورة تجري تحت إشراف وإدارة نفر قليل من الأساتذة الراسخين يرأسهم في كل بلد

«لودي ماجستر» أي أستاذ في اللعبة ، تجري اللعبة هكذا في إنصات خاشع من جانب المدعوّين وانتباه زائد من جانب المستمعين في جميع أنحاء الأرض . وكانت بعض الألعاب تستمر أياماً وأسابيع . وعلى اللاعبين والمستمعين في هذه الأثناء أن يلتزموا في حياتهم تعاليم دقيقة تشمل حتّى المدّة التي ينبغي عليهم نومها وأن يعيشوا حياة زاهدة مجرّدة عن الأنانية قائمة على الإندماج المطلق ، تشبه الحياة التكفيرية الصارمة التي كان يحياها المشتركون في حلقات القدّيس أجناسيوس .

بهذا نكون قد أوشكنا على استكمال الصورة ولم يبق من نواحيها إلا القليل . وصلنا الى أنّ لعبة الألعاب هذه قد تطوّرت تحت الزعامات المتعاقبة للعلوم والفنون حتّى أصبحت شيئاً أشبه بلغة عالمية يتمكّن بها اللاعبون من التعبير في رموز ذات معنى عن قيم مختلفة ومن الإتّصال بعضهم بالبعض الآخر وكانت اللعبة في كل العصور وثيقة الاتصال بالموسيقى ويتم تأديتها غالباً حسب قواعد موسيقية أو رياضية . فكان العنصر أو العنصران أو الثلاثة عناصر الداخلة في اللعبة يسجّل ويؤدّي وينوّع ويتشكّل كما يتشكّل العنصر الموسيقي في «الفوجة» أو الجملة الموسيقية في الكونشرتو . فربَما بدأت لعبة مثلاً بتشكيل فلكي معيّن أو بعنصر من «فوجه» لباخ أو بجملة من كتابات لايبنتس أو بجملة من سفر «الاوبانيشادات» ثمّ يظل اللاعب حسب هدفه وبقدر مهارته يتابع الفكرة الدالة المذكورة ويوسّع نطاقها أو يزيد في تعبيرها بالإشارة الى مفاهيم مشابهة . وكان المبتدئ يستطيع مثلاً أن يوازي بين قطعة من الموسيقى الكلاسيكية وبين صيغة بعض القوانين الطبيعية مستعملاً رموز اللعبة ، أمّا الراسخ في اللعبة والأستاذ فيها فكان يستطيع أن يعدّد التوليفات والتركيبات على حرّيته الى ما لانهاية . ووجدت مدرسة من اللاعبين أولعت زمناً بمضاهاة عنصرين أو فكرتين بينهما عداء ، والمقابلة بينهما ثمّ ضمّهما معاً ضمّاً منسجماً ، مثل : القانون والحرّية ،

الفرد والجماعة ، وكان المهم في الأمر في حالة لعبة كهذه أن يؤدّي اللاعب عنصرين أو رأيين على درجة كاملة من المساواة في القيمة ودون أي تحيّز ، ثمّ يستخرج من الرأي المضاد له الرأي الجامع ، كلّما أمكن . وكانت الألعاب ـ إذا غضضنا النظر عن الاستثناءات العبقرية ـ ذات النهاية السلبية أو النهاية التي تحتمل الشك أو النهاية التي تفتقر الى الإنسجام ، ألعاباً غير محبوبة ، بل كانت في بعض الأحيان ممنوعة منعاً باتا ، وكان ذلك يعتمد في أساسه على المعنى الذي اتخذته اللعبة على مستواها السامي في نظر اللاعبين . كانت اللعبة تعني شكلاً رفيعاً رمزيّاً من البحث عن الكمال ، كانت عبارة عن خيمياء سامية ، عن تقرّب إلى الروح الأوحد الذي يعلو على الصور والمتعدّدات ، أي الى الله . وكما كان المفكّرون الأتقياء في العصور السالفة يعتبرون المخلوقات كائنات في طريقها الى الله ولايرون كمال ونهاية تنوّع العالم الظاهر الا في الوحدة الإلهية ، كذلك كانت أشكال وصيغ لاعب الكريّات الزجاجية تبني وتعزف وتتفلسف مستعملة لغة عالمية تغذّت على كل العلوم والفنون ، وترنو في لعبها الى الكمال والى الكون الخالص والى الواقع المتحقّق تحقّقاً تاماً . وكانت كلمة «تحقيق» كلمة محبّبة الى نفوس اللاعبين الذين كانوا يتصوّرون فعلها كطريق يسير من التحوّل الى الكون ، من الممكن الى الواقع . وهنا نرجو السماح لنا بالإشارة مرة ثانية الى عبارات نيكولاوس كوزانوس التي استشهدنا بها من قبل .

وكانت مصطلحات علم اللاهوت المسيحي المصاغة صياغة كلاسيكية أي التي كانت تبدو كجزء من التراث الثقافي العام ، مضمومة الى اللغة الرمزية للعبة ، وكان من الممكن مثلاً التعبير عن مفهوم من المفاهيم الدينية الأساسية أو عن نص من نصوص الكتاب المقدّس أو عن جملة من نص صلاة لاتيني تعبيراً سهلاً دقيقاً وإدخاله في اللعبة تماماً كبديهية من البديهيّات الهندسية أو لحن من ألحان موتسارت . ولا نبالغ إذا تجرّأنا على القول بأنّ

اللعبة كانت بالنسبة الى الطائفة المحدودة من لاعبي الكريّات الزجاجية الصحيحين مايشبه العبادة ، رغم أن اللعبة كانت تمتنع عن إتّخاذ لاهوت خاص بها .

وكان لاعبو الكريّات الزجاجية ورجال الكنيسة الرومانية ، في صراعهم من أجل البقاء وسط قوى العالم المجرّدة من الفكر ، معتمدين بعضهم على البعض أكبر إعتماد ، حتّى صعب أن يحدث إنسان بينهما شقاقاً ، رغم تعدّد المناسبات التي كان يمكن أن تؤدّي الى الشقاق ، لأنّ الأمانة الفكرية والإندفاع الخالص الى التعبير الواضح الجامع المانع كان أمراً يسير بين الجماعتين بالشقاق . لكنّ الشقاق بينهما لم يتم أبداً ، كانت روما تكتفي بالترحيب باللعبة تارة ، وبالإعراض عنها تارة أخرى ، وكان من بين أعضاء المجامع وأفراد الدرجات العليا من الاكليروس من أوتوا موهبة عظمى في اللعبة وعدّوا في زمرة فطاحل اللاعبين . وكانت اللعبة ، منذ أصبحت عامة وأصبح لها أستاذ ، مشمولة برعاية الطائفة ورعاية السلطات القائمة على شؤون التربية . وكانت الطائفة هي والسلطات القائمة على شؤون التربية تقف من روما موقفاً هو الأدب والفروسية بعينهما . أمّا البابا بيوس الخامس عشر الذي كان وهو بعد كاردينال من لاعبي الكريّات الزجاجية المجيدين المتحمّسين ، فقد فعل مافعله سابقوه وودّع اللعبة الى الأبد بل حاول تنصيب محكمة لمقاضاتها وأوشك الأمر على أن يصل الى تحريم اللعبة على الكاثوليك . ولكنّ البابا توفّي قبل أن يتم له ذلك . وقد صوّر كتاب مشهور يحكي قصّة حياة هذا الرجل الذي لم يكن مجرّداً عن الأهمّية علاقته بلعبة الكريّات الزجاجية قائلاً أنّها كانت علاقة ولع عميق الجذور ، ولم يستطع الرجل بعد أن أصبح بابا أن يقهره إلا بمناصبتها العداء .

وقد لقي التنظيم العام للعبة ، الذي كان في بداية عهدة ثمرة جهد أفراد وجمعيّات صداقة ، لقي تعضيداً ودّياً منذ وقت طويل من الهيئة القائمة على

شؤون التربية في فرنسا وانجلترا أوّلاً ثمّ تبعتهما الدول الأخرى بعد ذلك بسرعة ، وتكونت في كل بلد لجنة للعبة وعيّن مدير لها يحمل لقب لودي ماجستر واعتبرت الألعاب الرسمية التي تجري تحت الإشراف الشخصي للماجستر بمثابة إحتفالات فكرية . وكان الماجستر بطبيعة الحال ، مثله مثل كبار الموظّفين المشتغلين برعاية الشؤون الفكرية ، لايذكر اسمه ، ولم يكن هناك أحد يعرفه بالاسم إلا أقرب المقرّبين ، وهم قلّة ، وكانت وسائل الإعلام الرسمية المحلّية والعالمية كالإذاعة وغيرها لاتستخدم الا في حالة الألعاب الرسمية العظيمة التي تقع مسؤوليتها على اللودي ماجستر . وكان الماجستر مسؤولاً ، بالإضافة الى إدارة الألعاب العامة ، عن تشجيع اللاعبين ومدارس اللعب وكان على أساتذة اللعبة قبل كل شيء السهر الدقيق على تحسين اللعبة . واللجنة العالمية التي تضم أساتذة اللعبة في كل البلاد هي التي تقرّر وحدها (وهو شيء لا يكاد يمكن حدوثه الآن) ضمّ رموز جديدة الى حصيلة اللعبة وتوسيع مدى قواعدها وتقدير ما إذا كان ضمّ ميادين جديدة الى اللعبة أمراً مرغوباً فيه أو أمراً يصرف النظر عنه . فإذا اعتبرنا اللعبة بمثابة شيء يشبه اللغة العالمية لأهل الفكر فتكون لجان اللعب في البلاد المختلفة تحت قيادة أساتذة اللعبة بها في مجموعها بمثابة الأكاديمية التي ترعى حصيلة اللغة وتقوم على تحسينها وتنقيتها . وكل لجنة من لجان البلاد تحتكم على سجلاّت للعبة ، أي تحتكم على كل الرموز والمفاتيح التي ووفق عليها أو التي فُحصت حتّى ذلك التاريخ ، تلك الرموز والمفاتيح التي زاد عددها فتجاوز بكثير عدد رموز الكتابة الصينية القديمة . وكان يشترط بصورة عامة في لاعب الكريّات الزجاجية كتربية تمهيدية كافية ، النجاح في الإمتحان النهائي للمدراس العالية الرفيعة وخاصة مدارس الصفوة ، وكان يفترض فيه ضمناً أن يكون متمكّناً تمكّناً لابأس به من علم من العلوم القديمة أو الموسيقى . وكان كل صبي في الخامسة عشرة في مدرسة من

مدارس الصفوة يحلم بأن يصبح يوماً عضواً في لجنة اللعبة أو يصبح أستاذ اللعبة . وكان بين طلبة الدكتوراه عدد ضئيل جداً مازال يتعلّق جاداً بمطمح التمكّن من خدمة لعبة الكريات الزجاجية وتحسينها بشكل فعّال . فكان هؤلاء في سعيهم لتحسين هذا الغرض يبذلون الجهد الجهيدفي التمرّن على علم اللعبة وعلى التأمّل ويكونون عند إقامة الألعاب «العظيمة» الحلقة الفريدة من المشتركين المندمجين المتفانين الخالصين ، الذين يضفون على الألعاب العامة مسحة المهابة ويحولون بينها وبين أن تتدهور الى مجرّد أعمال تمثيلية . هؤلاء اللاعبون الخالصون والعشّاق المخلصون يعتبرون اللودي ماجسترأميراً أو كاهناً أعظم بل يكادون يعتبرونه إلهاً .

ولعبة الكريآت الزجاجية في نظر اللاعب المستقل بل وفي نظر الاستاذ ، لعبة عزف موسيقى بالدرجة الأولى ، توشك أن تطابق معنى تلك الكلمات التي قالها يوزف كنشت يوماً عن جوهر الموسيقى الكلاسيكية :

«إن الموسيقى الكلاسيكية في رأينا هي جوهر ثقافتنا ومضمونها العميق لأنّ هذه الموسيقى الكلاسيكية هي أوضح وأخص تعبير لها . إننا نملك بملكيّتنا لهذه الموسيقى ، تراث العصور القديمة وتراث المسيحية ونملك روح إيمان شجاع مشرق ونملك أخلاقاً ذات فروسية لايعلى عليها . إذ أنّ كل ظاهرة ثقافية كلاسيكية هي مثل أعلى إنساني لسلوك إنساني يتلخّص في ظاهرة ثقافية ، وهي بالتالي أخلاق ، وقد أنشئت في الفترة بين عام١٥٠٠ وعام ١٨٠٠ موسيقى كثيرة ، كانت أساليبها وطرقها التعبيرية مختلفة ولكنّ روحها أو أخلاقها كانت واحدة في كل الحالات . فالسلوك الإنساني الذي خرجت الموسيقى الكلاسيكية تعبيراً عنه ، سلوك واحد دائماً لا يختلف ولايتغيّر ، ويعتمد دائماً على ضرب واحد من العلم بالحياة ويرمي الى ضرب واحد من سيطرة الإنسان على المصادفة . وظاهرة الموسيقى الكلاسيكية تعني : العلم بمأساة الإنسانية وقبول مصير الإنسان ، والشجاعة

والصفاء . وسواء أخذنا مثلاً طلاوة منويتو من أعمال هندل أو آخر من أعمال كوبران ، أو أخذنا حسية ارتقت الى التعبير الرقيق كما في أعمال كثيرة من الموسيقيّين الإيطاليّين وأعمال موتسارت ، أو أخذنا الاستعداد الساكن المتجلّد للموت كما في أعمال باخ ، فإننا نجد فيها دائماً العناد والشجاعة أمام الموت ونجد فيها الفروسية ونغمة من ضحك فوق مستوى البشر وإشراقاً خالداً لايموت . هذا ماينبغي أن ينبض في ألعابنا بالكريّات الزجاجية وينبض في حياتنا كلّها وينبض فيما نفعل وفيما نعاني » .

هذه الكلمات سجّلها تلميذ من تلامذة كنشت . وبها نختم نظرتنا في لعبة الكريات الزجاجية .

سيرة حياة الماجستر

لودي يوزف كنشت

الفصل الأول

الإلهام

لم يصل الى علمنا شيء عن أصل يوزف كنشت[١] ويبدو أنه مثل الكثيرين من تلاميذ مدارس الصفوة ـ قد فقد أبويه في سن مبكّرة ، أو ربّما تكون الهيئة القائمة على شؤون التربية قد تبنّته وأخرجته من ظروف معيشية غير مواتية . المهم أنه لم يكن الصراع بين مدرسة الصفوة وبين أسرة التلميذ ، ذلك الصراع الذي يثقل سني الشباب المبكّرة للكثيرين من أمثاله أثقالاً ويجعل من الصعب دخولهم في الطائفة ويحوّل شباباً من ذوي الموهبة العالية في أحوال كثيرة الى شخصيّات صعبة مشكلة .

كان كنشت أحد السعداء الذين ولدوا واختارهم القدر خصّيصاً لـ« كاستاليا » وللطائفة وللعمل في الهيئة القائمة على شؤون التربية . حقيقة أنّ مشاكل الحياة الفكرية لم تكن غريبة عليه ، ولكنّ القدر إجتباه وجعله يعرف قدر المأساة التي تولد مع كل حياة تختص بالفكر ، دون حاجة به الى تجربتها وتجرّع كأس مرارتها شخصياً . هذا الى أن هذه الناحية التراجيكية ليست هي التي اجتذبتنا بصفة خاصة ووجّهتنا لكتابة دراسة عميقة دقيقة لشخصية يوزف كنشت . إنّ الذي اجتذبنا الى هذه المهمّة هي الطريقة الساكنة الصافية المشرقة التي نفّذ بها قدره وموهبته ورسالته ، كان ليوزف

(١) معنى كلمة كنشت = عبد . (المترجم)

كنشت مثله في ذلك مثل كل إنسـان هام ، شيطانه وكان له حبّه القدري . لكنّ حبّه القدري هذا يلوح لنا مجرّداً من الرهبة والتعصّب . صحيح أننا لا نعرف خفايا يوزف كنشت ، ولا نريد أن ننسى أن كتابة التاريخ مهما التزمت التجرّد ومهما ساندتها الإرادة الطيبة لاحترام الموضوعية ، تظل دائماً ضرباً من الأدب ، يكوّن فيه الخيال البعد الثالث . فنحن لا نعرف ـ ولنختر هنا أمثلة عظيمة بارزة ـ بالضبط إذا كان « يوهان زبستيان باخ » أو « فولفجانج أماديوس موتسارت » قد عاشا حياتهما بمزاج منبسط أو بمزاج منقبض . يمثّل موتسارت في نظرنا طلاوة الإنسان الذي اكتمل في سن مبكّرة طلاوة توحي في أنفسنا بحب مؤثّر غريب . وباخ يمثّل في نظرنا الاستسلام المفعَم بالتديّن والسلوى لضرورة التألّم ولضرورة الموت ، كالاستسلام لإرادة الله الأبوية . هذه الأشياء لا نجدها بتاتاً مكتوبة في سير حياتهما ، ولانجدها في الوقائع المروية عن حياتهما الخاصة ، وإنّما نستخلصها من أعمالهما ، من موسيقاهما . ونحن نضيف الى باخ ـ عن غير قصد ـ معلومات عمّا حدث له ولأعماله بعد وفاته بناءً على مانعرفه من سيرته ونتمثّله من موسيقاه : فنضيف اليه في خيالنا ونحن نتصوّره حيّاً معرفتنا بمصير مؤلّفاته بعد موته وندعه في مخيلتنا يبتسم ثمّ يصمت لوقوع أعماله في النسيان بعد موته مباشرة ، ولضياع مخطوطاته في المهملات ، ولشهرة أحد أبنائه وحصوله بدلاً من أبيه على لقب « باخ العظيم » وتمتّعه بالنجاح ، ثمّ لإيقاظ أعماله من سباتها ووقوعها بين أغلاط عصر صحافة التسلية وهمجيّاته ، الى آخر ذلك . كذلك نميل الى جعل موتسارت ، وهو مايزال في أكمل وأتمّ نشاطه ، يعرف بأمر المنية تحكم قبضتها عليه ، ونتصوّره وهو يعرف أنّ الموت يحيط به . كذلك المؤرّخ وهو يعالج عملاً من الأعمال بين يديه ، لايمكنه أن يمنع نفسه من تصوّر العمل وحياة صاحبه كشطري وحدة حية لاسبيل الى الفصل بينهما . هكذا حالنا مع موتسارت أو

باخ . وهذه هي حالنا أيضاً مع كنشت ، على الرغم من أنَ كنشت ينتمي الى عصرنا هذا الذي يتميّز قبل كل شيء آخر بأنه عصر لايبدع مثلما أبدعت العصور الأخرى من الأعمال ، أي على الرغم من أنه لم يخلف «عملاً» كتلك الأعمال التي خلفها من أشرنا اليهم من الجهابذة .

ونحن إذ نقوم بمحاولة كتابة قصة حياة كنشت ، نقوم في الوقت ذاته بمحاولة لتفسيرها . وإذا كنّا كمؤرّخين نأسف أشد الأسف لضياع كل الأخبار تقريباً التي يصح الإعتماد عليها في التأريخ للجزء الأخير من حياته ، فإننا نجد في تحوّل هذا الجزء الأخير من حياة كنشت الى أسطورة أمراً يبث فينا الشجاعة على السير في مهمّتنا الى نهايتها . سنأخذ هذه الأسطورة ونقبلها بغض النظر عمّا إذا كانت قصّة مختلقة أو لم تكن . إذن فنحن لانعلم عن مولد كنشت شيئاً ولانعلم الأصل الذي انحدر منه وكذلك لانعلم من أمر نهايته شيئاً . وليس لنا الحق أدنى الحق في الحكم بأنّ نهايته كانت من صنع الصدفة . فنحن نرى حياته ، على قدر ماعلمنا من أمرها ، مبنية على مراحل متتابعة واضحة في تتابعها ، ويدفعنا هذا التتابع الواضح ـ ونحن نفترض الفروض لنهايته ـ الى التصميم على السير في الطريق الذي سارت فيه الأسطورة وقبولها قبول المصدّق المؤمن بصحّتها ، لأن هذه الأسطورة بما تروي تبدو لنا بمثابة المرحلة الأخيرة التي تتطابق مع المراحل السابقة عليها كل التطابق . بل أننا نزيد على ذلك فنعترف بأنّ تحوّل هذه الحياة في آخرها الى أسطورة يلوح لنا نتيجة عضوية وأمراً صحيحاً ، فنحن إذا غاب عن بصرنا بعض النجوم و«أفل» نظل نؤمن باستمرار وجوده ولايخالج إيماننا بذلك أي شك . ويوزف كنشت وصل في العالم الذي نعيش فيه ، نحن كاتب هذا السجل وقرّاؤه ، الى أعلى مايمكن تصوّر الوصول اليه وحقّق أعلى مايمكن تصوّر تحقيقه ، بأن كان بصفته أستاذ اللعبة زعيماً ومثالاً للمثقّفين والطامحين في مجال الفكر . قام على التراث الفكري المنقول خير قيام ونمّاه

تنميةنموذجية كأنّه كاهن أعظم يقوم على معبد يقدّسه كل واحد منّا . وهو لم يقتصر على بلوغ دائرة الأستاذية والوصول الى أعلى منصب على قمة سلّمنا الطبقي والبقاء فيه ، بل تجاوزه وكبر عليه ونماعلى نحو لايمكننا أن نتخيّله في إعزاز وإكبار ، لهذا بدا لنا من الصواب إلا أنّ تطابق قصّة حياته ، حياته نفسها ، فتتجاوز الحدود المعروفة وتستحيل في نهايتها الى أسطورة . فلنقبل مافي هذه الواقعة من إعجاز دون إسراف في تأويله . وسنعالج حياة كنشت معالجتنا القصة التاريخية طالما كانت كذلك ، أي الى يوم بعينه ، متّبعين الرواية التي وصلتنا تتبّعاً دقيقاً على نحو ماتمثّلت لأبحاثنا وتقصّينا .

لانعلم من أيّام طفولته ، أي من الفترة التي سبقت قبوله في مدارس الصفوة ، سوى حادثة واحدة ، ولكنّها حادثة هامة ، ذات مدلول رمزي لأنّهاتمثّل أوّل نداء وجهه اليه الفكر ، وأوّل عمل من أعمال إلهامة ، ويتّسم هذا النداء بسمة مميزة وهي أنه لم يأت من ناحية العلم بل أتى من ناحية الموسيقى . وقد حفظ لنا هذه القطعة الصغيرة من قصة حياة كنشت ومعها كل الذكريات التي لدينا عن حياة كنشت الشخصية تقريباً ، ماسجّله تلميذ من تلاميذ لعبة الكريات الزجاجية كان متعلّقاً به تعلّق الإعزاز والتبجيل المخلص فأثبت الكثير من كلمات أستاذه العظيم وأخباره .

كان كنشت في ذلك الوقت في نحو الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره ، على مانرجح ، وكان تلميذاً يتعلّم اللاتينية في بلدة «بيرولفنجن» على حافة «غابة تسابر» والتي يعتقد أنّها البلدة التي ولد بها . حقيقة أنّ الصبي كان لتفوّقه قد ظلّ يتلقّى منحة دراسية منذ مدّة طويلة ليدرس بالمجّان في المدرسة اللاتينية وإنّ مدرّسيه وخاصة مدرّس الموسيقى قد أوصوا الجهات العليا مرّتين أو ثلاث مرّات بقبوله في مدارس الصفوة ، ولكنّه لم يكن يعلم بشيء من هذا ولم يحدث أن التقى قط لا بالصفوة ولا بأساتذة الهيئة العليا للتربية . وفجأة أبلغه مدرّس الموسيقى (وكان كنشت في ذلك

الوقت يتعلّم العزف على الكمان وعلى العود) بأنّ أستاذ الموسيقى ربّما يأتي عن قريب الى «بيرولفنجن» ليفتّش على تعليم الموسيقى في المدرسة وحثه على الإجتهاد في التمرين حتّى لا يتسبّب لنفسه ولمدرسته في الإحراج. فأثار هذا الخبر الصبي أعمق إثارة فقد كان يعرف طبعاً من هو أستاذ الموسيقى ويعرف أنه ليس كالمفتّشين الذين يأتون مرّتين في العام من إحدى المناطق العليا بالهيئة العليا للتربية، بل واحد من اثني عشر نصف إله، واحد من اثني عشر رئيساً أعلى لهذه الهيئة المبجّلة، والدائرة العليا التي لا يعلو عليها شيء في الدولة كلّها فيما يختص بالشؤون الموسيقية. سيأتي أستاذ الموسيقى نفسه، «الماجستر موزيكه»[1] بلحمه ودمه، الى «بيرولفنجن»! لم يكن الصبي يعرف في الدنيا إنساناً تحوطه الأساطير والأسرار أكثر من أستاذ الموسيقى إلاّ شخصاً واحداً فقط: هو أستاذ لعبة الكريّات الزجاجية. كان الإحترام الهائل الممتزج بالخوف يملأ قلب الصبي مقدّماً تجاه أستاذ الموسيقى الذي وصل خبر مقدمه، وكان يتمثّله تارة على أنه ملك وتارة على أنه ساحر وتارة كما لو كان واحداً من الرسل الاثني عشر، تلاميذ المسيح أو واحداً من فنّاني العصور الكلاسيكية الذين تحيط بهم الأسطورة أمثال ميشائيل بريتوريوس وكلاوديو مونتيفردي و ي. ي. فروبرجو أو يوهان زبستيان باخ - وكان يشتاق للحظة التي سيظهر فيها هذا النجم، ويحس في الوقت نفسه حيالها بالرهبة. كان حضور واحد من أنصاف الآلهة، من الملائكة المقرّبين، من الأوصياء ذوي السلطة الذين تحيط بهم الأساطير والمهيمنين على دنيا الفكر، كان حضور واحد من هذا القبيل الى المدينة الصغيرة والى المدرسة اللاتينية بلحمه ودمه ليراه، بل ربّما وجّه اليه الحديث وامتحنه فوبّخه أو امتدحه، حدثاً عظيماً يشبه

(١) أستاذ الموسيقى (باللغة اللاتينية). (المترجم)

المعجزة أو الظاهرة السماوية الفريدة النادرة . يضاف الى هذا ماأكّده المدرّسون من أنّ هذه هي المرّة الأولى ، منذ عشرات السنين ، التي يقوم فيها أستاذ الموسيقى الماجستر موزيكه شخصياً بزيارة البلدة والمدرسة اللاتينية الصغيرة . وصوّر الصبي لنفسه الحدث المنتظر في صور كثيرة ، فتصوّر أوّلاً احتفالاً عاماً عظيماً واستقبالاً كالذي رآه عندما تولّى العمدة الجديد منصبه ، تعزف فيه الموسيقى النحاسية وتزيّن له الشوارع بالأعلام ، وربّما أطلقت له الصواريخ النارية ، هذه هي الصور التي طافت بمخيّلة كنشت وتوقّع حدوثها ، وطافت أيضاً بمخيّلة أقرانة وتوقّعوها أو نحوها . لكنّ فرحته المبكّرة كانت تنحسر عندما يفكّر في أنّه ربّما تحتّم عليه أن يقترب من هذا الرجل العظيم اقتراباً وأن يقدّم له ، وهو العارف العظيم ، من الموسيقى والأجوبة مايأتي له بإحراج لاسبيل الى احتماله . على أنّ هذا الخوف لم يكن خوفاً مؤرّقاً فحسب بل كان أيضاً خوفاً حلواً ، فقد كان كنشت في قرارة نفسه يرى ، وإن لم يبح بذلك ، أنّ الإحتفال المنتظر بأعلامه وصواريخه النارية لايصل الى جمال وإثارة وأهميّة وفرحة وبهجة الحقيقة المتمثّلة في أنّه هو الصغير يوزف كنشت سيرى هذا الرجل عن أقرب قرب وفي أنّ هذا الرجل يأتي الى حد ما من أجله هو ، من أجل يوزف ، ليقوم بزيارة لبيرولفنجن ، فهو سيأتي للتفتيش على تعليم الموسيقى ومن الواضح أنّ مدرّس الموسيقى يتوقّع أنه سيقوم كذلك بامتحان يوزف .

ولكن ربّما ، آه ، بل من الراجح ألا تتحقّق هذه الزيارة ، وكان حدوثها والحق يقال أمراً لايكاد يصدّق . فمن المؤكّد إذن أن يكون لدى الأستاذ شيء آخر يقدّم إنجازه على زيارة صبي صغير وملاحظته وهو يعزف على الكمان ، بل ربّما فضّل مشاهدة التلاميذ الكبار المتقدّمين والاستماع اليهم . تلك كانت الأفكار التي كانت تساور الصبي وهو ينتظر اليوم الموعود . وجاء اليوم الموعود وبدأ بما خيّب أمل الصبي : الشوارع لم تدوِ فيها الموسيقى ،

والأعلام لم تعلّق ، وباقات الزهور لم تزيّن المنازل ، وراح التلاميذ كعادتهم كل يوم يتناولون الكتب والكرّاسات ويتلقّون العلم على النحو المألوف . حتّى حجرة الدراسة لم يطرأ عليها أي أثر للزينة أو الإحتفال . كان كل شيء يبدو على نحو ماكان يبدو كلّ يوم . بدأ الدرس كالمعتاد ، وكان المعلّم يلبس الرداء الذي اعتاد كل يوم أن يلبسه ولم يشر الى الضيف العظيم بخطبة ولا بكلمة .

ومع ذلك فقد تمّت الزيارة في الحصّة الثانية أو الثالثة . إذ أتى خادم المدرسة وقرع الباب ثمّ دخل وحيّا المعلّم وأبلغه أنّ على التلميذ يوزف كنشت أن يذهب الى مدرّس الموسيقى في خلال ربع ساعة وأنّ عليه أن يلتفت الى تمشيط شعره على نحوٍ لائق والى تنظيف يديه وأظافره . وشحب لون كنشت من الرعب ، وخرج يترنّح مغادراً المدرسة الى «القسم الداخلي» حيث ترك كتبه واغتسل ومشّط شعره وتناول صندوق الكمان بيد مرتعشة وأخذ كرّاسة التمرينات واتّجه وحلقه منقبض مختنق ، الى حجرات الموسيقى في المبنى الملاصق . وقابله على الدرج تلميذ مضطرب أرشده الى حجرة من حجرات التمرين وقال له : «انتظر هنا حتّى يأتي من يناديك» .

وانقضى وقت ليس بالطويل ، وإن لاح له أبدياً ، حتّى أتاه الخلاص من الإنتظار . لم يأته من يناديه ، بل دخل عليه رجل ، رجل طاعن في السن ، على قدر ماتبيّن في أوّل الأمر ، ليس بالطويل المسرف في الطول ، رجل له شعر أبيض ووجه جميل منير وعينان زرقاوان زرقة فاتحة تنظران نظرة ثاقبة ربّما أشاعت الرهبة ولكنّها نظرة ثاقبة باشّة في وقت معاً ، بشاشتها ليست بالضاحكة ولا المبتسمة بل بشاشة وادعة لها بريق ساكن . ومدّ يده الى الصبي وهزّ رأسه لتحيّته ثمّ جلس متفكّراً على الكرسي المستدير أمام بيانو التمرين وقال : «أنت يوزف كنشت ؟ يبدو أنّ مدرّسك مسرور منك ، وأعتقد أنّه يحبّك ، تعال نعزف معاً قليلاً» . وكان كنشت قد أخرج كمانه

من صندوقه ، فلمّا دقّ الرجل المسن نغمة «لا» ضبط عليها ثمّ نظر الى أستاذ الموسيقى نظرة فيها التساؤل والخوف .

فسأله أستاذ الموسيقي : «ماذا تحب أن تعزف ؟» فلم يرد التلميذ بشيء ، فقد كانت هيبة الرجل المسن قد ملأته وفاضت ، وكيف لا وهو لم يرَ في حياته من قبل رجلاً كهذا الرجل . ثمّ تناول في تردّد كراسة النوت الموسيقية ومدّها الى الرجل .

وهنا قال له الأستاذ : «لا ، أريد أن تعزف عن ظهر قلب ، ولاتعزف قطعة من قطع التمارين ، بل إعزف لي قطعة بسيطة تحفظها عن ظهر قلب ، ولتكن أغنية مما تحب» .

كان كنشت مضطرباً ، سحره هذا الوجه وسحرته هاتان العينان ، فلم يرد وخجل خجلاً شديداً من إضطرابه ولكن لم يتمكّن من التلفّظ بأي كلمة . ولم يلح الأستاذ . بل ضرب بإصبع واحدة النغمات الأولى لبعض الألحان ونظر الى الصبي نظرة تساؤل فأومأ الصبي برأسه وعزف اللحن معه في الحال مسروراً . كان اللحن أغنية من الأغاني القديمة التي طالما غنّاها التلاميذ في المدرسة .

ثمّ قال الأستاذ : «أعد!» . فأعاد كنشت اللحن وصاحبه الشيخ عازفاً طبقة ثانية . ودوت الحجرة بالأغنية القديمة تردّدت بطبقتين .

«أعد!» .

فأعاد كنشت العزف ، وعزف الأستاذ الطبقة الثانية والثالثة . ودوّت الأغنية القديمة الحلوة في الحجرات بثلاث طبقات .

«أعد!» وعزف الأستاذ ثلاث طبقات معه .

ثمّ قال الأستاذ بصوت خفيض : «أغنية جميلة!» . «اعزفها على طبقة «ألتو!» .

وأطاع كنشت وعزف . كان الأستاذ قد أعطاه النغمة الأولى ، فعزف

معه الطبقات الثلاث الأخرى . وصار الشيخ يقول : «أعد!» ويكرّرها مراراً ، وفي كل مرّة يزداد اللحن بهجة . عزف كنشت اللحن في طبقة «التينور» وصاحبه الأستاذ بطبقتين أو بثلاث طبقات مقابلة . وتكرّر العزف ، ولم تعد هناك ضرورة للتفاهم على تشكيل اللحن ، فقد استجابا في العزف معاً ، وكلّما كرّرا العزف زادت الأغنية تلقائيّاً في المحسّنات والتحالي . وتردّدت الأنغام في الحجرة الخالية إلاّ من نور الضحى البهيج ، وكأنّما كانت في عيد .

وبعد برهة توقّف الشيخ عن العزف وسأل : «أيكفي هذا ؟» . فهزّ كنشت رأسه وأعاد العزف من الأوّل ، فإنطلق الأستاذ فرحاً يصاحبه بثلاث طبقات . وصارت الطبقات الأربع تمد خطوطها الرفيعة الواضحة وتتحادث وترتكن بعضها على بعض وتتداخل بعضها في بعض وتحوّر بعضها لعب البعض الآخر ، في أقواس ومنحنيات وأشكال بهيجة والصبي والشيخ لايفكّران في شيء ، بل يستسلمان للخطوط المتآخية الجميلة وللأشكال التي ترسمها في مقابلاتها ، يعزفان أسيري شباكها ، ويتمايلان تمايلاً رفيقاً معها متّبعين قائداً خفيّاً . الى أن إلتفت الأستاذ بعد نهاية اللحن وسأل الصبي قائلاً : «هل أعجبك هذا ، يا يوزف ؟» .

فنظر اليه كنشت نظرة فيها الإمتنان وفيها الثناء . كان النور يشعّ من محياه ولكنّ الكلام لايخرج من فمه .

وبدأ الأستاذ يسأل : «أتعرف ما هي «الفوجه» ؟» .

وبدا الشك على وجه كنشت . كان قد سمع فوجات ، ولكن لم يأت فيمّا تَلَقّى من دروس حديث عنها .

وهنا قال الأستاذ : «لابأس ، سأبيّن لك ماهي . وأسرع طريقة لإفهامك ماهي ، هو أن نؤلّف معاً فوجه ، أوّل شيء تحتاجه الفوجة هو لحن ، ولاعلينا أن نطيل البحث ، لنأخذ لحناً من أغنيتنا» .

ثمّ عزف سلسلة من الأنغام ، هي قطعة صغيرة من لحن الأغنية ، سرت

بديعة الى الأسماع ، وقد اقتصّت هكذا من الأغنية ، بلا رأس وبلا ذنب . وأعاد عزف اللحن المختار مرّة ثانية ، وبدأ التأليف ، فجاءت الجملة الأولى ، وتبعتها الثانية التي حوّرت السلم من النغمة الخامسة الى النغمة الرابعة ، أمّا الجملة الثالثة فأعادت الأولى وقد رفعتها ثمناً ، وكذلك فعلت الجملة الرابعة بالثانية ، وانتهى العرض بخاتمة من نوع مقام الجملة الرئيسية ، وفي العزف الثاني جرى تحوير حر على أساس مقامات أخرى . وفي العزف الثالث جرى تحوير بميل الى الجملة تحت الرئيسية وجاء الختام على أساس النغمة الأساسية . وظلّ الصبي ينظر الى أصابع العازف البيضاء الماهرة ويرى في وجهه المأخوذ خطّ سير التطوّر ينعكس انعكاساً رفيقاً بينما سكنت العينان تحت جفنين نصف مطبقين . وفاض قلب الصبي احتراماً وحبّاً للأستاذ ، وأذنه تسمع الفوجه وهو يظن أنه يسمع لأوّل مرّة موسيقى ، كان يحسّ وراء المؤلّف الموسيقي الذي يتكوّن أمامه الفكر ، والإنسجام المسعد بين القانون والحرّية ، بين العبادة والسيادة ، فأسلم نفسه ونذر نفسه لهذا الفكر ولهذا الأستاذ ، ورأى نفسه وحياته ورأى الدنيا كلّها في هذه اللحظات يوجّهها الفكر الموسيقي وينظّمها ويفسّرها . ولمّا انتهى العزف ظلّ ينظر الى المبجّل ، الى الساحر ، الى الملك وهوينحني على أصابع البيانو بجفنين نصف مطبقين ووجه ينير رفيقاً من الداخل الى الخارج ، واحتار هل يهلّل فرحاً بنعيم تلك اللحظات أم يبكي لانقضائها . ونهض الرجل المسن بطيئاً من مقعد البيانو الصغير ونظر اليه بعينيه الباشّتين الزرقاوين نظرة ثاقبة ولطيفة في الوقت نفسه ، لايصوّر لطفها تعبير ثمّ قال : «ليست هناك مناسبة في الدنيا يتصادق فيها شخصان في يسر أكثر من الاشتراك في عزف الموسيقى . هذا شيء جميل حقّاً . أرجو أن نظل أصدقاء ، أنت وأنا . ولعلّك تتعلّم ، يايوزف ، تأليف الفوجات» . فلمّا فرغ من كلامه هذا مدّ يده الى يوزف مصافحاً ثمّ ولّى ، ولمّا بلغ الباب التفت مرة ثانية وحيّا الصبي مودّعاً بنظرة وإيماءة رفيقة مهذّبة .

وحكى كنشت لتلميذه عن هذه المقابلة بعد إنقضاء سنين كثيرة عليها فقال : «إنه عندما غادر المكان وجد المدينة والدنيا وقد أصابهما تغيير وسحر أكثر مما لو كانت أعلام وباقات الزهور وأشرطة وصواريخ نارية قد زينتهما . كان قد أحسّ بعملية الإلهام التي يصح للإنسان أن يسمّيها بحق سراً قدسيّاً : لقد ظهر العالم المثالي له وفتح أبوابه له في دعوة بالدخول ، ذلك العالم المثالي الذي كانت نفسه الغريرة حتى ذلك الحين لا تعرفه إلا مما يحكى لها عنه ويصل إلى أسماعها أو مما يخالجها من أحلام متأججة لم يعد هذا العالم المثالي بالنسبة اليه عالماً موجوداً في مكان ما على بعد سحيق في الماضي أو المستقبل ، لا ، لقد أصبح موجوداً هنا ، أصبح نشيطاً فعّالاً ، يرسل الإشعاعات ويبعث المبعوثين والرسل والسفراء ، رجالاً من نوع ذلك الأستاذ الشيخ الذي لم يكن في نظر يوزف طاعناً في الشيخوخة . من هذا العالم ، وعلى يد واحد من هؤلاء الرسل المبجّلين ، أتاه وهو التلميذ الصغير بالمدرسة اللاتينية بلاغ ونداء! كانت هذه هي الأهمّية التي اتخذتها تلك المقابلة بالنسبة اليه . وانقضت أسابيع آن له بعدها أن يعرف معرفة اليقين وأن يؤمن بأنّ العملية السحرية التي جرت في تلك الساعة المقدّسة ، تناظر عملية حقيقية في عالم الواقع ، وبأنّ الإلهام ليس سعادة وتنبيهاً لروحه وضميره فحسب ، بل هو الى جانب ذلك عطاء وبيان صادران من قوى الأرض اليه . وتبيّن بمضي الوقت أنّ زيارة أستاذ الموسيقى لم تكن مصادفة ولم تكن تهدف الى التفتيش على المدرسة ، وإنّما كان اسمه قد أدرج منذ وقت طويل على أساس تقريرات معلّميه في قوائم التلاميذ الذين يعتقد أنّهم جديرون بمدارس الصفوة أو الذين توصي الهيئة التربوية العليا بشأنهم توصية بهذا المعنى . ولمّا كان الصبي كنشت قد حاز على تقدير في معرفة اللاتينية وفي حسن الخلق من ناحية ، وقام مدرّس الموسيقى بالذات بالتوصية به والتعريف به من ناحية ثانية ، فقد قرّر أستاذ الموسيقى أن

ينتهز فرصة القيام برحلة رسمية ليقتطع منها بضع ساعات لبيرولفنجن حتّى يرى هذا التلميذ ، ولم يكن يوجّه اهتمامه خاصة الى اللاتينية ولا الى المهارة اليدوية (وآثر الإعتماد في هذه الفروع على شهادات المدرّسين التي عكف ساعة على دراستها) بل يوجهه خاصة الى معرفة ماإذا كان الصبي يضمّ في كيانه كلّه العنصر اللازم للموسيقى بالمعنى السامي ، وللتحمّس ، وللإندماج في النظام ، وللإحترام ، ولخدمة المفاهيم المقدّسة . وكان المدرّسون بالمدارس الثانوية الحكومية في المعتاد لايضنون بالتوصية بقبول التلاميذ في مدارس الصفوة ، وكان يحدث أحياناً أن تكون التوصيات صادرة عن نوايا متفاوتة في الإخلاص أو أن يوصي أحد المدرّسين بتلميذ مفضّل ويؤكّد توصيته ويتمسّك بها في إصرار لضيق أفقه ، ولايكون عند التلميذ الموصى به عدا الإجتهاد والطموح وحسن معاملة المدرّسين غير القليل من المميزات . ولم يكن أستاذ الموسيقى يكره شيئاً أكثر من كرهه مثل هذا التصرّف ، وكان يحسن تبيّن ماذا كان المرشّح يعي ، وهو يمتحن ، أنّ مستقبله وعمله يتقرّران في تلك اللحظة . وويل للتلميذ الذي يسرف في إظهار مهارة أو وعي أو حذق أو يحاول التودّد اليه ، وكثيراً ماقضى أمره حتّى قبل بدء الامتحان .

أعجب التلميذ كنشت أستاذ الموسيقى المسن إذن ، أعجبه إعجاباً شديداً ، حتّى أنه بات يفكّر فيه مسروراً وهو يستأنف رحلته . وهو لم يأخذ مذكّرة تحريرية بشأنه ، ولم يدوّن في دفتره أي تقرير عنه ، واكتفى بصورة الصبي النضر المتواضع التي علقت بذاكرته . ولمّا عاد الى مقرّه ، كتب بيده اسم الصبي في قائمة التلاميذ الذين امتحنهم عضو من أعضاء الهيئة التربوية العليا بنفسه وقرّر صلاحيّتهم للقبول في مدارس الصفوة .

كان يوزف قد سمع بهذه القائمة ـ وكان تلاميذ المدرسة اللاتينية يسمّونها «الكتاب الذهبي» وكان البعض يطلق عليها أحياناً للسخرية اسم

« سجل الطامحين » ، وكان الحديث عنها يختلف في اللهجة اختلافاً كبيراً . فإذا أشار اليها مدرّس ، ليوبّخ بعض التلاميذ ، ذاكراً أنّ صبيّاً مثله لايصح أن يفكّر أبداً في أنه سيصل يوماً الى مرتبتها ، كان في لهجته شيء من التعظيم والاحترام والمبالغة في إظهار أهميّتها . أمّا التلاميذ وهم يشيرون إليها باسم « سجل الطامحين » فكانوا يتكلّمون عنها عادة بلهجة وقحة وتجاهل متعمّد مبالغ فيه . فقد حدث أن سمع يوزف تلميذاً يتحدّث عنها قائلاً : « لايهمّني ، أنا أبصق لكم على سجل الطامحين السخيف! صدّقوني ، لايدخل في هذا السجل من كان شاباً نابهاً بحق . إنّما يختار المدرّسون له البلهاء البلداء » .

وتبع حدوث الوقعة الجميلة ، وقت عجيب . لم يكن الصبي يعلم في أوّل الأمر أنه دخل في عداد « الصفوة » ، « صفوة الشباب » كما يقول إصطلاح الطائفة لتلاميذ مدارس الصفوة ، بل إنّ لم يفكّر مطلقاً في نتائج وعملية وآثار محسوسة لهذه المقابلة على مصيره وعلى حياته اليوميه . كان مدرّسوه يرون فيه صبيّاً ممتازاً يوشك أن يودّعهم ، وكان هو بالوقت نفسه يحسّ بإلهامه كعلمية توشك ألا تدور إلا في داخله هو ، ويتمثّله قطعاً حاداً أصاب حياته . فإذا كانت الساعة التي أمضاها مع الساحر قد حقّقت في قلبه أشياء توقّعها ، أو قرّبتها من التحقيق ، فقد أدّت تلك الساعة الى الفصل التام بين أمس واليوم ، بين ماكان وماهو كائن وبين ما سوف يكون ، وأصبحت حاله كحال مستيقظ من حلم يرى نفسه في نفس المكان الذي رآه في الحلم ولا يستطيع أن يشك في أنّه قد استيقظ فعلاً . وللإلهام أنواع وأشكال عديدة ، لكنّ معناها ومغزاها دائماً واحد : به توقظ الروح وتحوّر أو تعظّم ، الى أن يأتي الى الروح ، بدلاً من الأحلام والتوقّعات الصادرة عن داخلها ، نداء مفاجيء من الخارج هو عبارة عن قطعة من الواقع تقف حيال المرء وتنفذ اليه . في حالتنا هذه يمثّل الأستاذ المسن قطعة الواقع : ظهر بلحمه ودمه ، وكان يعتبر شخصية نصف إلهية على بعد سحيق ، أو ملكاً عظيماً من أعلى

السماوات ، ظهر أستاذ الموسيقى بعينيه الزرقاوين العليمتين وجلس على كرسي البيانو الصغير أمام بيانو التمرين واشترك مع يوزف في العزف ، العزف البديع ، وعلّمه بلا كلمات تقريباً ، ما هي الموسيقى ثمّ باركه واختفى . كان كنشت في حالة لا تمكّنه مؤقّتاً من التفكير في كل مايمكن أن ينجم عن هذا التحوّل أو يستتبعه ، لأنّ صدى الواقعة الباطني المباشر كان يملؤه ويشغله غاية الشغل . كان كالشجرة الصغيرة التي ظلّت الى ذلك الحين ساكنة تنمو نموّاً متردّداً فإذا بها تبدأ بالتنفّس على نحوأعنف وفي النمو بخطى أوسع كما لو كان قانون هيئتها قد بان لها فجأة ، ووضح لوعيها في ساعة من ساعات الإعجاز ، فصارت تطمح في صميمها الى تحقيقه . هكذا بدأ الصبي ، بعد أن لمسته يد الساحر ، يستجمع قواه بسرعة ولهفة ويشحذها ، وقد أحسّ أنه تغيّر ، أحسّ أنه ينمو ، أحسّ بتواترات جديدة وبتوافقات جديدة بينه وبين العالم ، وأصبح في استطاعته في حصص من حصص الموسيقى واللاتينية والرياضيّات أن ينجز واجبات تزيد على مستوى سنّه وأقرانه زيادة بعيدة ويحس في نفسه القدرة على القيام بكل مجهود ، وكان في حصص أخرى قادراً على نسيان كل شيء والتهويم في نعومة واستسلام جديدين عليه ، فينصت الى الريح أو المطر ويحدّق في زهرة أو في نهر منساب ، لا يفهم شيئاً ولكن يحس بكل شيء ، وقد تملّكه تعاطف وفضول ورغبة في الفهم ، وانزاح عن ذات نفسه الى الشيء الآخر ، الى العالم ، الى السر المكنون والسر المقدّس ، الى لعب الظواهر الذي يتّصف بالجمال والإيلام في وقت معاً .

وهكذا تكامل الإلهام ليوزف كنشت في صفاء تام ، بدأ من الداخل ونما حتّى وصل الى مرحلة المقابلة وتأكيد الداخل والخارج . اجتاز يوزف كنشت المراحل كلّها وذاق مباهجها كلّها ومنغّصاتها جميعاً . اكتمل هذا التحوّل العظيم كما تكتمل قصة الشباب الحقّة وكما تكتمل قصة نشأة كل مفكّر

كريم ، فلا عكّرت صفوها اكتشافات مفاجئة ولاعاكستها إبانات غير مواتية . وإنّما نما الداخل ونما الخارج نمواً منسجماً متساوياً الواحد في اتجاه الآخر . فلمّا تمّت مراحل النمو هذه ووعى التلميذ موقفه ، وشعر بمصيره الخارجي ، ورأى المدرّسين يعاملونه معاملتهم لأقرانهم ، بل معاملتهم لضيف كريم ينتظرون في كل لحظة انصرافه عنهم ، ورأى زملاءه التلاميذ يعجبون به أو يحسدونه تارة ويتحاشونه بل يشكّون فيه تارة أخرى ، ورأى بعض المعادين يسخرون منه ويكرهونه ، ورأى أنه ينفصل عن أصدقائه القدامى انفصالاً متزايداً وأنهم يهجرونه ويمعنون في هجره ـ كانت عملية الإنفصال والاعتزال نفسها قد تمّت في داخله تماماً ، وأصبح يتلقّى من الداخل أحاسيس خاصة ، بأنّ المدرّسين يتحوّلون تدريجيّاً الى زملاء له ، وبأنّ الأصدقاء القدامى يتحوّلون تدريجيّاً الى متقاعسين في الطريق ، وأحسّ بأنه في المدرسة وفي المدينة يعيش بين أناس لايساوونه وفي مكان ليس بمكانه ، وأحسّ كما لو كان كل هذا قد انغمس في موت خفي وانغمر في تيّار من اللاواقعية ، وتشرّب بالماضي الذي كان تلاشى ، تحوّل كل هذا الى شيء مؤقّت ، الى ثوب تهلهل ولم يعد يصلح في أي مكان . وأصبح هذا النمو الذي خرج به من بيئته التي كانت حتّى ذلك الحين منسجمة محببة ، وأصبح هذا التحوّل عن أسلوب الحياة الذي لم يعد يناسبه ، وأصبحت حياته التي توقّفت منذ ساعات الإنعام السامي والإحساس الوضّاح بالذات ، فكانت حياة مودّع مستدعى الى بعيد ، أصبحت هذه الحياة كلّها في النهاية عذاباً عظيماً وكابوساً لايكاد حمله يطاق ، وألماً أليماً ، فقد تخلّى عنه كل شيء ، دون أن يعرف يقيناً ، ما إذا كان هو الذي تخلّى عن كل شيء وما إذا كان هذا الموات والاغتراب بين جنبات عالمه المألوف الحبيب قد حدث نتيجة لإثم ارتكبه هو بطموحه وتطاوله وتكبّره وتنكّره للحب واساءته اليه . ولاشكّ أن هذه الآلام التي تصاحب الإلهام الصادق هي أشد الآلام مرارة . إنّ من يتلقّى إلهاماً .

لايتلقى عطية وأمراً فحسب ، بل يحمل أيضاً أصراً ، كالجندي الذي يؤتى به من بين صفوف زملائه ويرقّى الى رتبة ضابط ، فهو يكون من الجدارة بالترقية بقدر ما يدفع ثمنها بإحساسه بالإثم وبوخز الضمير حيال رفاقه .

لكنّ القدر اختص كنشت بالتدرّج في مراحل هذا النمو دون أن يعترضه منغّص من المنغّصات وباجتيازها في براءة كاملة غير ممنونة : فلمّا أخبرته هيئة المدرّسين بتقدير امتيازه وبقرب دخوله مدارس الصفوة ، أحسّ في اللحظة الأولى كأنه يفاجأ بالخبر كل المفاجأة ، ثمّ تبيّن في اللحظات التالية أنّ الخبر كان معروفاً ومتوقّعاً منذ زمن طويل . فقد تذكّر أنّ كلمة «التلميذ المصطفى » أو «الصبي المصطفى » كثيراً ماقالها البعض بلهجة الاستهزاء وهم يعنونه بها . حقيقة أنه سمعها ، ولكنه سمعها نصف سمع ، ولم يحملها إلا على محمل الاستهزاء ، لاأكثر . وقدّر أن المقصود لم يكن «التلميذ المصطفى » وإنّما « يامن تتكبّر وتتعجرف وتعتبر نفسك في الصفوة » . وكثيراً ماتعذّب أشد العذاب من مظاهر شعور الغربة الذي نشأ بينه وبين أقرانه ،ولكنّه هو نفسه لم يكن ليعتبر نفسه بنفسه واحداً من الصفوة : فما كان الإلهام عنده تعلية للرتبة ، بل كانت تذكرة داخلية في نفسه وشحذاً لهمّته لاأكثر . ولكن : ألم يكن رغم كل شيء يعرف هذا ؟ ألم يكن يتوقّعه ويتوقّعه دائماً ؟ ألم يكن يحس به مائة مرّة ؟ وها هو ذا الأمر قد استبان وتحقّقت فرحته المبكّرة ، رأى أن آلامه كانت ذات معنى ، وآن له أن يخلع الثوب الذي قدم وضاق ، فقد كان ثوب جديد قد أعدّ له .

انتقلت حياة كنشت بدخوله في زمرة الصفوة الى مستوى آخر ، وتحقّقت الخطوة الأولى الحاسمة في نموّه . والحقيقة أنّ ماحدث لكنشت لايحدث لتلاميذ الصفوة كلّهم إطلاقاً ، فلا يقع قبولهم الرسمي في الصفوة وإحساسهم الداخلي بالإلهام في وقت واحد . ماحدث لكنشت «فضل الهي » أو بعبارة عادية : «صدفة سعيدة» . من تواتيه هذه الصدفة السعيدة ، تزيد حياته

امتيازاً ، وتكون كحياة البعض عندما تمنحهم مصادفة سعيدة هبات عظيمة ، كبسطة في الروح والجسم ، ومعظم تلاميذ مدارس الصفوة ، بل كلّهم تقريباً ، يعتبرون اختيارهم لهذه المدارس سعادة عظيمة ، وتقديراً يفخرون به ، وكثير منهم كانوا قبل اختيارهم للصفوة يتحرّقون شوقاً لنيل هذا التقدير . أمّا انتقال التلاميذ المصطفين من مدارسهم العادية في بلادهم الى مدارس « كاستاليا » فانتقال يثقل كاهل أغلبهم أكثر مما كانوا يتوقّعون ، ويجلب لنفر منهم خيبة الآمال . فانتقال التلاميذ ، الذين كانوا في أهليهم سعداء محبوبين ، يمثّل وداعاً مريراً وتخلّياً عن الكثير ، لهذا يكثر خاصة في السنتين الأوليين ـ إعادة التلاميذ الى المدارس العادية ، لا لأنهم يفتقرون الى الموهبة والى الاجتهاد ، ولكن لأنهم لم يؤتوا القدرة على التكيّف مع الحياة الداخلية وعلى تقبّل فكرة حل الرباط الذي يربطهم بالأهل والوطن تدريجيّاً ، الى أن يتلاشى الانتماء في النهاية تماماً ، ولايكون هناك سوى انتماء واحد له احترامه هو الانتماء الى الطائفة . كذلك يحدث من حين لآخر أن يبلغ مدارس الصفوة تلاميذ على عكس النوع السابق تماماً ، يرون في الالتحاق بمدارس الصفوة خلاصاً من بيت الأسرة وخلاصاً من مدرسة ضاقوا بها ذرعاً . في أوّل الأمر يتنفّس هؤلاء التلاميذ الصعداء لخلاصهم من أب قاسٍ أو من معلّم فظ ويتوقّعون أن يأتيهم هذا التحوّل بتغييرات عظيمة مستحيلة في حياتهم كلّها ثمّ تكون خيبة الرجاء من نصيبهم . حتّى التلاميذ الطامحون طموحاً صادقاً والتلاميذ النموذجيّون ، المتعالون ، لا يوفّقون دائماً في تحمّل كاستاليا ، لا لأنّهم لم يصلوا في نموّهم الى مستوى الدراسات المفروضة ، ولكن لأنّ الدراسات والمواد المختلفة لاتختص وحدها بإهتمام مدارس الصفوة ، بل تشترك معها في هذا الاهتمام أهداف تربوية وفنّية تسعى اليها هذه المدارس ، ويعجز البعض عن بلوغها فيلقي أمامها بسلاحه . على أن نظام مدارس الصفوة الأربع الكبرى بأقسامها العديدة وفروعها الكثيرة كان يفسح مجالاً لكثير من

المواهب ، فمن كان رياضيّاً طموحاً أو لغويّاً مثابراً وكان يحمل في ذاته جوهر العلماء ، فلا خوف عليه إن تعثّر في الموهبة الموسيقية أو تأخّر في **الموهبة الفلسفية** . بل لقد أتت على كاستاليا أزمان ظهرت فيها اتّجاهات قوية الى **رعاية العلوم الخالصة البحتة** ، ومثل هذه الإتّجاهات روّاد هبّوا في وجه أهل **الخيال ، أي الموسيقيّين والفنّانين** ، يوجّهون اليهم النقد والسخرية ، بل تجاوزوا ذلك أحياناً الى استبعاد كل ماكان فنيّاً من دوائرهم والتنكّر له ، فاستبعدوا خاصة لعبة الكريأت الزجاجية وتنكّروا لها .

ولمّا كانت حياة كنشت ، على قدر معرفتنا بها ، تدور كلّها في كاستاليا ، في تلك المنطقة الساكنة المرحة غاية السكون والمرح ببلادنا الجبلية ، والتي كان الناس فيما مضى يطلقون عليها الاسم الذي وضعه الشاعر جوته ، فيقولون لها «الاقليم التربوي» ، فقد رأينا أن نرسم بخطوط سريعة صورة هذه الـ« كاستاليا » المشهورة ونظام مدارسها مع ما في ذلك من خطر الإثقال على القارئ بتكرار ممل لأشياء يعرفها منذ زمن طويل . هذه المدارس ، التي يطلق عليها بإختصار اسم مدارس الصفوة ، عبارة عن نظام انتقائي حكيم مرن تختار بواسطته الإدارة (وتسمّى «مجلس الدراسات» وتضم عشرين مستشاراً ، عشرة من الهيئة التربوية وعشرة يمثّلون الطائفة) من بين الموهوبين من كافة أنحاء البلاد أولئك الذين يصلحون كجيل جديد للطائفة لشغل المناصب الهامة في مجالات التربية والتعليم . والمدارس العادية والمدارس الكلاسيكية (الجمنازيوم) وما إليها في بلادنا ، سواء أكانت من النوع المهتم بالدراسات الإنسانية أو من النوع المهتم بالدراسات العلمية والصناعية ، تعتبر في نظر أكثر من تسعين في المائة من شبابنا الدارسين كمدارس تعد الملتحقين بها لما يسمّى بالمهن الحرّة ، فهي تنتهي بإمتحان النضج للدراسة بالمعاهد العليا (امتحان الثانوية) ، والمعاهد العليا لها برنامج خاص في كل مادة ينبغي على الطالب إتمامه بنجاح . هذا

هو الطريق العادي المعروف لنا جميعاً الذي يسلكه الطلبة في مدارسنا ومعاهدنا . هذه المدارس تشترط شروطاً صارمة وإن التزمت حدود الاحتمال ، وتفصل غير الموهوبين كلّما أمكن ذلك . أمّا نظام مدارس الصفوة فيسير الى جانب هذه المدارس أو فوقها ، ولايقبل في مدارس الصفوة بصورة تجريبية إلا أبرز التلاميذ موهبة وخلقاً . والتلاميذ لايبلغون مدارس الصفوة بإمتحانات تعقد ، وإنّما يقوم مدرّسو المدارس بإختيار من يرون فيه صلاحاً لهذه المدارس من بين تلاميذهم ثمّ يرفعون اختيارهم في شكل توصية الى سلطات كاستاليا . وفي يوم من الأيّام يبلّغ مدرس تلميذاً من تلاميذه ، عمره بين الحادية عشرة والثانية عشرة ، بأنّ في استطاعته أن يختلف في نصف العام التالي الى مدرسة من مدارس كاستاليا ويطلب اليه أن يفكّر فيما إذا كان صالحاً لها ، ميّالاً اليها . فإذا انقضت مدّة التفكير وأتى التلميذ بإيجاب وقبول وقدّم موافقة غير مشروطة من والديه كليهما ، قبلته مدرسة من مدارس الصفوة بصفة تجريبية . ويكون نظّار مدارس الصفوة ومدرّسوها الأوّل (لا مدرّسو الجامعات) «الهيئة التربوية» التي تصرف شؤون التعليم وتدير كافة المؤسّسات الفكرية بالبلاد . وتلميذ الصفوة ، إذا لم يفشل في مرحلة من المراحل فأعيد الى المدارس العادية ، لايهتم بدراسة مادة معيّنة ولابالدراسة لكسب لقمة العيش ، لأن الطائفة والنظام الهرمي للهيئة التربوية من أوّل المدرّس لغاية أعلى الدرجات : درجات مديري الدراسات الاثني عشر أو «الأساتذة» واللودي ماجستر ، مدير لعبة الكريات الزجاجية ، مستمدة من تلاميذ الصفوة . والغالب أن ينتهي التلاميذ من الدورة النهائية بمدارس الصفوة وهم بين سن الثانية والعشرين والخامسة والعشرين ، فيقبلوا في الطائفة . واعتباراً من ذلك اليوم ، تكون كل المؤسّسات التربوية ومعاهد الأبحاث الخاصة بالطائفة وبالهيئة التربوية تحت تصرّفهم ، وهي : المعاهد العليا للصفوة المحجوزة لهم ، والمكتبات ،

والسجلاّت ، والمعامل ألخ ، ومن بها من جماعة كبيرة من المدرّسين ، هذا علاوة على منشآت لعبة الكريات الزجاجية . والتلاميذ الذين يظهرون أثناء سني الدراسة بمدارس الصفوة موهبة فنّية خاصة في اللغات أو الفلسفة أو الرياضيّات ، أو أي مادة من المواد ينتقون ويرفعون الى الفصول التي تغذّي مواهبهم على أفضل وجه . وغالباً ما ينتهي معظم هؤلاء في النهاية الى العمل كمدرّسين فنيّين في المدارس العامة والمدارس العليا ، ويظلّون ، حتّى بعد خروجهم من كاستاليا ، طول عمرهم أعضاء في الطائفة ، ويعني هذا أنهم يظلّون مبتعدين ابتعاداً لاهوادة فيه عن «العاديين» (أي عن أولئك الذين لم يتخرّجوا في مدارس الصفوة) ولا يصبحون أبداً فنيّين «أحراراً» أطبّاء أو محامين أو مهندسين مثلاً إلا إذا استقالوا من الطائفة ـ ويتّبعون ماعاشوا قواعد الطائفة ومنها العزوف عن الامتلاك والزواج . والناس يسمّونهم تارة للتهكّم وتارة للإحترام بـ«الماندارين»[١] . هذه هي النهاية التي ينتهي إليها أغلب تلاميذ الصفوة بعد تخرّجهم . أمّا البقيّة الباقية من خريجي المدارس الكاستالية وهي النخبة الممتازة التي لاتفوقها نخبة أخرى ، فتوجّه الى دراسه حرّة غير محدّدة الزمن والى حياة فكرية تأمّلية نشيطة . وهناك نفر من ذوي المواهب العالية لايصلحون للعمل كمدرّسين ولا لشغل المناصب ذات المسؤولية في الإدارات العليا أو الدنيا بالهيئة التربوية ، لأن شخصيّاتهم غير متوازنة مثلاً أو لأسباب أخرى منها العجز الجسماني ، فهؤلاء يعكفون على الدراسة والبحث والجمع طول عمرهم وترتّب لهم الهيئة معاشات يحصلون عليها ويغلب على أعمالهم الطابع العلمائي[٢] البحت : بعضهم يعمل

---

(١) الماندارين كلمة تستعمل في أوربا للدلالة على كبار الموظّفين الصينيّين خاصة في عصر القياصرة . والكلمة سنسكريتية ومعناها حرفيّاً =مستشار . (المترجم)

(٢) المقصود هو النشاط العلمي الذي يتركّز على موضوعات شديدة الخصوصية لا يهتم بها ، ولا يفهمها ، ولايقدرّها إلا العلماء . (المترجم)

كمستشار للجان المعاجم ، ومنهم من يشتغل في أقلام السجلّات والمكتبات وهكذا ، والبعض الآخر يشتغل بالعلم على طريقة «الفن للفن» ، ومنهم من وهب حياته للقيام بأعمال عجيبة متطرفة مثل «لودوفيكوس كروديليس» الذي عكف ثلاثين عاماً على ترجمة جميع النصوص المصرية القديمة المعروفة لنا الى اللغتين الإغريقية والسنسكريتية ، ومثل «خاوتوس كلفنزيس الثاني» العجيب الذي خلف كتاباً في أربعة مجلّدات ضخمة مكتوبة باليد عن «نطق اللغة اللاتينية بالمدارس العليا بجنوب إيطاليا عند نهاية القرن الثاني عشر» ، وكان صاحب الكتاب يعتبر مؤلّفه هذا بمثابه جزء أوّل من عمل أوسع عن «تاريخ نطق اللاتينية في الفترة بين القرن الثاني عشر والسادس عشر» ، لم يتم الى نهايته رغم ماوجد فيه من أوراق مخطوطة تبلغ الألف ، ولم ينهض بإكماله أحد . ويستطيع الإنسان أن يفهم أن مثل هذه الأعمال العلمانية البحتة قد أصبحت أحياناً مثاراً للنكت ، وإن كانت قيمتها الحقيقية بالنسبة للأزمنة المستقبلية أعظم من أن يقدّرها قياس . والحق أنّ العلم ، كحال الفن في الأزمنة الغابرة ، يحتاج الآن الى مرعى مترامي الأطراف ، وكثيراً ماجمع باحث من الباحثين في موضوع لايهتم به أحد سواه ، جمع علماً أفاد زملاءه المخالطين له إفادة بالغة الأهمّية كالمعجم أو السجل . وكانت الأعمال العلمائية التي ذكرنا أمثلة عليها تطبع كلّما أمكن ذلك . وكانت جماعة العلماء الحقيقية تتمتّع بحرّية توشك أن تكون كاملة في ممارسة ما تشاء من دراسات وألعاب ، ولم يكن هناك من أن يشكو من بعض ما تنتج من أعمال لا يفيد الشعب والمجموع في الظاهر فائدة مباشرة ، بل ويبدو لغير العالم كعبث مترف . وقد حدث أن تعرّض بعض هؤلاء العلماء للسخرية من جراء نوع الدراسات التي يقومون بها ، لكن لم يحدث أبداً أن تعرّض واحد للوم أو لإنتقاص فيما له من إمتيازات .أمّا أنّ هؤلاء العلماء كانوا يتمتّعون باحترام الشعب ، لا بتسامحه فحسب ، رغم

النكت الكثيرة التي طالما أطلقت عليهم ، فأمر مرتبط بالتضحية التي يدفع بها أعضاءجماعة العلماء هؤلاء حرّيتهم الفكرية . كانوا حقيقة يتمتّعون بنعم كثيرة ، ينالون الطعام والكساء ، والمسكن بقدر متواضع ، ويستخدمون ما تحت تصرّفهم من مكتبات عظيمة ومجموعات ومعامل أبحاث ، ولكنّهم كانوا لقاء ذلك يتخلّون عن رغد الحياة ، عن الزوجة والولد ، بل أكثر من ذلك ، كانوا كجماعة الرهبان بلا نصيب فيما يتنافس فيه الناس عادة في الدنيا ، لا يعرفون التملّك والإقتناء ولا يعرفون الرتب والنياشين ، ويرضون من الدنيا المادية بحياة بالغة البساطة ، فإذا أراد أحدهم أن يضيّع سني حياته في حل رموز نص قديم واحد ، فله ما يشاء ، بل إنه ليجد العون والتعضيد . أمّا إذا أراد الحياة الرغدة والملبس الأنيق والمال والرتبة ، فلا يجد أمامه إلا الموانع التي لا تجتاز . هذا الى أنّ من كانت هذه الشهوات تستهويه ، كان يعود في أغلب الأحوال الى «الدنيا» في سنيه المبكّرة ، فيصبح مدرّساً يتقاضى أجراً ، أومعلّماً خصوصيّاً ، أو صحفيّاً ، أو يتزوّج أو يبحث لنفسه عن نوع من الحياة على مزاجه .

فلمّا جاء وقت مبارحة الصبي يوزف كنشت «بيرولفنجن» وتحتّم عليه وداعها ، كان مدرّسه الذي درّس له الموسيقى هو الذي رافقه الى المحطة . وأحسّ يوزف لفراقه بالألم ، وجاش في قلبه شعور بالهجران والقلق ، عندما انطلق القطار وتوارى جمالون برج القصر المدرّج الأبيض ، وظل مختفياً . ربّما بدأ غيره من التلاميذ مثل هذه الرحلة بمشاعر أكثر من مشاعر يوزف كنشت عنفاً ، فكان خائراً باكياً . أمّا يوزف فكان هناك بقلبه أكثر مما كان هنا ، ولهذا تغلّب على صعوبة اللحظة في يسر ، ولم تطل عليه الرحلة .

كانت المدرسة التي نقل اليها هي «مدرسة ايشهولتس»[١] التي سبق له رؤية صور لها في حجرة ناظر مدرسته . كانت ايشهولتس أعظم وأحدث

---

(١) Eschholz

مستعمرة مدرسية صغيرة سكنية تشبه القرية وتحيطها الأشجار من كل جانب .

وكانت المدرسة من ناحية الخلف تمتد مستوية ، فسيحة ، مشرقة ، قائمة على أضلاع مربّع كبير خالٍ ، وفي وسطه خمس أشجار عظيمة هائلة منتظمة كنقط الخمسة على الزهر ، تمد هاماتها الداكنة الى أعلى . أمّا الفناء الضخم فكان جزء منه يغطّيه النجيل والجزء الآخر يغطّيه الرمل ، ولا يعترضه الا حوضان للسباحة كبيران تؤدّي اليهما درجات واسعة مسطحة تنحدر الى أسفل . ويقوم عند مدخل هذا الفناء المشمس مبنى المدرسة ، أعلى مبنى في المنشأة كلّها ، يتكوّن من جناحين لكل جناح ردهة ذات خمسة أعمدة . أمّا المباني الأخرى التي كانت تحيط بالمكان كلّه من نواحيه الثلاث فكانت متلاصقة بلا فراغات تباعد بينها ، وكانت منخفضة جداً ، ومنبسطة وخالية من الزخرف ، ومقسّمة الى أقسام متساوية ، كل قسم منها ينتهي الى الفناء بمدخل بارز ذي أعمدة وبسلّم ذي درجات قليلة ، وكانت أغلب فتحات المدخل البارز ذي الأعمدة تزيّنها أصص الزهور .

فلمّا وصل الصبي لم يستقبله ، كتقاليد كاستاليا ، خادم المدرسة ، ولم يقتد الى ناظر ولم يدفع به الى مجلس المدرّسين ، وإنّما أتى لإستقباله زميل ، صبي حسن الخلقة ، طويل القامة ، يلبس ثوباً من التيل الأزرق ، ويكبره بعامين ، مدّ اليه يده مصافحاً وقال له : «أنا أوسكار ، أكبر تلاميذ بيت «هيلاس» الذي ستنزل به ، وقد كلّفت بالترحيب بك هنا بيننا وبإرشادك . ولمّا كانت الدراسة ستبدأ بالنسبة لك في الغد ، فعندنا وقت كاف لتشاهد طرفاً من كل شيء ولن تلبث أن تعرف ماهنا وتحسن ذلك . وأرجوك أن تعتبرني ، في الأيام الأولى الى أن تتأقلم ، صديقاً لك ومرشداً بل وحاميك إذا حدث أن عاكسك بعض الزملاء ، فمنهم من يعتقد أن عليه أن يعاكس الجدد قليلاً . ولكنَ ذلك لن يكون ذا بال ، خذ هذا وعداً منّي . أمّا

الآن فآخذك الى هيلاس ، الى بيت الطلبة الذي ننزل به ، حتّى ترى المكان الذي ستسكنه» .

هكذا حيّا أوسكار الذي عيّنته الإدارة مرشداً ليوزف ، الزميل الجديد على الطريقة التقليدية ، وبذل جهداً صادقاً ليجيد تأدية المهمّة التي كلّف بها . والحق أن تأدية مثل هذه المهمة كان دائماً أمراً محبّباً الى التلاميذ القدامى ، ولاشكّ في أنّ التلميذ القديم ابن الخمس عشرة إذا اجتهد في اصطناع اسلوب الزمالة اللطيفة والمعاونة الرفيقة في معاملة التلميذ الجديد ابن الثلاث عشرة ، فلا بدّ أن يحالفه النجاح . كانت معاملة أوسكار ليوزف في الأيّام الأولى معاملة الضيف الذي يرجى منه ، إذا قدّر له الرحيل في الغد ، أن يذكر الدار وأصحابها بالخير . فأخذ يوزف الى حجرة نوم وذكر له أنه سيتقاسمها مع صبيّين آخرين ، وقدّم له البسكويت وكوباً من عصير الفاكهة احتفاءً بمقدمه ، واقتاده الى «بيت هيلاس» ليشاهده ، وهو بيت من البيوت السكنية القائمة على الفناء المربّع الكبير ، وأراه مكاناً في الحمّام المكشوف ليعلّق فيه فوطته وركناً ليضع فيه أصيصاً إن شاء ، ثمّ أخذه قبل أن يجنّ الليل ، الى المشرف على الملابس في قسم الملابس ، واختيرت له حلّة من التيل الأزرق وأعدّت لكي تناسب جسمه . وأحس يوزف بالرضا منذ اللحظة الأولى وراح يصطنع طريقة أوسكار في الحديث ، فلم يرتبك أقل ارتباك ، أو أوشك ألا يكون قد ارتبك أقل ارتباك ، رغم أنّ التلميذ القديم الذي طالت إقامته في كوستاليا حتّى ألفها كان يلوح له كنصف إله . حتّى المفاخرات والمبالغات التي كان أوسكار ينزلق اليها أحياناً كانت تعجبه ، فقد كان أوسكار يدسّ أحياناً في كلامه نصّاً يونانياً معقّداً ثمّ يتذكّر في أدب أن التلميذ الجديد لايعرف اليونانية ولايستطيع بالطبع فهمه ولايكرهه أحد على ذلك!

ولم تكن الحياة بالقسم الداخلي جديدة على كنشت كل الجدّة ، وسرعان ما انتظم في السلك الجديد دون تعب . كذلك لم تصلنا أخبار هامة

عن حياته في غضون السنوات التي أمضاها في اشهولتس ، ولايحتمل أن يكون قد عاصر الحريق الفظيع الذي نشب في مبنى المدرسة . أمّا شهاداته المدرسية ، على قدر ماأمكن العثور عليها ، فتبيّن أحياناً أكبر الدرجات في الموسيقى وفي اللغة اللاتينية ودرجات فوق المتوسطة في الرياضيّات وفي اللغة الإغريقية . وفي سجل المدرسة تقريرات عنه مدوّنة باللاتينية مثل "ingenium valde capax, studia non angusta, mores probantur" أو "ingenium felix et profectuum avidissimmum moribus placet officiosis" . أمّا العقوبات التي يمكن أن تكون قد وضعت عليه ، فلم نتمكّن من الكشف عنها ، لأنّ سجل العقوبات راح ضحية الحريق مع كثير غيره . ويروى أنّ زميلاً له أكّد فيما بعد أن كنشت لم ينل طوال السنوات الأربع التي أمضاها في اشهولتس سوى عقوبة واحدة هي الحرمان من النزهة الاسبوعية لأنه رفض وأصرّ على رفض الكشف عن اسم زميل له فعل شيئاً من الممنوعات . والرواية قابلة للتصديق ، فلاشكّ أنّ كنشت كان زميلاً يجيد الزمالة ولايعرف التلوّن لإرضاء الكبار . أمّا أنّ هذه العقوبة كانت فعلاً العقوبة الوحيدة التي نالها في أربع سنوات ، فهذا أمرٌ يلوح قليل الاحتمال .

وحيث أننا لم نجد إلا القليل من الوثائق المصدوقة التي تصوّر كنشت في أيّامه الأولى بمدرسة الصفوة ، فلنسدّ الفراغ بنص نقتطفه من محاضراته الأخيرة عن لعبة الكريات الزجاجية . وينبغي أن نذكر في هذا المقام أننا لم نجد نصوص هذه المحاضرات مكتوبة بخط يد كنشت ـ تلك المحاضرات التي كان يلقيها على المبتدئين ـ وإنّما حفظها لنا تلميذ من تلاميذه كان يسجّلها بالاختزال أثناء إلقاء كنشت إيّاها . في هذا النص يتحدّث كنشت عن المشابهات والارتباطات في لعبة الكريّات الزجاجية ويفصل في حديثه عن الإرتباطات بين الإرتباطات «القانونية» أي التي يفهمها الجميع وبين الإرتباطات «الخاصة» أي الارتباطات الذاتية . يقول : «وحتّى أسوق إليكم

مثلاً على هذه الإرتباطات الخاصة التي لاتتجرّد من قيمتها الخاصة نظراً لأنّها ممنوعة منعاً باناً في لعبة الكريات الزجاجية ، أحكي لكم ارتباطاً من هذا النوع عشته بنفسي عندما كنت تلميذاً بالمدرسة . كان عمري في ذلك الوقت نحو أربع عشرة سنة وكان الوقت قبل الربيع بقليل ، في فبراير أو مارس ، حينما دعاني زميل من زملائي للخروج معه عصر أحد الأيّام للنزهة ، حتّى يجتث بعض سيقان البيلسان ليستعملها كأنابيب في طاحونة مائية صغيرة أراد إنشاءها . خرجنا إذن ، ولابدّ أنّ اليوم كان جميلاً جمالاً خاصاً في الدنيا أو في نفسي لأنه ظلّ عالقاً بذاكرتي وأتاني بخبرة صغيرة . كانت الأرض رطبة ولكنّها كانت خالية من الثلج ، وكانت الخضرة قد دبّت قويّة عند مجرى المياه ، ونفثت البراعم والسنابل المبكّرة في الخميلة الهزيلة نسمة من اللون اللطيف ، وكان الهواء كله رائحة ، رائحة مليئة بالحياة والتناقض ، رائحة عبير التربة الرطبة والأوراق المتعفّنة وبذور النباتات الفتية ، وصار المرء يتوقّع في كل لحظة عبير بشائر البنفسج ، رغم أنّها لم تكن قد نمت بعد . ووصلنا الى البيلسان ، فوجدنا له براعم ضئيلة ووجدناه بلا أوراق ، وقطعت منه فرعاً ، فإذا برائحة مرّة حلوة تفوح في وجهي ، رائحة بدت لي كأنّها تضم روائح الربيع الأخرى كلّها وتزكيها وتقوّيها ، فتأثّرت لذلك كل التأثّر ، وشممت سكّيني ، وشممت يدي ، وشممت غصن البيلسان ، فتبيّنت أن عصارته هي التي تبعث هذا العبير النفّاذ الذي لاغلبة لآخر عليه . لم نتحدّث عن هذا ، لكنّ زميلي ظل هو الآخر يشم طويلاً في غصنه ، لقد تحدّث العبير اليه كذلك . إنّ لكل خبرة سحرها الخاص بها . وسحر خبرتي يتلخّص في أنني عندما سرت على الأرض المخضرّة المشبعة بالماء وأحسست بعبير الأرض والبراعم إحساساً قويّاً سعيداً ، شعرت بمقدم الربيع وقد تصعّد في عبير البيلسان وتركّز وعلا وتحوّل الى رمز محسوس وسحر .ولعلّي لم أكن لأنسى هذه الرائحة أبداً حتّى لو ظلّت هذه الرائحة قائمة بذاتها ، أو بعبارة أخرى لعلّي كنت في كل مرّة ألتقي فيها

بهذه الرائحة أتذكّر ، ربما الى أن أتقدّم في السن ، هذه المرّة الأولى التي شهدت خبرتي الواعية هذا العبير .لكنّ عنصراً ثانياً دخل في هذه الخبرة . كنت قد وجدت عند مدرّس الموسيقى الذي تعلّمت عليه العزف على البيانو ، مجلّداً قديماً من النوت الموسيقية ، استهواني إستهواءً عظيماً . كان ذلك المجلّد يضم أغنيات لفرانتس شوبرت . وفي مرّة من المرّات تأخّر المدرّس وبقيت أنتظره طويلاً فأخذت المجلّد وقلّبت في صفحاته ، ثمّ رجوت المدرّس أن يعيرني إيّاه بضعة أيّام ففعل . وعشت ساعات أيامي في نعيم الإكتشاف الكامل ، فلم أكن حتّى ذلك الحين قد عرفت من شوبرت شيئاً فخلبني وملك علي نفسي الى أقصى حد . واكتشفت في يوم نزهة البيلسان أو في اليوم التالي ، أغنية شوبرت للربيع « صحت النسمات الرقيقة » ، فتملّكتني النغمات الأولى من الموسيقى المصاحبة للأغنية ولاحت لي كأنّي أتعرّف عليها بعد معرفة سابقة : « كانت هذه النغمات تبث عبيراً كذلك العبير الذي كان البيلسان النضر يبثّه ، عبيراً مرّاً حلواً قويّاً مضغوطاً ، مفعّماً بجو بشائر الربيع ومنذ تلك الساعة أصبح الارتباط ـ عبير البيلسان ـ أنغام شوبرت » ارتباطاً ثابتاً نافذاً مطلقاً ، كلما عزفت النبرات الأولى من لحن شوبرت ، شممت في الحال وبالضروة ذلك العبير ، وأصبحت نغمات شوبرت عبير البيلسان معاً يعنيان : « بشائر الربيع ، إنني أملك ، إذ أملك هذا الإرتباط الخاص ، شيئاً جميلاً جداً ، لا أقبل به بديلاً مهما عظم . لكنّ الإرتباط المتمثّل في إنتفاضة خبرتين حسيّتين في كل مرّة تأتيني فكرة « بشائر الربيع » ، أمر من أموري الخاصة... أمر يمكن إيصاله الى الآخرين ، بلا شك ، كأن أحكيه لكم الآن مثلاً ، ولكن لا يمكن نقله الى ذات الأخرين ، يمكنّني أن أشرح لكم ارتباطي حتّى تفهموه ، ولا يمكنني أن أجعل واحداً منكم يمتص ارتباطي هذا فيكون عنده مثلما هو عندي ، شيئاً آليّاً ينتفض دائماً كلّما وجه إليه النداء ويعمل باستمرار على نحو منتظم لا يعتوره خطأ » .

وقد حكى زميل من زملاء كنشت في المدرسة ، ظل يجتهد حتّى بلغ مرتبة رئيس سجلات لعبة الكريات الزجاجية ، أنّ كنشت كان بصفة عامة صبيّاً هادئاً مرحاً ، وأنه كان أحياناً عندما يعزف الموسيقى يفصح عن إندماج عجيب أو سعادة فريدة ، ولم يعهد أحد فيه العنف والإنفعال إلا نادراً ، خاصة في لعبة الكرة الإيقاعية التي كان يحبّها حبّاً جمّاً . إلا أنّ الصبي الظريف المتّزن أثار في بعض الأحيان انتباه الآخرين بل وسخريتهم أو قلقهم ، وذلك في حالات فصل التلاميذ ، وكثيراً ماكان التلاميذ يفصلون خاصة في الصفوف الدنيا بمدارس الصفوة . فلمّا حدث لأوّل مرّة أن تغيّب تلميذ من تلاميذ الفصل عن الدرس وعن اللعب ثمّ لم يظهر في اليوم التالي ، وتواترت الأخبار بأنه لم يغب لمرض أو نحوه ، وإنّما لأنه فصل فسافر ولن يعود مرة ثانية ، هنالك حزن كنشت ، بل ظلّ مضطرباً أيّاماً طوالاً ، وقد عبّر هو نفسه ، بعد ذلك بسنوات ، فقال : « كنت كلمّا أبعد تلميذ عن اشهولتس فتركنا ، أحسّ بذلك كأنّه حادث وفاة . ولو سألني سائل عن سبب حزني لقلت أنّه العطف على المسكين الذي أتلف مستقبله بكسله وحمقه ، وكذلك الخوف ، الخوف من أن يحدث لي مثل ذلك . ولمّا تكرّر الحادث مراراً ولم أعد أعتقد أنّ مثله قد يصيبني ، بدأت أنظر الى الأمر نظرة أعمق . الآن بدأت أحس بأنّ فصل الواحد من تلاميذ الصفوة ليست مصيبة وعقوبة دائماً . فقد علمت بأن بعض المفصولين يفرحون بالعودة الى ديارهم . الآن تبيّنت أن الأمر لايقتصر على محكمة وعقوبة يقع الأحمق ضحية لها ، بل إنّ «الدنيا » هناك في الخارج ، الدنيا التي أتينا منها نحن الصفوة ذات مرة ، هذه الدنيا لم تكف عن الوجود على النحو وبالقدر الذي تصوّرته ، بل بقيت بالنسبة للبعض حقيقة عظيمة كلّها جاذبية ، لاتزال تستهويهم حتّى تستعيدهم . أو ربّما كانت الدنيا هكذا في نظر الجميع ، لافي نظر البعض فقط ، وربّما لم يكن أولئك الذين تجذبهم الدنيا البعيدة هم الضعفاء الناقصين

حتماً ، ولم يكن مايلوح للمرء نكسة أصابتهم ، لانكسة ولاإصابة ، بل قفزة وعملاً ، وربّما كنّا نحن الذين بقينا في اشهولتس الضعاف الجبناء » . وسنرى فيما بعد كيف ظلّت هذه الأفكار بعد ذلك بزمن طويل حيّة في ضميره قريبة إليه .

كان كل لقاء له مع أستاذ الموسيقى فرحة عظيمة ، وكان أستاذ الموسيقى يأتي الى اشهولتس مرة كل شهرين أو ثلاثة فيحضر دروس الموسيقى ويفتّش عليها وكان صديقاً لبعض المدرّسين هناك وكثيراً مانزل ضيفاً عليه أيّاماً . وذات مرة قاد بنفسه بروفات عزف « فسبرا » من مؤلفات مونتفردي[1] . وكان يخص الموهوبين من تلاميذ الموسيقى برعايته ، ومن بينهم كنشت ، ويحبوهم بصداقته الأبوية ، وكان من وقت لآخر يجلس معه ساعة الى البيانو في حجرة من حجرات التمرين ، فيراجع معه مؤلّفات من تأليف الموسيقيين المحبّبين الى نفسه أو يراجع معه نموذجاً من نماذج نظريّات التأليف الموسيقي القديمة . « كان الاشتراك مع أستاذ الموسيقى في تأليف قانون موسيقي أو الاستماع إليه وهو يؤدّي قانوناً سيّئ التأليف تأدية تصل الى اللامعقول ، أمراً له مهابة أو بهجة ليست لأمر غيره ، حتّى أنّ المرء كان أحياناً لايستطيع يكاد حبس دموعه وأحياناً لايستطيع الكف عن الضحك . وكان الخروج من حصة موسيقى خاصة يعطيها أستاذ الموسيقى هذا أشبه بالخروج من حمام أو من تدليك» .

فلمّا اقتربت أيّام كنشت الدراسية في اشهولتس من نهايتها وتقرّر أن ينقل كنشت هو واثنا عشر من زملائه الى مدرسة أخرى أعلى درجة ، ألقى الناظر على هؤلاء الطلبة خطبة تقليدية ذكّر فيها المتخرّجين مرة ثانية بروح المدراس الكاستالية وقوانينها ، وبين لهم باسم الطائفه الطريق الذي يؤدّي

---

(١) Monteverdi

بسالكه في النهاية الى الدخول في زمرة الطائفة . وكانت الخطبة الجليلة فقرة من فقرات احتفال أقامته المدرسة وعامل المدرّسون والزملاء فيه الخريجين معاملة الضيوف . وجرت العادة على أن يدخل في برنامج مثل هذه الإحتفالات تأدية مؤلّفات موسيقية تأدية دقيقة ـ وفي ذلك اليوم عزفت كانتانا كبيرة من القرن السابع عشر ـ وأتى أستاذ الموسيقى شخصياً ليستمع اليها . فلمّا انتهت خطبة الناظر ، واتجه الناس الى غرفة المائدة المزيّنة ، اقترب كنشت من أستاذ الموسيقى ووجه اليه هذا السؤال : «لقد حكى لنا الناظر عن أحوال المدرسة العادية والمدارس العليا خارج كاستاليا ، وقال أن التلاميذ هناك يعدّون أنفسهم في الجامعات للمهن «الحرة» ، وهي مهن ، على مافهمت ، لانعرف أكثرها هنا في كاستاليا ، فكيف لي أن أفهم هذا ؟ لماذا تسمّى هذه المهن «حرة» ؟ ولماذا نبعد نحن أهل كاستاليا عنها ؟» .

فانتحى استاذ الموسيقى بالصبي جانباً ووقف معه تحت شجرة من الشجرات الهائلة . وبدت ابتسامة توشك أن تكون لئيمة على وجهه تكمش الجلد حول عينيه في ثنيّات صغيرة ، ثمَ أجاب على السؤال : «إن اسمك ياعزيزي يعني «عبد»(١) ، وربّما كان لكلمة «حر» عليك سحر خاص لهذا السبب . لكن لاتغالي في هذا الموضوع! غير الكاستاليين إذا تكلّموا عن المهن الحرة ، جعلوا الكلمة ترن جادة بل ومؤثّرة . أمّا نحن فنستعملها على سبيل التهكّم . فالحرية في تلك المهن تعني أن المتعلّم يختار لنفسه المهنة التي يريدها . وليست هذه الحرية إلا قشرة ظاهرية ، وإن كان الذي يحدث في أغلب الأحيان هو أن العائلة لا التلميذ ، هي التي تختار ، بل ربّما فضّل الأب أن يقطع لسانه على أن يترك لإبنه حرية اختيار مهنته . لكن دعنا نعتبر هذا افتراء ونتخلّى عن هذا النقد! الحرية إذن موجودة ولكنّها تقتصر على عملية اختيار

---

(١) Knecht .

المهنة فقط . بعد ذلك تنتهي الحرية . في المدرسة العليا يكره الطبيب والمحامي والمهندس على إتباع منهج جامد ينتهي بمجموعة من الإمتحانات ، إذ اجتازها الطالب بنجاح حصل على الشهادة واستطاع أن يمارس مهنته بحرية ظاهرية . لكنه يصبح عبداً لقوى دنيئة ، خاضعاً للنجاح والمال والطموح وحب الشهرة ورضا الناس أو عدم رضاهم . عليه أن يجتاز انتخابات وأن يكسب أموالاً ويشترك في تنافس الطبقات بلا هوادة ، وتنافس العائلات والأحزاب والصحف . وله الحرّية عندئذ في أن يصبح ناجحاً ثرياً وأن يكرهه الفاشلون أو العكس . أمّا أمر تلميذ الصفوة ثم عضو الطائفة فعلى خلاف ذلك من كل الأوجه . فهو «لايختار» له حرفة . وهو لايعتقد أنه يقدر على الحكم على مواهبه خيراً من مدرّسيه . بل يقبل الإندماج في النظام الهرمي حيث يوضع في المكان والوظيفة التي يختارها الرؤساء ـ إلا إذا سار الأمر على عكس ذلك وكانت ميزات ومواهب وعيوب التلميذ هي التي تدفع المعلّمين الى وضع التلميذ في هذا المكان أو ذلك . وفي وسط هذه اللاحرية الظاهرية يتمتّع كل تلميذ من تلاميذ الصفوة بعد فصول الدراسة الأولى بأعظم حرية متصوّرة . فعلى حين يتعيّن على أهل المهن «الحرة» أن يتّبعوا منهجاً جامداً وامتحانات جامدة ليتعلّموا حرفتهم ، يسير طالب الصفوة ، عندما يأتي وقت شروعه في الدراسة المستقلة ، في حرية كاملة ، حتى أن البعض يمضون عمرهم كلّه في القيام بدراسات متطرّفة تكاد تكون أحياناً جنونية ، دون أن يتعرّض لهم أحد مادامت لاتؤدي الى تلف الأخلاق والعادات . فمن صلح للعمل مدرّساً ، استخدم مدرّساً ، ومن صلح للعمل كمترجم عيّن مترجماً ، ومن صلح للعمل كمرب ، استخدم مربّياً . وهكذا يجد كل واحد تلقائياً مكانه الذي يخدم فيه ويكون فيه حراً في الخدمة . ولهذا يتجرّد طوال حياته من «حرية» المهنة ، تلك الحرية التي تعني العبودية الفظيعة : فلا جري وراء المال والشهرة والرتبة ، ولاتدخّل لأحزاب ، ولاشقاق بين الشخص والمنصب وبين الخاص والعام ،

ولاخضوع لسلطان النجاح . وهكذا ترى يا بني : عندما يجري الحديث عن المهن الحرة ، فإن كلمة «حرة» تكون أقرب في مقصدها الى الفكاهة» .

كان وداع كنشت لأشهولتس بمثابة حد فاصل في حياته . كان حتّى تلك اللحظة قد عاش طفولة سعيدة في إندماج وانسجام يوشك الا تنغّصه مشاكل ، والآن بدأت فترة الكفاح والتطورات والمشاكل . كان عمره نحو سبعة عشر عاماً عندما أتاه خبر نقله عمّا قريب الى صف أعلى هو وطائفة من زملائه ، وظلّ السؤال الهام الذي يستهوي طائفة من المنتخبين ويناقشونه دون غيره هو السؤال عن المكان الذي سينتقلون اليه . وظلّ السؤال بلا جواب إلا أن حل اليوم السابق على يوم رحيلهم فأبلغوا بالمكان ، على نحو مما كانت تقضي به التقاليد . وكانت الفترة مابين الإحتفال بالتخريج والرحيل ، فترة إجازة . وفي فترة الإجازة تلك حدث لكنشت حادث جميل هام : فقد دعاه أستاذ الموسيقى ليقوم برحلة على الأقدام يزوره فيها ويمضي عدّة أيّام عنده ضيفاً عليه . كانت تلك الدعوة شرفاً عظيماً نادراً . وذات صباح اتجه كنشت مبكّراً وفي صحبته زميل من الخرّيجين ـ فقد كان كنشت لايزال يتبع اشهولتس وكان النظام في اشهولتس يمنع تلاميذ تلك المرحلة من الرحلة فرادى ـ اتجه الى ناحية الغابة والجبال متجوّلاً ، وظلاّ يتسلّقان السفح ثلاث ساعات حتّى وصلا الى قمة خالية ، فنظرا الى أسفل ورأيا اشهولتس على بعد ، صغيرة ولكن واضحة للعين ، يتعرّف عليها الناظر بسهولة بأشجارها الخمس الهائلة التي تكوّن معاً كتلة داكنة ، ، وبفنائها المربّع ذي النجيل والبرك المتلألئة والمبنى المرتفع الذي يضم المدرسة ، وبمباني الإدارة وبقريتها الصغيرة وغابتهاالشهيرة ، غابة الدردار «اشنجهولتس» . وقف الشابان وطفقا ينظران الى أسفل الى ذلك المنظر الذي لايزال بعضنا يذكره ، فقد أدركناه في حالة لاتختلف كثيراً عن حالته أيام يوزف كنشت ، لأنه أعيد بعد الحريق الكبير الى سيرته الأولى ، أو مايقارب ذلك ـ إذ لم يبق

من الشجرات الخمس الهائلة سوى ثلاث فقط . رأى الشابان مدرستهما قابعة هناك ، بل وطنهما الذي أمضيا به سنوات وأصبح عليهما الآن فراقه وتوديعه ، وأحسّا في قلبهما انقباضة الحزن .

وقال رفيق يوزف لصاحبه : « ما أظن أنني رأيت من قبل جمال المدرسة . أو ربّما كان شعوري هذا يرجع الى أنّي أبصر لأوّل مرة شيئاً أعرف أن علي أن أفارقه وأودّعه » .

فقال كنشت : « هو ذاك . صدقت ، وماأمري إلا كأمرك لكننا إذ نفارق اشهولتس ونبتعد عنها ، لا نفارقها ونبتعد عنها حق المفارقة . إنّما فارقها حق المفارقة أولئك الذين أبعدوا عنها الى الأبد إبعاداً ، مثل أوتو[١] الذي كان يجيد صياغة أبيات شعرية لاتينية هازلة أو شارلمان[٢] الذي كان يطيل العوم تحت الماء وغيرهم . هؤلاء ودّعوا المدرسة وداعاً حقيقيّاً وانفصلوا عنّا . وطالما غابوا عن فكري ، وإذا هم الآن يطوفون بذاكرتي . ولاتسخر منّي عندما أقول لك أنّ هؤلاء الساقطين لهم على نفسي شيء من السلطان ، كما أن للملاك العاصي « إبليس » شيئاً من العظمة . ربّما فعلوا مافعلوا خطأ ، كما أنّ للملاك العاصي « إبليس » في ذلك ، ولكنّهم على أية حال قد فعلوا شيئاً ، أتمّوا شيئاً ، تجرءوا على القفز قفزة ، وهذا أمر يحتاج الى شجاعة . أمّا نحن ، فكان لنا جد ، وكان لنا صبر ، وكان لنا تعقّل ، لكنّا لم نفعل شيئاً ولم نقفز قط » .

وردّ عليه صاحبه قائلاً : « لاأعرف . بعضهم لم يفعل شيئاً ولم يجرؤ على شيء ، بل ظلّ يتلكأ حتّى أبعد . ولكن لعلّي لم أفهم مقصدك كله . ماذا تعني بالقفز ؟ » .

« أعني أنه المقدرة على الإنطلاق ، على الجد ، أعني به ـ القفز! حقيقة

---

(١) Otto

(٢) Gharlemagne

أنني لاأتمنّى القفز عائداً الى موطني الأوّل والى حياتي السابقة ، فهي لم تعد تستهويني وأوشك أن أنساها كلّ النسيان . ولكني أتمنّى . عندما تحين الساعة المواتية وتظهر الضرورة واضحة ، أن أنطلق وأستطيع القفز ، لا القفز الى الوراء ، الى الأسفل ، بل القفز الى الأمام ، الى الأعلى » .

« تماماً . وهذا مانحن سائرون اليه . فلم تكن اشهولتس لنا إلا مرحلة ، وبعدها مرحلة أعلى ، الى أن ننتهي بدخول الطائفة » .

« نعم . ولكن هذا مالم أقصده . تعال نستأنف التجوال ياصاحبي ، فما أجمل التجوال ، إنه يعيد إلينا البهجة ، بعد أن تملّكنا الحزن والهم » .

هذا الاحساس وهذه الكلمات ، التي نقلها الينا هذا الرفيق ، تشير الى بداية العصر العاصف من حياة يوزف كنشت في شبابه .

وأمضى الجوّالان يومين يقطعان الطريق ، حتّى بلغا المقر الذي كان أستاذ الموسيقى يتّخذه في ذلك الوقت ، على ربوة عالية اسمها « مونتبورت »[1] ، وكان الأستاذ يقيم في مبنى الدير القديم حلقة دراسية لقادة الأوركسترات . أمّا الزميل الذي رافق كنشت في رحلته فقد أعطي مكاناً في المضيفة وأمّا كنشت نفسه فقد نزل بصومعة في مسكن الأستاذ . وماكاد كنشت ينزل عن ظهر رحله ويغتسل حتّى أتى المضيف ودخل عليه ومدّ اليه يده يصافحه ، ثمّ جلس الرجل الوقور على كرسي وأطلق زفرة صغيرة وأغمض عينيه هنيهة كما كان يغمضها دائماً عند إحساسه بالتعب ، ثمّ رفع بصره برقة الى الشاب وقال له : سامحني فلست أحسن الضيافة . لقد أتيت لتوّك من رحلة على الأقدام ولاريب أنّك متعب ، ولاأخفي عنك أنني أنا الآخر متعب كذلك . فقد أمضيت يوماً حافلاً بالعمل ـ ولكنّي ، إن لم يكن النعاس غالباً عليك ، أريد أن آخذك ساعة الى مكتبي . لك أن تبقى هنا

---

(١) Monteport

يومين وأن تدعو صاحبك غداً الى مائدتي معك ، لكنّ وقتي للأسف ليس فيه متّسع كبير لك ، وعلينا أن نجد طريقة نقتطع منه لك بضع ساعات . لنبدأ الآن إذن . أليس كذلك» ؟ .

وقاد كنشت الى صومعة كبيرة سقفها مقبب وليس بها من المتاع سوى بيانو قديم وكرسيين جلسا عليهما .

وقال الأستاذ إنك منقول عمّا قريب الى مرحلة أخرى ، ستتعلّم فيها الكثير من الأشياء الجديدة ، وستجد فيها الكثير من الأشياء الجميلة ، كذلك ستبدأ في تذوق طرف من لعبة الكريات الزجاجية . هذاكلّه مهم وجميل ، ولكن هناك ماهو أهم من هذه الأمور كلها : ستتعلّم التأمّل . والظاهر أن الجميع يتعلّمون التأمّل ولكن لا داعي للبحث في نتيجة تعلّمهم! أمّا أنت فأحب أن تتعلّم التأمّل تعلّماً صحيحاً وأن تحسن تعلّمه كما تحسن تعلّم الموسيقى ، فإنّك إن فعلت هذا سهلت عليك الأمورالأخرى جميعاً وأتتك طيعة من تلقاء نفسها . لذلك أحب أن أعطيك بنفسي الدرسين أو ثلاثة الدروس الأولى ، وهذا هو الغرض من دعوتي إيّاك . سنحاول اليوم وغداً وبعد غد أن نتأمّل كل يوم ساعة ، وأن يكون تأمّلنا في الموسيقى . سنتناول الآن قدحاً من اللبن حتّى لا يضايقك جوع أو عطش ، وسيأتوننا بالعشاء بعد فترة» .

وقرع الباب قارع ، وأتى من يحمل قدحاً من اللبن .

وقال الأستاذ : «اشرب على مهل ، على مهل ، ولا تتعجّل وأنت تشرب» . وشرب كنشت اللبن البارد على مهل ، وأمامه الرجل الجليل يطبق عينيه وقد بدا وجه متمعناً في الشيخوخة ولكنه كان يعبّر عن الرقة ويلوح مفعماً بالبهجة يبتسم في داخليته كأنه ينزل في أفكاره نزول المتعب بقدميه في ماء دافئ يريح الأقدام . وكانت السكينة تشع منه ، وكان كنشت يحس بها فيطمئن قلبه .

واستدار الأستاذ على كرسيه ووضع يده على البيانو وعزف لحناً وظلّ

ينوّع فيه ، وينوّع . يظهر أن ذلك اللحن كان قطعة من تأليف بعض الموسيقيين الإيطاليين . ونبّه أستاذ الموسيقى ضيفه الى تمثل سير هذه الموسيقى كرقصة أو كسلسلة متّصلة من تمرينات التوازن ، أو كسلسلة من خطوات كبيرة أو صغيرة صادرة من مركز محور تماثل ، وحضّه على عدم الإلتفات الى شيء آخر سوى الشكل الذي ترسمه هذه الخطوات . ثمَ أعاد عزف الإيقاعات وظلّ يتفكّر فيها صامتاً ، ثم أعاد عزفها مرة أخرى وظل مسنداً يديه الى ركبتيه يجلس صامتاً مغمضاً عينيه لا يتحرّك أدنى حركة ويعيد الموسيقى في داخله ويتأمّلها . كذلك التلميذ أنصت اليها ترجع في باطنه ، ورأى مقتطفات من خطوط الأنغام تعرض له فتتحرّك قليلاً وتخطو بعض الخطى وترقص وتهيم ، وحاول التعرّف على الحركة وحاول أن يستطلع الحركة كما لو كانت منحنيات خط طيران طائر . ثمّ تداخلت المنحنيات بعضها في البعض واضطربت واختفت ، فبدأ من جديد . وحدث في لحظة من اللحظات أن توقّف عن التركيز فوجد نفسه في الفراغ ، ونظر مضطرباً حواليه فأبصر وجه الأستاذ الساكن المندمج شاحباً هائماً في جو الغروب ، ثمَ التمس سبيله عائداً الى ذلك المكان الروحي الذي كان قد انزلق بعيداً عنه فسمع الموسيقى تدوي كما كانت تدوي من قبل ورأى نفسه يخطو فيها ، رآها وهي تستسلم لخط حركتها ، رأى أقدام غير المنظورين ترقص وظلّ يتفكّر فيها...

ويبدو أن وقتاً طويلاً مضى الى أن عاد فإنزلق مرة ثانية بعيداً عن المكان فأحس بكرسيه تحته وأحس ببلاط الأرض تكسوه الحصيرة وبنور المغرب قد خفت وراء النوافذ . وشعر بأن هناك من ينظر اليه ، فرفع بصره ونظر الى أستاذ الموسيقى الذي كان يحدق فيه بإنتباه . وأومأ اليه الاستاذ إيماءة يكاد المرء ألا يلحظها وعزف بإصبع واحدة بيانيسيمو آخر منوعة للقطعة الإيطالية ثمَ نهض .

وقال الأستاذ : « إبق في مكانك ، وسأعود اليك . التمس الموسيقى في نفسك مرة أخرى ، وانتبه الى الشكل ؟ ولاتكره نفسك ، فما الأمر إلا لعب . وإن غلبك النعاس فلا ضرر في ذلك» .

وانطلق ، فقد كان هناك عمل يدعوه ، ولم يجد لإنجازه في النهار المثقل بالأعمال وقتاً ، عمل ليس بالسهل المستحب الذي يرغبه . كان ذلك واحداً من تلاميذ حلقة قادة الأوركسترات ، يمتاز بموهبة ولكنّ الغرور والكبر كانا كذلك من صفاته ، فأراد الأستاذ أن يتحدّث اليه ويظهر له عيوبه ويثبت له خطأه ، ويبين له تكدّره وتفوّقه ويشعره بحبّه ونفوذه . وأطلق الاستاذ زفرة . ألم يحن الوقت بعد لنظام نهائي ولتصويب الأخطاء التي ظهرت واستبانت! أيظل الإنسان دائماً أبداً يكافح الأخطاء عينها ويقتلع الحشائش الضارة نفسها! موهبة بلا أخلاق ، مهارة بلا انتظام في ترتيب هرمي . لقد إخضرّ من جديد نبت العيوب التي كانت تسود الحياة الموسيقية في عصر صحافة التسلية والتي كان عصر النهضة الموسيقية قد اقتلعها وفرغها منها .

فلمّا عاد من جولته ليتناول طعام العشاء مع يوزف ، وجده ساكناً مسروراً ولم يجد عليه ما كان به من تعب . وقال الصبي حالماً : « كان الدرس جميلاً جداً . توارت عنّي فيه الموسيقى تماماً وتحوّرت» .

فقال الأستاذ : «دعها تعود فتتهادى في نفسك» . ثمّ قاده الى غرفة صغيرة بها مائدة عليها خبز وفاكهة . فأكلا ، ودعاه الأستاذ الى الإختلاف حيناً الى حلقة قُوّاد الأوركسترات . وقبل أن يأوي الى صومعته ، قال له : «لقد رأيت في تأمّلك شيئاً ، رأيت الموسيقى تلوح لك كشكل . حاول ، إن صادف الأمر هوى في نفسك أن تسجّل هذا الشكل على الورق» .

ووجد كنشت في صومعة الضيوف ورقة على المائدة وأقلاماً ، وحاول قبل أن يأوي الى الفراش أن يرسم الشكل الذي تحوّرت اليه الموسيقى في تأمّله . فجرّ خطّاً وخرج منه بميل الى الخارج ، وعلى مسافات إيقاعية

خطوطاً جانبية قصيرة ، فجاء الشكل كأنه ورق الشجر في ترتيبه على الغصن . لكنه لم يرض عمّا أدّت اليه التجربة ، وأحسّ برغبة في إعادة التجربة وتكرارها ، وأخيراً لفّ الخط وهو يلعب وجعله دائرة تخرج منها الخطوط الجانبية كالأشعة ، أو كزهور باقة من الزهور تخرج من الوسط الى الخارج . ثمّ ذهب الى فراشه وسرعان ماغلبه النعاس . وفي الحلم رأى نفسه يبلغ الربوة فوق الغابات ، هناك حيث استراح هو وصاحبه بالأمس ،ورأى الى أسفل اشهولتس الحبيبة . وبينما هو ينظر اليها رأى الفناء المربّع يتفرطح متحوّلاً الى شكل بيضاوي ثمّ الى دائرة ، الى باقة ، بدأت تدور في بطء ثمّ تسرع وتسرع حتّى بلغت في النهاية سرعة جنونية وانفجرت وتفرّقت في أنجم براقة .

فلمّا صحا لم يكن يعلم من أمر الحلم شيئاً ، حتّى سأله الأستاذ وهو يسير معه في الصباح ، عمّا إذا كان قد رأى في المنام شيئاً ، هنالك أحسّ كأنه رأى في المنام شيئاً مثيراً ، وظلّ يتفكّر ويتذكّر حتّى وجد الحلم ثانية فحكاه واندهش عندما تبيّن أنه خال من الضر والسوء . وكان الاستاذ ينصت اليه بانتباه .

وسأل يوزف : « هل ينبغي على المرء أن يهتم بأحلامه ؟ وهل يمكن تفسير الأحلام ؟ » .

فنظر الأستاذ في عيني يوزف وقال موجزاً : « ينبغي على الإنسان أن يهتم بكل شيء ، لأن الإنسان يستطيع تفسير كل شيء » . ثمّ خطوا خطوات سأل بعدها يوزف بلهجة الأب يسأل ابنه : « أية مدرسة تفضّل الإنتقال اليها ؟ » فأحس يوزف بالخجل . لكنه أسرع وقال بصوت خفيض : أعتقد ، « فالدتسل » . فهزّ الأستاذ رأسه وقال : « وهذا هو ماخطر لي بالضبط ـ أتعرف الحكمة القديمة القائلة :

"Gignit autem artificiosam..."

وأكمل كنشت وحمرة الخجل ماتزال على وجهه تلك الحكمة التي يعرفها الطلبة جميعاً حق المعرفة : Gignit autem artificiosam. jusorum gentem Cella Silvestris وتعني أمّا فالدتسل[١] فتنجب أمة لاعبي الكريّات الزجاجية الماهرة .

ونظر الشيخ اليه نظرة مفعَمة بالود ثمّ قال له : « يبدو ، يايوزف ، أن هذا هو طريقك الحق . وأنت تعرف أن لعبة الكريّات الزجاجية لاتحظى بموافقة الجميع ..هناك من يقولون أنها بديل للفنون وأنّ لاعبيها فنّانون عابثون لايصح إعتبارهم من أهل الفكر فهم لايزيدون عن كونهم فنّانين مخرّفين . وسوف ترى بنفسك جانب الصحة في ذلك الإدّعاء وربّما تكون لديك أفكار عن لعبة الكريّات الزجاجية فيها من الثقة باللعبة أكثر مما تحتمل اللعبة نفسها ، وربّما العكس . أمّا أن اللعبة ذات أخطار فذلك أمر لاشك فيه . وهذا هو السبب الذي من أجله نحبّها ، فلا يسعى الى الطرق السهلة الخالية من الأخطار الا الضعفاء . ولا تنسَ ما قلته لك مراراً : رسالتنا هي التعرّف على الأضداد حق التعرّف ، أي هو أن نعرف أنها أضداد أوّلاً ، وأنها أقطاب وحدة متّحدة ثانياً . وهذا هو شأن لعبة الكريّات الزجاجية . تحبّها طبائع الفنّانين لأنّ الإنسان يستطيع بها التحليق بالخيال والتهويم ،ويحتقرها العلماء المتخصّصون المتزمّتون ـ وكذلك نفر من الموسيقيّين ـ لأنها تفتقر الى تلك الدرجة من دقة النظام التي تستطيع العلوم بلوغها فرادى . على أية حال ستتعرّف أنت على هذه الأضداد وستتبين بمرور الوقت أنها ليست أضداداً من الناحية الموضوعية ، بل من الناحية الذاتية ، وأنّ الفنّان الميّال للسبح في الخيال مثلاً لا يتجنّب الرياضة البحتة أو المنطق لأنه تبيّن من أمر هذا أو ذاك شيئاً ينتقصه ، وإنّما لأنه بالفطرة يميل الى ناحية أخرى ، وسوف

---

(١) اشهولتس معناها « غابة الدرداء » . وفالدتسل Waldzell معناها « خلية الغابة » . (المترجم)

تعرف أن مثل هذه الميول والاعراضات الفطرية العنيفة هي بلا شك دلائل قاطعة على النفوس الصغيرة . فالنفوس العظيمة والعقليّات الممتازة لاتعرف مثل هذه الإنفعالات ، التي لاوجود لها في الواقع ، لأنّ كل واحد منّا إنسان بشر ، أي أنه مجرّد محاولة ، مجرّد شيء في منتصف الطريق . وعلى الإنسان أن يكون في منتصف الطريق المؤدّي الى الكمال وأن يسعى لبلوغ المركز لا الحافة . واعلم أن المرء يستطيع أن يكون منطقياً أو نحوياً جاداً ويكون في الوقت نفسه ممتلئاً خيالاً وموسيقى ، وأن الإنسان يستطيع أن يكون موسيقيّا أو لاعباً من لاعبي الكريات الزجاجية ويكون في الوقت نفسه متمسّكاً كل التمسّك بالقانون والنظام ، والإنسان الذي نعنيه ونريده وكل غرضنا أن نكونه ، إنسان يستطيع في كل لحظة أن يبدّل علمه وفنّه بأي علم وفن آخر ، ويستطيع أن يجعل المنطق البالغ البللورية يتلألأ في لعبة الكريّات الزجاجية وأن يجعل الخيال الخلاّق يتلألأ في النحو وقواعد اللغة . وعلينا نحن أن نكون هكذا : يضعنا من يضعنا ، في أي ساعة ، في مكان غير المكان ، فلا نتمنّع ولا نرتبك» .

فقال كنشت : «أعتقد أنني أفهم ، ولكن أليس أولئك الذين يحسّون بميول قوية واعتراضات قوية هم بكل بساطة ذوو الطبائع العاطفية ، وأن أولئك الذين لايحسّون بمثل ذلك هم ذوو الطبائع الهادئة الرقيقة ؟» .

فضحك الأستاذ وقال : «يبدو أن ذلك صحيح وإن لم يكن صحيحاً . الإنسان بلا شك يحتاج ـ ليكون ماهراً في كل شيء ، صالحاً لكل أمر ـ الى مزيد من قوة الروح والانطلاق والدفء لا الى قليل منها وما تسميه أنت انفعالاً ليس قوة روحية ، بل هو إحتكاك بين الروح والعالم الخارجي ، وحيث يسود الانفعال ، لا يكون هناك مزيد من قوة الرغبة والسعي ، بل تكون تلك القوّة متّجهة الى هدف منعزل خاطئ ، مما يؤدّي الى توتّر الجو وسخونته . أمّا من يوجّه قوة الرغبة العظمى الى المركز ، الى الكون الحقيقي ، الى

الكمال فإنه يبدو أكثر هدوءاً من الانفعالي ، لأنّ الناس لايرون دائماً جذوة ناره ، فهو على سبيل المثال إذا ناقش لم يصرخ ولم يحرّك يديه . ولكن إعلم أنه لامحالة يتأجج ويشتعل! » .

فصاح كنشت : « آه ، لو كان للإنسان أن يصير عليماً! لو كان هناك مذهب ، لو كان هناك شيء يمكن للإنسان أن يؤمن به! كل شيء يناقض بعضه البعض ، كل شيء يخطىء بعضه البعض الآخر ، وليس لليقين وجود في أي مكان . من الممكن تفسير الأشياء على نحو ، ثمّ تفسيرها على نحو مضاد للتفسير الأوّل . من الممكن أن يؤول الإنسان تاريخ العالم على أنه نمو وتقدّم ، ومن الممكن كذلك أن يرى الإنسان فيه تدهوراً وتجرّداً عن المعنى . ألا توجد حقيقة ؟ ألا يوجد مذهب صحيح نافذ ؟ » .

لم يكن الأستاذ قد سمعه من قبل يتحدّث بهذا العنف . وسار الأستاذ مسافة الى الأمام ثمّ قال له : « بل توجد الحقيقة ، ياعزيزي! أمّا « المذهب » الذي ترومه ، المذهب المطلق الوحيد الذي يجعل الإنسان حكيماً كاملاً ، فلا وجود له . ولاينبغي لك أن تتوق الى مذهب كامل ، ياصديقي ، بل عليك أن تسعى لكمال ذاتك . فالإله فيك أنت ، وليس في المفاهيم والكتب . أمّا الحقيقة فيعيشها الإنسان ولاسبيل الى تعليمها في دروس تدرّس . فاستعد يايوزف كنشت للدفاع ، وما أرى إلا أنّك قد بدأته » .

وفي تلك الأيام رأى يوزف الاستاذ الحبيب لأوّل مرة في نشاطه اليومي العادي وفي عمله وأعجب به جداً ، رغم أنه لم ير في مجهوداته اليومية إلا جانباً صغيراً . وقد ملك عليه الاستاذ حياته خاصة لأنه اهتم به . ودعاه لزيارته ، ولأنه كان وسط الأعباء الكثيرة المضنية يوفّر له من وقته ساعات ، وأكثر من الساعات . وكان لدرس التأمّل الأول الذي أدخل به الاستاذ كنشت الى التأمّل أثر عميق باقٍ ، على ماحكم يوزف نفسه فيما بعد ، لا لأنّ الاستاذ إتّبع في درسه طريقة فريدة في اللطف والغرابة ، وإنّما نبع الأثر

العميق الباقي من شخص الاستاذ ومن إعطائه المثل بنفسه . وقد علّمه في السنة التالية التأمّل مدرّسون أكثر دقة ، كانوا يحكمون المراقبة ويكثرون من الأسئلة ومن التصويبات . أمّا أستاذ الموسيقى ، الواثق من سلطانه على الفتى ، فلم يقل شيئاً ولم يعلم شيئاً ، أو كاد ، فلم يقدّم سوى الألحان وسوى نفسه كمثل ، وظل كنشت يلاحظ كيف كان أستاذه يبدو غالباً مسنّاً مأخوذاً ، ثمّ كيف أغمض عينيه نصف إغماض وغاص في نفسه ثمّ عاد ينظر ساكناً ، قوياً ، باشاً ، لطيفاً ـ لم يكن هناك شيء يمكن أن يقنعه خيراً من ذلك ولاأعمق بالطريق الى المنابع ، بالطريق من القلق الى الأمن . أمّا تعبير الأستاذ عن ذلك بكلام فلم يصل الى أسماع كنشت الا متفرّقاً متناثراً ، مرة وهما يتنزّهان نزهة قصيرة ومرّة وهما يتناولان الطعام .

وقد بلغنا أن كنشت تلقّى من الاستاذ آنئذ تلميحات أولى وإرشادات خاصة بلعبة الكريّات الزجاجية ، ولكن كلمات الاستاذ لم ينقلها أحد الينا . كذلك تأثّر كنشت بإهتمام مضيفه بمرافقه في الجولة حتّى لا يحسّ عمداً بأنه لا يزيد عن كونه ذيلاً له ، كان الرجل ، على ما يظهر ، يفكّر في كل شيء .

كان للإقامة القصيرة في مونتيبورت ، ولدروس التأمّل الثلاثة ، ولحضور طرف من حلقات قوّاد الاوركسترات ، وللأحاديث بين الاستاذ والفتى أهمية كبيرة بالنسبة ليوزف كنشت ، ولاشكّ أن الاستاذ قد اختار لتدخّله القصير هذا أنسب المواعيد وأكثرها فعالية ، كانت دعوته تهدف أوّل ماتهدف الى تحبيب الصبي في التأمّل ، ولكنها كانت في الوقت ذاته وفي حد ذاتها تمييزاً له ودليلاً على أنه موضع الإهتمام والأمل : كانت تلك هي الدرجة الثانية من إلهامه . تلقّى كنشت نعمة النظر في المجالات الباطنية . ثمّ إن تقريب واحد من الاساتذة الاثني عشر تلميذاً من تلك المرحلة لا يعني أن الأستاذ يستحسنه شخصياً فحسب ، فإن الاستاذ إذا فعل شيئاً ، كان فعله أكثر من فعل شخصي .

وعند الوداع تلقّى التلميذان هدايا ، تلقّى يوزف كراسة بها مقدّمتان كوراليّتان لباخ[1] وتلقّى صاحبه طبعة جميلة ومن الحجم الصغير لأعمال هوراس[2] . وقال الاستاذ لكنشت وهو يودّعه : «سيصلك في الأيام القادمة ما ينبئك بالمدرسة التي نقلت اليها . وسيكون حضوري الى مدرستك الجديدة أقل من حضوري الى اشهولتس ، ولكننا سنلتقي بها بلا شك إن بقيت بصحة وعافية . ولك إن أحببت أن تكتب لي مرّة في العام خطاباً تحيطني به علماً عن سير دراساتك الموسيقية خاصة . ولامانع من أن تنتقد مدرّسيك ، وإن كنت أعير هذا النقد القليل من الأهمّية . إنّ ماينتظرك كثير ، ولكنّي آمل أن تثبت جدارتك . وليس المقصود من كاستاليا أن تكون صفوة وحسب ، بل أن تكون قبل كل شيء آخر نظام هرمياً ، وبنياناً لايكون للحجر الواحد فيه معنى الا المعنى الذي يستقيه من الكل . وليس هناك طريق من هذا الكل الى الخارج ، ومن ترقّى زادت مهمّاته ، ولم يصبح أكثر حرّية بل أصبح أكثر مسؤولية . الى اللقاء ، أيها الصديق الصغير ، لقد كان مقامك عندي فرحة أثلجت صدري» .

وعاد الاثنان سيراً على الأقدام ، وكانا في طريق عودتهما أكثر بهجة وحديثاً منهما في طريق قدومهما ، فقد روّحت عنهما الأيام التي أمضياها في هواء مختلف ، ومناظر مختلفة وإتّصال بميدان آخر من ميادين الحياة وخلّصتهما من اشهولتس ومن جو الوداع بها وجعلتهما أكثر شوقاً الى حدوث التغيير ، أكثر شوقاً الى المستقبل . وكانا في الطريق عندما يستريحان في غابة أو على حافة هوّة في منطقة مونتيبروت ، يخرجان من جعبتيهما مزماريهما الخشبيّين ويعزفان على طبقتين بعض الأناشيد . حتّى وصلا الى المرتفع المطل على اشهولتس بمبانيها وأشجارها ، فبدا لهما

(١) Bach

(٢) Horaz

جميعاً أنّ الكلام الذي تبادلاه في هذا المكان عند القدوم ، قد انزوى في الماضي البعيد ، فقد اتخذت الأشياء كلّها في نظرهما شكلاً جديداً ، فلم يتكلّما ، بل خجلا بعض الخجل من أحاسيسهما وكلامهما آنذاك ، تلك التي تقادمت بسرعة وتجرّدت من المضمون .

وفي اشهولتس علما في اليوم التالي وجهتهما . وكانت وجهه كنشت الى فالدتسل .



فالدتسل

«أمّا فالدتسل فتنجب أمة لاعبي الكريّات الزجاجية الماهرة» القول المأثور عن تلك المدرسة الشهيرة . وكانت فالدتسل أكثر مدارس الدرجة الثانية والثالثة في كاستاليا اهتماماً بالنواحي الفنّية ، ففي حين كانت المدارس الأخرى تركّز كل واحدة اهتمامها على علم من العلوم ، مدرسة كويبرهايم[١] تهتم خاصة بفقه اللغات القديمة ومدرسة بورتا[١] تهتم بالفلسفة الأرسطوطاليسية والفلسفة الكلامية ، ومدرسة بلانفاسته[١] تهتم بالرياضيّات ، كانت مدرسة فالدتسل يسودها إتجاه تقليدي الى العالمية والى المؤاخاة بين العلوم والفنون ورمزها الأعلى لعبة الكريّات الزجاجية . ولم تكن لعبة الكريّات الزجاجية تدرّس في فالدتسل ، شأنها في ذلك شأن المدارس الأخرى ، كمادة إجبارية رسمية ، ولكنّ التلاميذ كانوا يكرسون لها كل دراساتهم الخاصة تقريباً ، فقد كانوا في فالدتسل ، تلك المدينة الصغيرة التي اتخذت مقراً رسمياً للعبة الكريّات الزجاجية ومنشآتها : كانت بها القاعة قاعة اللعب الشهيرة التي تعقد فيها احتفالات اللعب ، وكان بها أرشيف اللعبة الهائل بموظّفيه ومكاتبه ، وكان فيها مقر استاذ اللعبة اللودي ماجستر . ومع أنّ هذه المنشآت كانت قائمة بذاتها ، غير متّصلة بالمدرسة

(١) Planvasto, Porta, Keuperheim.

بحال من الأحوال ، فإن روحها كانت تسود المدرسة ، وكان جو المنطقة يحمل شيئاً من قدسية الألعاب العامة العظمى . وكانت المدينة ذاتها فخورة تزهو لابالمدرسة فحسب ، بل بلعبة الكريّات الزجاجية أيضاً ، وكان أهل البلدة يسمّون التلاميذ «طلاباً» ويسمّون الدارسين وضيوف مدرسة اللعبة «لوزر» وهم اسم محوّر عن «Lusores» أي اللاعبين . ثمّ إن مدرسة فالدتسل كانت أصغر مدارس كاستاليا جميعاً ، ولم يكن عدد تلاميذها يتعدّى بحال من الأحوال الستّين ، لذلك كانت تتخذ بين المدارس الأخرى مسحة أرستقراطية ولوناً خاصاً ممتازاً ، وتبدو كما لو كانت صفوة الصفوة ، والحق أن هذه المدرسة المجيدة خرجت في عشرات السنوات الماضية أساتذة كثيرين فضلاً على جميع أساتذة لعبة الكريّات الزجاجية . إلا أن هذه الشهرة لم تكن من الأمور التي يسلّم بها الجميع تسليماً : فمن الناس من كان يعتقد أنّ الفالدتسليين هواة مغرورون ، وأمراء مدلّلون ليس وراءهم في غير لعبة الكريّات الزجاجية نفع . حتّى في كثير من المدارس كانت الألسن تتناقل أحياناً كلمات لاذعة قارصة مرّة عن الفالدتسيليين ، شاعت فيها حتّى أصبحت موضة ، لكن لذع تلك التعليقات والنكات يدل بوضوح على أن الغيرة والحسد كانت من ورائها . ومهما يكن من أمر ، فقد كان انتقال التلميذ الى فالدتسل نوعاً من التمييز ، وكان يوزف كنشت يعلم هذا ويقبل هذا التمييز بفخر وفرح ، وإن لم يكن يتّصف بالطموح بمعناه المبتذل .

ووصل يوزف كنشت ومعه عدد من زملائه الى فالدتسل بعد رحلة قاموا بها على الأقدام . ودخل من خلال الباب الجنوبي وقد ملأ نفسه اشتياق كبير واستعداد عظيم ، فأخذته وسحرته على الفور المدينة الصغيرة العتيقة الداكنة وكذلك أثر عليه مبنى دير التسيسترتسينزر[١] الذي تحتلّه المدرسة . وشرع ، قبل أن يغيّر ملابسه ، وبعد أن تناول لقمة سريعة تقدّم

(١) Zisterzienserklostor

عند استقبال القادمين في قاعة البواب ، شرع يسير وحده ليكتشف موطنه الجديد ، فوجد الطريق الذي يمتد فوق أطلال سور المدينة القديم على النهر ، وظلّ واقفاً على الجسر ذي القباء ، ينصت الى خرير المياه التي كانت ترتطم بحاجز الطاحونة ، ثمّ سار متجاوزاً المقابر الى طريق الزيزفون حتّى رأى وراء السياج المرتفع «قرية اللعبة» ، وعرف أنّها الضاحية الخاصة بلاعبي الكريّات الزجاجية ، فيها قاعة الإحتفالات ، والسجلاّت ، وقاعات التدريس ودور الضيوف والمعلّمين . ورأى رجلاً يخرج من إحدى هذه الدور ، يلبس زي لاعبي الكريّات الزجاجية ، وقال في نفسه ، هذا واحد من لاعبي الكريّات الزجاجية ، بل ربّما كان أستاذ اللعبة الماجستر لودي نفسه . وأحس بسحر الجو إحساساً قوياً ، ولاح له كل شيء في المكان قديماً مجيداً مقدّساً مفعماً بالتقاليد ، وعرف أن المرء هنا أقرب الى المركز منه في اشهولتس . فلمّا قفل راجعاً من منطقة لعبة الكريّات الزجاجية أحس ألواناً أخرى من السحر ، ربّما كانت أقل قدسية ، ولكنّها لم تكن أقل إثارة ، تتمثّل في المدينة الصغيرة ، وفي تلك القطعة من العالم الدنيوي بما فيها من بيع وشراء وكلاب وأولاد وروائح المحلاّت ، وأصحاب الحرف والصناعات ، ورجال طوال اللحى ، ونسوة جسيمات وراء الأبواب ، وصبية يلعبون ويتصايحون ، وبنات تنظر نظرات كلّها سخرية وتهكّم . وذكّره كثير مما رأى بعوالم قديمة بعيدة ، ببيرولفنجن(١) ، وكان يظن أن تلك العوالم القديمة النائية قد اختفت في بطن النسيان . وجاءت من طبقات عميقة في نفسه أجوبة على كل هذه الأشياء ، على كل هذه الصور والأصوات والروائح . وظنّ أن عالماً أقل سكوناً وأكثر تلوّناً وثراءً من عالم اشهولتس في انتظاره .

كان منهاج المدرسة بادىء ذي بدء هو استكمال للمواد الدراسية التي درسها في اشهولتس ، بزيادة بعض المواد الجديدة . أمّا الشيء الجديد كل

(١) Berolfingen

الجدة فيه فكان تمرينات التأمّل ، وحتّى هذه لم تعد جديدة عليه ، بعد أن أذاقه أستاذ الموسيقى طرفاً من طعمها . ووجد كنشت في نفسه ميلاً الى التأمّل ، ولم يكن يرى فيه أولاً الا لعبة لطيفة مريحة للأعصاب ، حتّى أتى وقت ـ سنعود الى الحديث عنه ـ تبيّن فيه القيمة الحقيقية العالية للتأمّل .

كان ناظر مدرسة فالدتسل رجلاً غريب الأطوار ، مهاب الجانب ، اسمه أوتو تسبيندن[١] في نحو الستّين من عمره ، وصلت الينا تقريرات بخطه الجميل المنفعل تدور حول يوزف كنشت وآن لنا أن نراها . ولم يكن المدرّسون هم الذين أثاروا فضول الفتى في أوّل عهده بالمدرسة . بل رفاقه من التلاميذ وخاصة إثنان منهم كان على علاقة بهما قوامها اتصال وتبادل نشيط منوّع ، أمّا الأوّل واسمه كارولوفيرومونته[٢] فإتّصل به في الشهور الأولى مباشرة (وقد ترقّى هذا حتّى وصل الى مركز نائب أستاذ الموسيقى وهو مركز في الدرجة الثانية بين الدرجات العظمى في الطائفة) وكان في مثل سنّه . وقد خلف هذا أعمالاً منها «تاريخ أسلوب موسيقى العود في القرن السادس عشر» . أمّا في المدرسة فكانوا يسمّونه «آكل الأرز» ويحبّون صحبته . وقد بدأت صداقته مع يوزف بأحاديث عن الموسيقى وتطوّرت الى دراسات مشتركة وتمرينات مشتركة استغرقت السنين الطوال ، وبلغنا خبرها فيما بقي من خطابات نادرة غزيرة المضمون بعث بها كنشت الى استاذ الموسيقى . في أوّل هذه الخطابات يتحدّث كنشت عن فيرومونته فيقول أنه «متخصص في الموسيقى الغنية بالزخارف والتحليلات والمحسنات ألخ عليم بأمورها» ، يعزف موسيقى كوبيران وبوسيل[٣] وغيرهما من موسيقى العصر طول عام ١٧٠٠ ويشترك معه في العزف كنشت . وقد أسهب كنشت في

---

(١) Otto Zbinden

(٢) Garlo Ferromonte

(٣) Purcell, Couperin.

خطاب آخر في الحديث عن تلك التمرينات الموسيقية وتلك الموسيقى «التي توشك كل نغمة من نغماتها أن تكون مزدانة بحلية على رأسها» . ويضيف كنشت الى ذلك قوله «إنّ الإنسان إذا عكف ساعتين على عزف هذه الموسيقى ذات الإيقاعات المزدوجة والمحسّنات البرّاقة والتحلّيات دون غيرها ، فإنّ أصابعه تبدو كما لو كانت مشحونة بشحنة من الكهرباء» .

والحق أن كنشت تقدّم في هذا النوع من الموسيقى تقدّماً كبيراً حتى استطاع في العام الثاني أو الثالث في فالدتسل أن يقرأ وأن يعزف كتابات النوت الموسيقية والمفاتيح والمختصرات وعلامات الباس من كل العصور والأساليب بسهولة مقبولة وتمكّن من الموسيقى الغربية ، على قدر مابقي منها محفوظاً ، تمكناً ذا طريقة خاصة تبدأ من الناحية اليدوية وتهتم إهتماماً كبيراً بالجانب الحسّي وبالطرق الفنّية اهتماماً لايشوبه أي إقلال من شأنها ، ويهدف الى الغوص فيها الى روحها . وقد كان اهتمام كنشت باستجلاء الناحية الحسّية في الموسيقى واجتهاده في بلوغ روح الأساليب الموسيقية المختلفة واستخلاصها من الناحية الحسّية ، والنغمية ، ومن أحاسيس الاذن ، سبباً في الحيلولة بينه وبين الإبتداء في دراسة لعبة الكريّات الزجاجية مع أقرانه زمناً طويلاً ملفتاً للنظر . ولكنشت في ذلك قول أتى في محاضرة فيما بعد : «من يعرف الموسيقى في المستخلصات التي استخلصتها لعبة الكريّات الزجاجية ، ربّما يصبح لاعباً من لاعبي الكريات الزجاجية المجيدين ، ولكنه يظل أبعد مايكون عن أن يصبح موسيقياً ، وعلى مايبدو ، عن أن يصبح مؤرّخاً كذلك . فالموسيقى لاتتكوّن فقط من تلك الحركات والأشكال الفكرية البحتة التي نستخرجها منها ، وإنما هي تتكوّن من قديم الزمان على مر القرون من الفرحة بما هو حسّي ، من الفرحة بإنسياب النفس ، وبوقع الإيقاع ، وبالتلوينات والاحتكاكات والإثارات ، التي تنشأ عند مزج الأصوات وضم الآلات الموسيقية في عزف مشترك . والروح هي

العنصر الهام فيها ، لاشك في هذا ، ولاشك أيضاً أن ابتكار آلات موسيقية جديدة وتحوير القديمة وإدخال ضروب جديد من النغم وقواعد جديدة في التأليف والهارموني وفرض تحريمات جديدة هي الحركة الظاهرة والناحية الخارجية ، كما أنّ الأزياء والموضات هي الناحية الخارجية للأمم ، ومن الضروري أن يتبيّن الإنسان هذه المميزات الخارجية الحسية تبيّناً حسّياً قوياً وأن يتذوّقها على النحو نفسه كما هي ، حتّى يفهم منها العصور والأساليب . فالإنسان يصنع الموسيقى بيديه وأصابعه وفمه ورئته ، لا بمخّه وحده ، وعلى من يعرف قراءة النغمات ولايعرف كيف يجيد العزف على آلة موسيقية إجادة تامة ، ألاّ يندس بين المتكلّمين عن الموسيقى . وهكذا فإنّ تاريخ الموسيقى لايمكن فهمه إذا اعتمد الإنسان على تاريخ اسلوب ، مجرّد ، كذلك لن يمكن فهم موسيقى عصور التدهور مثلاً إذا لم نتبيّن فيها في كل مرة غلبة الناحية الحسّية الكمية على الناحية الروحية » .

ويكاد المرء أن يعتقد حسب الظواهرأنّ كنشت ظلّ فترة يفكّر في أن يصبح موسيقيّاً ولاشيء أكثر من هذا . فقد أهمل التلميذ كنشت المواد الدراسية المختلفة الإختيارية بما في ذلك لعبة الكريّات الزجاجية نوعاً ما ليعكف على الموسيقى ، حتّى أتى به الناظر في آخر الفصل الدراسي ليكلّمه في هذا الأمر ، فلم يتهيّب التلميذ كنشت ودافع عن موقفه معتمداً على حقوق التلاميذ اعتماداً عنيداً لايلين . وروى أنّه قال للناظر : « إذا أنا تأخّرت في مادة من المواد الرسمية فلك الحق في توبيخي ، ولكنّي لم أدع فرصة من هذا النوع تسنح لك لتوبيخي بحق . أمّا أنا فعلى حق عندما كرّست للموسيقى ثلاثة أرباع أو أربعة أرباع الوقت الذي ترك لتصرّفي . وأنا في هذا أعتمد على اللوائح » . وكان الناظر تسبيندن من الفطنة والدهاء بحيث ترك الأمر عند هذا الحد ولم يلحّ ، واكتفى بأخذ فكرة عن هذا التلميذ وظلّ زمناً طويلاً يعامله معاملة قاسية باردة .

ودامت هذه الفترة العجيبة من حياة كنشت التلميذ عاماً أو ربّما عاماً ونصف العام : كانت شهاداته فيه عادية ليست باهرة ، وسلوكه يتميّز بإعتكاف عنيد ظهر بعد الإحتكاك بالناظر ، وعلاقاته مع الآخرين لاتصل الى عقد صداقات تلفت النظر ، ولكنّه ظلّ يهتم بالموسيقى اهتماماً مفعماً بشغف وولع خارق للمألوف ، وينصرف عن المواد الخاصة كلّها تقريباً بما فيها لعبة الكريّات الزجاجية . ولاشكّ أن أن بعض تصرّفات الصبي في ذلك الوقت كانت من مميزات المراهقة ، والظاهر أنه لم يلق الجنس الآخر في تلك الفترة إلا مصادفة وفي نفسه منه ريب ، وربّما كان خجولاً مسرفاً في الخجل ككثير من تلاميذ اشهولتس الذين لم تكن لهم أخوات بنات في دورهم . ولكنّه كان يكثر القراءة ، ويهتم خاصة بالفلاسفة الألمان : لايبنتس وكانط والرومانتيكيّين ويجتذبه منهم هيجل اجتذاباً عظيماً يفوق الآخرين جميعاً[١] .

وينبغي علينا في هذا المقام أن نتوسّع في ذكر زميل كنشت الآخر الذي لعب في حياته دوراً معيّناً ، ونعني به التلميذ الزائر «بلينيو ديزينوري»[٢] . كان تلميذاً زائراً ، وهذا يعني أنه كان يختلف الى مدارس الصفوة كزائر ، لاينوي البقاء في الاقليم التربوي طوال حياته والانضمام الى الطائفة . وكان مثل هؤلاء التلاميذ الزائرين يقبلون في مدارس الصفوة من حين لآخر ، ولكن نادراً جداً ، لأن الهيئة التربوية العليا لم تكن بطبيعة الحال لتهتم بتربية تلاميذ ، يعودون بعد إتمام الدراسة الى أهليهم والى الدنيا . إلا أنه كانت هناك بعض العائلات العريقة أسهمت في قيام كاستاليا وتدعيمها اسهاماً عظيماً ، وتكونت فيها عاده لم تختف الى اليوم ، تتلخّص في إرسال واحد من أبنائها الى مدارس الصفوة إن كانت له المواهب المطلوبة ليتعلّم فيها كزائر ، ولم تلبث هذه العادة أن أصبحت حقّاً تتمسّك به هذه العائلات

---

(١) Hegel, Kant, LeiPniz

(٢) Plinio Designori.

تمسّكهاً بالتقاليد ، وكان هؤلاء الزائرون يخضعون من كل ناحية للقواعد التي يخضع لها تلاميذ الصفوة جميعاً ، ولكنّهم كانوا يكونون بين جماعة التلاميذ ركناً استثنائيّاً ، لأنهم لم يكونوا كالآخرين يغتربون عن وطنهم وأسرتهم ويزيد اغترابهم هذا عاماً بعد عام ، بل كانوا يعودون الى وطنهم وأهليهم في المناسبات ويمضون معهم الإجازات فظلّوا بين رفاقهم التلاميذ الآخرين زوّاراً وغرباء لأنهم كانوا يحتفظون بعادات الوطن وطريقته في التفكير . وكان بيت الأسرة ينتظرهم ، وينتظرهم طريق في الدنيا وحرفة وزواج . وفي بعض الأحوال القليلة جداً كانت روح الإقليم تستبدّ بالتلميذ الزائر فيبقى ، بموافقة أهلة ، في كاستاليا وينخرط في سلك الطائفة . ومن ينظر في تاريخ البلاد يجد أن كثيراً من الساسة المعروفين كانوا في صباهم تلاميذ زائرين في مدارس الصفوة ، ويجد أنّهم وقفوا في صف مدراس الصفوة والطائفة في الأوقات التي كان الرأي العام فيها يثور عليها لسبب أو لآخر .

كان بلينيو ديزينوري إذن تلميذاً زائراً من هذا النوع ، التقى به يوزف كنشت في فالدتسل وكان يصغره سنّاً . كان بلينيو فتى بارعاً موهوباً ممتازاً في الكلام والمناظرة خاصة ، وكان إنساناً نارياً لايهدأ ، ويسبّب للناظر تسبندن الكثير من الكدر ، لأنه وإن كان يحسن التلمذة ولايفعل مايوجب التوبيخ واللوم ، كان لا يسعى قط الى نسيان وضعه الاستثنائي كتلميذ زائر والاندماج في صفوف الآخرين على نحو غير ملفت للنظر ، بل كان على عكس ذلك تماماً يعلن بجرأة وتحفّز أنه يؤمن بأفكار لاكستالية ، وأفكار دنيوية . ولم ينقض وقت طويل حتّى نشأت بين التلميذين علاقة من نوع خاص ؛ فقد كان الاثنان موهوبين ملهمين ، فتآخيا ، رغم أنهما كانا في كل الأمور على طرفي نقيض كان أمرهما يحتاج الى معلّم يمتاز بفطنة عالية خارقة وفن رفيع ، ليستخرج الخلاصة النقية الصافية ويتّبع قواعد الجدل ليهيّئ إمكانية نشوء توافق بين المتضادات وبعدها . والحق أن الناظر تسندن كان يحتكم على

الموهبة والإرادة اللازمة لهذه المهمة ، فقد كان من المدرّسين الذين لايتحرّجون من العباقرة . ولكن أهم شروط النجاح كان يعوزه ألا وهو : ثقة التلميذين فيه . أمّا بلينيو ، الذي كان يختال في دور المخالف الثائر ، فكان يحترس أمام الناظر كل الإحتراس ، وأمّا يوزف كنشت فكان الاحتكاك بينه وبين الناظر قد حدث بسبب تركه المواد الخاصة ، هذا بالإضافة الى أنه لم يكن ليتّجه الى تسبندن ليلتمس منها نصحاً . ولكن أستاذ الموسيقى كان هناك لحسن الحظ ، فتوجّه اليه يوزف كنشت ملتمساً العون والنصح ، فاهتم الرجل الحكيم الوقور بالأمر اهتماماً جاداً وأحسن معالجته كما سنرى . فقد مثل بين يدي هذا الاستاذ أعظم خطر وأعظم غواية تعرّضت لها حياة كنشت في صباه ، فتحوّلا الى مهمة ممتازة في مستوى قدرته . كانت الحكاية العميقة لتلك الصداقة ـ العداوة بين يوزف وبلينيو ، أو لتلك الموسيقى ذات اللحنين ، أو لتلك اللعبة الجدلية بين مفكّرين ، هي التالية تقريباً :

كان ديزينوري في أوّل الأمر بطبيعة الحال هو الذي لفت نظر صاحبه وجذبه . فلم يكن الأكبر سنّاً فحسب ، ولم يكن فتى جميلاً متأجّجاً متكلّماً فحسب ، بل كان قبل كل شيء آخر واحداً « من الخارج » ، كان لاكستالياً ، كان من الدنيا ، كان له أب وأم وأعمام وعمّات وأخوال وخالات وإخوة وأخوات . كان واحداً تمثّل كاستاليا بقوانينها كلّها وتقاليدها ومثلها بالنسبة اليه مرحلة فقط ، قطعة من طريق ، إقامة مؤقّتة ، ولا شيء أكثر من هذا . لم تكن كاستاليا في نظر هذا الغراب الأبيض هي الدنيا ، في نظره كانت فالدتسل مدرسة كغيرها من المدارس ، وكانت العودة الى « الدنيا » شيئاً آخر غير الذلة والعقوبة ، ولم تكن الطائفة هي ماينتظره عندما يفرغ ، بل كان ينتظره طريق في الحياة ، وزواج وسياسة ، كانت « الحياة الحقيقية » باختصار هي التي تنتظره ، تلك الحياة التي كان كل كاستالي يحسّ رغبة مكتومة في معرفتها ، فقد كانت « الدنيا » بالنسبة للكاستالي ، ماكانته قديماً بالنسبة للراهب

والمنقطع : كانت هي الشيء الدنيء الممنوع ، ولكنّها كانت مع ذلك بالنسبة اليه الشيء المليء بالأسرار ، الشيء المغوي الفتّان . ولكن لم يكن بلينيو يخفي تبعيّته للدنيا ولم يكن يخجل منها بحال من الأحوال ، بل كان على عكس ذلك فخوراً بها ، يؤكّد اختلاف حاله عن حال الآخرين تأكيداً فيه شيء من الصبيانية وشيء من التمثيل وفيه أيضاً وعي وتحمّس يصل الى درجة التبلّور في شكل برنامج . وكان ينتهز كل فرصة تسنح له ليعرض أفكاره الدنيوية ومعاييره الدنيوية ويقارنها بأفكار ومعايير كاستاليا مؤكّداً أنّ الأولى أفضل وأصوب وأكثر طبيعية وإنسانية من الثانية . وكان يعتمد في حواره كثيراً على « الطبيعة » وعلى « البداهة » ، ويقارن البداهة بروح المدرسة المشوّهة الغريبة عن الحياة ، وكان لايقتصد في إطلاق الشعارات والكلمات الطنّانة الرنّانة ومع ذلك كان ماهراً وكان من الذوق بحيث لم يقف عند حد التحدّيات الغليظة ، بل اعترف بضروب المناقشة التي كانت متّبعة في فالدتسل . كان يريد أن يدافع عن « الدنيا » وعن الحياة البسيطة ضد « الاتّجاه العقلي الجدلي المتعالي » السائد في كاستاليا ، ولكنه كان يريد أيضاً أن يبيّن للعيان أنّ في مقدوره أن يفعل ذلك باستعمال أسلحة العدو ، لم يكن بلينيو يريد قط أن يكون إنساناً بلا ثقافة يتجوّل كالأعمى في بستان الثقافة الفكرية .

وكثيراً ما كان يوزف كنشت يقف خلف مجموعة من التلاميذ ملتفة حول ديزينوري فيسمع له في صمت وإنتباه . وكثيراً ماالتقطت أذنه في شغف ودهشة ورهبة جملاً من فم هذا الخطيب تنتقد كل شيء مقدّس في كاستاليا ، انتقاداً هادماً ، وتتشكّك في كل شيء كان هو يؤمن به ، بل وتسخر منه . ولاحظ أن خطب بلينيو لم تكن تلقى من المستمعين جميعاً أذناً صاغية ، كان بعض المستمعين يستمعون على سبيل الفكاهة ، كما يستمع الناس للخطباء التافهين الذين يزعقون في الأسواق ، وكان البعض الآخر يرد على بلينيو ، ويسخر من هجومه ، بل ويدحضه أيضاً لكنّ بلينيو كان دائماً لايرى إلا وحوله بعض

الرفاق ، لايرى إلا في مركز الدائرة ، سواء كان في المستمعين اليه معارض أو لم يكن ، فقد كان لبلينيو تأثير جذّاب ، يوشك أن يكون غواية . وكان أمر يوزف كنشت مع ذلك الخطيب المفوّه كأمر المجموعات التي كانت تتكوّن حوله وتسمع عباراته بدهشة حيناً وبضحك حيناً آخر . ومع أن يوزف كنشت كان يحس تجاه بلينيو وخطبه بالرهبة ، بل بالخوف ، فإنه كان يجد نفسه منجذباً اليه على نحو غامض ، لا لأن هذه الخطب كانت مسلّية ، ولكنه كان يرى أنها بالفعل تمسّه على نحوٍ ما ، لا لأنه كان في قرارة نفسه يوافق الخطيب الجريء على ماكان يذهب اليه ، وإنّما لأنه كان يبرز شكوكاً تكفي معرفة الإنسان بوجودها أو بإمكانيّتها ، لكي تجعله يعاني منها ولم تكن المعاناة في أوّل الأمر من النوع العنيف ، بل كانت من نوع التأثّر والقلق ، كانت إحساساً يمتزج فيه الاندفاع الشديد بوخز الضمير .

وكان من المحتّم أن تأتي الساعة التي يتبيّن فيها ديزنيوري أنّ بين مستمعيه شخصاً تقع منه كلماته موقعاً أكثر من موقع الإثارة أو التسلية المخلّة أو إرضاء شهوة المناقشة ، فتى أشقر الشعر ، كثير الصمت ، جميل الخلقة ، يبدو خجولاً تعلو وجهه حمرة الخجل ، ويرد عليه بإجابات مقتضبة حائرة ، عندما يتحدّث اليه حديثاً لطيفاً . وفكّر بلينيو أنّ هذا الفتى لابدّ قد تتبّعه منذ وقت طويل وصمّم على مكافأته بعمل لطيف وعلى اكتساب لآرائه : فدعاه الى زيارته عصر اليوم في حجرته . لكنّ هذا الفتى الخجول الصلب لم يكن صعب المنال . فقد فوجىء بلينيو بالفتى يتحاشاه ولايرد على سؤاله ولايقبل دعوته : فلم يزده إعراضه عنه الا اهتماماً به . وبدأ منذ ذلك اليوم يسعى لاكتساب الفتى ، يدفعه الى ذلك في أوّل الأمر دافع الأنانية ثمّ يدفعه اليه بعد ذلك دافع جاد ، لأنه وجد فيه القطب الآخر ، أو ربّما وجد فيه صديقاً في المستقبل ، أو معارضاً . وظلّ بلينيو يلاحظ مداومة يوزف على الظهور بناديه وإصغاءه الممعن ، وظل الخجول ينسحب كلّما أراده الآخر الاقتراب منه .

وكان لتصرّف يوزف أسبابه . فقد أحسّ يوزف منذ وقت طويل بأنّ بلينيو لديه شيء هام ينتظره ، ربّما شيء جميل ، توسيع للأفق ، معلومات ، تنوير ، توضيح ، وربّما شيء فيه غواية وخطر ، ولكنه على أية حال شيء يستحق أن يواجهه المرء . وكان يوزف قد أبلغ صديقه فيرومونته بخلجات الشك والنقد الأولى التي أثارتها فيه كلمات بلينيو ولكنّ فيرومونته لم يعبأ بذلك إلا قليلاً ، وقال لصاحبه أنه يعتبر بلينيو شخصاً موهوماً مغروراً في ذاته ، متعاظماً في قيمته ، وأنّ على المرء ألا يلتفت اليه . ثمّ راح يندمج في تمريناته الموسيقية ويتعمّق فيها . وأحسّ يوزف في نفسه بإحساس يقول له أنّ الناظر هو الجهة المختصّة التي ينبغي عليه أن يعرض عليها شكّه وقلقه ، لكنه منذ احتكّ به الاحتكاك البسيط الذي عرفنا قصّته ، لم يكن على علاقة ودّية صريحة به : فخشي ألا يفهمه هذا ، وخشي فوق ذلك أن يعتبر الناظر حديثه عن التلميذ الثائر بمثابة وشاية به ، وفي وسط هذا الاضطراب النفسي الذي ألمّ به ، والذي أصبح يؤرّقه كلما حاول بلينيو أن يتقرّب اليه تقرّباً ودّياً ، توجّه يوزف الى صاحب الفضل عليه ، الى الروح الكريم ، الى أستاذ الموسيقى ، بخطاب طويل وصل الى أيدينا ، وقال فيه فيما قال : «ولم يتّضح لي على نحوٍ كاف ، ما إذا كان بلينيو يريد أن يجد في رفيقاً يكسبه لأفكاره أو مناظراً يشاركه أحاديثه . وإن كنت آمل أن يكون الاحتمال الأخير هو الأصح ، لأنّ تحويلي الى آرائه يعني طبعاً حملي على خيانة كاستاليا وتحطيم حياتي التي تضرب بجذورها في كاستاليا . هذا إلا أنني لا أعرف لي أهلاً ولا أصدقاء في الخارج ، يمكن أن أعود اليهم ، إذ حدث وراودتني رغبة من هذا القبيل ، لكن كلام بلينيو المستهتر ، حتّى وإن لم يستهدف تحويلي الى آرائه أو التأثير عليّ ، يحدث في نفسي اضطراباً . وأصارحك القول ، يا أستاذي المبجّل ، أنني ألقى في طريقة بلينيو في التفكير شيئاً ، لا يمكنني أن أرفضه بسهوله ، إنه ينادي صوتاً في نفسي ، كثيراً ما يميل الى تصديقه . ربّما كان

ذلك الصوت هو صوت الطبيعة ، وهو صوت يتعارض مع تربيتي ومع طريقتنا المألوفة في التفكير تعارضاً صارخاً . وبلينيو عندما يسمّي مدرّسينا وأساتذتنا طبقة الكهنة ويقول إن التلاميذ ليسوا إلا قطيعاً من الحيوان المخصي المقيّد ، يبالغ بطبيعة الحال ويستعمل لغة لاذعة ، ولكن ربّما كان في كلامه هذا شيء من الصدق ، وإلا لما أقلقني كلامه على هذا النحو . ثمّ إن بلينيو يستطيع التعبير عن أشياء مدهشة ومثبطة للهمّة تعبيراً أخّاذاً ، يقول مثلاً : لعبة الكريّات الزجاجية رجوع الى عصر صحافة التسلية ، فهي لاتزيد عن أن تكون لعبة مستهترة بالحروف الهجائية التي حلّلنا اليها لغات الفنون والعلوم المختلفة ، تتكوّن من ترابطات وتشابهات ، أو يقول : ليس أدل على تفاهة ثقافتنا ووجهتنا الفكرية كلها من عقمنا المتواكل . فنحن مثلاً ، على حد قوله ، نحلّل قوانين وسائل الأساليب والعصور الموسيقية ، ولا ننشئ موسيقى جديدة . ثمّ يقول ، إننا نقرأ ونشرح أدب بندار أو جوته[١] ، ونخجل من إنشاء بعض أبيات من الشعر أنفسنا . تلك اتّهامات لا يمكنني أن أضحك منها . إن هذه الاتّهامات التي ذكرتها ليست هي أشدّ الاتّهامات ، ليست هي الاتّهامات التي تجرحني أبلغ الجرح . من اتهاماته الشديدة مثلاً قوله ، إننا معشر الكاستاليين نعيش حياة طيور شادية مفرخة تفريخاً صناعيّاً ، فلا نحن نكسب لقمتنا ، ولا نحن نعرف ما في الحياة من محنة وتناحر ، ولا نعرف ، بل ولا نريد أن نعرف شيئاً عن ذلك الجزء من الإنسانية ، الذي يقوم على عمله وفقره أساس حياتنا المترفة » . وينتهي الخطاب بهذه الكلمات : « ربّما قد أكون أسأت استخدام لطفك وطيبتك ، ياسيدي الأجل ، وأتوقّع منك التأنيب والتبكيت ، فلتؤنّبني ولتفرض عليّ كفّارة فسأكون من الشاكرين . ولكن في أشد الحاجة الى نصيحة . فلا طاقة لي على الصبر هنيهة على حالي . ولا قدرة لي على دفع حالي نحو تطوّر واقعي مثمر ،

(١) Goethe, Pindar

فما أنا إلا امرؤ ضعيف تنقصه الخبره ، وأسوأ ما في الأمر أنني لاأستطيع أن أسر الى ناظر مدرستنا بشيء إلا إذا أمرتني بذلك أمراً قاطعاً . لهذا أثقلت عليك بهذا الموضوع الذي بدأ يصبح محنة كبيرة في حياتي » .

لو أننا وجدنا رد فعل الأستاذ مكتوباً ، لكانت لدينا وثيقة بالغة الأهمّية . لكنَ الاستاذ ردّ على التماس يوزف المساعدة شفهيّاً . فبعد أن تلقّى خطاب كنشت بقليل ذهب الى فالدتسل ليرأس امتحاناً في الموسيقى ، واهتم طوال أيّام إقامته هناك بصديقه الصغير اهتماماً عظيماً ، على نحو ماعلمنا من روايات كنشت بعد ذلك . وهو لم يهون عليه الأمر ، إنّما بدأ معالجته إيّاه بفحص شهادات كنشت ودراساته الخاصة فحصاً دقيقاً ، فوجد أن هذه الدراسات الخاصة تميل الى ناحية واحدة دون غيرها ورأى أن الناظر كان على حق في حديثه الى يوزف وأصرّ على أن يعترف يوزف بذلك للناظر صراحة . ثمّ رسم ليوزف خيوطاً دقيقة يتّبعها في تصرّفه حيال ديزنيوري ولم يرحل إلا بعد مناقشة هذا الموضوع مع الناظر تسيبيدن . وكانت النتيجة من ناحية مساجلة عجيبة ديزنيوري وكنشت لم تنمحِ من ذاكرة من عاصروها ، ومن ناحية ثانية علاقة جديدة تماماً بين كنشت وناظر فالدتسل . والحق أن هذه العلاقة الجديدة لم تكن ودية غامضة كالعلاقة بين كنشت وأستاذ الموسيقى ، ولكنهّا كانت علاقة صافية لا يشوبها أدنى توتّر .

انتهى الأمر بإسناد دور الى كنشت ، أدّاه فأثّر على حياته ووجهها وجهة معينة زمناً طويلاً . فقد أذن له بقبول صداقة ديزنيوري والتعرّض لتأثيره وهجماته دون تدخّل أو رقابة من المدرّسين . ولكنَ الرائد كلّفه بمهمّة الدفاع عن كاستاليا ضد ذلك الذي يوجّه اليها النقد ، والوصول بمناقشة الآراء المختلفة المتعارضة الى أرفع مستوى . وكان هذا يعني أشياء منها أن يتقن كنشت معرفته بقواعد النظام السائد في كاستاليا وفي الطائفة وأن يستحضره في ذهنه دائماً . وما لبثت الخطب التي تبادلها ديزنيوري وكنشت في

مساجلتهما أن اشتهرت وتزاحم الناس للإستماع اليها . وتحولت نبرة ديزنيوري العنيفة الساخرة الى الرقة ، وأصبحت عباراته أكثر أحكاماً ووعياً بالمسؤولية ، وأصبح نقده أكثر موضوعيّة . كان بلينيو حتّى ذلك الحين الشخص المفضّل في المساجلات ، فهو قد أتى من «الدنيا» ، وهو اكتسب خبرة الدنيا ، وتمكّن من أساليبها ومناهجها ، وامتلك وسائلها الهجومية وشيئاً من تهاونها ، وكان يعرف من خلال أحاديثه مع الكبار في بيته ، النقد الذي توجّهه «الدنيا» لكاستاليا . فإضطرته ردود كنشت الى أن يقرّ بأنّه يعرف الدنيا أحسن من الكاستاليين جميعاً ، ولكنه لايعرف كاستاليا وروحها على نحو مايعرفها من يعيشون فيها ويعتبرونها وطناً ومصيراً لهم . وتعلّم أن يفهم ، ثمّ تعلّم بالتدريج كذلك أن يصرّح بأنه ضيف على كاستاليا ، وليس واحداً من أهلها ، وأنّ كاستاليا أيضاً ـ لا العالم الخارجي فقط ـ لها خبرات عمرها قرون من الزمان ، ولها أساسيّات بديهية ، ولها تقاليد ، ولها «طبيعة» ، لم يعرفها هو إلا معرفة جزئية ، ولكنّها ، وقد تحدّث باسمها يوزف كنشت ، جديرة بالإحترام . أمّا كنشت فاضطر ، لكي يؤدّي دور المادح المقرظ ، الى الدرس والتأمّل وتهذيب الذات ، حتّى ينفذ الى أعماقه ويوضّح في شعوره ذلك الشيء الذي ينبري للدفاع عنه . وأمّا ديزنيوري فكان يفوق كنشت في البلاغة والفصاحة ، يعتمد على تأجّجه وتحمّسه الطبيعيين ويستعين بمهارة دنيوية وخبث ، ويعرف حتّى عندما يسقط في يده كيف يفكّر في سامعيه ويضمن لنفسه مخرجاً كريماً أو مخرجاً طريفاً . في حين كان كنشت ، إذا ضيّق عليه غريمه الخناق ، يقول مثلاً : «هذا شيء لابد أن أنعم التفكير فيه يا بلينيو . أمهلني بضعة أيّام وسأذكّرك أنا نفسي» .

تحولت العلاقة بين كنشت وديزنيوري الى علاقة كريمة بل وأصبحت بالنسبة للمشتركين في المناقشات والمستمعين إليها جزءاً لا يتجزّأ من الحياة المدرسية في فالدتسل في ذلك الوقت ، ولكنّ كنشت ظلّ يعاني من

الصراع الذي تأجّج في نفسه على نحو ما كان يعاني من قبل . كل ماحدث أنّه تمكّن من القيام بالمهمّة التي أسندت إليه ، بدافع من الثقة العظيمة والمسؤولية الكبيرة اللتين ارتبطتا بها ، وبات هذا دليلاً على قوّة خلقته ونقاوتها ، التي لم تتعرّض لأي ضرر من جراء هذة التجربة القاسية . ولكنّه كان يتألّم كلّما سكن الى نفسه ، فهو عندما أحسّ بميل الى مصادقة بلينيو ، لم يكن يقصد بهذه الصداقة بلينيو صاحب اللسان الطلق والمعرفة الماهرة بالدنّيا ، بلينيو الزميل المهتم بصداقته ، صاحب الفكاهة والظرافة فحسب ، بل كان يقصد بهذا بالقدر نفسه ، تلك الدنيا الغريبة التي كان صديقه وغريمه يمثّلها ، تلك الدنيا التي تعرّف عليها أو تخيّلها في هيئة بلينيو وكلماته وحركاته ، الدنيا التي يسمّونها «واقعية» ، والتي توجد بها أمّهات وأطفال ، ويوجد بها جياع وملاجىء للفقراء ، وجرائد ومعارك إنتخابية ، تلك الدنيا البدائية الراقية معاً التي يعود اليها بلينيو في الإجازات كلّها ليزور الوالدين والإخوة ويغازل الفتيات ويحضر الاجتماعات وينزل ضيفاً في النوادي الراقية ، بينما يبقى كنشت في كاستاليا ، يتجوّل ويسبح مع الرفاق ويتمرّن على ريتشر كارات من أعمال فروبرجر[١] أو يقرأ هيجل .

لم يكن كنشت يشك بأنه يتبع كاستاليا ويحيا بحق الحياة الكاستالية ، حياة بلاأسرة وبلا عديد من المسليات الخرافية ، حياة بلا جرائد ، حياة بلا خوف وبلا جوع ـ وإن كان بلينيو أيضاً قد عاش حتّى ذلك الحين لايعرف الجوع ولا يكسب بنفسه لقمة عيشه ، ثمّ أتى يعيب على تلاميذ الصفوة أنهم يعيشون حياة المتطفّلين . لا ، لم تكن تلك الدنيا في نظره أحسن ولا أنسب . ولكنها كانت موجودة ، كانت موجودة منذ القدم ـ على نحو ماعرف من دراسة تاريخ الدنيا ـ موجودة وتشبه الدنيا الحالية ، وتعاقبت عليها أمم كثيرة لم تعرف غيرها ، ولم تسمع بمدارس صفوة ولابإقليم تربوي ولابطائفة ولابأساتذة ولا

(١) Frobergersche Ricercari

بلعبة كريات زجاجية . كانت الأغلبية العظمى من الناس على ظهر الأرض تعيش حياة أخرى تختلف عن الحياة في كاستاليا ، حياة أكثر بساطة وأكثر بدائية وأكثر خطراً وأقل وقاية وأقل نظاماً . وكانت تلك الدنيا البدائية تولد مع الإنسان في كيانه ، يحسّ شيئاً منها في قلبه ، ويحس بميل الى التعرّف عليها ، ويحس بحنين اليها ويتعاطف معها . لهذا كانت المهمّة تتلخّص في إعطاء هذه الدنيا حقّها ومنحها في القلب نوعاً من حق المواطن في الموطن ، دون الارتداد إليها ، فقد كانت هناك الى جانبها وفوقها دنيا ثانية ، الدنيا الكاستالية ، دنيا الفكر ، الدنيا المصطنعة المنظّمة الآمنة بقدر أكبر والتي تحتاج الى الرقابة الدائمة والتدريب الدائم ، كان هناك التنظيم الهرمي . فكر كنشت في أنّ الخير في الوفاء لدنيا كاستاليا ، دون ظلم الدنيا الأخرى ودون احتقارها ، وكذلك دون الإحساس برغبة مبهمة أو حنين إليها . لأنّ الدنيا الكاستالية الصغيرة تخدم الدنيا الأخرى الكبيرة فتقدّم اليها المعلّمين والكتب والمناهج وتهتم بنظافة الوظائف الفكرية والأخلاق ، وتمثّل مدرسة وملاذاً لعدد قليل من الأفراد يرى تكريس حياته وفكره لخدمة الحقيقة . فلماذا إذن تعيش هذه الدنيا وتلك على مايبدو دون انسجام وبلا تآخ الواحدة الى جانب الأخرى ، والواحدة داخل الأخرى ، ولماذا لايقدر المرء التماسهما معاً في نفسه وتوحيدهما ؟

وجاءت زيارة من زيارات الأستاذ النادرة في وقت كان يوزف فيه قد أصابه التعب والضنى وأصبح يبذل الجهد العظيم ليحتفظ بتوازنه . فهم الأستاذ هذا من تلميحات لمّح بها الفتى ، وقرأ هذا واضحاً على وجهه المنهك ونظراته الحائرة وكيانه المضطرب . فألقى عليه بعض الأسئلة الفاحصة فوجد منه الإعراض والتردّد فكفّ عن السؤال وأخذه وقد استبد به الهم الى حجرة من حجرات التمرين وادّعى أنه يريد إطلاعه على كشف جديد صغير في تاريخ الموسيقى . وطلب منه أن يحضر بيانو قديماً وأن يضبط أوتاره ، ثمّ جاء به في خضم قصة نشأة السوناتا حتّى نسي التلميذ محنته نوعاً واندمج معه

وأصغى الى كلامه مرتاحاً شكوراً . واستعان بالصبر حتّى يوفّر له وقتاً يعود به فيه الى حالة الإستعداد والتقبّل التي كانت قد اختفت منه . فلمّا نجح في ذلك وأنهى محاضرته عن نشأة السوناتا بعزف واحدة من سوناتات جابرييلي(١) ، هبّ واقفاً وراح يقطع الحجرة الصغيرة جيئة وذهاباً ويحكي :

« هذه السوناتا شغلتني شغلاً جمّاً ذات مرّة منذ أعوام طويلة ، وكنت عند ذاك أقوم بدراساتي الحرّة ، ولم أكن قد أصبحت مدرّساً ولا استدعيت لأشغل منصب أستاذ الموسيقى . كنت في ذلك الوقت أريد أن أكتب تاريخاً للسوناتا حسب وجهات نظر جديدة ، فأتى عليّ حين من الدهر لم أكن أتقدّم فيه خطوة بل بدأت فيه أشك فيما إذا كانت كل هذه الدراسات الموسيقية والتاريخية ذات فائدة ، وفيما إذا كانت في حقيقتها شيئاً آخر غير لعب أجوف يلعبه رجال عاطلون ، يبدّلون الحياة الحقيقية ببديل مصطنع عابث من الفكر والفن . كنت ، بعبارة أخرى ، أواجه أزمة من الأزمات التي يلوح للمرء فيها أن الدراسة والنشاط الفكري ، بل الفكر عموماً أمور عارية من القيمة تكتنفها الشكوك ويميل فيها الى حسد الفلاح الذي يدفع المحراث وحسد المحبّين الذين يسيرون بالليل معاً ، أو حسد كل طير يشدو على شجرة وكل صرصور يصرّ على الحشائش صيفاً ، يميل الى حسدها لأنّها تبدو له طبيعية قد حقّقت ذاتها وسعدت في حياتها ولأنه لايعرف من محنها ومآسيها ومخاطرها وآلامها في حياتها شيئاً . كنت باختصار قد فقدت التوازن أو أوشكت على ذلك وأصبحت في حالة غير طيبة ، حالة عسيرة الإحتمال . وبتّ أفكّر في إبداع إمكانيّات الفرار والخلاص . فكّرت أن أضرب في الأرض واحترف عزف الموسيقى في الأفراح ليرقص على أنغامها الراقصون ، وفكّرت في احتراف الجندية على نحو مانقرأ في الروايات القديمة فأرتدي الزي العسكري وأنخرط في كتيبة ما ببلد أجنبي واشترك في بعض الحروب . حدث لي الشيء الذي

(١) Gabrieli.

يحدث لأمثالي في مثل هذه الظروف ، أعني فقدت السيطرة على نفسي حتّى عجزت عن حسم أموري وحدي واحتجت الى المساعدة » .

ثمّ وقف هنيهة وضحك في نفسه وعاد يقول : « كان لي بطبيعة الحال رائد مهمّته إرشاد الطلاب وكان ينبغي عليّ أن أتبع العقل بل وأتبع الواجب فألجأ اليه طالباً مشورته . ولكن طبيعة الناس يايوزف تسلك مسلكاً آخر : في الوقت الذي يتورّط الإنسان فيه في مشاكل وينحرف عن الطريق المستقيم وتشتد حاجته الى التصويب ، يحس الإنسان في نفسه بعزوف شديد عن العودة الى الطريق السوي والتماس التصويب الصحيح . وكان الرائد الذي يشرف على دراساتي قد أبدى تبرّماً بشهادة الفترة الأخيرة ووجه اليّ لوماً شديداً ، بينما كنت أعتقد أنني كنت أوشك على التوصّل الى اكتشافات جديدة والى آراء جديدة ، فاستأت من لومه بعض الأستياء . وباختصار ، كرهت الذهاب إليه ، فما كنت أحب أن أقف أمامه موقف النادم وأعترف له بأنه على حق . كذلك لم أشأ أن أبوح بسرّي لزملائي . وكان هناك على مقربة منّي شخص غريب الأطوار أعرفه معرفة من كان يراه أحياناً ويسمع البعض يتحدّثون عنه ، وكان هذا الشخص عالماً بالسنسكريتية ويسمّونه « اليوجي » . وفي ساعة كانت حالتي تؤرّقني على نحو لم أستطع معه تحمّلها ذهبت اليه ، ذهبت الى هذا الرجل المنعزل الغريب الأطوار الذي طالما سخرت منه علناً وأحسست تجاهه بالإعجاب سراً . ذهبت اليه في صومعته وهممت أن أتكلّم معه فوجدته غارقاً في أعماق التأمّل وقد اتّخذ وضع الهنود وهم يؤدّون شعائرهم فلم يكن هناك سبيل الى التحدّث اليه . كان هائماً هياماً رقيقاً يبتسم في انصراف كامل عن الدنيا ، فلم أستطع أن أفعل شيئاً أكثر من الوقوف بالباب والانتظار حتّى يعود من استغراقه واحتاج ذلك الى وقت طويل ، ساعة أو ساعتين ، فتعبت من الوقوف تعباً شديداً فقعدت على الأرض واستندت الى الحائط وبقيت أنتظر .وأخيراً رأيت الرجل يصحو قليلاً قليلاً ، فحرّك رأسه حركة خفيفة ثمّ

حرك كتفيه وفكّ ساقيه المربّعتين شيئاً فشيئاً ، وتهيّأ للوقوف فوقع بصره عليّ وسألني : « ماذا تريد ؟ » . فنهضت وقلت دون تفكير ودون وعي بردّي : « سوناتات أندريا جابرييلي » . واعتدل في وقفته ثمّ أجلسني على كرسيه الوحيد وجلس هو على حافة المنضدة ثمّ قال : « جابرييلي ؟ وماذا فعل بك جابرييلي بسوناتاته ؟ » فشرعت أقصّ عليه ما حدث وأروي له عن حالي . فراح يسألني عن قصّتي ، ويدقّق في السؤال تدقيقاً بدا لي متحذلقاً ، ثمّ راح يسألني عن دراساتي في جابرييلي وسوناتاته ، وأراد أن يعرف بالضبط متى استيقظت وكم من الوقت قرأت وعزفت وفي أي ساعة تناولت الطعام وأويت الى فراشي .ولمّا كنت قد ذهبت اليه بسرّي وأقحمت نفسي عليه ، فقد بات لزاماً عليّ أن أتحمّل أسئلته وأجيب عليها ، ولكنّها كانت تخجلني لأنها صارت تدخل الى التفصيلات وتتقصّاها فقد كان الرجل يحلّل حياتي الفكرية والخلقية في الأسابيع والأشهر الماضية . وفجأة سكت اليوجي ، فلم أفهم لسكوته معنى ، فهزّ كتفيه وقال : « ألا ترى أنت الخطأ ومكانه ؟ » . لا ، لم تكن لي القدرة على ذلك ، فلخّص لي بدقة مدهشة كل مااستخرجه منّي بأسئلته حتّى الأعراض الأولى التي طرأت عليّ من الإعياء والنفور والتخمة الفكرية ، وأثبت لي أنّ ما حدث لي لا يحدث إلا لمن يندفع في الدراسة اندفاعاً منطلقاً مسرفاً في الانطلاق ، وأن الوقت قد حان لأستعين بمساعدة خارجية أسترد بها ماكان لي من سيطرة على نفسي وعلى قدراتي ، وبيّن لي أنه كان ينبغي عليّ ، وقد سمحت لنفسي بحرّية الإنصراف عن تمرينات التأمّل ، أن أتذكّر هذا الإنصراف عندما ظهرت البوادر الوخيمة فأعوّض مافاتني منها . وكان على حق في ذلك . كنت قد تركت التأمّل فترة طويلة ، لضيق وقتي ، فأصبحت متبرّماً شارد الفكر تارة أو مكبّاً على الدرس متفتّح الذهن تارة أخرى ـ وفقدت بمضي الوقت الإحساس بذنب العزوف عن تمرينات التأمّل ، وتحتّم عليّ وقد طال عليّ الأمد ، أن أستعين بآخر ليذكّرني بما قد نسيت فأشرفت على الفشل

واليأس . وبدأت بالفعل منذ ذلك الوقت أبذل أقصى جهدي لأخرج من محنتي ، وعدت أختلف الى تمرينات التأمّل الخاصة بالمدرسة وبالمبتدئين لأكتسب بالتدريج القدرة على استجماع النفس والاستغراق » .

وختم الماجستر ترواحه في الحجرة بزفرة رفيقة وقال : « هذا ما حدث لي في ذلك الوقت ، ومازلت حتّى اليوم أخجل بعض الخجل من التحدّث عنه . ولكنّ شأن الانسان هكذا يايوزف : كلّما زاد ماتتطلّبه من أنفسنا أو كلّما زاد مايتطلّبه واجبنا منّا زادت ضرورة التجائنا الى التأمّل مصدر القوة والى التوافق المتجدّد بين الفكر والروح . ـ وعندي من الأمثلة مايؤكّد أننا كلّما زاد تملّك مهمة من المهمّات لنا ، فأثارتنا وسمت بنا تارة ، وتارة أتعبتنا وأرهقتنا أصبح إهمالنا لمصدر القوة هذا أيسر علينا وأسهل حدوثاً لنا ، بالضبط كما يحدث لنا عندما ننهمك في عمل فكري انهماكاً شديداً ويسهل علينا إهمال الجسم والتغاضي عن العناية به . وعظماء الرجال الذين عرفهم تاريخ العالم كانوا إمّا على معرفة بالتأمّل وممارسته أو كانوا في الطريق الموصل الى التأمّل دون علم منهم . فمن لم تتح له واحدة من هذه ، حتّى ولو كان عظيم الموهبة شديد البأس ، فقد انتهى به الأمر الى الفشل والاندحار لأنّ مهمّته التي سعى الى تأديتها أو حمله الطموح الذي سعى الى تحقيقه قد تملّكه وجعله كمن تملّكه الشيطان حتّى أفقده القدره على التحلّل من حين لحين من الأحداث المحيطة والإبتعاد عنها . وأنت تعلم أن هذا أوّل ما يتعلّمه طلاّب التأمّل في التمرينات الأولى . هذه هي الحقيقة المُرّة . ولا يعلم مرارتها إلا من ضلّ الطريق مَرّة » .

وأثّرت جوانب كثيرة من هذه القصة على يوزف ، حتّى تبيّن الخطر الذي ألمّ به وعاد الى تمرينات التأمّل يمارسها بهمة متجدّدة . وأحسّ إنطباعاً عميقاً في نفسه لحديث الاستاذ اليه لأوّل مرّة عن جزء من حياته الخاصة أيّام أن كان صبيّاً منهمكاً في الدراسة ، وتبيّن لأوّل مرة أن شبيه الآلهة ، الأستاذ

نفسه ، قد تعرّض في صباه للضلال . وبات شاكراً ممتنّاً للأستاذ الجليل على ماأبداه له من ثقة فيه ، تمثّلت في اعترافه له بحادثة زيغه . وعرف أنّ الإنسان يمكن أن يضل ويضعف ويزل ويخرق الأوامر ثمّ يحسم أمره ويعود الى الطريق السوي بل ويصبح أستاذاً . فتغلّب يوزف على أزمته .

وعاشت مدرسة فالدتسل خلال السنتين أو ثلاث السنوات التي قامت فيها الصداقة بين بلينيو ويوزف ، عاشت مشاهد من تلك الصداقة التناحرية تشبه دراما يشترك الجميع فيها كلّ بنصيب ، من الناظر الى أصغر تلميذ . كان ديزنيوري وكنشت يمثّل كل منهما عالمه ومبدأه ، ويحفز كل منهما صاحبه . فكان تناقشهما يتّخذ شكل احتفال تمثيلي يهتم به الجميع . وكان بلينيو يستمد من رحلته الى أهله أثناء العطلة ومن إتّصاله بمنبته قوى جديدة يعود بها الى المدرسة ، وكذلك كان يوزف يستمد من كل تأمّل ومن كل مطالعة ومن كل تمرين على الاستغراق ومن كل لقاء بأستاذ الموسيقى قوى جديدة ويزيد في كفاءته كممثّل ومدافع عن كاستاليا . كان كنشت قد أحسّ ، وهو بعد طفل ، أوّل إلهام ، وها هو ذا يحسّ إلهاماً ثانياً ، ويتحوّل بفضل صقل هذه السنين له وسبكها شخصيّته الى كستالي كامل . كان في ذلك الوقت قد أتمّ المرحلة الأولى من دراسة لعبة الكريات الزجاجية وبدأ أثناء العطلة تحت إشراف بعض الرؤساء يصمّم ألعاباً خاصة ، واكتشف في لعبة الكريات الزجاجية نبعاً من الينابيع الفيّاضة للبهجة والترويح عن ذات النفس ، فلم يحدث ـ بعد تدريباته الموسيقية الممتعة التي قام بها مع كارلو فيرومونته على آلتي التشمبالو والبيانو ـ أن وجد شيئاً يثلج صدره ويشد صلبه ويؤكّد كيانه ويسعده كما فعلت تلك الإنطلاقات الأولى الى سماء لعبة الكريّات الزجاجية .

وهذه السنوات هي التي نشأت فيها قصائد يوزف كنشت الشاب ، تلك القصائد التي وصلتنا في نسخة نقلها عن الأصل صديقه فيرومونته . ومن المحتمل أن يكون يوزف كنشت قد ألّف من القصائد أكثر مما وصلنا ، ولا

يستبعد أن تكون هذه القصائد ـ وأقدمها نشأ قبل دخوله في لعبة الكريّات الزجاجية ـ قد ساعدته على تأدية دوره ومكّنته من التغلّب على السنوات القلقة التي مرّت عليه . وكل من يقرأ هذه القصائد يجد في أبياتها المنمّقة أحياناً والمرسلة في عجالة أحياناً أخرى ، يجد فيها هنا وهناك آثاراً للهزّة العميقة وللأزمة اللتين تعرّض لهما كنشت بفعل بلينيو . في بعض الأبيات ترنّ نغمة قلق عميق وشكّ أساسي في نفسه وفي معنى الوجود ، حتّى إذا وصلنا الى قصيدة «لعبة الكريّات الزجاجية» تبيّنا نجاحه في الامتثال الخالص . هذا الى أننا نجد شيئاً من الإعتراف لدنيا بلينيو بفضل ، وشيئاً من التمرّد على بعض القوانين الكاستالية ، يتمثّل بكل بساطة في كتابة كنشت هذه القصائد وإظهاره بعض زملائه عليها أحياناً . فقد كانت كاستاليا تقوم بصفة عامة على التخلّي عن إنشاء الأعمال الفنّية (كذلك لم تكن تعرف أو تقبل من الإنتاج الموسيقي سوى التدريبات على التأليف المرتبطة بأساليب فنية معينة) ، بل تعتبر تأليف القصائد الشعرية أكثر الأمور استحالة وسخرية ومقتاً . لهذا فلا يمكن اعتبار قصائد كنشت كلهوِ مَنْ يلهو بقطعة من الخشب في فراغه فيحفر فيها أشكالاً وزخارف ، ولابدّ أن ضغطاً قوياً أتيح لهذا الإنتاج الفنّي فجعله ينساب على هذا النحو . هذا الى أنّ تأليف هذه الأبيات والاعتراف بتأليفها يتطلّب شجاعة وصلابة .

ولا يصح أن نغفل أن بلينيو ديزينيوري هو الآخر تغيّر وتطوّر تغييرات وتطوّرات هائلة من تأثير صاحبه عليه ، ولم يقتصر ذلك على ناحية تهذيب طريقة المجابهة . فقد رأى في غضون تلك السنوات من تبادل الحجج بروح الزمالة والتصارع أنّ صاحبه يرقى دوماً ليصبح الكاستالي المثالي ، وبدأت روح الإقليم التربوي تتضح له في شخصية صديقه على نحو أكثر وضوحاً وحيوية . وكما نقل الى يوزف الى درجة ما عدوى من جو عالمه ، أصيب هو أيضاً بنظير ذلك وأصبح يتنسّم هواء كاستاليا ويتأثّر بسحرها وبتأثيرها . وحدث في عامه

الأخير في المدرسة أن دخل في مناقشة مع يوزف دامت ساعتين ودارت حول الأهداف المثالية للرهبانية وأخطارها وشهدها أعلى صف من صفوف طلاّب لعبة الكريّات الزجاجية ، ثمّ أخذ يوزف بعد ذلك في نزهة واعترف له وهما يسيران اعترافاً نورده هنا على نحو ماوجدناه في خطاب من خطابات فيرومونته : « إنني أعرف ، يايوزف ، طبعاً أنك لست لاعب الكريّات الزجاجية المؤمن باللعبة إيماناً خالصاً وأنك لست قدّيس الإقليم ، وإن كنت تلعب دوره على نحو ممتاز . كلّ منّا يقف في الجدال على أقصى طرف ، وكل منّا يعرف بلا شك أنّ الشيء الذي يتعرّض له بالهجوم ، شيء موجود بحق وأنّ له القيمة التي لاجدال فيها ، أمّا أنت فتقف الى جانب سمو الفكر وتنميته وأمّا أنا فأقف الى جانب الحياة الطبيعية . وقد تعلّمت أثناء تطاحننا كيف تستشعر أخطار الحياة الطبيعية وتصبّ عليها هجومك ، وكانت مهمّتك تتلخّص في الإشارة الى أنّ الحياة الطبيعية البسيطة تتحوّل الى ضحالة إذا لم تستند الى تربية الفكر وتنميته والسمو به وينتهي أمرها الى البهيمية والى ماهو أشد من ذلك . وأنا بدوري لاأفتأ أذكر بأن الحياة التي تعتمد على الفكر وحده حياة تتصف بالجرأة والخطر والعقم . كل منّا يدافع عمّا يعتقد أنّ له الغلبة : أنت تدافع عن الفكر وأنا أدافع عن الطبيعة . ولكن لاعليك أن تحمل عليّ ، فربّما أحسست في بعض الأحيان كأنّك ترى في فعلاً وبسذاجة شيئاً كعدو للكاستالية أو كرجل يعتبر ماتقومون به من دراسات وتمرينات وألعاب عبثاً لا أكثر ولا أقل وإن شاركت فيها لسبب أو لآخر فترة ما من الزمن . آه ياعزيزي ، كم تخطىء ، لو كنت بالفعل تعتقد ذلك! أعترف لك أنني أحب نظامكم الهرمي حبّاً جنونيّاً وأنّ نظامكم الهرمي هذا كثيراً ما يسحرني ويستهويني كأنه السعادة ذاتها . وأعترف لك فوق هذا أنني منذ شهور مضت ، كنت في بيتنا بين أهلي فتباحثت مع أبي ، وحصلت بعد جهد على موافقته على أن أظل في عداد الكاستاليين وأدخل الطائفة ، إن شئت ذلك بعد فراغي من دراستي وعزمت عليه ، فلمّا أبدى لي موافقته أحسست

بالسعادة تغمرني . لكنّي منذ وقت قليل قرّرت ألا أفعل ، لا لأنني فقدت الرغبة في ذلك ، وإنّما لأنني تبيّنت شيئاً فشيئاً أن بقائي في كاستاليا سيكون معناه التجائي الى الهرب ، الى هرب شريف ، كريم ، ربّما ، ولكنه على أي حال هرب لاأكثر ولاأقل . سأعود وسأصبح إنساناً من أهل الدنيا ، واحداً من أهل الدنيا يكن لكاستاليا الامتنان ويظل يمارس طرفاً من تمريناتكم ويشترك كل عام في الاحتفال العظيم للعبة الكريّات الزجاجية » .

وأبلغ كنشت في تأثر عميق اعتراف بلينيو الى صديقه فيرومونته الذي كتب في الخطاب الذي نعرفه الكلمات التالية بعد القصّة نفسها : « لقد تصوّرت ، أنا الموسيقى ، اعتراف بلينيو ، بلينيو الذي لم أكن أقدّره حق المقدرة على الدوام ، تصوّرت هذا الإعتراف كأنه خبرة موسيقية . ولاح لي تضاد الدنيا والفكر ، وتضاد بلينيو ويوزف في تناحر مبدأين لايتّفقان ، لاح لي هذا التضاد كأنه يسمو ويتحوّل الى كونشرتو .

فلمّا أتمّ بلينيو دراسته التي دامت أربع سنوات وحان موعد عودته الى بيته أحضر الى الناظر خطاباً من والده يدعو فيه كنشت لقضاء الإجازة عندهم . كانت تلك الدعوة أمراً غير مألوف . حقيقة أن تمضية الإجازة في رحلة أو في إقامة خارج الإقليم التربوي كانت شيئاً يحدث في أحيان ليست بالنادرة ، خاصة إذا كان الهدف هو الدراسة ، ولكنّها كانت على أي حال شيئاً استثنائيّاً لايمنح إلا للطلبة القدامى ذوي السلوك الذي لايبعث على الشك ، ولا يمنح قط للتلاميذ الذين لم يتجاوزوا مرحلة التلمذة . واهتم الناظر تسبندن بالدعوة لأنها كانت صادرة عن بيت وعن رجل له قدره ، فلم يرفضها بل رفعها الى مجلس الهيئة التربوية الذي اتخذ في شأنها في الحال قراراً بالرفض الموجز الصريح . وهكذا تحتّم على الصديقين أن يودّع أحدهما الآخر .

وقال بلينيو : « سنعود الى المحاولة في المستقبل وربّما ، وفّقنا مرة في قبول الدعوة . فلا بدّ أن ترى بيتنا ، وترى الناس عندنا حتّى تتبيّن أننا أيضاً

بشر ، وأننا لسنا مجرّد خليط من أرباب التجارة وأرباب الدنيا . سأفتقدك جداً يايوزف . وعليك أن تجتهد في هذه الكاستاليا المعقّدة لتصل عمّا قريب الى أعلى ، ولاشك أنّك تصلح للإنخراط في نظام هرمي كعضو فيه ، والرأي عندي أنّك أصلح لدرجة الرياسة أكثر من صلاحيّتك لدرجة التابع رغم أن اسمك يعني «عبد» . وإنّي لأتنبأ لك بمستقبل عظيم فستصبح يوماً أستاذاً وتدخل في عداد العظماء .

وكان كنشت ينظر اليه نظرة حزينة .

عندئذ قال كنشت وهو يصارع انفعال الوداع : «إنّك تسخر منّي فأنا لست طموحاً مثلك ، وحتّى إذا تمكّنت يوماً من بلوغ منصب ما ، فستكون أنت قد وصلت منذ زمن طويل الى درجة رئيس دولة أو عمدة مدينة أو أستاذ بالجامعة أو مستشار للحكومة الفيدرالية . فلتفكّر عندما تصل الى منصب كهذا فينا يابلينتو ، فكّر في كاستاليا ، ولاتتحوّل عن شخص غريب عنّا كلّية! ولا بدّ أن عندكم في الخارج من الناس من يعلمون الى كاستاليا أشياء أكثر من الفكاهات التي يتفكّه بها الناس في الخارج علينا» .

وتصافحا ، وشدّ كل منهما على يد الآخر ، ثمّ رحل بلينيو ، وأحاط كنشت السكون في سنته الأخيرة في فالدتسل وانتهت فجأة على نحو ما وظيفته البارزة المرهقة كشخصية عامة ، فلم تعد كاستاليا في حاجة الى من يدافع عنها . وكرّس فراغه كلّه طوال العام للعبة الكريّات الزجاجية خاصة ، تلك اللعبة التي راحت تجتذبه وتشتد في إجتذابه اليها شيئاً فشيئاً . وقد وجدنا كراسة صغيرة ترجع الى ذلك الوقت وتضم ملاحظات عن أهمّية اللعبة نظرياتها ، وتبدأ على هذا النحو : «كل الحياة ، الحياة المادية والحياة الفكرية على حد سواء ، ظاهرة ديناميكية لاتعي لعبة الكريّات الزجاجية منها في أساسها الا الناحية الاستطيقية ، وتعيها على الأغلب في صورة حركات إيقاعية» .

الفصل الثالث

سنوات الدراسة

كان كنشت قد بلغ العام الرابع والعشرين من عمره تقريباً عندما ترك فالدتسل متمّاً فترة التلمذة ، وبدأت فترة الدراسة الحرّة التي تعتبر أصفى وأسعد سنوات حياته لانستثني منها سوى سنوات صباه الطيبة في اشهولتس . والحق أن هناك على الدوام شيئاً عجيباً وجميلاً جمالاً مؤثّراً في رغبة الإكتشاف والتحصيل الهائمة التي تختلج في جنبات شاب تحرّر لأوّل مرّة في حياته من قيد الدراسة وتحرّك ناحية الآفاق اللانهائية للفكر ، ولم يتبدّد له وهم يساوره بعد ، ولم يطرأ عليه شك في قدرته على التحمّس اللانهائي لأمر من الأمور ولم يجل بفكره شك في تصوّره للعالم الفكري لاتحدّه حدود . وأصحاب المواهب التي من نوع مواهب يوزف كنشت ، الذين لايدفعهم في وقت مبكّر ميل بعينه الى التركيز على موضوع خاص ، بل يتّبعون طبيعتهم وفطرتهم ويسعون الى التكامل والى التجميع والى الشمول ، أصحاب المواهب هؤلاء يجدون في ربيع حرّيتهم في الدراسة فصلاً من السعادة الشديدة التي توشك أن تكون نشوة . وقد أتت هذه الحرّية في الدراسة بعد مرحلة من التربية في مدرسة الصفوة ، ومرحلة من الصحة الروحية المتمثلة في تمرينات التأمّل ، وظلّت خاضعة لرقابة رفيقة من جانب الهيئة التربوية ، وهي إذا لم تحدّد في هذه الحدود ، أصبحت خطراً عظيماً

على أصحاب المواهب من النوع الذي أشرنا اليه ، وتحوّلت الى كارثة تنزل بالكثيرين منهم كما نزلت في الأوقات السابقة على النظام الحالي ، أقصد في القرون السابقة على العصر الكاستالي ، كانت المدارس العليا تعج في أوقات معيّنة بشباب من النوع الفاوستي يندفع في مركب باسطاً شراعه الى أقصى مدى في أعالي بحار العلوم والحرّية الأكاديمية ، ويتعرّض حتماً لكل صنوف الغرق التي يمكن أن تحل بأصحاب الهوايات المضطربة التي ترك حبلها على غاربها . وفاوست نفسه هو المثل البارز على الهواية العبقرية وعلى ماتنتهي اليه من مأساة . والحرية الفكرية الممنوحة للطلبة في كاستاليا تفوق على نحو لاحصر له الحرية التي كانت تمنح للطلبة في الجامعات في كل العصور السابقة ، وذلك لأن الإمكانيات الموضوعة تحت تصرّف الدارسين تزيد في دسامتها عن سابقتيها زيادة كبيرة ، هذا بالإضافة الى أن كاستاليا لاتعرف مطلقاً تأثير وتأييد الإعتبارات المادية والطموح والخوف وفقر الوالدين والتطلّع الى كسب لقمة العيش وشغل منصب وما إلى ذلك . كل الطلبة في أكاديميّات ومعاهد ومكتبات ومحفوظات ومعامل الإقليم التربوي متساوون تساوياً تاماً فيما يتعلّق بالأصل الذي ينحدرون منه ، والمستقبل الذي يسيرون اليه ، والتنظيم الهرمي في كاستاليا لاينبني الا على المواهب العقلية والخلقية والصفات التي يتميّز بها التلاميذ . ولاتوجد في كاستاليا من الناحية المادية والفكرية غالبية الحرّيات والمغريات والأخطار التي يقع ضحيّتها الكثيرون من الموهوبين في المدارس العليا العلمانية ، في كاستاليا أيضاً خطر وفيها شيطانية وفيها تعام - وهل تخلو البشرية منها ؟ ولكنَ الطالب الكاستالي على أي حال قد أبعدت عنه طائفة من إمكانيّات الإنحراف والخيبة والفشل : فلا يمكن أن يقع فريسة إدمان الخمر ، ولايمكن أن يضيّع سنوات شبابه ضحية تقاليد متغطرسة أو تقاليد بعض الجماعات السرّية على نحو ما كان يحدث في الأزمان السابقة ، كذلك لايمكن أن يتبيّن يوماً أن شهادة

إتمام الدراسة الثانوية قد حصل عليها خاطئة من أساسها ، أو أن في ثقافته السابقة ثغرات لايستطيع ، وقد انتقل الى مرحلة الدراسة الجامعية ، أن يسدّها . هذه أشياء يحميه النظام الكاستالي منها . كذلك خطأ بعثرة القوة مع النساء أو المبالغة في ممارسة الرياضة ، خطر غير كبير في كاستاليا . أمّا فما يتعلّق بالنساء ، فالطالب الكاستالي لايعرف الزواج بمغرياته وأخطاره ، ولايعرف الاستحياء المسرف الذي انتشر في عصور خالية وأرغم الطلبة على الرهبانية فيما يتعلّق بالأمور الجنسية أو على الإلتجاء كثيراً أو قليلاً الى نشوة تشترى ، أو نسوة من نوع العاهرات . أمّا الكاستالي فنظراً لأنه لاوجود للزواج بالنسبة اليه ، فلا وجود عنده لأخلاقية موضوعها الحب ومرماها الزواج . ونظراً لأنّ الكاستالي لايعرف المال ولايعرف الملكية ، فلا وجود عنده لشراء الحب . وتقضي تقاليد الإقليم بألا تتزوّج بنات المواطنين في وقت مبكّر ، وتنظر هذه البنات في فترة ما قبل زواجهن الى الطالب والعالم في كاستاليا نظرتهن الى حبيب تقن اليه توقاً فائقاً ، فهو لايسأل عن أصل ولا يسأل عن مال ، بل هو معتاد على تقدير القدرات العقلية فوق مستوى أو على مستوى القدرات الحيوية على الأقل ، وهو في أغلب الأحيان صاحب خيال وفكاهة ، ويدفع أكثر من غيره ثمن مايتلقّى من ذاته هو ، لأنه لايحتكم على مال . والبنت التي تحبّ طالباً من كاستاليا لاتسأل نفسها قط : «هل سيتزوّجني ؟» ، لا ، هو لن يتزوّجها ، وإن كان هذا قد حدث بالفعل ، ولكن فيما ندر ، أن إتّبع طالب الصفوة طريق الزواج ، وعاد الى دنيا المواطنين خارج الإقليم التربوي ، فتخلّى عن كاستاليا ، وتخلّى عن تبغيّته للطائفية . ولكن حالات الخوارج المتفرقة لاتلعب في تاريخ المدارس والطائفة دوراً آخر سوى دور العجائب .

ودرجة الحرية وتقرير المصير التي يجدهما تلميذ الصفوة بعد تخريجه من المدارس التجهيزية وهو يواجه ميادين العلم والبحث جميعاً ، درجة

عالية بالفعل . ولاتقيّد هذه الحرّية ، اللهم إلا إذا كانت مواهب الطالب واهتماماته من أوّل الأمر ضيّقة ، لاتقيّد هذه الحرية إلا بشيء واحد هو التزام الطالب الحر في دراساته بتقديم خطّته الدراسية في موعد كل نصف عام حتّى تشرف السلطات على تنفيذها إشرافاً رفيقاً . أمّا أولئك الذين أوتوا مواهب وإهتمامات متعدّدة متنوّعة ـ ومن بينهم كنشت ـ فيرون في سني الدراسة الأولى بما فيها من حركة كبيرة شيئاً رائعاً خلاّباً ساخراً . والهيئة التربوية تمنح لأصحاب الاهتمامات الخاصة حرّية توشك أن تكون فردوسية ـ اللهم إلا إذا انحرفوا الى التراخي والتهاون ، فيسمح للتلميذ أن يتنقّل بين العلوم كلّها كما يشتهي ، وبأن يخلط بين ميادين الدراسة المختلفة كما يريد ، وأن يغرم بستة أو بثمانية علوم دفعة واحدة إن أحب ، أو بأن يقتصر على طائفة ضيّقة يختارها إن شاء ولا يطلب من التلميذ شيء أكثر من الإلتزام بقواعد الحياة الأخلاقية العامة السائدة في الإقليم وفي الطائفة ، وتقديم شهادة سنوية تبيّن المحاضرات التي استمع اليها والمؤلّفات التي قرأها والنشاط الذي قام به في المعاهد . ولا يبدأ الإشراف الدقيق على الطالب إلا عندما يختلف الى حلقات دراسية وبرنامج علمية متخصّصة ، ومن بينها تلك الخاصة بلعبة الكريّات الزجاجية وبمدرسة الموسيقى العليا ، في هذه الأحوال ينبغي على الطالب التقدّم للامتحانات الرسمية وتقديم الموضوعات التي يطلبها المشرف على الحلقات التدريبية ، وهذا أمر واضح لا يحتاج الى تبيان . لكن ليس هناك من يرغم الطالب على الإلتحاق بحلقة بعينها من الحلقات الدراسية . فللطالب أن يجلس إن شاء سنوات بطولها في المكتبات ، وله إن شاء أن يظل السنة بعد السنة يستمع الى محاضرات . إلا أن الطلبة الذين يتقاعسون عن الارتباط بموضوع بعينه من موضوعات العلم ، يؤخّرون موعد قبولهم في الطائفة ، ولكنّهم يتركونهم وشأنهم في التنقّل البطيء بين العلوم كلّها والدراسات

باختلاف أنواعها ، ويعاملون بالتسامح العظيم بل ويلقون التشجيع . ولن يطلب منهم إلاّ حسن السلوك أخلاقياً وتأليف «سيرة حياة» كل عام . هذا التقليد القديم الذي طالما تعرّض للسخرية والتهكّم ، يرجع إليه فضل حصولنا على ثلاث سير من تأليف كنشت في أثناء سنوات دراسته . ويختلف أمر هذه السّير عن أمر القصائد التي أنشأها كنشت في فالدتسل من تلقاء نفسه بصورة غير رسمية أو سرّية من قبيل النشاط الأدبي الممنوع ، فتأليف هذه السيرة أمر عادي ورسمي . وتقليد السير يرجع الى عصور الاقليم التربوي المبكّرة ، حيث كان يتلخّص في تكليف الطلبة الصغار ، أي أولئك الذين لم يدخلوا الطائفة بعد ، بتأليف نوع معيّن من الإنشاء أو من التمرين الإسلوبي ، أطلق عليه اسم «السيرة» ، وهو عبارة عن قيام الطالب بكتابة تاريخ حياته هو على صورة خيالية ، متصوّراً نفسه في عصر من العصور الغابرة ، وكان على التلميذ أن ينتقل بذاته الى عصر ماضٍ فيندمج في بيئته وثقافته وجوّه الفكري ، ويبتكر لنفسه فيه وجوداً متناسباً معه . وكان التلاميذ ، حسب الزمن والموضة ، يفضّلون روما الامبراطورية أو فرنسا في القرن السابع عشر وإيطاليا في القرن الخامس عشر أو أثينا البركليسية أو النمسا في عصر موتسارت[1] ، واعتاد المشتغلون باللغات من بين التلاميذ أن يكتبوا تواريخ حياتهم بلغة البلد وأسلوب العصر الذي اختاروه . وهكذا نشأت في بعض الأحيان ، سير وصلت درجة عالية في المهارة ، بعضها كُتب بأسلوب الكوريا في روما البابوية حول عام ١٢٠٠ ، وبعضها بإيطالية عصر «المائة قصة» ، أو بفرنسية مونتني[1] ، أو بألمانية عصر الباروك على طريقة شفان فون بوبرفلد[1] ، كان هذا النوع من الإنشاء الحر العابث يقوم على شيء من الاعتقادات الاسيوية القديمة في تكرّر الميلاد وتحوّل الأرواح ، فقد كان

(١) Boherfeld, Montaigno, Mozart

المدرّسون والتلاميذ جميعاً يتصوّرون عامة أن وجودهم الحالي قد سبقته وجودات غابرة ، متقمّصة أجساداً أخرى تسعى في عصور أخرى وظروف أخرى . ولكنّ هذا التصوّر لم يكن يتّخذ لديهم صورة الاعتقاد بالمعنى المحدود لهذه الكلمة ، بل يتّخذ صورة المذهب . كان تصوّر الأنا في ظروف وأحوال مختلفة شيئاً يشبه التمرين أو عبث الخيال . كان تمريناً ، لأن الواحد منهم كان يؤدّي تمرينات من نوع تمرينات نقد الأساليب في الدروس العلمية أو لعبة الكريّات الزجاجية ، ويتعلّم وهو ينفذ بعناية الى ثقافات قديمة وعصور ودول غابرة ، يتعلّم أن يعتبر نفسه قناعاً خارجيّاً أو ثوباً فانياً لكائن متحوّر . هذا التقليد ـ كتابة السير ـ كان له سحره وميّزاته ، وإلا لما كان قد بقي هذه المدّة الطويلة . وجدير بالذكر أن عدد الطلبة الذين كانوا يؤمنون بفكرة تناسخ الأرواح بل ويعتقدون في صحة السير التي ابتدعوها ، لم يكن قليلاً . وذلك لأنّ صور الحياة السابقة التي تخيّلوها كانت في أغلبها طبعاً أكثر من تمرينات أسلوبية ودراسات تاريخية ، كانت تصويرات لأماني الكاتبين أو تصويرات لأشخاصهم في شكل مرفع ؛ فقد كان كتاب السير في أغلب الأحوال يصوّرون أنفسهم في الثوب وفي الشخصية التي يتمنّون تحقيقها ويعتقدون أنه المثل الأعلى . ثمّ أن فكرة السير فيما عدا ذلك ، فكرة ليست بالرديئة من الناحية التربوية ، لأن السير كانت تمثّل قناة تصريفية مشروعة لحاجة الشباب في هذا السن الى الإبداع الأدبي . فإذا كان الإنشاء الأدبي الجاد الخالص قد أصبح منذ أجيال شيئاً فيه سخرية ، وأخذت العلوم شيئاً من مكانه ، وأخذت لعبة الكريّات الزجاجية الجانب الآخر ، فإنّ الدافع الفنّي التشكيلي عند الشباب لم يكن قد انتهى وتلاشى ، ووجد هذا الدافع في السير التي كثيراً ماإتسعت وأتخذت شكل الروايات الصغيرة ، ميداناً حلالاً لنشاطه .كذلك كانت كتابة السير تتيح فرصة لبعض الكتّاب ليخطو خطوات أولى في ميدان

التعرّف على النفس . وكثيراً ما استخدم الطلاب سيرهم للتعبير عن آراء متطرّفة في النقد والثورة ، موضوعها العالم الحالي وكاستاليا ، وكان المدرّسون في أغلب الأحيان يظهرون لها التفهّم والترحيب . هذا الى أن هذه السير كانت جمّة الفائدة بالنسبة للمدرّسين خاصة في الفترة التي ينعم فيها الطلاب بالحرية الكبرى ولايخضعون لأية رقابة دقيقة ، فقد كانت تعطيهم فكرة واضحة وضوحاً مدهشاً عن حالة الكاتب الفكرية والخلقية .

بقيت من تأليف يوزف كنشت ثلاث من السير ، سنوردها بنصّها الحرفي ونعتبرها بمثابة أثمن جزء في كتابنا كلّه . والأقوال كثيرة فيما إذا كان يوزف كنشت قد كتب هذه الثلاث فقط ، وفي احتمال ضياع اخرى ، والمؤكّد أن كنشت بعد تقديمه السيرة الثالثة السيرة «الهندية» . قد تلقّى من إدارة الهيئة التربوية تنبيهاً بأن تكون السيرة القادمة إن شاء في عصر أقرب الى عصرنا تاريخياً ، عصر له وثائق ومراجع أكثر ، وبأن يهتم اهتماماً أكبر بالتفصيلات التاريخية . كذلك نعلم من بعض الروايات والخطابات أنه قام بدراسات تمهيدية لسيرة في القرن الثامن عشر ، وأنه كان يريد أن يظهر فيه كعالم شفابي[1] في اللاهوت يترك خدمة الكنيسة ويشتغل بالموسيقى ، ويتّلمذ على يوهان البرشت بنجل ويصادق أوتينجر وينزل فترة ضيفاً على جماعة تسنسندورف[2] . كذلك نعلم أنه قرأ كثيراً من المراجع القديمة النادرة عن نظام الكنائس وعن حركة الورعية ، وعن تسنسندورف وعن أناشيد الكنيسة والموسيقى الكنسية في ذلك العصر واقتطف مما قرأ مقتطفات . ونعلم أيضاً أنه كان مولعاً ولعاً خاصاً بشخصية المطران الساحر أوتنجر ، وأنه كان يحب شخصية الماجستر بنجل حبّاً صادقاً ويكن له تبجيلاً عميقاً ـ حتّى أنه استخرج صورة فوتوغرافية له ووضعها فترة من الزمن على

---

(١) شفابي ، نسبة الى منطقة شفابن جنوب غرب ألمانيا . (المترجم)

(٢) Zinzendorf , Oetinger , Johann Albrecht Bengel

مكتبه ـ وأنه اجتهد في تقييم تسنسندورف التي جذبت إهتمامه ونفرته في وقت معاً ، اجتهاداً صادقاً ، وفي النهاية ترك يوزف كنشت المشروع واكتفى بما تعلّمه أثناء الإعداد له ، وأعلن عن عجزه عن إنشاء سيرة مما جمع من مادة ، وأرجع السبب في عجزة الى اسرافه في الدراسات المتفرّقة وفي جمع التفصيلات . ويعطينا قوله هذا الحق في الحكم على سيره الثلاث المذكورة بأنّها إنتاج واعترافات أديب مبدع ، وإنسان ذي خلق كريم ، أكثر من مؤلّفات عالم ، دون أن يكون في حكمنا ميل الى ظلمه أو الانتقاص منه .

ثمّ إن كنشت أوتي علاوة على حرّية التلميذ المتخرّج في إختيار مواد دراساته ، حرّية أخرى وترويحاً آخر . فهو لم يكن تلميذاً كالآخرين تلقّى التعليم القاسي واتّبع جدولاً يوميّاً دقيقاً ، وخضع لإشراف المدرّسين الدقيق وملاحظتهم ، وتحمّل كل الجهود التي يتحمّلها تلاميذ الصفوة ، بل كان علاوة على ذلك كله قد أصبح نتيجة علاقته ببلينيو صاحب دور وصاحب مسؤولية شحذت همّته الى أقصى حد الإمكان من ناحية ، وأثقلت كاهله من ناحية ثانية ، صاحب دور فيه الفعالية وفيه التمثيل ، وصاحب مسؤولية أكبر من عمره ومن طاقته ، طالما أسقمته واستطاع القيام بها بفضل مالديه من قوة العزيمة والموهبة ، وبفضل تعضيد أستاذ الموسيقى من بعيد ، تعضيداً قوياً ، لولاه لما تمكّن من بلوغ الهدف . وهانحن أولاء نجده في تمام سنوات فالدتسل الخارقة للمألوف ، شاباً في الأربعة والعشرين من عمره ، يزيد نضجه على سنّه ، ويبدو مجهداً ، دون أن يظهر عليه أي أذى أصابه من جرّاء ذلك ، والحق أننا لانحتكم على شواهد مباشرة تبيّن تأثّر كيانه كلّه من جراء هذا الدور وتحت هذا العبء ، تأثّراً بلغ الإعياء أو نحوه ، ولكنّنا نتصوّر هذا عندما نتفحّص الطريقة التي استفاد بها بعد انتهائه من المدارس من حرية ناضل من أجل الحصول عليها وطال اشتياقه بلا شك اليها . نرى أن كنشت الذي ظلّ طوال سنواته الأخيرة في التلمذة يحتل مكاناً بارزاً ويعتبر

على نحو ما من الشخصيّات التي يهتم بها الرأي العام ، انزوى فوراً بعيداً عن الأضواء ، وإذا بحث المرء فيما بقي من آثار عن حياته في ذلك الوقت أحسّ بأنه كان يود أن يختفي عن الأبصار فلا تدركه ، ولا يتصوّر أن هنا بيئة أو جماعة صالحة خالصة له ، ولا يجد طريقة من طرق المعيشة تفي بتعطّشه الى الإنزواء . لذلك نراه في أوّل الأمر يجيب على خطابات طويلة جيّاشة بعثها اليه ديزنيوري إجابة موجزة عارية عن الرغبة في الميل . ثمّ يتوقّف بعد ذلك عن الرد عليه . اختفى التلميذ الشهير كنشت ولم يعد أحد يقدر على الوصول اليه ، وإن ظلّت شهرته تزدهرفي فالدتسل حتّى أصبح بمضي الزمن شخصاً تحاك حوله الأساطير .

لهذه الأسباب تحاشى كنشت فالدتسل في مطلع سني دراساته ، وتبع ذلك استغناؤه المؤقّت عن متابعة الفرق العالية والفرق العليا في لعبة الكريات الزجاجية . ومع ذلك ، أعني بالرغم من أن الملاحظة السطحية ربّما أمكن أن تؤدّي الى القول بأنه أهمل لعبة الكريّات الزجاجية إهمالاً واضحاً ، فنحن نعلم أن الأمر على عكس ذلك وأن طريق دراساته الحرة الذي يلوح منطلقاً وراء النزوات ، متفرّقاً بلا رابط ، أو يلوح على أي حال في صورة غير مألوفة ، هذا الطريق تأثّر بلعبة الكريّات الزجاجية وكان يؤدّي الى لعبة الكريّات الزجاجية ويوصل لخدمتها . ولنتناول هذا الأمربالتفصيل لأنه ذو دلالة خاصة ، استخدم كنشت حرّيته في الدراسة على نحو مسرف في الغرابة والعناد ، على نحو مذهل فيه عبقرية الشاب . وكان في غضون دراسته في فالدتسل قد تلقّى في المعتاد دروس الفرقة التمهيدية ودروس فرقة الإعادة ، ثمّ ذاع صيته في السنة الأخيرة بين أصحابه كلاعب مجيد وتسلّطت عليه جاذبية لعبة الألعاب وتملّكته على نحو أدّى به بعد الفراغ من فرقة أعلى ، الى أن قبل بين لاعبي الصف الثاني وهو بعد تلميذ من تلاميذ الصفوة ، وهو أمر يعتبر بلا شك تكريماً وتقديراً من نوع نادر جداً .

وقد وجّه كنشت الى زميل له ، كان معه في فرقة الإعادة وأصبح فيما بعد مساعداً له ، اسمه فريتس تيجولاريوس[١] ، خطاباً بعد مرور بعض السنين ، يحكي له فيه عن خبرة أثّرت تأثيراً حاسماً على اختياره طريق لاعب الكريات الزجاجية ، وأثّرت كذلك تأثيراً عظيماً على سير دراساته . وبقي الخطاب ، وفيه يقول : «دعني أذكّرك بيوم معيّن وبلعبة معينة يرجع تاريخها الى الوقت الذي كنّا فيه معاً في فريق واحد ، وكنّا نجتهد في خطو الخطوات في لعبة الكريّات الزجاجية . كان رئيس فريقنا قد اقترح علينا اقتراحات مختلفة وقدّم إلينا طائفة من الموضوعات لنختار من بينها . وكنّا آنئذ في مرحلة صعبة هي مرحلة الإنتقال من الفلك والرياضيّات والطبيعة الى علوم اللغة والتاريخ ، وكان رئيس الفريق ماهراً في فن نصب الفخاخ لنا نحن المبتدئين المتعطّشين الى المعرفة ، حاذقاً في طرق إجتذابنا الى منزلق من المجرّدات والتشابهات الممنوعة . فصار يبتدع لنا عبثاً ألعاباً من أصول الإشتقاق ومن اللغات المقارنه ويقدّمها بين أيدينا ويجد متعة خاصة إذا وقع أحدنا في الشراك . كنّا نعد مقاطع كلمات اغريقية حتّى نبلغ الإعياء ونحس بالأرض تميد تحت أرجلنا فجأة ، عندما نجد أنفسنا أمام إمكانية أو ضرورة التقطيع حسب التفاعيل لاحسب النبرة ، الى آخر ذلك . كان يقوم بمهمّته من الناحية الشكلية على نحو خلاّب وصحيح جداً ، ولكن بروح لم تكن تعجبني ، فقد كان يكشف لنا طرقاً مضلّلة ويجتذبنا لنفكّر تفكيرات خاطئة ، وكانت نيّته طيبة فعلاً وتهدف الى تعريفنا بالأخطار ولكنّها كانت مختلطة برغبة في السخرية منّا ، نحن الأغنياء ، وفي صب صاع من الشك في معين تحمّس المتحمّسين . ورغم ذلك ، حدث ونحن تحت إمرته ، منهمكين في تجربة من تجاربه الكيديه الصعبة ، أن تملّكني فجأة ، دفعة واحدة ، معنى لعبتنا وعظمتها وهزّني ذلك الى أعمق أعماقي ، في وقت كنّا فيه جميعاً

(١) Fritz Tegularius

نحاول متحسّسين خائفين أن نصمّم مسألة للعبة تكون على جانب ما من السلامة . كنّا نحلّل في مسألة من تاريخ اللغة حتّى أشرفنا على نحو ما الى ذروة إحدى اللغات والى عصرها الزاهر عن كثب ، وسلكنا مع تلك اللغة في دقائق طريقاً ، كانت قد أمضت القرون في سلوكه ، حينذاك تملّكني بعنف مشهد الفناء وهزّني : فقد تماثل أمام أعيننا كيان عضوي معقّد ، قديم عظيم تكوّن بطيئاً على مر أجيال عديدة ، وبلغ عصر ازدهاره ، وكان الإزدهار يحوي في ذاته التحلّل ، وبدأ البناء المنسّق تنسيقاً ذكيّاً ينحط ويفسد نوعه ويقترب من الأفول ـ وفي الوقت نفسه خطر لي في إنتفاضة ورعدة سارة ، أن انحلال وموت هذه اللغة لم ينته الى العدم ، وأنّ شباب هذه اللغة وازدهارها وأفولها باقٍ في ذاكرتنا وفي علمنا بها وبتاريخها ، وأن هذه اللغة مستمرّة في الحياة في رموز وقوانين العلم من ناحية وفي بنود لعبة الكريّات الزجاجية من ناحية ثانية وأن من الممكن إعادة تكوينها مرة ثانية في أي وقت ، وفهمت فجأة أنّ كل شيء يعني أن كل شيء في اللغة أو على الأقل في روح لعبة الكريّات الزجاجية ، وأن كل رمز وكل مركّب رمزي لايتشعّب الى هذه الناحية أو تلك ، ولايؤدّي الى أمثلة وتجارب وبراهين متفرّقة ، بل يسير الى مركز وسرّ ، وباطن العالم ، يسير الى العلم الأوّل . كل إنتقال من الكبير الى الصغير في السوناتا ، وكل تحوّر في اسطورة أو في شعيرة من الشعائر ، كل تركيب كلاسيكي فنّي ، هو على نحو مافهمت في ومضة تلك اللحظة ، وعلى نحو مايبيّن النظر التأمّلي الخالص ، طريق مباشر الى باطن سر العالم ، الى المكان الذي تكتمل فيه القدسية الأبدية في اختلاج وتأجّج هنا وهناك بين الشهيق والزفير ، بين السماء والأرض ، بين «الين» و«اليانج»[١] . حقيقة أنني كنت من قبل قد رأيت كمشاهد بعض اللعب ، جيدة البناء ، حسنة التنفيذ ، وأحسست وقتها بإنتفاضات عظيمة وآراء سعيدة ، ولكنّني كنت

(١) Yang, Yin العنصران الأساسيّان في فلسفة تاوتسي الصينية . (المترجم)

حتّى ذلك اليوم لاأزال أشك أحياناً في القيمة الحقيقية والقدر الحقيقي للعبة . فالإنسان عندما يحل تمريناً رياضياً ويحسن حله يحس بلذّة فكرية ، وعندما يستمع الى قطعة موسيقية جيدة أو يعزفها ـ خاصة عندما يعزفها ـ يحسّ روحه تمتد الى مواطن العظمة ، وعندما يتأمّل في استجماع للنفس يحس بقلبه يرتاح وينسجم مع الكون كلّه ، فإذا كان الأمر كذلك ، كما حدّثتني نفسي مراراً ، فإن لعبة الكريّات الزجاجية لاتزيد عن أن تكون فنّاً شكليّاً ومهارة ذكية ، وتركيباً لطيفاً ، وكان الأحرى بالإنسان أن يترك هذه اللعبة ولا يلعبها ، ويشتغل بالرياضيّات النقية البحتة وبالموسيقي الجيدة . أمّا الآن فقد سمعت لأوّل مرة صوت اللعبة الداخلي ، وعرفت مغزاها ، ووصلت اللعبة اليّ ، ونفذت فيّ ، ومنذ تلك اللحظة وأنا أؤمن بأن لعبتنا العظيمة لغة مقدّسة إلهية بالفعل . لاشكّ أنّك تذكر هذا كلّه . لأنّك لاحظت تغيّراً يطرأ عليّ آنئذ ، ونداء يصلني ، نداء لا يقاس إلا بالنداء الخالد الذي وصلني مرّة وغيّر قلبي وحياتي ، وسما بهما سموّاً ، عندما اختبرني أستاذ الموسيقى وأنا بعد صبي صغير واستدعاني الى كاستاليا . أنت لاحظت ذلك ، فقد أحسست أنا آنئذ بأنّك لاحظته ، وإن لم تقل شيئاً عمّا لاحظت ، ولسنا اليوم نريد أن نقول عن ذلك شيئاً . ولكنّي أتوجّه إليك برجاء ، وحتّى أوضّح لك رجائي ، لابدّ أن أقول لك شيئاً لايعرفه أحد ولا ينبغي لأحد أن يعرفه ، وهو أن دراساتي الحالية المتناثرة ، لاتتّبع نزوة ، بل تسير حسب خطّة معيّنة تعتمد عليها كأساس لها . لا شكّ أنّك تتذكّر ، على الأقل النواحي الرئيسية : تمرين لعبة الكريات الزجاجية الذي قمنا به ونحن في الصف الثالث مستعينين بمعاونة الرئيس ، والذي سمعت في أثنائه ذلك الصوت والإلهام بأن أصير لاعباً . هذا التمرين الذي يبدأ بتحليل إيقاعي للحن من ألحان فوجه والتي تتوسّطه جملة يقال أنّها من جمل كونفشيوس ، هذا التمرين يشغلني الآن وأقوم بدراسته من أوّله الى آخره ، أعني أنني أتعمّق في كل

جملة من جمله وأسبر غورها وأترجمها من لغة اللعبة الى لغتها الأصلية ، أي الى الرياضيّات ، وفن الزخرفة ، واللغة الصينية ، والغة الإغريقية . ألخ ، إذ أنّي أريد هذه المرة أن أقوم بدراسة المضمون الكلّي للعبة من ألعاب الكريّات الزجاجية دراسة فنّية ، وأن أستعيد بنائها ، وقد أتممت بالفعل الجزء الأوّل من المهمّة في سنتين . ولا شكّ في أنني سأكون في حاجة الى سنوات لبلوغ ما أنوي بلوغه ، ولابأس في هذا ، فنحن ننعم في كاستاليا بحرّية مشهورة في الدراسة ، وقد نويت أن استخدم حرّيتي لهذا الأمر . وأنا أعرف الإعتراضات التي ستوَجه اليّ ، سيقول أغلب مدرّسينا : لقد اكتشفنا لعبة الكريّات الزجاجية وطورناها في قرون حتّى أصبحت لغة عالمية وطريقة للتعبير عن كل القيم والمفاهيم الفكرية والفنّية وصبّها في معيار مشترك . ثمّ تأتي أنت الآن وتريد أن تختبر صحّة هذاكلّه! ستضيّع في هذا حياتك ، ثمّ تندم . ولكنّي لن أضيّع حياتي وأرجو ألا أندم . ورجائي اليك يتلخّص في الآتي : أنت الآن تعمل في محفوظات اللعبة ، وعليك ، نظراً أنّي أود أن أتحاشى فالدتسل لفترة أخرى من الزمن لأسباب عندي أن تجد لي من حين لحين الإجابة على عدد من الأسئلة سأوجّهها اليك ، أقصد أن تمدّني من المحفوظات بالصيغة غير المختصرة وبالمفاتيح والرموز الرسمية للموضوعات المختلفة . إنني أعتمد عليك وتأكّد أن لك أن تعتمد عليّ في تأدية الخدمات التي تقع في حيز إمكاني لقاء ماأطلب منك من خدمات» .

وربّما كان هذا المكان هو المكان المناسب لإيراد النص الآخر من خطابات كنشت الذي وردت فيه إشارة الى لعبة الكريّات الزجاجية ، وإن كان الخطاب ـ وهو موجّه الى أستاذ الموسيقى ـ قد كتب بعد سابقه على الأقل بعام أو عامين . كتب كنشت الى صاحب الفضل عليه يقول : «يخيّل اليّ أنه من الممكن أن يكون الإنسان لاعباً من لاعبي الكريّات الزجاجية المجيدين ، بل المتفوّقين ، أو أن يكون أستاذ اللعبة المجد ، دون أن يصل

الى كشف سر اللعبة الحقيقي ومعناها البعيد . بل من الممكن أيضاً أن يتحوّل من ألمّ باللعبة أو علم علمها ، فأصبح خبيراً في لعبة الكريّات الزجاجية أو رئيسها ، الى شخص يصيب اللعبة بأخطار أكثر مما يمكن أن يلحقه بها أي شخص آخر . فإنّ الناحية الداخلية للعبة ، أو باطنية اللعبة تهدف ككل باطنية الى بلوغ الواحد والى بلوغ الكل ، والى النزول الى الأعماق ، التي ليس بها سوى النفس الأبدي يحكم ذاته بذاته في شهيق وزفير أبدي . ومن أحس بمعنى اللعبة في ذاته الى نهايته ، ينتهي أمره كلاعب ، ويرتفع عن التعدّد ، ويفقد القدرة على التمتّع بالإبتكار والبناء والتركيب . لأنه يكون قد عرف متعة أخرى ولذّة أخرى . ولمّا كنت أعتقد أنني أصبحت قريباً من معنى لعبة الكريّات الزجاجية ، فإنني أرى أن صالحي وصالح الآخرين في ألا أحترفها ، وفي أن أحوّل الى الموسيقى » .

والظاهر أن استاذ الموسيقى ، الذي كان عادة شديد الاختصار في كتابة الخطابات ، قد ساوره القلق في هذا الرأي ، فردّ عليه محذّراً في رفق : « حسن أنّك لم تطلب من أستاذ في اللعبة أن يتحوّل الى « باطني » حسب مفهومك ، وأتمنّى أن يصدّق مافهمت من أنّك لم تسلك سبيل السخرية في تعبيرك . فإنّ أستاذ اللعبة أو المدرّس الذي يهتم أوّل مايهتم بتبيين ماإذا كان قد اقترب من « المعنى العميق » مدرّس رديء جداً . فأنا على سبيل المثال ، بصراحة ، لم أشر لتلاميذي في حياتي مرّة واحدة بكلمة واحدة الى « معنى » الموسيقى . فإذا كان هناك معنى للموسيقى فلا حاجة به اليّ . ولكنّي كنت دائماً أهتم إهتماماً كبيراً بأن يتقن التلاميذ حساب الثمن ونصف الثمن كل الإتقان . فإن أصبحت مدرّساً أو عالماً أو موسيقياً ، فعليك أن تحترم « المعنى » وأن تعتبره شيئاً غير قابل للتعليم . ولقد أراد فلاسفة التاريخ الأقدمين تعليم « معنى » التاريخ ، فكانت النتيجة أنهم أفسدوا نصف تاريخ العالم ، وفتحوا الطريق لبدء عصر صحافة التسلية ، وأسهموا في سكب كمّية من الدماء . وأنا لو أردت أن

أشرح لبعض التلاميذ المبتدئين هومير[1] أو مؤلّفي التراجيديا الاغريقيين ، فلن أحاول قط أن أوحي اليهم بأنّ ذلك الأدب ظاهرة من الظواهر الإلهية ، ولكن أبذل جهدي في تقريب الأدب اليهم عن طريق معرفة نواحيه اللغوية والعروضية . فمهمّة المدرّس ومهمّة العالم هي البحث في الوسائل والعناية بالتراث والإبقاء على سلامة المنهج ، وليست مهمّته إثارة الخبرات التي لاسبيل الى التعبير عنها والتعجيل بها ، والتي هي من شأن المختارين وحدهم ، الذين طالما خرّوا صرعى أمامها أو صاروا ضحايا لها » .

ولا تتعرّض خطابات كنشت في تلك السنوات الى لعبة الكريّات الزجاجية ولا الى مفهومه « الباطني » لها . وخطاباته آنئذ قليلة العدد على ما يبدو ، أو ربّما كانت أكثر من هذا ، وضاع جزء منها . وأكثر هذه الخطابات التي بقيت في حالة جيّدة ، كتبها الى فيرومونته وعالج فيها مشاكل الموسيقى وتحليل الأساليب الموسيقية ويكاد لايكون قد تعرّض فيها الى موضوعات أخرى غير ذلك .

وهكذا فنحن نرى في الخط المتعرّج الذي رسمته دراسات كنشت ، والذي يمثّل خط لعبة فريدة استغرق إعدادها سنين عدداً ، نرى فيه معنى خاصاً وإرادة معيّنة تفرض نفسها . فبدأ يتعلّم مضمونات هذه الخطة الفريدة التي كوّنها التلاميذ قديماً للتمرينات في أيّام قليلة ، والتي كانت تقرأ في لغة لعبة الكريّات الزجاجية في مدّة ربع الساعة ، فأمضى العام بعد العام جالساً في قاعات الدرس وفي المكتبات ، يدرس فروبرجر واليساندرو سكارلاتي[2] ، ويدرس تكوينات الفوجات والسوناتا ، ويستذكر الرياضيّات ويتعلّم اللغة الصينية ويتعمّق في نظرية لرموز الأنغام ، وفي النظرية الفويستليه الخاصة بتطابق الألوان المختلفة والأنغام الموسيقية . والإنسان قد يسأل نفسه لماذا

(١) Homer

(٢) Alessandro Scartatti. Froberger

اختار كنشت هذا الطريق العسير العنيد الذي سار فيه وحده منعزلاً عن الآخرين ، فقد كان مرماه (في خارج كاستاليا يقولون بدلاً من «مرماه» مهنته التي يريد الاشتغال بها) هو بلا شكّ لعبة الكريّات الزجاجية ؟ فلو هو دخل ، ربّما في أوّل الأمر كمستمع في معهد من معاهد مستعمرة اللعبة في فالدتسل ، لسهلت عليه كل الدراسات المتعلّقة بلعبة الكريّات الزجاجية ، ولوجد النصيحة والأجوبة في كل الأمور المختلفة جميعها تحت طلبه في كل وقت ، ولتابع دراساته بين زملاء ورفاق في المسعى ، بدلاً من الإنعزال ومتابعة الدرس وحده في عذاب كعذاب المنفى . ولكنه على أي حال سار في طريقه هو . وقد تحاشى فالدتسل ، فيما نعتقد حتّى ينمحي دوره القديم فيها ، وتنمحي ذكراه من ذهنه ومن أذهان الآخرين ، ومن ناحية ثانية ، لكي لا يتورّط بين جماعة لاعبي الكريات الزجاجية في دور جديد يشابه ذلك الدور القديم . فقد كان منذ وقت طويل يحسّ في نفسه تسييراً وتوجيهاً من القدر له الى القيادة والتمثيل ، وكان يفعل مافي وسعه ليتحايل على ذلك المقدور المفروض عليه الملح عليه إلحاحاً . فقد كان يتوقّع ثقل المسؤولية ويحسّها حتّى من قبل أن يحملها ، أحس ثقل المسؤولية نحو زملائه التلاميذ في فالدتسل ، الذين كانوا متحمّسين له فتملّص منهم ، وأحسّ ثقل المسؤولية نحو تيجولاريوس وكان يعرف بالفطرة أنه لن يتورّع ، إذا لزم الأمر ، عن أن يخطو وسط النيران من أجله . فهو إذن قد التمس العزلة والإنطواء وحياة التأمّل في الوقت الذي ذلك المقدر يحاول دفعه الى الأمام الى الحياة العامة . هذه هي الصورة التي نتأمّلها نحن لحالته النفسية الباطنية في ذلك الوقت . على أنه كان هناك سبب آخر أو دافع آخر يردّه في فزع عن الإنخراط في سلك الدراسة العادية في مدارس لعبة الكريّات الزجاجية العالية ويجعل منه إنساناً عزوفاً عن الآخرين ، دافع الى البحث لا يخمد ، دافع قامت على أساسه شكوكه القديمة حول لعبة الكريّات الزجاجية . وليس من شك في

أنه عرف بالخبرة ، وتذوّق بنفسه أن لعبة الكريّات الزجاجية يمكن أن تؤدّي فعلاً على نحوٍ سامٍ مقدّس الى أقصى حد ، ولكنّ مع ذلك رأى أن غالبية اللاعبين والتلاميذ بل والرؤساء والمعلّمين لم يكونوا لاعبين على هذا النحو السامي المقدّس بحالٍ من الأحوال ولم يكونوا يرون في لغة اللعبة لغة مقدّسة بل كانوا يعتبرونها نوعاً من الاختزال الذكي ولا يمارسون اللعبة إلا على أنّها شيء خاص طريف مسلٍ ، أو رياضة فكرية أو منافسة ومباراة لإظهار العظمة . وأحسّ ، كما يبيّن لنا خطابه الموجّه الى استاذ الموسيقى ، بأنّ البحث عن المعنى الأخير ربّما لا يحدّد على الدوام صفة اللاعب وبأن اللعبة في حاجة الى نوع من الباطنية محتاجة الى أن تكون وسيلة فنّية وعلماً ونظاماً اجتماعيّاً . باختصار ، كانت تساوره الشكوك والخلافات ، وكانت اللعبة بالقياس اليه مسألة حيويّة ، كانت الى حين أكبر مشكلة في حياته ، ولم يفكّر بحالٍ من الأحوال في السعي الى الرعاة الروحانيّين الأبرار ليلتمس لديهم تخفيفاً لما لديه من صنوف الصراع أو الى قبول ابتسامة المدرّسين اللطيفة الملهية التي يحاولون بها تسفيه الموضوع .

كان من حقّه بالطبع أن يتّخذ من بين عشرات آلاف اللعب التي سبقت تأديتها أو من بين الملايين التي يمكن تأديتها ، اللعبة التي يفضّلها موضوعاً لدراساته . هذا ماكان يعرفه ، وبالفعل بدأ العمل على أساس اللعبة التي كوّنها هو وزملاؤه بطريق المصادفة في الحلقة الدراسية التي نعرفها . تلك اللعبة التي تملكه فيها معنى ألعاب الكريّات الزجاجية جميعاً لأوّل مرّة ، وأحس برسالته ليكون لاعباً . وأصبح لايسير ، في تلك الأعوام إلا وتصحبه صورة تخطيطية لهذه اللعبة أثبتها بالإختزال المتعارف عليه . فكتب ، مستعملاً مصطلحات لغة اللعبة ومفاتيحها وتوقّعاتها ومختصراتها ، قانوناً من قانون الرياضة الفلكية ، وتخطيطاً شكليّاً لسوناتا قديمة ، وقولاً لكونفوشيوس وما الى ذلك . ويستطيع القارئ الذي لا يعرف لعبة الكريّات

الزجاجية ، أن يتصوّر هذه الصورة التخطيطية للعبة على نحو يشابه الصورة التخطيطية للعبة من ألعاب الشطرنج ، مع فارق هو أن معاني الأشكال واحتمالات علاقاتها بعضها مع بعض الآخر وتأثيراتها بعضها على البعض الآخر مبنية على أفكار عديدة ، وأن لكل شكل وكل برج وكل حركة من حركات القطع مايقابله من مضمون رمزي . ولم تنحصر مهمة كنشت في سنوات دراسته في التعرّف على ما باللعبة من مضامين ومبادئ وأعمال ونظم ، تعرّفاً بالغ الدقّة ، وفي قطع شوط عبر الثقافات المختلفة والعلوم واللغات والفنون والعصور أثناء انكبابه على الدرس ، بل تجاوز الأمر كذلك الى تحميله نفسه مهمة لم يكن لأحد من مدرّسيه علم بها ، مهمة فحص النظم والإمكانيّات التعبيرية لفن الكريّات الزجاجية فحصاً بالغ الدقة اعتماداً على الموضوعات المذكورة .

ولنعجّل بذكر النتيجة مسبقاً : لقد تبيّن له وجود فراغات وهنّات في نواحي مختلفة ، ولكنّ الدلائل تشير الى أن لعبة الكريّات الزجاجية صمدت لفحصه العنيد ، وإلا لما انتهى به الأمر الى العودة اليها في نهاية المطاف .

ولو كنّا هنا بمعرض كتابة دراسة تهتم أساساً بتاريخ الثقافة ، لكان علينا الاهتمام ببعض الأماكن والمشاهد من حياة كنشت أثناء حياته كطالب اهتماماً يقوم على جدارتها بأن توصف . كان كنشت يفضّل ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، تلك الأماكن التي يستطيع فيها أن يعمل وحده أو مع عدد قليل جداً ، وظل : يحتفظ لبعض هذه الأماكن بتعلّق يمازجه الامتنان . وكثيراً ما كان يقيم في مونتبورت ، تارة ضيفاً على أستاذ الموسيقى ، وتارة مُشتركاً في حلقة دراسية في تاريخ الموسيقى . ثمّ نجده مرّتين في هيرسلاند[١] ، مقر رئاسة الطائفة ، يشترك في «التمرين العظيم» ، تمرين الصيام والتأمّل الذي يستمر اثني عشر يوماً . وكان كثيراً ما يحكي للمقرّبين اليه فيما بعد

(١) Hirsland

بفرح أو بحب عن « خميلة البوص » ، عن الصومعة الحبيبة ، عن المكان الذي شهد دراساته لـ« أي جنج »(١) ، فلم يقتصر ما حدث بذلك المكان عن تعلّم كنشت وبصره بشيء حاسم ، بل أنه وجد نفسه تسوقه فكرة توقعية عجيبة ، أو قل يسوقه تقدير ما فيجد بيئة فريدة وإنساناً خارقاً للعادة يقال له« الأخ الأكبر » ، منشئ الصومعة الصينية المسمّاة بخميلة البوص وساكنها . والرأي عندنا أن هذا الفصل العجيب المفرط في العجب في عصر دراساته ، فصل يستحق أن نتناوله بوصف أكثر تفصيلاً .

كان كنشت قد بدأ دراساته للغة الصينية وللكلاسيكيّين الصينيين في معهد شرق أسيا الشهير ، الذي ألحق منذ أجيال عديدة بمدينة العلم الخاصة بالمتفقهين باللغات القديمة والمسمّاة سانت أوربان(٢) . في هذا المعهد تقدّم كنشت تقدّماً سريعاً في القراءة والكتابة ، وعقد صلاة صداقة مع بعض الصينيّين العاملين هناك وحفظ عن ظهر قلب عدداً من أغاني « شي كنج »(٣) ، بكتاب التحوّرات ، وكان الصينيون عندما يلاحقهم بالسؤال يعطونه الكثير من المعلومات ، ولكنه لم يجد من يعطيه المدخل ، فلم يكن بالمعهد معلّم يعلّم ذلك ، ثمّ لمّا ألح كنشت في طلبه معلّماً يعاونه على الإشتغال بـ« أي جنج » اشتغالاً أكثر عمقاً ، ذكروا له الأخ الأكبر وصومعته ، وكان كنشت قد لاحظ منذ وقت أنه بإهتمامه «بكتاب التحورات» يتّجه الى ميدان لايريد من المعهد أن يعرفوا عنه إلا القليل ، ولهذا التزم جانب الحرص والحذر في استفساراته . ثمّ مالبث ، وهو يسعى للحصول على معلومات وافية عن الأخ الأكبر الذي تحوطه الأسطورة ، أن اكتشف أن هذا الناسك يتمتع بالاحترام والشهرة ، ولكن شهرته بين الناس شهرة الدخيل

---

(١) I- Ging

(٢) Sankt urban

(٣) Schi King

الغريب الأطوار ، أكثر منها شهرة العالم . وأحسّ أن عليه أن يشقّ طريقه بنفسه ، فختم بحثاً دراسيّاً كان قد ابتدأه وعجّل بذلك ماإستطاع ، ثمّ رحل ، وسار على الأقدام ميمّماً شطر المنطقة التي أقام فيها الشخص العجيب ، خميلة البوص ، هذا الشخص العجيب الذي ربّما كان حكيماً واستاذاً ، وربّما كان مجنوناً . وكان قد جمع عن الرجل معلومات تفيد بأنه كان قبل خمسة وعشرين عاماً أشد طلبة القسم الصيني إيحاء بمستقبل باهر ، فقد كان يبدو عليه كأنه ولد لهذه الدراسات وخلق لها ، حتّى بزّ أحد معلّميه ، سواء منهم الصينيّون أو أبناء الغرب ، في فن الكتابة بالريشة وفي فكّ رموز الكتابات القديمة ، ولكنه لفت الأنظار الى غرابته نتيجة للتحمّس الذي دفعه الى تغيير مظهره الخارجي على النحو الصيني ، فكان على سبيل المثال يصرّ على ألا ينادي رؤساءه جميعاً من رئيس القسم الى الأساتذة بألقابهم وبـ« حضرتكم » كما تقضي بذلك التعليمات ، وكما كان عامة الطلبة يفعلون ، بل كان يناديهم بـ« يا أخي الكبير » ، نداء انتهى أمره بأن أصبح يطلق عليه هو على سبيل السخرية ، وكان اكثر اهتمامه موجّهاً الى لعبة الطالع المذكورة في أي يونج ، وكان يمارسها بمهارة الأساتذة فيها معتمداً على ساق الحزنبل التقليدي . وكان أحب كتاب الى نفسه بعد تفسيرات كتاب الطالع ، كتاب دشوانج أوزي[1] . والظاهر أن الروح العقلية اللاصوفية والكونفوشوسية القاسية التي كانت مؤثّرة بشكل محسوس في القسم الصيني من المعهد عندما اتصل به كنشت ، كانت كذلك في العصر الأسبق ، لأن الأخ الأكبر ترك المعهد ذات يوم ، وكان المعهد يودّ لو استبقاه في رحابه مدرساً للمادة ، ترك المعهد وراح يتجوّل تاركاً عدّته المكوّنه من فرشاة وإناء للحبر وكتابين أو ثلاثة ، وقصد جنوب البلاد ، ونزل ضيفاً تارة هنا وتارة هناك على أخوان في الطائفة ، وبحث عن المكان المناسب للصومعة التي وضع خطّة

(١) Dschuang Osie

إقامتها ، وحصل بعد طلبات ملحّة تحريرية وشفهية من السلطات العلمانية ومن الطائفة على حق زراعة هذا المكان على اعتبار أنه يسكن فيه ، وظلّ منذ ذلك الحين يعيش في المكان وقد حوّله الى بقعة حالمة على الطريقة الصينية القديمة بالضبط ، يضحك منه الناس ويصمونه بالسفه أحياناً ، وأحياناً يبجّلونه ويرون فيه مايشبه القدّيس ، يعيش في المكان وبينه وبين الدنيا سلام ، يقضي أيّامه في التأمّل ، وفي نسخ مخطوطات صينية قديمة في الوقت الذي يفرغ فيه من العمل بخميلة البوص التي أعدّ لها حديقة صغيرة منسّقة على الاسلوب الصيني لتحميها من رياح الشمال .

رحل يوزف كنشت الى هناك وراح يتوقّف للراحة بين الفينة والفينة ، مغتبطاً بالمنظر الطبيعي الجميل حتّى بلغ بقعة ، بعد اجتياز ممرّات الجبل الجنوبية ، سحرته ولاحت له زرقاء عطرة ، ذات مصاطب مشمسة عليها كروم وجدار أدكن ملآن بالسحالي ، وغابات من أشجار أبي الفرو الجبلية ، خليط طريف من طبيعة بلاد الجنوب وطبيعة الجبال الشامخة . بلغ كنشت خميلة البوص عصراً ، فدخل ونظر مندهشاً الى بيت صغير على الطراز الصيني ، قام وسط حديقة بديعة فيه بحيرة ينساب ماؤها من أنابيب خشبية الى مجرى من الحصباء ، ويوشك أن يملأ حوضاً من الصخر تنمو خضرة بريّة بين شقوقه ، وتسبح في مياهه الساكنه الصافية سمكات ذهبية . كانت أعالي البوص تتهادى في سلام ورقّة فوق العيدان الرشيقة القويّة وكان النجيل يفرش الأرض ويتخلّله بلاط حجري عليه كتابات منقوشة على الطراز الكلاسيكي . ونهض رجل نحيل يرتدي ثوباً من التيل الرمادي المصفر ، ويضع نظّارة فوق عينين زرقاوين فيهما الترقّب ، نهض من حوض من الزهور كان يقبع فيه ، وسار في خطوات وئيدة نحو الزائر ، لايبدي غلطة ، ولكن يبدي خجلاً وتردّداً كثيراً مايلحظ على المعتكفين والمنعزلين ، وحط نظره على كنشت متسائلاً ينتظر ما سيقوله هذا . وتلفّظ كنشت في غير ما وجل بكلمات

صينية أنشأها للتحية : «التلميذ الغرير يسمح لنفسه بزيارة الأخ الأكبر زيارة تحية» .

وردّ الأخ الأكبر قائلاً : «مرحباً بالضيف المؤدّب . إنني أرحّب على الدوام بزملائي الصغار الذين يودّون مشاركتي قدحاً من الشاي وحديثاً صغيراً مهمّاً ، ولمن شاء مبيتاً فراش جاهز» .

فانحنى كنشت انحناءة صينية فيها تواضع وشكر ، ثمّ اقتيد الى البيت الصغير وقدّم إليه الشاي . وتلا ذلك مشاهدة الحديقة ، والصخور ذات النقوش ، والبركة ، والأسماك الذهبية التي ذكر الأخ الأكبر عمرها . وجلس الإثنان تحت البوص المتمايل حتّى حلّ وقت العشاء ، فتبادلا التحيّات ، وتلا الواحد على صاحبه أبياتاً وعبارات من مؤلّفات الكلاسيكيّين ، وتأمّلا الزهور ، وتمتّعا بالشفق الوردي يطويه الليل عند الجبال . ثمّ عادا الى البيت . وقدّم الأخ الأكبر خبزاً وفاكهة ، وأعدّ على فرن ضئيل لكل منهما فطيرة عظيمة ، ولمّا فرغا من الطعام سأل الأخ الأكبر كنشت عن سبب زيارته ، باللغة الألمانية ، وردّ كنشت بالألمانية كذلك ، فحكى كيف أتى ، وأفصح عن عزمه في البقاء أطول مدّة يسمح بها الأخ الأكبر ، حتّى يتتلمذ عليه .

فقال الناسك وهو يُري الضيف مضجعه : «نتكلّم في هذا الأمر إذا كان الغد» . وفي الصباح جلس كنشت الى الماء حيث الأسماك الذهبية ، وراح ينظر الى العالم الصغير الرطب المتكوّن من ظلمة وضياء وألوان تتلاعب في سحر ، حيث تتهادى أجسام الأسماك الذهبية في اللون الأزرق المخضر الداكن وفي الظلمة الحالكة ، ثمّ إذا بدت الدنيا كلّها كأنّها سحرت ونامت الى الأبد وغاصت في حلم عميق ، قذفت خلال الظلمة النائمة بشرر من البلّور والذهب يتناثر إثر حركة رقيقة مرنة تثير الرعب . وظل ينعم النظر مستغرقاً متعمّقاً ، يحلم أكثر مما يتأمّل ،ولايحس بما يفعل ، حتّى أتى الأخ الأكبر من البيت بحركات رقيقة فوقف وظلّ يتأمّل ضيفه التائه في

الأعماق ويطيل تأمّله . فلمّا نفض كنشت عن نفسه حالة التيه في الأعماق ، ونهض ، لم يكن الأخ الأكبر واقفاً . وبعد قليل أتى صوته من الداخل يدعو كنشت الى تناول الشاي . فتبادلا تحية قصيرة وشربا الشاي ، وجلسا يستمعان الى أشعة مياه النافورة تنساب خلال سكون الصباح بلحن الخلود . ثمّ نهض الناسك وراح وجاء في الغرفة يدبّر بعض الأمور في تلك الحجرة المضطربة البناء ، ونظر الى كنشت من حين لحين نظرة غامزة ثمّ سأله فجأة : « هل أنت على استعداد لأن تلبس حذاءك وتنصرف الى تجوالك ؟ » .

فتملّك كنشت التردّد حيناً ثمّ قال : « إذا لم يكن من ذلك بدّ فأنا على استعداد لما تقول » .

فقال الآخر : « وإذا حدث أن بقيت هنا فترة قصيرة ، فهل أنت مستعد لأن تكون مطيعاً هادئاً في تصرّفك كسمكة ذهبية ؟ » . فأجاب الطالب مرة ثانية بالإيجاب .

فقال الأخ الأكبر : « حسناً . سأنشر العيدان الآن لألتمس عرافة » .

وبينما كان كنشت يجلس وينظر في أدب وشغف ويلتزم السكون « كسمكة ذهبية » أخرج الآخر من وعاء ذهبي أشبه شيء بالجعبة حفنة من العيدان . ولم تكن هذه العيدان سوى سيقان نبات الحزنبل . فعدّها بانتباه ثمّ أعاد جانباً من الحزمة الى الوعاء ، ووضع عوداً الى جانب ثمّ قسّم العيدان الباقية الى حزمتين متساويتين ، فأبقى حزمة في يده اليسرى وراح يتناول بأصابع يده اليسرى الدقيقة الحسّاسة حزماً متناهية الصغر من النصف الآخر ، ويعدّها ثمّ ينحيها جانباً حتّى بقي عدد قليل من العيدان دسّها بين إصبعين من أصابع يده اليسرى . فلمّا أتمّ اختصار عدد عيدان الحزمة الأولى حسب طريقة حسابية شعائرية الى عدد قليل ، شرع يكرّر نفس العملية بالحزمة الثانية . ثمّ نحّى العيدان التي أعدّها وتناول الحزمتين الواحدة بعد الأخرى مرة ثانية وصار يعد ويدسّ بقايا العيدان بين إصبعين ، وكانت أصابعه تؤدّي هذه

العملية بسرعة رقيقة غير مسرفة ، وتلوح للناظر كلعبة من ألعاب خفة اليد تنظّمها قواعد محدّدة قاسية ، وتمرّن عليها اللاعب آلاف المرّات حتّى أصبحت مهارة من المهارات البارعة . فلمّا كرّر اللعبة مراراً بقيت ثلاث حزم صغيرة ترجم عددها الى رمز رسمه بالفرشاة المدبّبة على ورقة صغيرة . ثمّ أعاد العملية المعقّدة من جديد ، فقسّم العيدان الى حزمتين متساويتين ، وتكرّر العد ، وتكرّرت تنحية العيدان ، وتكرّر دس عيدان بين اصبعين الى أن بقيت في النهاية ثلاث حزم صغيرة ، عدّها وترجمها الى رمز آخر . وظلّت العيدان تتراقص وتتقارع وتنتقل من مكان الى مكان وتكوّن حزماً ثمّ تنفصل وتعد مرة ثانية ، وتتحرّك حركات إيقاعية مؤكّدة لايصيبها الخطأ . وفي نهاية كل عملية كان الإصبع يرسم علامة . وفي النهاية تكوّنت مجموعة من الرموز الإيجابية والسلبية على ستة أسطر بعضها فوق بعض . ثمّ جمعت العيدان وأعيدت بعناية الى وعائها وقعد الحاوي على الأرض ، فوق حصير من السمار وأمامه نتيجة الطالع مكتوبة على ورقة يتأمّلها في سكون ويطيل تأمّلها .

ثمّ قال : هذا الرمز هو الرمز «مونج» ويعني طيش الشباب . فوق : الجبل ، تحت : الماء ، فوق : «جين» ، تحت : «كان» . وعند أسفل الجبل يتدفّق النبع ، رمز الشباب . ونص العرافة :

طيش الشباب يلاقي نجاحاً .
لست أنا من أبحث عن الطائش الشاب .
ولكنّ الطائش الشاب هو الذي يبحث عنّي .
وأنا أعطي البيان من الطالع الأوّل .
فإذا كرّر السؤال ، كان ذلك إثقالاً .
وإن أثقل ، لم أعطه بياناً .
والصمود هو الذي يدفع الى الأمام .

كان كنشت من فرط تطلّعه اليقظ الى النتيجة قد حبس أنفاسه . ثمّ إذا

به يلهث وسط السكون الناشئ على غير إرادة منه ، ولايجرؤ على السؤال . وأعتقد أنه فهم أن المقصود هو : الطائش الشاب قد أتى ، وقد سمح له أن يبقى . بينما هو نفسه وقد تملّكته بهلوانية الأصابع والعيدان الجليلة التي ظلّ مدّة طويلة يتطلّع اليها ويجدها ذات معنى مقنع دون أن يستطيع التوصّل الى هذا المعنى حتّى ولاظنّاً ، فقد تملّكته النتيجة تملكاً . نعم لقد نطقت العرافة وحسمت الأمر لصالحه .

ونحن لم نكن لنسهب في تصوير هذا الفصل على هذا النحو لو لم يكن كنشت نفسه قد حكاه لأصدقائه ولتلاميذه مراراً ، وأحسّ في حكايته بشيء من الإرتياح . ولكن لنعد الآن الى روايتنا الموضوعية ، بقي كنشت شهوراً في خميلة البوص وتعلّم معالجة عيدان الحزنبل وأتقنها إتقاناً يوشك أن يساوي اتقان استاذه ، وكان أستاذه يمرّنه ساعة كلّ يوم على عدّ العيدان ويأخذ بيده الى قواعد لغة العرافة ورموزها ، ويمرّنه على كتابة الرموز الأربعة والستّين وعلى حفظها عن ظهر قلب ،ويتلو عليه من تفسيرات القدماء ، ويحكي له من حين لحين ، خاصة في الأيّام الجميلة ، حكاية من «دشوانج أوزي» . وتعلّم التلميذ فوق ذلك تنسيق الحديقة وغسل الفرشاة ، ودعك الحبر وتعلّم إعداد الشاي والحساء ، وجمع الحطب ، ورصد الجو ومعالجة التقويم الصيني . وحاول التلميذ بعدها محاولات نادرة أن يدخل لعبة الكريّات الزجاجية والموسيقى في مناقشتهما المقتضبة ، فلم تؤدّ محاولاته الى نتيجة على الإطلاق ، ولاحت كما لو كانت موجّهة الى شخص ثقيل السمع... . وربّما لاقت من الاستاذ ابتسامة تلطّف تنحي الوضوع جانباً ، أو حكمة مثل «مزنة كثيفة لاتأتي مطرا» أو «الكريم لا عيب يعيبه» . فلمّا استقدم كنشت من مونتسيبورت كلافيكوردا صغيراً وراح يعزف كل يوم ساعة ، لم يلق من الأخ الأكبر اعتراضاً . وحدث ذات مرة أن اعترف كنشت لأستاذه بأنه يود أن يصل بجهده الى التمكّن من إدخال نظام «أي جنج» في

بناء لعبة الكريّات الزجاجية . فضحك الأخ الأكبر وصاح : «حنانيك! هكذا! من الممكن أن يضع الانسان في الدنيا حديقة صغيرة جميلة من البوص ، أمّا أن يتمكّن البستاني من وضع الدنيا في خميلة من البوص فهذا أمر يبدو لي مشكوكاً فيه» . ـ كفانا هذا ، لانضيف اليه إلا أن الأخ الأكبر تلقّى بعد مرور سنوات على هذه الواقعة دعوه من كنشت . وكان كنشت قد أصبح في فالدتسل شخصية مرموقة جداً ـ ليقبل التدريس فيها ، فلم يرد عليها .

وظلّ يوزف كنشت يصف شهور حياته في خميلة البوص بأنها فترة سعيدة سعادة من نوع خاص ، بل ويعتبرها في كثير من الأحيان «كبداية ليقظته» ، وتكرّرت منذ ذلك الحين صورة اليقظة في عباراته ،وكان معناها يشبه ـ وإن لم يطابق قط ـ المعنى الذي أعطاه من قبل لصورة الإلهام ، ومن الممكن القول على سبيل التخمين أن «اليقظة» كانت تعني معرفة الذات والتبصّر بالمكان الذي يتّخذه داخل النظام الكاستالي والانساني . ولكن يلوح لنا أن الأهمية ظلّت تزداد تركّزاً على معرفة الذات بمعنى أن كنشت كان في «بداية اليقظة» يزداد اقتراباً من الاحساس بمكانته الفريدة الخاصة وبأنه مختار لأمر بعينه ، في حين بدأت مفاهيم ومقولات النظام الهرمي عامة أو النظام الهرمي الكاستالي خاصة تتحوّل في نظره الى أمور نسبية .

ولم تنته دراساته الصينية بنهاية مقامه في خميلة البوص ، بل استمرّت بعد ذلك طويلاً ، واجتهد كنشت بخاصة في معرفة الموسيقى الصينية . وكان قد صادف في كتابات المؤلّفين الصينيين القدماء مدح الموسيقى واعتبارها منبعاً من المنابع الأولى للنظام والأخلاق والجمال والصحة . وكان فهم الموسيقى على هذا النحو الواسع الأخلاقي قد وصله قديماً عن طريق أستاذ الموسيقى ، ذلك الرجل الذي كان في رأيه يجسّم الموسيقى في شخصه .وراح ـ دون أن يترك الخطة الأساسية التي اختطّها لدراساته وعرفناها من خطابه الذي وجّهه الى فريتس تيجولاريوس ـ راح يتقدّم في الطريق

متتبّعاً احتمال وجود شيء جوهري ، أي متّبعاً طريق اليقظة المطروق الى حيث يؤدّي ، متتبّعاً إياه بهمة وعظمة ، وأثمرت فترة تعلّمه لدى الأخ الأكبر نتائج إيجابية منها تغلّبه على التعوّد الى العودة الى فالدتسل . فبدأ يشترك كل عام في حلقة دراسية من حلقات الدراسات العليا ، حتّى أصبح في مدينة اللاعبين «فيكوس لوزوروم[1]» ، شخصية هامة تحظى بالاحترام والتقدير ، دون أن يعلم يقيناً كيف تمّ له ذلك . ودخل في هيئة اللعبة التي تعتبر ، في تجسيمها كيان اللعبة ، أكثر الهيئات عمقاً وحساسية ، والتي تضم مجموعة من اللاعبين المجيدين لا تذكر أسماؤهم ، ويملكون في أيديهم مصير اللعبة أو على الأقل يتحكّمون في اتجاهها وفي موضتها . وكانت هذه الجماعة من اللاعبين تضم موظّفين من مؤسّسات اللعبة أيضاً دون أن يكون لهؤلاء على الاطلاق أي صفة من صفات التحكّم ، وتتّخذ مكاناً في بعض الحجرات المتطرّفة الهادئة في أرشيف اللعبة ، وترى مشتغلة بدراسات خاصة بنقد اللعبة مجتهدة في إدخال ميادين جديدة الى اللعبة أو في اخراجها منها ، منهمكة في مناقشات في صالح أو ضد بعض الإتجاهات الذوقية المتقلّبة في ناحية الشكل أو المعالجة الخارجية أو الناحية الرياضية للعبة . كان كل واحد من الذين انخرطوا في هذه الجماعة يتقن اللعبة ، ويعرف كل زميل من زملائه معرفة دقيقة جداً تحيط بمواهبة وصفاته ، وكانت الجماعة تشبه دائرة في وزارة أو نادٍ من النوادي الارستقراطية يلتقي فيه أولئك الذين سيصبحون حكّاماً ومسؤولين في الغد وبعد الغد فيعرف الواحد منهم صاحبه . وكان الجو السائد في هذه الجماعة ذا نغمة منطوية مهذبة مشذّبة ، كل واحد فيها يخالجه الطموح ولا يظهر من طموحه شيء ، وكان كل واحد فيها يتميّز بالنباهة والقدرة على النقد الى درجة مفرطة . كانت هذه الصفوة من أبناء مدينة اللاعبين ، في نظر الكثيرين داخل كاستاليا ، بل وفي نظر البعض

---

(١) Vicus Lusorum

خارج كاستاليا تمثل الزهرة الأخيرة للتقاليد الكاستالية ، وزبدة المفكّرين الارستقراطيين الخالصين ، وكان هناك من الشباب مَن ظل سنين يراوده الطموح وتساوره الأحلام أن يتمكّن من الانتماء الى هذه الجماعة . وكانت هذه الطائفة المختارة من المتطلّعين الى المناصب العليا في النظام الهرمي للعبة الكريّات الزجاجية في نظر الآخرين تمثّل شيئاً بغيضاً متهالكاً ، تمثّل طائفة من التنابلة المتعجرفين ، من العباقرة العقم الذين يفتقرون الى الاحساس بالحياة والواقع ، من المتعاظمين الذين لايزيدون في حقيقتهم عن أن يكونوا متطفّلين ، طائفة مكوّنة من المتظاهرين الطامعين مهنتهم ومضمون حياتهم لعب ومتعة أنانية عقيمة بالفكر .

ووقف كنشت جامداً في وجه الرأيين ، فلم يكن يرى معنى في أن يمتدحه الطلاب في لغوهم فيصفونه بأنه حيوان معجز ، أو في أن يسخروا منه ويصموه بالوصولية والطمع . كان الشيء الذي يهمّه هو دراساته التي يدخلها جميعاً في مضمار اللعبة . وربّما همّه شيء آخر هو ماإذا كانت اللعبة فعلاً هي أسمى شيء في كاستاليا ، وماإذا كانت تستحق أن يكرّس من أجلها حياته . فقد كان بلوغه ماخفي عليه من أسرار قوانين اللعبة وإمكانيّاتها ، وتمكّنه من معرفة مجاهل الأرشيف المزركشة ومن عالم رموز اللعبة الباطني المعقّد ، كان كل هذا لايعني بالضرورة أن شكوكه قد سكتت ، فقد علم هو بنفسه وفي نفسه أن الإيمان والشك مرتبطان أحدهما بالآخر ، وأن أحدهما شرط للآخر ، كالشهيق والزفير . وكان تقدّمه في كل مجالات عالم اللعبة يؤدّي بطبيعة الحال الى نمو قدرته على الرؤية ونمو حساسيته تجاه مشاكل اللعبة . ربّما هدّأته لفترة قصيرة إقامته في خميلة البوص الشاعرية أو لعلّها ضلّلته . وقد بين له مثل الأخ الأكبر أن هناك مخرجاً على أية حال من هذه المشاكل ، يمكن مثلاً أن يحوّل الانسان نفسه الى صيني كما فعل الأخ الأكبر ، ويحبس نفسه خلف سياج حديقة ويعيش على نحوٍ جميل راضٍ من

الكمال ، أو يحوّل الانسان نفسه الى فيثاغورثي أو الى راهب أو الى مجادل ـ ولكن مثل هذا التصرّف لايزيد عن أن يكون تهرّباً وتخلّياً عن العالمية لاينالـه ولايستطيعه إلا القلائل ، تخلّياً عن اليوم وعن الغد من أجل شيء كامل لكنه زائل ، تخلّياً هو نوع رفيع من الهرب . وكان كنشت يحس من حين لآخر أن هذا العزوف ليس سبيله . ولكن ماسبيله إذن ؟ كان كنشت يعرف في نفسه علاوة على موهبتة العظيمة في الموسيقى ولعبة الكريات الزجاجية قوى أخرى : استقلالاً داخلياً واعتداداً بالنفس لا يمنعه ولا يعوقه عن أن يخدم ، ولكنه يتطلّب منه ألا يخدم سوى السيّد الأعظم . هذه القوة ، هذا الاستقلال ، هذا الاعتداد بالنفس ، لم يكن من سمات شخصيته فقط ، ولم يكن متّجهاً بفعّاليته الى الداخل فقط ، وإنّما كان متّجهاً بفعّاليته الى الخارج كذلك . وكان يوزف كنشت قد تبيّن مراراً أثناء سنوات دراسته ، وخاصة في فترة منافستة لبلينيو ديزنيوري ، أن نفراً من زملائه ممن في عمره ونفراً آخر عدداً منهم يصغرونه ، لايقفون عند حبّه وطلب مودّته ، بل يميلون الى جعله سيداً فوقهم ، فيطلبون منه النصح ويفسحون له المجال ليؤثّر عليهم . لاحظ كنشت ذلك يتكرّر في حياته المرة بعد المرة . وكان له فيه من ناحية متعة وشغف بما يقوى فيه من الطموح والاعتداد بالنفس ، وكان له فيه من ناحية ثانية شيء حالك مخيف ، لأن الميل الى النظر شذراً الى أولئك الزملاء التوّاقين الى النصح والقيادة والمثل ، النظر اليهم في ضعفهم وفي افتقارهم الى صلابة الرأي والكرامة ، وكذلك الميل الخفي الذي اعتراه أحياناً (على الأقل في فكره) والذي كان يجعله يعتبر الناس عبيداً طائعين ، كان فيه شيء من حرام . شيء قبيح . هذا الى أنه أوتي الفرصة ـ أيام منازلته بلينيو ـ ليعرف عن خبرة الثمن الذي يدفعه الانسان عندما يكون في منصب عالٍ برّاق تمثيلي ، ثمناً مكوّناً من مسؤولية ومن أثقال على ذات النفس . كذلك أتيح له أن يعرف عن خبرة مدى التعب الذي يتكبّده أستاذ

الموسيقى أحياناً من منصبه . شيء مغر أن يكون لفرد ما سلطة على الناس وأن يظهر أمام الاخرين بارزاً برّاقاً ، ولكنه في نفس الوقت شيء يضم في طيّاته شيطانية وخطورة . وتاريخ الدنيا يتكوّن من سلسلة متتابعة لاتنقطع من حكّام وزعماء وأصحاب سلطة وقادة بدأوا ـ باستثناء حالات نادرة متناهية الندرة ـ بدأوا بداية جميلة وانتهوا نهاية قبيحة ، وكانوا ـ على الأقل ادّعاء ـ قد جروا وراء السلطة من أجل الخير ، ثمّ مالبثت السلطة أن تملّكتهم وخدّرتهم حتّى أحبّوها لذاتها . والذي حدث في حالته أنه عوّد تلك القوة التي أوتيها بالفطرة على الخير بوضعها في خدمة النظام الهرمي . وكان هذا التصرّف من جانبه شيئاً طبيعيّاً . ولكن أين هو المكان الذي يمكن لقواه أن تخدم فيه على أحسن وجه وتثمر أحسن ثمرة ؟ القدرة التي أوتيها على جذب الآخرين خاصة من يصغرونه في السن ، وعلى التأثير عليهم تأثيراً كبيراً أو صغيراً ، قدرة كانت تفيد ضابطاً أو سياسيّاً . ولكنها هنا في كاستاليا لامكان لها . أو ربّما نفعت هذه الكفايات في كاستاليا المعلّم والمربّي . ولكن كنشت كان لايجد في نفسه ميلاً الى هذه الأنواع من النشاط بالذات فلو ترك له الأمر يسيّره بإرادته وحدها لفضّل لنفسه حياة العالم المستقل على كل حياة سواها ـ أو حياة لاعب الكريات الزجاجية . وهكذا وقف أمام السؤال القديم المعذّب : هل هذه اللعبة هي فعلاً أسمى شيء ؟ هل هي فعلاً ملكة دولة الفكر ؟ أليست هذه العبة في نهاية المطاف لعبة ، مجرّد لعبة ؟ هل هذه اللعبة جديرة بأن يكرّس لها حياته تكريساً تاماً ؟ هل هي جديرة بأن يضع كل حياته في خدمتها ؟ كانت هذه اللعبة قد بدأت منذ قرون عديدة في شكل شيء بديل للفن ، ثمّ تحولت ـ على الأقل في نظر الكثيرين ـ تدريجيّاً ، في مفهومها الى مايشبه الدين ، الى وسيلة للاستجماع والاستعلاء والتأمّل في يد أصحاب العقول التي بلغت في نموّها درجة عالية . ويرى ذو البصيرة أن الصراع الذي اعتمل في نفس كنشت كان

بين ماهو استطيقي وبين ماهو أخلاقي . كان السؤال الذي يخالجه ولاينطق به نطقاً كاملاً واضحاً ، هو بعينه السؤال الذي بدا في غموض وفي قالب التهديد بشيء في مواضع من قصائده التي نظّمها في فالدتسل ـ سؤال لايتعرّض للعبة الكريات الزجاجية وحدها ، بل يتعرّض لكاستاليا كلّها .

في هذا الوقت الذي أرّقته فيه هذه المشكلة فاشتدّت في تأريقه وكان فيه كثيراً مايرى فيما يرى النائم مناقشاته مع ديزنيوري ، في هذا الوقت حدث له مرّة وهو يسير عبر فناء من الأفنية الواسعة في مدينة اللاعبين بفالدتسل أن سمع صوتاً يناديه باسمه من خلفه ، صوتاً لم يعرفه على التو وإن اعتقد أنه يعرفه . فلمّا استدار رأى شاباً فارعاً ذا لحية صغيرة يعدو نحوه عدوَ العاصفة . كان هذا الشاب هو بلينيو . فحيّاه في رقة يسيل فيها تيّار من الذكرى والحنان . وتواعدا على اللقاء إذا ماكان المساء . كان بلينيو قد أتمّ دراساته منذ وقت طويل في المدارس العليا العلمانية وأصبح موظّفاً وأتى الآن في فترة إجازة قصيرة ضيفاً على حلقة دراسية موضوعها لعبة الكريّات الزجاجية . وكان منذ سنين قد أتمّ حلقة دراسية من هذا النوع . فلمّا التقى الصديقان مساء لم يلبث لقاؤهما أن أوقعهما في الحرج ، كان بلينيو تلميذاً ضيفاً ، كان هاوياً من الخارج ، مقبولاً على عواهنه ، يتابع حقّاً بشغف كبير حلقته الدراسية ولكن حلقته الدراسية كانت خاصة بالخارجين والهواة ، فكان الفرق بينه وبين كنشت كبيراً . كان يجلس أمام خبير عليم جعله يحس من خلال ترفّقه به وتجاوبه الجميل مع اهتمامه بلعبة الكريات الزجاجية بأنه هنا ليس زميلاً بل صبيّاً يجد متعة له وتسلية على حافة علم يتقنه صديقه الى أعمق أعماقه . وحاول كنشت أن يبعد الحديث عن موضوع اللعبة ، ورجا صديقه بلينيو أن يحكي له عن وظيفته وعمله وحياته في الخارج . في هذه الموضوعات كان يوزف هو المتخلّف والصبي الذي يلقي أسئلة الجاهل ويلقى من صاحبه الرفق في التعريف . كان بلينيو من رجال القانون ، وكان يسعى

لأن يكون ذا نفوذ سياسي ، وكان يوشك أن يعقد خطبته على ابنة أحد رؤساء الأحزاب ، وقال كلمة لم يفهمها يوزف فهماً كاملاً . وكانت عباراته كثيرة من التي يستعملها بلينيو تلوح لكنشت فارغة ، أو يخالها عارية من المضمون . فهم يوزف ، على أية حال أن بلينيو رجل له قيمة في عالمه ، وأنه يعرف أموره حق المعرفة ، وأنه يسعى لأهداف الطموحين . وتبيّن أن العالمين الذي تلامسا في شغف وأحسَ أحدهما بالآخر احساساً لايفتقر الى التعاطف ممثّلين في شخصي الشابين قبل عشر سنين ، قد تباعدا الآن ولاحا غريبين الواحد عن الآخر ، عصيين على التوحيد . صحيح أن بلينيو الآتي الآن من العالم خارج كاستاليا والمشتغل بالسياسة كان لايزال يكنّ تعلّقاً ما بكاستاليا وصحيح أنه ضحى للمرة الثانية بإجازته من أجلها ، ولكنه بدا في كاستاليا ـ كما اعتقد كنشت ـ كما كان يبدو هو لو توجّه ذات يوم الى مكان عمل بلينيو وحضر كضيف فضولي بعض جلسات المحكمة ، وزار بعض المصانع ومؤسسات الخدمة العامة . خاب رجاء الاثنين أحدهما في الآخر . أمّا كنشت فقد وجد صديقه القديم قد استبدّت به الغلظة والسطحية ، وأمّا ديزنيوري فقد وجد زميله القديم متعاطفاً في تعلّقه بالروحية والباطنية ، يبدو له كما لو كان روحاً بلا جسد ، يزهو بنفسه وبرياضته . ولكنهما بذلا الجهود ، وقصّ ديزنيوري الكثير من أخباره على نحو بديع ، حكى عن دراساته وامتحاناته ورحلاته الى انكلترا والى بلدان الجنوب ، وعن الاجتماعات السياسية وعن البرلمان . ثمّ قال كلمة كان لها وقع التهديد أو التحذير ، قال : «سترى أن أزمة مضطربة ستأتي عمّا قريب ، ربّما حروب ، وليس بعيداً عن الاحتمال أو يصبح الكيان الكاستالي كله مرة أخرى عرضة للتهديد الجدّي» . ولكنّ كنشت لم يحمل هذا الكلام محمل الجد وقال : « وأنت يابلينيو ؟ هل ستكون ضد كاستاليا أو معها ؟ » .

فقال بلينيو وهو يضحك ضحكة كأنّما أجبر عليها : «آه ، لن يسألني

أحد حينذاك عن رأيي . وأنا طبعاً أرى أن تستمر كاستاليا وألا يتعرّض لها متعرّض والا لما كنت هنا الآن . والحق أن كاستاليا ، على رغم تواضع متطلباتها المادية ، تكلّف البلاد كل عام ميزانية كبيرة » .

فضحك يوزف قائلاً : « نعم ، هذه الميزانية ، على ماسمعت ، تبلغ نحو عشر ماصرفته في أزمات الحروب على السلاح والعتاد في العام » . والتقى الاثنان مرّات . وكانا كلّما دنت نهاية حلقة بلينيو الدراسية يكثران من التواد . فلمّا انتهى الأسبوعان أو الثلاثة أسابيع ورحل بلينيو أحس الإثنان بالارتياح .

كان أستاذ اللعبة في ذلك الوقت هو توماس فون درترافه[1] ، رجلاً مشهوراً واسع الترحال ، ماهراً في أحوال الدنيا ، سهلاً ، رقيقاً مع من يقترب منه ، شديداً في وعي وزهد في كل أمور اللعبة ، مجتهداً دائب العمل على عكس مايتوقّع أولئك الذين لم يروا منه غير ناحية التمثيل حينما يظهر مثلاً مرتدياً ثوب الاحتفال فيترأس الألعاب العظيمة أو في حفلات استقبال الوفود القادمة من الخارج . ويحكي الناس عن أنه رجل فاتر بل بارد ، يعتمد على العقل أساساً ، ولايتّصل بالفن الا صلة حسن السلوك وربّما سمع الانسان عنه في بعض الأحيان بين هواة لعبة الكريات الزجاجية الشباب المتحمّسين أحكاماً سلبية أو أحكاماً خاطئة ، خاطئة لأنه إن كان من غير المتحمّسين وكان يؤثر أن يتحاشى إثارة موضوعات كبيرة مثيرة في الألعاب الرياضية العظيمة ، فقد كان يؤلّف ألعاباً منتظمة نظاماً باهراً لا يعلو عليه غيرها من الناحية الشكلية ، ألعاباً تبيّن للعارفين أنه متمكّن تمكّناً دقيقاً من المشكلات العميقة الخفية في عالم اللعبة .

وفي يوم من ذات الأيّام استدعى أستاذ اللعبة الماجستر لودي كنشت اليه ، واستقبله في داره وهو بملابس البيت ، وسأله عمّا إذا كان في إمكانه وعمّا إذا كان يسرّه أن يأتي اليه في الأيام القادمة بانتظام كل يوم نصف

---

(١) Thomas von der Trave

ساعة في وقت معيّن . لم يكن كنشت قد اختلى باستاذ اللعبة من قبل ، لهذا فقد أثار فيه هذا الطلب العجب . وقدم اليه الاستاذ رسالة مستفيضة ، اقتراحاً من بعض عازفي الأرغن ، اقتراحاً من بين الاقتراحات التي يقوم مجلس اللعبة الأعلى بفحصها . وأغلب هذه الاقتراحات يدور حول طلبات تلتمس قبول مادة جديدة في سجلات اللعبة في أحدها مثلاً تاريخ المدريجال ، كتبه بعضهم على نحو دقيق ، وبيّن أنه اكتشف وهو يتابع تاريخ الاسلوب منحنى بيانياً رسمه موسيقياً ورياضياً لكي يُضم الى الكنز اللغوي للعبة . ودرس آخر لاتينية يوليوس قيصر من ناحية مميزاتها الإيقاعية ووجد فيها توافقات بالغة الوضوح مع نتائج أبحاث مشهورة أجريت على الأزمان الموسيقية في الأناشيد الكنسية البيزنطية . وفي حالة أخرى اكتشف أحد الحالمين لغة عجيبة جديدة لكتابة النوت في القرن الخامس عشر . هذا عدا الخطابات العنيفة التي يبعث بها الباحثون المتطرّفون الذين يتوصّلون الى نتائج مدهشة عند مقارنة طوالع جوته وطوالع سبينوزا ويرفقون برسائلهم رسومات هندسية جميلة جداً كثيرة الألوان بالغة الوضوح . انهمك كنشت في الرسالة التي قدمت اليه . وكثيراً ماكانت اقتراحات مشابهة تدور برأسه وإن لم يكن يبعث بها . بل إن كل لاعب من لاعبي الكريات الزجاجية العاملين يحلم بتوسيع مستمر لمجالات اللعبة حتّى تشمل العالم كلّه ، أو أن هذه التوسيعات تكتمل في خياله وفي ممارسته الخاصة للعبة الكريات الزجاجية بصفة مستمرّة ، ويتمنّى أن يقوم أولئك الذين ابتكروا شيئاً بنقله من الصعيد الخاص الى الصعيد العام الرسمي . وتتمثّل المهارة الحقيقية العالية في اللعب على الصعيد الخاص في حالة اللاعبين الممتازين في تمكّنهم من السيطرة على مقوّمات قوانين اللعبة المتعلّقة بالصياغة والرسم والشكل سيطرة تجعل لهم القدرة على أن يُدخلوا في لعبة ما قيماً موضوعية وتاريخية وشخصية وتصوّرات فريدة . وفي ذلك قال أحد علماء النبات المعروفين كلمة طريفة :

«لابد أن يكون كل شيء ممكناً في اللعب بالكريّات الزجاجية ، حتّى أن يتكلّم نبات ما ـ على سبيل المثال ـ مع السيّد لينيه[1] باللغة اللاتينية» .

ساعد كنشت إذن الماجستر في تحليل المخطّط المقدّم . وانتهى نصف الساعة بسرعة . وفي اليوم التالي وصل في الموعد المحدّد ، وظلّ يتردّد على الماجستر هكذا اسبوعين ، يأتي الى الماجستر لودي ويعمل معه على انفراد نصف ساعة . ولاحظ كنشت في الأيام الأولى أن الماجستر يدعه يعالج في عناية ونقد المقترحات حتّى البسيط التافه منها التي يتّضح من النظرة الفاحصة الأولى أنها مقترحات لافائدة فيها ، واندهش لأن الاستاذ يفسح لأمثالها من وقته قسطاً . ومالبث أن تبيّن أن عمله ليس تأدية خدمة للاستاذ وحمل بعض العبء عنه ، وفهم أن هذه الأعمال مع مالها من أهمّية تتيح الفرصة للاستاذ لكي يمتحن المريد الشاب امتحاناً بالغ الدقة وفي أرق صورة . وحدث له هذه المرة شيء شبيه بما حدث له في أيّام طفولته عندما أتاه استاذ الموسيقى . وبدأ يتأكّد من ذلك بملاحظة تصرّف زملائه معه . فقد زاد تصرّفهم هيبة وابتعاداً ، بل أصبح أحياناً يتكلّف التبجّل على نحو فيه شيء من السخرية والتهكّم . كان هناك شيء يجري اعداده له . أحس هو بذلك ، وإن قلّت السعادة التي أحسّ بها تجاه ماسيحدث ، عن سعادته في المرة السابقة أيّام طفولته .

وفي الاجتماع الأخير قال له أستاذ لعبة الكريّات الزجاجية بصوته المهذّب المرتفع نوعاً ، وبلغته الواضحة التلفّظ العارية عن كل تكلّف : «حسناً ، لا حاجة بك الى أن تأتي إليّ غداً ، فقد انتهى عملنا الآن ، وسألتجئ إليك مرة ثانية عمّا قريب . شكراً جزيلاً على معاونتك . لقد كانت معاونتك عظيمة القيمة بالنسبة لي . وأنا أرى أن عليك الآن أن تتقدّم بطلب عضوية الطائفة وسوف لا تلقى صعوبات في إدارة الطائفة التي أحطّتها علماً بما يفيد ذلك . طبعاً أنت موافق ؟» ثمّ أضاف وهو ينهض : أريد أن أضيف

(١) Linne (١٧٠٧ ـ ١٧٧٨) عالم طبيعي سويدي كتب مؤلفاته باللاتينية . (المترجم)

الى حـديثي اليوم كلمـة : يبـدو أنّك تمـيـل ، كـجمـهـرة لاعبي الـكريّات الزجاجية في أوّل شبابهم أحياناً الى استخدام لعبتنا كآلة للتفلسف . وكلماتي وحـدها لن تـشـفـيك من ذلك المـيل . ولـكنّي مع ذلك أقـول لك : لاينبـغي أن يتـوسّل الإنسـان الى التـفلسف الا بالطرق المـشـروعة لذلـك والتي من بينهـا الفلسـفة . لعبتنا ليست فلسـفة ، وليسـت ديناً ، إنها مـادة خاصـة تقتـرب في صفتها أكثر القرب من الفن ، من فن فـريد في نوعه . لو تبيّن الانسـان هذه الحقيقـة لكان له في ذلك سبيلاً للتقدّم ، ولكن ذلك خيراً من لو لم يتبيّنها ، وظلّ يفشل ويفـشل مائة مرة ، حتّى ينتهي في آخر الأمر اليهـا . وقد قـال الفيلسوف كـانط ـ ذلك الـفيلسـوف الذي قليـلاً ما يعرفـه الناس حق معـرفتـه وعلى مجال أوسع من مجال معـرفتـهم إيّاه كـفيلسـوف ، فقد كـان عقـلاً رفيع المستوى ـ قال عن التفلسف اللاهوتي إنه مصباح سحري لتهيؤات التخريف . ولايحق لنا أن نحوّل لعبتنا الى هذا » .

كان هذا الكلام مفاجأة ليوزف ، ولم يسمع التنبيه الأخير حق السمع لفرط انفعـاله ، وفي لمـح البصر جال بخاطره : هذه الكلمـات معنـاها نهـاية حـرّيتـه ، معناها ختـام زمن دراسـاته والالتحـاق بـالطائفـة والانخـراط في النظام الهرمي . وشكر يوزف بإنـحناءة عمـيقـة ، ثمّ ذهب من فوره الى مـسـتـشـاريـة الطائفـة في فالدتسل ، فوجد اسمه قد سجّل فعلاً في قائمة المقبولين الجدد . كان يعرف ، مثله مثل جميع طلبة صفّه قواعد الطائفة معرفة دقيقة ، ويذكر منها أن كل عضو بالطائفة يشغل وظيفة رسمية من المستوى العالي ، له سلطة تنفيذ اجراءات قبـول الأعضـاء الجدد . لهذا رجا أن يقـوم أستـاذ الموسـيقى بتنفيـذ اجراءات وشعائر قبوله في الطائفة . وتلقّى بطاقة شخصية وحصل على إجازة قصيرة ورحل في اليـوم التـالي الى صـاحب الفضل عليه وصـديقه مونتـيبـورت . وهناك وجد الرجل المسن يعاني من بعض الآلام ، ولكنه وجد منه الترحيب والفرح .

وقال لـه الشيخ : « كأنّك على موعد ، فعمّا قريب ستنتهي الصلاحيّات

التي لدي والتي تخولني سلطة القيام بإجراءات وشعائر قبولك كأخ جديد في الطائفة . فأنا أستعد للتخلّي عن منصبي ، وقد قبلت استقالتي فعلاً » .

كانت حفلة القبول ذاتها بسيطة . ففي اليوم التالي دعا استاذ الموسيقى حسب متطلّبات اللوائح ، اثنين من أخوان الطائفة كشاهدين ، وكان كنشت قد تلقّى قبل ذلك جملة مأخوذة من نظام الطائفة لكي يتمرّن عليها كتمرين للتأمّل . كانت الجملة هي : « إذا استدعتك السلطة العليا لتشغل منصباً ، فاعلم : أن كل ترقّ في الوظائف ليس خطوة الى الحرية بل خطوة الى التقيّد . وكلّما علت الوظيفة كلّما زاد القيد . وكلّما عظمت سلطة المنصب ، كلّما قست الخدمة ، وكلّما قويت الشخصية ، كلّما زاد استهجان التعنّت » . واجتمع المجتمعون في صومعة الموسيقى ، في الصومعة نفسها التي تلقّى فيها قديماً الدرس الأول في فن التأمّل ، وطلب الاستاذ الى العضو الجديد أن يعزف تحية للساعة مقدمة كورال باخ ، ثمّ تلا أحد الشاهدين ملخّص لائحة الطائفة فلمّا فرغ من تلاوته وجّه استاذ الموسيقى بنفسه الأسئلة التقليدية وتلقّى عهد الصديق الجديد . ثمّ منحه ساعة من وقته . وجلسا في الحديقة معاً حيث أعطاه الاستاذ توجيهات ودّية في كيفية اعتناق لائحة الطائفة والحياة تبعاً لها . ثمّ قال : « جميل أنّك تدخل في الوقت الذي أخرج فيه فتملأ الفراغ ، كأنّ لي ابناً سيحمل في المستقبل اسمي » . فلمّا رأى الاستاذ وجه يوزف يكتئب قال له : « لا تكتئب ، وأنا أيضاً لا أكتئب ، لقد تعبت ويسرّني أن أنال الهدوء الذي أنشد التمتّع به متعة سيكون لك فيها نصيب . هذا هو ماأتمنّاه . وعندما نلتقي في المرّة القادمة فنادني بـ« أنت » بلا كلفة . وأنا لم أكن أستطيع أن أعرض عليك أن ترفع الكلفة بيننا طالما كنت أشغل المنصب » . ثمّ ودّعه بابتسامته التي تستهوي الأفئدة ، والتي يعرفها يوزف منذ عشرين عاماً .

وأسرع كنشت عائداً الى فالدتسل ، لم يكن لديه سوى ثلاثة أيّام عطلة . وماكاد يصل حتّى استدعاه الماجستر لودي واستقبله ببشاشة الزميل

يستقبل زميله ، وهنّأه على قبوله في الطائفة . ثمّ قال : « لم يبق ، حتّى تنتهي في النهاية الى أن نصبح زملاء ورفاق عمل ، إلا أن تتخذ مكاناً معيّناً في نظامنا الهرمي » . فهلع يوزف بعض الهلع . لقد آن وقت فقدانه حرّيته . وقال في خجل : « آه ، أرجو أن أوضع في مكان متواضع واعترف لكم ، إنني كنت أتمنّى لو استطعت الاستمرار في الدراسة فترة » . فنظر الماجستر لودي في عينيه نظرة صحبتها ابتسامة ذكية فيها شيء من التهكّم . ثمّ قال : « تقول فترة . ولكن ما طولها ؟ » . فضحك كنشت مرتبكاً وقال : « لا أعرف على وجه التحديد » . ـ فقال الماجستر موافقاً : « هذا ماخطر ببالي أيضاً . أنت ماتزال تتكلّم لغة الطلبة ، وهذا شيء لابأس به ، ولكن بعد قليل سيكون به بأس ، لأننا في حاجة اليك . وأنت تعلم أنّك في المستقبل ، حتّى إذا كنت تشغل المناصب العليا بالهيئة ، تستطيع أن تحصل على إجازات دراسية ، إذا مااقنعت الهيئة بقيمة الدراسة التي تنوي القيام بها . وقد حصل سلفي ، وهو في منصب ماجستر لودي وفي سن متقدّمة إجازة لمدة سنة كاملة ليجري دراسات في لندن عن السجلاّت . ولكنه لم يحصل على إجازته « لفترة ما » وإنما حصل على عدد محدود من الشهور والأسابيع والأيام . وسيكون لك مثل هذا في المستقبل . والآن أريد أن أقترح عليك اقتراحاً ، إننا نريد رجلاً مسؤولاً لا يعرفه أحد حتّى الآن خارج نطاق دائرتنا ، لنكلّفه بمهمّة خاصة » .

وكانت هذه المهمة الخاصة عبارة عن الآتي : كان دير البندكتينيين ماريافلس[1] وهو من أقدم المراكز التربوية في البلاد ، على علاقات طيبة بكاستاليا . وكان خاصة منذ عشرات السنين يبدي ميلاً للعبة الكريات الزجاجية ، وطلب الحصول على مدرّس شاب لفترة ما ليعطي الدروس الأوّلية للعبة ويشجّع لاعبي الدير المتقدّمين . فوقع اختيار الماجسترعلى يوزف كنشت . وكان هو السبب الذي حمله الى اختباره اختباراً دقيقاً وعجّل بقبوله في الطائفة .

(١) Das Benediktinekloster Mariafels

الفصل الرابع

طائفتان

حدث ليوزف إذن شيء يشبه في جوانب كثيرة ما حدث له قديماً أيام كان في المدرسة الابتدائية بعد زيارة أستاذ الموسيقى . ولم يفكّر يوزف في أن استدعاءه الى ماريافلس يشكّل تمييزاً خاصاً ، وخطوة أولى هامة على سلّم التمييز الهرمي ، ولكنه لاحظ على أية حال شيئاً من هذا بوضوح وهو ينظر بانتباه الى تصرّف زملائه تجاهه . كان منذ فترة من الوقت يدخل بين صفوة لاعبي الكريات الزجاجية في أخلص زمره ، وها هو ذا الآن وقد كلّف بهذه المهمّة غير العادية قد تميّز تميّزاً أوضح ، يعني أن الكبار يضعون أعينهم عليه وأنهم يفكّرون في استخدامه . ولم ينتج عن ذلك التطوّر أن تراجع عنه رفاق الأمس أو تصرّفوا حياله تصرّفاً خشناً ، فهذا شيء لم يكن ليحدث في هذا العصر الارستقراطي . وإنّما الذي حدث هو تباعد لأنه بات أنه من المحتمل أن يتحوّل زميل الأمس الى رئيس بعد الغد ، وكان هذا التباعد طبيعياً في هذا الوسط الذي اعتاد أن يبرز الفروق والاختلافات في الدرجات والرتب ابرازاً يتّضح في سلوك الأفراد الواحد مع الآخر ، ويتمثّل في خلجات بالغة الرقة .

ولم يشذ عن تلك القاعدة سوى فريتس تيجولاريوس الذي يصح أن نعتبره ، الى جانب فيرمونته ، أخلص صديق في حياة يوزف كنشت . كان

هذا الرجل يجمع مواهب تؤهله لبلوغ أعلى المراتب ، ولايعوقه عن بلوغها عوقاً كبيراً الا نقص في صحّته ونقص في اتزانه ونقص في ثقته بنفسه . كان هذا الرجل في مثل سن كنشت ، أي كان في وقت قبول كنشت عضواً بالطائفة في نحو الرابعة والثلاثين من عمره ، وكان اللقاء بينهما قد تمّ قبل عشر سنوات في حلقة دراسية من حلقات لعبة الكريّات الزجاجية ، وشعر كنشت آنذاك كيف أن هذا الشاب الهادئ المائل الى الحزن يحس في نفسه إنجذاباً اليه . وشعر كنشت بنوع هذا الحب ، بفضل حاسة استشعار يتميّز بها ، وكانت في ذلك الوقت لاشعورية . كان هذا الحب عبارة عن صداقة مستعدة للاستسلام بغير شروط ، ومستعدّة للانضواء ، كان عبارة عن تبجيل يتأجّج بتهويم له سمة توشك أن تكون دينية ، ولكنه يستظل ويتقيّد بعظمة كامنة في باطنه وبشعور واعٍ بالمأساة الباطنية . كان كنشت في ذلك الوقت مازال متأثّراً ببقايا عصر ديزنيوري ، حساساً ، شكاكاً . فجعل بينه وبين تيجورلاريوس بُعداً أبقاه وتمسّك بإبقائه على نحو صارم ، رغم أنه كان يحسّ بنفسه ميالاً الى ذلك الزميل الطريف غير العادي . ونحن في تحديدنا لشخصية تيجولاريوس نقدر قيمة ورقة من مذكرات كنشت الرسمية السرية كان قد رفعها بعد ذلك بسنين الى الهيئة العليا لاستخدامها الخاص دون سواه . في هذه الورقة نجد ما يلي :

«تيجولاريوس تربطه برئيس القسم صداقة خاصة .كان في كويبر هايم تلميذاً حصل على درجات الامتياز مراراً ، وتخصّص في الفيلولوجيا القديمة وأجادها ، وهو يهتم بالفلسفة اهتماماً كبيراً وله أبحاث عن لايبنتس وبولتسانو[١] ثم أفلاطون . إنه أكثر لاعبي الكريات الزجاجية الذين أعرفهم براعة وموهبة . وهو الماجستر لودي الملهم ، لو لم تكن صحّته الرقيقة تضفي عليه مسحه تجعله لايصلح قط لهذه الرتبة . لا يصلح أن يصل تيجولاريوس

(١) Bolzano

أبداً الى مركز رئيسي أو تمثيلي أو تنظيمي لأن ذلك يعني بالنسبة له وبالنسبة للوظيفة مصيبة . وناحية الضعف فيه تتمثّل جسمانيّاً في حالات هبوط واكتئاب ، وفي فترات من الأرق ومن الحالات العصبية ، وتتمثّل نفسياً أحياناً في الميلانكوليا وفي الحاجة الى العزلة ، وفي الخوف من الواجب والمسؤولية ، بل وربّما في التفكير في الانتحار . ولكنه رغم هذه الأخطار ، يصلب عوده في شجاعة ، بفضل التأمّل ، وبفضل تربية ذاتية عظيمة ، حتّى أن الكثيرين ممن يحيطون به لايشعرون بشدة آلامه ولا يلاحظون عليه إلا خجلاً وانطواءً كبيرين . وإذا كان تيجولاريوس للأسف لا يصلح للرتب العليا ، فإنه بالنسبة لمدينة اللاعبين جوهرة وكنزاً لا يعوّضان . فهو يتقن تكنيك لعبتنا إتقان الموسيقي البارع تكنيك آلته ،ويتبيّن بمنتهى السهولة أقل الفروق ، هذا إلى أنه كمدرّس لا تنكر قيمته ، وأنا في الفصول الثانوية والعالية ـ وخسارة أن يستخدم لفصول أقل من هذا ـ لا أكاد أعرف كيف أدرّس بدونه . إنه فريد بنوعه عندما يحلّل تجارب الألعاب التي يقوم بها الصبية دون أن يفت في عضدهم ، فريد في نوعه في قدرته على كشف الألاعيب واكتشاف العناصر المقلّدة أو الموضوعة بلا داع ، وفي إبرازها دون خطأ مجرّدة للعيان ، وفي قدرته على التوصّل الى مكامن العيب في لعبة قائمة على أساس جيد ، ولكن لم تصل الى الكمال ، وفي إظهارها كما لو كانت تركيبة تشريحية . هذه النظرة الحادة التي لا تخطئ في التحليل والتصويب هي التي جلبت له احترام التلاميذ والزملاء وما كان ليحصل على هذا الاحترام قط نتيجة لتصرّفه المضطرب المتفاوت الخجول الهيّاب . وأودّ الآن أن أذكر مثالاً أوضح بما قلته عن عبقرية تيجولاوس كلاعب كريّات زجاجية لا نظير له ، كان ذلك في الوقت الأول لصداقته ، وكنّا في الحلقات الدراسية قد تجاوزنا مرحلة تعلّم التكتيك ، إذ أطلعني في ساعة من ساعات الثقة البالغة على بضعة ألعاب كان قد ألّفها . فوجدتها أوّل وهلة رائعة ، وجديدة في بابها على نحو ما ، وأصيلة

في اسلوبها ، فرجوته أن يعطيني الخطط الخاصة بهذه الألعاب كي أدرسها . فلمّا درستها تبيّنت أنها عبارة عن تأليفات تستحق أن تعتبر مؤلّفات أدبية وأنها تحتوي على شيء مدهش فريد ، لاأعتقد أن من حقي أن أخفي أمره هنا . كانت هذه الألعاب عبارة عن مسرحيّات صغيرة توشك أن تكون مونولوجية البناء وتعكس الحياة الفكرية الفردية لصاحبها في عبقريتها وتعرّضها للآلام وكأنها صورة رسمها صاحبها لنفسه . لم يقف الأمر فيها عند حد تجميع العناصر المختلفة التي تعتمد عليها اللعبة ، والتي كانت متتابعة أو متقابلة فيها على نحو بديع ، لم يقف الأمر عند حد تجميعها وتفريقها جدلياً ، بل تجاوز ذلك الى تركيب وتوفيق الأصوات المتضادة ، لاعلى الطريقة المألوفة ، أعني الطريقة الكلاسيكية على أبدع نحو ممكن ، بل إنّ هذا التوفيق ، كانت تتخلّله قطعات ، فيقف عند كل قطع كأنه متعب يائس على وشك التحلّل ويذوب في تساؤل وشك . واكتسبت الألعاب نتيجة لذلك صبغة مثيرة لم يتجرّأ عليها ، فيما أعرف ، إنسان من قبل ، بل تحوّلت الألعاب كلّها الى تعبير عن الشك التراجيكي والزهد التراجيكي ، والى التسجيل المصوّر لحيرة كل جهد فكري . وكانت علاوة على ذلك تمتاز من الناحية الفكرية ومن ناحية الجمال والكمال الفنّيين بحلاوة خارقة للمألوف حتّى لتكاد تبكي من يتأمّلها . كانت كل لعبة من هذه الألعاب تسعى في باطنها جدّياً الى الوصول الى حل ، وفي نفس الوقت تزهد فيه بترفّع كريم . كانت كقصيدة حزينة ممتازة فيها حزن على ما يحتويه كل شيء جميل في باطنه من حتمية الفناء ، وما تحتويه كل الأهداف الفكرية العالية في باطنها من حيرة ـ والخلاصة ، أنني أوصي بتيجولاريوس ، في حالة وفاتي أو بقائه في العمل بعد خروجي ، وبأن يُنظر اليه كشيء رقيق ثمين ولكن مصاب ينبغي أن يتمتّع بكثير من الحرّية وينبغي أن تُسمع مشورته في كل أمور اللعبة ، وأن تُعرف أهمّيتها ولا يصح أن يُوكل إليه وحده أمر قيادة التلاميذ » .

أصبح هذا الرجل العجيب بمرور الأيام صديق كنشت حقاً وصدقاً . وكان يكن لكنشت تفانياً مؤثراً ، ويُعجب فيه بفكره وبشيء كسيادة فطرية . وكثيرٌ مما بلغنا عن كنشت ، نقله الينا صديقه هذا . وربما كان تيجولاريوس الوحيد بين شباب لاعبي الكريّات الزجاجية المقرّبين من كنشت ، الذي لم يحسد صديقه على المهمة التي أنيط بها اليه ، والوحيد الذي أحس بألم عميق يكاد لا يحتمل ، وبخسارة نتيجة لغياب كنشت لمدة غير محدّدة .

أمّا يوزف ، فبعد أن تغلّب على فزعه من الضياع المفاجيء لحرّيته الحبيبة ، فرح بوضعه الجديد ، وأحسّ برغبة في العمل وشغف بمعرفة الدنيا الغريبة التي تقرّر ارساله اليها ، هذا ، ولم تترك الطائفة الأخ الغرير يرحل الى ماريا فلس هكذا بكل بساطة ، إنما وضعته لمدة ثلاثة أسابيع في « الشرطة » . والشرطة هي الاسم الذي كان الطلبة يطلقونه على الإدارة الصغيرة في جهاز الهيئة التربوية والذي يمكن أن يسمّيه الانسان مكتبها السياسي أو وزارة خارجيتها ، وإن كانت هذه أسماء طنّانة أكبر من أن تناسب هذه الادارة الصغيرة . هناك تعلّم قواعد تصرف أعضاء الطائفة عندما يقيمون في الخارج ، وكان الهردوبوا[١] ، رئيس هذه الإدارة ، يخصّص كل يوم ساعة تقريباً من وقته . وكان هذا الرجل الدقيق يحس بالقلق نحو ارسال شاب غرير ، يجهل أحوال العالم جهلاً تاماً ، الى مثل هذا المنصب الخارجي . ولم يكن يخفي عدم موافقته على قرار أستاذ لعبة الكريّات الزجاجية القاضي بذلك ، وكان يبذل جهداً مضاعفاً في سبيل تبصير العضو الشاب بمخاطر الدنيا وبوسائل مواجهتها ويعتني بذلك عناية ودّية . وتلاقى التفكير القلق في أبوه ، المخلص من جانب الرئيس ، مع رغبة الشاب في تقبّل التعليم ، تلاقياً موفقاً حتّى كسب كنشت حب معلّمه في أثناء حصص

(١) Herr Dubois

تعليمه قواعد التصرّف حيال الدنيا ، وانتهى الأمر بأن هدأ هذا من روع تلميذه وتركه ينصرف الى مهمته بكل ثقة ، بل أنه حاول ، على سبيل المودّة أكثر منه على سبيل السياسة ، أن يكلّفه من جانبه بشيء يشبه المهمّة ، كان الهوردبوا واحداً من سياسيي كاستاليا القلائل ، واحداً من تلك المجموعة الصغيرة من الموظّفين الذين كرّسوا أفكارهم ودراساتهم بقدرة كبيرة للحفاظ على بقاء كاستاليا من ناحية القانون الدولي والاقتصاد ، على علاقتها بالعالم الخارجي واستقلالها عنه . وأغلب الكاستاليين ، سواء منهم الموظّفون أو العلماء أو الطلاب ، كانوا يعيشون في إقليمهم التربوي عيشتهم في دنيا مستقرّة ، خالدة بديهية ، يعلمون طبعاً أنها لم تكن موجودة منذ وجدت الخليقة ، بل نشأت مرة نشأة بطيئة في عصور محنة أليمة وسط صراعات مريرة ، في آخر عصر الحروب ، نشأت نابعة من تقرير المصير الذاتي على الصعيد الزاهد البطولي ، ومن جهود أهل الفكر ، كما لو كانت نابعة من الحاجة الملحّة للشعوب الهالكة النازفة الضائعة ، الى النظام والمعيار والعقل والقانون والاعتدال . كانوا يعلمون هذا ويعرفون وظيفة جميع طوائف و«أقاليم» الدنيا : وهي الامتناع عن الحكم وعن التنافس وتأكيد ثبات ودوام الأسس الفكرية لجميع المقاييس والقوانين ، ولكنهم كانوا يجهلون أن نظام الأشياء على هذا النحو ليس أمراً عادياً بديهيّاً ، وأن هذا النظام يفترض توافقاً خاصاً بين الدنيا وبين الفكر الذي يمكن أن يعتريه الاضطراب في أي وقت ، وأن تاريخ الدنيا في مجموعة لايسعى الى تحقيق ماهو مرغوب وماهو جميل وماهو معقول ، ولا يحبّذه ، بل يقبله على الأكثر من حين لآخر من قبيل الاستثناء ، ولم يكن الكاستاليّون في مجموعهم يعرفون الأشكال الخفية لكيانهم الكاستالي ويتركون أمره لحكم هؤلاء السياسيّين الذين منهم الرئيس دوبوا . تعلّم كنشت من الرئيس دوبوا ، بعد أن اكتسب ثقته ، قسطاً ابتدائياً من الأسس السياسية لكاستاليا ، لاح له

في أوّل الأمر منفراً وغير مفيد كما كان يلوح لغالبية أعضاء الطائفة ، ثمّ مالبث أن ذكّره بملاحظة ديزنيوري عن إمكانية تعرّض كاستاليا للخطر ، وذكّره معها ببقية المرارة التي ترسّبت لديه من مناقشاته مع بلينيو أيّام الصبا ، تلك التي بدت وكأنّ النسيان قد طواها ، فاهتم له فجأة اهتماماً بالغاً حتّى أصبح درجة في سلّم يقظته .

وفي نهاية آخر لقاء لكنشت مع الهردوبوا قال له هذا : «أعتقد أنني أستطيع أن أتركك ترحل الآن . وأنت ستتمسّك بلا شك بمهمتك التي كلّفك بها الاستاذ الجليل الماجستر لودي ، وستتمسّك كذلك بقواعد السلوك التي زوّدناك بها هنا . وقد سرّني أن تمكّنت من مساعدتك . وستتبيّن أن الأسابيع الثلاثة التي قضيتها هنا لم تكن وقتاً ضائعاً . وإن أحببت يوماً أن تعبّر لي عن رضاك عن المعلومات التي أعطيتك إياها وعن تعرّف بعضنا ببعض ، فسأبيّن لك الطريق الى ذلك . أنت ذاهب الى دير البندكتينيين ، وأنت لو كسبت ثقة الآباء هناك فربّما تمكّنت من الاستماع الى أحاديث سياسية ، والاحساس بالميول السياسية في دائرة هؤلاء السادة الأجلاّء وضيوفهم . وسأكون شاكراً لك ، لو تكرّمت فخابرتني من حين لحين بشيء من ذلك . وأرجو أن تحسن فهمي : ليس عليك أن تخبرني بشيء لايوافقك عليه ضميرك . وأنا أضمن لك بأننا لن نستخدم مثل هذه المعلومات إلا في صالح طائفتنا واقليمنا كاستاليا . ونحن لسنا سياسيين بالمعنى الصحيح وليست لنا أية سلطة ، ولكننا أيضاً نعتمد على الدنيا اعتماداً أساسيّاً ، الدنيا التي تحتاجنا أو تتحمّلنا . وربّما أفادنا الالمام بأخبار مثل زيارة أحد الساسة للدير ، أو مرض البابا ، أو وضع أسماء مرشّحين جدد على قائمة كرادلة المستقبل . ونحن لن نعتمد على أخبارك اعتماداً كلّياً وجزئيّاً ، لأن لنا مصادر عديدة ، ولكن إذا زادت مصادرنا واحداً صغيرا فلابأس . اذهب الآن ، ولا حاجة بك الآن الى أن تجيب على اقتراحي بقبول أو رفض .

ولاتعقد عزمك على فعل شيء أكثر من تأدية مهمتك الرسمية تأدية جيدة ومن تشريفنا لدى الآباء الدينيّين . وأتمنّى لك رحلة طيبة » .

والتمس كنشت طالعه في كتاب التحوّرات قبل البدء في رحلته : عالج عيدان الحزنبل ، فتوصّل الى الرمز « لو » ، ووجد تفسيره : « الجوّال » ومعه الحكم التالي : « نجاح عن طريق شيء بسيط . وفي الثبات خلاص الجوّال » .

ووجد « ستة » في الموضع الثاني فالتمس تأويلها في الكتاب فوجد :

يأتي الجوّال الى الدار .

ومعه مايملك .

فينال ثبات خادم شاب .

وتمّ الوداع في بهجة ، باستثناء المقابلة الأخيرة مع تيجولاريوس ، فقد كانت بالنسبة للاثنين امتحاناً عصيباً لقدرتهما على التحمّل . أمّا فريتس فتجشّم جهداً جهيداً وأجبر نفسه على البرود فبدا كالمتجمّد ، إذ أنه كان يرى أن فراق صديقه يعني ضياع أحسن ما عنده . وأمّا كنشت فلم يكن يسمح لنفسه بالارتباط العاطفي ، بالارتباط الأوحد بصديق ما ، وكان يستطيع إذا دعت الضرورة أن يعيش بغير صديق ، وأن يحوّل شعاع تعاطفه بلا تردّد الى أشياء جديدة وأناس جدد . لهذا فلم يكن الوداع بالنسبة اليه خسارة جسيمة . ولكنه كان يعرف الصديق معرفة جيدة تكفي لكي يقدّر مدى الصدمة والبلاء اللذين يعنيهما هذا الفراق بالنسبة اليه ولكي يأسى عليه . وكان قد فكّر من قبل في أمر هذه الصداقة مراراً وفاتح استاذ الموسيقى مرة بشأنها ، وتعلّم الى درجة معيّنة أن يجعل خبراته الشخصية وإحساسه موضوعيين ، وأن ينظر اليهما نظرة الناقد . واتضح له أن ما يربطه بصديقه على هذا النحو ويضفي على هذا الرباط شيئاً كالعاطفة ، ليس في الحقيقة موهبة الآخر العظيمة وحدها وإنّما امتزاج هذه الموهبة بنواحي عجز كبير فيه ، بل بعاهة كبيرة . وأنّ الحب الذي يظهره له تيجولاريوس ،

والذي يتميّز بالميل الى جانب دون سواه وبالميل الى الاستئثار الكامل ، حب ذو سحر جميل لكنه خطير ، إنه حب له ناحية جميلة ولكنّها خطيرة ، وهي غواية من كان ضعيف القوة ـ لاضعيف الحب ـ بحيث يجعل الآخر يحسّ بسلطانه ، وأخذ كنشت نفسه في أمر هذه الصداقة بالتحفّظ ، وتدريب الذات على الواجب حتّى النهاية . ولم يكن الأمر ، مهّما كان حبّه لكنشت من القوة ، ليكتسب هذا المعنى العميق في حياة كنشت ، لو لم تكن صداقته ، صداقة الصديق الرقيق المبهور بقوة صاحبه واعتداده قد عرّفت كنشت بقوة جاذبيّته وسلطته اللتين تمكّنانه من التأثير على بعض الناس . وعرف كيف يحسّ بأن بعض هذه القوة التي تجذب الناس وتؤثّر عليهم ، يتّصل بمهنة المعلّم والمربّي اتّصالاً جوهريّاً ، وأنه يكن مخاطر ويفرض مسؤوليّات ، وكان تيجولاريوس واحداً فقط من كثيرين ، كان كنشت يرى نفسه معرّضاً لنظراتهم المتوسّلة . وفي الوقت نفسه أحسّ في السنوات الماضية احساساً متزايد الوضوح والوعي بالجو البالغ التوتّر الذي يعيش فيه في مدينة اللاعبين . كان هناك يدخل في زمرة مجموعة غير رسمية ، ولكنها محددة تحديداً تاماً ، تضم خيرة طلاب ومعيدي لعبة الكريّات الزجاجية ، مجموعة ربّما استدعي واحد منها لمساعدة الماجستر أو أمين السجلات أو للمعاونة في حلقات الدراسة الخاصة باللعبة ، ولكنّها مجموعة لم ينقل واحد منها الى الدرجة السفلى أو الوسطى في سلك الموظّفين أو المعلّمين ، كانت هذه مجموعة تضم احتياطاً لشغل المراكز القيادية . كان كل فرد فيها يعرف زميله معرفة جيدة دقيقة ، بالغة الدقة ، ولم يكن يمكن فيها أن يخدع أحد في موهبة آخر أو في خلقه أو جهوده . ونظراً لأن كل واحد من هؤلاء المعيدين في دراسات لعبة الكريّات الزجاجية ومن هؤلاء المتطلّعين الى المناصب العليا ، كان يعتبر نفسه قوة فوق المتوسّط ، قوة لها قيمتها ، ويعتبر بجهوده وعلمه وشهاداته من أهل الرتبة العليا ، فإن كل صفات وألوان

الشخصيّات التي تهيّئ المرشّح ليصبح قائداً زعيماً أو رجلاً ناجحاً كانت تلعب دوراً عظيماً وتلقي انتباهاً واعياً . هنا تلعب درجة الإيجاب أو السلب في الطموح أو في السلوك الحسن ، أو في بسطة الجسم أو في المظهر الجميل ، ، والايجاب البسيط أو السلب البسيط في فتنة الصغار والسلطات والتأثير عليهما ، أو في الظرف ، دوراً هاماً له وزنه في حسم المناقشة . وهكذا كان تيجولاريوس في المجموعة شخصاً على الهامش أو ضيفاً أو شخصاً يتحمّله الآخرون تحمّلاً ، ويقف على حافة الدائرة لأنه كان من الواضح أنه يفتقر الى مواهب السيطرة ، بينما كان كنشت يحتل نقطة المركز في المجموعة . كان كنشت يتميّز بميّزات جلبت له المعجبين وقرّبته الى من يصغرونه وهي نضارته ، وطلاوته التي كانت لاتزال كاملة الشباب ، والتي كانت في ظاهرها قوية ، محكمة ممتنعة عن العواطف ، وكانت في نفس الوقت تلوح مجرّدة عن المسؤولية كالأطفال ، كانت هذه النضارة ، وهذه الطلاوة هي البراءة على نحو ما ، أمّا ما حبّب فيه الرؤساء فكان الناحية الأخرى لهذه البراءة : وهي تجرّده ، الذي يوشك أن يكون تاماً ، من الطموح والسعي .

في الفترة الأخيرة كانت تأثيرات شخصيّته التي بدأت أوّلاً تشمل بالتدريج من هم دونه ، ثمّ تقدّمت لتصل الى من هم فوقه ، كانت هذه التأثيرات قد اتضحت له وعندما ينظر من نقطة صحوته الى الوراء يتبيّن خطّين يصلان الى فترة طفولته ويشقّان طريقهما عبر حياته ويشكّلانها : من ناحية الصداقة التي كان زملاؤه يعرضونها عليه ويعرضها عليه من يصغرونه سنّاً ، ومن ناحية ثانية الاهتمام الودّي الذي كان الكثيرون من رؤسائه يعاملونه به . أمّا الحالات الاستثنائية التي تعرّض لها ، مثل حالة الناظر تسبيندن ، فكانت تقابلها ألوان من التكريم ، مثل عناية استاذ الموسيقى ، وأخيراً عناية السيد دوبوا والماجستر لودي ، لم يكن هذا يحتمل إلا معنى

واحداً ، ولكن كنشت لم يرد قط أن يبصر به كاملاً ويعتبره واقعاً ، كان الطريق واضحاً للعيان ، الطريق المرسوم المؤدّي في كل مكان وبلا سعي الى الصفوة ، المؤدّي الى ملاقاة أصدقاء معجبين ومساندين من أصحاب المراكز العليا ، كان طريقه هذا لا يسمح له بأن يستقرّ عند قاع النظام الهرمي في الظلام ، بل يقرّبه دائماً باستمرار من القمة ومن النور الواضح الذي ترتفع فيه القمة . لم يكن كنشت ليصبح موظفاً تابعاً أو عالماً خاصاً ، بل كان ليصبح سيداً . أمّا أنه لم يحس بذلك إلا متأخّراً عن آخرين من أقرانه ، فشيء أضفى عليه مزيداً من الفتنة لا يوصف . وأضفى عليه مسحة البراءة التي ألمحنا إليها . لكن لماذا تأخّر إحساسه بذلك على هذا النحو ؟ ولماذا أحسّ بذلك على مضض ؟ لأنه لم يسع الى هذا كلّه ولم يرد السعي اليه ، ولأن السيادة والسيطرة لم تكن حاجة من حاجاته ، ولأن الأمر لم يكن متعة ، ولأنه كان يفضّل الحياة التأمّلية على الحياة النشطة ، ولأنه كان سينال الرضا سنين طوالاً ، بل طول حياته ، لو بقي طالباً لايلحظه أحد ، وظلّ حاجاً شغوفاً يحج الى مقدّسات الماضي ، وبيع الموسيقى ، ورياض وغابات الاساطير واللغات والأفكار . والآن ، بعد أن رأى كيف زُجّ به الى الحياة النشيطة بلا رجعة ، أحس إحساساً شديد القوة على نحو لم يعهده من قبل بتوتّرات السعي والمنافسة والطموح فيما حوله ، أحس ببراءته مهددة في وجودها وبقائها ، وفهم أن عليه أن يريد وأن يقبل ما أنيط به وما حدّد له ليتغلّب على الشعور بالحبس والأسر والى الحنين الى الحرّية المفقودة التي تمتّع بها طوال السنين العشر الماضية . ولمّا كان في داخله حتّى ذلك الحين لايجد الاستعداد التام لهذا التحوّل ، فقد اعتبر وداعه المؤقّت لفالدتسل وللاقليم ورحلته الى الدنيا خلاصاً .

كان دير ووَقْف ماريافلس على مر القرون التي انقضت على نشأته قد اشترك في تسيير تاريخ الغرب وقاسى نصيبه منه ، كان له أوقات ازدهار

وأوقات أفول ، وعصور نهضة وعصور تدهور الى الحضيض ، وكان في بعض الأزمان وفي بعض الميادين مشهوراً باهراً . كان قديماً معقل فقه المدرسية ومعقل فن الجدل . وهو الآن يمتلك مكتبة هائلة تضم مؤلّفات اللاهوت من العصر الوسيط وهو قد صحا من غفوته وكسله وارتفع الى ازدهار جديد بفضل العناية بالموسيقى ، وبفضل كوراله الذي حظي بامتداح كثير ، وبفضل الصلوات والتواشيح التي كتبها آباؤه المبجّلون وأدّوها . كان الدير لايزال يمتلك تقاليد موسيقية قديمة جميلة ، ويمتلك ستة صناديق خشبية مليئة بالمخطوطات الموسيقية ويمتلك أجمل أرغن في البلاد كلّها . ثمّ أتى على الدير عصره السياسي . وكان لعصره السياسي أيضاً تقاليد من نوع ما ، خلفها وخلف معها نوعاً من الدربة . وطالما أصبح دير ماريافلس في أوقات العنف الحربي الشديد جزيرة للتأمّل والعقل ، يسعى أولو الألباب من الجانبين المتعادلين اليها في حذر فيلقى بعضهم ببعض ، ويلتمسون طريقاً الى التفاهم ، ـ بل وقد شهد دير ماريافلس ـ وتلك آخر ذروة بلغها في تاريخه ـ مولد اتّفاقية سلام شفت غليل شعوب متهالكة حيناً . ثمّ بدأ عصر جديد ، شهد نشأة كاستاليا فلزم الدير الترقّب ، بل وسلك تجاه كاستاليا سبيل الرفض والصدود ، بعد أن تلقّى ـ من روما أوامر بهذا . وحدث أن تقدّمت السلطة التربوية الى الدير بطلب تلتمس فيه التكرّم بالسماح لبعض العلماء لفترة ما بالعمل بمكتبة الدير المدرسية ، فرفض الدير بأدب ، كذلك رفض الدير دعوة وجّهتها كاستاليا اليه لإرسال مندوب عنه يحضر مؤتمراً خاصاً بتاريخ الموسيقى حتّى أتى عصر الأب بيوس(١) الذي اهتم وهو في سن متقدّمة بلعبة الكريّات الزجاجية ، فبدأ الاتصال والتبادل اللذان تطورا الى علاقة استمرّت منذ ذلك الحين . فتبادل الجانبان الكتب وأكرم كل وفادة القادم من الجانب الآخر . كذلك كان استاذ الموسيقى ، صاحب الفضل على

---

(١) Pius

كنشت ، في سنيّ شبابه في ماريافلس ، حيث أمضى بضعة أسابيع ونسخ نوتا موسيقية لماريافلس ويحس بالفرح لأنه سيقيم في مكان كان أستاذه المبجّل يحب أن يحكي عنه مسروراً من حين لآخر .

وقوبل كنشت في الدير ، خيراً مما توقّع ، بتكريم وحفاوة أوشكا أن يدفعا به الى الاضطراب والحيرة . والحق أنها كانت المرة الأولى التي تضع فيها كاستاليا تحت تصرّف الدير مدرّساً للعبة الكريّات الزجاجية من الصفوة دون تحديد لمدّة معينة . وكان كنشت قد تعلّم من الرئيس دوبوا أن يلعب في الفترة الأولى دور الضيف ، لاكشخص بل كممثّل لكاستاليا ، وأن يتقبّل الحفاوة أو الجفاوة ، إن حدثت ، كرسول لا أكثر ولا أقل ، وأن يقابلها على هذا الأساس نفسه . وقد ساعده ذلك على التغلّب على ماكان ينتابه من حيرة في أوّل الأمر . كذلك تغلّب على احساسه الأوّل بالغرابة والتهيّب والانفعال الخفيف في الليالي الأولى ، التي لم يذق فيها طعم النوم الا قليلاً . وارتاح في بيئته الجديدة سريعاً ، لما أبداه له الأب جرفاسيوس(١) رئيس الدير من العطف الطيب المرح . وسرّ كنشت بنضارة وقوة المنظر الطبيعي في الجبل الوعر بما له من جوانب صخرية منحدرة ، ومراعي لينة مليئة بالأنعام الجميلة . وسعد كنشت بضخامة وسعة المباني القديمة التي يقرأ عليها الإنسان تاريخ قرون عديدة ، وارتاح لجمال وبساطة سكنه المريح المكوّن من غرفتين في الطابق العلوي من جناح الضيوف الطويل ، وارتاح لجولاته الاستطلاعية خلال الدولة الصغيرة الهائلة وكنيستها وأروقتها وسجلاتها ومكتبتها ومساكن الآباء فيها ، وأفنيتها العديدة وحظائرها الفسيحة المليئة بالأنعام المعتنى بها ، ونافوراتها الفوّارة ، وأقبيتها الهائلة التي اختزن فيها النبيذ والفاكهة ، ومطعمها ، وقاعة اجتماع رجال الدين بها ، وحدائقها المنسقة ، وورش الأخوة غير المترهّبين ، صانع البراميل الخشبية ، صانع الأحذية ، الخياط ، الحدّاد ، الى آخر هؤلاء

(١) Gervasius

الذين يكوّنون ما يشبه قرية صغيرة حول الفناء الأعظم . ودخل كنشت المكتبة ، وأراه عازف الأرغن ، الأرغن البديع وسمح له بأن يعزِف عليه ، وجذبته صناديق النوت الموسيقية التي تضم عدداً هائلاً من مخطوطات موسيقية لم تنشر ، وبعضها مخطوطات موسيقية مجهولة ترجع الى عصور قديمة ، تلك الصناديق التي كان يعلم بوجودها .

وبدا من بالدير كما لو كانوا غير متلهّفين على ابتداء كنشت عمله ، وطال الانتظار أياماً بل أسابيع حتّى بدأ الاهتمام جدّياً بالهدف الحقيقي لوجوده في الدير . كان بعض الآباء ، بل ورئيس الدير نفسه ، قد تكلّموا مع كنشت منذ أوّل يوم عن لعبة الكريّات الزجاجية ، ولكن الحديث لم يمتد قط الى تدريس أو الى عمل منظّم . ولاحظ كنشت في مسعى رجال الدين وأسلوب حياتهم ونغمة تصرّفهم إيقاعاً غريباً عليه ، هو نوع من البطء الجليل ، والصبر الطويل الطيّب ، هذا الإيقاع يشترك فيه جميع الآباء حتّى أولئك الذين يتّصفون بمزاج جاد . كان هذا الإيقاع البطيء هو روح طائفتهم ، والنفس العريق البالغ من العمر ألف سنة لنظام وجمعية عريقين ، متميّزين بامتيازات ، أثبتا كفاءتهما مائة مرة في الظروف السعيدة والظروف التعيسة ، نظام وجمعية اشتراك هؤلاء الآباء فيهما اشتراك النحلة في بناء خلية وفي حظّها ومصيرها ، فتنام نومتها ، وتتألّم آلامها ، وترتعش رعشتها . وكان أسلوب الحياة البندكتيني ، عندما يقارن أسلوب الحياة الكاستالي ، يبدو لأوّل وهلة أقل فكرية ، وأقل حركة وحدّة ، وأقل فعالية ، ولكنه أكثر منه إنطلاقاً وبعداً عن التأثر ، وأكثر منه في العمر والكفاءة ، كان يبدو للناظر أن الدير يحكمه فكر وفهم تحوّلا الى طبيعة له . وجعل كنشت حياة الدير هذه تؤثّر فيه وكلّه شغف اليها ، واهتمام بها ، تلك الحياة التي كانت موجودة في وقت لم تكن كاستاليا قد نشأت فيه بعد ، بل وكانت آنذاك في حالة وحالتها اليوم وتعد من العمر ألف وخمسمائة سنة ، تلك الحياة التي لاقت هوى

الناحية التأمّلية في طبيعته . كان كنشت هناك ضيفاً يلقى التشريف على نحو يفوق المتوقّع والمألوف ، ولكنّه أحسّ إحساساً واضحاً : بأن ذلك التشريف على ذلك النحو كان عادة قائمة في الدير ، وأنه لايعني شيئاً بالنسبة الى شخصه ، ولابالنسبة لروح كاستاليا أو لعبة الكريّات الزجاجية ، بل هو أدب جليل تبديه دولة قديمة لدولة فتية . وهو لم يكن قد أعدّ لذلك إلا إعداداً جزئيّاً ، حتّى أحس بعد مدّة أنه غير مالك لأمره تماماً ، رغم الراحة التي كان ينعم بها في ماريافلس ، فأرسل الى السلطات في كاستاليا يطلب تعليمات أدق . وكتب له الماجستر لودي بنفسه بعض السطور ، قال له فيها : «لاتتحرّج من التضحية بأي وقت تريد من أجل دراستك للحياة هناك . استغل أيّامك ، فتعلّم ، وحاول أن تكون محبوباً مفيداً على قدر تقبل الناس لذلك ، ولاتفرض نفسك ، ولاتظهر بمظهر من نفد صبره ، ولاتظهر أنّك أقل حظّاً من فراغ البال من مضيفيك . ولو استمرّت معاملتهم لك عاماً على هذا النحو كما لو كنت تنزل عليهم ضيفاً اليوم ، فلا تخرج عن الهدوء وتصرّف كما لو كان يستوي عندك أن يدوم الأمر سنتين أو عشر سنين . واعتبر ماأنت فيه منافسة في التمرين على الصبر . وتأمّل جيداً . وإذا طال فراغك عمّا ينبغي فاتّخذ بضع ساعات ـ ولا تزد عن أربع ساعات ـ يوميّاً لعمل منظّم ، مثل دراسة أو نسخ مخطوطات . ولا تدع من يراك يحس بأنّك منهمك في العمل ، وليكن لديك وقت لكل من يحب التحدّث إليك» .

والتزم كنشت بوصيّة الماجستر ومالبث أن عاد الى الاحساس بالارتياح . كان حتّى ذلك الحين يكثر التفكير في مهمه تعليم هواة لعبة الكريّات الزجاجية ، تلك المهمة التي أتى من أجلها ، في حين أن آباء الدير يعاملونه على أنه مبعوث منظّمة صديقة ينبغي أن يراعى مزاجه . فلمّا تذكّر الأب جرفاسيوس رئيس الدير أخيراً مهمة التدريس ، وقدّم الى كنشت بعض الآباء من الذين قد ألمّوا بمقدمة في لعبة الكريّات الزجاجية ليعد لهم حلقة

دراسية أعلى ، تبيّن له ما أدهشه بل وأيأسه في أوّل الأمر ، وهو أن دراسة اللعبة العظيمة كانت في ذلك المكان الكريم بالغة السطحية والميوعة وأن أهل الدير كانوا يكتفون بقدر متواضع جداً من المعلومات الخاصة باللعبة . ثمّ طرأت عليه تبعاً لذلك فكرة أخرى تبلورت في ذهنه ببطء : أنهم في كاستاليا لم يبعثوا به الى الدير بسبب فن لعبة الكريّات الزجاجية ولا من أجل رعايته . فقد كانت مهمة الأخذ بيد هؤلاء الآباء الميالين إلى اللعبة نوعا ما ، وتعليمهم المبادئ ، وإثلاج صدوهم بلعب متواضع ، مهمة سهلة ، سهلة جدا ، يصلح لها أي طالب من طلاب كاستاليا مهما كان بعده عن مراكز الصفوة كبيرا . إذن فتعليم هؤلاء الآباء لا يمكن أن يكون الهدف الحقيقي لبعثته . وبدأ يفهم أن بعثته إلى هنا تهدف إلى التعلم ، أكثر من هدفها إلى التعليم .

وفي الوقت الذي تبين فيه هذا ، حدث ما قوى سلطته في الدير وزاد من ثقته بنفسه ، لأنه كان برغم سحر وظرف دوره كضيف ، يعتبر إقامته في الدير شيئا يشبه الابعاد بقصد العقوبة . حدث ذات يوم أن كان يتحدث مع رئيس الدير فجاء في حديثه عن غير عمد تلميح إلى « آي جنج » الصيني . فأرهف الأب سمعه وألقى أسئلة فتبين أن ضيفه متعمق في الصينية على غير ما كان يتوقع ، ومتعمق في كتاب التحورات ، ففرح فرحا لم يستطع إلى إخفائه سبيلا . كان للأب شغف بالـ« آي جنج » ورغم أن معرفته بكتاب العرافة وبالأسرار الصينية الأخرى كانت معرفة سطحية ساذجة ، كالسطحية التي يقنع بها نزلاء الدير الحاليون فيما يعالجون من أمور العلم ، فقد ظهر أن الرجل الأريب المحنك ـ بالقياس إلى ضيفه ـ العليم بالدنيا ، له ميل حقيقي إلى روح حكمة الصينيين القدماء في أمور الدولة وفي أمور الحياة . واتخذ الحديث بين كنشت والأب نغمة ذات حياة غير مألوفة في الدير ، خرقت السلوك المتحفظ الذي كان بين رب البيت وضيفه حتى ذلك الحين وأدت إلى أن يطلب إلى كنشت أن يعطي الرجل الجليل درسين أسبوعيا في الـ« آي جنج » .

وبينما كانت علاقته بالأب المدير والمضيف تنمو وتزداد حيوية وفعالية ، كانت صداقته وزمالته بعازف الأرغن تتسع ، وكانت الدولة الدينية الصغيرة التي يعيش بين ظهرانيها تتحول في نظره الى شيء مألوف ، وبدأ وعد العرافة التي سألها قبل رحيله من كاستاليا يقترب من التحقق . كان الوعد ينص على أنه سيأتي الى دار ، وهو الجوال الذي يحمل معه ما يملك ، وينص علاوة على ذلك على «ثبات خادم شاب» . أما أن الوعد بدأ يتحقق ، فأمر كان للجوال أن يعتبره علامة طيبة ، علامة على انه بالفعل «يحمل ملكه معه» ، يحمل في نفسه فكره وقواه مجتمعة ، حتى عندما يكون بعيدا عن المدارس والمدرسين والزملاء والمساندين والمعانين ، بعيدا عن الجو الأليف والمغذي والمعين ، فكره وقواه التي يستعين بها على مواجهة حياة نشيطة قيمة . واقترب من كنشت «الخادم الشاب» الذي قالت به العرافة في هيئة تلميذ يدرس الدين اسمه انطون[١] . واذا كان هذا الشاب لم يلعب دورا في حياة يوزف كنشت في الفترة الأولى له في الدير ، تلك الفترة التي خيم عليها جو عجيب من الانقسام والخلاف ، فإنه كان اشارة ورسولا ينبئ بشيء جديد وبشيء أعظم ، وكان بشيرا بأحداث قادمة . كان أنطون شابا صموتا له نظرة متأججة موهوبة ، بلغ نضجا يؤهله للدخول وشيكا في زمرة الرهبان ، وقابل لاعب الكريات الزجاجية القادم من المكان الغريب وصاحب الفن العجيب مرارا ، في حين كان جميع التلاميذ يسكنون في جناح خاص بعيد لا يدخل إليه كنشت ، فلم يعرف كنشت منهم أحدا . ويبدو أن المباعدة بين كنشت وبينهم كانت أمرا مقصودا . ولم يكن للتلاميذ أن يشتركوا في حلقة لعبة الكريات الزجاجية . إلا هذا الأنطون ، فكان يقوم بالخدمة الأسبوعية ، في المكتبة . وهنا قابله كنشت ، فقد أتى أنطون إلى كنشت في حديث عارض ، وتبين كنشت بالتدريج أن هذا الشاب ذا العينين

---

(١) Anton

الداكنتين القويتين المستقرتين تحت حاجبين أسودين غليظين ، منجذب إليه في نوع حالم خدوم من حب التلميذ لمدرسه ، أو حب الصغير لمن يكبره ، حب فيه تبجيل ، كثيرا ما صادفه من قبل ، وعرف الآن أنه عنصر هام حي في حياة الطائفة ، على الرغم من أنه كان في كل مرة يحس في نفسه رغبة في التملص منه . وقرر كنشت أن يلتزم تحفظا مضاعفاً في الدير . وكان الرأي عنده أنه لو حاول التأثير على هذا الشاب الذي مازال يخضع للتربية الدينية ، لكان ذلك خرقا لكرم الضيافة . وكان كنشت يعرف أيضا نذر الرهبنة الذي يخضع له الناس في الدير ، فتصور مدى خطورة حب الصبي له في هذه الملابسات . وكان أن قرر أن يتحاشى امكانية أي صدام ، ورتب أمره على هذا الأساس .

وفي المكتبة ذلك المكان الوحيد الذي كان يقابل فيه أنطون كثيرا ، تعرف على رجل أوشك بصره في أول الأمر ألا يقع عليه لفرط تواضع مظهره ، ثم زادت معرفته به بمضي الوقت وأحبه حبا لازمه طول حياته ، حبا كان يفيض بالتبجيل والشكر والعرفان ، حبا لم يسبق له أن منحه لغير أستاذ الموسيقى الكبير . كان ذلك الرجل هو الأب ياكوبوس[١] ، أهم مؤرخي طائفة البندكتينيين ، وكان في ذلك الحين في نحو الستين من عمره رجلا نحيلا ، يبدو عليه الهرم ، له رأس صقر مستقر على رقبة طويلة معروقة ، ووجه فيه شيء من الجمود والانطفاء لأنه بخيل بالنظرات ، أما من الجانب فيدل على شخصية محددة عنيدة ، بخط مقوس جريء ، يحد الجبهة ثم تجويف عميق عند أعلى الأنف ، ثم أنف منحوت على شكل الخطاف ، ثم ذقن قصير نوعا ما ينتهي بخط نقي ، مغر في نقاوته . كان للرجل الهادئ الهرم ، الذي كان يقدر على الانفعال الشديد أحياناً ، مكتب خاص في الحجرة الداخلية الصغيرة ، عليه على الدوام كتب ومخطوطات وخرائط ،

---

(١) Jakobus

وكان يبدو في هذا الدير المليء بالكتب الثمينة ، كما لو كان العالم الوحيد الذي يعمل جادا . وكان أنطون هو الذي لفت يوزف كنشت في غير قصد منه إلى الأب ياكوبوس . وكان كنشت قد لاحظ أن الحجرة الداخلية بالمكتبة ، حيث مكتب العالم ، تبدو كحجرة مكتب خاصة لا يدخلها من منتفعي المكتبة إلا نفر قليل وفي حالة الضرورة القصوى ، فإذا دخلوا ، ساروا على أطراف أصابعهم في سكون ، مع أن الأب المنهمك في العمل بها كان لا يبدو عليه أنه يتأثر بالضجة . ومن الطبيعي أن كنشت أخذ نفسه بهذه الحيطة نفسها ونتج عن ذلك أن ظل العجوز المجتهد خارج محيط ملاحظته . وحدث أن كلف العالم الشيخ أنطون بأن يأتيه ببعض الكتب ، فلما عاد أنطون من الحجرة الداخلية ، لاحظ كنشت أن أنطون ظل برهة يقف بالباب المفتوح ، وينظر الى العالم المنكب على عمله ، ووجهه يعبر عن الاعجاب والاحترام الممتزج باحساس يوشك أن يكون حيطة رقيقة ، واستعدادا للمساعدة ، على النحو المألوف في الشباب الخيّر حيال الشيوخ الذين لا يلوون على شيء أو الذين يعانون من العجز ، وسرّ كنشت لأول وهلة عندما رأى هذا المنظر الذي كان بالفعل منظرا جميلا في حد ذاته ، وتبين منه أن أنطون في هيامه بالشيوخ وبمن يعجب بهم لا يدخل العامل البدني في حسابه . وفي اللحظة التالية طافت بمخيلة كنشت فكرة تغلب عليها السخرية ، فكرة أوشك أن يخجل منها وهي : ان العلم في هذا المعهد ضئيل الحظ لدرجة أن العالم الوحيد الذي يقوم فعلا بالدرس الجاد يلوح للشباب كحيوان عجيب أو ككائن من الكائنات الخرافية يثير الدهشة . وأيا ما يكون الأمر ، فقد فتحت النظرة الرقيقة الحنونة المعبرة عن التبجيل والاعجاب ، التي ألقاها أنطون على العالم الشيخ ، فتحت عيني كنشت على ظاهرة الأب العالم وراح يلقي عليه من حين إلى حين نظرات كشفت له جانب وجهه الروماني ، وكشفت له أشياء أخرى يعتبرها من علامات الفكر والخلق الخارق

للمألوف . وكان يعلم من قبل أن الأب ياكوبوس مؤرخ وأنه العارف بتاريخ البندكتينيين .

وفي يوم من الأيام كلمه الأب . وتبين كنشت أنه يتكلم بصوت ليس فيه النبرة العريضة ، المتكلفة ، الطيبة ، المتصنعة اعتدال المزاج والسذاجة التي تعتبر عنصرا جوهريا في أسلوب الدير . ودعا كنشت ليزوره في حجرته إذا كان المغرب . ثم قال له بصوت يوشك أن يكون خجولا ، ولكنه واضح التلفظ ، دقيق مدهش : «لن تجد فيّ عالما بتاريخ كاستاليا ، ولا لاعبا بالكريات الزجاجية ، ولكني رأيت أن طائفتينا على اختلافهما يوثقان ، على ما يبدو ، عرا الصداقة بينهما ، فلم أشأ أن أخرج على الاتجاه ، بل أردت من ناحيتي أن أستفيد من وجودك قليلا من حين لحين» . قال الأب هذا الكلام بجد تام . لكن صوته الخفيض ووجهه الهرم الأريب أضفيا على كلماته البالغة الأدب احتمال معان عديدة لها بريق عجيب ، بين جد وسخرية ، اخلاص وتهكم بسيط ، شجن وعبث ، كالذي يشعر به المرء في تمثيل الأدب والصبر بانحناءات لا تنتهي عند تبادل التحية بين قديسين أو اثنين من أمراء الكنيسة . هذا المزج بين التفكير والسخرية ، بين الحكمة والمهابة الفريدة ، والذي كان كنشت يعرفه جيدا عند الصينين ، كان بالنسبة ليوزف كنشت كالشراب الجميل . وتذكر كنشت أنه لم يعد يسمع هذه النغمة ـ وكان لاعب الكريات الزجاجية توماس يتقنها اتقانا عظيما ـ منذ زمن طويل . وقبل الدعوة شاكرا مسرورا . وبينما هو في المساء يبحث في الجناح الجانبي الهادئ عن مسكن الأب الواقع في أقصى الطرف ، ويسائل نفسه عن الباب الذي يقرعه ، سمع موسيقى بيانو فأخذته الدهشة . وأرهف السمع فتبين أنها سوناتا لبورسل[1] ، يعزفها بلا تفوق ولا مهارة ، ولكن على نحو خالص نظيف يلتزم الايقاع التزاما تاما . وتناهت إليه الموسيقى الصافية

(١) Purcell

الحميمة المرحة بنغماتها الثلاث الحلوة ، خالصة حبيبة ، تذكره بوقت من فالدتسل كان فيه يعزف قطعا من هذا النوع ، ويتمرن عليها على آلات مختلفة بالاشتراك مع صديقه فيرومونتي . وانتظر ينصت إلى السوناتا حتى نهايتها ، كانت تنبعث في البهو الساكن المظلم ، وحيدة غريبة ، ولكنها شجاعة بريئة ، فيها طفولة الصغار وفيها تأمل الكبار ، ككل موسيقى جيدة وسط بكم الدنيا الذي لا خلاص منه . وقرع الباب فصاح الأب ياكوبوس «ادخل!» ولاقاه بجلاله المتواضع . وكانت هناك شمعتان لا تزالان تشتعلان على البيانو الصغير . ورد الأب ياكوبوس على سؤال لكنشت ، بقوله ، نعم إنه يعزف كل مساء نصف ساعة أو ساعة كاملة ، وانه ينهي عمله اليومي عندما يحل الظلام ، ويصرف النظر في الساعات السابقة على الايواء إلى الفراش عن القراءة والكتابة . ثم انتقلا الى الكلام عن الموسيقى وعن بورسل ، وهندل[1] ، وعن الاهتمام القديم جدا الذي أولاه البندكتينيون الموسيقى ، والبندكتينيون هم الطائفة الموسيقية الحقة التي كان كنشت شغوفا بمعرفة تاريخها . وحمي الحديث ولمس مائة سؤال ، وبدت المعلومات التاريخية التي يعرفها العالم الشيخ لكنشت جديرة بالاعجاب حقا . ولم ينكر أنه لم يهتم الا قليلا بتاريخ كاستاليا وتاريخ الفكر الكاستالي والطائفة الكاستالية ، كذلك لم يخف نقده لهذه الكاستاليا التي تقلد في نظام طائفتها الطوائف المسيحية ، تقلدها تقليدا فيه إهانة وسب للدين ، لأن الطائفة الكاستالية ليس لها دين ، وليس لها رب ، وليس لها كنيسة تعتمد عليها أساسا . وظل كنشت أثناء هذا النقد يستمع في أدب واحترام ، ثم نبه محدثه إلى أن هناك الى جانب مفاهيم البندكتينيين والكاثوليك للدين والله والكنيسة مفاهيم أخرى ممكنة ، مفاهيم وجدت فعلا ، ولا يمكن تجريدها من صفاء الارادة والمسعى ولا من التأثير العميق على الحياة الفكرية .

---

(١) Haendel

فقال ياكوبوس : «هذا صحيح . وأنت بلا شك تفكر فيما تفكر في البروتستانتيين ، الذين لم يتمكنوا من الحفاظ على دينهم وكنيستهم ، ولكنهم أنجبوا في عصور عديدة رجالا نموذجيين أظهروا شجاعة كبيرة . وقد مرت علي سنوات في حياتي اهتممت فيها اهتماما كبيرا بمحاولات التوفيق بين الطوائف المسيحية المتعادية ، خاصة تلك المحاولات التي شهدها العصر حول عام ١٧٠٠ ، ذلك العصر الذي نلقى فيه رجالا مثل الفيلسوف والرياضي لايبنتس ، ثم الجراف العجيب تسنتسندورف[١] ، يجتهدون في توحيد الاخوة المتعادين . والقرن الثامن عشر عامة ، رغم ما يبدو على الفكر من العجلة والهواية والعبث ، عصر مهم أهمية عجيبة من ناحية تاريخ الفكر ويحتمل تأويلين . وقد جذب برتستانتيو ذلك العصر بالذات اهتمامي وانشغلت بهم كثيرا . وفي ذلك الحين اكتشفت رجلا عالما لغويا ، وأستاذا ، ومربيا من الطراز الأول ومتشيعا للتقوية ، أصله من منطقة شفابن ، رجلا ، كان له أثر أخلاقي يمكن أن نتبعه طوال القرنين التاليين ـ ولكننا بهذا الحديث ننزلق الى ميدان آخر ، لنعد الى السؤال عن شرعية رسالة الطوائف الأصلية ومهمتها التاريخية...» .

فصاح كنشت قائلا : «لا ، لنبق لحظة عند هذا الأستاذ الذي أردت أن تتحدث عنه لتوك ، والذي أعتقد أن في استطاعتي تخمين اسمه» .

«خمن . إذن» .

«في أول الأمر فكرت في فرانكه[٢] الهاللي ، ولكن حديثك كان رجلا من شفابن ، فلا مفر من أن أفكر في يوهان البرشت بنجل» .

وانطلقت ضحكة من فم العالم ، وأضاء وجهه ببريق من الفرح . وصاح متهللاً : «انك فاجأتني يا عزيزي بتخمينك . لقد أصبت ، كنت أفكر فعلاً

---

(١) Zinzendorf والجراف لقب ألماني يساوي الكونت تقريبا .

(٢) Francke

في بـنجل . ولكن من أين لك تلك المـعـرفـة به ؟ أم هل من المـألوف في اقليمكم أن يعرف أهله الأشياء والأسمـاء الضائعة المنسيـة ؟ تأكد أنك لو سألت آباء ومعلمي وتلاميذ ديرنا جميعا ومعهم آباء ومعلمو وتلاميذ الجيلين السابقين ، فلن تجد واحدا يعرف هذا الاسم » .

« كذلك في كاسـتاليا ، لن يعرفـه الكثيرون ، بل ربما لا يعـرفه هناك سواي واثنين من أصدقائي . وقد كنت مرة أشتغل بدراسات من القرن الثامن عشر في موضوع المدرسة التقوية لغرض خاص ، فلفت نظري بعض رجال اللاهوت الشفابيين حازوا اعجابي واحترامي ، وخاصة بنجل هذا الذي لاح لي في ذلك الوقت مثلا أعلى للمعلم وراعي الشباب . وقد أعجبت بالرجل اعجابا شديدا حتى انني صورت صورة له وجدتها في كتاب قديم ووضعتها مدة طويلة على مكتبي » .

وكان الأب لايزال يضحك . ثم قال : « اننا نتلاقى تحت فأل غير عادي . فمن العجب أننا كلينا وقعنا أثناء دراستنا على هذا الاسم المنسي . ومن عجب أكثر أن يكون هذا البروتستانتي الشفابي قد وفق ، في وقت واحد تقريبا ، في التأثير على أب بند كتيني ولاعب كريات زجاجية كاستالي . وأنا أتصور لعبة الكريات الزجاجيـة لديكم كفن يحتـاج الى كثير من الخيال ، وأعجب كيف يمكن لرجل شديد التمسك بالعقل مثل بنجل أن يجتذبك » .

وضحك كنشت كذلك مسرورا . ثم قال : « إذا كنت مازلت تذكر دراسات بنجل التي استغرقت سنوات طويلة في رؤيا يوحنا ، وطريقة تفسيره لنبوءات هذا الكتاب فلا بد أنك ستوافق على أن الخيال لم يكن يعوز صاحبنا » .

وقال الأب وقد انفرجت أساريره : « هذا صحيح . ولكن كيف تفهم هذه المتضادات ؟ » .

ورد كنشت : « اذا سمحت لي بأن أروي نكتة ، فسأقول : ان ما افتقده بنجل وما ظل يبحث عنه ـ دون علم منه ـ بحث المشتاق المتلهف ، كان

لعبة الكريات الزجاجية . وأنا أعتبره من الأجداد والرواد المستترين للعبتنا » .

وعاد ياكوبوس يسأل في حذر وجد : « هذا شيء يبدو لي جرينا بعض الجرأة ، أن تلحق بنجل بلوحة أجدادكم . وكيف تبرر ذلك ؟ » .

فقال كنشت : « كان حديثي نكتة ، ولكنها نكتة لها ما يبررها . ففي وقت صباه ، أعني الوقت الذي سبق اشتغاله الأعظم بالكتاب المقدس ، أطلع بنجل أصدقاءه على خطة كانت تراوده ، وهي أن يجمع معارف عصره كلها ، ويلخصها في موسوعة تضمها حول مركز واحد وتكون متناسقة متواترة . وليس هذا أكثر ولا أقل مما تفعله لعبة الكريات الزجاجية » .

فصاح الأب قائلا : « لم يكن ذلك أكثر من فكرة الموسوعات التي كان القرن الثامن عشر كله يلعب بها »

وقال يوزف : « هو ذاك . ولكن بنجل لم يسع فقط الى وضع مجالات المعرفة والبحث الواحد بجانب الآخر ، ولكنه كان يسعى الى وضعها بعضها داخل البعض ، كان يسعى الى تنظيم عضوي ، كان في طريقه الى البحث عن القاسم المشترك . وهذه فكرة من الأفكار الابتدائية للعبة الكريات الزجاجية . وأنا أود أن أذهب الى أكثر من هذا : لو كان لبنجل نظرية منظمة كلعبتنا ، لكان من المحتمل أن يكون ذلك قد أدى الى انقاذه من ضلاله الطويل في حساب الاعداد التنبؤية ، والتبشير بالمسيح الدجال وبدولة الألفية . لم يجد بنجل للمواهب المختلفة التي اجتمعت له التوجيه المرموق الى هدف مشترك كاملا ، وهكذا أدت موهبته الرياضية مشتركة مع فهمه اللغوي الى توصيله الى « تنظيم العصور » الى ذلك المزيج العجيب من الدقة المسرفة والتخريف المسرف ، الذي شغله سنين » .

فرد ياكوبوس : « من الخير أنك لست من علماء التاريخ ، فإنك تميل إلى التحليق بالخيال . ولكني أفهم قصدك . ولست عالما الا في تخصصي » .

وهكذا تولد حديث مثمر بين الاثنين ، وتعارف بل وما يشبه التصادق . وكان واضحا أن العالم الشيخ أنه ليس من قبيل الصدفة وحدها أن يقوم كلاهما ، وهو بدافع بندكتينيته ، والشاب بدافع كاستاليته ، بهذا الكشف عن مدرس الدير الفرتمبرجي المسكين ، عن الرجل الذي يجمع بين الرقة والصرامة ، بين التخريف والتعقل : بنجل . لا بد أنه كان هناك شيء يربط بينهما ، شيء أثر عليه المغناطيس الخفي هذا التأثير القوي . ومنذ تلك الأمسية التي بدأت بسوناتا بورسل ، كان الشيء موجودا ، وكان الرباط حقيقة واقعة . وتمتع ياكوبوس بتبادل الفكر مع شاب مفكر معلم متعلم على هذا النحو ، متعة لم تكن لتتاح له كثيرا . أما كنشت فكانت صلته بهذا المؤرخ والعلم الذي تلقاه على يديه ، بمثابة مرحلة جديدة في طريق يقظته ، ذلك الطريق الذي يعتبره بمثابة حياته . وباختصار تعلم كنشت من الأب التاريخ ، تعلم القوانين والنقائض في دراسة التاريخ ، وكتابة التاريخ ، وعرف في السنوات التالية كيف ينظر فوق ذلك الى الحاضر والى حياته هو كحقيقة تاريخية .

وكثيرا ما كانت أحاديثهم تتطور الى مشاحنات حقيقية والى هجمات وتبريرات . في أول الأمر كان الهجوم يصدر غالبا عن الأب ياكوبوس طبعا ، الذي اتضح أنه مغرم بالهجوم . وكان ياكوبوس كلما ازداد معرفة بعقل صديقه الشاب ازداد أسفا على أن يكون الشاب الذي ينبئ بمستقبل باهر قد نشأ دون تربية دينية في ظل تأديب كاذب قائم على فكرية عقلية استطيقية . وكان كلما وجد في كنشت ما يستحق اللوم ، أنزل لومه بالفكر الكاستالي «الحديث» ، البعيد عن الواقع ، الميال للعب المجرد . فاذا فاجأه كنشت بمفاهيم وآراء طيبة قريبة من طريقة تفكيره ، اعتقد منتصرا أن طبيعة صديقه الشاب الطيبة قد قاومت التربية الكاستالية مقاومة قوية . وكان كنشت يتقبل نقد ياكوبوس لكاستاليا هادئا ، فاذا شط الرجل العجوز وجرفه

انفعاله ، رد هجماته في هدوء . وكان من بين آراء الأب المنتقصة من كاستاليا ، آراء يقرّها كنشت جزئيا ، كذلك كانت هناك نقطة غير فيها فكره تماما أثناء اقامته في ماريافلس . وهي علاقة الفكر الكاستالي بتاريخ العالم أو ما كان الأب يسميه «انعدام وجود الاحساس التاريخي بتاتا» واستطاع الأب ياكوبوس أن يقول : «أنتم معشر الرياضيين ولاعبي الكريات الزجاجية ، انتقيتم لأنفسكم تاريخ عالم على هواكم ، يتكون من تاريخ الفكر وتاريخ الفن فحسب ، فتاريخكم لهذا لادم فيه ولا واقع . أنتم تعلمون علم اليقين عن تدهور تركيب الجملة اللاتينية في القرن الثاني أو الثالث ، ولا تعرفون أي شيء عن الاسكندر ، عن قيصر ، عن يسوع المسيح . أنتم تعالجون تاريخ العالم ، كما يعالج الرياضي الرياضة ، حيث لا توجد سوى قوانين وصيغ . ولا واقع حيث لا يوجد خير أو شر ولا يوجد زمن ، فلا أمس ولا غد ، ولكن حاضر أبدي رياضي ضحل» .

وسأل كنشت : «لكن كيف يعالج الانسان التاريخ دون أن يدخل فيه نظاما ؟» .

فرد ياكوبوس هادرا : «لا شك أنه ينبغي على المرء أن يدخل في التاريخ نظاما وكل علم هو أيضاً تنظيم ، وتبسيط ، وتحويل للأشياء عسرة الهضم على الفكر الى أشياء سهلة الهضم . ونحن نعتقد أننا تبينا وجود قوانين في التاريخ ونحاول في تعريفنا على الحقيقة التاريخية أن نراعيها . ويشبه حالنا هذا مع التاريخ حال المشرّح عندما يشرّح جسما ما ، فهو لا يجد نفسه أثناء التشريح أمام أشياء جديدة كل الجدة ، إنما يجد تحقيقا لعالم الأعضاء والعضلات والأشرطة والعظام تحت الغلاف الجلدي ، ذلك العالم الذي كان يعرفه من قبل كتخطيط يحيط به قبلا ويحمله في عقله . أما إذا لم ير المشرح سوى تخطيطه فحسب ، وتجاهل الحقيقة الفردية لما يشرحه ، فهو كاستالي ، وهو لاعب كريات زجاجية ، يعالج بالرياضيات موضوعا لا

يصلح لها اطلاقا . في اعتقادي ، ان من يتأمل التاريخ ، يمكنه ان شاء أن يؤمن ايمانا ساذجا فجا مثيرا بالقوة التنظيمية لفكرنا ومناهجنا ، ولكن عليه علاوة على ذلك وبرغم ذلك أن يحترم ما لا يفهم بالعقل من حقائق ووقائع وأحداث فريدة في بابها . إن معالجة التاريخ يا عزيزي ليست فكاهة ، وليست لعبة مجردة عن المسؤولية . معالجة التاريخ تفترض أن يكون الإنسان على علم بأنه في ذلك يسعى للتوصل إلى شيء محال ، ولكنه شيء ضروري ، بالغ الأهمية . معالجة التاريخ تعني أن يستسلم الانسان للفوضى ويحتفظ مع ذلك بايمان النظام وبمغزى الأشياء . وتلك مهمة جادة جدا أيها الشاب ، بل إنها مهمة توشك أن تكون تراجيدية .

وهناك من بين كلمات الأب إلى كنشت تلك التي سجلها كنشت وأبلغها إلى أصدقائه في ذلك الوقت كتابة ، كلمة مميزة :

« وعظماء الرجال بالقياس إلى الشباب كحبات الزبيب بالقياس إلى فطيرة تاريخ العالم ، تلك الحبات تعتبر جزءا من مادتها الحقيقية بلا شك ، وليس من السهل اليسير ، كما قد يتراءى للانسان ، أن يفرق بين العظماء الحقيقيين وبين العظماء الزائفين . في حالة العظماء الزائفين ، يتأتى زيف العظمة من اللحظة التاريخية ومن التخمين بوجودها وانتهازها . وهناك من المؤرخين وكتاب السير ، وطبعا من الصحفيين من يلوح لهم أن تخمين وفهم اللحظة التاريخية وانتهازها ، وأعني بذلك : النجاح المؤقت ، هو العلامة الدالة على العظمة . ومن الشخصيات المحببة إلى المؤرخين من هذا النوع شخصية الجاويش الذي يتحول بين يوم وليلة إلى دكتاتور[1] ، أو العشيقة التي تنجح لفترة ما في التحكم في المزاج الخيّر أو الشرير لبعض القياصرة .

---

(١) لا شك أن هذه اشارة الى أدولف هتلر والمعروف أنه اشترك في الحرب العالمية الأولى برتبة جاويش ، ثم اشتغل بعد ذلك بالسياسة حتى استولى على السلطة في ألمانيا عام ١٩٣٣ ، واتبع سياسة أدت إلى نجاح عاجل ، والى نكبة الحرب العالمية بعد ذلك . (المترجم)

وعلى عكس ذلك ، يحب الشباب المثاليون في الغالب الشخصيات التي تفشل فشلا تراجيديا : الشهداء ، وأولئك الذين يأتون قبل أو بعد أوانهم بلحظة . وأنا ، بصفتي قبل كل شيء آخر مؤرخ طائفتنا البندكتينية ، لا تجتذبني وتستهويني وتدهشني وتستحوذ على اهتمام دراستي على نحو بالغ الشخصيات والانقلابات والانتصارات والهزائم ، بل يتركز حبي وشغفي الذي لا يشفى له غليل على هذه الظواهر ، التي تدخل ضمنها طائفتنا كواحدة منها ، على هذه المنظمات الطويلة العمر ، التي تجري فيها محاولة تجميع الناس باسم العقل والروح وترتيبهم وتحويلهم ورفعهم إلى رتبة الكرام المؤهلين للخدمة أهليتهم للحكم ، وذلك عن طريق التربية لا عن طريق الوراثة ، عن طريق العقل ، لا عن طريق الدم . لم تجتذبني في تاريخ الإغريق أسماء الأبطال ولا صخب سوق «الأجورا» وانما اجتذبتني محاولات من نوع محاولة الفيثاغورثيين أو محاولة الأكاديمية الأفلاطونة ، كما اجتذبتني عند الصينيين ، كما لم تجتذبني ظاهرة أخرى ، ظاهرة طول عمر الكونفوشيوسية ، وفي تاريخ الغرب تجتذبني الكنيسة المسيحية خاصة والطوائف الداخلية فيها ، الخادمة لها ، تلك هي الأشياء التي تبدو لي كقيم تاريخية من الطراز الأول . أما أن ينجح بعض المغامرين مرة في غزو بلد أو في إنشاء دولة تعيش عشرين سنة أو خمسين أو حتى مائة سنة ، أو يسعى ملك أو قيصر يتصف بالمثالية وحسن النية ، إلى اتخاذ سياسة أقوم أو يحاول تحقيق حلم ثقافي ، أو أن يقوم شعب أو جماعة تحت ضغط شديد بفعل الفظائع أو بقبولها ، فهذا كله لا يهمني قط قدر ما تهمني دائما محاولة تكوين التشكيلات من نوع طائفتنا ، واستمرار بعض المحاولات ألف سنة أو ألفين . ولست أريد أن أتحدث عن الكنيسة المقدسة ، فهي في نظرنا نحن المؤمنين فوق المناقشة . أما أن تشكيلات مثل البندكتينيين والدومينيكان وبعد ذلك اليسوعيين عمرت قرونا واحتفظت برغم كل التطورات

والانحرافات والتكيفات وأنواع الإكراه بوجهها وصوتها وحركتها وروحها الفردية ، فهذا ما أعتبره أعجب وأجل ظاهرة في التاريخ » .

وكان كنشت يعجب بالأب حتى في اندفاعاته الظالمة الغاضبة ، مع أنه لم يكن في ذلك الحين يعرف بالضبط من هو الأب ياكوبوس ، كان يرى فيه بكل بساطة عالما عميقا عبقريا . لم يكن يعلم أنه ، علاوة على ذلك ، رجل يقف بوعي في تاريخ الدنيا ، ويسهم في تشكيله ، انه السياسي القائد لطائفته ، العليم بالتاريخ السياسي ، وبالحاضر السياسي الذي يطلب الكثيرون علمه ونصيحته ووساطته . وظل كنشت سنتين أي حتى اجازته الأولى ، يتصل بالأب اتصاله بعالم لا أكثر ولا أقل ، ولا يعلم من حياته ونشاطه ، وسمعته ونفوذه الا الناحية التي يراها منه . كان هذا العالم يعرف كيف يصمت حتى مع من تربطه صداقة ، وكان اخوانه في الدير يعرفون أيضا كيف يصمتون ، يصمتون على نحو أفضل مما اعتقد كنشت أنهم قادرون عليه .

وبعد حوالي سنتين كان كنشت قد تكيف تماما مع الدير ، على خير ما يستطيع ضيف وغريب . وساعد عازف الأرغن من حين لآخر بتواضع على ربط كورس الأناشيد الدينية الصغير بتقاليد جليلة عتيقة ربطا رقيقا . واكتشف في أرشيف الموسيقى بالدير بعض الأشياء ، ونسخ بعض المؤلفات القديمة وأرسل صورا منها إلى فالدتسل ومونتيبورت . وكون فصلا صغيراً من مبتدئي لاعبي الكريات الزجاجية ، كان من بين تلاميذه الشاب أنطون الذي بز الآخرين في الاجتهاد . وهو إن لم يكن قد علم الأب جرفاسيوس رئيس الدير اللغة الصينية ، فقد علمه معالجة عيدان الحزنبل ، وعلمه طريقة أفضل للتأمل في حكم كتاب العرافة . وألفه الأب رئيس الدير وأنس إليه وعرف من هو ، وكف عن محاولة اغرائه على شرب الخمر . وكانت التقريرات التي يكتبها الأب ردا على أسئلة أستاذ لعبة الكريات الزجاجية

التي كان يبعث بها هذا كل ستة أشهر للاستفهام عن مدى رضاء ماريافلس عن يوزف كنشت ، كلها مدح . وكانت كاستاليا تفحص باهتمام يفوق اهتمامها بفحص هذه التقريرات ، قائمة الدروس والشهادات الخاصة بالحلقة الدراسية التي يعقدها كنشت . وكانت النتيجة : انها ترى المستوى متواضعا ، ولكنها راضية عن طريقة المدرس في التكيف مع هذا المستوى والتكيف مع عادات وروح هذا الدير عامة . وكانت الادراة الكاستالية تقدر بأعظم السرور بل والدهشة الحقيقية ـ طبعا دون أن تظهر شيئا من هذا للقائم بالمهمة ـ اتصال كنشت بالأب ياكوبوس الشهير ، اتصالا وثيقا ، أليفا : هو الصداقة .

وأتى هذا الاتصال بثمار عديدة ، نسمح لأنفسنا بتعجل القصة ، والاشارة اليها بكلمة ، أو على الأخرى ، الى تلك الثمرة التي فضلها كنشت على ما سواها تفضيلا . نضجت هذه الثمرة بطيئا ، بطيئا ، تنتظر شيئا ، شبيهة في ذلك ببذور أشجار الجبال الشاهقة ، اذا غرسها الانسان في سهل منخفض يانع : فإن هذه البذور اذا أسلمت الى تربة دسمة ، ومناخ طيب ، حملت في ذاتها ميراثا من الإنطواء ، وعدم الثقة الذي كان آباؤها يعيشون فيهما ، وأصبح الايقاع البطيء في النمو من صفاتها الوراثية . هكذا ترك الشيخ المحنك ، الخبير بهذه الأمور ، الناظر في ريب إلى امكانية تأثير صاحبه عليه ، ترك كل ما آتاه به صديقه الشاب وزميله القادم من المعسكر المضاد ، يضرب فيه جذوره بتردد ، وعلى خطوات . وخرج الغرس تدريجيا ، وكان أحسن وأثمن ما وجد كنشت من خير في سنوات اقامته بالدير ، الثقة والصراحة اللتين نمتا مترددتين من بدايات ضئيلة توشك أن تكون مجردة عن الأمل ، واللتين وضعهما الشيخ المحنك في صديقه الشاب ، والفهم المنبثق في تردد ، النامي في استمرار ، الذي منحه لشخص الشاب المعجب به ، بل ولكل ما كان كاستاليا ، خالص الكاستالية . ودفع

الشـاب ، وكـان لا يزيد في مظهـره على التلميـذ والمنصت والمـتعلم ، دفع الأب ، الذي كان في بادئ الأمر يستعمل كلمة «كاستالي» وكلمة «لاعب كريات زجاجية» بنبرة تهكم أو ككلمات للقذف والتوبيخ ، إلى أن يعترف ، ثم يقبل ثم يحترم هذا الاتجاه الفكري وهذه الطائفة وهذه المحاولة للتربية الفكرية الكريمة . وكف الأب عن ازدراء شباب الطائفة التي لا تعد من العمر سوى قرنين من الزمان وتصغر طائفة البندكتينيين بألف وخمسمائة عام ، وكف عن النظر إلى لعبة الكريات الزجاجية باعتبارها حذلقة استطيقية ، وكف عن النظر إلى تصادق أو تحالف الطائفتين المتفاوتتين في العمر ، مستقبلا ، على انه نوع من المحـال . ولم يكن كنشت يدور بخلده أن السلطات في كاستاليا ترى في اجتذابه للأب اجتذابا جزئيا ذروة مهمته وجهده في ماريافلس ، وكان يعتقد لحين أن ذلك الاجتذاب من حسن حظه هو شخصيا . وراح من حين لحين يفكر ، دون وصول الى نتيجة ، في حقيقة مهمته في الدير ، وفيما اذا كان يحقق شيئا يجدي نفعا ، وفيما اذا كانت بعثته الى هذا المكان ، تلك البعثة التي لاحت في مبدأ الأمر كترقية وتمييز واستجلبت حسد أقرانه له ، وقد دامت هذه المدة ، هي وضع له في مكان مريح لا فخار فيه ، وتنحية له الى ركن ميت . صحيح أن الانسان يستطيع أن يتعلم في كل مكان شيئا ، فلم لا هنا ؟ ولكن هذا الدير لم يكن في رأي كاستاليا ، باستثناء الأب ياكوبوس وحده ، حديقة ونموذجا لنشاط العلماء كذلك لم يستطع ان يتبين على وجه التحديد ، ما اذا كان في عزلته ومقامه بين لاعبي الكريات الزجاجية المحدودي الكفاءة في مجموعهم ، قد بدأ يصدر ويتأخر . ساعده على احتمال قلقه هذا ، افتقاره الى الطموح وحبه للمكتوب والمقدر ، حبا كان قد نما في ذلك الوقت نموا كبيرا . وبصفة عامة ، كانت حياته كضيف ومدرس متخصص في هذا الدير القديم الكريم حياة ألطف من حياته في الفترة الأخيرة بفالدتسل بين جماعة الطموحين .

وحتى لو كتب عليه القدر أن يظل دائما أبدا في هذه الوظيفة الصغيرة البعيدة ، فانه سيرضى بذلك نوعا ما ، وان كان في هذه الحالة سيحاول القيام بشيء لتغيير حياته ، فيحاول مثلا أن يستقدم بعض أصدقائه إليه أو يقضي عطلة سنوية طويلة في كاستاليا .

وربما يتوقع قارئ هذه الجزء من السيرة تقريرا عن ناحية أخرى من خبرات كنشت في الدير ، هي الناحية الدينية ، ونحن لا نجرؤ في هذا المقام إلا على تلميحات حذرة . أما أن كنشت التقى في ماريافلس ، التقاء عميقا بالدين ، بمسيحية يجري أداؤها يوميا ، فهذا أمر يزيد على أن يكون محتملا ، أمر نتبينه واضحا من تصريحاته وتصرفاته بعد ذلك . أما السؤال عما إذا كان قد تحول إلى المسيحية أم لا ، وإلى أي حد ، فعلينا أن نتركه بلا جواب ، فذاك ميدان لا منفذ لبحثنا إليه . كان كنشت اتباعا لتقليد راسخ في كاستاليا يحترم الأديان جميعا ، وكان يكنّ علاوة على ذلك شيئا معينا من الخشوع ، يمكننا أن نسميه تقوى ، وكان يعلم علم الدين المسيحي وأشكاله الكلاسيكية من أيام دراساته بالمدارس ، وخاصة من خلال اشتغاله بدراسة الموسيقى الكنيسية ، وكان يعرف بصفة خاصة وقبل كل شيء آخر سر القداس ومراسيم الصلاة جيدا . فلما أقام عند البندكتينيين رأى بدهشة واحترام تلك الديانة التي كان يعرفها معرفة نظرية تاريخية ، في صورة حية . واشترك في صلوات كثيرة بالحضور ومنذ انكب على بعض كتابات الأب ياكوبوس وجعل بعض أحاديثه تنفذ إليه مؤثرة فيه ، بدت له ظاهرة المسيحية واضحة ، تلك الظاهرة التي كثيرا ما أصبحت على مر القرون ظاهرة عتيقة ، وأثرا من الآثار ، وشيئا جامدا ، ثم عادت تتأمل مصادرها وتجدد منابعها تاركة وراء ظهرها ما كان بالأمس حديثا منتصرا . ولم يقاوم كنشت جديا الفكرة التي كان يقدمها إليه الأب أحيانا في تلك المحادثات ، والتي تفيد بأن الثقافة الكاستالية ربما كانت صورة

جانبية ومتأخرة من الثقافة المسيحية الغربية ، صورة علمانية مصيرها الفناء والعودة إلى أصلها الذي سيمتصها . ذات مرة قال كنشت للأب : مهما يكن أمر هذه الفكرة ، فإنني أشغل مكانا ، وأقوم بمهمة في داخل النظام الكاستالي ، لا النظام البندكتيني ، وما علي هنا إلا أن أشترك في العمل ، وفي إثبات كفاءتي ، دون أن أعبأ بما اذا كان النظام الذي أنا عضو فيه يتوقع له العيش أبدا أو العيش لمدة طويلة فقط . وقال له أنه يرى أن اعتناقه المسيحية لن يكون سوى صورة غير كريمة من الهرب . واستشهد بما فعل الرجل المبجل يوهان البرشت بنجل ، إذ خدم كنيسة صغيرة فانية دون أن يعوقه ذلك عن أن يخدم الخالد . والتقوى ومعناها الخدمة المؤمنة والاخلاص حتى إسلام الروح ، ممكنة في كل مذهب ، وعلى كل درجة ، ومحك اخلاص وقيمة كل تقوى شخصية هو تلك الخدمة وهذا الاخلاص دون غيرهما .

فلما دامت إقامة كنشت لدى الآباء نحو سنة ، ظهر في الدير ضيف ، أُبعد عنه كنشت بمنتهى الحرص ، بل تحوشي مجرد تقديمه إليه تقديما عابرا . وأثار هذا التصرف فضول كنشت ، فراقب الضيف الغريب أثناء إقامته التي لم تزد عن أيام ، وافترض افتراضات عديدة لتفسير الموقف . واعتقد كنشت أن الرداء الديني الذي يلبسه الرجل الغريب ليس إلا رداء تخف . واجتمع هذا الرجل المجهول بالأب رئيس الدير وبالأب ياكوبوس اجتماعات طويلة وراء أبواب موصدة . وكان كثيرا ما يتلقى ويرسل الرسائل المستعجلة . وخمن كنشت ، بناء على ما يعرفه من علاقات الدير السياسية وتقاليده من الاشاعات ، أن يكون الضيف أحد الساسة في مهمة سرية ، أو أحد الأمراء المتخفين . وبينما هو يسترسل في ملاحظاته تذكر ضيفا آخر ظهر في الدير في الشهور الماضية وكان يبدو له ذلك غامضا هاما . وهنا تذكر رئيس «الشرطة» السيد دوبوا ورجاءه إليه أن ينتبه إلى مثل هذه

الأحداث في الدير بين الحين والحين ويبعث بتقريرات عنها . ورغم أنه لم يكن يحب هذه التقريرات ولا يجد في نفسه ميلا إليها ، فقد أنّبه ضميره على أنه لم يكتب إلى الرجل الطيب شيئا منذ زمن طويل وأن هذا قد أساء فيه ظنه . فكتب إليه خطابا طويلا ، حاول فيه أن يعلل ويبرر صمته ، وحكى جانبا من صلته بالأب ياكوبوس ، حتى يكون في الخطاب شيئا . ولم يكن يخطر بباله الاهتمام الذي سيحظى به خطابه ولا من الذي سيقرؤه .

الفصل الخامس

البعثة

استمرت إقامة كنشت الأولى في الدير عامين . وكان في ذلك الحين يبلغ السابعة والثلاثين من عمره . فلما انتهت إقامته في الدير ـ وكان ذلك بعد انقضاء شهرين على إرساله الخطاب الطويل إلى الرئيس دوبوا ـ أتاه ذات صباح من أبلغه أن الأب المدير يطلبه للتحدث إليه في حجرته . واعتقد كنشت أن الرجل الودود يحب أن يتحدث معه برهة في اللغة الصينية ، فعجل بالذهاب . فتلقاه جرفاسيوس وهو يحمل في يده خطابا ، وقال له مبتهجا بطريقته الكريمة العطوفة التي ما لبثت أن تحولت إلى مداعبة فيها تهكم ، تعبر عن صلة الصداقة غير الواضحة بين الطائفة الدينية والطائفة الكاستالية ، تلك التي يرجع الفضل فيها أساسا إلى الأب ياكوبوس ، قال له : «لقد تشرفت بتلقي تكليف لأنهيه إليك ، أيها الأجل! ولكني قبل ذلك أحب أن أعبر لك عن تقديري الكامل لأستاذكم ، الماجيستير لودي! إن له لبراعة في كتابة الخطابات! لقد بعث إلي بخطاب كتبه باللاتينية ، والله يعلم سبب اختياره اللاتينية بالذات! والحق أن الإنسان لا يعرف على وجه التحديد ، إن فعلتم شيئا ، ماذا تقصدون به : التأدب أو السخرية ؟ التكريم أو التعليم ؟ المهم أن هذا السيد الجليل قد كتب إلي باللاتينية ، بلاتينية لا يقدر على مثيلها شخص واحد في طائفتنا ، باستثناء الأب ياكوبوس على أكثر تقدير ،

لاتينية كأنها خرجت لتوها من مدرسة سيسيرون ، وهي مع ذلك معطرة بقدر قليل موزون من لاتينية الكنائس ، لا نعلم بطبيعة الحال إن كان يضعها ببساطة كطعم الشص لنا نحن القساوسة ، أو يقصد بها التهكم ، أو يكتبها بدافع عامد إلى اللعب وتنميق الأسلوب وزخرفته . كتب إليّ الرجل الخليق بالإكبار يقول : انهم في الناحية الأخرى يرغبون في رؤيتك ، وعناقك ، وفي اكتشاف إلى أي حد أدت إقامتك الطويلة بين ظهرانينا نحن أنصاف الهمج إلى التأثير عليك تأثيرا متلفا من الناحية الأخلاقية والأسلوبية . باختصار ، على قدر ما فهمت من الرسالة الفنية الأدبية المستفيضة وأولتها ، تقرر في كاستاليا منحك إجازة ، والتوجه إليّ بطلب إعادتك إلى وطنك فالدتسل لمدة غير محددة ، ولكنها لن تصل إلى الإعادة النهائية اذ أن السلطات هناك تنوي ارجاعك الينا قريبا ، اذا كان ارجاعك شيئا يسرنا . وأرجو أن تقبل اعتذاري ، فلم يكن في مقدوري تأويل اشارات الخطاب اللطيفة التأويل اللائق الكامل ، ولا أحسب أن الماجستير توماس قد توقع أن أقدر على ذلك . أما هذا الخطاب الصغير فلن أسلمه إليك . اذهب يا عزيزي وسنطلب من السلطات عندكم إرجاعك إلينا اذا طال غيابك عنا » .

وكان الخطاب الذي سلمه رئيس الدير اليه ، يحتوي احاطة موجزة لعلمه بأنه قد منح اجازة للراحة وللتحدث إلى الرؤساء ، وبأنهم ينتظرونه في فالدتسل قريبا وبأن ليس عليه أن يهتم باتمام الحلقة الدراسية القائمة حاليا في الدير للمبتدئين ، إلا إذا رغب رئيس الدير في ذلك رغبة أكيدة ، وبأن أستاذ الموسيقى الكبير يبعث إليه بالتحية . فلما قرأ كنشت السطر الأخير ارتبك وأغرق في التفكير : كيف يمكن أن يكلف مؤلف الخطاب ، الماجستر لودي ، بابلاغه هذه التحية التي لا تتناسب مع الصفة الرسمية للخطاب ؟ لا بد أن مؤتمرا عاما للهيئة كلها قد اجتمع واشترك فيه الأساتذة القدامى جميعا . ولم تكن اجتماعات الهيئة التربوية وقراراتها تعنيه في كثير أو قليل ، ولكن

هذه التحية أثرت في نفسه تأثيرا عجيبا ، ولاحت له على نحو عجيب تحية من زميل . ولم يهتم بالأمر الذي يمكن أن يكون هذا الاجتماع قد عقد بسببه ، وكفاه ما برهنت عليه هذه التحية ، من أن الرؤساء الكبار قد تكلموا عنه بهذه المناسبة . فهل يا ترى تقرر شيء جديد بخصوصه ؟ هل سيعيدونه ؟ وهل تعني الإجازة ترقية أو تنزيلا ؟ ولكن الخطاب لم يكن يشير الى شيء سوى الاجازة . وقد فرح بهذه الاجازة فرحا مخلصا ، وود لو تمكن من السفر في اليوم التالي مباشرة . وكان عليه على الأقل أن يودع تلاميذه وأن يزودهم بارشاداته . ولسوف يحزن أنطون حزنا شديدا عندما يعلم بخبر رحيله . كذلك كان ينبغي عليه أن يزور بعض الآباء زيارة وداع خاصة وفكر في ياكوبوس ،وأوشك أن يحس لدهشته في داخل نفسه ألما رقيقا ، ويحس عاطفة تقول له إنه متعلق بماريافلس بقلبه تعلقا يفوق تقديره . كان يفتقد هنا أشياء كثيرة تعود عليها في فالدتسل وأصبحت غالية عليه ، وزادت في خياله جمالا لبعده عن كاستاليا عامين طويلين ولحرمانه منها ، ولكنه تبين في هذه اللحظة بوضوح أن : ما أوتيه في الأب ياكوبوس لا سبيل إلى تعويضه وأنه سيفتقده عندما يعود إلى كاستاليا . وهكذا اتضح له أكثر من ذي قبل ، ما قد خبره هنا وتعلمه ، وغمرته الفرحة والثقة وهو يفكر في الرحلة الى فالدتسل ، في اللقاء ، في لعبة الكريات الزجاجية ، في العطلة ، ولو لم يكن موقنا من العودة الى ماريافلس ، لكانت فرحته بفالدتسل منقوصة .

وقرر كنشت فجأة أن يذهب إلى الأب ياكوبوس ، فلما دخل عليه حكى له عن استدعائه في اجازة الى كاستاليا ، وكيف أنه هو نفسه قد فوجئ باحساس من الفرح في الرجوع الى ماريافلس ، يكمن وراء احساسه بالفرح للرجوع الى كاستاليا وملاقاة من اغترب عنهم ، ثم أضاف أنه ، نظرا لأن احساسه بفرحة العودة بعد ذلك من كاستاليا يرجع أول ما يرجع الى الأب ياكوبوس المبجل فإنه قد تشجع ليجرؤ على تقديم التماس بين يديه ، وهو أن

يقبل تعليمه من علمه عندما يعود ، حتى ولو ساعة أو ساعتين في الأسبوع . فضحك ياكوبوس متمنعا وراح يصوغ أنواعا من المدح الجميل الفاخر للثقافة الكاستالية الواسعة التي لا تعلو عليها أخرى ، والتي يقف أمامها راهب بسيط مثله أخرس من الاعجاب ، يهز رأسه من الدهشة . ولكن كنشت لاحظ أن التمنع لم يكن محمولا على محمل الجزم القاطع ، ولما مد يده ليودعه قال له هذا في رقة ، ألا يحمل هما بشأن طلبه الذي حمله الساعة إليه ، ووعده بأن ينفذ له عن طيب خاطر ما أمكنه ذلك ، ثم ودعه أحر توديع .

وراح مسرورا الى اجازته ، وهو يوقن في ذات نفسه أن المدة التي قضاها في الدير لم تضع هباء منثورا . وأحسن نفسه في ساعة الرحيل صبيا ، ثم تبين أنه ليس صبيا ، وليس فتى ، تبين ذلك من تطلعه الى احساس بالخجل وبالمقاومة الباطنية جاش في نفسه كلما أراد أن يرد على شعوره بالتحرر من الارتباط وبالسرور الساذج للاجازة برد يتمثل في أية حركة أو صيحة أو تصرف صبياني صغير . لا ، فما كان يعتبر قديما شيئا طبيعيا ملطفا ، مثل صيحة فرح تطلق الى الطيور في أعلى شجرة ، أو لحن مارش يصفر عاليا ، أو تبختر خفيف ايقاعي كالرقص ـ لم يعد هذا ممكنا ، ولو حاول جهده أن يعبر بشيء من هذا ، لخرج التعبير جامدا متكلفا ، ولكان من قبيل الغباوة والصبيانية . أحسّ أنه رجل ، شاب في احساسه ، شاب في قوته ، ولكنه في استسلامه للحظة وللشعور عاد يفتقر الى التمرين والى الحرية ، وأصبح مضطرا الى اليقظة ، مقيدا ، ملزما ـ فما مصدر ذلك ؟ لعل مصدره الادارة ؟ ولعل مصدره هو الواجب الذي ألقي على عاتقه لتمثيل بلده وطائفته بين أهل الدير ؟ لا ، بل كان مصدره هو الطائفة ذاتها ، والنظام الهرمي الذي اندمج فيه عند التأمل الباطني الذاتي المفاجئ اندماجا لا يعرف له سببا ووجد نفسه جزءا داخلا في مبناه ، كان مصدره هو المسئولية وهو الوقوف في نطاق ما هو عام وعالّ ، هو ذلك الشيء الذي يجعل بعض الشباب يبدون شيوخا وبعض

الشيوخ يبدون شبابا ، الذي يوقف البعض ، ويقوي البعض الآخر ويسلبه في الوقت نفسه الحرية ، وهو أشبه بوتد تربط إليه شجرة صغيرة ، ينتزع من البعض ما به من براءة ، ويطلب من البعض الآخر صفاء متزايدا .

ولما بلغ كنشت مونتيبورت ذهب لتحية أستاذ الموسيقى الأكبر الذي كان في أيام شبابه قد نزل ضيفا على ماريافلس ، ودرس هناك الموسيقى البندكتينية . راح الرجل المسن يسأل عن أشياد كثيرة . وجد كنشت الرجل المسن أكثر سكوتا وزهدا ، ووجد مظهره أكثر قوة وصفاء من المرة الماضية . كان التعب قد فارق وجهه ، فلم يبد أكثر شبابا بل بدا أكثر حسنا ورقة ، بعد أن استقال من منصبه . ولاحظ كنشت أنه سأله عن الأرغن وعن صناديق النوط الموسيقية وعن كورال ماريافلس ، وسأله عن شجرة الحديقة المتقاطعة هل ما زالت في مكانها ، وسأله عن عمله في الدير ، وعن تدريس لعبة الكريات الزجاجية وعن هدف اجازته ، فكانت أسئلة ثانوية لا فضول فيها البتة . وعلى كل فقد أعطاه الأستاذ الشيخ ، قبل أن يستمر في رحلته كلمة نصيحة ذات أهمية كبيرة . قال له بلهجته المرحة : «لقد نمى الى علمك أنك أصبحت ما يقرب من الدبلوماسي وتلك مهنة ليست بالجميلة ، ولكن يظهر أنهم مسرورون منك . ولك أن ترى في ذلك ما تشاء وما يحلو لك! أما اذا لم يكن بك طموح خاص الى الاستمرار في هذه المهنة ، فعليك أن تأخذ حذرك ، يا يوزف . انني أعتقد أنهم يريدون استدراجك . فدافع عن نفسك ، فلك حق في ذلك . ـ لا ، لا تسأل ، فلن أزيد على ما قلت كلمة واحدة . وسوف ترى» .

ورغم هذا التحذير ، الذي حمله كنشت في جنباته كالشوكة ، فقد أحس عند وصوله الى فالدتسل فرحة بلقاء الوطن ، وفرحة بلقاء الأهل ، فرحة لم يعرف لها مثيلا من قبل . ولاحت له فالدتسل كوطنه وكأجمل مكان في العالم ، بل لاحت له أكثر جمالا وطرافة وأحس كأن عينيه أصبحتا عينين جديدتين وكأن قدرتهما على الابصار قد زادت . ولم يكن هذا الاحساس

مقصورا على الأبواب والأبراج والأشجار والنهر والأقنية والقاعات والأشكال والأوجه القديمة ، لكنه أحس أثناء اجازته تجاه روح فالدتسل والطائفة واللعبة بتفتح متزايد وبتفهم تام من يعتمل في نفس العائد الى وطنه ، المسافر ، الذي زاد نضجا ورجاحة عقل . وأنشد صديقه تيجولاريوس نشيد مدح حماسي لفالدتسل ولكاستاليا ، قال له في ختامه : «انني أحس كما لو كنت قد أمضيت أعوامي كلها هنا نائما ، لا أنكر أنني أمضيتها سعيدا ، ولكني أرى أنني أمضيتها بغير شعور ، وأحس الآن كما لو كنت قد استيقظت الآن لأرى الأشياء كلها واضحة محددة ، لأراها واقعية مؤكدة الواقعية . ما أعجب أن تزيد سنتان من الغربة حدة ابصار العينين الى هذه الدرجة!» وتمتع باجازته كما يتمتع الانسان بالعيد ، تمتع بالألعاب وبالمناقشات مع الزملاء ، في وسط صفوة مدينة اللاعبين ، وتمتع بلقاء الأصدقاء ، وبروح ذلك المكان الذي هو فالدتسل ، إلا أن هذا الاحساس الفريد بالسعادة والبهجة لم يتملكه ولم يزدهر في نفسه بعد زيارته الأولى لأستاذ لعبة الكريات الزجاجية ، حتى ذلك الحين كان شعوره بالبهجة يختلط بشيء من الخوف والريبة .

ألقى الماجستر لودي على كنشت أسئلة أقل مما توقع هذا ، ولم يكد يشير الى فصل المبتدئين في اللعبة والى دراسات يوزف في أرشيف الموسيقى ، ولكنه كان متعطشا الى أخبار الأب ياكوبوس لا يشبع منها ، لا يكف عن الكلام عنه إلا ليعود مرة ثانية ، فما كان يعرف في هذا الأمر إفراطا ، وما كان يرى الكثير الذي قاله يوزف كثيرا . أما أنهم في فالدتسل كانوا مسرورين ، بل مسرورين جدا منه ومن مهمته عند البندكتينيين ، فذلك شيء استطاع أن يستنتجه من بشاشة الأستاذ العظيمة ، واستطاع أن يستنتجه أكثر من تصرف السيد دوبوا ، الذي أرسله الماجستر إليه على الفور . قال له السيد دوبوا : «لقد قمت بمهمتك على نحو ممتاز» وأضاف وهو يضحك ضحكة رقيقة «حقيقة أن فطرتي خانها الصواب عندما نصحت قديما بصرف النظر عن إرسالك الى

الدير . لقد كسبت رئيس الدير والأب ياكوبوس العظيم واستملتهما لكستاليا ، وهذا شيء كثير ، أكثر مما كان أي واحد يستطيع أن يأمل» . وبعد يومين دعاه أستاذ اللعبة اليه ودعا معه السيد دوبوا وناظر مدرسة الصفوة الحالي ، خلف تسبيندن ، لتناول الغداء ، وبعد الغداء حلت ساعة التحادث ، وكان يحضرها كذلك أستاذ الموسيقى الجديد ورئيس أرشيف الطائفة ، أو بعبارة أخرى كان يحضرها عضوان آخران من أعضاء الهيئة العليا ، وأخذ أحدهما كنشت معه الى فندق لحديث طويل . دفعت هذه الدعوة كنشت لأول مرة في نظر الجميع الى ثلة المرشحين للوظائف العليا وأقامت بينه وبين عامة صفوة اللاعبين حاجزا ملموسا ، أحسه كنشت بعد يقظته كل الاحساس . ومنح يوزف بصفة مؤقتة اجازة أربعة أسابيع ، وأعطي كذلك بطاقة لفنادق الاقليم لا تعطى إلا للموظفين . ولاحظ كنشت أنه يخضع للملاحظة ، رغم أن أحدا لم يفرض عليه أي الزام أو تكليف ، ولم يطلب اليه حتى مجرد التبليغ عن مكان وجوده ، لاحظ كنشت ذلك ، لأنه عندما قام ببعض الزيارات والرحلات الى كويبرهايم والى هيرسلاند والى دار دراسات شرق آسيا مثلا ، تلقى فور وصوله دعوات من الهيئات هناك ، وتعرف فعلا أثناء هذه الأسابيع على هيئة الطائفة كلها ، وعلى غالبية الأساتذة ورؤساء الأقسام الدراسية . ولو لم تشغل هذه الدعوات والاتصالات الرسمية رحلات كنشت ، لبدت له هذه الرحلات كعودة الى سنوات دراسته وما كان له فيها من حرية . لكنه حد منها مراعاة منه لتيجولاريوس الذي كان يتأثر أعمق التأثر وأبلغه لكل ما من شأنه تعويق سير صداقتهما التي عادت بعد انقطاع ، وكذلك حبا منه في لعبة الكريات الزجاجية واهتماما منه بالاشتراك في أحدث التمرينات وفي دراسة المشاكل المدرجة في جدول الأعمال واثبات كفاءته . وفي هذا قدم اليه تيجولاريوس خدمات جليلة . أما صديقه المقرب الآخر فيرومونته فكان ضمن رجال أستاذ الموسيقى الجديد ، ولم يتصل به في تلك الفترة إلا مرتين . وجده مجتهدا ، سعيدا بعمله ،

قد عرضت له مسألة عظيمة من مسائل تاريخ الموسيقى ، تدور حول الموسيقى الاغريقية واستمرارها في الرقصات والأغاني الشعبية في بلاد البلقان . وحكى لصديقه ، سعيدا بقدرته على الاتيان بشيء جديد ، حكى له عن أعماله الأخيرة واكتشافاته ، وكانت تتصل بعصور التدهور التدريجي لموسيقى الباروك أي في الفترة المبتدئة بنهاية القرن الثامن عشر وتتصل بدخوله مادة موسيقية جديدة آتية من الموسيقى الشعبية السلافية في مواد اللعبة .

وأمضى كنشت أكبر جزء من عطلته الشبيهة بالعيد في فالدتسل نفسها مشتغلا بلعبة الكريات الزجاجية ، مراجعاً معلوماته مع فريتس تيجولاريوس ومذكراته التي سجلها من البرنامج الخاص الذي خصصه الماجستر في الفصلين الأخيرين لمتقدمي المتقدمين ، واندمج بعد سنتين من الحرمان بجهد استجمع له قوته كلها في عالم اللعبة الكريم الذي لاح له سحره شيئا لا ينفصل عن حياته ولا تستغني عنه حياته ، كالسحر الموسيقي .

وفي الأيام الأخيرة لعطلة يوزف عاد الماجستر لودي الى بعثة يوزف الى ماريافلس والى الحديث عن مستقبله القريب ومهمته . وبدأ الماجستر يحدثه مصطنعا أسلوب الحديث العادي في أول الأمر وأسلوب الجد والإلحاح بعد ذلك ، يحدثه عن خطة للهيئة تهتم بها غالبية الأساتذة والسيد دوبوا اهتماما كبيرا ، وتتلخص في انشاء تمثيل دائم لكاستاليا لدى البابا في روما في المستقبل . وأردف الماجستر توماس يقول بطريقته الجذابة البديعة ، أن اللحظة التاريخية قد حانت أو قد قربت لإنشاء جسر على الخندق القديم الفاصل بين روما وبين الطائفة ، وأن الجانبين سيكون لهما بلا شك اذا حدثت أخطار مستقبلة نفس الأعداء ، وانهما سيكونان حليفين طبيعيين ورفيقين في المصير ، وأن الوضع الحالي لن يمكن بمضي الوقت ، الثبات عليه واعتباره وضعا كريما : يعني أن السلطتين المضطلعتين في العالم بواجب تاريخي هو المحافظة على الفكر ورعايته والمحافظة على السلام ورعايته لا

ينبغي أن يظلا هكذا الواحدة بجوار الأخرى ، غريبة عنها أو توشك أن تكون غريبة عنها . لقد تغلبت الكنيسة الرومانية على هزات وأزمات عصر الحروب الأخير رغم الخسائر الفادحة ، وجددت نفسها ونقت نفسها خلال ذلك ، في الوقت الذي هوت فيه مراكز رعاية العلم والثقافة العلمانية الى الهوة التي انحدرت اليها الثقافة ، ونشأت الطائفة وانبثقت الفكرة الكاستالية من فوق اطلال هذه المراكز العلمانية . ولهذا السبب ولسبب آخر هو قدمها الجليل ، تتخذ الكنيسة الرومانية موقف الصدارة ، فهي الأقدم والأبرز ، وهي السلطة التي صمدت في عواصف أكثر عددا وأشد قوة . لهذا كان المطلوب عمله أولا ، هو ايقاظ شعور الكنيسة الرومانية بقرابة السلطتين وباعتماد الواحدة على الأخرى في كل الأزمات المقبلة ، وتنمية هذا الشعور .

(هنالك قال كنشت في نفسه : «أوه ، اذن فهم يريدون ارسالي الى روما ، ربما لأبقى فيها الى الأبد!» وتذكر تحذير أستاذ الموسيقى العجوز واستعد في داخل نفسه للمقاومة) .

واستأنف الأستاذ توماس كلامه : وقد تمت خطوة هامة في سبيل هذا التطور الذي يسعى اليه الجانب الكاستالي منذ زمن طويل تتمثل في نتيجة بعثة كنشت الى ماريافليس . هذه البعثة التي هي في حقيقتها محاولة ولا أكثر من ذلك ، وتصرف مهذب غير ملزم بأي شيء ، جاءت بلا أهداف خفية ، ردا على دعوة وجهها الجانب الآخر ، وإلا لما كان أهل كاستاليا أرسلوا لاعبا من لاعبي الكريات الزجاجية ليس لديه أي فكرة عن السياسة بل لكانوا أرسلوا مثلا موظفا صغيرا من العاملين مع السيد دوبوا . لكن هذه المحاولة ، هذه البعثة الصغيرة البريئة أدت الى نتيجة طيبة على نحو مدهش . لقد عرف أحد مفكري الكاثوليكية المعاصرة البارزين وهو الأب ياكوبوس روح كاستاليا بشيء من التفصيل وكون عن هذا الاتجاه الذي طالما رفضه رأيا قريبا من صالحنا . وعبر الأستاذ توماس عن شكر كاستاليا لكنشت على الدور الذي لعبه في هذا

المضمار ، وقال له ان هذا هو معنى وثروة بعثته ، وأن النقطة التي بلغتها بعثته هي النقطة التي ينبغي أن تبدأ منها محاولة التقارب كلها وهي النقطة التي ينبغي أن تقيم على أساسها البعثة ويقيم على أساسها الجهد الذي بذله كنشت . وأضاف الأستاذ أن كنشت منح اجازة يمكن مدها بناء على رغبته وأنه سمع واستمع اليه ، وأنه قدم لأغلب أعضاء الهيئة العليا وتعرف بهم ، أما من هم دونهم فقد عبروا عن ثقتهم في كنشت ، وكلفوه هو ، أستاذ لعبة الكريات الزجاجية ، بإعادة كنشت الى ماريافلي محملا بمهمة خاصة وصلاحيات أوسع ، فإنه لحسن الحظ واثق من أن استقبالا وديا ينتظره .

وسكت الأستاذ لحظة وبدا كما لو كان يريد بذلك لمستمعه فرصة القاء سؤال ، ولكن كنشت عبر بحركة مهذبة عن اهتمامه بما ألقى عليه عن انتظار للمهمة التي قال الأستاذ أنه سيكلفه بها .

وهنا قال الماجستر : «المهمة التي أكلفك بها هي ما يلي : لقد فكرنا أن ننشئ ، آجلا أو عاجلا ، تمثيلا دائما لطائفتنا لدى الفاتيكان ، يقابله إن أمكن تمثيل دائم للفاتيكان لدينا . ونحن باعتبارنا الأحدث مستعدون لاتخاذ موقف مهذب جدا حيال روما ، وان كان هذا لا يعني اتخاذنا موقفا ذليلا ، نحن مستعدون لقبول المركز الثاني وترك المركز الأول لروما . ربما ـ والحق أنني أعلم من هذا الأمر أقل مما يعلم السيد دوبوا ـ أقول ربما قبل البابا عرضنا اليوم ، ولكن هناك شيء ينبغي علينا أن نتحاشاه كل التحاشي ، وهو أن يرد علينا الجانب الآخر بالرفض . وهناك رجل صوته في روما له أعظم الوزن ، وأعني الأب ياكوبوس . ومهمتك هي أن تعود الى دير البندكتينيين وأن تعيش هناك كما كنت تعيش ، فتقوم بدراسات ، وتدرس برنامجا بريئا في لعبة الكريات الزجاجية ، وتكرس اهتمامك كله في استمالة الأب ياكوبوس إلينا ، حتى يعطي موافقته على ما ننوي فعله في روما . في هذه المرة هدف سفرك محدد تحديدا دقيقا . أما الزمن الذي تحتاجه لتحقيق هذا الهدف ، فأمره

ثانوي ، والرأي عندنا أنك ستحتاج إلى نحو العام على الأقل ، وربما احتجت الى سنتين أو الى سنوات عديدة . وأنت تعرف سرعة الحياة في دير البندكتينيين ، وقد تعلمت كيف توفق حياتك مع هذه السرعة . ولا يصح بأي حال من الأحوال أن نتصرف بما يوحي بأننا نتعجل الأمر أو نتحرق شوقا إليه . وانما ينبغي أن ينضج الأمر تلقائيا على النحو المرغوب ، أليس كذلك ؟ أرجو أن تكون موافقا على المهمة وأرجو أن نناقش بصراحة كل اعتراض يلوح لك . واذا شئت فخذ مهلة بضعة أيام لتفكر في الأمر مليا » .

لم تكن المهمة بعد أن سبقها ما سبقها من أحاديث ، مفاجأة لكنشت ، فرد على محدثه بأن مهلة التفكير لا داعي لها ، وأنه قد قبل المهمة وأضاف : « انكم تعلمون أن المهام التي من هذا النوع تحقق أحسن نجاح اذا كان المكلف بها لا يجد في نفسه معارضة داخلية وتردداً يقف منها موقف الصراع . وأنا لا أعارض المهمة في حد ذاتها بل أفهم أهميتها وأرجو أن أكون أهلا لها . إلا أنني أحس بشيء من الخوف والاكتئاب حيال مستقبلي ، وأرجوكم يا سيدي الماجستر أن تفسحوا صدركم لي ، وتسمعوا مني رغبتي الخاصة الأنانية واعترافي أنني لاعب كريات زجاجية ، كما تعلمون ، وقد فقدت نتيجة لبعثتي الى الآباء عامين كاملين من الدراسة ، فلم أضف شيئا الى علمي بل لقد أهملت فني ، وها هو ذا عام جديد ، بل ربما أعوام أكثر ، يأتيني من النوع نفسه . وأنا أحب ألا أزداد في هذا الوقت تأخرا ، وأرجو أن أحصل على اجازات قصيرة متعددة لأعود الى فالدتسل وأبقى على صلة بالمحاضرات وبالتمرينات الخاصة في الحلقة التي أقمتموها للمتقدمين » .

فصاح الأستاذ بصوت فيه نغمة التوديع « لك هذا عن طيب خاطر » ، فرفع كنشت صوته وقال الأمر الآخر ، وهو أنه يخشى لو نجحت مسألة ماريافلس أن يرسل الى روما أو يوجه الى السلك الدبلوماسي بشكل ما . وختم قوله بهذه العبارة : « وهذا الاحتمال سيؤثر علي وعلى جهودي في

الدير تأثيرا كئيبا مثبطا لعزمي . فإنني أكره أشد الكره أن أبقى على الدوام ملقى في السلك الدبلوماسي » .

وقطب الأستاذ جبينه ورفع اصبعه بالتأنيب وقال : « إنك تتحدث عما تسميه القاء ، ولقد ساء اختيار الكلمة سوءاً بالغا ، فلم يدر بخلد أحد أن يلقي بك ، بل أن يكرمك ويرقيك . وليس في مقدوري أن أتحدث اليك عن الطريقة التي سيتم بها الاستفادة بك مستقبلا وليس لدي صلاحية الارتباط معك بوعود في هذا الشأن . إلا أنني أفهم مخاوفك ، وأتوقع أن أتمكن من مساعدتك ، إذا حدث فعلا ما تخشاه . واسمع الي الآن : لقد وهبت موهبة التحبب الى الناس ، والتأثير عليهم تأثيرا لطيفا ، وربما وصفك من ساءت نيته بأنك توشك أن تكون في هذا المضمار ساحرا ، والظاهر أن هذه الهبة هي التي دفعت الهيئة الى ارسالك الى الدير مرتين . ولكن لا تسرف في استعمال هذه الموهبة يا يوزف ، ولا تحاول رفع ثمن جهودك الى أعلى . فإذا حالفك الحظ مع الأب ياكوبوس ، فستكون تلك اللحظة هي اللحظة المناسبة لكي توجه رجاء شخصيا الى الهيئة . أما توجيه الرجاء اليوم فيلوح لي مبكرا مسرفا في التبكير . وأعلمني عندما تتأهب للرحيل» .

وسمع يوزف الكلمات صامتا ، متشبثا بما خلفها من نية طية خفية أكثر من تشبثه باللوم ، ورحل بعد ذلك بقليل عائدا الى ماريافلس .

هناك أحس بالاطمئنان الذي يمنحه تكليف محدد دقيق ، ووجد في اطمئنانه خيرا كثيرا . وقد كان التكليف ، فوق ذلك ، تكليفا بمهمة هامة مشرفة ، وكان على نحو ما يلتقي بآمال عميقة جاشت في نفس من كلف بالمهمة : الاكثار من مخالطة الأب ياكوبوس وكسب صداقته الكاملة . وقد تبين أن مهمته ستلقى هنا معاملة جدية وأنه قد ارتفع في الدرجة ، وبرهن له على ذلك تغير موقف وسلوك أصحاب المقامات الرفيعة في الدير وخاصة الأب المدير . كان سلوكه تجاهه لطيفا وديا كما كان ، ولكنه زاد درجة في

الاحترام عن ذي قبل . فلم يعد يوزف المفكر الصغير الذي لا مقام له ، والذي يعامله أهل الدير معاملة طيبة نظرا للجهة التي أتى منها ولشخصيته اللطيفة ، بل أصبح الآن يقابل ويعامل على أنه موظف كاستالي رفيع القدر يوشك أن يكون مبعوثا مفوضا . ولم يعم عن هذه الأمور ، واستنتج منها نتائجه .

على أنه لم يستطع أن يتبين في سلوك الأب ياكوبوس تغيرا ، وتأثر عميقا للمودة والفرحة اللتين حياه بهما الأب ، وذكره باتفاق العمل المشترك بينهما دون انتظار لرجاء أو تنبيه من جانب كنشت . وتغير جدول عمل كنشت ، وتغيرت مجريات حياته اليومية ، وأصبح لهما وجه يختلف عن وجههما السابق قبل الاجازة . ففي ناحية جدول العمل والواجبات لم يصبح لفصل لعبة الكريات الزجاجية الأهمية الأولى التي كانت له ، ولم يعد هناك كلام عن الدراسات الموسيقية في الأرشيف ، ولا التعاون المشترك بينه وبين عزف الأرغن . وقفزت الى الصدارة دروس الأب ياكوبوس ، دروس في مواد مختلفة من مواد علم التاريخ . وكان الأب ياكوبوس يعلم تلميذ الامتياز يوزف تاريخ البندكتينية القديم وما قبله ، بل ويعلمه فوق ذلك مصادر تاريخ العصر الوسيط ، ويقرأ معه في حصة خاصة النص الأصلي لبعض مؤرخي تلك الفترة . وأعجب الأب عندما انهال عليه كنشت برجاء الموافقة على اشتراك أنطون في هذه الدروس . على أنه لم يكن من الصعب على الأب أن يقنع كنشت بأن الثالث مهما كانت نيته من الحسن سيعرقل سير هذا النوع من التعليم الخصوصي . وهكذا حيل بين أنطون ، الذي لم يكن يعلم من أمر التماس كنشت شيئا ، وبين الاشتراك في هذه الدروس . ولكنه كان يدعى للاشتراك في حصة قراءة نص المؤرخ القديم ، وكان في ذلك سعادة عظيمة له . كانت هذه الحصص بالنسبة للأخ الشاب الذي لا نعلم عن حياته إلا القليل ، تمييزا لا شك فيه ، ومتعة وحفزا رائعا . فقد أتيحت له فرصة الاشتراك قليلا كمستمع وكصبي صغير في عمل مفكرين من أصفى وأخلص مفكري العصر ، وفي

تبادلهما العلم . وكان كنشت يقدم للأب لقاء دروسه ، وبعد حصص النقوش والمصادر التاريخية ، مقدمة في تاريخ كاستاليا ونظامها وفي الأفكار الرئيسية للعبة الكريات الزجاجية ، وكان التلميذ يتحول الى معلم والمعلم الجليل يصير مستمعا ينقد ويسأل أسئلة يصعب الإجابة عليها بما يرضيه . وكانت ريبته من العقلية الكاستالية كلها دائمة اليقظة . وكان يشك فيها نظرا لخلوها من المسلك الديني بالمعنى الصحيح ويشك في قدرتها وجدارتها على تربية انسان يمكن أن يحمل بالفعل محمل الجد ، رغم مثول كنشت أمامه كمثل حي على النتيجة الكريمة لهذه التربية . حتى في الوقت الذي كان فيه تأثير كنشت عليه بالتدريس والمثل قد غير فكره وقربه من كاستاليا ، وكان قد قر قراره على تحبيذ التقارب بين كاستاليا وروما ، كمان لا يزال يجد في نفسه ريبة لم تنم قط نوما كلما ، وقد سجل كنشت محاورة لهما في توها ، وهي مليئة بالأمثلة الصارخة على هذه الريبة ، نورد منها هذا المثال :

الأب : «أنتم يا أهل كاستاليا علماء أفذاذ ومتخصصون كبار في الجمال ، تقيسون وزن الحروف الساكنة في قصيدة قديمة ، وتوجدون لذلك الوزن علاقة تربطه بمسار الأفلاك . وهذا شيء بديع ، ولكنه لا يزيد على أن يكون لعبا . بل إن سركم الأكبر ورمزكم الأعظم يتمثل في لعبة ، هي لعبة الكريات الزجاجية ، وأنا أريد الاعتراف بأنكم تحاولون رفع هذه اللعبة الجميلة الى شيء كالمقدسات ، أو على الأقل الى وسيلة لتهذيب النفس . لكن المقدسات لا تتفتق عن جهود من هذا النوع فاللعب يظل كما هو لعبا» .

يوزف : «أتعني أننا نفتقر الى أساس اللاهوت ؟» .

الأب : آه ، لسنا نريد أبدا أن نتحدث عن اللاهوت ، فالبعد بيننا وبينه شاسع . كان يكفيكم بعض الأسس البسيطة نسبيا ، مثل الانثربولوجية[١] أعني علما حقيقيا ومعرفة حقيقية بالإنسان . فأنتم لا تعرفون الإنسان ، لا

---

(١) عم الإنسان . (المترجم)

تعرفون الناحية البهيمية فيه ولا الناحية الإلهية . لا تعرفون إلا الكاستالي ، وما الكاستالي إلا زمرة خاصة أو طبقة أو محاولة إنتاج صنف بذاته» .

كانت مصادفة فريدة في بابها تلك التي حظي بها كنشت وهو يسعى في كسب الأب لكاستاليا واقناعه بقيمة التحالف بين كاستاليا وروما ، مصادفة الالتقاء لتبادل الدروس ، فقد أفسحت أمامه أوسع وأصلح مجال لبلوغ هدفه . كانت موقفا يناسب أعظم مناسبة أقصى ما يتمناه أو يبتدعه إنسان في مكانه ، حتى إنه ما لبث أن أحس بوخز الضمير أو ما يشبه ذلك ، لأنه تصور أنه من المخجل ومما لا يليق أن يدع الرجل الجليل يجلس قبالته ممتلئا ثقة فيه وكلفا به ، أو يتجول معه في الممر جيئة وذهابا ، وهو في نظره هدف نوايا سياسية خفية . ولم يكن كنشت يميط بها اللثام عنه ، واذا بالشيخ يسبقه بمفاجأة .

قال له في يوم من الأيام بلهجة من يتحدث عن موضوع ثانوي : «يا صديقي العزيز ، لقد اكتشفنا بالفعل طريقة رائعة ، أرجو أن تكون مفيدة من تبادل الأفكار . لقد وجد العملان اللذان ظلا طوال حياتي أحب الأعمال الى نفسي : التعلم والتعليم ، وجدا في حصصنا المشتركة نوعا جديدا جميلا من الارتباط ، وحدث ذلك في الوقت المناسب ، لأنني بدأت أحس بالشيخوخة ، ولم يكن هناك سبيل للاستجمام واستعادة القوى ، أحسن من حصصنا . وأستطيع أن أقول عن نفسي ، إنني في تبادلنا ، أعتبر نفسي الرابح على أية حال . ولكنني لست متأكدا من أنك يا صديقي ، أو على الأحرى من أن الناس الذين بعثوا بك رسولا ، والذين تقوم بخدمتهم ، يكسبون من الأمر ما كانوا يرجون كسبه . وأنا أريد أن أحول دون حدوث خيبة أمل في المستقبل ، وأحب ألا تنشأ بيننا علاقة غير واضحة ، لذلك أرجو أن تسمح لمجرب عجوز بأن يسألك سؤالا : « لقد فكرت في مقامك في ديرنا مرارا وتكرارا ، رغم أنه يسرني جدا . وحتى وقت قريب ، بالضبط حتى اجازتك الأخيرة ، استطعت أن

أتبين أن مغزى وهدف وجودك بيننا غير واضحين في ذهنك وضوحا كاملا على الاطلاق . فهل أصبت في ملاحظتي ؟ » .

فلما رد كنشت بالإيجاب ، أردف يقول : « حسنا . لكن الوضع تغير منذ عودتك من تلك الاجازة . فأنت لا تفكر ولا تهتم بهدف وجودك هنا كما كنت تفعل من قبل ، بل أنت تعرف ذلك الهدف معرفة جيدة . أليس كذلك ؛ ؟ ـ حسنا ، إذن فلم أخطئ الظن . ولعلي لا أخطئ الظن في الصورة التي رسمتها لهدف وجودك هنا . أنت مكلف بمهمة دبلوماسية ، مهمة دبلوماسية ليس المقصود بها ديرنا ولا رئيسه ، بل المقصود بها أنا . ـ هكذا ترى أن سرك لم يخف منه الكثير . وحتى أوضح الموقف نهائيا ، سأخطو خطوة أخيرة وأنصحك بأن تكشف لي أنت بقية السر . ما هي مهمتك ؟ » .

كان كنشت قد انتفض ووقف أمامه مدهوشا حيران ، ويوشك أن يفقد صوابه ، «لقد أصبت . وأنت تخفف ما بي ، وتخجلني بسبقك . فقد فكرت منذ مدة في طريقة أوضح بها علاقتنا ، وضوحا سمعته أنت لتوك . ومن حسن الحظ أن التماسي نصحك واتفاقنا على الأخذ بيدي الى علومك ، كانا في الوقت السابق على اجازتي ، وإلا للاح أمرهما كما لو كانا دبلوماسية لا أكثر ولا أقل ، ولكانت دراساتنا مجرد ذريعة! » .

فهدأ الشيخ في ود من روعه . وقال له : «لم أرد أكثر من مساعدة أنفسنا على التقدم خطوة الى الأمام . وليس خلوص نواياك بحاجة الى تأكيد . فإذا كان الأمر لا يزيد عن أن أكون قد سبقتك وأفضت اليك بما تتمنى ، فهذا خير كله» . وأخبره كنشت بمهمته فقال في شأنها : «لستم يا أهل كاستاليا من عباقرة الدبلوماسية ، ولكنكم على أية حال دبلوماسيون معقولون جدا ، وقد واتاكم الحظ . وسأفكر في مهمتك في خلوتي وسيكون حكمي الى حد ما رهنا بك ، وبالقدر الذي ستوفق به في اطلاعي على دستوركم الكاستالي ، وعلى عالم أفكاركم ، وفي جعلها مقبولة في نظري . وليكن لنا وقت كاف في

هذا » . وكان كنشت لايزال يحس بالحرج ، فضحك الأب ضحكة عالية وقال له : « إن شئت فاعتبر ما فعلته اليوم درسا . فنحن دبلوماسيان ، ووجودنا الواحد مع الآخر صراع دائم ، حتى إذا اتخذ الصراع صورا ودية . وقد كنت متأخرا بالقياس اليك ، وكان قانون التصرف قد أفلت من قبضتي ، أما أنت فكنت تعلم أكثر مما أعلم أنا . أما الآن فنحن متساويان . وقد نجحت لعبتي وما أشبهها بلعبة الشطرنج ، وكان ما فعلته صوابا » .

كان كنشت يعلق قيمة وأهمية على اكتساب الأب لنوايا الهيئة الكاستالية لكنه كان يعلق قيمة وأهمية أكبر على الاكثار ما أمكن من التعلم على يد الأب ، وعلى أن يكون لهذا الرجل صاحب النفوذ قائدا أمينا الى العالم الكاستالي . وكان الكثيرون من أصدقاء كنشت وتلاميذه يحسدونه على كثير من أمره ، وكانت حالهم معه ، حال الكثيرين مع الرجال الممتازين ، انهم يحسدونه من ناحية على ما لهم من عظمة وطاقة داخلية ، ومن ناحية أخرى على سعادتهم الظاهرية وعلى ما يبدو من أن القدر يفضلهم تفضيلا . والصغير يرى من أمر الكبير ، ما يستطيع رؤيته . والحق أن تطور كنشت وترقيه يجد فيهما المتأمل شيئا خارقا للعادة ، شيئا براقا وسريعا وسهلا في ظاهره . ولعل الانسان يجد في هذه الفترة من حياته ما يستدرجه الي القول بأنه أوتي حظا . ولسنا نريد محاولة تفسير هذا الحظ لا بالطريقة العقلية ولا بالطريقة الأخلاقية ، لا على أنه نتيجة مسببة لظروف خارجية ، ولا على أنه مكافأة على ما تحلى به من فضيلة خاصة . فإن الحظ لا شأن له بالعقل ولا شأن له بالأخلاق ، إنه شيء في ذاته سحري ، شيء انحدر الينا من مرحلة مبكرة شابة من مراحل الانسانية . فالسعيد الساذج الذي تغدق عليه الجنيات من هباتها ويحيطه الآلهة بالتدليل ، ليس مادة للتأمل العقلي وليس بالتالي مادة لكتابة السير ، بل هو رمز يقف وراء حدود العنصر الشخصي والعنصر التاريخي . على أنه يوجد من عظماء الناس من لا يمكن

تصور حياتهم دون «الحظ» حتى ولو كان هذا الحظ لا يزيد عن أن يكون تلاقي المهمة المنوطة بهم في الواقع من نواحيها التاريخية ونواحيها الخاصة بتاريخ الحياة نفسها ، بمعنى أنهم ولدوا في وقتهم ، لا قبله ، ولا بعده . ويبدو أن كنشت كان من هذا النوع من الناس . فإن حياته توحي على الأقل في مرحلة تالية منها ، بأن كل ما كان يتمناه كان يقع من تلقاء نفسه في حجره . ونحن لا نريد أن ننكر أو نمسح هذه الظاهرة ، وربما كان في الامكان تفسيرها اتباعا لمنهج يعتمد على تاريخ حياة الشخص ويسلك مسلك العقل ، لكن مثل هذا المنهج المحتمل ليس منهجنا وليس هو المنهج المرغوب المطلوب في كاستاليا ، لانغماسه غير المحدود في الناحية الشخصية الخاصة المسرفة في الشخصية والخصوصية واعتماده على الصحة والمرض وعلى اهتزازات ومنحنيات الاحساس بالحياة وبالذات . ونحن واثقون من أن كتابة تاريخ الحياة على هذا النحو الذي لا نرتضيه لأنفسنا سيؤدي الى اثبات وجود توازن كامل بين «حظه» وبين آلامه ، ولكنه سيؤدي مع ذلك الى تشويه صورة شخصيته وحياته .

كفانا هذا الاستطراد . كنا نتحدث عن كنشت وقلنا إن الكثيرين ممن كانوا يعرفونه أو ممن سمعوا به كانوا يحسدونه . ولم يحسده من يصغرونه على شيء أكثر من حسدهم إياه على علاقته بالبندكتيني الشيخ ، تلك العلاقة التي كانت تتلمذا وتعليما ، أخذا وعطاء ، انضواء وتغلبا ، صداقة وعملا مشتركا في وقت معا . ولم يجد كنشت نفسه منذ أن سعد بكسبه في معية الأخ الأكبر بخميلة الغاب ، كسبا آخر يسعد به ويتميز به ويخجل منه في الوقت نفسه ، ويجد فيه المنحة والحافز ، إلا هذا الكسب . ولا يكاد يوجد من تلاميذه المقربين فيما بعد من لم يشهد بأن كنشت كان كثيرا ما يتكلم عن الأب ياكوبوس ، ويتكلم عنه بحب وسعادة . فقد تعلم كنشت لديه شيئا ما كان ليتعلمه في كاستاليا في ذلك الوقت . ولم يقتصر ذلك على الالمام بمناهج

وطرق الاستدلال والبحث التاريخي والتمرن عليها لأول مرة تطبيقا ، بل تجاوزه الى أنه خبر التاريخ لا كعلم بل كواقع ، كحياة ، مع ما تبع ذلك من تحوير وترقية الحياة الخاصة الشخصية الى تاريخ . وهذا شيء ما كان يمكن لكنشت أن يتعلمه على يد عالم عادي . والحق أن ياكوبوس كان قد تجاوز مرتبة العالم وأصبح فوق ذلك ذا بصيرة وحكمة . كان يستطيع أن يعيش الأحداث ويشترك في خلقها ، واستخدم المكان الذي وضعه فيه القدر لا ليستدفئ على حرارة متعة حياة المتأمل ، بل ليدع رياح الدنيا تنفذ وتهب داخل حجرته كعالم ، وليسمح لمحن وتوقعات عصره بالولوج في قلبه . كان مشتركا بالفعل في أحداث زمانه ، وكان مشتركا في ذنبها ومسئوليتها ، ولم يكتف بالتطلع الى الأحداث وتنظيمها وتفسيرها ، ولم يكتف بالاشتغال بالأفكار ، بل تجاوز ذلك الى الاهتمام بوعورة المادة والناس . وأصبح ، بالاشتراك مع مساعده وخصمه ، وهو أحد اليسوعيين مات منذ وقت غير طويل ، يعتبر مؤسس القوة الدبلوماسية والأخلاقية ، ومؤسس السمعة السياسية العالية التي استعادتها الكنيسة الرومانية بعد أزمان طويلة من التخاذل والعوز .

صحيح أن الحديث لم يدر في محادثات التلميذ والمعلم عن الحاضر السياسي ـ ولم يحل دون ذلك دربة الأب على الصمت والتحفظ فقط بل حال دونه أيضا تهيب الشاب من الانزلاق في الدبلوماسية والسياسة ـ ولكن موقف الأب السياسي ونشاطه كبندكتيني كانا مختلطين بنظرته الى تاريخ العالم ، متى كان كل رأي من آرائه ، وكل نظرة من نظراته الى خضم أحداث الدنيا تنطق في طياتها بلسان السياسي الممارس ، السياسي الذي لا يعرف الطموح ولا المؤامرة ، السياسي الذي لم يكن وصيا ولا زعيما ولا متطلعا لقيادة ، بل كان مستشارا ناصحا ووسيطا ، ورجلا تخفف الحكمة نشاطه ، وتخفف النظرة العميقة في عجز الكيان الانساني وصعوبة مسعاه ، رجلا تكونت له سلطة هامة نتيجة لشهرته وخبرته ومعرفته بالناس وأحوالهم ،

ونكرانه لذاته ، ونزاهة شخصه . كان كنشت عندما أتى الى ماريافلس لا يعرف شيئا ، لم يكن يعرف حتى اسم الأب ، فقد كانت أغلبية أهل كاستاليا تعيش في براءة سياسة لا تعلم شيئا من مجريات الأحداث كما كانت حال طبقة العلماء في عصور متقدمة . لم يكن لأهل كاستاليا حقوق وواجبات سياسية ، ولم يكونوا يطلعون على جرائد . واذا كان هذا هو مسلك وعادة الرجل الكاستالي العادي ، فقد كانت الهيبة من الأحداث الجارية ومن السياسة ومن الجرائد أعظم بكثير لدى لاعبي الكريات الزجاجية ، الذين كانوا يحبون اعتبار أنفسهم صفوة وزبدة الاقليم ، ويجتهدون في عدم تعكير الجو الرقيق الرفيع لوجودهم العلمائي الفني بشيء . وعندما ظهر كنشت للمرة الأولى في الدير لم يكن محملا بمهمة دبلوماسية بل كان معلم لعبة الكريات الزجاجية ، ولم تكن لديه من المعلومات السياسية إلا ما تعلمه من المسيو دوبوا في أسابيع قليلة . وإذا نحن قارنا كنشت الآن بكنشت في المرة السابقة ، تبينا أنه زاد علما إلى مدى بعيد ، ولكنه لم يتخلص من نفور أهل فالدتسل من الاشتغال بالسياسة الجارية . فإذا كان قد صحا سياسيا نتيجة لمخالطته الأب ياكوبوس وتعلمه على يديه ، فليس ذلك لأنه قد أحس بحاجة الى الصحوة السياسية ، كما أحس بشغف بالتاريخ مثلا ، وإنما لأنه أصبح أمرا لا مفر منه ، بقدر ما كان أمرا عرضيا .

وكان كنشت قد أحضر معه بعض المراجع ليكمل عدته وليرتفع الى مستوى الأب الذي كان يتشرف بمهمة تعليمه أمور كاستاليا ، وكانت المراجع تعالج دستور الاقليم وتاريخه وتعالج نظام مدارس الصفوة وتاريخ تطور لعبة الكريات الزجاجية . وكانت بعض هذه الكتب قد أسدت اليه خدمات جليلة في صراعه مع بلينيو ديزنيوري منذ عشرين عاما ـ ولم يقع بصره عليها منذ ذلك الحين ـ وكان البعض الآخر قد حجز عنه في ذلك الحين لأنه كان مؤلفا خصيصا لموظفي كاستاليا ، فشرع الآن في قراءته . وهكذا

حدث أنه في الوقت الذي اتسعت فيه ميادين دراساته ، اضطر الى العودة الى مطالعة القاعدة الخاصة الفكرية والتاريخية وفهمها والتثبت منها . واصطدم ، وهو في معرض محاولة توضيح وتبسيط كيان الطائفة والنظام الكاستالي للأب ، بأضعف نقطة في ثقافته ، وفي الثقافة الكاستالية . فقد تبين أن الظروف التاريخية العالمية التي مكنت ودعمت نشأة الطائفة وما تفرع عنها لم تكن ماثلة في ذهنه إلا في صورة تخطيطية باهتة ينقصها الوضوح والنظام . وهكذا حدث أن ارتفع الأب عن مستوى التلميذ السلبي الى التلميذ الايجابي وزاد في التعاون المشترك بينهما الى مرتبة التبادل البالغ الحيوية . وبينما كان كنشت يحاول القاء محاضرته عن تاريخ الطائفة الكاستالية كان الأب ياكوبوس يساعده على النظر الى هذا التاريخ نظرة صحيحة من وجهة ما ويساعده على تصوره والتوصل الى جذوره في التاريخ العام للعالم كله وللبلدان على حدة . وسوف نرى فيما بعد أن مناقشات كنشت والأب ، تلك التي كثيرا ما تحولت نتيجة لمزاج الأب الحاد الى مناقشات بالغة الحدة والعنف قد حملت ثمارا بعد سنوات وظلت فعالة الأثر حتى نهاية كنشت . ويبين مسلك الأب فيما بعد ، كيف كان يتابع محاضرات كنشت باهتمام وكيف تعلم من خلالها معرفة كاستاليا ، والاعتراف بها . الى هذين الرجلين يرجع فضل التفاهم القائم حاليا بين روما وكاستاليا ، ذلك التفاهم الذي بدأ بحياد ودي وتبادل ثقافي مؤقت ، وارتقى أحيانا الى التعاون الحقيقي والتحالف . بل إن الأب تمنى أن يلم بلعبة الكريات الزجاجية نظريا ـ وكان في مبدأ الأمر ينكرها مبتسما ـ لأنه أحس أن فيها سر الطائفة وايمانها أو دينها ، وأراد أن ينطلق الى القلب مباشرة في سعيه الى معرفة ذلك العالم الذي لم يكن يحبه ، ولم يكن يعلم عنه شيئا إلا ما يحكى عنه . انطلق الى القلب بطريقته التي تتسم في الوقت نفسه بالقوة وبالخبث . وهو ان لم يكن قد أصبح من لاعبي الكريات الزجاجية ـ فقد كان من الشيخوخة بحيث

يستحيل عليه ذلك ـ فقد وجدت فيه أفكار اللعبة والطائفة أجدر وأقيم صديق خارج كاستاليا ، كما لم تجد من قبل .

وكان الأب من حين لآخر يلمح لكنشت بعد انتهاء العمل والوداع ، بأنه سيبقى في البيت من أجله إذا أتى المساء . وكان كنشت يذهب ويمضي بعد جهود الدروس وانفعالات المناقشات ساعات هادئة مع الأب ، وكثيرا ما كان يأخذ اليها معه الكلافيكورد أو الكمان فيجده جالسا الى البيانو في ضوء شمعة رقيق تملأ برائحة الشمع الحجرة الصغيرة التي ما تلبث أن تملأ كذلك موسيقى كوريللي أو سكارلاتي أو تيليمان أو باخ[1] ، يعزفها أحدهما بعد الآخر ، أو يعزفانها معا . وكان الشيخ يذهب الى النوم مبكرا ، بينما كان كنشت ، وقد قوته ساعة الاستجماع الموسيقية المسائية ، يمد وقت عمله الى الحد الذي يسمح به النظام من الليل .

وكان كنشت الى جانب ذلك يشتغل بعمل كبير علاوة على التعليم والتعليم بالاشتراك مع الأب ياكوبوس ، وحصص لعبة الكريات الزجاجية في الدير تلك التي تعرضت للتهاون ، وبرنامج اللغة الصينية الذي كان يخصه به الأب المدير جرفاسيوس من حين لآخر ، فقد كان يشترك في المباراة السنوية لصفوة فالدتسل ، بعد توقف في العامين الماضيين . وكان الاشتراك في هذه المباراة أو المسابقة يتطلب انشاء تصميمات للعبة الكريات الزجاجية على أساس موضوعات ثلاثة أو أربعة مقررة ، وكان الحكم يقيم وزنا أساسيا للقدرة على ادماج الموضوعات على نحو جديد جريء أصيل في نقاوة شكلية عالية وجمال في الرسم . وكان يسمح للمتسابقين في هذه المناسبة الفريدة بتجاوز قواعد القانون ، بمعنى أن المتسابقين كان يحق لهم استخدام رموز لم تضم رسميا الى السجل الرسمي والكنز الهيروغليفي . لهذا كانت هذه المسابقة ، بعد الألعاب العامة العظيمة ، أكثر أحداث قرية اللعبة إثارة ، وكانت علاوة على

---

(١) Bach. Telemann. Scarlatti. Corelli

ذلك مسابقة للمتطلعين الى ايجاد رموز جديدة للعبة ، وكان أعظم تكريم يمكن للمنتصر في هذه المباراة أن يجتنيه ، وهو ما كان لا يحدث الا فيما ندر ، هو أن تؤدى لعبته في حفل باعتبارها أحسن لعبة تقدم بها مرشح ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، أن تقبل الزيادة التي أتى بها في قواعد وقاموس اللعبة ويعترف بها وتضاف الى أرشيف اللعبة ولغة اللعبة . وقد كان هذا الشرف النادر منذ خمسة وعشرين عاما من نصيب توماس فون در ترافه العظيم ، الماجستر لودي الحالي ، لما قدمه من اختصارات جديدة للتفسير الخيميائي للرموز الفلكية للأبراج المسماة بأسماء الحيوانات ، وهو ما أدى بالماجستر فيما بعد الى خطوات أكثر في فهم وتنظيم الخيمياء باعتبارها لغة سرية جليلة الفائدة . وصرف كنشت نظره هذه المرة عن استخدام قيم جديدة في اللعبة ، من تلك القيم التي كان كل مرشح تقريبا يعد منها مجموعة ، كذلك لم ينتهز الفرصة لحمل راية المنهج السيكولوجي كمنهج للعبة ، وهو أمر كان يلح عليه الحاحا . وإنما أنشأ لعبة ذات بناء وموضوعات حديثة شخصية ، لعبة تتميز قبل كل شيء بالتكوين الكلاسيكي الواضح الصافي وتتجه في تأديتها اتجاها معتدلا في الزخرفة وجمالا على طريقة الفنانين القدامى . ربما كان بعده من فالدتسل وعن أرشيف اللعبة هو الذي حمله على هذا الاتجاه ، وربما حمله على هذا اشتغاله الشديد المجهد لقوته ، المستحوذ على وقته ، بالدراسات التاريخية ، وربما كانت تحركه رغبة ، كبرت أو صغرت ، في تشكيل أسلوب اللعبة على مزاج معلمه وصديقه الأب ياكوبوس على أكبر قدر ممكن . لا علم لنا بالدافع .

استعملنا اصطلاح «المنهج السيكولوجي للعبة» ، وهو اصطلاح ربما لم يفهمه كل قارئ من قرائنا بسهولة . أما في عصر كنشت فقد كان هذا الاصطلاح شعارا كثير الترديد . في ذلك الوقت كان العليمون بلعبة الكريات الزجاجية يشتغلون باتجاهات وموضات وصراعات وآراء وتأويلات مختلفة ، لكن الجدل والنقاش كان يدور حول مفهومين للعبة . كانوا يفرقون بين ضربين

من اللعب ، ضـرب شكلي ، وضـرب سـيكولوجي . ونحن نعلم أن كنشت ، وكذلك تيجولاريوس رغم ابتعاده عن المجادلات ، من أتباع ومؤيدي الضرب الثاني ، على أن كنشت كان يتحدث عن «الطريقة التربوية» أكثر مما يتحدث عن «الطريقة السيكولوجية» للعب . كانت اللعبة الشكلية تستهدف تكوين وحدة منسجمة متماسكة خالية من الثغرات كاملة من ناحية الشكل ، وقائمة على المضامين الموضوعية لكل لعبة ، أعني على المضامين الرياضية واللغوية والموسيقية... الخ وكانت اللعبة السيكولوجية لا تنشد الوحدة والانسجام والتكامل الكوني والكمال في الاختيار والتنظيم والتركيب والعقد والمقابلة بين المضامين ، بل تنشده في التأمل التابع لكل مرحلة من مراحل اللعبة ، وتهتم بذلك التأمل وتؤكده تأكيداً . مثل هذه اللعبة السيكولوجية التي كان كنشت يفضل تسميتها اللعبة التربوية ، كانت لا تبدي من الناحية الخارجية مظهر الكمال ، بل كانت تسوق اللاعب عبر تأملاته المحددة بدقة الى معاناة الكمال والإلهية .

وفي ذلك كتب كنشت مرة الى أستاذ الموسيقى القديم يقول : «اللعبة ، على نحو ما أرى ، تتملك اللاعب وتضمه بعد الفراغ من كل تأمل ، كما يضم سطح الكرة مركزها ، ثم ترسله وهو يحس أنه استخلص من العالم العرضي المضطرب عالما متناسبا منسجما ، وضمه الى ذاته» .

كانت اللعبة التي اشترك بها كنشت في المسابقة الكبرى إذن ، لعبة شكلية وليست سيكولوجية . ربما كان يرجو من وراء هذه اللعبة أن يثبت للرؤساء أنه باقامته في ضيافة ماريافلس وحمله أعباء المهمة الدبلوماسية لم يفقد كلاعب كريات زجاجية شيئا من مرانه ومرونته وأناقته وبراعته . وقد نجح في هذا فعلا . وكان كنشت قد عهد بالصياغة النهائية لتصميم اللعبة الى صديقه تيجولاريوس الذي كان هو أيضا من المشتركين في المسابقة ، عهد بها اليه لأنها كان ينبغي أن تتم في أرشيف اللعبة . واستطاع كنشت أن يسلم

أوراقه الى صديقه بيده وأن يناقشها معه ، بل ويناقشه في مشروعه هو كذلك ، لأنه كان قد نجح في الحصول على موافقة المسئولين على ارسال تيجولاريوس اليه في الدير لمدة ثلاثة أيام . وقد تطلب ذلك توجيه رجاء الى الماجستر توماس مرتين ، وأخيرا وافق . وبقدر ما فرح تيجولاريوس بالزيارة ، وبقدر ما أحضر معه من شغف المعتزل الكاستالي ، بقدر ما أحس بالضيق المفرط في الدير . بل إنه ، وهو الانسان الحساس ، قد أوشك أن يمرض من تأثير الانطباعات الكثيرة الغريبة في وسط هؤلاء الناس المهذبين البسطاء الأصحاء الذين يتصفون الى ذلك بشيء من الغلظة ، والذين لا يهتمون أقل الاهتمام بأفكارهم ومشاكلهم وكروبهم . حتى لقد قال لصديقه : « إنك تعيش هنا على كوكب غريب . وأنا لا أكاد أفهم ، بل أعجب ، أنك تحملت هذا مدة ثلاث سنوات . حقيقة أن الآباء هنا عندك يعاملونني معاملة طيبة جدا ، ولكنني أحس كأن الجميع يرفضونني وينبذونني . ليس هنا شيء يقترب مني ، ليس هنا شيء بديهي يفهم بذاته ، وليس هناك شيء يستساغ بلا مقاومة أو ألم . لو كان علي أن أعيش أسبوعين هنا ، لفضلت عليهما الجحيم » . تعب كنشت معه ، لكنه تذكر أنه رأى هو كذلك ، في شيء من القلق لأول مرة ، تلك الغرابة الكائنة بين الطائفتين وبين العالمين ، رآها بعين المشاهد ، وأحس أن صديقه المفرط في الحساسية لا يترك هنا أثرا طيبا ، لما في مسلكه من حيرة ممتزجة بالخوف . المهم أنهما استعرضا مشروعي اللعبتين اللذين صمماهما للمسابقة استعراضا دقيقا نقديا ، وكان كنشت عندما ينصرف بعد ساعة من هذا العمل ، ويذهب الى الأب ياكوبوس أو يذهب الى الجناح الآخر ، أو يذهب لتناول الطعام ، يحس كأنه انتقل بغتة من وطنه الى بلد آخر ، فيه أرض مختلفة وهواء مختلف ومناخ مختلف ونجوم مختلفة . فلما انصرف فريتس تيجولاريوس عائدا الى فالدتسل تحدث الأب ياكوبوس بانطباعه الذي استفزه فيه هذا الصديق ، قال كنشت « أرجو أن

تكون غالبية الكاستاليين أشبه بك من صديقك . إنه نوع من البشر غريب الأطوار قست عليه التربية في إفراط ، إنه ضعيف ، ومع ذلك ، أكاد أقول أنه متكبر . ولكني سأظل على تمسكي بك لأنني إن لم أفعل ، ظلمت فصيلتكم كلها . فإن هذا الانسان المسكين الحساس المفرط في النباهة المضطرب ربما كرهني في اقليمكم كله» .

فرد كنشت عليه قائلا : «على رسلك . لا شك أنه وجد بين البندكتينيين على مر القرون مرة على الأقل رجل كان ضعيف الجسم عليل الصحة ، ولكنه كان ، لهذا السبب ، مكتمل الفكر والقدر كحال صديقي . ربما كان سوء تقدير مني أن استقدمته الى هنا حيث تركزت الأبصار على نواحي الضعف فيه ، ولم يحفل بنواحي القوة فيه انسان . وقد قدم الي بقدومه خدمة عظيمة تنم عن صداقته الحقة» . وقص كنشت على الأب قصة دخوله المسابقة . فسر الأب لانتصار كنشت لصديقه وضحك ضحكة لطيفة وقال : «أحسنت الرد! ولكنك تتخذ في الحقيقة ، على ما يبدو ، أصدقاء يصعب التعامل معهم في العادة» . وتمتع الأب بحيرة كنشت وبوجهه المندهش ثم قال بغير اكتراث : «أنا أقصد هذه المرة شخصا آخر . هل سمعت أخبارا جديدة عن صديقك بلينيو ديزنيوري ؟ وهنا زادت دهشة كنشت زيادة هائلة ، وطلب مأخوذا ايضاح الأب . فعلم أن الموضوع هو أن ديزنيوري اتخذ في مقال سياسي جدلي موقف المؤمن بأفكار معادية لرجال الكنيسة على نحو عنيف وهاجم الأب ياكوبوس هجوما شديدا . طلب الأب ياكوبوس من أصدقائه العاملين بالصحافة الكاثوليكية معلومات عن ديزنيوري ، ووجد فيها ذكرا لدراسته في كاستاليا ولعلاقته الشهيرة بكنشت .فرجا كنشت الأب أن يعيره مقالة بلينيو حتى يعكف على قراءتها . وارتبط بذلك حديث عن السياسة الجارية بين كنشت والأب ، حديث لم يعقبه الا أحاديث من نوعه .وكتب كنشت بعد ذلك الى فيرومونته يقول له :

«لقدلاح لي شخص بلينيو عجيبا بل أكاد أقول مخيفا ، وتصورت نفسي فجأة بجانبه كتابع له ، على مسرح السياسة العالمية . وهذا شيء لم أكن قد فكرت من قبل قط في إمكانية حدوثه» . هذا الى أن الأب كان يتكلم عن مقال بلينيو بلسان المعترف بقيمته أو ما يشبه ذلك ، ولم يتكلم عنه على أية حال بتأثر أو حساسية . فمدح أسلوب ديزنيوري وقال : إن الإنسان ليتبين فيه أثر مدرسة الصفوة ، وأضاف أن الناس يرضون عادة في السياسة الجارية بما هو أقل مستوى وفكراً من ديزنيوري .

في ذلك الوقت تلقى كنشت من صديقه فيرومونته نسخة من الجزء الأول من كتابه الذي سيشتهر فيما بعد والذي يحمل عنوان : «اقتباس الموسيقى الفنية الألمانية للموسيقى الشعبية السلافية وطريق تحويرها ابتداءً من يوزف هايدن[1]» . وكتب كنشت الى فيرومونته ردا على هذا الجزء خطابا قال فيه : «لقد خرجت من دراساتك ، التي سعدت فترة بالاشتراك فيها ، بنتيجة حاسمة . إن الفصلين المختصين بشوبرت ، وبالرباعيات على وجه التحديد ، من أثمن ما عرض لي في تاريخ الموسيقى في الوقت الحديث . فكر في من حين لآخر ، فإنني بعيد عن مثل هذا المحصول ، الذي وفقت اليه . وبالرغم من أنني راض بمقامي هنا ـ فإن مهمتي بماريافلس تبدو ممكنة النجاح ـ فإنني أحس بين الفينة والفينة بغربتي عن الاقليم وعن دائرة فالدتسل التي اتبعها ، أحس بها كشيء مقبض . إنني أتعلم هنا الكثير ، أتعلم أشياء كثيرة لا نهاية لها ، ولكن ما أتعلمه لا يزيد في اطمئناني في كفاءتي الفنية ، بل هو زيادة في المشكلات . على أنني لا أنكر أنه يزيد في سعة أفقي . وقد تجاوزت مرحلة القلق والحيرة والغربة وعدم الثقة ، والعبوس وفقدان الثقة في النفس ، وكثيرا غير ذلك ، مما أحسسته وعانيته في غضون السنتين الأولين . وقد زارني تيجولاريوس هنا منذ وقت قريب وبقي هنا

(١) Josef Haydn

ثلاثة أيام لا أكثر ، ولكنه بقدر ما فرح بلقائي وبقدر ما كان شغوفا بالتعرف على ماريافلس ، بقدر ما صعب عليه من اليوم الثاني تحمل الكآبة والاحساس بالغربة . ولما كان الدير في حد ذاته عالما مصونا ، وديعا ، كريما وليس سجنا أو معسكرا أو مصنعا ، فإنني أستنتج من خبرتي هنا نتيجة تتلخص في أننا أهل الاقليم أكثر دلالا وحساسية مما نعلم » .

في هذا الوقت الذي سطر فيه كنشت خطابه الى كارلو فيرومونتته ، نجح في جعل الأب ياكوبوس يكتب رقعة صغيرة الى رئاسة الطائفة الكاستالية يبلغها فيها بموافقته على الموضوع الدبلوماسي الذي نعلمه ، ويرجوها فيها أن تترك « لاعب الكريات الزجاجية الذي يتمتع في المكان بحب الجميع » مدة أخرى لأنه يشرفه بدروس خاصة عن كاستاليا . ولا يصعب على أحد أن يتوقع قبول الرئاسة الكاستالية هذا الرجاء وتحقيقها إياه متشرفة به . أما كنشت ، الذي كان يعتقد أنه بعيد عن « حصاده » ، فقد تلقى من رئاسة الطائفة ومن السيد دوبوا كتاب اعتراف وتكريم على نجاحه في تأدية المهمة التي كلف بها . وكان في كتاب كاستاليا السامي اليه جملة صغيرة لاحت له على التو بالغة الأهمية وفرح بها أشد الفرح (وكتب عنها في أسلوب المنتصر الى فريتس) ، وتتضمن أن الطائفة ، علمت مما نقله اليها أستاذ لعبة الكريات الزجاجية ، برغبته في العودة الى قرية اللاعبين ، وأنها تميل الى تحقيق هذه الرغبة بعد أن ينتهي من مهمته الحالية . وقرأ كنشت هذه الفقرة على الأب ياكوبوس وصارحه بأنه كان يخشى أن ينفى من كاستاليا نهائيا وأن يرسل الى روما . فقال له الأب ضاحكا : « نعم يا صديقي ، تلك من سمات الطائفة ، يفضل الانسان العيش في أحضانها على العيش على حافتها أو منفيا عنها . ويمكنك أن تنسى إن شئت طرف السياسة ، الذي ألقت بك المقادير على مقربة كريهة منه ، لأنك لست سياسيا . ولكن لا تتنكر للتاريخ ، واهتم به ولو كعلم ثانوي أو كهواية . فلديك العدة لذلك . والآن لينتفع كل منا من صاحبه ، طالما كنت لدي » .

ويبدو أن يوزف كنشت لم يستخدم التصريح الذي أُعطي له ليزور فالدتسل زيارات متكررة ، إلا قليلا . ولكنه كان يستمع بالراديو الى الدروس التطبيقية والى بعض المحاضرات واللعب . وهكذا اشترك من بعيد وهو جالس في حجرته الفاخرة في الدير ، اشترك في «الاجراءات» التي جرت في قاعة الاحتفالات بقرية اللاعبين وأعلنت فيها نتائج المسابقة . كان كنشت قد قدم كما علمنا عملا ليس بالعمل الشخصي المحض ، وليس بالعمل الثوري على الاطلاق ، ولكنه عمل أصيل بالغ الأناقة كان هو يعرف قدره ، ويعرف أنه سيحظى باشارة مدح أو بالجائزة الثالثة أو الثانية . وكم كانت دهشته عندما سمع أنه حصل على الجائزة الأولى . وقبل أن تثير فيه الدهشة الشعور بالفرح ، قرأ المتحدث بلسان أستاذ اللعبة بصوته الجميل العميق بقية البيان ، وأعلن أن الجائزة الثانية قد منحت لتيجولاريوس . كان هذا حدثا مثيرا مذهلا ، أن يبرز الاثنان يدا في يد من وسط هذه المسابقة يحملان تاجيّ الانتصار . وانتفض كنشت واقفا دون أن يكمل الاستماع ، وأسرع نازلا السلم منطلقا خلال القاعات الرنانة الى الخلاء . ونقرأ في خطاب كتبه في ذلك الوقت الى أستاذ الموسيقى العجوز : «إنني ، يا سيدي المبجل ، سعيد جدا ، ولا يصعب عليك تصور سعادتي : أولا نجاحي في أداء مهمتي وحصولي على التقدير والتكريم من رياسة الطائفة مع ما في ذلك من عودة قريبة ، تهمني كل الأهمية الى الوطن والأصدقاء ولعبة الكريات الزجاجية ، بدلا من تعييني في وظائف دبلوماسية ، وثانيا حصولي على هذه الجائزة الأولى على لعبة اجتهدت فيها من الناحية الشكلية اجتهادا كبيرا ، ولكني ـ لأسباب وجيهة ـ لم أقدم كل ما كان في مقدوري تقديمه . ويضاف الى ذلك كله فرحتي بالاشتراك في هذا الانتصار مع صديقي ـ كان هذا كثيرا على دفعة واحدة . إنني أحس بالسعادة ، ولكني لا أستطيع أن أقول إنني أحس بالفرح . فإن هذه الانتصارات تأتي بعد فترة ضحلة ، أو قل فترة بدت

لي ضحلة ، تأتي مفرطة المباغتة ، مفرطة الكثرة ، فتنصب على احساسي الباطني العميق . لهذا اختلط عرفاني بالجميل بشيء من الخوف ، ولاح لي حالي كحال إناء مليء حتى الحافة إذا سقطت عليه نقطة غيرت أمره كله . وأجعل كلامي هذا اليك كأن لم يكن ، فإن كل كلمة فيه فيها مبالغة » .

وسوف نرى أن الإناء الذي امتلأ حتى حافته قدر له أن يتقبل عما قريب أكثر من نقطة واحدة . أما في الفترة التالية فقد عاش كنشت لسعادته ولما اختلط بها من خوف ، باستسلام وتركيز كما لو كان يتوقع التغير الكبير الوشيك الحدوث . كذلك كانت هذه الشهور بالنسبة للأب ياكوبوس شهور سعادة وغبطة . وكان يأسف لعلمه أنه سيفقد هذا التلميذ والزميل قريبا ، وكان يحاول في حصصه بل وفي محادثاته المرسلة أن يعطيه من نفسه أكثر ما يمكن اعطاؤه مما علمه طوال حياته العملية والفكرية وبصر به في نواحي الرفعة ونواحي الانحطاط في حياة الناس والشعوب . كذلك كان بين الفينة والفينة يتحدث مع كنشت عن معنى مهمته ونتائجها وعن امكانية وأهمية تصادق روما وكاستاليا واتحادهما سياسيا ، ويوصيه بدراسة ذلك العصر الذي أنتج ثمارا منها تأسيس الطائفة الكاستالية والانتفاضة التدريجية التي أخرجت روما من عصر البلاء والضعة . ونصحه بأن يقرأ كتابين عن الاصلاح الديني وانقسام الكنيسة في القرن السادس عشر ، وحضه على أن يفضل دراسة المصادر المباشرة ، وأن يقتصر على أجزاء معينة من الميادين الكبيرة تكون واضحة ومتكاملة ، وأن يفضلها دائما على قراءة كتب ضخمة في تاريخ العالم ، وكاشفه بتشككه العميق في فلسفات التاريخ جميعها .

الفصل السادس

ماجستر لودي

كان كنشت قد قرر أن يكون رجوعه النهائي الى فالدتسل في الربيع ، في وقت لعبة الكريات الزجاجية العامة العظيمة التي يحتفل بها مرة واحدة كل عام . وكانت ذروة هذه الالعاب المشهورة في التاريخ وقت الالعاب السنوية التي تستمر أسابيع بطولها ويزورها الوجهاء والمفوضون من أنحاء العالم قد انتهت وأصبحت في ذمة التاريخ . وبقيت هذه الاحتفالات الربيعية بمؤتمراتها وبلعبتها الرسمية التي تستمر عادة ما بين عشرة أيام وأربعة عشر يوما بقيت تمثل أعظم عيد في السنة كلها بكاستاليا . ولم يكن هذا العيد يفتقر الى المعنى الديني والأخلاقي السامي ، لأنه كان يجمع ممثلي كل الأفكار ـ وإن لم يساو بينها ـ والاتجاهات في الاقليم ، يجمعهم في رمز للانسجام ، ويعقد السلام بين النزعات الأنانية للمواد الثقافية المختلفة ويذكر بالوحدة التي تهيمن على التنوع . وكان لهذا العيد في نظر المؤمنين القوة القدسية التي للتبريك ، وكان في اعتبار غير المؤمنين شيئا لا يقل عن بديل للدين ، وكان في رأي الطائفتين كلتيهما تطهراً في ينابيع الجمال الصافية . هكذا كانت في الماضي ، إن أردنا تشبيهاً ، «آلام» يوهان زباستيان باخ ـ على نحو أقوى في القرن التالي على اكتشافها منه في أيام نشأتها ـ بالنسبة للمشتركين في تأديتها ولمستمعيها عملا دينيا خالصا

وتبريكا ، بل كانت أحيانا صلاة وبديلا للدين وكانت في نظر الجميع آيات من آيات الفن والمبدع الروحي .

ولم يتعب كنشت كثيرا في الحصول على موافقة أهل الدير وأهل الإدارة الكاستالية على عزمه . هو إن لم يستطع أن يتصور بحق نوع الوظيفة التي سيوضع فيها في تنظيم الجمهورية الصغيرة بقرية اللاعبين ، فقد كان يتوقع أنه لن يترك في تلك الوظيفة طويلا وأنه سينقل الى منصب آخر أو سيكلف بمهمة أخرى . ولكنه كان سعيدا مؤقتا بالعودة الى الوطن والى الأصدقاء ، سعيدا بالاحتفال الوشيك . وتمتع بالأيام الأخيرة مع الأب ياكوبوس ، وتقبل بلباقة وبشاشة احتفال الأب المدير وجماعة الرهبان بوداعه وتعبيرهم عن ودهم بطرق مختلفة . ثم سافر وفي قلبه حزن على مفارقة مكان أحبه ومبارحة فصل خلفه وراءه من حياته . ولكنه كان في نفس الوقت قد أعد نفسه بتمرينات تأملية منتظمة في مجموعة تمهيدية للعيد ، تمرينات تأملية أداها وحده بلا مرشد وبلا زملاء واتبع فيها نص التعليمات اتباعاً غاية في الدقة . أما أنه لم ينجح في إقناع الأب ياكوبوس في قبول الدعوة التي وجهها اليه الماجستر لودي رسمياً منذ وقت طويل ليحضر عيد اللعبة السنوي وفي اقناعه بالسفر معه ، فكان أمرا بعيدا عن أن يعكر صفوه . فقد كان يقدر تحفظ عدو كاستاليا القديم . وأحس هو نفسه منذ تلك اللحظة بالتحرر من كل الالتزامات والتقييدات ، وبالاندماج التام في الاحتفال الذي ينتظره .

أما الاحتفالات فكان شأنها شأنا فريدا . لا يمكن أن يفشل عيد أصيل فشلا تاما إلا إذا تدخلت فيه عوامل مشئومة من القوى الجبرية . فإذا أمطرت الدنيا مثلا على موكب لم تنقص في نفس المؤمن التقي بركته ، كذلك لا تقل قيمة وليمة العيد في فم المؤمن إذا قست نيران الشواء عليها . هكذا كانت حال لعبة الكريات الزجاجية في عيدها السنوي مع لاعبي الكريات الزجاجية : كان عيدها في نظرهم عيدا يوشك أن يكون مقدسا .

لكننا جميعا نعلم أن هناك أعيادا واحتفالات تتعاون فيها كل العناصر وتتضافر وتزيد بعضها في قوة البعض تماما كالتمثيل والعزف ، نجد فيهما أحيانا مرات تصل فيها التأدية بدون سبب واضح ، أو بسبب يوشك أن يكون معجزة ، الى ذرى وإحساسات باطنية عميقة ، ومرات أخرى لا تزيد فيها التأدية ، برغم الاعداد والترتيب ، حدود التأدية المجتهدة . فإذا كان حدوث هذه الاحساسات الباطنية العميقة رهناً بالحالة النفسية للمشتركين ، فإن يوزف كنشت يعتبر أحسن من استعدّوا لها : فقد أتى بلا همٍّ ينغصه ، أتى الى وطنه محملا بالتشريف الذي ناله في الغربة ، وكان مشتاقا في سرور الى الحدث القادم .

لكن اللعبة السنوية هذه المرة لم يقدر لها أن تمسها تلك النسمة من المعجزة لتتطور الى ذلك المستوى الخاص من القدسية والنورانية . بل كانت اللعبة هذه المرة لعبة مجردة من الفرح ومن الحظ ، بل كادت تكون لعبة فاشلة . فإذا أحس الكثيرون من المشتركين فيها بالقوة والسمو الداخلي ، فلن يؤدي احساسهم هذا الا الى زيادة ما يحسه المسؤولون الحقيقيون الذين يقيمون الاحتفالات بمرارة جو البلادة والقسوة والفشل والتردد والنحس الذي تهدد به السماء هذا العيد . ورغم أن كنشت قد أحس بطبيعة الحال بخيبة أمل تعترض توقعه المتلهف ، فلم يكن من بين أولئك الذين أحسوا بالنحس أوضح الاحساس : فلم يكن من المشتركين في أعمال هذا الحفل ولم يكن يحمل فيه أية مسئولية وكان في استطاعته في تلك الأيام رغم استعصاء الزهرة الحقيقية والمنة الحقيقية على تتويج العمل ، أن يتابع كمشترك ورع اللعبة البديعة البنيان شاكرا مقدرا ، وأن يندمج في التأملات دون تكدير مكدر ، وأن يستكمل في ذاته في استسلام واندماج الشاكرين الخبرة التي يعرفها ضيوف هذه الالعاب خير المعرفة ، الخبرة التي تتكون في النفس نتيجة حفل أو تضحية أو حلول صوفي للجماعة عند أقدام العنصر الالهي ، يفعل ذلك في حدود ما

يمكن أن يقدمه حفل «فاشل» للجماعة الصغيرة المكونة من أخلص العليمين . على أنه لم يكن ليفلت من النحس الذي أحاط بهذا الاحتفال . كانت اللعبة وبنيانها لا يشوبهما شائب كحال ألعاب الأستاذ توماس كلها ، بل إنها كانت من أكثر الألعاب تأثيرا وبساطة ومباشرة . لكن تأديتها وقعت في قبضة النحس وكان لها شأن لا ينساه تاريخ فالدتسل .

عندما وصل كنشت الى هناك ، قبل بداية اللعبة العظيمة بأسبوع ، لم يحظ ـ بعد إعلان وصوله في قرية اللاعبين ـ بمقابلة أستاذ لعبة الكريات الزجاجية . وإنما استقبله وكيله برترام[1] الذي حياه ورحب به ثم أخبره في ايجاز شديد واهمال ، بأن الأستاذ المبجل متوعك في تلك الأيام وأنه هو شخصيا ـ برترام ـ لا يعلم عن مهمة كنشت ما فيه الكفاية ، لهذا فهو لا يستطيع أن يتلقى منه تقريره عن مهمته ، ورجاه أن يذهب الى رئاسة الطائفة في هيرسلاند ليبلغ خبر عودته ويتلقى الأوامر . وعند التوديع خرج في صوت كنشت أو حركاته عن غير قصد تعبير عن الاستغراب لبرودة الاستقبال وقصره ، فاعتذر له برترام . ورجاه كزميل أن يقبل عذره على تخييب أمله ، وأن يقدر صعوبة الموقف : فإن الماجستر مريض ، واللعبة العامة السنوية على الأبواب ، ولا أحد يعلم يقينا ما إذا كان الماجستر سيستطيع قيادة اللعبة بنفسه أو سيتحتم على الوكيل أن يتدخل ويقوم مقامه... لم يكن من الممكن أن يقع مرض الأستاذ الجليل في لحظة أسوأ ولا أصعب من هذه اللحظة... وأضاف أنه مستعد الآن ، استعداده في كل وقت ، لتسيير أعمال الديوان بدلا من الماجستر . أما أن يكون عليه أن يستعد على عجل استعدادا كافيا لقيادة اللعبة فهذا أمر يخشى أن يتجاوز مقدوره .

وأسف كنشت لحال الرجل الخائر الذي فقد توازنه ، وأسف أكثر لأن مسؤولية اللعبة قد توضع بين يديه . كان كنشت قد بعد عن فالدتسل زمنا

(١) Bertram

طويلا أطول من أن يتمكن من فهم علة مخاوف برترام : كان برترام ـ وهذا أسوأ ما يمكن أن يحل بوكيل ـ قد فقد منذ برهة ثقة الصفوة الذين يقال لهم «معيدين» ، وأصبح في موقف عصيب . وفكر كنشت في أستاذ لعبة الكريات الزجاجية وقد ساوره الهم ، فكر في هذا البطل الكلاسيكي في هيئته وسخريته ، في هذا الماجستر الكامل والفارس الشهم . كان كنشت قد منى نفسه بفرحة الحظوة باستقبال الماجستر الجليل له واستماعه اليه ، وبالعودة الى جماعة اللاعبين ، وربما بالتعيين في مركز ثقة . وكان أمل كنشت أن يرى العيد يحتفل به تحت رعاية الأستاذ توماس ، وأن يعمل تحت بصره ويرجو تكريمه . أما الآن فقد خالطه الحزن والألم وخيبة الأمل منذ وجد الأستاذ منطويا وراء مرضه ، ووجد نفسه مضطرا الى التوجه الى هيئات أخرى . وخفف عنه ألمه حفاوة السيد دوبوا المهذبة بل وروح الزمالة التي استقبله بها هو وأمن الطائفة حيث استمعا الى تقريره . واستطاع كنشت أن يفهم من أول جملة أنهم لا يفكرون في استخدامه في عمل متصل بالعلاقات المزمعة بروما ، وأنهم احترموا رغبته في العودة الدائمة الى اللعبة . وتلقى كنشت بصفة مبدئية للإقامة مؤقتا في مضيفة قرية اللاعبين ، وأن يدور بناظريه في المكان ليتأقلم فيه من جديد ، وأن يشترك في اللعبة السنوية العامة بحضوره . وقام مع زميله تيجولاريوس في الأيام السابقة على العيد بتمرينات الصيام والغوص في الذات والتأمل ثم شارك في تقوى وامتنان في تلك اللعبة الفريدة التي ارتسمت في ذاكرة البعض في صورة غير مفرحة .

ووظيفة وكلاء الأساتذة ، الذين يطلق عليهم اسم «الأشباح» وظيفة عجيبة الشأن حقا ، خاصة في حالة الوكلاء العاملين في ديوان أستاذ الموسيقى وديوان أستاذ اللعبة . كل أستاذ من الأساتذة له وكيل ، لا تعينه الرياسة ، وإنما يختاره الأستاذ بنفسه من وسط دائرة طلبته المقربين ، ويتحمل الأستاذ الذي اختار الوكيل مسئولية ما يقوم به الوكيل من أعمال ومسؤولية توقيعاته .

إذن فاختيار مرشح لهذا المنصب يعني تمييزا عظيما ويعتبر دليلا على أعلى درجة من الثقة : هذا الاختيار يرفع الشخص الى مرتبة المساعد الخاص واليد اليمنى للاستاذ ذي القوة والسلطان . ويقوم الوكيل في حالة وجود ما يعوق الاستاذ عن العمل بتسيير الأمور بتكليف من الأستاذ باستثناء بعضها ، ومنها على سبيل المثال التصويت في الهيئة العليا ، الذي لا يمكن للوكيل الاشتراك فيه إلا كحامل لموافقة أو رفض الأستاذ ، وليس له مطلقا أن يخطب خطبا أو يتقدم بطلب ، وما الى ذلك من مقررات قصد بها الاحتياط والحرص . وفي حين يعني تعيين شخص في مركز الوكيل وضعه في مركز رفيع جدا ، بارز جدا ، يعني ذلك التعيين تجميده في صورة بعينها ، إذ أنه يبعده على نحو ما في وسط ترتيب الوظائف الهرمي ابعاد الوضع الشاذ : ففي نفس الوقت الذي يكل اليه التعيين فيه أمر كثير من المهام ويمنحه شرفا عظيما ، يحرمه بعض الحقوق والامكانيات التي تتاح لكل طامح الى الترقي . ويتبين وضعه الشاذ في نقطتين خاصة : فالوكيل أولا لايحمل مسؤولية ما يقوم به من أعمال وهو ثانيا لا يمكنه أن يترقى في سلم الرتب . هذا الأمر ينظمه قانون غير مكتوب ، ولكنه قانون يعرفه من يعرف تاريخ كاستاليا : فلم يحدث قط في حالة موت ماجستر أو اعتزاله منصبه أن تولى « شبحه » مكانه ، شبحه الذي كثيرا ما مثله وكانت حياته توحي بأنه الخلف المنتظر . وكأن العرف أراد أن يؤكد أن الحاجز الذي يبدو متحركا بين الماجستر والوكيل رمز للحاجز بين المنصب والشخص . اذن فالكاستالي الذي يقبل وظيفة الوكيل العالية التي تعتمد على الثقة يتخلى عن أمل في أن يصبح نفسه ذات يوم ماجستر ، وأن يلبس ملابس التشريفة ويتشح بالأوشحة غير ممثل للماجستر - فكثيرا ما لبسها ممثلا له - ويستفيد في الوقت نفسه من الحق العجيب الغامض الذي يحمل الماجستر وحده مسؤولية ما قد يرتكبه الوكيل من أخطاء في تصريف أمور الديوان . وقد حدث بالفعل أن وقع بعض الأساتذة ضحية لوكلائهم الذين اختاروهم

واضطروا الى الاستقالة من مناصبهم بسبب أخطاء شديدة ارتكبها الوكلاء . والاسم الذي يطلق على وكيل استاذ لعبة الكريات الزجاجية في فالدتسل ، يعبر أصدق تعبير عن وضعه الغريب وارتباطه بالماجستر ارتباطا يوشك أن يكون تطابقا ويعبر كذلك تعبيرا ممتازا عن حياته في الديوان حياة ظاهر لا كيان له . هذا الاسم هو «الشبح» .

كان للاستاذ توماس فون در ترافه من قديم الأزل «شبح» اسمه برترام آتاه الحكم ولم يكن له من الحظ قدر ما كان له من الموهبة والنية الطيبة . كان لاعب كريات زجاجية ممتازاً ، وهذا شيء نتوقعه جميعا في مثله ، وكان معلّماً لا يقل في تعليمه مهارة عن ممارسته للعبة الكريات الزجاجية ، وكان موظفا مدققا مخلصا ينضوي لأستاذه انضواءً تاما . ولكنه كان في السنوات الأخيرة مكروها من الموظفين ، وكانت الطبقة الجديدة الصاعدة من الصفوة ضده . ولما لم يكن له ما يتمتع به أستاذنا من الخصائل الفرسانية الشهمة الواضحة ، فقد أصبح مسلكه مضطربا يفتقر الى الاطمئنان والهدوء . أما الماجستر فلم يتخل عنه ، بل اجتهد طاقته أن يبعده عن الاحتكاك بالصفوة ، وأن يجعل ظهوره في المجتمع نادرا وأن يقصر عمله على الديوان والأرشيف . والآن يجد هذا الرجل الذي لا تثقله ملامة ويثقله عدم حب الناس له ، يجد هذا الرجل الذي لم يسعده الحظ ، يجد في نفسه نتيجة مرض الأستاذ على رأس قرية اللاعبين ، ويجد نفسه إذا تحتم عليه أن يدير الحفل السنوي ، في أبرز مكان في الاقليم كله . على أنه لن يتمكن من تأدية هذه المهمة كما ينبغي الا اذا ساندته غالبية اللاعبين أو المعيدين بثقتهم ، وهذا هو للأسف الشيء الذي لم يحدث . وهكذا أصبحت اللعبة السنوية بلاء عسيرا بل أصبحت كارثة حلت على فالدتسل .

وفي اليوم السابق على بداية اللعب أعلن رسميا أن الماجستر مريض مرضا شديدا وأن حالته لا تمكنه من قيادة اللعبة . ولسنا نعلم ما اذا كان

تأخير هذا الخبر أملته إرادة الماجستر المريض الذي ربما كان يرجو أن يتمكن في اللحظة الأخيرة من استجماع قواه وترأس اللعبة ، أو أملته اعتبارات أخرى . والأقرب الى الاحتمال أن الماجستر كان من المرض بحيث لا يستطيع التفكير في مثل هذه الأفكار ، وأن شبحه ارتكب خطأ ترك كاستاليا حتى اللحظة الأخيرة في حيرة من أمر الوضع بفالدتسل . ولا شك أن الآراء تختلف الى حد التصادم والتضارب في تقدير ما اذا كان هذا التأخير والتردد غلطة حقا أو لم يكن . والأمر الذي لا شك فيه هو أن هذا التأخير حدث بنية طيبة ، وهي ألا تقل قيمة الحفل وتسوء مقدما ، وألا ينفر المعجبون بالأستاذ توماس اذا علموا أنه لن يترأس اللعبة . ولو كانت الأمور قد سارت على ما يرام ، ولو كانت الثقة قائمة بين جماعة اللاعبين في فالدتسل وبين برترام ، لكان من المحتمل جدا أن يظل «الشبح» وكيلا وأن يمر غياب الماجستر دون أن يلحظ أحد . ومن العبث أن نسترسل في الاحتمالات والامكانيات ، ولكننا نعتقد أنه ينبغي علينا أن ننبه الى أن برترام لم يكن فاشلا أو دنيئا ، كما صوره الرأي العام في فالدتسل قديما . لكنه كان ضحية أكثر منه مذنبا .

وانهمر سيل الضيوف الذي كان يتدفق كل عام . أتى بعض الضيوف لا يدور بخلدهم شيء ، وأتى البعض الآخر يساورهم الخوف على صحة الماجستر لودي تتملكهم أحاسيس حزينة مسبقة عن سير الحفل المنتظر . وامتلأت فالدتسل والقرى التي حولها بالناس ، فقد أتى أعضاء رياسة الطائفة والهيئة التربوية جميعا تقريبا ، وأتى من الأنحاء البعيدة للبلاد ومن الخارج زوار تجيش نفوسهم بجو الحفل الوشيك ، زوار امتلأت بهم الفنادق جميعها . وبدأ الحفل كالمعتاد في مساء اليوم السابق على بداية اللعبة بساعة من التأمل ، أعلنها دق الأجراس وغاص الناس في منطقة الاحتفال كلها في سكون عبادة عميق . وفي الصباح التالي جاء دور العزف الموسيقي الأول وإعلان

جملة اللعبة الأولى والتأمل في العنصرين الموسيقيين لهذه الجملة الأولى . وأتى برترام في تشريفه أستاذ لعبة الكريات الزجاجية ، وظهر بمظهر متزن ، ولكنه كان شاحبا ، وظل الاجهاد يزيد عليه يوما بعد يوم ، وظل الألم والخنوع يؤرقانه حتى أصبح في الأيام الأخيرة يشبه الشبح حقا . وانتشرت في اليوم الثاني للحفل شائعة تفيد أن صحة الماجستر توماس في تدهور ، وأن حياته في خطر . وفي مساء اليوم نفسه سمع الناس هنا وهناك في كل مكان بين العليمين بالأمور الفصول الأولى من أسطورة الأستاذ المريض وشبحه... تلك الأسطورة التي بدأت تتكون تدريجيا . كانت هذه الأسطورة التي انطلقت من داخل قرية اللاعبين مبتدئة خطة سيرها من جماعة المعيدين ، تؤكد أن الأستاذ كان يريد وكان يمكنه أن يجلس في مقعد قائد اللعبة ، ولكنه أراد أن يضحي من أجل طموح شبحه فترك له مهمة رئاسة الحفل . والآن وقد ظهر أن برترام ليس بالرجل الكفء لهذا الدور الكبير وأصبحت اللعبة تهدد بالانتهاء الى خيبة أمل ، تأكد الرجل المريض من مسؤوليته عن فشل شبحه ، وقرر أن يكفر هو بدلا منه عن الذنب . وتداولت الألسن أن هذا هو سبب تدهور صحته وازدياد الحمى التي اعترته . لم تكن هذه هي الصيغة الوحيدة للأسطورة بطبيعة الحال ، ولكنها كانت الصيغة التي تداولتها الصفوة ، وهي تبين بوضوح أن الصفوة ، أن الجيل الطامح ، كان يعتبر الموقف مأساة ، وأنه كان لا يريد مساندة أي محاولة لتقويم هذه المأساة أو تصفيتها أو تجميلها . وتساوت كفتا الميزان : كفة تكرم الأستاذ ، وكفة تكره الشبح . وتمنى الناس سقوط الشبح وفشله حتى ولو وقعت كفارة ذلك على الأستاذ . وفي اليوم التالي تناقلت الأفواه حكاية تفيد أن الماجستر في فراش مرضه توسل الى وكيله والى اثنين من كبار الصفوة أن يحفظوا السلام وألا يسيئوا الى الحفل . وبعد يوم آخر حكي أن الماجستر أملى رغبته الأخيرة واختار له خليفة أسماه . وذكرت بعض

الأسماء . كانت هذه الشائعات تنشر مختلطة بالأخبار التي تفيد ازدياد تدهور صحة الأستاذ . وانخفضت الروح المعنوية في قاعة الاحتفالات وفي الفنادق من يوم الى يوم ، وإن لم يتصرف أحد تحت تأثيرها فيصرف النظر عن الاكمال ويرحل . كان هناك ضغط عصيب كئيب يثقل على الاحتفال كله رغم أنه كان يتم من الناحية الظاهرية على نحو مضبوط . فلم يحس الناس بما توقعوه من الفرحة وسمو الروح . فلما أقفل مبدع لعبة الحفل ، الماجستر توماس عينيه إلى الأبد في اليوم السابق على يوم نهاية اللعبة ، لم تنجح جهوده الإدارية في حجز الخبر عن الناس ، والظاهر أن الكثيرين من المشتركين تلقوا حل العقدة على هذا النحو راضين به . أما تلاميذ اللعبة والصفوة خاصة ، فبالرغم من أنهم لم يكن لهم أن يلبسوا ملابس الحداد قبل نهاية اللعبة الرسمية ، ولا أن يقطعوا الخطة المرسومة الدقيقة لكل ساعة من تداول العرض وتمرينات التأمل ، فقد أدوا فصل الحفل الأخير في اليوم الأخير أداء رتيبا بمسلك وبروح يوحيان بأن ذلك الفصل حفل تأبين للميت الجليل ، وأنشأوا حول برترام المرهق الساهد الشاحب الذي كان يجلس على كرسي القيادة بعينين مثقلتين ، جواً من العزلة باردا برودة الثلج .

أما يوزف كنشت ، فبالرغم من أنه كان يحس بما يختلج في نفوس الصفوة عن طريق تيجولاريوس وبالرغم من أنه باعتباره لاعبا قديما كان قادرا على تقبل مثل هذه الاتجاهات والأحاسيس ، فقد رفض أن يدعها تنفذ الى نفسه ، بل ومنع من اليوم الرابع أو الخامس صديقه فريتس من أن يحمل اليه أخبارا عن صحة الماجستر . كان يحس ويفهم الكآبة والمحنة الأليمة التي خيمت على الحفل ، وكان يفكر في الأستاذ في ألم وحزن ، ويفكر في الشبح برترام الذي سيقضى عليه بالموت معه ويحس نحوه بالأسف والشفقة ، ولكنه حال بين نفسه وبين تأثير الأخبار حقيقية كانت أو أسطورية . وراح يمارس التركيز القاسي ويندمج في التمرينات وفي سير

اللعبة الجميلة البنيان ، وأحس جاداً بسمو الروح في الحفل رغم ما أحاط به من منغصات وكرب . ورفع عن «الشبح» برترام هذه المرة واجب استقبال المهنئين وممثلي الهيئات في ختام الحفل بصفته وكيل الماجستر ، وكانت العادة قد جرت على ذلك ، كذلك حذف يوم ابتهاج طلبة الكريات الزجاجية التقليدي . وأعلنت الإدارة بعد الفصل الموسيقي الختامي مباشرة خبر موت الماجستر ، وبدأت أيام الحداد في قرية اللاعبين ، واشترك فيها يوزف كنشت المقيم في المضيفة . وتم دفن الرجل الجليل الذي ما زال حتى الآن يتمتع بسمعة عالية ، على النحو المعروف في كاستاليا ، والذي يتميز بالبساطة . وفهم برترام حقيقة وضعه ، وكان قد استجمع آخر ما بقي من قواه واستنفده في لعب دوره العسير أثناء الاحتفال ، فطلب اجازة ، وتجول في الجبال .

وخيم الحزن على قرية اللاعبين ، بل على فالدتسل كلها . وربما لم يكن لأحد بالماجستر المتوفى علاقات صداقة حميمة واضحة ، ولكنه كان بامتياز وصفاء ذاته الرفيعة وبمهارته وبإحساسه الرقيق العليم بالأصول قد أصبح أشبه شيء بالوصي أو القدوة على نحو لم تنتجه كاستاليا الديمقراطية في أساسها الا قليلا . كان الجميع فخورين به وكان يبدو منصرفا عن ربوع العاطفة والحب والصداقة ، لكنه كان لذلك أنسب مَنْ تتجه اليه حاجة الجيل الصاعد الى انسان يبجله . هذه الهيبة وهذه الطلاوة الأميرية التي جلبت له لقب الفكاهة المليح «صاحب السعادة» جعلت له بمرور الأيام والأعوام في جلسات وأعمال الهيئة التربوية والمجلس الأعلى مكانا متميزا رغم معارضة المعارضين الشديدة . ودار الحديث حول تعيين خلف الماجستر المتوفى في الديوان العالي ، وكان الحديث يتسم طبعا بالحدة ، كانت أعمال ديوان الماجستر بعد خروج الشبح ورحيله ـ وقد علمنا أن الصفوة كانت تريد سقوطه وأنها حققت ما أرادت ـ وقد وزعتها الصفوة بطريق الاقتراع على ثلاثة من المنتدبين المؤقتين ، كانوا

بطبيعة الحال يسيرون الأعمال الداخلية في قرية اللاعبين وحدها دون أعمال المجلس التربوي . وكان العرف قد جرى على ألا يبقى منصب الماجستر خاليا لمدة أطول من ثلاثة أسابيع . وكان المنصب يشغل على الفور في الحالات التي يعين فيها الماجستر المعتزل أو المتوفى خلفا محددا لا ينافسه منافس ، لم يكن الأمر يحتاج إلا الى جلسة واحدة للادارة بكامل هيئتها . أما هذه المرة فيبدو أن شغل المنصب سيتطلب وقتا أطول .

وكان يوزف كنشت يتحدث أثناء أيام الحداد من حين لآخر مع صديقه عن اللعبة المنتهية وعن سيرها الكئيب العجيب .

قال كنشت : «لقد أدى الوكيل برترام دوره الى النهاية ، لا أقول على نحو مقبول فحسب ـ أعني الى آخر لحظة أن يمثل دور الماجستر الحقيقي ـ بل إنه في تقديري تفوق على ذلك وقدم نفسه ضحية للعبة حفل هذا العام ، باعتباره آخر عمل رسمي له كوكيل لديوان الماجستر . لكنكم كنتم قساة ، بل كنتم مجردين من الشفقة حياله ، كان يمكنكم انقاذ الحفل وانقاذ برترام ، ولكنكم لم تفعلوا . ولست أريد أن أصدر على ذلك التصرف حكما ، فلا بد أنه صدر عن أسباب لديكم . أما الآن وقد اعتزل برترام المسكين وتم لكم ما أردتم ، فعليكم بالكرم . ينبغي عليكم أن ترحبوا به عندما يعود وأن تظهروا له أنكم تقدرون نصيحته» .

فهز تيجولاريوس رأسه وقال : «لقد فهمنا تضحيته وقبلناها . ولقد كان من حظك هذه المرة أن حضرت اللعبة كضيف غير منحاز لفريق ، ولكن هذا هو السبب الذي جعلك لا تتابع الأحداث متابعة دقيقة . لا ، يا يوزف ، لن تكون لدينا الآن فرصة ترجمة أي مشاعر تجاه برترام الى أعمال . انه يعلم أن تضحيته كانت ضرورية ، ولن يحاول أبدا أن يغير مما كان من أمرها» .

عند ذاك فهمه كنشت فهما تاما ، وصمت مكتئبا . وتبين أنه لم يعش أيام اللعبة بالفعل كما يعيشها أهل فالدتسل ، الزملاء الحقيقيون ، وإنما

كما يفعل الضيف ، فلم يفهم ما كان من أمر برترام إلا الآن . كان برترام حتى تلك اللحظة يبدو له انسانا طموحا تحمل مهمة تفوق طاقته ، وتحتم عليه أن يزهد في أهداف أبعد مما يستهدفها الطموح ، وأن ينسى أنه كان « شبح » أستاذ ، وأنه كان رئيس لعبة سنوية . في هذه اللحظة ، عندما نطق بكلماته الأخيرة ـ تلك ـ صمت بعدها فجأة ـ فهم أن برترام قد أدانه قضاته إدانة كاملة ، وأنه لن يعود أبدا . فهم أنهم سمحوا له أن يقود اللعبة الى النهاية ، وساعدوه بالقدر الذي يسمح بأن تتم اللعبة بلا فضيحة ، ولم يكن ذلك رعاية لبرترام ، بل كان رعاية لفالدتسل .

كانت وظيفة « الشبح » لا تتطلب فقط أن يحوز الشخص الذي يشغلها على ثقة الماجستر فحسب ـ فقد كان برترام موضع ثقة الماجستر ـ ، بل على ثقة الصفوة بدرجة لا تقل عن درجة ثقة الماجستر ، وكانت ثقة الصفوة هي ما لم يستطع المأسوف عليه أن يحوز عليه . فإذا ما ارتكب خطأ لم تقف وراءه جماعة الاقليم بدرجاتها المختلفة كما تقف وراء سيده ومثله الأعلى ، لتسانده . وإذا لم يعترف به زملاؤه القدامى اعترافا كاملا ، فمعنى ذلك أنه خسر مالهم من سلطان ، وأنهم من زملاء ومعيدين أصبحوا قضاته . وإذا قسوا عليه ، كان في قسوتهم النهاية . وهذا هو ما حدث بالفعل ، فلم يرجع برترام هذا من رحلته الى الجبال ، وحكي بعد برهة أنه تردى على منحدر وعر ولقي حتفه . ولم يتناوله الكلام بعد ذلك .

في تلك الأثناء توافد موظفون من أصحاب الرتب العالية ومن أصحاب الرتب القيادية في رئاسة الطائفة وفي هيئة التربية على قرية اللاعبين ، واستدعوا بلا انقطاع أفرادا من الصفوة ومن سلك الموظفين فرادى وسألوهم أسئلة لم يتسرب منها إلا القليل في محيط الصفوة . كذلك استدعوا يوزف كنشت وسألوه مرارا . استدعاه مرة رجلان من رئاسة الطائفة ، مرة دعاه أستاذ الفيلولوجية . واستدعاه بعد ذلك السيد دوبوا . ثم استدعاه اثنان من

الأساتذة . كذلك استدعي تيجولاريوس للإدلاء بمعلوماته ، وانبسط لذلك وراح يرسل النكات عما أسماه جو انتخاب البابا . وكان يوزف قد لاحظ أثناء أيام اللعبة ، قلة ما بقي من ارتباطه الوثيق القديم بالصفوة ، فلما أتت أيام انتخاب البابا أحس بذلك إحساسا أكثر وضوحا . ولم يقتصر ذلك على سكناه في المضيفة كالضيف ، وعلى مباحثة القادة له ومعاملتهم إياه كالند للند ، بل إن الصفوة أنفسهم وجماعة المعيدين ، لم يستقبلوه استقبال الزملاء بغير كلفة ، بل استقبلوه بأدب فيه شيء من التهكم ، أو من البرود المترقب . كان الصفوة قد ابتعدوا عنه عندما تلقى التكليف بالذهاب الى ماريافلس ، ولم يكن في تصرفهم هذا شيء معيب أو غير طبيعي : فمن خطا خطوة من الحرية الى الخدمة ، من جماعة الطلاب المعيدين الى سلم الوظائف الهرمي ، لم يعد زميلا ، بل أصبح في الطريق الى أن يصبح من الرؤساء ، من خطا هذه الخطوة لم يعد من الصفوة ، وتحتم عليه أن يعلم أن الصفوة يقفون منه مؤقتا موقف النقاد . جرى هذا على كنشت ، وجرى على كل من وضع موضعه . وأحس كنشت بالتباعد وقد اشتد في هذا الوقت اشتدادا كبيرا ، من ناحية لأن الصفوة وقد تيتموا وعكفوا على انتظار ماجستر جديد زادوا ترابطهم وضيقوا صفوفهم على نحو ما يفعل المدافع عن كيانه ، ومن ناحية ثانية لأن عزمهم وصلابتهم قد ظهرا بقسوة فيما انتهى اليه أمر «الشبح» برترام .

وذات مساء أتى تيجولاريوس ثائرا غاية الثورة يعدو الى المضيفة ، فالتمس يوزف وأخذه الى حجرة خالية وأغلق الباب ، وراح الكلام ينطلق من فمه كأنه الماء ينطلق من نافورة : «يوزف . يوزف . رباه ، كان ينبغي علي أن أتوقع ذلك ، كان ينبغي علي أن أعرف الأمر ، فما كان مني ببعيد... آه! لقد فقدت السيطرة على نفسي ، ولا أعرف هل لي أن أتهلل فرحا» . وأبلغه تيجولاريوس ، وكان على علم تام بمصادر الأخبار في قرية اللاعبين : لقد

بات أكثر من المحتمل ، أو قل بات من المؤكد ، أن كنشت سينتخب أستاذا للعبة الكريات الزجاجية . أما رئيس الأرشيف ، الذي كان كثيرون يتوقعون له أن ينتخب خلفا للأستاذ توماس ، فقد أبعد منذ أول أمس على ما يبدو من قائمة المرشحين ، وأما المرشحون الثلاثة الآخرون من وسط الصفوة ، الذين ترددت أسماؤهم نتيجة للأسئلة التي دارت في الأيام الماضية ، فلم يحظ منهم على ما يبدو أحد بحظوة خاصة أو بتوصية من ماجستر أو بتوصية من رئاسة الطائفة . في حين زكى ترشيح كنشت عضوان من رئاسة الطائفة بالإضافة الى صوت له وزنه الخاص ، هو صوت أستاذ الموسيقى القديم ، الذي تؤكد الأخبار أن عددا كبيرا من الأساتذة ذهبوا اليه شخصيا .

وصاح تيجولاريوس : « يوزف ، إنهم يعينونك ماجستر » ، فوضع كنشت يده على فمه . فلم يكن كنشت في اللحظة الأولى أقل احساسا بالمفاجأة من تيجولاريوس ، ولا أقل تأثرا بها منه ، فقد بدا له هذا أمرا مستحيلا . فلما استرسل فريتس في الكلام وعرض آراء قرية اللاعبين في « انتخاب البابا » وتطور العملية ، بدأ كنشت يحس أن توقع الصديق لا يجانبه الصواب . بل أحس كأن كلمة « نعم » تدور في نفسه ، أحس كأنه كان يعلم بالأمر ويتوقعه ، وأن الأمر صواب كله ، طبيعي كله . وضع إذن يده على فم الصديق المنفعل ، وتطلع اليه مستغربا منبها ، كأنه يقف على مسافة وعن بعد وقال له : « لاتكثر من الكلام أيها الصديق ، فلا حاجة بي الى معرفة هذه الثرثرة . بل انصرف الى زملائك» .

وبعد أن ثرثر تيجولاريوس ما طابت له الثرثرة ، صمت فجأة ، صمت في تلك اللحظة التي خرج منها انسان آخر جديد لا يعرفه ووقف يتطلع اليه . فبهت ، وانصرف . وفيما تلا ذلك من أيام ، حكى تيجولاريوس أن هدوء كنشت وبروده العجيبين في تلك اللحظة وقعا عليه كضربة وإهانة ، أو

كصفعة . وأنه أحس بهما كخيانة لصداقتهما القديمة وودهما الغابر ، ورأى فيهما تأكيدا لا يكاد يفهمه عقل عاقل لرتبته الوشيكة وتسبيقا بشغلها ، رتبته كرئيس أعلى . فلما انصرف ـ وقد انصرف بالفعل كالمضروب ـ اتضح له وهو يسير ، معنى هذه النظرة التي لم تفارق مخيلته ، معنى هذه النظرة البعيدة الملوكية التي يختلط فيه التألم بقدر مساو ، وعرف أن صديقه لم يتلق ما جاءه فخورا ، بل متواضعا وكان عليه ـ على نحو ما حكي ـ أن يعود الى التفكير في نظرة يوزف كنشت المستغرقة في التأمل ، والى نغمة الشفقة العميقة في صوته ، عندما استجلى منذ قليل أمر برترام وتضحيته . بدا وجهه كما لو كان يستعد للتضحية بنفسه ولتقديم ذاته ، كما فعل برترام . كان في وجهه التعالي والتواضع ، العظمة والامتثال ، الوحدة والانصياع للقدر . هكذا كان وجه كنشت عندما تطلع اليه ، كان كنصب أقيم لأساتذة كاستاليا القدماء جميعا . وقال له «اذهب الى رفاقك» ، يعني أنه منذ اللحظة التي علم فيها لأول مرة بمنصبه الجديد أصبح شخصا لا مكان له في سلم الزملاء والرفاق ، وأصبح ينظر الى العالم من مركز جديد ، لم يعد زميلا ، ولن يصبح زميلا أبدا .

ما كان ينبغي على كنشت أن ينظر الى تعيينه ، والى تلك الترقية الأخيرة العليا إلا على أنها أمر متوقع ممكن ، بل محتمل تشير اليه الدلائل . لكنه فاجأه وأفزعه هذه المرة . قال كنشت بعد ذلك ، إنه كان ينبغي عليه أن يتوقع هذا التعيين ، وأنه ابتسم لانفعال تيجولاريوس ، الذي ، وإن لم يتوقع التعيين من البداية ، تمكن من أن يحسب ميعاده وأن يتنبأ به قبل حدوثه وإعلانه بعدة أيام . والحق أنه لم يكن هنا ما يمكن أن يعترض انتخاب كنشت للهيئة العليا إلا شبابه .فأغلب زملائه تولوا مهام منصبهم على الأقل بين سن الخامسة والأربعين والخمسين ، وكان عمر كنشت لا يكمل الأربعين . على أنه لم يكن هناك قانون مكتوب يحول دون تعيين الشباب .

فلما فاجأ فريتس صديقه الآن بنتيجة ملاحظاته ، ملاحظات لاعب من الصفوة الثقات يعرف جهاز جماعة فالدتسل الصغيرة المعقد معرفة دقيقة تصل الى أدق التفصيلات ، علم كنشت على التو ، أن صديقه على حق ، وعرف بانتخابه ومصيره وقبلهما . أما تصرفه الأول حيال الخبر ، فكان يتلخص في إبعاده الصديق عنه بقوله إنه لا يريد أن يعرف من أمر هذا اللغو والثرثرة شيئا . وما كاد تيجولاريوس ينصرف مستاء ، بل ويوشك أن يكون مهانا ، حتى التمس كنشت مكانا للتأمل ، لينظم ذاته ، وانطلق تأمله من صورة من صور الذاكرة ، تملكته في تلك الساعة تملكا قويا خارقا للعادة . رأى في هذه الصورة حجرة خالية ، فيها بيانو ، ونور الظهر ينفذ من النافذة باردا لطيفا ، ورأى رجلا جميلا باشّاً يظهر بالباب ، رجلا متقدما في السن أشيب الشعر أنور الوجه ممتلئا طيبة وسمَوّاً . أما هو ، يوزف ، فكان تلميذا في القسم الأول ، ووقف في الحجرة بين السعادة والخوف ينتظر أستاذ الموسيقى ، وإذا به يراه لأول مرة ، يرى الأستاذ الجليل القادم من اقليم الأساطير ، اقليم مدارس الصفوة والأساتذة ، ذلك الأستاذ الذي أتى يعلمه ما الموسيقى ، ثم راح يقوده منذ ذلك الحين خطوة خطوة الى الاقليم ، الى مملكته ، الى الصفوة والطائفة ، ثم يقبله فيها ، ويصبح الآن زميله وأخاه ، بينما يضع الرجل العجوز عصاه السحرية ، أو صولجانه ، ويتحول الى شيخ لطيف ، صموت ، طيب ، جليل ، غامض ـ وكانت الطيبة والجلال والغموض من صفاته القديمة ـ ، يرفرف على حياة يوزف بنظره ومثاله ، ويكبره بعمر انسان ويفوقه بمراحل عديدة من مراحل الحياة ، وبقدر لايقاس من الجلال والتواضع والمهارة والسر ، ثم يضطره في رقة ـ وهو سيده ومثاله ـ الى الخلافة ، كما يضطر نجم مشرق آفل إخوانه الى اتباع مساره . فلما ترك كنشت نفسه تستسلم بلا قصد لتيار الصورة الداخلية التي أتته في حالة الاسترخاء الأول شبيهة في كيانها بالأحلام ، برزت من التيار صورتان أو

رمزان أو مجازان بقيا طويلا . في الصورة الأولى بدأ كنشت صبيا يتبع في مسالك مختلفة الماجستر الذي يسبقه كالمرشد ، وفي كل مرة يلتفت فيها ويبين وجهه ، يظهر أنه يزداد هرما وهدوءا وجلالا ، ويقترب من نموذج المثل الأعلى للحكمة والجلال الذين لا ينحصران في حدود عصر من العصور ، بل يرتفعان على الزمن ، بينما هو ، يوزف كنشت ، يخطو منصاعا مطيعا وراء المثل الأعلى ، ويظل كما هو صبيا ، شاعرا تارة بالخجل وتارة بالفرح ، بل بالرضاء العنيد . أما الصورة الثانية فكانت هكذا : منظر في حجرة البيانو ثم دخول الشيخ على الصبي ، وظل هذا المنظر يتكرر ويتكرر مرات لا تنتهي : الماجستر والصبي يتبع أحدهما الآخر ، كما لو كانا مشدودين الى سلك آلة ميكانيكية ، أسرعت في الحركة حتى لم يعد من الممكن تبين أيهما يأتي وأيهما ينصرف ، أيهما يرشد وأيهما يتبع ، الشيخ أم الصبي . تارة يظهر أن الصبي هو الذي ينبه الشيخوخة والسلطان والجلال الى الشرف والطاعة . وتارة يظهر أن الشيخ هو الذي يكلف رمز الشباب والابتداء والبشاشة الذي يسبقه قليلا ، يكلفه بالخلافة بما فيها من خدمة أو عبادة . وبينما هو يتطلع الى هذه الدائرة من الأحلام المجردة من المعقولية والبالغة المعقولية في آن واحد ، كان يحس كالنائم بمشاعره تتطابق تارة مع الصبي وتارة مع الشيخ ، فيصبح تارة من يظهر التبجيل ، وتارة من ينال التبجيل ، وتارة مرشدا ، وتارة مطيعا ، حتى أتت لحظة وسط هذا التداول والتناوب الهائم أصبح هو فيها الشخصين كليهما ، أصبح الأستاذ والتلميذ الصغير ، بل أصبح يقف فوق الاثنين لأنه تحول الى مصمم مبتدع موجه ومشاهد لدائرة الأحلام وللتنافس الجاري في الدائرة دون نتيجة بين الشيخوخة والشباب ، تلك الدائرة الدوارة التي كان تارة يبطئها ، وتارة يسرع دورانها الى أقصى سرعة حسب احساساته المتبدلة المتغيرة . من هذه المرحلة خرجت صورة جديدة ، أقرب الى الرمز منها الى الحلم ، أقرب

الى المعرفة منها الى الصورة ، هذه الصورة أو هذه المعرفة تتلخص في أن مسابقة الأستاذ مع التلميذ تلك التي تفتقر الى العقل وتفيض بالعقل في وقت واحد ، والتماس الحكمة للشباب ، والتماس الشباب للحكمة ، تلك اللعبة السريعة التي لا تنتهي الى نهاية هي رمز كاستاليا ، هي لعبة الحياة عموما تنساب منقسمة بلا نهاية الى شيخوخة وشباب ، الى ليل ونهار ، الى «يانج» و«ينج» . فلما وصل المتأمل الى هذه النقطة وجد من عندها طريق الخروج من عالم الصور الى الراحة ، وعاد بعد طول غوص في ذاته قويا وقد ازداد قوة وغبطة .

وأرسلت ادارة الطائفة تطلب مجيئه بعد أيام ، فذهب مرتاحا وتلقى تحية الرؤساء الأخوية من مصافحة وعناق رفيق وهو رابط الجأش ، جاد ، باش . وعلم أنه قد عين أستاذا للعبة الكريات الزجاجية ، وأنه مدعو بعد غد لتقلد المنصب وحلف اليمين في قاعة الاحتفالات ، قاعة الاحتفالات التي أتم فيها منذ قليل وكيل الأستاذ المتوفى الحفل الكئيب وكان شأنه معه كشأن حيوان قربان مزدان بالذهب . أما اليوم التالي ـ اليوم السابق على تقليد المنصب وحلف اليمين ـ فكان مخصصا لدراسة صيغة اليمين و «لائحة الماجستر الصغرى» دراسة دقيقة مقرونة بتأملات وشعائر ويشرف عليها ويوجهها اثنان من الرؤساء ، هما هذه المرة مستشار الطائفة وأستاذ الرياضيات . وفي أثناء فترة الراحة ظهر ذلك اليوم المضني ، تذكر كنشت بوضوح يوم قبوله في الطائفة ، وكيف أعده له في اليوم السابق أستاذ الموسيقى . كانت مراسم القبول هذه المرة لا تقوده كما تقود المئات سنويا من باب واسع الى جماعة كبيرة ، بل تسلك به خرم ابرة الى أعلى وأضيق دائرة ، الى دائرة الأستاذية . وقد اعترف فيما بعد لأستاذ الموسيقى القديم بأنه في ذلك اليوم من الامتحان الشخصي الشديد قد فكر فكرة حيرته وأتعبته ، فكرة كانت في الحقيقة خاطرا مضحكا جدا ، وتتلخص في أنه كان

يخشى أن تأتي اللحظة التي يقول له بعض الأساتذة ، انه صغير السن صغرا مسرفا بالنسبة للرتبة العليا التي عين فيها . كان عليه أن يكافح هذا الخوف وهذه الفكرة الفجة السمجة كفاحا جادا ، وأن يكافح الرغبة في الاجابة على أي تلميح الى سنه بقوله : «دعوني إذن حتى أكبر سنا ، فأنا لم أسع الى هذه الترقية قط» . لكن امتحانه الذاتي بين له أن التفكير في التعيين في هذا المنصب والرغبة فيه لا يمكن أن يكونا قد بعدا عن نفسه بعدا كبيرا . اعترف لنفسه بذلك إذن ، وتبين سخف فكرته ونبذها ، وبالفعل لم يذكر أحد من الزملاء لا في ذلك اليوم ولا بعد ذلك شيئا عن سنه .

على أن انتخاب الأستاذ الجديد أصبح موضوع حديث ونقد أولئك الذين كانوا حتى ذلك الحين يطمحون الى ما وصل اليه . لم يكن لكنشت خصوم بالمعنى المعروف ، بل كان له منافسون ، وكان من بينهم من يزيدون عليه في السن ، وكانت دوائر المنافسين لا ترى الانتخاب جديرا بموافقتها ، إلا إذا أتى بعد كفاح وجدارة ، أو أتى على أقل تقدير بعد ملاحظة ناقدة بالغة الدقة . وكان تولي أستاذ جديد منصبه ووقته الأول فيه أشبه شيء بالسير على الصراط .

والاحتفال بتقليد الأستاذ منصبه ليس احتفالا عاما ، فلا يشترك فيه إلا الرؤساء الكبار في هيئة التربية وفي رياسة الطائفة ، وقدامى التلاميذ ، والمرشحون والموظفون التابعون لفرع التخصص الذي يتخذ أستاذا جديدا . وكان على أستاذ لعبة الكريات الزجاجية في الحفل بقاعة الاحتفالات أن يؤدي القسم ، وأن يتلقى من الإدارة رموز وشارات منصبه وهي عبارة عن مفاتيح وأختام ، وأن يقف أمام المتحدث بلسان رئاسة الطائفة ليلبسه هذا التشريفة ، وهي عباءة فاخرة ، يلبسها الأستاذ في الاحتفالات الكبرى ، وبخاصة في الاحتفال باللعبة السنوية . مثل هذا الحفل يفتقر الى زحام ونشوة الحفلات العامة ، ويتصف بأنه أقرب الى الجفاف منه الي أي شيء آخر ، لكن

حضور الهيئتين الرفيعتين بكامل أعضائهما يضفي عليه جلالا فوق العادة . والآن تتلقى جمهورية لاعبي الكريات الزجاجية الصغيرة سيدا جديدا يرأسها ويمثلها في الهيئة العامة ، وهذا لعمري حدث هام نادر . ربما لا يفهم التلاميذ وصغار الطلبة أهميته فهما كاملا ، ولا يرون في الحفل إلا احتفالا ومتعة للعين ، لكن المشتركين الآخرين جميعا يعلمون بأهميته كل العلم ، فقد اندمجوا في جماعتهم اندماجا كافيا ، وأصبحوا يشبهونها في كيانها ، ويحسنون الاحساس بهذه العملية كعملية تدور في أجسامهم وفي حياتهم . ولم تكن فرحة الحفل هذه المرة يخيم عليها موت الأستاذ السابق والحزن عليه فقط ، بل كان يخيم عليها بالاضافة الى ذلك جو لعبة هذا العام الكئيب ومأساة الوكيل برترام .

أما تقليد عباءة التشريفة فقد قام به المتحدث بلسان رئاسة الطائفة والرئيس الأعلى لأرشيف اللعبة معا ، فحملا العباءة معا ووضعاها على كتفي أستاذ لعبة الكريات الزجاجية الجديد . وألقى كلمة الحفل الموجزة أستاذ النحو ، أستاذ فقه اللغات الكلاسيكية في كويبرهايم ، وقام ممثل عن فالدتسل اختارته الصفوة بتسليم المفاتيح والأختام ، وعند الأرغن رأى الحاضرون أستاذ الموسيقى القديم[1] شخصيا أتى خصيصا ليشترك في حفل تقليد صفيه المنصب ، ويرى التشريفة توضع على كتفيه ، وليفاجئه بحضوره مفاجأة تفرحه ، وربما ليقدم اليه هذه أو تلك من النصائح . وكان أستاذ الموسيقى القديم يود أن يعزف بيديه موسيقى الحفل ، ولكنه ما كان له أن يكلف بنيته الواهنة مثل هذه المشقة ، فترك لعازف الأرغن في قرية اللاعبين هذه المهمة ، ووقف الى جواره يقلب له صفحات النوتة . وتطلع الى يوزف

(١) كأن كلمة قديم في «أستاذ الموسيقى القديم» تقصد الى التكريم والتعظيم ، كما نقول «عميد الموسيقى» ، وكان أستاذ الموسيقى ، بعد تقدمه في السن ، واعتزاله العمل ، يشترك ما استطاع في احتفالات الهيئة . (المترجم)

بابتسامة كلها وقار ، ورآه وهو يتقبل التشريفة والمفاتيح ، وسمعه يردد القسم ويلقي كلمة مرسلة في مساعديه وموظفيه وتلاميذه في المستقبل . فلم يحس بحب الصبي ولم يفرح به قط ، قدر فرحه وحبه له في هذا اليوم ، الذي كف فيه عن أن يكون يوزف ، وبدأ يصبح لابس التشريفة ، وحامل المنصب ، جوهرة في تاج ، أو عمودا في بنيان نظام الوظائف الهرمي . ووجد السبيل الى الاختلاء بصبيه يوزف لحظات ، فابتسم له باشا ثم أسرع يشحذه : «افعل ما في طاقتك لتتغلب على الأسابيع الثلاثة أو الأربعة القادمة ، فسيطلب منك الكثير . فكر دائما في الكل ، ولا يفوتنك أن التجاوز في التفصيلات الآن شيء لا يثقل وزنه . عليك أن تكرس نفسك كلك للصفوة ، ولا تدع رأسك يشتغل بما عدا ذلك . وسيرسلون اليك رجلين لمساعدتك على الدخول في جو العمل ، أحدهما رجل اليوجا الكسندر ، الذي تلقى تعليمه على يدي ، فاسمح له ، فإنه يفهم الأمور . وأنت بحاجة الى شيء جوهري ، وهو أن تثق ثقة ثابتة كالصخر بأن الرؤساء أصابوا عندما ضموك الى صفهم . فثق فيهم ، وثق في من سيرسلونهم اليك لمعاونتك ، وثق في قوتك ثقة عمياء . وانظر الى الصفوة بريبة فرحة ولكنها يقظة ، فما ينتظر الصفوة منك غير هذه الريبة . وستكون الرابح يا يوزف أنا أعلم ذلك» .

كانت غالبية أعمال الديوان أعمالا يعرفها كنشت معرفة جيدة ، وصورا من النشاط له بها خبرة ، لأنه كان قد اشتغل بها من قبل بين قائم بتنفيذها ومساعد فيها ، وأهم هذه الأعمال برامج تدريس اللعبة ، من برامج التلاميذ والمبتدئين وبرامج فترات العطلة ، وبرامج الضيوف ، الى تمرينات ومحاضرات وتدريبات الصفوة . أما القسم الأول من هذه الأعمال فكان يصلح لتأديته بكل سهولة كل ماجستر معين جديد ، أما القسم الثاني ، الذي لم تتح له فرصة التدرب عليه قط ، فيتطلب منه قدرا أكبر من الهمة والجهد . وهذا ما كان من أمر يوزف . ولو كان له الخيار ، لركز اهتمامه كله على

الواجبات الجديدة عليه ، وهي الواجبات الخاصة بالماجستر وحده ، مثل الاشتراك في المجلس الأعلى للتربية ، والتعاون بين ديوانه ورئاسة الطائفة ، وتمثيل لعبة الكريات الزجاجية وقرية اللاعبين في الإدارة العامة . وكان يتحرق اهتماما بأن يتقن هذه المهام الجديدة وأن يخلع عنها مظهر المجهول المهدد ، ولو كان له الخيار لجلس بضعة أسابيع في جانب بعيد وانهمك في دراسة دقيقة للدستور وللإجراءات ولمحاضر الجلسات وما الى ذلك . وكان يعلم أن هناك من يقف رهن اشارته ويقدم اليه البيانات والنصح : وهو رجل يعبر الى جانب السيد دوبوا أعظم خبير في شؤون وتقاليد ديوان الماجستر ، هو المتحدث بلسان رئاسة الطائفة . هذا المتحدث بلسان رئاسة الطائفة ليس بدرجة ماجستر ، يعني بعبارة أخرى هو أقل درجة من الأساتذة ، لكنه يسير أمور جلسات الإدارة ويطبق اللائحة التقليدية على أحسن وجه ، هو أشبه انسان بالتشريفاتي في بلاط الأمراء . وكم ود كنشت لو رجا هذا الرجل النبيه الخبير المتواري وراء أدب باهر ، هذا الرجل الذي قلده بيديه منذ قليل تشريفة الماجستر ، كم ود لو رجاه أن يخصه بدروس من علمه وخبرته ، لو كان يسكن في فالدتسل وليس في هيرسلاند على مسيرة نصف يوم منها! وكم ود لو استطاع أن يهرب الى مونتيبورت فترة ويلوذ بأستاذ الموسيقى القديم ليعلمه هذه الأمور! لكن هذه كلها أماني لا يصح أن يفكر فيها ماجستر إن صح أن يفكر فيها الطلبة . كان عليه في الفترة الأولى أن يكرس نفسه باهتمام تام قوى لتلك المهام التي يعتقد أنها لن تشق عليه . واتعظ مما رآه أثناء حفل برترام ، حيث وقف واحد من الجماعة ، من جماعته ، من الصفوة ، بلا عون كأنه في مكان خال من الهواة ، يكافح ويكافح ليختنق في النهاية . وأكدت ملاحظته المتكهنة الكلمات التي قالها له شيخ مونتيبورت يوم تقلد التشريفة ، كل هذا الذي لاحظه وسمعه أكدته الآن كل لحظة من لحظات عمله بالديوان ، وكل برهة

يتفكر فيها في حاله : عليه أن يكرس نفسه أولا وقبل كل شيء آخر للصفوة ولجماعة المعيدين وللفصول العليا من فصول الدراسة ، وللتمرينات على مستوى الأقسام ، وللعلاقة الشخصية مع المعيدين . كان في استطاعته أن يترك الأرشيف لرئيس الأرشيف ، ويترك فصول المبتدئين للمعلمين الموجودين ، ويترك بريد المكتب للسكرتيرين الموجودين ، فلن يخسر العمل بهذا شيئا كثيرا . أما الصفوة فما كان له أن يتركها وشأنها لحظة ، بل كان عليه أن يهتم بهذا وأن يفرض نفسه عليها ويجعل نفسه عنصرا لا مناص عنه ، ويقنعها بقيمة قدراتها وبصفاء إرادته ، كان عليه أن يغزو قلوب الصفوة ، وينال ودها ويكسبها وأن يقيس نفسه بكل واحد من مرشحيها تسول له نفسه ذلك ، ولم يكن أمثال هؤلاء المرشحين قليلين . وساعده في ذلك أمور مختلفة لم يكن يعتقد فيما مضى أنها ستكون ذات فائدة ، وخاصة غيبته الطويلة عن فالدتسل وعن الصفوة تلك الغيبة التي حولته الآن الى رجل يوشك أن يكون جديدا . حتى صداقته لتيجولاريوس كانت ذات فائدة . لأن تيجولاريوس ، ذلك الشخص الغريب الذي تتقاسمه العلة الجسمانية والبراعة الفكرية معا ، لم يفكر في مدارج الطموح ، ولم يبد عليه سعي الى الحصول من الماجستر الجديد على ميزة قد تضر بأصحاب الطموح الآخرين : وكان على كنشت أن يقوم بنفسه بأكثر الأعمال وأعظمها ، لينفذ الى هذه الطبقة البالغة السمو والنشاط والقلق والحساسية وليبحثها ويدرسها ويتمكن منها ، كما يتمكن الفارس من جواد كريم . فالصفوة في كل ناحية من نواحي كاستاليا ، صفوة من انتهت تنشئتهم ومن لا يزالون يتابعون الدرس الحر دون الدخول في خدمة الهيئة التربوية أو في الطائفة ، أولئك الطلاب الذين يطلق عليهم أيضا اسم المعيدين ، هذه الصفوة تعتبر أثمن عنصر ، تعتبر الاحتياط الحقيقي ، والزهرة والمستقبل . هذه الطائفة المنتقاة المتعالية تقابل في كل مكان ، لا في قرية اللاعبين فحسب ، المعلمين الجدد والرؤساء

بالغلظة والنقد ، وتبدي لكل رئيس أعلى جديد الحد الأدنى من الأدب والطاعة . لهذا كان ينبغي أن تعامل معاملة شخصية بحتة ، وأن يكرس الرئيس الجديد همه كله ليكسبها ويجتبيها ويقنعها ويقهرها قبل أن تعترف به وتنصاع لقيادته بإرادتها .

انهمك كنشت في هذه المهمة بلا وجل ، وكان في الحقيقة يحس مندهشا بصعوبتها ، لكنه تبين وهو يقوم بحلها وبكسب اللعبة البالغة الصعوبة والعناد ، أن المهام والواجبات الأخرى التي كان يحمل همها قد تراجعت من تلقاء نفسها ، وقل أثقالها عليه . واعترف كنشت لزميل من زملائه أنه اشترك في أول جلسة جامعه للإدارة ، راح اليها على عجل ، وعاد منها على عجل ، كأنه في حلم ، وأنه لم يستطع بعد ذلك أن يفكر فيها أدنى تفكير ، لانهماكه التام في عمله هذا . بل إنه أثناء المداولات والمناقشات اكتشف أنه ، رغم أن الموضوع كان يهمه وأنه كان يحس بالقلق تجاه هذه الجلسة التي كانت أول ظهور له في رحاب الإدارة ، اكتشف أنه كان بأفكاره غائبا عن زملائه ومحاوراتهم ومناقشاتهم ، حاضرا بها في فالدتسل ، في تلك الحجرة المطلية باللون الأزرق ـ حجرة الأرشيف التي كان في ذلك الوقت يعقد فيها كل ثلاثة أيام حلقة كلامية يشترك فيها خمسة فقط ، وتتطلب كل ساعة من ساعاتها جهدا كبيرا أكبر من الجهد الذي تتطلبه أعمال اليوم كله ولم تكن أعمال اليوم كله بالأعمال اليسيرة التي يمكنه أن يتملص منها ، لأن الإدارة قد وضعت عنده ، كما أخبره أستاذ الموسيقى ، في تلك الفترة الأولى ، رقيبا يراقب يومه ساعة بساعة ، ويقدم له المشورة في تقسيم وقته ، ويعصمه من الميل الى جانب دون جانب ، ومن تجاوز الطاقة كل التجاوز . كان كنشت يعرف لهذا الرجل جميله ، ويعرف لرجل آخر ، أرسلته اليه رئاسة الطائفة كمبعوث منها ، جميلا أكبر ، هذا الرجل هو الكسندر ، أستاذ فن التأمل ذو الشهرة الواسعة . كان هذا المبعوث يهتم بأن

يحافظ كنشت ، الذي يشتغل كل يوم الى أقصى حدود الإجهاد ، على تأدية التمرين «الصغير» أو «القصير» ثلاث مرات يوميا ، وأن يلتزم في التأدية بالموعد والمدة التزاما دقيقا . كان على كنشت أن يسترجع كل يوم مع الرجلين ، مع الرقيب ومع المختص في التأمل ، يومه في الديوان قبل التأمل المسائي مباشرة ، فيقف عند نواحي التقدم ونواحي الفشل ، و«يجس نبض نفسه بنفسه» ، كما يقول أساتذة التأمل ، ويعنون بذلك أن يتعرف الشخص على وضعه الحالي ، وعلى توزيع طاقاته ، وعلى أمانيه وهمومه ، وأن يقيسها ويقدر وزنها وأن ينظر الى نفسه وعمله اليومي نظرة موضوعية ، وألا يحمل الى الليل والى اليوم التالي معه شيئا بلا حل .

وبينما كان المعيدون يتطلعون ، تارة باهتمام المستلطف ، وتارة باهتمام المعاند ، الى عمل أستاذهم الجبار ، ولا يتركون فرصة إلا انتهزوها ليفرضوا عليه ارتجالا امتحانات للطاقة والصبر وسرعة البديهة ، ويسعون تارة الى تيسير عمله ، وتارة الى عرقلته ، كان فراغ مهلك قد طوق تيجولاريوس . كان تيجولاريوس يعرف أن كنشت لم يعد يستطيع أن يمنحه اهتماما ، ووقتا ، وأفكارا وتعاطفا ، لكنه لم يجد في نفسه القوة ليصلب عوده حيال النسيان الكامل الذي سقط فيه فجأة من ناحية صديقه كنشت ويصطنع عدم الاكتراث بذلك ، خاصة وأنه تصور أنه فقد صديقه بين عشية وضحاها ، بل إن رفاقه يرتابون فيه ولا يكاد الواحد منهم يتجه اليه بحديث . وليس هذا بمستغرب ، فإذا كان تيجولاريوس لم يقف جديا في وجه الطامحين منافسي كنشت ، فقد كان على أية حال من حزب كنشت ، وكان له في تزكيته طرف . ولا شك أن كنشت تصور هذه الأمور كلها وكان عليه في ذلك الوقت أن يتجاهل الأمور الشخصية والخاصة ويتجاهل هذه الصداقة الى حين . ولم يفعل كنشت هذا ، كما اعترف لصديقه فيما بعد عن تصميم ونية مبيتة ، بل الذي حدث هو أنه نسي صديقه ، لأنه كان قد حول

نفسه الى أداة اختفت معها الأمور الخاصة مثل الصداقة وتوارت في المستحيل . وكان إذا حدث وتراءى له وجه تيجولاريوس وشكله في حلقة الخمسة ، لم ير أمامه تيجولاريوس الصديق ، الشخص الذي يعرفه ، بل رأى واحدا من الصفوة ، طالبا أو مرشحا أو معيدا ، رأى قطعة من عمله وواجبه ، رأى جنديا في الفرقة التي يهدف الى تدريبها والانتصار بواسطتها . وعندما تحدث الماجستر الى فريتس تيجولاريوس لأول مرة على هذا النحو ، أحس تيجولاريوس برعدة ، وتبين من نظرته أن تلك الغربة والموضوعية ليستا متكلفتين متصنعتين ، بل صادقتين حقيقيتين رهيبتين ، وتبين أن هذا الرجل الماثل أمامه والذي يعامله بهذا الأدب الموضوعي وهذه اليقظة الفكرية العظيمة ، لم يعد صديقه يوزف ، بل هو معلمه وممتحنه ، هو أستاذ لعبة الكريات الزجاجية تحيط به الجدة والشدة وتضمه كقشرة لامعة من الميناء صبت حوله وتصلبت عليه في النار ، في تلك الأسابيع الحارة حدث لتيجولاريوس حادث صغير . فقد سمح لنفسه ، على أثر الأرق والتعب الداخلي الذي اعتراه نتيجة لما حاق به من كنشت ، وهو موجود في الحلقة الصغيرة ، بغلظة أو انفجار ، لم يكن الماجستر هو المقصود بهما ، بل كان المقصود بهما زميل تحدث اليه بطريقة فيها تهكم فلم تحتملها أعصابه . ولاحظ كنشت ما حدث ، وتبين حالة الثورة في نفس المذنب ، فأعاده الى صوابه بإشارة من إصبعه ، ثم أرسل اليه بعد ذلك أستاذ التأمل ليهتم بحالة المصاب . فأحس تيجولاريوس وراء هذا الاهتمام ببارقة صداقة استيقظت بعد أسابيع من الحرمان ، لأنه اعتبره اهتماما خاصا به شخصيا ، وقبل العلاج راغبا . والحقيقة أن كنشت لم يكد يعرف بالتحديد الشخص الذي أمر له بهذا العلاج ، وكان تصرفه تصرف الماجستر لا أكثر ولا أقل . لاحظ على بعض المعيدين ثورة ونقصا في السلوك فتصرف تصرف المربي ، دون أن يلقي نظرة ولو للحظة واحدة على هذا المعيد كشخص ودون أن يربطه مع

ذاته بعلاقة . فلما ذكره تيجولاريوس بعد شهور ، بهذا المنظر ، وأكد له أنه فرح ببادرة الود التي خصه بها ، سكت يوزف كنشت لأنه كان قد نسي الموضوع تماما ، وترك الخطأ وشأنه .

وأخيرا بلغ كنشت غايته وكسب المعركة ، ولقد تطلب حسم الأمر مع الصفوة جهدا جهيدا ، يتلخص في انهاكها تدريبا ، وترويض الطموحين ، وكسب المتأرجحين . وكسر شوكة المتعالي . وهكذا انتهى الأمر . واعترف المرشحون في قرية اللاعبين بأستاذهم ، وخضعوا له . وفجأة سارت الأمور كلها سهلة يسيرة ، كأنما لم تكن تحتاج إلا الى نقطة من الزيت . وقام الرقيب بوضع آخر برنامج عمل بالاشتراك مع كنشت ، وأبلغه تقدير الإدارة له واختفى . وكذلك فعل أستاذ التأمل الكسندر . واختفى تدليك الصباح وحلت محله نزهة صباحية ، وصرف النظر عن الدراسة والقراءة مبدئيا واكتفى بعزف الموسيقى قبل الذهاب الى الفراش في بعض الأيام . ولما ذهب كنشت للمرة التالية الى اجتماع الادارة أحس بوضوح ، دون أن تكون هناك حاجة الى كلام ، بأنه قد أثبت جدارته بين زملائه وأصبح مساويا لهم . انتهت حرارة الكفاح من أجل اثبات الجدارة وتملكت كنشت صحوة وبرودة وتنبه ، ورأى نفسه في قلب كاستاليا في أعلى درجة من سلم الرتب الهرمي ، وتبين في موضوعية غريبة توشك أن تكون خيبة أمل ، أن الهواء الرقيق يصلح للتنفس ، وأنه ـ ولم يعد يتنفس غيره ، وكأنه لم يكن يعرف سواه ـ هو قد تغير تغيرا تاما . كان تغيره ثمرة فترة الامتحان الدقيق التي صهرته كما لم يصهره عمل من قبل ولا جهد حتى الآن .

واتخذ اعتراف الصفوة بالوصي الجديد تعبيرا تمثل هذه المرة في لفتة خاصة . فعندما أحس كنشت بنهاية المقاومة ولمس ثقة وموافقة المعيدين وتبين أنه قد أنجز أشد الأمور صعوبة ، رأى أن اللحظة قد حانت ليختار لنفسه « شبحا » . والحق أنه كان في حاجة الى وكيل ، والى من يحمل عنه

بعض العبء خاصة في ذلك الوقت الذي حقق فيه النصر ، وتركت له تجربة القوة التي كادت تفوق ما يستطيع البشر ، فجأة حرية نسبية . وكم من أستاذ فشل في هذا الموضع من الطريق . وتخلى كنشت عن حقه المقرر في انتخاب شبح له من بين المعيدين ، ورجا المعيدين أن ينتخبوا له شبحا يضعونه تحت إمرته . وأخذ الصفوة ، وكانوا لا يزالون متأثرين بمصير برترام ، هذا الأمر مأخذ الجد المضاعف ، وعقدوا اجتماعات عديدة وتحروا تحريات سرية ، انتهوا بعدها الى اختيار واحد من خيرة رجالهم كوكيل ، واحد كان ، حتى تعيين كنشت أستاذا ، يعتبر من أقرب المرشحين الى منصب الأستاذية .

انتهى أصعب الأمور ، وعاد الأستاذ الى النزهة والى الموسيقى ، وبدأ التفكير في القراءة ، وفي صداقة تيجولاريوس ، وأصبح في إمكانه أن يتبادل الرسائل مع فيرومونته ، وأن يتخذ نصف يوم عطلة ، وأن يقوم برحلة صغيرة . لكن هذه الأشياء اللطيفة كان يمكن أن تفيد شخصا آخر ، إلا يوزف ، الذي اعتبر نفسه لاعب كريات زجاجية مجتهدا وكاستاليا جيدا لا أكثر ، وكان دون علم بقلب النظام الكاستالي ، يوزف الذي عاش حتى هذا الحين بريئا لنفسه ، لاعبا في طفولة ، عاش عيشة شخصية خاليا من المسؤولية على نحو لا يمكن تصوره . وتذكر ذات مرة الكلمات الساخرة المحذرة التي قالها له الأستاذ توماس ردا على رغبته البقاء فترة أخرى يعيش للدراسة الحرة : «فترة! وما أطولها! إنك يا يوزف لا تزال تتحدث حديث الطلبة» . كان هذا قبل سنوات قليلة . وقد استمع في ذلك الوقت باندهاش واحترام شديدين ، بل بخوف رفيق من كمال وأدب هذا الرجل ، من هاتين الصفتين المجردتين عن الشخصية تماما ، وأحس أن كاستاليا تمد ملامسها اليه وتريد أن تشفطه ، ربما لتحوله بدوره الى توماس آخر ، الى أستاذ ، الى وصي وخادم ، الى ما لا يختلف في قليل أو كثير عن آلة كاملة . وها هو

ذا يقف في الموضع الذي كان الآخر يقف فيه ، وكان عندما يتكلم مع أحد معيديه ، مع واحد من أولئك اللاعبين المهرة الذين تقلبوا على كل الخبرات ، والعلماء الأخصاء ، مع واحد من أولئك الأمراء المجدين الكادين المتعالين ، ينظر اليه فيجده في عالم آخر غريب جميل ، عجيب مقهور ، تماما كما نظر اليه الماجستر توماس قديما فوجده في عالم الطلبة العجيب الذي كان يعيش فيه .

الفصل السابع

في المنصب

إذا كان تقلد كنشت منصب الماجستر قد لاح في أول الأمر كما لو كان قد سبب من الخسارة أكثر مما أتى بكسب ، وإن كان قد التهم طاقاته وحياته الخاصة كلها تقريبا ، ونفر كل عاداته وهواياته ، وترك في قلبه سكونا باردا ، وخلف في رأسه شيئا يشبه الدوار في حالة الاجهاد الشديد ، فقد أتته الفترة التالية ، بما أتيح له فيها من استجمام وروية واعية واعتياد ، بملاحظات جديدة وخبرات جديدة ، وكان أعظمها هو ما قام به بعد نهاية المعركة ، من تعاون ودي وثيق مع الصفوة . وكان من نتيجة مباحثاته مع « شبحه » ، وعمله مع فريتس تيجولاريوس ، الذي عينه لديه على سبيل التجربة كمساعد في شؤون المراسلات ، ثم عودته التدريجية الى الدرس ، واشتغاله بفحص واكمال ما تركه سلفه من شهادات وملاحظات عن التلاميذ والمساعدين ، كان من نتيجة ذلك كله ، أن عاد الى الاندماج بحب سريع التزايد في هذه الصفوة التي كان يعتقد أنه يعرفها ، والتي لم يفهم كنهها ولم يتبين صفة قرية اللاعبين ودورها في الحياة الكاستالية في الواقع إلا الآن . حقيقة أنه كان لسنوات عديدة عضوا في هذه الصفوة وجماعة المعيدين ، تابعا لقرية اللاعبين وأهلها الفنانين الطامحين في فالدتسل ، وكان يحس كأنه جزء لا يتجزأ منها . أما الآن فلم يعد جزءا فيها ، ولم يعد فقط مع هذه الجماعة بقلبه ، بل أصبح يحس كأنه

عقل هذه الجماعة وشعورها وضميرها ، لا يكتفي بالاشتراك في الاحساس بخلجاتها ومصائرها ، بل يقودها ويحمل مسؤوليتها . وقد عبر عن ذلك مرة في ساعة من ساعات التجلي في أعقاب حلقة دراسية لتنشئة مدرسي اللعبة للمبتدئين بقوله : « إن كاستاليا دولة قائمة بذاتها ، وقريتنا ـ قرية اللاعبين ـ دولة صغيرة داخل الدولة ، إنها جمهورية صغيرة ، ولكنها جمهورية قديمة ذات جذور ، تقف في مستوى الجمهوريات الأخرى وتساويها في الحقوق ، بل تفوق الجمهوريات الأخرى وتعلوها في شعورها بذاتها نتيجة لوظيفتها ذات الصفة الفنية الخاصة تلك الصفة التي توشك أن تكون قدسية . إننا نمتاز بمهمة هي المحافظة على قدس أقداس كاستاليا ، على سرها الخاص ورمزها الفريد ، ألا وهو لعبة الكريات الزجاجية . إن كاستاليا تنشئ موسيقيين وعلماء في تاريخ الفن وفي فقه اللغات وفي الرياضيات وفي فروع أخرى ، كلهم من الطبقة الممتازة . وينبغي على كل معهد كاستالي وعلى كل واحد في كاستاليا أن يعرف له هدفين ومثلين لا أكثر : أن يحقق في فرع تخصصه أكمل ما يمكن ـ وأن يجعل نفسه وفرع تخصصه على هذا النحو نشطا مرنا ، بحيث يربط فرع تخصصه بقطاعات العلم الأخرى كلها ربطا دائما يقيم بينه وبينهما صداقة عميقة . هذا المثل الأعلى الثاني ، أعني فكرة الوحدة الداخلية لكل جهود الإنسان الفكرية ، فكرة العمومية ، يتخذ في لعبتنا الكريمة تعبيرا هو أكمل تعبير له . ربما رأى عالم الفيزيقا أو عالم تارخ الفن ، أو أي عالم آخر خيرا في الالتزام الشديد بموضوع تخصصه لوقت ما ، وأعتقد أن صرف النظر عن فكرة عمومية الثقافة يؤدي مؤقتا الى تحقيق أعظم انجاز في فرع تخصصه ـ أما نحن ، لاعبي الكريات الزجاجية ، فلا يصح أن نرحب بهذا التضييق وهذا الاكتفاء الذاتي أبدا ، لأن مهمتنا هي بالضبط المحافظة على فكرة جامعة الآداب(١) ، وعلى اللعبة الكريمة التي هي تعبير عنها ، وانقاذها على الدوام من كل ميل

(١) Universitas Litterarum

يظهر في فروع التخصص المختلفة الى الاكتفاء كل بذاته . ولكن كيف السبيل لانقاذ شيء لا يرغب هو نفسه في أن ينقذ ؟ وكيف يمكننا أن نرغم عالم الآثار وعالم التربية وعالم الفلك الخ على التخلي عن فروع العلوم المكتفية بذاتها ، وعلى فتح نوافذهم دائما على الفروع الأخرى كلها ؟ لن يمكننا أن نحقق ذلك عن طريق أوامر جبرية ، مثلا عن طريق فرض لعبة الكريات الزجاجية كعلم اجباري رسمي في المدارس أو عن طريق التذكير المجرد بما قصده سلفنا من وراء هذه اللعبة . وإنما يمكننا أن نجعل أنفسنا ونجعل لعبتنا لا غنى عنا وعنها ، بأن نبقى دائما فوق قمة الحياة الفكرية كلها ، وبأن نضم الينا في وعي كل مكسب جديد وكل نظرة جديدة واتجاة جديد وكل مبحث جديد للعلوم ، وبأن نشكل ونمارس لعبتنا الكريمة ، الخطيرة ، القائمة على فكرة الوحدة على الدوام ، على نحو جديد ولطيف ومقنع وجذاب ومغر ، حتى يتحتم على الباحث المفرط الجدية ، والمختص المفرط النشاط ، أن يحس نداءها وتنبيهها وجاذبيتها وإغراءها . فإذا تصورنا أننا نحن اللاعبين ركنا الى العمل بحماس أقل فترة ما ، وأن برامج اللعبة للمبتدئين أصبحت مملة وسطحية ، وأن العلماء المختصين افتقدوا في ألعاب المتقدمين الحياة النابضة والعناصر الفكرية الجديدة والتشويق ، وأن الضيوف أحسوا ثلاث مرات متتالية بأن مهرجان لعبتنا السنوية احتفال أجوف فارغ لا حياة فيه ، احتفال تقادم عهده كأنه أثر مهلهل ـ فما أسرع ما تنتهي اللعبة وننتهي نحن! ونحن الآن لا نقف على القمة الرائعة التي كانت لعبة الكريات الزجاجية تقف عليها منذ جيل ، حيث كانت اللعبة السنوية تستمر ثلاثة أو أربعة أسابيع لا أسبوعا أو أسبوعين ، وكانت تعتبر أعظم حدث سنوي في البلاد كلها ، لا في كاستاليا وحدها . والآن يحضر هذه اللعبة السنوية ممثل للحكومة ، كثيرا ما يبدو عليه السأم والضجر ، وترسل بعض المدن والهيئات مندوبين عنها . وعند نهاية أيام اللعبة يسمح هؤلاء الممثلون للسلطات العلمائية لأنفسهم أحيانا بالتلميح

المهذب الى أن طول مدة الحفل يحمل بعض البلاد على عدم إرسال ممثلين لها ، وأنه ربما كان من الأنسب للعصر أن تختصر مدة الحفل اختصارا كبيرا أو أن يجعل الحفل مرة كل عامين أو ثلاثة . هذا التطور ، أو على الأصح هذا التدهور ، لا يمكننا وقفه . بل إنه من الممكن ، ألا يعود العالم الخارجي يفهم قيمة اللعبة ، وألا يحتفل باللعبة السنوية إلا مرة كل خمسة أو عشرة أعوام ، أو لا يحتفل بها إطلاقا . أما ما يمكننا وما ينبغي علينا أن نحول دون حدوثه ، فهو تدهور اسم وقيمة اللعبة في وطنها ، في اقليمنا نحن . هذا مجال الكفاح فيه كله أمل ، والكفاح فيه موصل الى النصر . ونحن نلاحظ كل يوم أن بعض صغار تلاميذ الصفة يتابعون برامج اللعبة بغير حماس كبير ، ويختمونها على نحو طيب ولكن بلا تحمس ، ثم تتملكهم فجأة أرواح اللعبة وإمكانياتها الفكرية ، وتقاليدها الجليلة ، وطاقاتها المحركة للنفوس ، فيصبحون من أخلص اتباعنا وأشياعنا . كذلك نرى كل عام في اللعبة السنوية العامة علماء لهم اسمهم ومكانتهم ، نعلم عنهم أنهم كانوا طوال العام ينظرون الينا معشر لاعبي الكريات الزجاجية شزرا ولا يتمنون لمعهدنا خيرا كثيرا ، واذا بهم أثناء الحفل العظيم ، يحل بهم سحر فننا ، فيقلون من غلوائهم ، ويميلون الينا ، ويزيدون راحة ورفعة وشبابا وحركة وقوة في القلب وتأثرا ، فيودعوننا بكلمات تعبر عن شكر يوشك أن يكون امتناننا خجولا . فإذا تأملنا لحظة في الوسائل التي تحت أيدينا لتحقيق مهمتنا ، وجدنا جهازا غنيا جميلا منظما ، وفي وسطه أرشيف اللعبة ، نستعمله كلنا في كل ساعة شاكرين ، ونقف كلنا ، من الماجستر ورئيس الأرشيف الى أصغر مساعد ، في خدمته . وأعظم وأنشط ما في معهدنا هو المبدأ الكاستالي القديم ، مبدأ اختيار الأحسن ، اختيار الصفوة . فمدارس كاستاليا تجمع أعظم التلاميذ من طول البلاد وعرضها وتنشئهم . كذلك نحن في قرية اللاعبين نجتهد في أن نختار الصفوة من بين الموهوبين المحبين للعبة ، فنتناولهم نزيد تربيتهم كمالا . والفصول والأقسام

عندنا تقبل المئات ثم تسرحهم ولا تنشئ إلا أحسنهم ، فتجعل منهم لاعبين بالمعنى الصحيح ، وفنانين في اللعبة وتتعهدهم على الدوام بالتعليم ، وكل واحد منكم يعلم ، أن فننا لا ينتهي الى نهاية كما أن كل تطور لا ينتهي الى نهاية ، وأن كل واحد منا ، منذ ننضم الى الصفوة ، يظل طول حياته يعمل على تطوير وتحسين وتعميق ذاته وفننا ، سواء كان في سلك الموظفين أو لم يكن . ولقد انتقد البعض وجود الصفوة عندنا ، واعتبره نوعا من الترف ، وقال إنه لا ينبغي أن ننشئ من لاعبي الصفوة أكثر مما نحتاج لشغل مناصب الموظفين على نحو طيب . ونحن نقول ، ان سلك الموظفين ليس هيئة قائمة بذاتها من ناحية ، ومن ناحية ثانية فان كل انسان لا يصلح لأن يكون موظفا ، فعالم فقه اللغة الجيد لا يصلح بالضرورة لأن يكون مدرسا . ونحن الموظفين نعرف ونحس تماما بأن جماعة المعيدين ليست مخزنا لأصحاب المواهب والخبرة في اللعبة نأخذ منه ما نسد به ثغراتنا ونستمد منه من يخلفوننا . وأكاد أقول ان ما ذكرت ليس إلا وظيفة ثانوية لصفوة اللاعبين حتى عندما نؤكد عليها أمام غير العليمين ، في معرض الحديث عن معنى ومقومات معهدنا . لا ، ليس المعيدون بالدرجة الأولى ، أساتذة المستقبل ، وقادة البرامج وموظفي الأرشيف في المستقبل ، بل هم هدف في ذاته ، وان جماعتهم الصغيرة هي وطن لعبة الكريات الزجاجية الحقيقي ومستقبلها . في هذا العدد الذي يقدر بالعشرات من القلوب والأمخاخ تجري أحداث ومواءمات وانتفاضات ومحاورات لعبتنا مع روح العصر ومع مختلف العلوم . ولعبتنا لا تلعب الا هنا بكامل قيمتها وكل طاقاتها . هنا فقط تعتبر اللعبة لدى الصفوة هدفا في ذاتها ، وخدمة مقدسة ، ولا شأن لها بالهواية ولا شأن لها بسخف التعليم ، ولا شأن لها بالتهويل ولا بالخزعبلات . في يدكم يا معشر معيدي فالدتسل مستقبل اللعبة . ولما كانت اللعبة هي قلب كاستاليا وذاتها ولما كنتم أنتم أعمق وأنشط ما في ربوعنا ، فإنكم تعتبرون بحق في الاقليم كالملح في

الطعام ، أنتم روح الاقليم ، أنت شغله الشاغل . وليس هناك خوف أو خطر من أن يزيد عددكم ، ولا من أن يزيد حماسكم ، ولا من أن تتأجج عاطفتكم نحو اللعبة الرائعة أكثر من اللازم . فزيدوا من عددكم ومن حماسكم وأججوا عواطفكم! هناك خطر واحد يمكن أن يتهددكم يمكن أن يتهدد جميع الكاستاليين وعلينا أن نتنبه جميعا اليه كل يوم . فروح اقليمنا وطائفتنا قائمة على أساس من مبدأين : من ناحية على الموضوعية وحب الحقيقة في الدراسة - ومن ناحية ثانية على العناية بالحكمة والانسجام المتأملين . والموازنة بين المبدأين معناها بالنسبة لنا أن نكون حكماء جديرين بطائفتنا . إننا نحب العلوم ، وكل واحد يحب علومه ، ونعلم أن انهماك الرجل في علم ما لا يعصمه حتما من السعي للنفع الخاص ولا يعصمه حتما من الرذيلة ومن السخف . والتاريخ يعج بأمثلة على أولئك العلماء ، وما شخصية الدكتور فاوست إلا صورة شعبية أدبية لهذا الخطر . كانت هناك عصور التمست لها ملجأ في التوحيد بين الفكر والدين ، بين البحث والتصوف ، وكانت جامعة الآداب عندهم يحكمها اللاهوت . أما نحن فنحاول أن نطرد الحيوانية منا ، والشيطانية من العلم عن طريق التأمل والممارسة المتعددة المستويات لليوجا . وأنتم تعلمون ، كما أعلم ، أن لعبة الكريات الزجاجية فيها شيطانها ، الذي قد يحولها الى مهارة فارغة ، والى متعة ذاتية بسخف فني ، الى طموح وسعي الى التسلط على الآخرين وبالتالي الى إساءة استخدام السلطة . لهذا كنا في حاجة الى تربية أخرى غير التربية العقلية ، لهذا خضعنا لأخلاقية الطائفة ، لا لنحول حياتنا الفكرية النشطة الى حياة أحلام روحانية وضيعة ، بل على العكس ، لنصبح قادرين على الجهود الفكرية . لا ينبغي لنا أن نهرب من الحياة العاملة الى الحياة المتأملة ولا أن نهرب من الحياة المتأملة الى الحياة العاملة ، وانما علينا أن نكون على التبادل في منتصف الطريق بينهما ، وأن نكون متمكنين من كليهما ، مشتركين فيهما معا » .

ولقد ذكرنا كلمات كنشت حرفيا ـ وقد سجل تلاميذه كلمات مشابهة لها قالها في مرات أخرى وحفظوها لنا ـ لأنها توضح مفهومه عن منصبه ، على الأقل في غضون أعوام عمله الأولى كماجستر . أما أنه كان مدرسا بارعا (وهو شيء أدهشه هو نفسه في بادئ الأمر) فأمر يؤكده العدد الكبير الذي يلفت للنظر من أخبار محاضراته . وكان من بين الاكتشافات والمفاجآت التي خصه بها منصبه الرفيع من أول الأمر ، أن التعليم يأتيه بمتعة كبيرة ، ويسهل عليه سهولة واضحة . ولم يكن قد توقع هذه النتيجة ، لأنه لم يكن يسعى في الحقيقة الى الاشتغال بالتعليم . كل ما في الأمر أنه تلقى ، مثله مثل كل طالب قديم في الصفوة ، أكثر من مرة تكليفا بالتدريس لمدة قصيرة ، فدرس في فصول مختلف الدرجات في فصول لعبة الكريات الزجاجية ، واشتغل كثيرا في مثل هذه البرامج كمعيد . إلا أن حرية الدراسة والتركيز الانعزالي على موضوعات دراسته في ذلك الوقت كانا حبيبين الى نفسه ، مهمين في نظره ، لدرجة أنه ـ رغم أنه كان معلما ماهرا ومحبوبا ـ كان يعتبر كل تكليف بالقيام بالتدريس بمثابة عرقلة لا رغبة له فيها . ثم كان أن اشتغل بالتدريس في دير البندكتينيين ، لكن الفصول كانت هناك قليلة الأهمية في حد ذاتها ، قليلة الأهمية بالنسبة اليه وكانت علاقته بالأب ياكوبوس والتعلم عليه هما الاهتمام الأول ، وكان كل ما عداهما شيئا ثانويا . كان هدفه الأسمى في ذلك الوقت هو أن يكون تلميذا جيدا ، وأن يتعلم ، ويتلقى ويثقف نفسه . وها هو ذا التلميذ يصبح معلما ، ويتغلب ـ كمعلم ـ على أعظم مهمة للفترة الأولى من توليه منصبه ، مهمة الصراع من أجل السلطة ، وتوضيح ماهية الشخص ، وماهية المنصب . واكتشف أثناء ذلك اكتشافين هامين : متعة نقل ما حصله فكريا الى أفكار الآخرين ، والتطلع الى الاشعاعات في تحورها ، يعني متعة التعليم ـ ثم مصارعة شخصيات الطلبة والتلاميذ والحصول على النفوذ والقيادة وممارستها ، يعني متعة التربية . وهو لم يفصل الأمرين قط

وأنشأ أثناء تقلده منصب الماجستر عددا كبيرا من خيرة لاعبي الكريات الزجاجية ، بل تجاوز ذلك الى تطوير عدد كبير من تلاميذه بمثاله وقدرته وتنبيهه وصبره الشديد وقوة كيانه ، الى أن بلغوا من الناحية الانسانية والناحية الخلقية أقصى ما سمحت به قدرتهم وكفاءتهم .

وقد كانت له ، إن سمحنا لأنفسنا هنا باستباق الحوادث ، في ذلك خبرة مميزة . كان كنشت في أول عهده بالمنصب لا يشتغل إلا مع الصفوة الطبقة العليا من اتلاميذ ، ولا يخالط إلا الطلبة والمعيدين وكان منهم من يساويه سنا وكان منهم من كمل تدريبه وأصبح لاعب كريات زجاجية كامل الثقافة . فلما اطمأن الى الصفوة ، بدأ ينصرف عنها تدريجيا شيئا فشيئا ، عاما بعد عام ، على نحو حذر ، ويقلل ما يمنحه إياها من قوته ووقته ، حتى كان في النهاية يتركهم أحيانا كلية لرجاله الذين يثق فيهم ولمساعديه . واستمرت هذه العملية أعواما ، وكان كنشت يرجع بمحاضراته وحصصه وتطبيقاته الى طبقات أصغر وأقل من جماعة التلاميذ ، حتى انتهى الى شيء نادرا ما فعله قبله ماجستر لودي آخر ، انتهى الى القيام شخصيا أكثر من مرة بعمل برامج للصغار ، أي للتلاميذ الذين لم يصبحوا طلبة بعد . واكتشف أثناء ذلك ، أن متعة التعليم تزيد كلما صغر التلاميذ وزادت سذاجتهم . بل كان أحيانا في غضون تلك الفترة يجد صعوبة وجهدا في الانصراف عن الشباب والصغار الى الطلبة أو الصفوة . بل كان أكثر من هذا ، يحس برغبة في التقهقر الى مستويات أقل ، ليجرب تعليم تلاميذ أصغر سنا ممن دون سن الاشتراك في برامج وفي لعبة الكريات الزجاجية . فأحس برغبة مثلا في الذهاب لفترة الى ايشهولتس أو الى أية مدرسة اعدادية أخرى ليعلم صغار الصبية اللغة اللاتينية والغناء أو الجبر ، حيث كان التعليم أقل إعمالاً للفكر من أدنى مستوى في برامج المبتدئين في لعبة الكريات الزجاجية التي كان يجتمع فيها تلاميذ أكثر تفتحا وقابلية للتربية وللتعليم ، حيث التعليم والتربية

يكونان وحدة أقوى وأعمق . وقد أطلق كنشت على نفسه في السنتين الأخيرتين من عمله كماجستر في بعض خطاباته مرتين صفة «المدرس» ، مشيرا بذلك الى أن اسم الماجستر لودي لم يكن يساوي قبل أجيال «أستاذ اللعبة» فقط ، بل كان في أصله لقبا للمدرس .

لكن هذه الرغبات في الاشتغال بالتدريس على نحو ما وصفنا لم تتحقق تماما وبقيت مجرد أحلام ، تشبه أحلام من يضمه يوم من الشتاء بارد مغيم ، فيحلم بسماء الصيف الصحو . لم يكن لكنشت طريق مفتوح غير الطرق التي يعينها له منصبه . ولكن منصبه كان يترك له مهمة تحديد الأساليب التي يريد أن يتبعها في تأدية واجباته ، لذلك فقد وجه في بادئ الأمر لا شعوريا اهتمامه الأكبر بالتدريج الى التربية والى مراحل العمر المبكرة التي كان يمكنه الاحتكاك بها . وكان كلما تقدمت به السن ، أحس بالشباب يجذبون اهتمامه أكثر فأكثر . وهذا هو ما نستطيع اليوم على الأقل ، أن نقوله . كان الناقد الذي يبحث في حياة كنشت فيما مضى عن شيء من قبيل الهواية أو العناد في تصريف أمور الديوان ، يركب الصعب . كذلك كان المنصب يحمله حملا على العودة الى الصفوة ، وكان حتى في الفترات التي يكل فيها أمر الأقسام والأرشيف كلية تقريبا الى مساعديه والى «شبحه» ، يظل على علاقة قوية يومية بالصفوة عن طريق أعمال طويلة الأمد ، مثل المسابقات السنوية أو الاستعداد لحفل اللعبة السنوي . وقد قال لصديقه فريتس ذات مرة على سبيل المزاح : «كان هناك أمراء عذبهم حبهم التعيس لرعاياهم طول حياتهم تعذيبا . كانت قلوبهم تجذبهم ناحية الفلاحين والرعاة والعمال والمدرسين وصبية المدارس ، ولكنهم نادرا ما التقوا بهم ، لأن وزراءهم وضباطهم كانوا يحيطون بهم على الدوام ، ويقفون كالجدار بينهم وبين الشعب . كذلك حال الماجستر أيضا . يريد أن يتصل بالناس ولا يرى إلا زملاء ، يريد أن يذهب الى التلاميذ والى الصبية ، ولا يجد إلا طلبة وصفوة» .

لكننا سبقنا الحوادث فغلونا في السبق . لنعد الآن الى سنوات كنشت الأولى في المنصب . بعد أن حقق العلاقة المرغوبة بالصفوة ، أتى دور جماعة الموظفين ليستوثق منهم كسيد يكن لهم الصداقة ولايفتقر الى اليقظة ، كذلك أتى دور دراسة قسم المستشارية ومكانه من نظام الديوان كله . وكان كثيرا ما تأتيه كميات من الرسائل وتوصيات من الجلسات ، ومن المنشورات الدورية بواجبات ومهام لا يسهل على المستجد فهمها وتبويبها كما ينبغي . كانت تلك تعالج في أحوال ليست بالنادرة ، مسائل تهتم بها كليات الاقليم ، وتتبادل بشأنها الغيرة : منها على سبيل المثال أمور الاختصاصات ، لكنه عرف بالتدريج ، وباعجاب متزايد الوظيفة السرية القوية للطائفة التي هي الروح الحية للدولة الكاستالية والحافظ الواعي لدستورها .

وهكذا انتهت شهور قاسية مليئة بالجهد ، دون أن ينفسح في أفكار كنشت مكان لتيجولاريوس ، إلا ما كان يكلفه به ـ على نحو يوشك أن يكون فطريا ـ من أعمال ليحول بينه وبين الفراغ الكثير . كان فريتس قد فقد بين عشية وضحاها زميله ، ثم رآه وقد أصبح سيده ورئيسه ، ولم يعد له أن يدخل عليه كخاصته ، وتحتم عليه أن يطيعه وأن يناديه بـ«أنتم» و«يا سيادة الأستاذ الجليل» . لكنه اعتبر ما كان الماجستر يكلفه به ، اهتماما خاصا وعلامة على أن الماجستر يخصه بشيء من تفكيره ، وكان وهو الانعزالي الذي يوشك ألا يثبت على حال ، تارة يرى نفسه محمولا الى الانفعال الشديد لترقية صديقه ولما كان يعتمل في الصفوة من حركة شديدة ، وتارة يرى نفسه مدفوعا الى النشاط نتيجة للأعمال التي يكلف بها بصورة يقبلها . المهم أنه احتمل الوضع الذي تغير هكذا تغييرا كليا احتمالا أحسن مما كان هو نفسه يتصور في تلك اللحظة التي صرفه كنشت فيها عنه عندما تلقى خبر تعيينه أستاذا للعبة الكريات الزجاجية . هذا الى أن فريتس

كان من الفطنة والتعاطف ، وأحس على الأقل بما تحتم على صاحبه مغالبته وغلبته . رآه يقف في النار ويحترق ، وأحس بالناحية الانفعالية للبلية ، ربما أكثر من احساس المبتلى بها ذاته . واجتهد تيجولاريوس في انجاز المهام التي كلفه بها الماجستر من حين لآخر أعظم الاجتهاد ، ولم يأسف قط لضعفه ولعدم صلاحيته للمنصب وللمسؤولية ، ولم يتبرم قط بهذا النقص ، مثلما أسف وتبرم الآن وقد استبد به الشوق الى أن يصبح مساعدا ، موظفا ، « شبحا » يقف الى جانب معبوده ويساعده .

كانت غابات البلوط قد بدأت تتلون باللون الداكن ، عندما أخذ كنشت يوما كتابا صغيرا واتجه الى حديقة الماجستر بجانب منزله ، تلك الحديقة التي كان الماجستر توماس يقدرها تقديرا شديدا ، وكثيرا ما يعتني بها بنفسه بطريقة تذكر بأشعار هوراس ، التي كان كنشت ، مثله في ذلك مثل جميع التلاميذ والطلبة ، يتصورها قديما كمكان جليل كمكان استجمام واستجماع للأستاذ شبيه بجزيرة ربات الأدب والعلم أو بمدينة توسكولوم[1] ، تلك الحديقة التي لم يطأها بقدمه منذ أن أصبح ماجستر وأصبح صاحبها إلا نادرا ولم يتمتع بها في فراغ أو لم يكد . حتى هذه المرة لم يجد لها إلا ربع ساعة فقط ، بعد أن فرغ من المائدة فأتى ليسير بضع خطوات خالي البال غاديا رائحا بين الشجيرات والخمائل التي زرع بينها سلفه نباتات دائمة الخضرة من أقاليم الجنوب . ثم حمل كرسيا من الخيزران الخفيف الى مكان مشمس ـ لأن الجو في الظل كان باردا ـ وجلس وفتح الكتاب الذي أتى به معه . كان ذلك الكتاب هو « تقويم صغير للماجستر لودي » الذي ألفه قبل سبعين أو ثمانين سنة أستاذ لعبة الكريات الزجاجية السابق لود فيج فسرمالر[2] ، وتولاه من ذلك الحين كل ماجستر جديد

---

(١) Tuskulum حيث كتب سيسيرون توسكولومياته . المترجم

(٢) Ludwig wassermaler

بالتصويب والتشطيب والاكمال ليناسب العصر . كان ذلك التقويم مذكرة للأساتذة ، وبصفة خاصة للأساتذة قليلي الخبرة في أعوام توليهم منصبهم الأولى ، يضع تحت أعينهم ، أسبوعا بعد أسبوع ، أهم واجباتهم تارة باختصار وتارة بتفصيل ، مع بعض النصائح الخاصة . وبحث كنشت عن الورقة الخاصة بالأسبوع الحالي وقرأها بعناية . فلم يجد فيها شيئا غريبا أو مليحا ، لكنه وجد في آخر الفقرة السطور التالية : «أبدأ تدريجيا في التفكير في اللعبة السنوية القادمة . لعل ذلك يبدو لك مبكرا والحق أن ذلك يلوح مبكرا . ولكني أنصحك إن لم تكن قد كونت فكرة عن اللعبة في رأسك بعد ، بألا تترك من الآن أسبوعا أو شهرا ينصرم دون أن توجه أفكارك الى اللعبة القادمة . سجل خواطرك ، واصطحب معك في كل نصف ساعة من الفراغ خطة لعبة كلاسيكية ، وخذها معك في رحلات العمل التي قد تقوم بها . أعد نفسك ، ولا تجعل استعدادك يتم بمحاولة استخراج خواطر من قريحتك بالاكراه ، بل يتم عن طريق تفكيرك من الآن فصاعدا بأن مهمة مهيبة جميلة تنتظرك في الشهور القادمة وبأن تتقوى وتستجمع نفسك وتعد مزاجك لها » .

كانت هذه السطور بقلم رجل حكيم وأستاذ في فنه عاش قبل ثلاثة أجيال تقريبا ، في الوقت الذي بلغت فيه لعبة الكريات الزجاجية من الناحية الشكلية أعلى ثقافتها ، وامتازت اللعبة آنذاك في تأديتها ببديع وزخرف كثيرين ، كاللذين امتاز بهما فن العمارة والديكور في العصر القوطي المتأخر وعصر الروكوكو مثلا ، كانت اللعبة لمدة تقرب من عشرين سنة توشك أن تكون لعبا بكريات من الزجاج ، كانت لعبة زجاجية ، فقيرة المضمون ، فيها تأنق وسرف في ظاهرها ، كانت مليئة بالأشكال الزخرفية الرقيقة ، كانت كهيام الراقص ، أو الراقص على الحبل في وسط نغمات إيقاعية متمايزة . وكان هناك من الفنانين من يتحدثون عن الأسلوب القديم حديثهم عن مفتاح سحري ضائع ، وكان منهم من يرى أنه غارق في الزخرف المفرط ، وأنه

أسلوب تدهوري يفتقر الى الرجولة . وكان أحد أساتذة ومبدعي ذلك الأسلوب هو الذي ألف نصائح التقويم الحكيمة الودية . وبينما كنشت يعيد قراءة النصائح والتوجيهات في التدقيق للمرة الثانية والثالثة ، أحس حركة مرحة لطيفة في قلبه ، أحس إحساسا لم يعرفه ـ على ما لاح له ـ من قبل إلا مرة واحدة . فلما أعمل فكره ، تبين أنه الاحساس الذي غمره ساعة تأمله قبل تقلد المنصب ، الاحساس الذي تملكه عندما تصور حركة التبادل العجيبة التي كان قطباها أستاذ الموسيقى ويوزف ، الأستاذ والمبتدئ ، الهرم والشباب . كان كاتب السطور رجلا مسنا تقدمت به الشيخوخة يقول : «لا تدع أسبوعا ينصرم...» ، لا تحاول استخراج خواطر طيبة من قريحتك بالاكراه...» . كان آنذاك رجلا شغل المنصب مدة لا تقل عن عشرين سنة ، ربما أطول بكثير ، منصب أستاذ اللعبة ، وكان بلا شك يجد في ذلك الوقت من اللعب على الطريقة الروكوكوية المرحة الصعبة مع الصفوة المدللة الواثقة من نفسها الى أقصى حد ، وكان الرجل الذي ابتكر في ذلك الوقت أكثر من عشرين لعبة سنوية باهرة كانت تستمر أربعة أسابيع واحتفل بها . كان بلا شك رجلا مسنا تحولت المهمة السنوية في نظره ـ مهمة تأليف لعبة احتفالية عظيمة ـ الى حمل ثقيل وجهد جهيد ، ولم تعد بالنسبة اليه شرفا ومتعة ، تحولت المهمة في حالته الى مهمة ينبغي على صاحبها أن يعد نفسه لها ، وأن يشحذ لها نفسه ويستحثها قليلا . وأحس كنشت لقاء هذا الرجل الأريب المسن لا أقول بالاحترام الممتزج بالاعتراف بالجميل فحسب ، بل أحس في نفسه تجاهه تفوقا مرحا ، بل مضحكا ومتعاليا ، تفوق الشباب . فلم يعرف كنشت بين هموم أستاذ لعبة الكريات الزجاجية التي شملتها خبرته ذلك الهم : ربما لا يتمكن أستاذ لعبة الكريات الزجاجية من التفكير الكافي في اللعبة السنوية في الوقت المناسب ، أو ربما لم تقع منه المهمة موقع الفرح أو ربما لا تجده مستجمعا قواه على النحو الكافي ، أو ربما افتقر

أستاذ لعبة الكريات الزجاجية الى الرغبة في القيام بمثل هذه اللعبة أو افتقر الى الخواطر اللازمة لها . لا ، في هذه اللحظة أحس كنشت بنفسه شابا قويا ، وكان بين الفينة والفينة يحس كأنه أصبح شيخا مسنا . ولم يستطع الاستسلام لهذا الاحساس الجميل طويلا والتمتع به ، فقد أوشكت فترة راحته الوجيزة على الانتهاء . لكن الاحساس الجميل ظل كامنا في نفسه ، فحمله معه . وهكذا أثمرت فترة الراحة القصيرة بحديقة الماجستر والقراءة في التقويم ثمرة مؤكدة . ولم تقتصر الثمرة على الراحة والاحساس بالحياة في مرح زائد ، بل تجاوزتها الى خاطرين ، اتخذا على التو شكل القرارين . أولهما : أنه يريد إذا ما أصابه يوما الكبر والنصب أن يعتزل منصبه على الفور عندما يلوح له تأليف اللعبة السنوية كواجب ثقيل ويجد نفسه في حيرة من أمر الخواطر الجديدة اللازمة لتأليف مثل هذه اللعبة . وثانيهما : أنه يريد أن يبدأ قريبا أعمال لعبته السنوية الأولى وأن يستدعي تيجولاريوس ليساعده كزميل ومساعد أول له في هذا العمل ، فيكون في ذلك طيب خاطر وفرحة للصديق ، ويكون في ذلك محاولة إحياء تلك الصداقة التي ظلت مجمدة حتى ذلك الحين . وما كان تجديد تلك الصداقة ليبدأ بمناسبة أو حافز من الصديق ، بل كان ينبغي أن يأتي ذلك من الماجستر نفسه .

سيكون في ذلك التكليف للصديق عمل كثير . لأن كنشت كان منذ أيام وجوده في ماريافلس يحمل بين جنباته خاطر لعبة كريات زجاجية يريد أن تكون أول لعبة احتفالية له عندما يقلد منصب الأستاذية . كان هذا الخاطر الجميل يتلخص في بناء اللعبة من الناحية الانشائية ومن ناحية الأبعاد على أساس التصميم الكونفوشيوسي الديني لبناء البيت الصيني : التوجيه الي الجهات الأربع الأصلية ، البوابات ، جدار الأرواح ، علاقات المباني والأفنية واستخداماتها ، وترتيبها بحسب النجوم والتقويم والحياة العائلية ، ويضاف الى ذلك رمزية الحديقة وقواعد أسلوبها . وكان كنشت وهو يدرس تعليقا

على «اي جنج» قد وجد أن النظام والأهميـة الأسطورية التي تتخذها هذه القواعد تعتبر كناية معبرة لطيفة عن الكون وعن وضع الانسان في الدنيا ، كذلك وجد روحا شعبية أسطورية عتيقة في تقاليد بناءالبيت ترتبط ارتباطا وثيقا عجيبا بروح الماندرين والماجستر المتميزة بالتأمل والعلمانية . كان كنشت ، قد أعمل فكره في خطة هذه اللعبة بكثرة وشغف ، دون أن يسجل ملاحظات بالطبع ، وأصبح يحملها تامة ككل في ذاته . والآن قر رأيه نهائيا على بناء اللعبة السنوية على هذه الفكرة الصينية ، وكان المفروض أن يبدأ فريتس على الفور ، أن يفتح عقله لخاطر اللعبة ، بالدراسات الخاصة ببناء اللعبة وبالاستعدادات الخاصة بترجمتها الى لغة اللعبة . إلا أن عقبة كانت تقف في الطريق : فقد كان تيجولاريوس لا يعرف الصينية . وكان الوقت لا يسمح بأن يشرع من الآن في تعلمها . إلا أن تيجولاريوس استطاع بفضل توجيهات كنشت شخصيا وبفضل توجيهات معهد دراسات منطقة شرق آسيا ، أن ينفذ الى الرمزية السحرية لبيت الصينيين ، واستعان على ذلك بالمراجع ، فقد كان الأمر لا يتعلق بفقه اللغة الصينية . لكن تيجولاريوس احتاج الى وقت ، خاصة وأنه كان شخصا مدللا لا يجد في نفسه كل يوم ميلا الى العمل . فكان من الخير أن بدأت الاستعدادات مبكرة . وتبين كنشت وهو يبتسم في دهشة لطيفة ، أن الرجل العجوز الحريص الذي دون ملاحظته في التقويم ، كان على حق .

وفي اليوم التالي انتهت ساعة المقابلات مبكرا ، فاستدعى كنشت تيجولاريوس اليه . وأتى تيجولاريوس وانحنى انحناءة فيها تعبير واضح عن التواضع تعلم أن يصطنعه أمام كنشت ، واندهش دهشة كبيرة عندما رأى الماجستر يومئ له برأسه في شيء من المكر ويسأله ، وكان من قبل يوجز في الكلام واقتصد في الألفاظ : «أتذكر كيف جرى بيننا في سني دراستنا شيء كالجدل ، لم أتمكن فيه من اقناعك برأيي ؟ كان الأمر يدور حول قيمة

وأهمية دراسات ثقافة شرق آسيا ، والصين خاصة ، وكنت اجتهد في حملك على الجلوس فينة في معهد الدراسات وتعلم الصينية . ـ نعم ، انك تذكر هذا ؟ والآن يخالجني الأسف للمرة الثانية على أنني لم أتمكن من توجيهك تلك الوجهة في ذلك الوقت . لو كنت تعلم الصينية الآن ، لكان في ذلك الخير الكثير! ولتمكنا من أن نشترك معا في انجاز الأعمال» . هكذا وخز كنشت صديقه وخزا رفيقا وشحذ توقعه وأثار اشفاقه ، قبل أن يتقدم باقتراحه الذي يتلخص في أنه يريد أن يبدأ العمل قريبا في اللعبة السنوية الكبرى ، وأن يكلف فريتس بجزء كبير من تنفيذ العمل ، ان صادف هذا هوى في نفسه ، كما لجأ اليه من قبل ليساعده في تنفيذ لعبة كنشت التي دخل بها المسابقة عندما كان عند البندكتينيين . ونظر فريتس اليه وهو لا يكاد يصدق ، وقد تملكه الاندهاش العميق ، وأخذه القلق نتيجة للنبرة المرحة والوجه الباسم ، اللذين اتخذهما كنشت الآن ، ولم يكن يطلع عليه من قبل إلا طلوع السيد والماجستر . ثم تأثر وفرح لما برز في هذا الاقتراح من شرف وثقة أحس بهما احساسا ، وفهم ووعى معنى هذه الحركة الجميلة . كانت هذه اللفتة محاولة للعلاج ، محاولة لاعادة فتح باب أغلق بين الصديق وبينه . ولم يأخذ مخاوف كنشت من ناحية اللغة الصينية مأخذ الشدة ، وأعلن على الفور استعداده للوقوف كلية تحت تصرف الأستاذ الجليل لتنفيذ لعبته . فقال الماجستر : «حسنا . وأنا أقبل وعدك . وهكذا سنشترك في ساعات معينة في العمل والدرس كما كنا نفعل قديما في تلك الأوقات التي تبدو بعيدة بعدا سحيقا والتي طالما اشتركنا فيها في العمل والكفاح من أجل الفراغ من اعداد بعض اللعب . إن هذا لمما يسعدني يا تيجولاريوس . وعليك الآن أن تجتهد ، أولا في فهم الفكرة التي أريد أن أبني اللعبة عليها . عليك أولا أن تتعلم فهم ما هو البيت الصيني وما هي دلالات القواعد المفروضة لبنائه . وسأعطيك توصية لمعهد دراسات منطقة شرق آسيا ، وستجد هناك من

يعينك . أو ـ لقد خطر لي الآن شيء آخر ، جميل ـ يمكننا أن نجرب مع الأخ الأكبر ، مع رجل خميلة البوص الذي حكيت لك عنه قديما . ربما كان الاتصال به في هذا الشأن دون مقامه ، أو ربما كان فيه اقلاق كبير له ، خاصة وأنك لا تعرف الصينية . ولكن علينا على أية حال أن نحاول . ولو شاء هذا الرجل لجعل منك صينيا » .

وراح رسول الى الأخ الأكبر يدعوه الى الحضور فترة والنزول ضيفا على أستاذ لعبة الكريات الزجاجية في فالدتسل ، نظرا لأنه مشغول بمهام منصبه لدرجة لا تتيح له القيام بالزيارة واطلع الأخ الأكبر على الخدمة التي ترجى منه . لكن الصيني لم يترك خميلة البوص وأتى الرسول بدلا منه بخطاب صغير عليه حروف صينية مرسومة بالفراشة ، تقول : « في رؤية الرجل العظيم شرف كبير أما الذهاب فيؤدي الى عوائق . فليستخدم الانسان للضحية صحنين صغيرين . والأصغر هو الذي يحيي الأسمى » . ولم يجد كنشت صعوبة في اقناع صديقه بالسفر الي خميلة البوص والتماس القبول والعلم هناك . إلا أن الرحلة الصغيرة لم تنجح . فقد قابل الزاهد تيجولاريوس في غابته بأدب بالغ ، ولكنه لم يجب على أي من أسئلته بغير عبارات صينية لطيفة ، ولم يدعه للبقاء رغم كتاب التوصية الذي رسمه الماجستر لودي بيده رسما رائعا على ورق جميل . وعاد فريتس حزينا الى فالدتسل دون أن يقضي أربه ، وأحضر للماجستر معه هدية عبارة عن وريقة عليها بيت شعر قديم عن سمكة ذهبية مرسومة بالفرشاة ، وكان عليه والحال هذه أن يلتمس ضالته في معهد دراسات شرق آسيا . هنالك أدت توصيات كنشت الى نتائج أكثر فعالية ، وأتى من به الى حامل التوصية ، الى مبعوث الماجستر ، يقدمون أحسن المساعدة اليه . ولم يمض إلا وقت قليل حتى كان قد أحاط بموضوعه أكمل إحاطة ممكنة بدون علم الصينية ، ووجد في فكرة كنشت ، جعل رمزية هذا البيت أساس خطة للعبة فرحة كبيرة ، صهرت فشله في خميلة البوص وأنسته إياه .

عندما استمع كنشت الى رواية صديقه المطرود من حومة الأخ الأكبر عن زيارته ثم قرأ وحده عندما خلا إلى نفسه بيت الشعر عن السمكة الذهبية ، أحس بتأثر لتذكره جو ذلك الرجل ولتذكره إقامته ذات مرة في كوخه عند البوص الهفهاف وعيدان الحزنبل ، تأثر عميق قوي ساقه الى تذكر الحرية والفراغ وأيام التلمذة وفردوس أحلام الشباب الجميلة . كيف فهم هذا الزاهد الشجاع العجيب أن يعتكف ويزهد ؟ وكيف أخفته خميلة البوص الساكنة عن الدنيا ؟ وكيف يعيش بعمق وقوة في صينيته الصافية المتكلفة العلمانية ، الحكيمة ، تلك التي أصبحت بالنسبة له طبيعية ثانية ، وكيف يبقيه سحر حلم حياته محبوسا ، مستجمعا ، محكما ، العام تلو العام والحقبة تلو الحقبة ، فيحول حديقته الى قطعة من الصين ، وكوخه الى معبد ، وأسماكه الى ربات ، ونفسه هو الى حكيم ؟! وصرف كنشت عن فكره هذه الصورة وهو يطلق الزفرات . فقد سار هو طريقا آخر ، أو سير بالأحرى في طريق آخر ، وأصبح عليه أن يتبع هذا الطريق مستقيما مخلصا ، وألا يقارنه بطرق الآخرين .

قام كنشت بالاشتراك مع تيجولاريوس في تصميم وتأليف اللعبة في ساعات اقتطعها لهذا الغرض ، أما عملية الانتقاء في الأرشيف وعملية التسجيل الأول والثاني فقد تركها لتيجولاريوس . واتخذت الصداقة بين كنشت وتيجولاريوس ، بهذا المضمون الجديد ، حياة وشكلا يختلف عن الشكل القديم . كذلك اللعبة التي اشتركا معا في العمل فيها اتخذت من غرابة وخيال الصديق العجيب شيئا من التنوع والثراء . كان فريتس ممن لا يرضون أبدا ، ولكنه كان مع ذلك من أقنع الناس ، كان من أولئك الذين ـ إذا رأوا باقة من الزهور أو مائدة معدة يعتبرها الناس تامة كاملة ـ يستطيعون أن يعملوا فيها ساعة تلو ساعة بشغف زائد ولمسات رقيقة ، ويعرفون كيف يخلقون بجد من العمل الصغير عمل يوم كامل ينهمكون فيه مخلصين . وظل

الأمر في الأعوام التالية على حاله هذا العام : اللعبة الرسمية العظمى تتفتق عن جهد اثنين ، كنشت وتيجولاريوس ، وكان تيجولاريوس يجد متعة مزدوجة في أن يصير نافعا بل يصير انسانا لا غنى عنه لصديقه وأستاذه ، وفي أن يعيش تأدية اللعبة مجهولا ، لا يعلم باشتراكه الخلاق في اللعبة إلا الصفوة .

وفي يوم من أيام أواخر خريف العام الأول لتولي كنشت المنصب ، وبينما كان صديقه عاكفا على دراساته الصينية الأولى ، وقع نظر الماجستر وهو يراجع بسرعة البيانات المسجلة في يوميات المستشارية على مذكرة : «الطالب بيتروس ـ من مونتيبورت ـ يصل محملا بتوصية من أستاذ الموسيقى ، محملا بتحيات خاصة من أستاذ الموسيقى القديم ، ويرجو الحصول على مكان للاقامة وعلى تصريح بدخول الأرشيف . وقد أنزل في بيت الطلاب» . كان يمكنه أن يترك الطالب وطلبه للعاملين بالأرشيف ولا يشغل باله بالموضوع الذي لا يزيد عن أن يكون من مواضيع كل يوم . أما «التحيات الخاصة من أستاذ الموسيقى القديم» ، فلا يقصد بها غيره . وهكذا استدعى الطالب فوجده يجمع بين الأناة والحمية ، وجده شابا صموتا يبدو كما لو كان واحدا من صفوة مونتيبورت أو على الأقل بدا أن المثول في حضرة ماجستر أمر عادي بالنسبة اليه . وسأله كنشت عما حمله إياه أستاذ الموسيقى القديم . فرد الطالب قائلا : «تحيات . تحيات قلبية جدا بالغة الاحترام لكم أيها الأستاذ الجليل ، ودعوة» . وطلب كنشت الى الضيف أن يجلس ، فجلس وراح يتحدث ويختار الكلمات بعناية : «قلت أن الماجستر الجليل القديم قد كلفني مُلحَاً بأن أحييكم بتحيات منه ، أيها الأستاذ الجليل ، ولمح الى رغبته في أن يراكم في وقت قريب ، في أقرب وقت ممكن . وهو يدعوكم أو يقترح عليكم أن تزوروه في وقت قريب ، إذا أمكن بالطبع أن تدخل هذه الزيارة في برنامج رحلة عمل وألا يكون فيها تعطيل كبير لكم . هذا هو بالتقريب ما حملنيه» .

وتطلع كنشت الى الشاب فاحصا . لا شك أن هذا الشاب من أولئك الذين يشملهم الشيخ الأستاذ برعايته وحمايته . وسأل كنشت في احتياط : «وما طول المدة التي تنوي قضاءها عندنا في الأرشيف أيها الطالب ؟» فكانت الإجابة : «سأظل يا سيدي الجليل حتى أراكم ترحلون الى مونتيبورت» .

وفكر كنشت فترة ، ثم قال : «حسنا . ولم لم تبلغني رسالة الأستاذ الكبير بنصها وحرفها ، وهو ما يتوقع في مثل هذه الحال ؟» .

وقابل بيتروس نظرة كنشت ثابتا ، ثم رد في بطء ، يبحث بدقة عن الكلمات كما لو كان يجيب بلغة أجنبية . قال : «ليست هناك رسالة ، يا سيدي الجليل ، وليس هناك نص وحرف . وأنتم تعرفون أستاذي المبجل ، وتعرفون أنه كان دائما غاية في التواضع . ومن بمونتيبورت يحكون عنه أنه في شبابه عندما كان معيدا ، وكان يعتبر في نظر الصفوة جميعا أستاذ موسيقى المستقبل ، كانوا يطلقون عليه اسم «الكبير المتصاغر» . ومنذ تقدمت به السن زاد تواضعه ، وزاد تقاه واستعداده للخدمة تأنيه وحلمه ، وأن هذه الصفات بلغت غايتها منذ اعتزل المنصب . وأنتم ، بلا شك تعرفون هذه الأمور خيرا مني . ولا بد أن تواضعه هو الذي منعه من أن يرجوكم يا سيدي المبجل ، أن تقوموا بزيارته ، حتى لو كان يتحرق إلى ذلك شوقا . لهذا لم أحمل اليكم ، يا سيدي ، رسالة من هذا النوع ، ولكنني تصرفت كما لو كنت قد تشرفت بحملها . فإذا كنت قد أخطأت ، فالأمر بين يديكم ، واعتبروه كأن لم يكن» .

فابتسم كنشت قليلا ثم قال : «وما شأن عملك في أرشيف اللعبة ؟ هل هو مجرد ستار ؟» .

فرد الشاب : «كلا ، كلا . فأنا أريد أن أتدرب في الأرشيف على بعض المفاتيح ، وكنت أريد على أية حال أن ألتمس كرمكم في هذا الموضوع . واستقر رأيي على أن الخير في التعجيل بالرحلة الصغيرة» .

فأومأ الماجستر برأسه وقال وقد عاد الى جده : «هذا حسن جدا . والآن هل تسمح لي بأن أسأل عن سبب التعجيل ؟ »

فأغمض الشاب عينيه لحظة ، وقطب جبينه كما لو كان السؤال يؤلمه ويعذبه . ثم ثبت نظرته الشابة الفاحصة الناقدة على وجه الماجستر .

«لا سبيل الى الإجابة على السؤال ، إلا إذا قررتم صياغته صياغة أكثر دقة» .

فصاح كنشت : «إذن دعني أسألك ، هل صحة الأستاذ الكبير رديئة ، هل تثير القلق ؟ » .

ورغم أن الماجستر تكلم بغاية الهدوء ، فقد لاحظ الطالب قلقه على الرجل الهرم وحبه له . وبدأ الطالب لأول مرة منذ تحدث مع الماجستر يحس شعاعا من الحنو ينساب الى نظرته الغامضة ، وانطلق صوته وقد ازداد شيئا من الرقة والمباشرة ، عندما بدا يخرج في النهاية ما في جعبته .

قال : «سيدي الماجستر ، لا تقلقوا ، فلم تسؤ صحة الأستاذ المبجل بحال من الأحوال ، لقد كان على الدوام نموذجا للرجل السليم البنية ، ومازال حتى الآن كما كان ، رغم أن الهرم قد أضعفه بطبيعة الحال . لم يتغير مظهره تغيرا كبيرا ملحوظا ، ولم تهن قوته فجأة ، فمازال يقوم بنزهاته الصغيرة ، ومازال يعزف كل يوم قليلا ، وكان لديه حتى وقت قريب تلميذان يتعلمان العزف على الأرغن على يديه ، تلميذان من المبتدئين لأنه كان دائما يحب أكبر الحب أن يكون أصغر الصغار حوله . لكنه صرف هذين التلميذين الأخيرين منذ بضعة أسابيع ، وهذه ظاهرة لفتت نظري ، فصرت أراقب الرجل الجليل أكثر مما كنت أفعل من قبل ، وبدأت أفكر في أمره ـ هذه هي الأسباب الحقيقية لوجودي هنا . أما ما يخولني حق التفكير على هذا النحو واتخاذ مثل هذه الخطوات ، فيتلخص في أنني كنت قديما تلميذا للأستاذ الكبير ، كنت تلميذا من خاصته ، إن حق لي أن اصطنع هذا

التعبير ، وعيّنني خلفه منذ عام كمرافق للرجل الهرم وكلفني بالاهتمام بصحته . كان هذا التكليف محببا الى نفسي ، لأنه لا يوجد انسان آخر أكنّ له من التبجيل والتعلق ما أكن لمعلمي القديم وصاحب الفضل علي . فإليه يرجع فضل اطلاعي على سر الموسيقى ، وجعلي كفؤا لخدمتها ، بل إن ما لدي من أفكار ومن معرفة بالطائفة ، ومن نضج ومن نظام باطني ، كله منه ، كله من عمله . هكذا أعيش منذ عام معه وحده ، وأشتغل علاوة على ذلك ببعض الدراسات والبرامج ، ولكني دائما أقف تحت أمره ، فأجالسه على المائدة ، وأصحبه في النزهة ، وأرافقه في العزف ، وأجاوره جوار الجار الجنب بالليل . هذه المرافقة تمكنني من ملاحظة مراحل ما يمكن أن أسميه شيخوخته ، أو شيخوخته الجسمانية ـ ملاحظة دقيقة . وهناك من زملائي من يؤلفون من حين لآخر تعليقات فيها الشفقة أو فيها السخرية على المنصب العجيب ـ منصبي ـ الذي حول شابا الى خادم رجل هرم ، ورفيقا في كل خطوة من خطاه . لكنهم لا يعلمون ، بل ربما لا يوجد انسان غيري يعلم أي شيخوخة تلك التي تحل بهذا الاستاذ . فكلما زاد جسمه ضعفا ووهنا ، وكلما أقل من تناول الطعام ، وكلما اشتد نصبه من نزهاته الصغيرة ـ دون أن يكون بحال مريضا ـ ، زاد في سكون هرمه عقلا واستجماعا وكرامة وبساطة . ولست أجد في عملي كرفيق وحارس له ، إلا صعوبات قليلة ، ترجع أولا وأخيرا الى أن الاستاذ الجليل لا يريد أن يخدمه ويرعاه أحد ، ويريد دائما أن يعطي ، لا أن يأخذ » .

فقال كنشت : « أشكرك . وانه لمما يثلج صدري أن أعلم أن للأستاذ الجليل تلميذا مخلصا عارفا الجميل مثلك . ولتقل لي الآن ، ما دمت لا تتحدث بتكليف من سيدك ، لتقل لي بوضوح ، السبب الذي جعلك تهتم بزيارتي لمونتيبورت » .

فرد الشاب :« لقد سألتم في قلق منذ قليل عن صحة السيد أستاذ

الموسيقى الكبير ، ويبدو أن اقتراحي جعلكم تحتملون أن يكون مريضا وأن يكون في حالة من الضروري زيارته مرة . والحق أن الشيخ المبجل لا يلوح لي قريبا من نهايته ، ولكنه يتبع طريقة خاصة في وداع الدنيا . فقد خلص نفسه منذ عدة أشهر من عادة الكلام تماما تقريبا ، واذا كان في زمانه قد فضل قليل الكلام على كثيره ، فقد وصل الآن الى قلة في الكلام والى سكون أصبح يثير شيئا من القلق . ولما تكرر تركه إياي بلا إجابة ، اعتقدت في بداية الأمر أن سمعه قد اختل . لكنه مازال يسمع بنفس القوة التي كان يسمع بها قديما ، وقد أجريت تجارب كثيرة أكدت لي ذلك . فاعتقدت أنه مشتت الفكر شارده ، وأنه لا يقوى على استجماع انتباهه . لكن اعتقادي الثاني لا يكفي ايضاحا وتفسيرا . والحق أنه منذ مدة طويلة يسير في طريقه ، وأنه لم يعد يعيش بيننا تماما ، بل أصبح يعيش في عالمه الخاص . وهكذا أصبح لا يذهب الى أحد ، ولا يستدعي اليه أحدا إلا بندرة متزايدة ، ولم يعد يرى لأيام طويلة انسانا غيري . ومنذ بدأت هذه الحالة من الانعزال ومن عدم الوجود هنا تعتريه ، وأنا أجتهد في توجيه ذلك النفر من أصدقائه اليه الذين أعلم عنه أنه كان يخصهم بأعظم حبه . فاذا أردتم يا سيدي أن تزوروه أدخلتم عليه بذلك فرحة لا شك فيها ، ووجدتم فيه الى حد ما نفس الشخص الذي بجلتموه وأحببتموه . على أنكم اذا انتظرتم شهورا أو أسابيع ، فربما قلت فرحته بكم وتعاطفكم معه ، بل ربما بات من الممكن ، أنه لن يعود يعرفكم أو لن يعود يلتفت اليكم» .

فنهض كنشت واتجه الى النافذة ووقف فترة يطل منها ويستنشق الهواء . فلما عاد الى الطالب ، كان الطالب قد هب واقفا ، كأنه اعتبر الزيارة منتهية . فمد الماجستر اليه يده .

وقال له : «أكرر شكري لك يا بيتروس . ولا شك أنك تعلم أن الماجستر عليه من المهام الشيء الكثير . فأنا لا أستطيع وضع القبعة على

رأسي والرحيل توا ، بل ينبغي أن يوضع أمر الرحيل في مكانه من جدول الأعمال وأن ينظر في وسائل تنفيذه . ولعلي أكون قد فرغت لذلك بعد غد . فهل يكفيك هذا ، وهل تكون حتى ذلك الحين قد أتممت عملك في الأرشيف ؟ نعم ؟ إذن فسأدعوك الي في الوقت المناسب » .

وبالفعل سافر كنشت يرافقه بيتروس الى مونتيبورت . فلما بلغا موضع الدار التي يقيم فيها الماجستر الكبير في وسط الحدائق ، تلك الدار الجميلة الساكنة ، سمعا موسيقى آتية من الحجرة الخلفية ، موسيقى رقيقة خفيفة ، لكنها ثابتة الايقاع ، عذبة ، مرحة . كان الشيخ يجلس هناك ويعزف باصبعين لحنا مزدوجا ـ وخمن كنشت على الفور أن اللحن لا بد مأخوذ من كتاب من كتب بتسينيين[1] من أواخر القرن السادس عشر . وظل كنشت وبيتروس واقفين حتى خيم السكون . عندئذ اتصل بيتروس بأستاذه وأخبره بعودته وبأنه مصطحب زائرا . فأقبل الشيخ الى الباب ونظر اليهما محييا . كانت ابتسامة التحية التي يبتسمها أستاذ الموسيقى ، والتي كان الجميع يحبونها ، مفعمة بالود والحب اللذين يشعان صريحين صراحة الأطفال . منذ نحو ثلاثين سنة رأى كنشت هذه الابتسامة لأول مرة وانشرح قلبه لهذا الرجل اللطيف ، وقدم ذاته نفسه اليه هدية في ساعة اختلط فيها الانقباض بالسعادة ذات صباح في حجرة الموسيقى . ثم تكررت رؤيته لهذه الابتسامة منذ ذلك الحين وكان كل مرة يحس حيالهما بفرحة عميقة وتأثر عجيب . وبينما اشتعل رأس الأستاذ الحبيب بالتدريج شيبا حتى أصبح شعره في النهاية أبيض كله ، وبينما زاد صوته خفوتا ، وزادت ضغطة يده ضعفا ، ومشيته ثقلا ، ظلت ابتسامته كما هي لم تفقد شيئا من نصاعتها وبهائها وصفائها وعمقها . كان ما رآه الصديق والتلميذ هذه المرة من أمر الأستاذ الشيخ لا يرقى اليه الشك : لقد ظلت الرسالة البراقة الجذابة لوجه هذا الشيخ

---

(١) Bicinien

الباسم بعينيه الزرقاوين وخديه الورديين تزداد مع السنين نصاعة ، ظلت هي الرسالة القديمة التي طالما طالعها ، بل لقد زادت عمقا وسحرا وقوة . في تلك اللحظة ، لحظة التحية ، بدأ كنشت يفهم حقيقة تقدير الطالب بيتروس ، وتبين أنه وإن كان قد ضحى نتيجة لهذا التقدير ، هو الذي تلقى الهدية .

ولما سعى كنشت بعد ذلك بساعات الى صديقه كارلوفيرومونته ، وكان يعمل أمينا للمكتبة الموسيقية الشهيرة بمونتيبورت ، حدثه عن ذلك . وقد حفظ فيرومونته ـ وهو أول من تحدث اليه كنشت بما رأى من شأن الأستاذ الشيخ ـ نص حديث كنشت وإياه في تلك الساعة في خطاب .

قال كنشت : «لقد كان أستاذ الموسيقى القديم معلمك وكنت تحبه ، فهل مازلت تراه كثيرا ؟» .

فرد كارلو «لا» ، أعني أنني لا أشاهده بطبيعة الحال إلا نادرا ، أشاهده وهو يقوم بالنزهة وأنا عائد من المكتبة . ولكني لم أتكلم معه منذ شهور . لأنه يعتزل الناس بالتدريج ويبدو أنه لم يعد يتحمل وجودهم لديه . وكان قديما يعقد لأمثالي من معيديه القدامى الذين عينوا في مناصب لقاء في أمسية يعينها . لكنه كف عن ذلك منذ عام تقريبا . ولقد دهشنا جميعا أشد الدهشة عندما رأيناه يسافر شخصياً ليحضر تقليدكم المنصب في فالدتسل» .

فقال كنشت «نعم ، فإذا كنت من حين لآخر تراه ، فهل استرعى انتباهك تغير فيه ؟» .

«نعم ، انكم تعنون شكله الطيب ، وبشاشته ، ونوره العجيب . طبعا هذا شيء لاحظناه . فبقدر ما تنقص قوته ، يزيد صفاؤه على الدوام . ولقد ألفنا ذلك فلم يعد يسترعي انتباهنا ، لكنه لا شك يسترعي انتباهكم» .

فقال كنشت : «إن مرافقه بيتروس يراه أكثر منك ، ولكنه لم يعتد على ذلك ولم يألفه كما تقول . وقد أتى ، بسبب مقبول طبعا الى فالدتسل خصيصا ليقنعني بالقيام بهذه الزيارة . فما رأيك فيه ؟» .

« رأيي في بيتروس ؟ إنه عالم بالموسيقى ، ولكنه أقرب الى النوع المتحذلق منه الى النوع العبقري ، انه انسان ثقيل الظل أو ثقيل الدم . لكنه مخلص لأستاذ الموسيقى القديم اخلاصا تاما ، حتى انه ليضحي من أجله بحياته . وأنا أعتقد أن خدمته لدى هذا الرجل المعبود ، لدى هذا الوثن ، تملأ عليه حياته ، وأنه مولع به مهووس . ألم يكن هذا هو انطباعكم أيضا ؟ » .

« مولع مهووس ؟ نعم ، ولكن هذا الشاب على ما أعتقد ليس متأججاً حبا وكلفا فحسب ، وليس متيما بأستاذه القديم متخذا له منه معبودا فحسب ، بل هو مأخوذ مسحور حياله باعتباره ظاهرة حقيقية صادقة ، يراها ويفهمها بمشاعره خيرا منكم جميعا . وسأقص عليك انطباعي . أتيت اليوم اذن كما علمت الى الماجستر القديم ، ولم أكن قد رأيته منذ نصف عام ، وكانت تلميحات مرافقة إليّ عن أحواله قد جعلتني لا أتوقع من الزيارة شيئا أو لا أتوقع منها الا القليل . وتملكني الخوف من أن يفارقنا الشيخ الجليل فجأة ويموت قريبا . وعجلت الخطا لأراه . فلما عرفني وحياني تهلل وجهه نورا ، ولكنه لم يذكر سوى اسمي ، ثم صافحني ، فلاحت لي المصافحة واليد كأن نورا يشع منهما ، بل لقد لاح لي الرجل كله ، أو عيناه وشعره الأبيض وبشرته الوردية الناصعة ، كأن نورا رطبا رفيقا يشع منها . وجلست اليه ، فصرف الطالب على الفور بنظرة منه ، وبدأ أعجب حديث شاهدته في حياته . كان الحديث في أول الأمر غريبا علي محزنا لي ، بل مخجلا ، لأنني كنت أسأله وأسأله ، ولم يكن هو يجيب على أسئلتي إلا ببصره ، ولم أستطع أن أتبين ما إذا كانت أسئلتي وأخباري تقع منه موقعا آخر غير موقع الضجيج المضجر . وأدى بي هذا الى الارتباك وخيبة الأمل والتعب ، وأحسست كأني فضولي أدس نفسي عليه دسا . لم يرد الأستاذ على كل ما قلته له الا بابتسامة ونظرة قصيرة . نعم ، لو لم تكن هذه النظرات مليئة بالطيبة

والحب ، لاعتقدت أن الشيخ يسخر مني سخرية واضحة ويسخر من حكاياتي ومن أسئلتي ومن تجشمي مشقة السفر غير المفيد لزيارته . والحق أن شيئا من هذا كان في صمته وفي ابتسامه ، كان فيهما بالفعل رد وتوجيه ولكن بطريقة أخرى ومستوى آخر ومعنى آخر يختلفان عن طريقة ومستوى ومعنى عبارات السخرية الملفوظة . وتجمدت ورأيت ـ أو خلت ـ محاولاتي الصابرة المهذبة تفشل في فتح باب الحديث . حتى تبينت أن للشيخ قدرة على الصبر والجلد والأدب تفوق قدرتي مائة مرة . ومضى من الزمن ربع ساعة أو نصف ساعة ، فترة لاحت لي كنصف يوم ، وبدأت أحس بالحزن والتعب والضجر وشرعت أندم على قيامي بالرحلة ، وشعرت بفمي قد جف . وأمامي جلس الرجل الجليل صاحب الفضل علي ، وصديقي الذي ملك فؤادي وثقتي منذ بدأت أفكر ، ولم يدع لي كلمة قط بلا إجابة ، جلس متواريا مختفيا وراء نوره وابتسامته ، وراء قناعه الذهبي ، لا يصل اليه انسان ، بعد أن أصبح في عالم آخر تجري عليه قوانين أخرى . جلس يسمع كلامي أو لا يسمعه وأصبح كل ما أرسله اليه من كلام من عالمنا الى عالمه ، يمر عليه مر الكرام كالمطر أو الحجر . وأخيرا ـ وبعد أن فقدت كل أمل ـ اخترق الجدار السحري ، وساعدني ، فقد نطق بكلمة! كانت الكلمة الوحيدة التي نطق بها في يومه .

قال بصوت خافت مفعم بالود المؤثر والشفقة التي تعرفها . «إنك تتعب نفسك يا يوزف . كانت هذه هي كلمته . إنك تتعب نفسك ، يا يوزف» كأنه كان يتطلع الي زمنا طويلا وأنا أقوم بعمل مجهد إجهادا مفرطا فأراد أن ينبهني . كان ينطق الألفاظ بتعب كأنه لم يحرك شفتيه للكلام منذ وقت طويل . ووضع يده على ذراعي فإذا بها خفيفة كالفراشة ونظر في عيني نظرة ثاقبة وابتسم . فأيقنت في تلك اللحظة أنه غلبني ونفذ في نفسي شيء من هدوء الفرح ، شيء من صبره وسكونه وفجأة تملكني فهم للشيخ وللتحول

الذي اتخذه كيانه ، فانصرف عن الناس الى السكون ، وعن الكلام الى الموسيقى وعن الأفكار الى الوحدة . وفهمت ما أتيح لي أن أتطلع اليه ، وفهمت لتوي الابتسامة والنور . كان الرجل الذي أتيح لي أن أراه ساعة في بهائه والذي حاولت أن أجره في فجاجة الى محادثة وأسئلة وأجوبة ، كان قديسا ، كان انسانا كاملا . وأحمد الله أن قد أشرق عليّ هذا النور في وقته ، ولعل الشيخ الجليل ، لو لم يشرق عليّ نور الفهم هذا في حينه ، كان قد صرفني وامتنع عني الى الأبد . ولو حدث ذلك لكنت قد خسرت أعجب وأبدع ما عرفت» .

وقال فيرومونته وهو غارق في التفكير . «إنني أرى أنكم قد وجدتم في أستاذنا القديم شيئا قريب الشبه بقديس ، ومن الخير أنني سمعت هذا الحديث منكم مباشرة ، وأعترف أنني لو سمعته من شخص آخر ، لما تقبلته الا بأكبر الريب . وأنا بصفة عامة أبعد انسان عن حب الصوفية بل أنا كموسيقي ومؤرخ صديق للمقولات الخالصة متعلق بها تعلقا شديدا . وأرى أنه ما دمنا في كاستاليا لسنا جماعة مسيحية ولسنا أحد الأديرة الهندية أو الصينية ، فإن تنظيم البعض في صف القديسين يعني على أساس مقولة دينية بحتة ، شيء لا ينبغي لأحد منا ، ولو أتى حكم كهذا من أحد غيرك ـ متأسف ، من أحد غيركم يا سيدي ، لاعتبرته انحرافا . ولكني أعتقد أنكم لا تنوون البدء في عملية تقنين لملاحظتكم ، من أجل خاطر الأستاذ المبجل ، وليست لدينا على أية حال سلطة لهذا الاختصاص . لا ، لا تقاطعوني ، إنني أتكلم جادا ، ولا أمزح قط . لقد قصصتم على خبرة ، وأعترف أنها أخجلتني قليلا ، لأن الظاهرة التي وصفتموها لم تفتنا نحن أهل مونتيبورت كلية ، ولكننا اكتفينا بالاحاطة بها ولم نعرها التفاتا كبيرا . وأنا أفكر الآن في سبب عدم اهتمامي وعدم مبالاتي بهذه الظاهرة . يرجع سبب تأثركم الشديد بالتحول الذي طرأ على الأستاذ الكبير ولمثله في نظركم على أنه شيء

عجيب ، في حين أنه لم يلفت نظري إلا قليلا ، الى أن هذا التحول لاح لكم على غير توقع وعلى شكل نتيجة تامة ، بينما أنا كنت شاهدا للتطور البطيء الذي تطوره هذا التحول . الأستاذ الكبير الذي رأيتموه قبل أشهر ، والأستاذ الكبير الذي رأيتموه اليوم ، شخصان مختلفان أحدهما عن الآخر اختلافا كبيرا ، أما نحن جيرانه الذين نلتقي به مرار فلا نكاد نلمس تغيرا واضحا عليه بين المرة والتي تليها .ولكني أعترف أن هذا الشرح لا يكفيني . فكان ينبغي ، عندما يجري أمامنا شيء كالمعجزة حتى ولو على نحو هادئ بطيء ، وعندما نكون مجردين من الأحكام السبقية عليه ، كان ينبغي أن يكون تأثرنا به أقوى مما حدث لي . وهنا يقبع سبب بقائي جامدا أمام ما حدث : لم أكن إذن مجردا من الأحكام السبقية . فأنا لم ألاحظ الظاهرة لأني لم أرد ملاحظتها . لم ألاحظ إلا ما لاحظه الجميع ، لاحظت زيادة اعتزاله وصمته وما صحبهما من زيادة لطفه ، وزيادة نورانية وروحانية بريق وجهه عندما كان يرد تحيتي عند لقائنا صامتا أبكم . لاحظت هذا كما لاحظه غيري بطبيعة الحال ، ولكني أبيت أن أرى فيما لاحظت أكثر مما قلت ، ولم يكن إبائي يرجع الى أني افتقر الى احترام الماجستر الكبير ، بل كان يرجع الى كرهي لتقديس الأشخاص ، والى كرهي للتهويم بصفة عامة من ناحية ، ومن ناحية ثانية الى كرهي ـ في هذه الحالة خاصة ـ لطريقة التقديس التي يتبعها الطالب بيتروس مع أستاذه ومعبوده . وهذا ما اتضح لي تماما من خلال حكايتكم » .

فضحك كنشت : « كان كلامك كله لفا ودورانا ، لتكشف لنفسك كرهك لبيتروس المسكين . فما رأيك الآن ؟ هل ترى فيّ متصوفا مسترسلا في التهويم ؟ وهل ترى أني ممن يمارسون تقديس الأشخاص والأولياء ذلك التقديس المحرم عندنا ؟ أم هل تعترف لي وللطالب بأننا رأينا وخبرنا شيئاً ليس بالأحلام ولا بالأوهام ، شيئا حقيقيا موضوعيا ؟ »

فقال كارلو بطينا وهو مايزال يفكر : «أعترف لكما بهذا طبعا ، فليس هناك من يشك في خبرتكما أو في جمال وصفاء الماجستر الكبير الذي يستطيع الابتسام بطريقة لا تصدق . والسؤال هو الآن : أين نضع هذه الظاهرة ، وبم نسميها وكيف نفسرها ؟ إن لكلامي نبرة معلمي المدارس ، ولكننا أهل كاستاليا معلمون فلا بأس في ذلك ، وإذا كنت الآن أتمنى أن نضع خبرتكم وخبرتنا في الموضع المناسب وأن نجد لها اسما ، فلا أستهدف من أمنيتي إبدال واقعها وجمالها بالتجريد والتعميم . بل أستهدف التسجيل المحدد الواضح ما أمكن . وأنا عندما ألقى في الطريق وأنا على سفر في مكان ما فلاحا أو صغيرا أسمعه يترنم بلحن لم أعرفه ، فتلك خبرة أيضا . فإذا ما حاولت أن أسجل على الفور اللحن كتابة بأكبر دقة ممكنة ، فلست أستقطع أو أبعد الخبرة ، بل أكرمها وأخلدها» .

فأومأ اليه كنشت برأسه ايماءة مفعمة بالصداقة وقال له : «كارلو ، إنه لمن المؤسف أننا لم نعد نلتقي إلا بهذه الندرة ، وأصدقاء الشباب عند اللقاء لا يثبتون جميعا جدارتهم . ولقد أتيت اليك بقصتي عن الماجستر الكبير لأنك الوحيد في هذا المكان الذي يهمني أن تشترك في علم ما علمت والاحساس بما أحسست . وأترك لك أمر التصرف في قصتي وأمر تسمية حالة أستاذنا المتسامية . وسوف يسعدني أن أعلم أنك ذهبت اليه مرة وأمضيت فترة في جوه ، فإن حالة المنة والكمال والحكمة والنعيم ، وسمها ما شئت ، تتصل بالحياة الدينية اتصالا . وإذا كنا نحن أهل كاستاليا لا نتخذ دينا ولا كنيسة ، فهذا لا يعني أن التقوى شيء مجهول عندنا . وقد كان الماجستر الكبير على الدوام رجلا ذا تقوى تامة ما في ذلك شك . والأديان تتناقل حكايات أهل المنة ، المرفوعين وذوي النور ، وذوي السمو ، فلماذا لا تثمر التقوى في المحيط الكاستالي ثمرة من هذا النوع ؟ ـ لقد أصبح الوقت متأخرا وعلي أن أذهب الى الفراش لأني سأرحل غدا مبكرا . وأرجو

أن أعود قريبا . أما الآن فدعني أقص عليك حكايتي الى آخرها . قلت إنه قال لي : «انك تتعب نفسك» ، وانني بعد ذلك نجحت أخيرا في التخلي عن جهودي لفتح الباب للحديث معه ، وفي البقاء ساكنا وفي صرف ارادتي عن هدفها الزائف المتمثل في فحص الصامت بالكلمة والحديث وفي الرغبة في الاستفادة منه . وفي تلك اللحظة التي تخليت فيها عن ذلك ووضعت فيها الأمر في يد الآخر ، سار كل شيء تلقائيا . وأنت تستطيع أن تبدل تعبيراتي إن شئت بأخرى ، ولكن عليك أن تنصت الي حتى ولو كنت أجانب الدقة فيما يبدو أو أخلط المقولات خلطا . بقيت لدى الشيخ ساعة أو ساعة ونصف ، ولا أستطيع أن أخبرك بما حدث بينه وبيني ، وبما تبادلناه . لم يجر بيننا كلام ، بل كنت أحس ، وأحس فقط ، بعد أن انتهت مقاومتي . فأحسست بأنه قبلني في سلامه ونوره ، واحتواه واحتواني انشراح وهدوء عجيب . ورغم انني لم أقصد الى التأمل عن علم وقصد ، فقد قارب ما عانيته تأملا سعيدا مسعدا موضوعه حياة الماجستر الكبير . رأيته ، أو أحسست به وبطريق نموه من تلك اللحظة التي رآني فيها صبيا لأول مرة حتى هذه اللحظة الحالية . كانت حياته حياة العكوف والعمل ،لكنها كانت خالية من القسر ومن الطموح ، كانت مليئة بالموسيقى . وتطورت حياته كأنه وهو يصبح موسيقيا وأستاذا للموسيقى ، يختار الموسيقى طريقا من الطرق الموصلة الى أسمى هدف للانسان : الطرق الموصلة الى الحرية الباطنية ، الى الصفاء ، الى الكمال . وكأنه لم يفعل منذ ذلك الحين إلا شيئا واحدا ، جعل الموسيقى تتخلله وتحوره وتنقيه ، بدأت من يديه ، يدي عازف الشمبالو الماهر البارع وانتقلت الى ذاكرته ذاكرة الموسيقى الهائلة الغنية ، ثم وصلت الى كل أجزاء وأعضاء الجسم والروح ، الى النبضات والنسمات ، الى النوم والمنام ، ليصبح الآن رمزا أو شكلا ظاهريا وتشخيصا للموسيقى . على الأقل أحسست بما انبثق منه أو ما اتصل بيننا كتنفس ايقاعي يتأرجح جيئة

وذهابا ، كموسيقى ، كموسيقى باطنية متجردة تماما عن المادية تقبل كل داخل الى دائرتها السحرية كأغنية متعددة الأصوات تقبل صوتا جديدا . ولو كانت المنة قد حلت بشخص غير موسيقي لظهرت له في أشكال أخرى . لو حلت بفلكي لرآها ربما على شكل قمر يدور حول كوكب ، ولو حلت بلغوي لسمعها كحديث لغة أصلية سحرية تحمل المعاني جميعا . لقد كان لي فيها بهجة ، يا كارلو » .

ولقد روينا هذا الفصل بشيء من التفصيل لأن أستاذ الموسيقى كان يحتل مركزا بالغ الأهمية في حياة كنشت وقلبه ، ودفعنا الى ذلك على نحو يشبه الاغواء وجود حديث كنشت مع فيرومونته مكتوبا بحذافيره في خطاب بخط فيرومونته وصل الينا . ويعتبر ما جاء في هذا الخطاب عن ولاية الماجستر العجوز أقدم وأوثق ما وصل الينا ، أما ما وصلنا متأخرا عليه عن هذا الموضوع فهو من قبيل الأساطير والتآويل .



القطبان

أتت اللعبة السنوية ، التي كثيرا ما يشار إليها حتى يومنا هذا باسم «لعبة البيت الصيني» لكنشت ولصديقه بثمار عملهما ، وأكدت لكاستاليا ولادارتها أن تعيين كنشت في أعلى منصب كان تصرفا سليما صائبا . وعاشت فالدتسل مرة أخرى وعاشت قرية اللاعبين والصفة بهجة عيد رائع عظيم ، ولم تكن اللعبة السنوية منذ مدة طويلة قد تمثلت في شكل حدث عظيم ، كما قدر لها هذه المرة ، التي خرج فيها أصغر الأساتذة سنا وأكثرهم تنقلا على ألسن الناس الى الجمهور لأول مرة وأثبت أمامه جدارته ، هذه المرة التي عوضت فيها فالدتسل الخسارة والفشل اللذين منيت بهما في العام الماضي . لم يلزم فراش المرض أحد هذه المرة ، ولم يقف وكيل مرتاب خائفا من الحفل العظيم ، تحوطه الصفوة بنظرات باردة من سوء النية وعدم الثقة ، ويساعده موظفون منفعلون بإخلاص ولكن بلا همة . وقف الماجستر هذه المرة صامتا متعاليا كالكاهن الأعظم يحتفل بعمله وعمل صديقه وقد ارتدى ملابس بيضاء ذهبية وتحرك هكذا كالشخصية المدبرة على رقعة الشطرنج البديعة ذات الرموز ، وظهر يشع سكونا وقوة ومهابة ولا يصل إليه شيء بجانب القدسية ، ظهر في قاعة الاحتفالات وسط كبار موظفيه ، وافتتح فصول اللعبة فصلا بعد فصل بحركات قدسية ، وكتب بقلمه الذهبي الجميل البراق رموزا ، الواحد بعد

الآخر ، على اللوحة الصغيرة التي كان يقف أمامها فظهرت الرموز تواً مترجمة الى شفرة اللعبة مكبرة مائة مرة على اللوحة الهائلة المعلقة على الحائط الخلفي للقاعة ، فتهجتها آلاف الأصوات الهامسة ، وأعلنتها جماعة المذيعين بصوت عال ، وأذاعتها أجهزة الارسال في البلاد وفي الدنيا كلها ، فلما وصل الى القانون الذي يلخص الفصل الأول وسجله على اللوحة ، وأعطى على نحو لطيف مؤثر تعليمات التأمل ثم وضع القلم وجلس واستسلم بمسلك مثالي لعملية التأمل ، خر المؤمنون بلعبة الكريات الزجاجية لا في القاعة ولا قرية اللاعبين وكاستاليا فحسب ، بل في كثير من بلاد الدنيا سجدا خاشعين للتأمل نفسه ، ولم ينهضوا الا عندما نهض الماجستر . حدث كل شيء على نحو ما كان يحدث مرارا ، ولكن كل ما حدث كان مع ذلك مثيرا للقلب جديدا . كان عالم اللعبة المجرد ، الذي ينعدم فيه الزمن انعداما ظاهريا ، عالما مرنا مرونة تؤثر تأثيرا كثير الفروق على فكر وصوت ومزاج وخط شخصية الفرد ، وكانت الشخصية مع ذلك عظيمة ومهذبة على نحو يحول بينها وبين الاعتقاد في أن خواطرها أهم من القوانين الداخلية الثابتة للعبة ، وكان المساعدون والمشاركون في اللعبة والصفوة يطيعون كجنود مدربين ، ويلوح كل واحد منهم ، حتى ولو كان عمله لا يزيد عن الانحناء مع المنحنين أو مساعدة الأستاذ على تحريك الستارة ، كأنه يؤدي لعبته هو ، لعبته التي استوحاها نفسه . ومن الحشد ، من الحشد الكبير الذي غصت به فالدتسل ، من آلاف الناس الذي تبعوا أثر الأستاذ وساروا مسيرته الرائعة المقدسة خلال حجرات تأدية اللعبة اللانهائية المتعددة الأبعاد ، من هؤلاء اتخذ الحفل نغمته الأساسية ونغمة أجراس الباص العميقة المختلجة التي تعتبر في نظر الأطفال من أعضاء الجماعة أحسن ما في الحفل بل كل ما فيه ، والتي يحسها أصحاب الخبرة والمهارة والحنكة من اللاعبين والنقاد الصفوة وكبار الموظفين والعاملين من أصغرهم الى أكبرهم الى الرئيس والأستاذ احساسا فيه رعشة الاحترام .

كان الحفل عظيما ، أحس بعظمته المبعوثون القادمون من الخارج وأقروا بها ، وجذب كثيرا من الجدد اليه ، فصمموا على أن يهبوا أنفسهم للعبة الكريات الزجاجية الى الأبد . إلا أن كنشت قال لتيجولاريوس بعد انتهاء أيام الاحتفال العشرة كلاما عجيبا لخص به ما اعتمل في نفسه ، قال : « يمكننا أن نرضى . نعم ، ان كاستاليا ولعبة الكريات الزجاجية شيئان رائعان ، شيئان يوشكان على الكمال . بل لعلهما مسرفان في الكمال . مسرفان في الجمال . إنهما من الجمال بحيث لا يستطيع الانسان أو بحيث يوشك الانسان الا يستطيع أن يتأملهما بدون أن يحس بالخوف عليهما . فإن الانسان لا يحب أن يفكر في أنهما ككل شيء آخر صائران الى زوال . لكن عليه الآن رغم ذلك أن يفكر في هذا الامر » .

هذه الكلمة التي وصلتنا ، تضطر كاتب السيرة الى الاقتراب من أكثر أجزاء مهمته صعوبة وغموضا . وما كان يسره أن يتركه فترة لينتهي من قصة نجاح كنشت وتأديته مهام منصبه على نحو نموذجي ، وبلوغه قمة الحياة الرائعة ، لينتهي من هذه القصة بالهدوء والراحة التي تمنحها الأحوال الواضحة الصريحة لمن يقوم بوصفها . الا أنه يلوح لنا من الخطأ ومما لا يتفق مع موضوعنا ، ألا نلمس ونعرض الثنائية والاستقطاب في كيان وحياة الأستاذ الجليل هناك حيث بقيت مغلقة على الجميع باستثناء تيجولاريوس . وستكون مهمتنا من الآن أن نقبل هذا الانقسام أو على الأصح هذا الاستقطاب الدائم الانتفاض في نفس كنشت على أنه خاصية كيان الاستاذ الجليل المميزة له ، ونوافق عليه . والحق أن المؤلف الذي يريد أن يصف حياة أستاذ كاستالي على اعتبار أنها حياة قديس ، ويقصد الى تمجيد كاستاليا ، ويسمح لنفسه بذلك ، لن يجد صعوبة في تشكيل قصته عن سنوات كنشت في منصب الأستاذية ، باستثناء لحظاتها الأخيرة لتصبح سردا وتمجيدا لأفضاله ولما أدى من واجبات وما حقق من ألوان النجاح . والمؤرخ الملتزم للوقائع الثابتة

القائمة على الوثائق ، لا يمكن أن يجد حياة ولا طريقاً في تدبير أمور الأستاذية أنقى طرفا ، وأحق بالتقدير من حياة كنشت وطريقته في تدبير أمور منصبه ، وله أن يختار ما يشاء من سير أساتذة لعبة الكريات الزجاجية لا نستثني منهم حتى ولا سيرة الماجستر لودفيج فاسرمالر الذي عاش في أكثر عصور اللعبة شغفا بها . إلا أن حياة الماجستر في المنصب انتهت نهاية عجيبة جدا ، مثيرة جدا ، نهاية يعتبرها بعض النقاد مروعة . ولم تكن هذه النهاية صدفة من الصدف أو نحسا من النحوس ، بل كات النتيجة الحتمية لمقدماتها . ومن واجبنا أن نبين أن هذه النهاية لا تتعارض قط مع ما كان للأستاذ الجليل من جهود وصور نجاح رائعة مجيدة . كان كنشت يدير منصبه ويمثله على نحو مثالي عظيم ، كان أستاذا للعبة الكريات الزجاجية لا تشوبه شائبة . لكنه رأى وأحس روعة كاستاليا وهو يخدمها كأنها عظمة يتهددها الخطر والزوال . فلم يكن كنشت يعيش وسط العظمة الكاستالية كأغلبية مواطنيه الكاستاليين دون أن تشغله التوقعات والمخاوف ، بل كان يعيش وسطها وهو يعلم أمر نشأتها وتاريخها ، ويتمثلها باحساسه ككائن تاريخي يخضع للزمن ولسلطانه القاسي الذي يحيطه ويهزه . هذه اليقظة التي طرأت على الاحساس القوي بالفناء التاريخي ، وهذا الاحساس بالشخص ذاته وبعمله كأنه عمل خلية تختلط وتنشط مع خلايا أخرى في تيار النمو والتحور ، بلغا لديه النضج ووصلا الى وعيه عبر دراساته التاريخية وتحت تأثير الأب ياكوبوس العظيم . لكن الاستعدادات والبذور كانت موجودة لديه قبل ذلك بكثير ، ولن يصعب التأكد من وجودها على من كون صورة حية عن شخصية يوزف كنشت وتتبع ميزة هذه الحياة ومغزاها .

هذا الرجل الذي قال في أبهى يوم من أيامه بعد نهاية لعبته الاحتفالية الأولى وبعد بروز الروح الكاستالية على نحو ناجح مؤثر لم يكن مألوفا : «ان الانسان لا يحب أن يفكر في أن كاستاليا ولعبة الكريات الزجاجية

صائران يوما الى زوال ـ لكن على الانسان أن يفكر في ذلك...» هذا الرجل كان منذ وقت مبكر ، قبل أن يصل الى درجات العليمين في التاريخ ، يحمل بين جنباته احساسا عاما بفناء كل ما قد أصبح ، وبمشكلة كل ما يصنعه الانسان . فإذا رجعنا القهقرى الى أيام أن كان صبيا وتلميذا ، وجدنا خبرا يفيد أنه في كل مرة كان تلميذ من أقرانه يختفي من ايشهولتس لعدم رضاء المعلمين عنه وينصرف من الصفوة الى المدارس العادية ، يحس بالحزن والقلق ، ولم ترد أخبار عن المفصولين من الصفوة المعادين الى المدارس العادية تدل على أن أحدا منهم كان يرتبط بكنشت برباط الصداقة . فلم يكن فصل الأشخاص واختفاؤهم وفقدانهم هو الذي يثير نفسه ويحزنه ويسبب له الألم . بل كان ألمه هذا يرجع الى اهتزاز ايمانه كطفل بدوام النظام الكاستالي وبكماله . وكان مجرد وجود صبية وشباب أتيح لهم حظ ، ومنة القبول في مدارس الصفوة بالاقليم ثم عبثوا بهما ولفظوهما يعني بالنسبة اليه ، وقد حمل أمر بعثته الكاستالية محمل الجد والتقديس ، آية على قوة العالم غير الكاستالي . وربما تكون مثل هذه الأحداث ـ ونقول ربما لافتقارنا الى الدليل ـ قد أثارت في الصبي أول شك في عصمة الهيئة التربوية التي كانت كثيرا ما تأتي بتلاميذ الى كاستاليا ثم ما تلبث أن تردهم . وسواء كانت هذه الفكرة ، وهي أول خلجة من خلجات نقد السلطة ، قد لعبت دورا أو لم تلعب فالثابت أن الصبي كان يعتبر اخراج أحد تلاميذ الصفوة من بين الصفوف وإعادته الى المدارس العادية أكثر من محنة ، كان يعتبره عملا شائنا ، ووصمة قبيحة مؤكدة في جبين كاستاليا كلها ، تحمل كاستاليا كلها مسؤوليته الى جانب الفاعلين المباشرين . ونحن نعتقد أن احساس الصبي بالاهتزاز والاضطراب في تلك الظروف كان احساسا له أسبابه . فقد كان هناك في الخارج وراء حدود الإقليم عالم وحياة بشرية يتعارضان مع كاستاليا وقوانينها ، ولا يدخلان في النظام الكاستالي

وحسابه ، ولا ينخفضان ولا يرتفعان به . وكان كنشت يعلم بوجود هذا العالم في قلبه هو : فقد كانت له غرائزه وخيالاته وشهواته التي تتعارض مع القوانين . وكان من بين غرائزه غرائز جامحة لم يروضها الا شيئا فشيئا وبجهد جهيد . كان من الممكن أن تكون هذه الغرائز في بعض التلاميذ من القوة بحيث تفرض نفسها رغم التحذير والعقاب وتعيد من يخضعون لها الى العالم الآخر الذي لا تسوده رعاية الفكر والأدب بل تسوده بواعث الحياة الطبيعية ، ذلك العالم الآخر الذي يلوح للساعي الى الفضيلة الكاستالية كجحيم قبيح أو كمكان غواية بالعبث والصخب . وما أكثر الضمائر التي عرفت على مرّ الأجيال مفهوم الخطيئة في هذا الشكل الكاستالي . ومرت على كنشت أعوام أصبح بعدها من البالغين وعشاق التاريخ وعلم على وجه الدقة أن التاريخ لا يمكن أن ينشأ بغير مادة وديناميكية عالم الخطيئة والأنانية والغرائز ، وأن تلك الصورة الرفيعة ، كصورة الطائفة ، انما ولدت من هذا الفيض العكر الذي سيلتهمها مرة أخرى يوما ما . كانت مشكلة كاستاليا إذن هي أساس ما كان يعتمل في كنشت من انفعالات قوية وجهود وهزات ، ولم تكن مشكلة كاستاليا بالنسبة لكنشت مشكلة فكرية فقط ، بل كانت مشكلة تمس أعمق ما في ذاته كما لا تمس شخصاً آخر ، مشكلة يحس أنه يشترك في مسؤوليتها . وكان كنشت من أولئك الذين يمرضون ويهلكون ويموتون عندما يرون أن الفكرة التي يحبونها ويؤمنون بها ، وأن الوطن الذي عشقوه والجماعة التي تعلقوا بها تصيبها علة وتعاني محنة .

ولنتتبع الخيط ونتقدم معه الى الفترة الأولى التي قضاها كنشت في فالدتسل ، الى آخر سنتين من سنوات تلمذته ، الى لقائه الهام مع التلميذ الضيف ديزنيوري الذي وصفناه في مكانه . هذا اللقاء بين التابع المتحمس للمثل الأعلى الكاستالي وبين بلينيو ابن الدنيا ، لم يكن لقاء عنيفا بعيد الأثر فحسب ، بل كان يمثل في حياة التلميذ كنشت خبرة عميقة هامة فيها

رمزية . فقد حمل آنئذ دورا هاما مجهدا ، بدا كأن المصادفة أتت به اليه ، فصادف هوى في نفسه وطابق كيانه كله ، حتى ليكاد المرء يقول ان حياته فيما بعد لم تكن أكثر من تلقف هذا الدور والاندماج فيه اندماجا ناميا يزيد على الدوام كمالا ، هذا الدور الذي هو دور المدافع عن كاستاليا الممثل لها ، الذي لعبه بعد نحو عشر سنوات أمام الأب ياكوبوس من جديد ثم عاد يلعبه كأستاذ لعبة الكريات الزجاجية الى النهاية ، دور من يدافع ويمثل الطائفة وقوانينها ، ويكن في أعماقه استعدادا وجهدا للتعلم من الآخرين ، والابتعاد عن تشجيع تحوصل كاستاليا وانكبابها في جمود على نفسها وللاتجاه الى تشجيع اتصالها اتصالا حيا مع العالم الخارجي والتفاعل معه . وتحول ما كان في حالة منازلته الفكرية البلاغية لديزنيوري من لعب أو نحوه ، تحول بمرور الزمن أمام خصم وصديق هام هو الأب ياكوبوس ، الى جد عميق . وأثبت كنشت جدارته في المرتين ونما بخبرته فيهما وتعلم منهما ولم يقل ما أخذه في الصراع والتبادل على ما قدمه ، وانتهى في المرتين ، لا نقول الى النصر ، فلم يكن النصر هدف الصراع من بادئ الأمر ، بل الى الحصول غلابا على تقدير كريم لشخصه وللمبدأ والمثل الأعلى الذي يمثله . واذا كان النقاش مع العالم البندكتيني لم يؤد الى النتيجة العملية المباشرة التي تتلخص في انشاء تمثيل شبه رسمي لكاستاليا لدى الكرسي البابوي ، فقد أدى الى نتائج أخرى أعظم قيمة مما يمكن أن يجول ببال غالبية أهل كاستاليا .

فقد تلقى كنشت من خلال صداقته المختلطة بالتنافس لبلينيو ديزنيوري وللأب العجوز الحكيم معرفة أو لمحة من معرفة بالعالم الخارجي الذي لم يكن قد اتصل به من قبل ، معرفة أو لمحة من معرفة لم يكن يحتكم عليها في كاستاليا الا القلة . واذا استثنينا اقامة كنشت في ماريافلس ، تلك الاقامة التي لم تستطع تعريفه بالحياة في الدنيا الحقيقية ، نجد أن كنشت لم

يرَ الحياة الدنيوية الخارجية ولم يحط بها خبراً إلا ما كان في أيام طفولته المبكرة ، ولكنه كوّن عن طريق اتصاله بديزنيوري وياكوبوس وعن طريق دراسة التاريخ لمحة عن الواقع ، لمحة نشأت فيه في أكثر أجزائها بطريق الحدس ولم يكن فيها إلا أقل القليل من الخبرة ولكنها جعلته أكثر علما وتفتحا للدنيا من غالبية مواطنيه الكاستاليين لا نكاد نستثني منهم أهل الادارة . دون أن ينسى مع ذلك ان كاستاليا لا تزيد عن أن تكون جزءا ، جزءا صغيرا من العالم ، حتى لو كانت أكثر الأجزاء قيمة واستئثارا بالحب .

وماذا كان من أمر صداقة كنشت لتيجولاريوس ، ذلك الشخص الصعب المشكل الذي يمثل فنان لعبة الكريات الزجاجية الرفيع ، والكاستالي القح المدلل الهياب ، الذي أحس بالضيق والغربة والكآبة خلال زيارته القصيرة لماريافلس بين البندكتينيين الغلاظ ، وأكد أنه لن يحتمل البقاء هناك أسبوعا وأعجب بصديقه اعجابا لا نهاية له لأنه تمكن من احتمال البقاء هناك عامين ؟ ولقد كونا أفكارا كثيرة عن هذه الصداقة بعضها ينبغي دحضه وبعضها يبدو ثابتا صحيحا . وكانت هذه الأفكار كلها تدور حول جذور ومعنى هذه الصداقة التي دامت الأعوام الطوال . وعلينا بادئ ذي بدء ألا ننسى أن كنشت لم يكن في صداقاته كلها ، باستثناء صداقته بالبندكتينيين على أكثر تقدير ، البادئ الباحث الساعي المحتاج . كان يجذب الآخرين ، فيعجبون به ويحسدونه ويحبونه من أجل كيانه الكريم فحسب ، كانت تلك هبة فيه شعر بها في فترة ما من فترات يقظته . وهذا هو ما حدث بالضبط مع تيجولاريوس ، فقد أعجب به تيجولاريوس في سني دراسته الأولى وسعى الى صداقته ، وإن بقي كنشت على الدوام بعيدا متحفظا نوعا ما . وهناك من العلاقات ما يدلنا على أن كنشت كان يميل بالفعل الى صديقه ، والرأي عندنا أن ما جذب كنشت الى تيجولاريوس ليس فقط ما كان لتيجولاريوس من موهبة خارقة للعادة وعبقرية لا تهدأ ، متفتحة لمشاكل لعبة الكريات

الزجاجية كلها . وإنما جذب اهتمامه أيضا ، علاوة على موهبة الصديق ، ما كان بالصديق من عيوب ، ومن اعتلال جذب اهتمامه بتيجولاريوس ذلك الشيء الذي كان يغيظ الفالدتسليين ويثير حفيظتهم . كان تيجولاريوس مشبعا بجو الاقليم ومستواه الثقافي ، حتى ان المرء ليود أن يصفه بأنه الكاستالي الكامل الأصيل ، لو لم يكن فيه ما كان فيه من صعوبة وغرابة . كان هذا الكاستالي الأصيل لا يلائم زملاءه الا قليلا ، وكان لا يحظى الا بأقل الميل منهم بل ومن الرؤساء والموظفين . كان دائم الاقلاق ، كثير الاثارة ، ولعله لو لم تكن وراء ظهره حماية وتوجيه صديقه الشجاع الذكي ، لكان قد انتهى وضاع . أما ذلك الشيء الذي كان الناس يسمونه مرضا ، فكان في حقيقة أمره رذيلة ، وتمردا وعيبا خلقيا هو عبارة عن تفكير وتصرف على نحو فردي تام كامل لا يرعى سلم الدرجات والمستويات ، كان لا ينخرط في النظام القائم الا بالحد الأدنى الضروري الذي يجعل من بالطائفة يتحملونه . كان كاستاليا جيدا بل رائعا بمعنى أنه كان متبحرا في العلم وفي فن لعبة الكريات الزجاجية وكان ذا عقل لا يكل ولا يمل ولا يشبع ، وكان في الوقت نفسه كاتاليا متوسطا بل رديئا اذا نظرنا الى خلقه والى موقفه من سلم الدرجات والمستويات الهرمي والى أخلاق الطائفة . وكان أعظم عيب فيه هو استهتاره الدائم بالتأمل واهماله اياه ، وكان الهدف من التأمل على ما علمنا ، هو اندماج الفرد في الكل واتخاذه فيه مكانه . ولو كان فريتس أولى التأمل عناية صادقة لشفاه من مرضه العصبي ، فقد كان التأمل يشفيه في الحالات الفردية الصغيرة ، عندما يفرضه عليه الرؤساء فرضا على سبيل العقاب بعد فترة من سوء السلوك أو الانفعال أو الحزن ، فيجد نفسه مكرها على أداء تمرينات التأمل القاسية تحت مراقبة مراقب . وكم لجأ كنشت الى هذه الوسيلة مع صديقه ، وكان كنشت على الدوام يرعاه ويحسن اليه . لا ، لقد كان تيجولاريوس انسانا عنيدا ، متلونامتقلبا ، ذا خلق ممتنع على

الانخراط في سلم ينتظم المستويات ، له ساعات انطلاق تنطلق فيها قريحته ، وتنطلق فيها فكاهته المتشائمة ولا يستطيع أحد أن يفلت من جرأة خواطره وبراعتها التي غالبا ما احتوتها الكآبة .لكنه كان في أساسه مستعصيا على الشفاء ، لأنه لم يكن يريد أن يشفى ، ولم يكن يهتم بالانسجام وبالانتظام ، ولم يكن يحب شيئا سوى حريته وعكوفه على الدرس كطالب أبدي ، ولم يكن يفضل سوى البقاء طول حياته انسانا متألما ، قاصرا ، يسير وحده عنيدا ، انسانا مجنونا عبقريا عدميا ، يفضل هذا على سلوك طريق الانخراط في سلم المستويات الهرمي وبلوغ السلام والسلامة . لم يكن يهتم بالسلام ، ولم يكن يقيم وزنا لسلم الدرجات والمستويات الهرمي ، ولم يكن التبكيت والانعزال يؤثران فيه الا قليلا . كان اذن جزءا يسبب الضجر وعسر الهضم الى أقصى حد في جماعة مثلها الأعلى الانسجام والنظام! ولكنه كان بسبب صعوبته واستعصائه على الهضم وسط عالم واضح منظم الى هذا الحد يمثل قلقا نشيطا دائما ، يمثل لوما وتذكيرا وتحذيرا ، يمثل دافعا الى أفكار جديدة جريئة ممنوعة مثيرة : كان خروفا عنيدا قبيحا في وسط القطيع . وهذا في رأينا هو الجانب الذي كسب به صديقه كنشت رغم كل شيء آخر . ونحن لا نشك قط في أن العطف لعب على الدوام دورا كبيرا في علاقة كنشت به ، وانه كان عطفا من نوع التجاء المكلومين والمنكوبين الى مشاعر الشهامة في الصديق . لكن هذا كله ما كان يكفي سببا لإبقاء كنشت على صداقته لتيجولاريوس بعد ترقيته الى رتبة الماجستر وحمله أعباء المنصب وواجباته ومسؤولياته المسرفة في الثقل . والرأي عندنا أن ذلك التيجولاريوس لم يكن أقل أهمية في حياة كنشت من ديزنيوري ومن الأب ياكوبوس ، كان تيجولاريوس شأنه شأنهما عنصرا مؤديا الى اليقظة ، ونافذة مفتوحة الى آفاق جديدة . وقد وجد كنشت ، على ما نعتقد ، في هذا الصديق العجيب ، ممثلا لنمط من الأنماط ، ممثلا لنمط ما لبث أن عرفه

وشخصه على أنه نمط كاستاليين لم يوجدوا بعد الا في شخصية تيجولاريوس ، كاستاليين سيظهرون على عصر ما تكف فيه اللقاءات والدوافع عن تقوية حياة كاستاليا وتجديد شبابها . كان في تيجولاريوس ، شأنه شأن غالبية العباقرة المنعزلين ، رائدا . فقد كان يعيش في كاستاليا لم توجد بعد ، ولكن يمكن أن توجد غدا ، في كاستاليا ما زالت مقفلة أمام العالم ، كاستاليا تزيفت داخليا لشيخوخة وخلخلة أصابت أخلاق الطائفة التأملية ، كان يعيش في عالم ما زالت تحليقات الفكر العليا والاندماجات العميقة بالقيم السامية فيه ممكنة ، لكنه عالم لم يعد فيه للنشاط الفكري النامي الى درجة عالية والمنطلق في حرية أهداف سوى المتعة الذاتية للمهارات المدربة دربة عالية . كان تيجولاريوس يعتبر بالنسبة لكنشت الممثل المجسم للمهارات الكاستالية العليا وفي الوقت نفسه النذير بإمكانية تجردها عن الأخلاق وتدهورها . فما أعجب وما أمتع أن وجد هذا الفريتس! لكن تحول كاستاليا الى ملكوت حالم يعمره أشباه تيجولاريوس ، أمر لا بد أن يحال دونه . والحق أن خطر الانتهاء الى هذه النهاية كان لايزال بعيدا ، ولكنه كان موجودا . ولم تكن كاستاليا ، كما عرفها كنشت ، تحتاج إلا الى تعلية أسوار عزلتها الرفيعة قليلا والى تدهور نظام الطائفة والى هبوط أخلاق سلم الرتب الهرمي علاوة على ذلك ، فلا يكون تيجولاريوس حالة فردية عجيبة ، بل يكون ممثلا لكاستاليا المضمحلة المتدهورة . ولو لم يعش هذا الكاستالي المستقبلي الى جانب كنشت ، ولو لم يعرفه كنشت أدق معرفة لما طرأت عليه تلك الفكرة وذلك الهم المتمثلان في امكانية ـ بل في ظهور بوادر ـ التدهور في كاستاليا الا متأخرا ، أو لما خطرا على باله في النهاية قط . كان تيجولاريوس في نظر كنشت الواعي ظاهرة مرضية وانذارا ، وما أشبهه بأول مصاب بمرض مجهول اذ يقع تحت نظر طبيب ماهر . هذا الى ان كنشت لم يكن انسانا عاديا ، بل كان ارستقراطيا ، وكان ذا موهبة من درجة عالية .

فـاذا انتـشـر ذلك المـرض المـجـهـول الذي ظهـر لأول مـرة في الرائد تيجولاريوس ، اذا انتشر وغير صورة الانسان الكاستالي ، فلن يتخذ الاقليم ولن تتخذ الطائفة هيئة تيجولاريوس المعتلة المضمحلة ، ولن يكون أهله جميعا مكررات تيجولاريوس ، لن يكون لهم ما أوتي تيجولاريوس من مواهب لذيذة وعبقرية حزينة وشغف فني متأجج ، بل سيكون لغالبيتهم ما في تيجولاريوس من تهاون وميل الى العبث وافتقار الى النظام والروح الاجتماعية . ولا بد أن كنشت قد تمثل في ساعات الهم مثل هذه الرؤى والتوقعات المظلمة ، التي كلفه التغلب عليها جهدا جهيدا تارة بالتأمل ، وتارة بزيادة النشاط .

وحالة تيجولاريوس بالذات تعطينا مثلا جميلا مفيدا للطريقة التي كان كنشت يجتهد في اتباعها ليتغلب على المشاكل والصعوبات والعلل التي تصادفه دون أن يتجنبها . فلو لم يكن له الوعي والشفقة والرياسة التربوية ، لضاع صديقه ضياعا ، بل ولنتج عن تصرفاته ما لا نهاية له من الاضطراب والشغب في قرية اللاعبين ، التي لم تخل منذ انتمى تيجولاريوس اليها ، من الاضطراب والشغب . وينبغي علينا أن ننظر بالاعجاب الى فن الماجستر في ضبط صديقه والزامه حدوده على نحو مقبول ، بل وفي تحويل مواهبه الى خدمة لعبة الكريات الزجاجية والى الأعمال الرفيعة الكريمة ، والى الحرص والصبر الذي تحمل به تقلبات مزاجه وتصرفاته الغريبة تلك التي تغلب عليها باجتهاده الدائم في ابراز ما في كيانه من ناحية قيمة ثمينة ، ينبغي علينا أن ننظر الى هذا كله بالاعجاب ونعتبره تحفة رائعة في معاملة الناس . وهنا يحلو لنا أن نقترح مسألة جميلة قد تؤدي الى التوصل الى آراء غير متوقعة ، ونرجو أن يهتم بها أحد مؤرخي لعبة الكريات الزجاجية عندنا اهتماما جادا ، مسألة تتلخص في دراسة جميع الألعاب السنوية التي نشأت في عصر تولي كنشت منصب الأستاذية ، وتحليلها من ناحية خاصيتها الأسلوبية ، هذه

الألعاب الجليلة التي تشع خواطر لذيذة وتراكيب طريفة ، هذه الألعاب الرائعة الجديدة في ايقاعاتها والتي تتحاشى مع ذلك كل مهارة أدائية هدفها المتعة الذاتية ، هذه الألعاب التي وضع تصميمها وبناءها ومتتابعات التأمل فيها كنشت وحده ، وأتم يتجولاريوس أغلب زخارفها والأعمال الفنية الدقيقة فيها . والحق أن هذه الألعاب لو ضاعت وتوارت في ظلام النسيان لما أدى ذلك الى نقصان ما لحياة كنشت وأعماله من جاذبية ونموذجية في نظر خلفه . لكن هذه الألعاب لحسن حظنا لم تفقد ، بل مازالت مكتوبة محفوظة ، شأنها شأن الألعاب الرسمية جميعا ، في الأرشيف ، لا يطويها الموت ، بل تتناقلها التقاليد ويدرسها الطلاب الجدد ويأخذ منها الآخذون أمثلة تدرس في فصول تدريس اللعبة . ومازال يعيش في هذه الألعاب مساعد كنشت هذا ، الذي ربما احتواه النسيان ، أو ربما تحول الى شخصية عجيبة من شخصيات الماضي تلوكها النكت ، لو لم تخلده مساعدته لكنشت في صياغة لعبه . وهكذا قام كنشت بنجاحه في ايجاد مكان لصديقه فريتس ، الذي كان ايجاد مكان له أمرا بالغ الصعوبة ، وبنجاحه في ارشاده الى ميدان مناسب للعمل ، قام هكذا بتوسيع التراث الفكري لفالدتسل واضافة شيء قيم الى تاريخها ، من ناحية وقام من ناحية ثانية باضفاء البقاء على شخصية صديقه وذكراه . ولابأس من أن ننبه في هذا المقام الى أن المربي الكبير كان في جهوده من أجل صديقه يعي تمام الوعي أهم وسيلة لاحداث مثل هذا التأثير التربوي . وكانت هذه الوسيلة تتلخص في : حب الصديق له واعجابه به . ولم يعرف الماجستر ذلك الحب والاعجاب والهيام به وبشخصيته المنسجمة وسيادته في فريتس وحده بل عرفها في كثيرين من الطامحين والطلبة ، وعليها وعلى جلال منصبها ، أقام سلطانه وسطوته اللذين أنفذهما على الكثيرين رغم ما كان يتسم به كيانه من طيبة وميل الى التصالح . كان كنشت يحس تماما بما يمكن أن تفعله كلمة لطيفة يوجهها الى شخص أو

يمدحه بها ، وكان يحس تماما ما يمكن أن يؤدي اليه الانصراف والتجاهل . وقد حكى بعض التلاميذ المجدين مرة أن كنشت ظل أسبوعا بأكمله لا يتحدث اليه بكلمة في المحاضرة وفي القسم ، ويتظاهر بأنه لا يراه أو يعامله كأنه هواء ، وعقب هذا التلميذ على هذا بقوله ان تلك العقوبة كانت أمر وأقسى عقوبة عوقب بها طوال سنوات تلمذته .

وقد استرسلنا في هذه التأملات والاسترجاعات واعتبرناها ضرورية لأنها تأخذ بيد قارئ محاولتنا كتابة تاريخ حياة كنشت في هذا الموضع الى فهم الاتجاهين الاساسيين المؤثرين في شخصية كنشت تأثير القطبين ، بعد أن اتبع تصويرنا لحياة كنشت الى مرحلة بلوغها ذروتها ، ولنعده للمرحلتين الأخيرتين من هذه الحياة الحافلة . كان الاتجاهان الأساسيان أو القطبان اللذان يقتسمان هذه الحياة ،أو الـ« ين » و« اليانج » بها[١] ، هما من ناحية : اتجاه الحفظ والإخلاص وخدمة سلم الرتب الهرمي دون نظر الى نفع ذاتي ، ومن ناحية ثانية : اتجاه «اليقظة» ، والتقدم ، والامساك بالواقع وفهمه . كان كنشت المؤمن المستعد للخدمة يعتبر الطائفة وكاستاليا ولعبة الكريات الزجاجية شيئا مقدسا قيما بلا حدود . وكان كنشت المتيقظ البصير المندفع الى الأمام ، يعتبرها بغض النظر عن قيمتها ، تشكيلات أصبحت وتكونت بالكفاح ، تشكيلات متحورة في أنماط حياتها ، معرضة للهرم والعقم والتدهور ، تشكيلات ظل يعتقد في أن فكرتها مقدسة لا ينبغي عليه أن يقربها أو يمسها ، وفي أن ظروفها مع ذلك فانية تفتقر الى النقد . كان كنشت يخدم جماعة فكرية يعجب بقوتها وروحها ، ويرى الخطر في ميلها الى اعتبار ذاتها هدفها الخالص ، والى نسيان واجبها واشتراكها في البلاد وفي الدنيا كلها ، مما يؤدي الى فنائها بعد أن تنقسم عن الدنيا ، وتتحول الى جزء براق عقيم منفصل عن الحياة . وكان كنشت قد أحس لأول مرة

---

(١) الـ« ين » والـ« يانج » هما العنصر المذكر والعنصر المؤنث في الفلسفة التاؤسية الصينية . (المترجم)

بهذا الخطر في سنواته المبكرة التي تردد فيها ، أو خاف فيها من أن يكرس نفسه كلية للعبة الكريات الزجاجية ، ثم تأكد هذا الخطر في وعيه بعد مناقشاته مع الرهبان ومع الأب ياكوبوس خاصة ، رغم وقوفه موقف المدافع الشجاع عن كاستاليا ، وظل هذا الخطر يتمثل له على الدوام بعد أن عاد يعيش في فالدتسل وأصبح ماجستر لودي ، يتمثل له في أعراض يلمسها بيده أولا في طريقة العمل التي تتميز بالاخلاص ، وتتميز الى جانبه بالجهل بالدنيا وبالتزام الشكل البحت ، تلك الطريقة التي تسير عليها مصالح كثيرة عنده ويصطنعها موظفوه ، ويلمسها كذلك في شخصية تيجولاريوس المؤثرة المرعبة . ما ان انتهى كنشت من عامه الأول في المنصب ذلك العام الحافل الذي لم يترك له وقتا لحياته الخاصة ، حتى عاد الى دراساته التاريخية ، واستغرق لأول مرة بعيون مفتوحة في تاريخ كاستاليا ، وتأكد من أن أمر كاستاليا ليس على النحو الذي يتصوره وجدان الاقليم ، تأكد من أن علاقات الاقليم بالعالم الخارجي ، وتأثيره في الحياة والسياسة والثقافة بالبلاد وتأثره بها ، تتدهور منذ عشرات السنين . حقيقة أن الهيئة التربوية ما زالت تقول كلمتها في مسائل التربة والتعليم بالمجلس الاتحادي ، وأن الاقليم ما زال يمد البلاد بمعلمين أكفاء ، وأن الاقليم مازال له سلطانه في شؤون البحث العلمي ، لكن هذه الأمور كلها أصبحت الان تتخذ شكل العادة وطابع الآلية . كذلك زادت ندرة شباب الصفوة الكاستالية الذين يتقدمون طائعين للخدمة خارج كاستاليا ، وزاد فتور من يتقدم منهم لهذا اللون من الخدمة ، وزادت ندرة التجاء الهيئات والأفراد الى كاستاليا التماسا للرأي والمشورة ، وكان لكاستاليا في الزمن القديم صوت كثيرا ما التمس على سبيل المثال في المحاكمات الهامة ولقي أذنا صاغية . فاذا قارن الانسان مستوى الثقافة في كاستاليا ومستوى الثقافة في البلاد ، تبين أن المستويين لا يقتربان قط ، بل يتنافران تنافرا أليما : فكلما زاد النشاط الفكري ترفعا وتمايزا مالت الدنيا

الى ترك الاقليم وشأنه ، كانت الدنيا من قبل تنظر اليه على أنه جسم غريب ، يفخر به الانسان حقيقة ، ولكنه يفخر به فخرا من نوع الفخر بأثر قديم ثمين ، جسم غريب لا يتعجل الناس التفريط فيه والانصراف عنه ، وينسبون اليه ، بلا معرفة واضحة دقيقة ، فكرا وأخلاقا ووعيا ، لم يعد لها مكان مناسب في الحياة الواقعية النشيطة . كذلك اعترى اهتمام المواطنين خارج كاستاليا بالحياة في الاقليم التربوي واشتراكهم في مؤسساته وخاصة لعبة الكريات الزجاجية ، تدهور كالتدهور الذي اعترى اشتراك الكاستاليين في حياة البلاد ومصيرها . اتضح موطن الداء لكنشت منذ وقت طويل ، وكان يحزنه أن يكون عمله كأستاذ لعبة الكريات الزجاجية في قرية اللاعبين محصورا في الكاستاليين والمتخصصين وحدهم . وهذا هو السبب الذي يرجع إليه سعيه الى الاهتمام خاصة ببرامج المبتدئين ، ورغبته في أن يكون له تلاميذ صغار ما أمكن ـ فكلما صغر سنهم زاد ارتباطهم بالعالم وبالحياة وقلّ ترويضهم وتخصصهم . وكثيرا ما كان كنشت يحس رغبة ملتهبة تجره الى العالم والى الناس والى الحياة البسيطة ـ اذا كانت هذه الحياة البسيطة موجودة بحق في العالم الخارجي المجهول . والحق أن غالبيتنا كثيرا ما أحست من حين لآخر بهذا الحنين ، وبهذا الاحساس بالفراغ وبالحياة في هواء بالغ الرقة ، وتلك مشكلة عرفتها الهيئة التربوية ، أو على الأقل نعلم أنها كانت دائمة البحث من حين لآخر عن وسائل لمجابهتها وكانت تعادل هذا النقص بزيادة الاهتمام بالرياضة البدنية وبالالعاب وبمحاولة ممارسة ضروب من الحرف وأعمال البساتين . واذا صح ما لاحظناه ، فقد تكون لدى رياسة الطائفة اتجاه في الوقت الحديث الى الغاء عدد من الاختصاصات التي تلوح مسرفة في الترف في الصعيد العلمي وزيادة الاهتمام والتركيز على ممارسة التأمل . وليس من الضروري أن يكون الإنسان من الشكاكين أو المتشائمين أو من سوقة الطائفة ليقر يوزف كنشت على رأيه الذي ارتآه قبلنا بزمن طويل

في أن الجهاز المعقد الحساس لجمهوريتنا جهاز اعترته الشيخوخة وأصبح من الضروري تجديده تجديدات عديدة .

قلنا اننا نجد كنشت منذ عامه الثاني في المنصب يعكف على الدراسات التاريخية ويركز اهتمامه على تاريخ كاستاليا وعلى قراءة كل المؤلفات الكبيرة والصغيرة التي ألفها الأب ياكوبوس عن تاريخ الطائفة البندكتينية . وكان يحضر جلسات الادارة كأمين بصفة مستمرة ، فرصة لإثارة هذه الاهتمامات التاريخية في الحديث ، وكان ذلك يثلج صدره ، ويجدد نشاطه تجديدا محببا الى نفسه . على أنه لم يكن يجد في محيط عمله اليومي فرصة من هذا النوع بل على العكس من ذلك ، كان يجد فيه متمثلا في شخصية صديقه فريتس تيجولاريوس انصرافاً واعراضاً عن الاشتغال بالتاريخ . وقد عثرنا على أوراق تؤكد هذا المعنى منها مذكرة تحوي تسجيلا لحدث من هذا النوع يذهب فيه تيجولاريوس بحماس الى أن التاريخ مادة ليست جديرة باهتمام الدارسين الكاستاليين . ويرى أنه من الممكن يقينا أن يقوم الانسان بتأويل التاريخ أو فلسفته على نحو فكاهي مسل أو ربما على نحو مؤثر تأثيرا بالغا ، لكن هذا النوع من الفلسفة لن يكون إلا فكاهة شأنه في ذلك شأن الفلسفات الأخرى ، ويخرج من ذلك الى أنه لا يعارض أن يلتمس البعض مثل هذا الترف ومثل هذه المتعة . أما الموضوع نفسه ، موضوع هذه الفكاهة ، أعني التاريخ ، فشيء قبيح يتصف في وقت واحد بالابتذال وبالشيطانية ، بالفظاعة والملل ، الى درجة لا يستطيع معها أن يتصور كيف يمكن لانسان أن يشتغل به . ولم يكن موضوع التاريخ في رأيه إلا الأنانية البشرية ، والا الصراع الدائم الخالد المتكررالمبالغ في قدره ، الممجد لذاته لبلوغ السلطة ، السلطة المادية الغاشمة البهيمية ـ صراع من أجل شيءلا يدور بخلد الكاستالي أو لا يحتل لديه إلا أقل مقام . لم يكن تاريخ العالم في رأيه الا قصة لا نهاية لها ولا طرافة ولا تشويق فيها لتغلب الأقوياء على الضعفاء . أما محاولة ربط التاريخ الحقيقي

الصحيح ، تاريخ الفكر بلا زمن ، بالصراع القديم قدم العالم ، الصراع الغبي الذي قام به ذوو الطموح من أجل السلطة ، ومن أجل الوصول الى مكان مرموق تحت الشمس فمحاولة تعتبر خيانة للفكر ، محاولة تذكره بجماعة انتشرت في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، وسمع عنها تعتقد أن القرابين التي قدمتها الشعوب القديمة ، هي وآلهتها ومعابدها وأساطيرها ، كالأشياء الجميلة كلها ، نتائج لزيادة معينة أو نقصان معين في الطعام والشغل ، كلها نتائج توتر محسوب بين الأجر الذي يتقاضاه الناس وثمن الخبز الذي يشترونه وتعتقد أن الفنون والأديان واجهات وهمية ، يقال لها ايديولوجيات موضوعها الحقيقي : انسانية مشغولة بالجوع والقوت فحسب . وكان كنشت يجد طرافة في حديث تيجولاريوس هذا ويسأله عما إذا كان تاريخ الفكر وتاريخ الثقافة وتاريخ الفنون من التاريخ أم لا ، أو عما اذا كانا يمتان بصلة ما الى باقي التاريخ . فيصيح الصديق قائلا : «لا» ، وينكر ذلك بعنف . ويقول ان تاريخ العالم هو سباق في الزمن ، وعدو نحو الكسب نحو السلطة ، نحو الكنوز ، وأن المعول فيه هو على من تكون له القوة والحظ أو النذالة بقدر يجعله ينتهز الفرصة ولا يدعها تفلت منه . أما العمل الفكري ، والعمل الثقافي والعمل الفني ، فهي أعمال على عكس ذلك تماما ، انها انطلاق من عبودية الزمن ، انها عبور الانسان من قذارة غرائزه وكسله الى مستوى آخر ، الى ما تجرد عن الزمن أو ما تحرر من الزمن ، عبوره الى ما هو إلهي ، الى اللاتاريخي ، الى ما هو ضد التاريخ بالضبط . وكان كنشت ينصت اليه بمتعة ويحفزه الى اخراج ما في نفسه من أفكار ليست جوفاء كلها ، ثم يختم الحديث بقوله : «احترامي كله لحبك الفكر وأعماله! لكن الابداع الفكري شيء لا يمكننا أن نشترك فيه اشتراكا بالمعنى الصحيح كما يعتقد البعض . فالمحاورة الافلاطونية والجملة الكورالية لهاينريش ايزاك[1] وكل ما نسميه

(١) Heinrich Isaac

عملا فكريا أو عملا فنيا أو فكرا مموضعاً ، كلها نتاجات نهائية ، نتائج أخيرة لصراع من أجل التنقي والتحرر ، انها ـ كما حلا لك أن تسميها ـ انطلاقات من الزمن الى ما تجرد عن الزمن ، انها في أغلب الأحوال أكمل أعمال لا توحي بشيء مما سبقها من صراع ونضال . وانه لحظ عظيم أن تكون لدينا هذه الاعمال ، ونحن أهل كاستاليا نعيش من هذه الأعمال ولا نكاد نعيش من غيرها وليس لنا من الابداع الفني الا النقل ، ونحن نعيش على الدوام في ذلك المحيط الأخروي المجرد من الزمن ومن الصراع ، المحيط الذي يتكون من هذه الأعمال والذي ما كان ليتمثل لمعرفتنا بدونها . بل اننا نزيد في ناحية الفكر والروح ، أو إن شئت فقل نزيد في التجريد زيادة دائمة : فنحن نحلل في لعبتنا ، لعبة الكريات الزجاجية ، أعمال الحكماء والفنانين الى أجزائها ونستخلص منها القواعد الاسلوبية والتصميمات الشكلية والتأويلات المرفعة ، ونشتغل بهذه المجردات التي نستخلصها كما لو كانت حجارة بناء . هذا شيء جميل ، وليس هناك من يحاجك فيه ولكن هل يستطيع كل انسان أن يعيش طول حياته لا يتنفس ولا يأكل ولا يشرب سوى هذه المجردات ؟ والتاريخ يتميز على ما يعتبره معيد فالدتسل جديرا باهتمامه بميزة هي : أن التاريخ يختص بالواقع . ان المجردات ساحرة خلابة ، ولكني أرى أنه ينبغي على الانسان أن يتنفس الهواء ويأكل الخبز كذلك» .

وكان كنشت يجد من حين لآخر الفرصة لزيارة أستاذ الموسيقى الهرم زيارة قصيرة . وكان الشيخ الجليل على ما يبدو عليه من تدهور في قواه وتخلصه التام من عادة الكلام ، يتمسك الى آخر لحظة بحالة الاستجماع الصافي . فلم يمرض ولم يكن موته موتا بالمعنى الصحيح ، بل كان درجة من التجرد من المادة ، كان اختفاء للمادة الجسمانية وللوظائف الجسمانية ، وبينما كانت عملية الاختفاء هذه تتم ، كانت الحياة تنحسر الى نظرة عينيه وحدها ونور وجهه الهرم المتهالك الواهن . كانت تلك ظاهرة يعلمها غالبية

أهل مونتيبورت ويتقبلونها بالاحترام ، ولم يكن الاحساس بنضرة غروب وأفول هذه الحياة النقية المجردة من الأثرة الا حظ القلائل مثل كنشت وفيرومونته والشاب بيتروس . وكان هؤلاء القلائل عندما يدخلون على استعداد واستجماع الحجرة الصغيرة التي يجلس فيها أستاذ الموسيقى الهرم في كرسيه الوثير ، ينفذون الى تلك النضرة اللطيفة للفناء ، ويحسون بالكمال الذي لا تنطق به الكلمات ، ويظلون لحظات سعيدة في مجال أشعة خفية ، في المحيط البللوري لهذه الروح ، تشملهم موسيقى لا أرضية ، ثم يعودون بقلوب زادت قوة وصفاء الى يومهم كالنازل من قمة جبل . وأتى اليوم الذي سمع فيه كنشت خبر موت الشيخ الجليل ، فسافر على عجل ووجد الميت يرقد رضيا في فراشه ، ووجد وجهه الصغير قد توارى وغار واستحال الى حرف غريب هادئ أو إلى رمز من الرموز السحرية لم يعد من الممكن قراءته ، وان ظل يعبر عن الابتسام والسعادة الكاملة . وتكلم كنشت على القبر بعد أستاذ الموسيقى وفيرومونته . فلم يتحدث عن حكيم الموسيقى الواصل ، ولم يتحدث عن المعلم الكبير ، ولم يتحدث عن أقدم عضو طيب ذكي من أعضاء الادارة العليا . بل تكلم فقط عن منة شيخوخته وموته ، وعن جمال الروح الخالد الذي ظهر فيه وتراءى لمن صحبوه في أيامه الأخيرة .

ونحن نعلم من أحاديث عديدة أن كنشت كان يرغب في كتابة سيرة الأستاذ الكبير وأنه لم يجد لذلك الفراغ لاثقال المنصب عليه . وقد تعلم كنشت أن يقل من المكان الذي يمنحه لرغباته . وفي ذلك قال مرة لأحد معيديه : «انه من المؤسف أنكم معشر الطلبة لا تعلمون النعمة والترف اللذين تعيشون فيهما . ولكن حالي وأنا طالب لم يكن يفترق في ذلك عن حالكم . يكب المرء على الدرس والعمل وينفض عنه الكسل ويعتقد أن من حقه أن يعتبر نفسه مجدا مجتهدا ـ ولكن المرء لا يكاد يحس بكل ما يمكنه فعله بهذه الحرية . وفجأة يأتي تكليف من الادارة ، تكليف بالتدريس

أو بمهمة أو بمنصب ، ويترقى الواحد من منصب الى منصب أعلى ، ويجد نفسه على حين غفلة في شبكة من المهام والواجبات لا خلاص له منها ، شبكة تزداد ضيقا وحبكة ، كلما ازداد المرء فيها حركة . والمهام في حقيقتها مهام صغيرة ، ولكن كل واحدة منها تتطلب الأداء العاجل ؛ وان بيوم العمل مهام أكثر بكثير مما به من ساعات . وهذا خير ، ولا ينبغي أن يكون على نحو آخر . فاذا ما فكر المرء مرة في لحظة بين قاعة الدرس والأرشيف والديوان وحجرة الاستقبال والجلسات والسفريات في تلك الحرية التي كانت ملك يمينه ثم ضاعت منه ،حرية العمل دون أوامر والقيام بدراسات واسعة غير محدودة ، فانه يشتاق اليها اشتياقا شديدا ويتخيل : لو انه ملكها مرة ثانية ، لتمتع بمتعها وامكانياتها الى أقصى حد » .

كان لكنشت احساس بالغ الدقة فيما يختص بصلاحية تلاميذه وموظفيه للخدمة في سلم الرتب الهرمي . وكان يختار في تأن الشخص المناسب للمهمة أو الوظيفة . وتدل الشهادات والتقريرات التي كان يسجلها في كتاب على أصالة في الحكم وعلى أن حكمه كان ينصب أول ما ينصب على الناحية الانسانية والخلق . وكان الآخرون يحبون استشارته عندما تعرض لهم مشاكل متعلقة بالحكم على الشخصيات الصعبة ومعاملتها . ومن ذلك حالة الطالب بيتروس آخر خلصاء أستاذ الموسيقى الكبير . كان هذا الشاب أشبه انسان بالمتعصب الساكن ، أدى دوره كمرافق وممرض وحواري للأستاذ الجليل أحسن أداء الى آخر لحظة . فلما انتهى الدور نهايته الطبيعية بموت الأستاذ الكبير ، تملك الشاب حزن واكتئاب فهمهما الناس وتحملوهما حينا ، ولكنها كانت أعراضا سببت لسيد مونتيبورت في ذلك الوقت ، أستاذ الموسيقى لودفيج ، قلقا شديدا . فقد صمم بيتروس على البقاء في الدار الصغيرة التي كان المتوفي يعيش فيها في شيخوخته ، وصمم على حراستها ، وكان يبذل أقصى جهده ليحتفظ بالنظام فيها كما كان في حياة الأستاذ

الكبير ، فقد كان يعتبر حجرة معيشة وموت الأستاذ الجليل بما فيها من كرسي وثير وفراش موت وشيمبالو شيئا حراما لا يصح أن تمسه الأيدي ، يعتبرها شيئاً مقدساً عليه حراسته . ولم يكن يعرف له من عمل إلى جانب رعاية هذه المخلفات ، الا رعاية القبر الذي يرقد فيه الأستاذ الجليل ، رعاية ينظر اليها على أنها واجب . وكان يعتقد أن عليه مهمة تتلخص في تكريس حياته لتقديس الميت في مكان ذكراه بصفة دائمة ولرعاية المكان كما ترعى الأماكن المقدسة على أمل أن يراها يوما تصبح مكانا يحج إليه . في الأيام الأولى التي تلت دفن الأستاذ الجليل صام الشاب عن كل طعام ثم اكتفى بوجبات قليلة ضئيلة على نحو ما كان الأستاذ الجليل يفعل في أخريات أيامه . وهكذا لاح الاب كما لو كان يريد أن يقتفي أثر الأستاذ الجليل ويلحق به . فلما استحال عليه هذا ، عدل تصرفه وقرر أن يجعل من نفسه قائما على شؤون داره ومدفنه ، وحارسا على أماكن ذكراه . واتضح من هذا كله أن الشاب الذي كان بطبعه عنيدا وكان يتمتع منذ وقت طويل بموضعه الخاص الجذاب ، يريد أن يتشبث طويلا بهذا الموضع الخاص ولا يريد أن يعود الى الحياة العادية التي كان يحس بينه وبين نفسه بأنه لم يعد صالحا لها . وقد صوره فيرومونته في عبارة موجزة باردة ببطاقة صغيرة قائلا عنه : «أما هذا البيتروس الذي أعطى للأستاذ الكبير قبل وفاته فقد أغرب اغرابا شديدا» .

ولم يكن أمر طالب الموسيقى المونتبورتي بيتروس من اختصاص الماجستر الفالدتسللي . فلم يكن الماجستر كنشت مسؤولا عنه ولم يكن يجد في نفسه حاجة بلا شك الى التدخل في أمر من أمور مونتيبورت وبالتالي الى زيادة أعبائه على كثرتها . الا أن المسكين بيتروس لم يهدأ بالا بعد أن أبعد عنوة عن دار المتوفى وغرق لحزنه واضطرابه في حالة من العزلة والبعد عن الواقع جعلت من غير الممكن أن تطبق عليه الاجراءات العادية

التي تطبق في حالة مخالفة النظام . وكان الرؤساء يعلمون بعلاقته الطيبة بكنشت ، وهكذا خرج من ديوان أستاذ الموسيقى التماس بالمشورة والتدخل الي الماجستر كنشت ، واعتبر المتمرد مريضا ووضع بزنزانة في قسم المرضى وفرضت عليه الملاحظة . وكان الأقرب الى الاحتمال أن يكره كنشت التدخل في هذا الأمر العويص ، ولكنه بعد أن أمعن في التفكير مرة وقرر محاولة تقديم مساعدة تولاه بيد قوية . وعرض كنشت أن يضم اليه بيتروس على سبيل التجربة ، بشرط أن يعامل معاملة الصحيح السليم وأن يترك ليسافر وحده . وأرفق كنشت بكتابه دعوة موجزة رقيقة موجهة الى الشاب ـ رجاه فيها ـ ان أمكنه ـ أن يزوره زيارة قصيرة ، وأشار الى أنه يرجو أن يستقي منه ايضاحات عن أيام الأستاذ الجليل الأخيرة . ووافق الطبيب المونتبورتي على سفر الشاب وان خالجه التردد ، وسلمت دعوة كنشت من أن الشاب لن يجد في وضعه السيء شيئا أحب الى نفسه ولا أقرب اليها من الابتعاد السريع عن مكان آلامه ، فأعلن بيتروس موافقته على الرحيل وتناول عن طيب خاطر وجبة عادية وأخذ تذكرة سفر ورحل . فلما وصل فالدتسل كانت حاله مقبولة نوعا ما . وأصدر كنشت أوامره بأن يتجاهل من يحتك ببيتروس اضطرابه وانفعاله وأن يعطى سكنا في مضيفة الأرشيف . وتبين الشاب أنه لا يعامل كمذنب ولا كمريض ، وأنه لا يوضع خارج النظام بحال ، وكان من الصحة بحيث قدر الجو الطيب وسلك الطريق الذي انفتح أمامه ليعود الى الحياة والحق أنه كان في الأسابيع العديدة التي دامتها اقامته ثقلا على كاهل الماجستر الذي كلفه بمهام دائمة تحت اشرافه تتلخص في شغل وقته بتسجيل التمارين والدراسات الموسيقية الأخيرة لأستاذه قبل وفاته ، وبأعمال معاونة صغيرة منتظمة في الأرشيف . وكانوا يتوجهون اليه بالرجاء ، ان سمح وقته ، أن يمد يده اليهم بالمعونة لأنهم مثقلون مفترقون الى معين . وهكذا وجد الضال طريقه ثانية . فلما هدأت نفسه وصحت ارادته

على الانخراط في النظام ، بدأ كنشت يوثر عليه تأثيرا تربويا مباشرا بالحديث حتى صرف عنه ما مسه من جنون صور له أنه من الممكن أن يتحول تقديسه الوثني للميت الى شيء قدسي له مجال في كاستاليا . ولما لم يتمكن الشاب من التغلب على خوفه من العودة الى مونتيبورت رغم شفائه فقد كلف بالذهاب الى احدى مدارس الصفوة ليعمل بها مساعداً لمدرس الموسيقى ، فأبلى بلاء حسنا .

ومن الممكن تعداد الأمثلة على النشاط التربوي النفساني لكنشت وعلى تأثير شخصيته في شباب الدارسين بقوتها الرقيقة واجتذابهم لحياة تطابق الروح الكاستالية الصحيحة بطريقة شبيهة بالطريقة التي اجتذبه بها قديما أستاذ الموسيقى الراحل . كل هذه الأمثلة تبين أن الماجستر لم يكن ذا شخصية مشكلة ، كل هذه الأمثلة تعتبر كشهادات على صحته واتزانه . على أن جهود الأستاذ الجليل الكريمة من أجل ذوي الشخصيات العليلة المصابة مثل بيتروس وتيجولاريوس تشير الى يقظة وحساسية خاصة لهذه العلل والاصابات التي تعتري الانسان الكاستالي ، يقظة لم تهدأ قط منذ صحوته الأولى بل ظلت واعية للمشاكل والأخطار الموجودة في الحياة الكاستالية نفسها . كان كنشت بعيدا عن أن يرفض عن سفاهة أو دعة النظر الى تلك العلل والمشاكل ، كما كانت الغالبية الغالبة لمواطنينا تفعل ، بل كان يواجهها بشجاعة وبصيرة . والظاهر أنه لم يصطنع قط أسلوب غالبية زملائه في الادارة ، الذين يعلمون بوجود هذه الأخطار ، لكنهم يعاملونها كما لو كانت غير موجودة أساسا . كان ينظر اليها ويعرفها كلها أو جلها ، وكانت معرفته بالتاريخ الأول لكاستاليا تصور له حياته وسط هذه الأخطار كصراع وتجعله يوافق على حياته في الخطر ويحبها ، بينما كان كاستاليون كثيرون يرون مجتمعهم كمجتمع شاعري ولا يتصورونه الا على هذا النحو . كذلك تعلم كنشت من مؤلفات الأب ياكوبوس عن الطائفة البندكتينية مفهوم

الطائفة كجماعة مناضلة ، ومفهوم التقوى كتصرف نضالي . وقد قال مرة : «لا توجد حياة كريمة سامية دون معرفة بالشياطين والأبالسة ودون نضال دائم ضدها» .

ليست الصداقات بالمعنى المعروف أمرا مألوفا بين أصحاب المناصب العليا في كاستاليا ، بل هي أمر نادر جدا ، لهذا فنحن لا ندهش قط عندما نجد أن كنشت لم يصادق أحدا من زملائه في السنوات الأولى لتقلده الأستاذية . كان شديد الميل الى علماء اللغات القديمة في كويبرهايم شديد الاحترام لادارة الطائفة ، لكن الاستلطاف والاحترام على هذا المستوى شيئان مجردان تماماً من الشخصية والخصوصية ، شيئان موضوعيان ، حتى ليكاد يستحيل تجاوز حدود التعاون الذي يفرضه العمل المصلحي الى اتصالات وصداقات . لكن كنشت قدر له أن يصادق صداقة من هذا النوع .

ونحن لم ننفذ الى الأرشيف السري للهيئة التربوية ، ولا نعلم من مواقف كنشت ونشاطه في جلساتها واقتراعاته الا ما صرح به هو نفسه لأصدقائه من حين لآخر . والظاهر أنه لم يبق على سكونه الذي التزمه في الجلسات أثناء الفترة الأولى لتوليه المنصب ، وأنه مع ذلك لم يمتط صهوة الخطابة الا فيما ندر ، والا في الأحوال التي كان فيها هو صاحب المبادرة أو صاحب الطلب . والمؤكد أنه تعلم لغة التصرف التقليدية التي تتعامل بها ذروة طائفتنا بسرعة وأنه أبدى في معالجة أشكالها رقة وبراعة واستمتاعا بها . والمعروف أن أصحاب الدرجات العليا في سلم رتبنا الهرمي ـ الأساتذة ورجال ادارة الطائفة ـ لا يتعاملون بعضهم مع البعض بأسلوب متأنق دقيق مضبوط مهذب فحسب ، وانما يتبعون ، ولا نعلم منذ متى ، اتجاها أو أمرا وقاعدة سرية ، تقضي باصطناع أشد وأدق وأجمل الأدب ، اذا عظمت الاختلافات في الآراء أو زادت أهمية المسائل الجدلية التي يجري بحثها . والظاهر أن هذا الأدب التقليدي السائد منذ القدم ، له وظيفة هامة الى جانب

وظائفه الأخرى ، هي وظيفته كاجراء وقائي : النبرة البالغة الأدب التي يلتزم بها في المساجلات لا تقي المتساجلين من الاستسلام لعواطفهم فحسب ، بل تساعدهم على اتخاذ مسلك الكمال ، ثم هي تحمى وتحفظ كرامة الطائفة والادارة وتحيطها بحلل من المهابة وأستار من القدسية . وهكذا فان فن الأدب الشديد في الحديث والمعاملة الذي كثيرا ما تهكم عليه الطلبة فن له مغزاه الطيب . وفي الوقت السابق على وقت كنشت ، كان سلفه الماجستر توماس فون درترافه ، أستاذاً في هذا الفن ذا براعة حظيت بالاعجاب العظيم . وليس من الممكن اعتبار كنشت خلفه أو مقلده في فنه ، فقد كان كنشت أكثر ميلا الى الصينيين وكان أدبه أقل حدة وتهكما . لكنه كان بين زملائه معروفا بأدب لا يبزه فيه أحد .

الفصل التاسع

حديث

وصلنا في محاولتنا الى نقطة تركز اهتمامنا فيها على التطور الذي تطورته حياة الأستاذ كنشت في أعوامه الأخيرة والذي أدى الى تركه المنصب والاقليم والى انطلاقه الى مجال آخر ثم الى نهايته . وعلى الرغم من أن كنشت أدى مهام منصبه حتى اللحظة التي تركه فيها على نحو مثالي في الاخلاص وتمتع الى اليوم الأخير بحب وثقة تلاميذه ومعاونيه ، فاننا نصرف النظر عن الاسترسال في وصفنا لطريقته في تدبير أحوال المنصب لأننا نراه الآن وهو يقف في قلب المنصب قد تعرض للتعب وانحاز لأهداف أخرى . والذي حدث هو أنه اجتاز دائرة الامكانيات التي قدمها له المنصب لينمي قدراته ووصل الى الموضع الذي يترك فيه العظماء طريق التمسك بالتقاليد والانضواء الطائع ويحاولون عن ايمان بقوى عليا لا سبيل الى معرفة اسمها ، تجربة الجديد الذي لم يسجله سجل ولم يعشه انسان وحمل مسؤوليته .

فلما أيقن كنشت من ذلك فحص وضعه وامكانياته ، وبحث في طريقة لتغيير هذا الوضع بدقة وموضوعية . كان كنشت قد وصل في سن مبكرة خارقة للمألوف الى قمة ما يتصوره الكاستالي الموهوب الطموح على أنه أحق الأشياء بالأمل والسعي . وصل اليها بغير طموح وبغير جهد ، بل وبغير سعي وتقدير ، أو قل ضد ارادته ، فلم يكن يوافق آماله شيء أكثر من حياة عالم

مستقلة نكرة لا تخضع لمهام منصبه وواجباته . ولم يكن كنشت يقدر النعم الكريمة والصلاحيات التي تلقاها مع المنصب التقدير نفسه ، بل كانت بعض الامتيازات والصلاحيات تثقله من أول عهده بالمنصب . فكان على وجه التحديد يعتبر المشاركة السياسية والادارية في أعمال الادارة العليا ثقلا دائما ، ولم يكن رأيه هذا على أية حال يدفعه الى الاقلال من اهتمامه الدقيق المخلص بها . كذلك المهمة الأولى الفريدة ، الخاصة ، المميزة ، التي يلقيها عليه منصبه ، تلك التي تتلخص في تنشئة نخبة من أكمل لاعبي الكريات الزجاجية ، والتي كانت له في وقت ما مصدرا للسرور ومنبعا للفخار ، أصبحت بمرور الوقت عبئا عليه أكثر منها متعة . كان فرحه ورضاه الحقيقيان يتركزان في التعليم والتربية ، وقد دلته خبرته فيهما على أن الفرح والنجاح في التعليم والتربية يعظمان كلما صغرت سن التلاميذ . وهكذا أحس كنشت بالتضحية والحرمان لأن منصبه كان يفرض عليه تنشئة الشباب والكبار لا الأولاد والأطفال . ثم كانت هناك تقديرات وخبرات وآراء أخرى حملته في غضون سنوات عمله بالمنصب على النظر نظرة النقد الى نشاطه هو ذاته والى بعض الأحوال السائدة في فالدتسل ، أو قل حملته على اعتبار منصبه عائقا له عن تنمية أحسن قدراته وأخصبها . من هذه الأمور ما نعلم ، ومنها ما لا نعلم الا تخمينا . كذلك مسألة كنشت وهل كان في سعيه الى التحرر من ثقل منصبه ورغبته في العمل المركز المتواري ، ونقده لحال كاستاليا على حق ، وهل كان مصلحا ومناضلا جريئا أو كان متمردا هاربا من السلاح ، ـ نريد أن نتركها فقد كثرت مناقشتها ، وقسمت مناقشتها فالدتسل والاقليم كله الى معسكرين لمدة طويلة ولم ينته الأمر حتى اليوم نهائيا . وعلى الرغم من أننا نعترف بتقديرنا وامتناننا للأستاذ العظيم ، فاننا لا نريد أن نتخذ موقفا بعينه ، فمازال الحكم النهائي على يوزف كنشت في دور التكوين ، وان وجدت عناصره من آراء وتقديرات تدور حول شخصه . ونحن لا نريد أن

نصدر حكما ولا نريد أن ندعو لرأي ، وانما نريد قدر الامكان أن نقص بصدق قصة نهاية أستاذنا الجليل . والحق أنها ليست قصة بالمعنى الصحيح ، بل هي أقرب شيء الى الأسطورة ، أو التقرير يمتزج فيه طرف من الأخبار الصادقة ، وطرف من الاشاعات التي جرت من منابع صافية تارة وعكرة تارة أخرى ، وانتشرت بيننا نحن جيل الاقليم الحديث .

في ذلك الوقت الذي بدأت أفكاره فيه تشتغل بالبحث عن طريق يؤدي الى الخلاء الحر ، رأى يوزف كنشت على غير انتظار شخصية كان يعرفها قديما في صغره معرفة وثيقة ثم نسيها أو كاد ، هي شخصية بلينيو ديزنيوري . هذا الطالب الخارجي القديم المنحدر من عائلة قديمة عريقة لها على الاقليم فضل ، أصبح نائبا وكاتبا سياسيا ورجلا ذا نفوذ ، ظهر ذات يوم على غير انتظار في الادارة العليا للاقليم بصفة رسمية . والذي حدث هو أن انتخابات جديدة كانت تجري كالمألوف كل بضعة أعوام لتشكيل اللجنة الحكومية للاشراف على الميزانية الكاستالية ، وفاز ديزنيوري وأصبح أحد أعضاء اللجنة . فلما أتى لأول مرة بهذه الصفة الجديدة ، وكان ذلك في جلسة انعقدت في مقر رئاسة الطائفة في هيرسلاند ، كان أستاذ لعبة الكريات الزجاجية ضمن الحاضرين . وقد كان للقاء أثر كبير قوي على كنشت وكان له نتائجه ، وقد علمنا طرفا من أخبار ذلك من تيجولاريوس ومن ديزنيوري نفسه الذي أصبح في هذه الفترة الغامضة بعض الشيء من حياة كنشت صديقه بل وصفيه . في ذلك اللقاء الذي تم بعد عشرات السنين من النسيان ، قام المتحدث باسم الادارة بتقديم السادة الجدد الذين تتكون منهم اللجنة الحكومية الجديدة الى الأساتذة . فلما سمع كنشت اسم ديزنيوري أخذته الدهشة ، بل تملكه الخجل ، لأنه لم يتعرف لأول وهلة على زميله القديم الذي لم يره منذ سنوات طوال . فلما تخلى عن الانحناءة الرسمية وعبارة التحية الرسمية ، ومد اليه يده كما يفعل الصديق بالصديق ،

نظر اليه باهتمام وحدق في وجهه ، وحاول أن يتبين فيه التغيرات التي أدت الى أنه لم يتعرف عليه توا . كذلك فعل أثناء الجلسة ، فتركزت نظرته على هذا الوجه الذي كان قديما مألوفا لديه . وكان ديزنيوري قد ناداه بـ« حضرتكم » ولقبه بالأستاذ ، ولم ينصرف عن ذلك النداء العادي بـ« أنت » ، إلا بعد أن ألح عليه كنشت في الرجاء .

كان كنشت قد عرف بلينيو عندما كان شابا عنيفا مرحا لامعا يتحدث بما عنده ، عرفه تلميذا مجيدا ورجلا من رجال الدنيا يحس نفسه فوق شباب كاستاليا الذين لا يعرفون من أمر الدنيا شيئا ، ويتمتع باستفزازهم . كان يتصف بشيء من الغرور ، ولكنه كان انسانا صريحا ، لا يعرف الدونية ، وكان يبدو في أعين غالبية من في عمره شخصا جذابا ومحبوبا ، بل كان يلوح للبعض باهرا بما أوتي من مظهر جميل ومسلك مطمئن ، ورائحة الغرابة تفوح منه باعتباره ضيفا ومن أبناء العالم الخارجي . ثم التقى به كنشت بعد أعوام طويلة ، قرب انتهاء فترة دراسته ، فوجده قد أصيب بالضحالة والغلظة وفقد سحره القديم تماما ، فتملكته الخيبة . وانصرف آنذاك أحدهما عن الآخر في ارتباك وبرود . وها هو ذا يبدو مختلفا اختلافا بينا . أول ما يطالع الناظر اليه من صفاته أنه فقد شبابه ومرحه وحبه للتحدث بما عنده ، وللشجار والتجادل ، وفقد شخصيته النشيطة الجذابة المنبسطة ، فقدها ، أو طرحها . فكما أنه لم ينبه صديقه القديم اليه عندما التقى به ولم يبادره بالتحية ، وكما انه وقد سمع اسم الماجستر لم يناده بأنت ولم يقبل رجاءه الودي برفع الكلفة الا متعنتا ، كذلك كان في تصرفه وفي نظرته وفي طريقة كلامه وفي تقاطيع وجهه وحركاته تحفظ أو تراجع واقلال وانطواء . كان فيها جمود أو تقلص أو ربما تعب حل محل ما كان فيها قديما من حب الهجوم ، والصراحة والهمة . اختفى منها اذن سحر الشباب وانطفأ ، واختفت منها كذلك ملامح السطحية والانغماس القاسي في الدنيوية ، وظهر الرجل ،

وخاصة وجهه ، يحمل تعبيرا من الألم مرسوما عليه ، تارة يهدمه وتارة يسمو به . وبينما كان أستاذ لعبة الكريات الزجاجية يتابع المباحثات ، ظل جانب من انتباهه على الدوام مركزا على هذه الظاهرة ، واضطره الى التفكير في نوع من الألم الذي استبد بهذا الرجل النشيط الجميل المحب للحياة . بدا له هذا الألم ألما غريبا لم يعرف من أمره شيئا . وأحس أنه كلما استغرق في التفكير في أمره ، وجد نفسه ينعطف ويميل الى هذا المتألم ، واختلط بهذا الحنان وهذا الحب شعور خالجه وصور له نفسه شريكا في مسؤولية تحول صديق شبابه الى هذا المظهر الحزين . فلما أعمل فكره وتخمينه في سبب حزن بلينيو ، وكون احتمالات ما لبث أن نبذها ، أتته فكرة : ان الألم المستبد بهذا الوجه ليس ألما عاديا في أصله ، بل هو ألم نبيل ، أو ربما ألم تراجيكي ، وأن تعبيره من نوع غير معروف في كاستاليا ، وتذكر انه قد رأى تعبيرا مشابها على وجوه أناس غير كاستاليين من العالم الخارجي ، وان كان الفرق بين التعبيرين شاسعا في القوة والتأثير . كذلك عرف كنشت شيئا مشابها في صور رجال من الماضي ، صور بعض العلماء أو الفنانين كان من الممكن أن يتبين المرء فيها حزنا مؤثرا فيه المرض وفيه القدر ، ويتبين فيه العزلة والحيرة . أما الماجستر الذي كان يحتكم على احساس فنان رقيق بأسرار التعبير واحساس مرب واع بالشخصيات فقد كان يعرف منذ مدة طويلة مميزات فراسية معينة اعتمد عليها فطريا دون أن ينظمها في نظرية متكاملة . كان يفرق مثلا بين نوع من الضحك الكاستالي خاصة ، ونوع من الضحك الدنيوي خاصة ، ويفرق كذلك بين نوعين من الابتسام ومن البشاشة ومن الألم والحزن . وها هو ذا يعتقد أن ما رآه على وجه ديزنيوري هو الحزن الدنيوي ، حزن دنيوي قوي التعبير صافيه ، كأنه مكلف بتمثيل الكثيرين وبابراز الألم الدفين والاعتلال الذي يعتورهم . وأحس كنشت بهذا الوجه يقلقه ويملك عليه نفسه ، ورأى أهمية عظمى في ارسال الدنيا صديقه

المفقود الى هنا ، وتصور بلينيو ويوزف الآن بحق ـ كما فعلا قديما في مساجلاتهما أيام التلمذة ـ أحدهما الدنيا ، والآخر الطائفة . وأكثر من هذا أهمية ورمزية تصور كنشت أن الدنيا ترسل الى كاستاليا ممثلا في هذا الوجه الحزين ألمها ومحنتها ، وكانت قديما ترسل اليها ضحكتها وشغفها بالحياة وفرحها بالسلطان ومرحها الغليظ . كذلك فكر في ديزنيوري الذي تحاشاه ولم يبد عليه أنه يلتمسه ، ثم انتهت مقاومته الطويلة بالاستسلام والانضواء ، فكر في ذلك ولم يجد فيه ما لا يعجبه . وقد عاون كنشت على أمره أن زميله القديم ، وقد تربى في كاستاليا لم يكن عضوا صعبا متعنتا أو معاديا لكاستاليا في لجنته ذات الأهمية الكبيرة بالنسبة للاقليم ـ وكم حدث ذلك من قبل ـ بل كان من المعجبين بالطائفة ومن أصحاب الفضل عليها وعلى الاقليم ، الذين قدموا لهما خدمات كثيرة . ولكنه كان قد انصرف عن لعبة الكريات الزجاجية منذ سنوات طويلة .

ولسنا نستطيع على وجه الدقة وصف الطريقة التي عاد بها الماجستر الى اكتساب ثقة الصديق . ويستطيع كل واحد منا ، بما له من معرفة بصفاء الاستاذ الهادئ وأدبه اللطيف ، أن يتصورها كما يشاء . لم يتنزل كنشت ليتقرب الى بلينيو ، وهل هناك من يستطيع أن يقيم على مقاومته عندما يريد كنشت ؟

وفي النهاية ، وبعد أن انقضت الشهور على اللقاء الأول ، وتكررت دعوة ديزنيوري الى زيارة فالدتسل ، قبل الدعوة ، وركب العربة مع كنشت وسارا في عصر يوم خريفي كثير السحب والريح في الأرض ، بين النور والظلام المتعاقبين ، ناحية الأماكن التي شهدت أيام التلمذة والصداقة . أما كنشت فكان في مرح منطلق وأما الرفيق الضيف ديزنيوري فكان ساكنا ، وان خالجه القلق ، كأنه الحقول الخالية بين الشمس والظل ، يضطرب بين فرحة اللقاء والحزن على تحوله الى غريب . ونزلا قرب المستعمرة وسارا على الأقدام في

الطرق القديمة التي كانا أيام التلمذة يسيران فيها معا ، وتذكرا نفرا من الزملاء ومن المعلمين ، وجانبا من الأحاديث الخالية . وبقي ديزنيوري ضيفا على كنشت يوما ، وكان كنشت قد وعده بأن يدعه طوال ذلك اليوم ينظر الى تصرفاته وأعماله في الديوان . فلما انتهى اليوم ـ وكان الصديق يريد أن يسافر في الغد مبكرا ـ جلسا في حجرة الجلوس عند كنشت وحدهما ، وحوتهما ألفة توشك أن تساوي ألفة الأيام الخوالي . وكان اليوم الذي تمكن الغريب فيه من مشاهدة الماجستر وملاحظة عمله ساعة تلو ساعة ، قد أتاه بانطباع عظيم . وجرى بين الاثنين في ذلك المساء حديث سجله ديزنيوري بعد عودته مباشرة . وسنورد الحديث بحذافيره رغم أنه يضم أشياء غير هامة ، وربما ضايق بعض القراء وقطع عليهم قصتنا المتصلة .

قال الماجستر : « كنت أريد أن أريك الشيء الكثير ، ولم أتمكن من ذلك الا جزئيا . كنت أريد مثلا أن أريك حديقتي الجميلة ، أما زلت تذكر « حديقة الماجستر » ونباتات الأستاذ توماس ؟ ـ نعم ، وغيرها وغيرها . وأرجو أن تتاح لذلك فرصة أخرى . ولقد تمكنت على أية حال منذ الأمس من استحياء بعض الذكريات ، ومن تكوين صورة من نوع واجباتي ومهامي في الأستاذية ، وعن عملي اليومي » .

فقال بلينيو : «وأنا شاكر لك على ذلك . فقد بدأت اليوم فقط أكون فكرة مبدئية عامة عن اقليمكم في حقيقته وعن الأسرار العجيبة التي تحيط به ، رغم أنني كنت طوال سني بعدي عنكم أفكر فيكم تفكيرا أكثر مما يمكنك أن تتصوره . لقد أعطيتني فكرة عن ديوانك وعن حياتك ، يا يوزف ، وأرجو ألا تكون هذه المرة الأخيرة ، وأن نتكلم كثيرا عما رأيته هنا ، وما لا أستطيع الحديث عنه اليوم . وأنا أحس أن ثقتك بي تحملني واجبا ، وأعلم أن سكوتي لا بد قد أدهشك . ولكنك ستزورني مرة وسترى أين أنا في داري . أما اليوم فلن أستطيع الا أن أحكي لك عن القليل من أمري حتى تعرف

حقيقته ، وسيكون حديثي تخفيفا عما بي ، وان كان الوقت نفسه يخجلني ويقع مني موقع العقاب ؟

تعلم أنني أنحدر من عائلة عريقة لها فضل على البلاد وبينها وبين الاقليم علاقة صداقة ، عائلة محافظة من ذوي الاملاك وكبار الموظفين . وهذه العبارة البسيطة تحمل في طياتها الهوة التي تفصل بيني وبينك! لقد قلت لتوي «عائلة» وأنا أظن أني أقول شيئا بسيطا مفهوما بطبعه ولا يحتمل الا معنى واحدا . ولكن هل هذا صحيح ؟ فأنتم أهل الاقليم لكم طائفتكم ، ولكم نظامكم الهرمي ، ولكنكم ليس لديكم عائلة ، ولا تعلمون ما العائلة وما الدم وما الأصل ، وليس لكم أدنى فكرة عن السحر والقوة الخفيين الجبارين لذلك الشيء الذي اسمه العائلة . وهذا هو أمر غالبية الكلمات والمفاهيم التي تعبر عن حياتنا : الغالبية التي تهمنا لا تهمكم ، وكثير منها لا تفهمونه ، وعدد آخر منها له عندكم معان مختلفة كل الاختلاف . ثم نريد والحال هذه أن نتحادث بعضنا مع البعض! انك عندما تتكلم معي فكأني بأجنبي يكلمني ، وان كان في هذه الحالة أجنبيا تعلمت لغته في صباي فأصبحت أفهم منها كثيراً . أما العكس فغير ذلك : عندما أتكلم أنا معك ، فانك تسمع لغة لا تعلم من اصطلاحاتها الا النصف ولا تعلم من دقائقها وخلجاتها شيئا . انك تسمع حكايات عن حياة انسان وعن ضرب من ضروب الوجود ليس هو ضربك . وأغلب ما تسمع وان أهمك يظل مستغلقا عليك أو لا يتضح لك منه إلا نصفه ، ألا تذكر مساجلاتنا ومحادثاتنا أيام التلمذة لم تكن إلا محاولة ، محاولة من محاولات كثيرة ، تريد أن تنشئ توافقا بين عالم ولغة اقليمكم وعالمي ولغتي . ولقد كنت أصرح وأخلص وأصح من حاولت معهم محاولتي جميعا نية . فوقفت تدافع عن حقوق كاستاليا شجاعا ، ولم تنكر في ذلك عالمي الآخر وحقوقه ولم تزدرها . ولقد تقاربنا في ذلك الحين أحدنا من الآخر تقاربا سأعود الى الحديث عنه مستقبلا » .

وسكت لحظة غارقا في التفكير ، فتكلم كنشت بحذر : «لكن عدم القدرة على الفهم ليس أمراً سيئ المرد على نحو ما ذكرت . فمما لا شك فيه أن شعبين ولغتين لن يقدرا على أن يفهم الواحد صاحبه ، ولن يقدرا على تبادل الأفكار في غير كلفة ، كما يستطيع ذلك فردان من أمة واحدة ينطقان بلسان واحد . وليس هذا سببا يدعو الى صرف النظر عن التفاهم وتبادل الأفكار . فهناك حتى بين أبناء الشعب الواحد واللغة الواحدة حواجز تعوق التفاهم الكامل والتبادل التام للأفكار ، حواجز الثقافة والتربية والموهبة الفردية . ومن الممكن أن يذهب الانسان الى أنه من الممكن مبدئيا ان يتفاهم مع أي انسان آخر ، ومن الممكن أن يذهب الى أنه لا يوجد في الدنيا شخصان يجري بينهما تفاهم وتبادل فكري صحيح حقيقي بلا ثغرات ـ هذان مذهبان صحيحان بالدرجة نفسها . انهما «ين» و«يانج» ، النهار والليل ، كلاهما على حق ، وكلاهما حقيق بأن يذكره الانسان ، وأنا أحقك وأرى رأيك في أننا لا نستطيع أن يقول أحدنا لصاحبه القول على نحو يفهمه فهما كاملا تاما غير ممنون . ولكن حتى لو كنت أنت أوروبيا وكنت أنا صينيا ، وكنا نتكلم لغات مختلفة ، ثم تشبثنا بارادة طيبة ونية حسنة ، فاننا نستطيع أن نتبادل الكثير من الأفكار وأن نتجاوز المقول الى ما يأتي به الحدس والتوقع والتخمين من أشياء لا يكسوها الكلام . وما علينا الا أن نحاول» .

فأومأ ديزنيوري برأسه واستأنف كلامه : «سأحكي لك أولا جزءا قليلا لا بد أن تعرفه ، حتى تكون طيف فكرة عن حالي . قلت لتوي ان العائلة هي السلطة الأولى العليا في حياة الشاب ، سواء اعترف بها أو لم يعترف . ولقد أحسنت أمري معها طالما كنت تلميذا ضيفا في مدارس الصفوة الكاستالية . فكنت طوال العام أنعم بالرعاية السامية لديكم ، وعندما أعود الى البيت في الاجازة ألقى الاحتفال والتدليل ، فقد كنت الابن الوحيد . وكنت أتعلق بأمي تعلقا قوامه الحب العاطفي الرقيق ، وكان فراقي عنها هو الألم الوحيد الذي

تحدثه بي الرحلة الى الاقليم . أما علاقتي بأبي فكانت علاقة ودية فاترة ، على الأقل طوال أيام الصبى والشباب التي قضيتها لديكم . كان أبي معجبا قديما بكاستاليا وكان يفخر بأنه يربيني في مدارس الصفوة وبأنه يراني أنال حظا من معرفة بأشياء رفيعة مثل لعبة الكريات الزجاجية . كانت اقامتي بين العائلة في الاجازة تتسم بسمة مهيبة عالية وبجو احتفالات بهيج ، حتى ليمكن القول انني وعائلتي لم نكن نعرف بعضنا البعض الا في أزياء الاحتفال والعيد . وكنت أحيانا عندما أترككم وأذهب لاجازتي آسف لكم لانكم لا تعلمون من أمر هذه السعادة شيئا . ولا حاجة بي الى اطالة الحديث عن الوقت القديم ، فقد عرفتني آنئذ أحسن من أي انسان آخر . كنت أوشك أن أكون كاستاليا ، كنت أتسم بشيء من الفرح بالدنيا ومن السطحية الغليظة ، ولكني كنت مفعما بالسعادة والمرح والحماس . كان هذا الوقت أسعد وقت في حياتي ، ولم أكن آنئذ أحس بذلك ، لأني كنت في غضون سنواتي بفالدتسل اتوقع سعادتي وذروة حياتي في الفترة التي أفرغ فيها من مدارسكم وأعود الى أهلي وأغزو العالم الخارجي بفضل التفوق الذي اكتسبته في مدارسكم . ولا بد من أن يحدث ذلك ، تحرك في نفسي يوم ودعتك تساؤل لازمني حتى يومنا هذا وصراع لم أكن فيه المنتصر الغالب . فلم يكن الوطن الذي عدت اليه يتكون من بيت أبي ، ولم يكن يتحرق شوقا الى يوم رجوعي ليعانقني ويعترف بتفوقي الذي أمكنتني منه دراستي في فالدتسل ، حتى في بيت أبي لقيت ضروبا من خيبة الأمل والصعوبات والمنغصات . ومضى وقت لاحظت بعده هذه الملاحظة ، وكنت اعتمد على ثقتي الساذجة الفجة في نفسي وفي سعادتي ، واعتمد على ما أتيت به من أخلاق الطائفة ، واعتمد على ما تعودته من عادة التأمل . ثم التحقت بالمدرسة العليا لأدرس العلوم السياسية ، فوجدت فيها خيبة الأمل والفظاظة! كانت لغة الطلاب فيما بينهم ، وكان مستوى الثقافة العامة والجماعة ، وكانت شخصيات بعض

المدرسين على نحو يختلف اختلافا بينا عما عهدت في كاستاليا . وأنت تذكر كيف دافعت عن عالمنا ونصرته على عالمكم ، وكنت ألهج بالثناء على الحياة البسيطة المستقيمة التي ادعيت أن عالمي يتصف بها . واذا كان ادعائي يستحق عقوبة ، فقد ، نالتني عقوبة شديدة ، يا صديقي . لأن هذه الحياة البسيطة الساذجة البريئة الفطرية ، وهذه الطفولة والعبقرية الفطرية التي يتصف بها كل ما هو ساذج ممكن أن توجد في أي مكان ، ربما عند الفلاحين أو العمال اليدويين ، أو ربما في غير ذلك من البيئات ، ولكني لم أوفق قط في ملاقاتها والالمام منها بطرف . وأنت تذكر بلا شك أنني انتقدت في خطبي غرور الكاستاليين وخيلاءهم ، انتقدت هذه الطبقة المانعة المتكبرة وما تتسم به من روح الطبقة وتعجرف الصفوة . فلما عدت الى الدنيا وجدت أهلها لا يقلون زهوا بأخلاقهم القبيحة . وثقافتهم الضئيلة ، وفكاهتهم الفظة الصارخة ، واقتصارهم الغبي المتصنع اللئيم على الأهداف العملية التي تخدم الذات على نحو مريض ، كانوا يعتبرون أنفسهم ذوي قيمة وتقوى ، وينظرون الى أنفسهم على اعتبار انهم من الخيرة ، وهم على ما هم فيه من طبيعة ضيقة الأفق ، ويسرفون في الزهو فلا يقلون عن تلميذ فالدتسل عندما يتكلف ويتصنع . فتهكموا علي وربتوا على كتفي ، قابل البعض ما في من غرابة وكاستالية بالكراهية الصريحة الواضحة ، كراهية الدنيء للرفيع ، فقررت أن أتقبل كراهيتهم واعتبرتها تمييزا لي وتكريما » .

وسكت ديزنيوري هنيهة وألقى نظرة على كنشت ليرى ما اذا كان حديثه اليه يؤرقه ويتعبه . ولاقت نظرته نظرة صاحبه ووجد فيها تعبيرا عن الانتباه والود العميقين ، فهدأت نفسه لذلك وكان خيرا . رأى أن صاحبه مندمج فيما يكشفه له ويستمع اليه لا كما يستمع المرء الى لغو أو الى حكاية لطيفة ، بل يصغي اليه اصغاء تاما كاملا مستغرقا في التأمل مركزا عليه ، اصغاء فيه نية قلبية صافية عبرت عنها نظرة كنشت تعبيرا حرك

فؤاده ، تعبيرا فيه ود وفيه براءة الصبية ، وتملكته الدهشة أن يرى هذا التعبير على وجه الرجل نفسه الذي أعجب منذ قليل بما يقوم به من عمل يومي يتسم بالحكمة والنفوذ . ثم استأنف كلامه وكأن ثقلا في نفسه انزاح عنها :

«لست أعلم هل كانت حياتي عديمة الفائدة لا تزيد عن أن تكون غلطة أو هل كانت ذات معنى . فاذا صح أن لها معنى ، فمعناها يتلخص في : انسان منفرد متمسك بأهداب الملموسات في عصرنا تبين بأكثر الطرق وضوحا وألما كيف ابتعدت كاستاليا عن الوطن الأم ، أو ان شئت كيف ابتعد الوطن الأم عن كاستاليا ، كيف ان وطننا قد ظل غريبا على أكرم اقليم ، خائنا لروحه ، كيف يتنافر في وطننا الجسم والروح ، المثل الأعلى والواقع ، وكيف يجهل الواحد الآخر أو يريد أن يجهله . فاذا صح أني اتخذت لحياتي رسالة ومثلا أعلى ، فقد تمثل ذلك في أن أجعل شخصي مزيجا من المبدأين ، والوقوف بين الجانبين موقف الوسيط والمترجم والموفق ، ولقد حاولت وفشلت . ولما كنت لا أستطيع أن أحكي لك حياتي كلها ؛ وكنت أنت غير قادر على فهم كل أمورها ، فسأسوق اليك موقفا واحدا من مواقف فشلي المميزة . لم تكن الصعوبة التي واجهتني بعد بداية دراستي في المدرسة العليا هي بالدرجة الأولى ما كان ينصب علي من تهكمات وعبارات العداء باعتباري كاستاليا وصبيا نموذجيا ، واجتهادي في التصرف السليم نحوها . فقد كان النفر من زملائي الذي ينظر الى انحداري من سلالة مدارس الصفوة على انه امتياز ، وأمر مثير للدهشة ، يؤرقني ويسبب لي حرجا أعظم . لا ، لقد كانت الصعوبة ، أو الاستحالة ، تتلخص في استئناف الحياة على النحو الكاستالي وسط الدنيا . والحقيقة أنني لم ألحظ هذه الصعوبة أو الاستحالة بادئ ذي بدء الا قليلا ، وبقيت أتشبث بالقواعد التي تعلمتها لديكم ، وبدت زمنا طويلا كأنها صالحة ناجعة ، ولاحت لي كأنها تقويني وتدعمني وتبقي على صفائي

وصحتي الداخلية وتساندني في محاولتي الاستمرار في دراساتي على النحو الكاستالي ما استطعت الى ذلك سبيلا ، فاسير وراء ظمأي الى العلم لا غير ، ولا أدع أحدا يضطرني الى دراسة غصبا ، همها تخصيص الطالب بأسرع وقت ممكن في حرفة لكسب العيش ، واقتلاع كل فكرة قد تكون في ذهنه عن الحرية والعمومية . وسرعان ما تبين لي أن العون الذي أعطتنيه كاستاليا عون خطير مريب ، لأني لم أكن أريد أن أحفظ لنفسي اطمئنانها ولفكري سكونه التأملي على طريقة المتخاذلين أو الزهاد ، بل كنت أريد أن أغزو الدنيا ، وأفهمها وأقهرها وأرغمها على فهمي ، كنت أريد أن أوافق عليها وان استطعت أن أجددها وأحسنها ، كنت أريد أن أجمع في نفسي بين كاستاليا والدنيا وان أوفق بينهما . كنت عندما ألوذ بالتأمل في أول الأمر في أعقاب خيبة أمل ، أو شجار أو انفعال ، أحس بالتلطيف والهدوء والتنفس العميق والعودة الى قوى لطيفة طيبة . وما لبثت أن لاحظت بمضي الزمن أن الغوص في النفس وتدريب الروح ورعايتها ، هو ما يعزلني عن الآخرين ويجعلني ثقيلا عليهم غريبا فيهم ، ويسلبني القدرة على فهمهم فهما حقيقيا . ورأيت أنني لن أفهم أهل الدنيا حقا وصدقا الا عندما أعود واحدا منهم ، وعندما أتجرد من كل امتياز عليهم ، حتى من اللوذ بالتأمل . ربما أكون بعرضي الأمر بكل بساطة يتلخص في انني وقد تجردت من الزملاء المشابهين لي في دراستي ومزاجي ، ومن رقابة المعلمين ، ومن جو فالدتسل الحافظ الشافي ، فقد فقدت بالتدريج ما اكتسبت من نظام ، وأنني أصبحت كسولا بليدا ومتهاونا ، وكنت عندما أحس بوخز الضمير ، أقول لنفسي اعتذارا ان التهاون من صفات الدنيا ، وانني كلما تهاونت كلما اقتربت من فهم من حولي . ولست أحاول في حديثي معك أن أجمل نفسي ، ولكني لا أريد أن أنكر أو أخفي أنني بذلت الجهد وسعيت وكافحت ، حتى في الميدان الذي كنت أتخبط فيه . وكنت جادا . وسواء كانت محاولتي اتخاذ مكان لي على أساس

من الفهم والوعي خيالا أو لم تكن ، فقد حدث ما كان طبيعيا ، كانت الدنيا أقوى مني فغلبتني بالتدريج ثم ابتلعتني . حدث ما حدث كما لو كانت الحياة أمسكتني من لساني وكيفتني مع الدنيا التي كنت في مناقشاتنا معا أمتدحها وأدفع عنها ضد منطقك ، وأبرز صدقها وبساطتها وقوتها وسمو صفاتها . وأنت تذكر هذا .

والآن دعني أذكرك بشيء آخر ربما نسيته منذ زمن طويل لأنه لم يتخذ أية أهمية بالنسبة اليك . ولكنه كان عظيم الأهمية بالنسبة لي ، عظيم الأهمية والفظاعة . عندما انتهت سنوات دراستي كنت قد تكيفت مع الدنيا وانهزمت انهزاما لا يصح بحال من الأحوال أن يوصف بأنه كان كاملا ، فربما كنت أعتبر نفسي في داخلي منكم وربما اعتقدت أن هذه التكيفات والتعديلات التي أدخلها على نفسي لا تزيد عن أن تكون اصطناعا للحذق والمهارة في الحياة ، وعملت عن رغبة في اتمامها ولم استسلم لها صاغرا . وتمسكت بعدد من عادات وحاجات سنوات شبابي في فادتسل ، ومنها لعبة الكريات الزجاجية ، وان بدا ذلك عاريا عن الفائدة ، لأن الانسان لا يستطيع أن يتعلم فيها شيئا بدون مران دائم ، ومخالطة دائمة للمساوين والمتفوقين من رفاق اللعبة ، وما اللعب المنفرد بها الا كالحديث مع النفس ، لا يعادل الحديث الحقيقي الخالص قط . فاجتهدت ، وأنا لا أعلم من أمري ومن أمر فني في اللعبة وثقافتي وتلمذتي في مدارس الصفوة شيئا ، وسعيت لأنقذ هذه النعم أو جانبا منها على الأقل ، وكنت عندما أعرض على بعض أصدقائي ممن يحاولون الزج بأنفسهم في اللعبة دون أن يكون لهم أدنى علم بروحها ، أعرض عليهم تخطيطا أو أحلل لهم جملة يرون فيها وهم الجهلاء سحرا . وفي العام الثالث أو الرابع من أعوام دراستي اشتركت في برنامج اللعبة في فالدتسل ، وأحسست بالفرحة المختلطة بالحزن وأنا أعود لرؤية المنطقة وقرية اللاعبين ، لكنك لم تكن موجودا . فقد كنت تدرس في مكان ما في

مونتيبورت أو في كويبرهايم وتحيا حياة المعتزل المجتهد . كان برنامج اللعبة الذي اشتركت فيه برنامج عطلة ، وضع لنا أهل الدنيا المساكين والهواة ، ولكنه كان عسيرا علي وفرحت عندما حصلت في النهاية على تقدير «مقبول» الذي يخول لصاحبه حق العودة الى الاشتراك في مثل هذه البرامج التي تعقد أثناء العطلة .

ثم انقضت أعوام استجمعت بعدها قواي للمرة الثانية والتحقت في برنامج عطلة أيام سلفك وبذلت أقصى ما في وسعي لأظهر في فالدتسل بمظهر لائق الى حد ما . فاستخرجت كراساتي القديمة أستذكرها وحاولت محاولات تهدف الى استعادة اتقاني تمرينات التركيز ، وباختصار أعددت نفسي بوسائلي المتواضعة ورتبت مزاجي واستجمعت قواي على نحو يشبه النحو الذي يصطنعه لاعب الكريات الزجاجية الخالص ازاء اللعبة السنوية العظيمة . وهكذا عدت الى فالدتسل بعد انقطاع سنوات ، وقد زادت غربتي زيادة غير قليلة ، فخلبت فالدتسل لبي وأحسست كأني أعود الى وطن جميل فقدته ولم تعد لغته يسيرة علي . وتحققت في تلك المرة رغبتي في أن أراك . أتذكر يا يوزف ؟ .

فنظر كنشت في عينيه وأومأ برأسه ثم ابتسم ، ولم يقل كلمة واحدة .

فعاد ديزنيوري يقول : «حسنا . أنت تذكر ذلك اذن . ولكن ما هذا الذي تذكره ؟ انه لقاء عابر بزميل في التلمذة ، لقاء صغير وخيبة أمل . شيء يعبر عليه المرء عبورا ولا يفكر فيه الا اذا ذكر به عشرات السنين في الحاح . أليس كذلك ؟ هل كان اللقاء غير ذلك ، هل كان أكثر من ذلك بالنسبة اليك ؟» .

وبدا ديزنيوري ، رغم الجهد الذي بذله للسيطرة على نفسه ، في انفعال عظيم كأنه يريد أن يفرغ عن نفسه شيئا تراكم وتكدس عليها منذ سنوات ، ولم يكن هناك سبيل للتغلب عليه .

فقال كنشت حذرا : «انك تستبق الأحداث . سأقول لك عن رأيي في اللقاء عندما يأتي دوري في الكلام وفي تقديم الحساب . أما الآن فالكلمة لك يا بلينيو . وأنا أرى أن اللقاء الذي تعني لم يكن طيب الأثر عليك . ولم يكن أثره في ذلك الحين غير ذلك . استأنف الآن قصتك كما جرت آنئذ . تحدث بكل صراحة!» .

وقال بلينيو : «سأحاول . وأنا لن ألومك ، واعترف لك بأنك تصرفت آنئذ حيالي تصرفا سليما صحيحا للغاية ، بل فعلت أكثر من ذلك . وأنا عندما قبلت دعوتك الحالية للحضور الى فالدتسل ، فالدتسل التي لم أرها منذ البرنامج الثاني الذي اشتركت فيه ، بل عندما قبل انتخابي عضوا في لجنة كاستاليا ، كنت أنوي أن أضع نفسي أمامك وأمام خبرة ذلك الوقت ، بغض النظر عما اذا كان ذلك مجلبة للسرور لنا أو لم يكن . والآن دعني أكمل . كنت قد أتيت من أجل برنامج العطلة ونزلت في المضيفة . وكان المشتركون في البرنامج جلهم في سني تقريبا ، وكان منهم من يكبرني بكثير . كنا جميعا عشرين شخصا على أكثر تقدير ، وكنا على الأغلب كاستاليين ، بين لاعبين للكريات الزجاجية من النوع الرديء المتهاون التالف ، ومبتدئين خطر لهم في وقت متأخر أن يلموا بطرف من لعبة الكريات الزجاجية . ولكني لم أحس بالحرج فلم يكن بينهم من يعرفني . ومع أن رئيس البرنامج وكان أحد مساعدي الأرشيف ، قد بذل جهدا صادقا وعاملنا معاملة طيبة جدا ، فقد لاح الأمر من أوله كأمر مدرسة من الدرجة الثانية لا تجدي نفعا ، وشابه برنامج عقوبة لم يكن المشتركون فيه وقد جمعتهم له الصدفة البحتة جمعا يعتقدون في أن له معنى أو في أنه يمكن أن يؤدي الى نجاح ، وكان المدرس يعتقد اعتقادهم ، وان لم ينطق بهذا الاعتقاد أحد من الجانبين . وحق للانسان أن يسأل مندهشا عن السبب الذي دعا هذه الحفنة من الناس الى ممارسة شيء لا تكفي قدراتهم

لممارسته ، ولا يجدون في أنفسهم شغفا كافيا به يبث فيهم الجلد والتضحية ، وعن السبب الذي دعا متخصصا عالما الى القاء الدرس عليهم وشغلهم بتمرينات لا ينتظر هو نفسه أن يتموها بنجاح . لم أكن في ذلك الوقت أعلم السبب ، ثم علمته فيما بعد من ذوي الخبرة ، علمت أن حظي مع هذا الفصل كان سيئا وانه لو كان المشتركون عناصر غير تلك التي رماني الحظ بها ، لحركوا البرنامج وشحذوه وشجعوه وبثوا فيه الحماس . وسمعت بعد ذلك أنه يكفي غالبا أن يكون بين المشتركين اثنان يؤجج أحدهما نار صاحبه ، أو يكون أحدهما على علم سابق بصاحبه ، أو يكون أحدهما مقربا من الآخر ، حتى ينتعش الفصل كله وينشط المدرس . وأنت أستاذ لعبة الكريات الزجاجية ولا شك أنك تعرف هذا تماما . كنت اذن سيء الحظ ، فلم توجد بالفصل تلك الخلية الصغيرة المنعشة فلم يشع في مجتمعنا العرضي دفء ، كأنه وضع لصبيان المدارس . وتعاقبت الأيام ، وكانت خيبة الأمل تزيد مع كل يوم . ولكني فكرت أن لي غير لعبة الكريات الزجاجية فالدتسل التي تعني بالنسبة لي مكان ذكريات قدسية مصونة ، فاذا فشل برنامج اللعبة ، فقد بقي لي احتفالي بالعودة الى فالدتسل واحتكاكي بزملائي القدامى بل وربما لقائي بذلك الزميل الذي تعلقت به أكثر وأقوى ذكرياتي والذي كان يمثل في نظري أكثر من أي شخص آخر كاستاليا : لقائي بك ، يا يوزف ، وقلت في نفسي لو أني لقيت نفرا من أقراني في الشباب والمدرسة ، وصادفت في نزهاتي عبر المنطقة الجميلة الحبيبة الروح الطيبة التي عهدتها أيام شبابي ، وأتيح لي أن تقترب أنت مني فتجري بيننا أحاديث من نوع ومناقشات الماضي تكون بين مشكلتي مع كاستاليا ومعي أنا أكثر مما تكون بينك وبيني ، فلا محل للأسف على العطلة التي أتيت أقضيها في كاستاليا ولابأس أن يفشل البرنامج ويفشل كل شيء آخر .

أما أول اثنين من زملائي القدامى صادفتهم في طريقي ، فكانا لطيفين ،

ربتا على كتفي وسألاني أسئلة ساذجة عن الحياة الأسطورية في الدنيا التي أعيش فيها . أما الآخرون فلم يكونوا في بساطة السابقين ، كانوا من قرية اللاعبين ومن شبيبة الصفوة فلم يسألوا أسئلة ساذجة ، بل حيوني ـ عندما كنت التقي بهم في أمكنة قداستك ولا يجدون وسيلة لتجنبي ـ بأدب فيه تكلف شديد ، أو تلطف فيه كبر ، وأسرفوا في ابراز انهماكهم بأشياء هامة موصدة بالنسبة لي ، وقلة وقتهم ، وقلة فضولهم ، وقلة تعاطفهم ورغبتهم في تجديد صداقة قديمة . فلم أفرض نفسي ، وتركتهم وشأنهم في هدوئهم الأوليمبي المرح الساخر الكاستالي . ونظرت اليهم في انهماكهم المرح نظرة السجين من خلال القضبان ، أو نظر الفقراء الجائعين المظلومين الى الارستقراطيين الأغنياء ، هكذا نظرت الى ذوي الصفاء والجمال والثقافة والتربية والدعة والوجوه والأيدي الناعمة .

ثم ظهرت أنت يا يوزف ، فانتفضت في نفسي فرحة وأمل جديدان ، عندما أبصرتك . كنت تعبر الفناء فعرفتك من ظهرك من مشيتك وناديتك باسمك ، وقلت في نفسي ، أخيرا أرى انسانا ، أرى صديقا ، أو ربما معارضا ، ولكنه شخص يستطيع الانسان أن يتحدث معه ، كاستالي قح ، ولكن كاستاليته لم تتجمد وتصبح قناعا ودرعا ، انه انسان ، انه شخص يفهم . ولا بد أنك لاحظت مدى فرحي ومدى ما كنت أنتظر منك ، والحق انك لاقيتني بأرفع أدب . كنت لاتزال تذكرني ، وكنت لاأزال أعني في نظرك شيئا ، وكان في عودتك الى رؤية وجهي سرور لك . وهكذا لم يقتصر الأمر على التحية القصيرة الفرحة في الفناء ، بل دعوتني ومنحتني أمسية من وقتك ، ضحيت من أجلي بأمسية . ولكن أية أمسية كانت تلك الأمسية ، يا عزيزي كنشت! لقد عذبنا أنفسنا في اجتهادنا الظهور بمظهر لائق أحدنا أمام الآخر وفي اجتهادنا التصرف بأدب بل وبزمالة ، وكم صعب علينا جر أرجل الحديث المشلول من موضوع الى آخر! لقد كان الآخرون فاترين معي ، لكن حالي

معك كان أسوأ : كل هذا الجهد الجهيد المجرد عن الفائدة لاحياء صداقة كانت ، أحدث بي ألما أكثر من ألمي السابق بكثير . وكان أن وضعت تلك الأمسية نهاية نهائية لأوهامي ، واتضح لي بقوة انني لست زميلا ولست مساويا في السعي ولست كاستاليا ولست انسانا ذا مكانة ، وأنني فضولي ساذج مغفل ، وأجنبي جاهل ، وساءني الى أقصى حد اتضاح الأمر لي على هذا النحو الصحيح المهذب الجميل الذي أخفى خيبة الأمل والعجلة . فيا ليتك أنبتني ولمتني وقلت لي بلسان الاتهام : «ماذا أصبحت يا صديقي ؟ وكيف تدهورت الى هذه الدرجة ؟» ، اذن لسعدت ولانكشف عني غطائي . ولكن شيئا من هذا لم يحدث . وأحسست أن تبعيتي لكاستاليا وحبي لكم ودراساتي في لعبة الكريات الزجاجية وزمالتنا كلها أشياء لا تسمن ولا تغني من جوع . لقد تقبل المعيد كنشت زيارة المضايقة في فالدتسل وتعذب أمسية بطولها معي وتحمل الملل والسأم ثم ودعني أحسن وداع » .

وتوقف ديزنيوري عن الكلام وهو يكافح انفعاله ويرفع بصره ووجهه المعذب الى الماجستر . وكان الماجستر يجلس مستغرقا في المتابعة مصغيا في انتباه ، ولم ينفعل أقل انفعال ، بل نظر الى صديقه القديم نظرة فيها ابتسامة وتعاطف رقيق . ولما لم يستأنف الصديق حديثه ، ركز كنشت نظرته عليه ، وقد امتلأ خيرا وعبر عن الرضاء بل السرور ، مما جعل الصديق يعبس لحظة .

ثم صاح بلينيو بشدة ، لكن دون غضب : «أتضحك ؟ أتضحك ؟ هل يلوح لك كل شيء على ما يرام ؟» .

فابتسم كنشت قائلا : «لا بد أن أقول انك صورت ما حدث تصويرا ممتازا ، تصويرا ممتازا جدا ، فقد حدث ما حدث على نحو ما صورت بالضبط ، بل انني لأكاد أقول ان البقية التي بقيت في صوتك من الأسف والاتهام كانت ضرورية لتصوير الأمر ، وتمثيله أمام عيني كما كان بالضبط .

وعلى الرغم من أنك للأسف مازلت تنظر اليه بشيء من عيني الماضي وتجد في نفسك ألم جرح تنسبه اليه ، فانك حكيت قصتك بموضوعية وصواب ، حكيت قصة شابين يقفان في موقف أليم يضطران كلاهما الى تحويره ، أحدهما ، وهو أنت ، ارتكب خطأ يتمثل في اخفاء ألمه الحقيقي الخطير وراء الموقف ، ووراء مظهر عادي ، وكان الأحرى به أن يميط الثام . والظاهر ، الى حد ما ، أنك تنسب فشل اللقاء الي أكثر مما تنسبه الى نفسك ، وقد كان في يدك وحدك تغيير الموقف . فهل فاتك ذلك ؟ وانما ينبغي علي أن أقول على أية حال انك أحسنت تصوير الموقف . فقد أحسست الآن مرة ثانية بكل ما انتابني من كآبة وحيرة في ساعات ذلك المساء العجيبة ، واعتقدت وأنا أسمعك أن علي أن أجتهد في أن أسلك مسلكا ما وأحسست بالخجل لنا جميعا . حقا ، لقد أصبت في قصتك اصابة دقيقة . وانها لمتعة أن يسمع المرء حكاية تحكى على هذا النحو » .

ثم عاد بلينيو الى الكلام وقد أخذته الدهشة واختلط في صوته الأسى والريبة : « لابأس أن يجد أحدنا متعة في قصتي . أما أنا ، فلم أعرف في هذا الأمر متعة قط ، هذا ما لا بد أن تعرفه » .

فقال كنشت : « أما الآن ، فأنت ترى بلا شك أن في استطاعتنا أن ننظر بمرح الى تلك القصة التي لم تكن بالنسبة لنا قصة فخار ؟ يمكننا أن نضحك منها » .

« تقول نضحك ؟ لماذا ؟ » .

« لأن قصة الكاستالي السابق بلينيو الذي سعى للعبة الكريات الزجاجية ولاعتراف الزملاء في ذلك الوقت به ، قصة انتهت وقضي أمرها ، كذلك قصة المعيد المؤدب كنشت الذي لم يستطع أن يخفي حيرته أمام بلينيو الذي نزل له من السماء رغم ما تكلف من أساليب الأدب الكاستالية ، وبقيت حيرته بعد مرور السنين تعرض له كصورة في المرآة . دعني أقول لك مرة ثانية ، انك أوتيت

ذاكرة قوية ، يا بلينيو ، وقد أحسنت الرواية ، وما كنت أستطيع مثل ذلك مهما اجتهدت . ومن حظنا أن الحكاية انتهت وأننا نستطيع أن نضحك منها » .

وأخذت الحيرة ديزنيوري . حقيقة انه لاحظ مرح الماجستر واعتبره شيئا طيبا وديا ليس به شيء من سخرية ، ولاحظ أن هذا المرح يخفي وراءه جدا عظيما ، لكنه كان أثناء انهماكه في روايته قد أحس بمرارة تلك الحادثة احساسا اليما واتخذت روايته صفة الاعتراف ، ولم يكن في مقدوره أن يغير فجأة نغمة حديثه .

فقال مترددا وان تغيرت نبرته بعض التغيير : « لعلك تنسى أن ما قصصته لا يعني بالنسبة اليك ما يعنيه بالنسبة الي . فهو يعني بالنسبة اليك على أكثر تقدير شيئا محرجا ، أما بالنسبة الي فيعني هزيمة وفشلا ، ويعني أيضا بداية تغيرات هامة في حياتي . فلما برحت فالدتسل ، بعد نهاية البرنامج بقليل ، قررت ألا أعود الى هنا ، وأوشكت أن أكره كاستاليا وأكرهكم جميعا . فقد يبدو ما بي من وهم ، ورأيت أنني لست واحدا منكم ، وأنني لم أكن في القديم واحدا منكم تماماً ، هكذا سولت لي نفسي ، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من التحول الى خارج عليكم ، والى عدو لدود لكم » .

ونظر الصديق اليه نظرة نافذة مرحة في وقت معا .

ثم قال : « حقيقة! وسوف تحكي على كل هذا في المستقبل ، وهذا هو ما آمله . أما اليوم فيتلخص وضعنا على ما يبدو لي في الآتي : كنا في صبانا المبكر صديقين ثم انفصلنا وسار كل في طريقه الذي يختلف عن طريق صاحبه . ثم التقينا بعد ذلك في برنامج العطلة الفاشل ، وكنت آنئذ قد أصبحت على نحو تام أو غير تام رجلا من رجال الدنيا ، أما أنا فكنت قد أصبحت رجلا من رجال فالدتسل ذوي الزهو والكلف بالشكليات الكاستالية ، وتذكرنا اليوم هذا اللقاء المخجل المؤسف . اليوم رأى أحدنا صاحبه واسترجعنا حيراتنا القديمة واحتملنا التطلع اليها وأصبح في مقدورنا

أن نضحك منها ، لأن كل شيء تغير اليوم وأصبح يختلف اختلافا بينا عن حاله فيما مضى . ولست أريد أن أخفي عليك أن الانطباع الذي أحدثته في ذلك الوقت سبب لي الحيرة ، فقد كان انطباعا سلبيا غير لطيف على الاطلاق ، فلم أعرف طريقة لمعاملتك تمثلت لي على نحو مذهل مثير غير متوقع ، رأيتك فجأة غليظا ، دنيويا . وكنت في ذلك الوقت كاستاليا شابا لا علم له بالدنيا ولا رغبة عنده في معرفتها ، فرأيتك شابا غريبا لا أعرف السبب الذي دعاه ليلتمسنا ويشترك في برنامج من برامجنا ، لأنك كنت قد فقدت كل صفات تلميذ الصفوة ولم تحتفظ منها بشيء . فأثرت أعصابي وأثرت أنا أعصابك . ولا بد أنني كنت في نظرك فالدتسليا متعاليا لا ميزة له ولا فضل ، ويحاول أن يباعد بينه وبين غير الكاستاليين الذين يهتمون باللعبة عن هواية فحسب . أما أنت فكنت في نظري شيئا يشبه الهمجي أو نصف المثقف يتجه بمطالب سخيفة عاطفية لا سبب لها الى اهتمامي وصداقتي . وهكذا تمنع أحدنا على الآخر ، وأوشك أحدنا أن يكره الآخر . ولم يكن في وسعنا الا أن ننصرف أحدنا عن الآخر فلم يكن لدى أينا شيء يعطيه لصاحبه ولم يكن أينا في موقف يستطيع أن يبرره لصاحبه .

أما اليوم ، يا بلينيو ، فقد سمحنا لأنفسنا بتجديد الذكرى التي دفنت بالخجل وعلينا أن نضحك من هذا المنظر ومن أنفسنا ، فقد أتينا اليوم معا خلقا آخر تعتمل فينا نوايا وامكانيات مختلفة تمام الاختلاف ، ولا تختلج أنفسنا بثورة ولا باحساسات مكبوتة من الغيرة أو الكراهية أو الزهو ، فقد أصبحنا منذ زمن رجالا مكتملين » .

وابتسم ديزنيوري كمن انزاح عنه اصر أنقض ظهره . ثم قال : « لكن هل نحن على يقين من ذلك ؟ فقد كانت النية الطيبة تحدونا في ذلك الوقت كذلك » .

فضحك كنشت وقال : « هذا ما أراه . والحق أننا اجتهدنا بنيتنا الطيبة

فوق طاقتنا وعذبنا أنفسنا آنئذ الى الدرجة التي لم نقدر على احتمالها . لم نستطع في ذلك الوقت بالفطرة ، أن يتحمل أحدنا الآخر ، ولاح الواحد منا لصاحبه غريبا ثقيلا عجيبا منفرا ، واضطرنا وهم الواجب ووهم الصلة الى أن نلعب كوميديا عصيبة استمرت أمسية بطولها . هذا ما اتضح لي بعد زيارتك بقليل . واتضح لي كذلك أن صداقتنا القديمة وعداءنا القديم لم يجدا منا ما يكبح جماحهما . فبدلا من أن ندعهما يلقيان حتفهما ، نبشنا عنهما القبر ، وأخرجناهما وحاولنا أن نجد سبيلا لاستئنافهما . لقد أحسسنا أننا مدينان لهما ولم نعرف بم ندفع دينهما . أليس كذلك ؟ » .

فقال بلينيو بعد تفكير : «انني اعتقد أنك اليوم أيضا تسرف في الأدب . انك تقول نحن ، ولم يكن هذا السعي الذي لم يوفق الى تلاق ، من جانبنا نحن الاثنين . كان البحث والحب من جانبي ، وكانت الخيبة والآلام من جانبي أنا وحدي . ودعني أسألك ، ماذا تغير في حياتك بعد هذا اللقاء ؟ لا شيء! كان هذا اللقاء بالنسبة الي جرحا عميقا أليما ، لهذا فلست أوافق على الضحك الذي تريد به انهاءه» .

فطيب كنشت خاطره قائلا : «سامحني ، فقد تعجلت . ولكني أرجو أن أصل بك بمضي الوقت الى الموافقة على الضحك الذي اقترحه . حقيقة أنك أصبت في ذلك الوقت بجرح ، ولم أكن أنا الذي أصبتك به كما رأيت في ذلك الوقت ، وكما يبدو أنك ترى حتى الآن ، وانما حدث بك الجرح من الثغرة القائمة بينك وبين كاستاليا ، ومن الغربة التي بدا علينا أننا تغلبنا عليها أيام صداقتنا في المدرسة ، واذا الثغرة ماتزال موجودة واذا بها تتسع وتعمق فجأة . فاذا كنت تتهمني شخصيا فأرجوك أن تلقي علي الاتهام بلا حرج » .

«لم يكن الأمر اتهاما قط ، ولكنه كان شكوى . وأنت لم تسمع الشكوى في ذلك الوقت ولست تريد اليوم ، على ما يبدو ، أن تسمعها . في ذلك الوقت أجبت عليها بالابتسامة والهدوء ، وهأنتذا اليوم تجيب نفس الاجابة» .

ورغم أنه أحس في نظرة الاستاذ صداقة ونية طيبة خالصة فانه لم يستطع أن يمنع نفسه من التأكيد على رأيه في تصرفه معه . وكان يحس أن بين جنباته حمل أليم لا بد أن يزيحه مرة واحدة الآن .

ولم يغير كنشت تعبير قسمات وجهه . وفكر لحظة ثم قال في حذر : «لقد بدأت الآن أفهمك الفهم الصحيح يا صديقي . ربما كنت على صواب ، وعلينا أن نتكلم في هذا . انما أريد بادئ ذي بدء أن أذكرك بأنه لا يحق لك أن تنتظر مني أن أعالج ما تسميه شكوى الا بعد أن تكون قد أفصحت عنها بالفعل . والذي حدث في الأمسية التي تعرف ، أنك لم تفصح في معرض الحديث عن شكوى ، وانما فعلت مثلما فعلت أنا ، وظهرت بمظهر الشجاع ، الجريء ، الجامد ما أمكنك ، ومثلت أمامي دور البريء من كل عيب الذي لا يشكو من شيء . ولكنك كنت في سرك ، كما سمعت الآن ، تنتظر مني أن أسمع ما أسررت من شكوى وأتبين وجهك الحقيقي وراء القناع الذي اتخذته فوقه . والحق أنني لاحظت في ذلك الوقت شيئا من هذا ، ولكن ما لاحظته لم يكن كل شيء . وكيف كنت أستطيع دون جرح لكبريائك ، أن أجعلك تفهم أنني أحزن لك وأعطف عليك ؟ وماذا كان يجدي أن أمد اليك يدي وقد كانت خاوية ولم يكن لدي ما أعطيك اياه ، لم يكن لدي مشورة ولا عزاء ولا صداقة ، وكانت طرقنا مختلفة متباينة كل الاختلاف والتباين ؟ وقد أغاظني وأزعجني ما أخفيته وراء مظهرك العادي من ضر وبؤس ، وأعترف أنني أحسست بالنفور لأن ما بك كان يلتمس العطف والسلوى ، ولم يكن تصرفك الظاهري يقابل ذلك ويوازيه . كان في أمرك شيء من الفضولية الصبيانية لاح لي وبرد احساساتي . في تلك الأمسية التمست زمالتي وأردت أن تعتبر كاستاليا ولاعبا من لاعبي الكريات الزجاجية ، ومع ذلك ظهرت بمظهر من فقد السيطرة على نفسه ، وأغرب في فعله ، وضاع بسبب أحاسيسه الأنانية! هكذا كان حكمي التقريبي في ذلك الوقت . لأنني تبينت أنك فقدت ما كان لديك من كاستالية ولم يعد

منها شيء قط تقريبا بل ونسيت على ما ظهر لي القواعد الأساسية . ولكن هذا لم يكن من شأني . ثم لماذا أتيت الى فالدتسل وأردت أن تحيينا معتبرا ايانا زملاء ؟ كان هذا ، كما قلت ، مبعث غضبي ونفوري ، ولقد أصبت في ذلك الوقت تماما عندما فسرت أدبي المتكلف بالاعراض . نعم ، لقد أعرضت عنك اعراضا غريزيا ، لا لأنك من أبناء الدنيا ، وانما لأنك طالبت بأن تعتبر كاستاليا . فعندما ظهرت هنا بعد غيبة سنوات طويلة مرة أخرى لم تظهر عليك سمة من ذلك قط فكنت تبدو كواحد من أبناء الدنيا وكنت تتكلم كواحد من الخارج ، وكان على وجهك تعبير عن الحزن والكآبة والتعاسة أحدث في انطباعا بالغرابة . لكن كل شيء فيك أعجبني ، تصرفك وكلماتك بل وحزنك ، فرضيت بك أعجبني ولاح لي جميلا مناسبا لك ، خليقا بك ، ولم أجد فيه ما يثيرني ، فقبلتك ، ووافقت عليه دونما معارضة في داخلي ولم أكن هذه المرة بحاجة الى قدر مسرف من الأدب والثبات ، فأقبلت عليك ورحبت بك صديقا واجتهدت في أن أظهرك على حبي وعطفي . كانت الحال هذه المرة عكس الحال في المرة السابقة ، فقد كنت أنا الذي سعيت اليك واجتهدت في الحصول عليك ، بينما تحفظت أنت تحفظا شديدا ، ونظرت أنا في سكون الى ظهورك في اقليمنا واهتمامك بمصائره كنوع من الاعتراف منك ؛ بتبعيتك له والاخلاص له . ثم قبلت دعوتي لك والتماسي اياك ووصلنا الى درجة فتح كل منا فيها قلبه لصاحبه ، وحق لي أن أتوقع أن تتجدد صداقتنا القديمة .

لقد قلت لتوك : ان ذلك اللقاء القديم كان شيئا أليما بالنسبة اليك ، وشيئا لا معنى له بالنسبة الي . ولسنا نريد الدخول في نقاش حول هذا الموضوع فربما كنت على حق . أما لقاؤنا الحالي يا صديقي فليس لقاء لا معنى له ، انه لقاء عظيم المعنى ، لقاء له من الأهمية أكثر مما يمكن أن أقول اليوم وأكثر مما يمكنك أن تتوقع . ان لقاء اليوم يعني باختصار أكثر من عودة صديق ضاع ، وما يتبع ذلك من بعث زمن مضى الى قوة جديدة وتحول جديد . انه

يعني في نظري نداء ، ولقاء ، انه طريق ينفتح أمامي الى العالم ، انه يضعني من جديد أمام المشكلة القديمة مشكلة الجمع بينكم وبيننا ، انه لقاء أتى في وقته . فالنداء لا يجدني اليوم أصم ، بل يجدني أكثر يقظة من أي وقت مضى ، لأنه لا يفاجئني ولا يلوح لي كشيء غريب آت من الخارج ، يمكن أن يفتح له الانسان نفسه أو يقفلها ، انه يأتي مني أنا نفسي كرد على حاجة أصبحت شديدة القوة والإلحاح واجابة على أزمة وحنين في داخلي . ولكن دعنا نؤجل هذا الكلام الى مرة أخرى فقد تأخر الوقت ، ونحن نحتاج للراحة .

لقد تكلمت منذ قليل عن مرحي وعن حزنك ورأيت ، على نحو ما لاح لي أنني لم أحق ما تسميه « شكواك » ولن أحقه اليوم لأنني رددت على هذه الشكوى بالابتسام . وما يمنع أن يستمع الانسان الى شكوى وهو يمرح ؟ ولهذا يتحتم الرد على الحزن بالحزن لا بالابتسام ؟ وأنا اعتقد أن حضورك بحزنك وغمك الي في كاستاليا يسمح لي بأن استنتج أنك ربما تهتم اهتماما خاصا بمرحنا . وأنا عندما لا أشترك معك في حزنك وهمك وأدعهما ينتقلان الي بالعدوى ، لا أعني بالضرورة انكار حزنك وغمك وعدم حملهما محمل الجد . انني اعترف بالسحنة التي تتخذها والتي فرضتها عليك الحياة والقدر ، فهي تناسبك وهي لك وأنا أستلطفها وأحترمها وان كنت أرجو لها أن تتغير . أما من أين أتت ؟ فهذا شيء لا أستطيع معرفته الا تخمينا ، ولسوف تحكي لي عنه في المستقبل أو تكتمه عني ، حسبما يتراءى لك . وما أرى الا أنك تحيا حياة عصيبة . لكن لماذا تعتقد أنني لن أستطيع أو لن أريد أن أنصفك وأحق ما بك من غم ؟ .

وهنا علت الكآبة وجه ديزنيوري مرة ثانية ، ثم قال في استسلام : « كثيرا ما يطوف بي خاطر ويصور لي أن أمرنا لا يقتصر على اختلاف طريقتينا في التعبير واختلاف لغتينا اختلافا يجعل من غير الممكن الترجمة من أيهما الى الأخرى الا لماما ، بل يتجاوزه الى أننا شخصيتان مختلفتان اختلافا جوهريا لا سبيل الى أن يكون بينهما تفاهم أبدا . والشك يساورني فيمن منا الانسان

الحقيقي المكتمل القيمة أنتم أم نحن ، بل وفي امكانية أن يكون أينا ذلك الانسان . وقد مرت علي فترات كنت فيها أنظر اليكم معشر أتباع الطائفة ولاعبي الكريات الزجاجية نظرة التبجيل والشعور بالدونية والحسد ، وأرى فيكم آلهة أو رجالا فوقانيين يعيشون في مرح دائم ولعب خالد ومتعة بكيانهم الخاص ، ولا يصل اليهم ضر أو حزن . ومرت علي فترات أخرى كنت تارة أحسدكم وتارة أعطف عليكم ، تارة تلوحون لي مقيتين ، مخصيين ، مصطنعين طفولة خالدة ، تعيشون في عالم لعب وروضة منظم محوط بسياج نظيف بطريقة طفلية سخيفة مجردة عن العاطفة ، ينظف كل أنفه بعناية وينكر كل ما يعتمل فيه من عواطف وأفكار غير لائقة ، ويلعب كل واحد طول حياته ألعابا لطيفة غير خطرة ، غير دامية ، ويضبط كل نبضة مؤرقة من نبضات الحياة ، وكل احساس عظيم ، وكل عاطفة صادقة ، وكل فورة في الفؤاد على الفور ، ويحولها ويحيدها بالعلاج التأملي . انه عالم مصطنع معقم مفصل على مزاج المعلمين ، عالم نصفي ظاهري ، ذلك الذي تعيشون فيه بجبن ، عالم بلا رذائل ، بلا عواطف ، بلا جوع ، بلا عصارة ، بلا ملح ، عالم بلا عائلة ، بلا أمهات ، بلا أطفال ، وأكاد أقول بلا نساء ، الحياة الغريزية فيه ملجمة بلجام التأمل ، والأشياء الخطرة الجسورة ذات المسؤولية الثقيلة مثل الاقتصاد ورعاية العدل ، والسياسة ، مبعدة عنه منذ أجيال ومحالة الى آخرين ، وأهله يعيشون فيه عيشة جبانة لينة ، لا يحملون هم غذاء ، ولا يحملون عبء واجبات شديدة ، يعيشون عيشة ذكور النحل ، ويتغلبون على الملل بالانهماك في تخصصات علمائية ، فيعدون المقاطع ويحصون الحروف ، ويعزفون الموسيقى ويلعبون لعبة الكريات الزجاجية ، في الوقت الذي يعيش فيه الناس المضطربون المساكين في الخارج ، في قذارة الدنيا ، الحياة الحقيقية ، ويقومون بالعمل الحقيقي » .

واستمع كنشت اليه بانتباه ودي لا يكل ولا يتعب .

ثم قال هادئا : « كم تذكرني كلماتك يا صديقي العزيز بأيام تلمذتنا

وبحبك النقد وحرصك على الهجوم! ولكني لا ألعب اليوم الدور الذي كنت ألعبه قديما . لم تعد مهمتي اليوم هي الدفاع عن الطائفة والاقليم ضد هجماتك ، وانه لمما يفرحني أن هذه المهمة التي بذلت فيها جهدا فوق طاقتي قديما ، لا تعنيني الآن في قليل أو كثير . ثم انه من العسير أن يجد الانسان شيئا يرد به على مثل هذه الهجمات الرائعة التي امتطيت الساعة صهوة احداها . فأنت تتكلم مثلا عن أناس في الخارج بالبلاد « يعيشون الحياة الحقيقية ويقومون بالعمل الحقيقي » وهذا كلام له نبرة مطلقة جميلة مخلصة ، له نبرة توشك أن تكون نبرة بديهية من البديهيات ، فاذا أراد الانسان أن يفنده ، فعليه أن يسلك مسلك الغلظة وأن يذكر صاحبه أن « عمله الحقيقي » يتلخص جزئيا في الاشتراك في لجنة هدفها خير كاستاليا ورعايتها . ولكن دعنا الآن من المزاح . انني أحس من كلماتك ومن لهجتك أن قلبك ممتلئ بالكراهية لنا ، وفي نفس الوقت ممتلئ بالحب اليائس لنا ، ممتلئ حسدا أو حنينا ، نحن في نظرك جبناء ، ذكور نحل ، صبية يلعبون في روضة أطفال ، وقد رأيت فينا في أوقات ما آلهة ذات مرح خالد . وهناك شيء أعتقد أن لي أن أستنتجه من كلماتك : وهو أن كاستاليا ليست المسؤولة عن حزنك وبؤسك أو ما بك ، وأن السبب لا بد له أصل آخر . فلو كان الذنب ذنب أهل كاستاليا لما كانت انتقاداتك وتوبيخاتك اليوم هي هي انتقاداتك وتوبيخاتك التي وجهت الينا أيام كنت صبيا ، فيما جرى بيننا من مناقشات . وسوف تحكي في أحاديث قادمة عن ذلك ولست أشك في أننا سنجد سبيلا لجعلك سعيدا مرحا ، أو على الأقل لنجعل علاقتك بكاستاليا أكثر انطلاقا ولطفا . وعلى قدر ما أرى الآن ، فأنت تعلق بنا وبكاستاليا وبالتالي بشبابك وأيام تلمذتك علاقة خاطئة مغلولة منفعلة ، لقد فصمت نفسك الى ناحية كاستاليا وناحية دنيوية وعذبت نفسك عذابا شديدا من أجل أمور لا تقع مسؤوليتها عليك . وربما أخذت أمورا أخرى مأخذا يسيرا ، رغم أن مسؤوليتها تقع عليك . وأنا اعتقد أنك لم تقم منذ وقت طويل بتمرينات تأمل . أليس كذلك ؟ » .

فضحك ديزنيوري متألما وقال : «يا لفطنتك يا أستاذ! تقول منذ وقت طويل ؟ لقد مضت أعوام طوال على انصرافي عن سحر التأمل . وانك لتهتم بي فجأة! أما في الوقت الذي قابلتني فيه هنا في فالدتسل أثناء برنامج العطلة بأدب جم واحتقار شديد ورفضت التماسي زمالتكم رفضا متعاليا ، فقد عدت من هنا أحمل قرارا بالقضاء على ما في من كاستاليا قضاء مبرما . فصرفت النظر من ذلك الحين عن لعبة الكريات الزجاجية ، وانصرفت عن التأمل ، وكرهت الموسيقى زمنا طويلا . واستعضت عن ذلك برفاق جدد أعطوني دروسا في ملذات الدنيا . فشربنا وفجرنا وجربنا ما وصل الى يدنا من مخدرات ، وبصقنا على كل ما فيه فضيلة وجلال ومثالية وحقرناه . وبالطبع لم يستمر ذلك الحال على هذه الفظاعة طويلا ، ولكنه استمر فترة كانت كافية لتقتلع مني ما بقي عندي من قشور الكاستالية نهائيا . ومرت أعوام تبينت بعدها في بعض الأحيان اسرافي في أمري وحاجتي الى شيء من التأمل ، وكنت من الكبر بحيث لم أستطع العودة الى البداية» .

فسأل كنشت بصوت خفيض : «الكبر ؟» .

«نعم ، الكبر! فقد كنت في تلك الأثناء قد غطست في الدنيا وأصبحت واحدا من أهلها . لم أكن أريد الا أن أصبح واحدا منكم ، ولم أكن أريد أن أتخذ حياة غير حياتكم ، حياتكم العاطفية ، الفجة ، الفظيعة ، السائبة المتأرجحة بين السعادة والخوف . لذلك أنكرت على نفسي أن ألجأ الى وسائلكم لبلوغ بعض التخفيف وتحصيل مركز متميز ؟» .

ونظر الماجستر اليه نظرة حادة وقال له : «واستطعت أن تحتمل هذا سنين طويلة ؟ ألم تستعمل وسائل أخرى لتخرج من ورطتك ؟» .

فاعترف بلينيو : «بلى ، فعلت وما زلت أفعل الى يومنا هذا . هناك أوقات تمر علي أعمد فيها الى احتساء الخمر ، وكثيرا ما استعمل مواد مخدرة لأستطيع النوم» .

فأغمض كنشت فجأة عينيه لحظة ، كأن تعبا مفاجئا ألم به ، ثم فتحهما وثبت بصره من جديد على صاحبه . كان ينظر اليه صامتا ويحملق في وجهه فاحصاً جادا ، ثم تحولت نظرته الى الرقة والود والصفاء . وقد سجل ديزنيوري فيما سجله أنه لم يلق في حياته حتى ذلك الحين نظرة من عين بشر تجمع في وقت واحد بين التفحص والظرف والبراءة والنقد والود والعلم الشامل . واعترف ديزنيوري بأن هذه النظرة أحدثت به في أول الأمر الاضطراب والاثارة ، ثم هدأت روعه وتغلبت عليه بقوة لطيفة . ولكنه حاول أن يتمنع .

فقال : «قلت انك تعرف وسائل تبلغ بي السعادة والمرح . ولكنك لم تسأل عما اذا كنت أرغب في ذلك» .

فضحك يوزف كنشت وقال : «اننا اذا تمكنا من أن نضفي على انسان السعادة والمرح فعلينا أن نفعل ذلك على أية حال ، سواء رجانا أم لم يرجنا . وكيف لا تسعى الى ذلك وترغبه ؟ انك هنا من أجل هذا ، ومن أجل هذا يجلس أحدنا أمام الآخر ، ومن أجل هذا عدت الينا . انك تكره كاستاليا وتحتقرها ، وانك تفخر بدنيويتك وبحزنك فخرا شديدا ، حتى انك لا تريد أن تركب العقل والتأمل الى تخفيف ما بك ـ ومع ذلك فبك حنين غامض ، عنيف ، نافر ، الينا والى مرحنا ، حنين قاد خطواتك السنين الطوال حتى عدت الينا لتجرب معنا مرة أخرى . وأنا أقول لك انك أتيت هذه المرة في الوقت المناسب ، في الوقت الذي اعتمل في نفسي فيه حنين الى نداء من دنياكم ، والى باب ينفتح لي اليها . وسأحدثك عن ذلك في مرة قادمة! لقد أسررت الي بالكثير يا صديقي ، وأنا أشكرك على ذلك ، وسوف ترى أن لدي أشياء أريد أن أعترف لك بها . لقد تأخر الوقت وأنت مسافر في الصباح الباكر ، وأنا ينتظرني يوم عمل في الديوان ، فعلينا أن نعجل بالذهاب الى مضجعنا . ولا أريد منك الآن الا أن تمنحني ربع ساعة فقط» .

ونهض واقفا وسار الى الشباك ونظر الى أعلى ، حيث بدت خطوط

سماء ليلية عميقة صافية مليئة بالنجوم في كل مكان بين السحب السائرة . وظل كنشت عند الشباك ولم يعد من فوره ، فنهض الضيف وذهب اليه . كان الماجستر واقفا ينظر الى أعلى ويتمتع في أنفاس ايقاعية بهواء الليلة الخريفية . وأشار بيده الى السماء .

وقال : «انظر الى منظر السحب والخطوط السماوية . لأول وهلة يميل الانسان الى القول بأن العمق هناك حيث تشتد الظلمة ، ثم مايلبث أن يتبين أن تلك الظلمة والهيولة هي السحب فقط ، أما الفضاء الكوني بعمقه فيبدأ عند الحواف وعند خلجان هذه الجبال من السحب ، ويهوي فيما لا نهاية له حيث النجوم التي هي بالنسبة للبشر أسمى رموز للوضوح والنظام . ان عمق الكون وعمق أسراره ليس هناك حيث تبدو السحب والحلكة ، العمق في الصفاء والوضوح . واسمح لي أن أرجوك أن تنظر قبل ذهابك الى الفراش فترة في هذه الخلجان والمضايق ذات النجوم العديدة ولا تطرد الأفكار أو الأحلام التي تخطر لك» .

وتحرك احساس نابض عجيب ، لا هو بالألم ولا هو بالسعادة ، في قلب بلينيو وتذكر أنه تلقى قبل وقت طويل جدا في المرحلة الجميلة الصافية المبكرة من حياته كتلميذ في فالدتسل الكلمات التمهيدية لأول تمرينات التأمل .

ثم بدأ صوت أستاذ لعبة الكريات الزجاجية المنخفض يقول : «واسمح لي بكلمة أخرى . أريد أن أقول لك شيئا عن الصفاء والمرح ، صفاء النجوم ، وصفاء الفكر ، وصفاء كاستاليا ومرحها . انك تنفر من الصفاء والمرح ، ربما لأنك اضطررت الى سلوك سبيل الحزن فأصبح كل صفاء وكل مرح ، وخاصة مرحنا الكاستالي في نظرك شيئا ضحلا صبيانيا ، فجا ، شيئا جبانا ، هربا من فظائع الواقع ومخاوفه الى عالم واضح منظم من الشكليات والقوانين المجردة ، من المجردات والمهذبات المجردة . ولكن يا صديقي الحزين ، اذا كان هناك الهرب الذي تحدثت عنه ، واذا كان هناك كاستاليون جبناء خوافون يلعبون

بالقوانين المجردة وحدها ، واذا كان عددهم كبيرا يمثل الغالبية ـ فان هذا لا يجرد الصفاء الحقيقي ، صفاء السماء وصفاء الفكر من قيمته وروعته . وهناك من الناس من سهل رضاؤهم وكان صفاؤهم ومرحهم في نظرنا قشرة خارجية ، وهناك على عكسهم آخرون ، أناس وأجيال من الناس ، ليس صفاؤهم ومرحهم لعبا أو قشرة سطحية ، بل جد وعمق . ولقد عرفت شخصا ، هو أستاذ الموسيقى القديم عندنا ، ذلك الرجل الذي رأيته أنت كذلك قديما من حين لآخر في فالدتسل . لقد ملك هذا الرجل في سني حياته الأخيرة فضيلة الصفاء والمرح الى درجة كان الصفاء والمرح معها يشع منه كما يشع النور من الشمس ، ويتحول الى نية للخير والى حب للحياة واعتدال في المزاج وايمان وثقة في جميع الناس الذين يحملون روعته محمل الجد ويفتحون أنفسهم لها ، واذا صفاؤه ومرحه ينتقل اليهم ويستمر في الاشعاع لديهم . ولقد نزل هذا النور علي ، وأعطاني قدرا من صفائه وروعة قلبه ، كذلك نزل على فيرومونته وعلى عدد من الناس . والوصول الى هذا الصفاء والمرح يمثل النسبة لي ولنفر غيري أرفع الأهداف وأكرمها . وانك لتجده لدى بعض آباء الطائفة في الادارة . هذا الصفاء والمرح ليس عبثا وزهوا ، انه أسمى معرفة ومحبة ، انه قبول كل واقع ، انه اليقظة على حافة كل هوة سحيقة ، انه شيء لا يضطرب ولا يزداد بالتقدم في السن والاقتراب من الموت الا شدة . انه سر الجمال والمادة الحقيقية لكل فن . فالشاعر الذي يمتدح روعة الحياة وفظاعتها في ايقاع أشعاره ، والموسيقار الذي يجعلها ترن كالحاضر الخالص ، انسان يأتي بالنور ويزيد البهجة والصفاء على الأرض ، حتى لو أخذ بيدنا في أول الأمر عبر الدموع والتوتر الأليم . وربما كان الشاعر الذي تسحرنا أشعاره رجلا وحيدا حزينا ، وربما كان الموسيقي حالما مكتئبا ولكن عمله رغم ذلك يتخذ قسطا من صفاء ومرح الآلهة والنجوم . ان ما يعطينا اياه ليس ظلمته وألمه وخوفه ، بل هو قطرة من النور الخالص ، ومن الصفاء والمرح الخالد . ومهما حاولت

الأمم واللغات سبر غور العالم وتعليله بأساطير ونظريات عن أصل الدنيا ، فان آخر وأعلى ما يمكنها التوصل اليه هو هذا الصفاء والمرح . أتذكر قدماء الهنود ، وما حكاه لنا عنهم مدرسنا في فالدتسل قديما : أمة التألم والتفكر والتكفير والزهد . أما آخر ثمار عظيمة أثمرها فكر هذه الأمة ، فقد كانت ثمارا وضاحة صافية مرحة ، كانت ابتسامة قاهري العالم ، وابتسامة بوذا شيئا مرحا ، وكانت شخصيات أساطيرها الخطيرة صافية مرحة . والعالم كما تصوره هذه الأساطير يبدأ في أوله ربانيا سعيدا متهللا جميلا كالربيع في عصر ذهبي . ثم تمرض الدنيا وتتدهور تدريجيا ، وتزداد غلظة وبؤسا حتى تستوي بعد عصور أربعة من التدهور لشيفا الضاحك الراقص فيدوسها ويحطمها تحطيما ـ لكن هذه ليست النهاية ، انها البداية الجديدة على يد فيشنو الحالم الذي يصنع عالما جديدا شابا جميلا براقا بيديه اللاعبتين . ان هذا لشيء عجيب : هذا الشعب القادر على الفهم والتألم قدرة لم يصل اليها غيره ، نظر بفزع وخجل الى لعبة تاريخ العالم الفظيعة ، والى عجلة الشهوة والألم الدائمة الدوران ، ورأى ضعف المخلوق وفهم شهوة الانسان وشيطانيته ، وفهم في الوقت ذاته حنينه العميق الى النقاء والانسجام ، ووجد لجمال الخليقة ومأساتها كلها هذه التشبيهات البديعة المتمثلة في عصور العالم ، وانحلال الخليقة ، وشيفا الهائل الذي يرقص في الدنيا المتهالكة ويحولها الى خراب ، فيشنو[1] المبتسم الذي يرقد ناعسا ويلعب فيخرج من أحلام الآلهة الذهبية عالما جديدا .

أما مرحنا الكاستالي الخاص فهو نوع تفرع أخيراً من هذا النوع الأصلي الكبير ، ولكنه مرح صحيح تام . والحق أن العلمانية لم تكن على الدوام وفي كل مكان مرحة رغم أنه كان ينبغي عليها أن تكون كذلك . والعلمانية عندنا هي قدسية الحقيقة وهي مرتبطة أوثق الارتباط بقدسية الجمال وبالرعاية الروحية التأملية ، فلا يمكن اذن أن تفقد المرح والصفاء كلية أبدا . أما لعبة

---

(١) schiwa, Vischnu

الكريات الزجاجية فتجمع في ذاتها المبادئ الثلاثة جميعا : العلم وتمجيد الجمال والتأمل ، لهذا كان من الضروري أن يكون لاعب الكريات الزجاجية الحق مشبعا بالصفاء والمرح ، مثل الثمرة الناضجة وتشبعها بالعصارة الحلوة ، وينبغي أن يضم لاعب الكريات الزجاجية في نفسه بادئ ذي بدء صفاء ومرح الموسيقي ، هذا الصفاء الذي ليس شيئا آخر سوى الشجاعة والتقدم والمرح الباسم ، والرقص وسط فظائع العالم ونيرانه ، والاحتفال بتقديم قربان من القرابين . وقد انشغلت بهذا النوع من الصفاء والمرح منذ كنت تلميذا فطالبا ، منذ كنت أخطو الخطوات الأولى الى الفهم ، ولن أتخلى عنه بعد الآن حتى ولا في التعاسة والألم .

لنذهب الآن الى مضاجعنا ، فغدا ستسافر في الصباح المبكر . وعد قريبا وقص علي المزيد من أمورك ، وأنا كذلك سأحكي لك ، وستعلم أنه حتى في فالدتسل ، وفي حياة ماجستر ، توجد تساؤلات وأنواع من خيبة الأمل ومن اليأس ومن الشيطانيات . أما الآن فلتذهب الى فراشك بأذن مليئة بالموسيقى . وان نظرة الى السماء ذات النجوم واستماعا الى الموسيقى قبل الذهاب الى الفراش ، خير من المنومات التي تتعاطاها كلها » . وجلس وعزف برقة وخفة جملة من صوناتة لبورسل كان الأب ياكوبوس يحبها حبا جما . وتساقطت الأنغام وسط السكون كقطرات نور ذهبي ، وكان العزف خفيضا لدرجة أن صوت غناء النافورة القديمة الجارية بالفناء كان ينساب بينها واضحا . وتلاقت أصوات الموسيقى اللطيفة وتداخلت رقيقة قاسية ، شحيحة وعذبة ، وتقدمت شجاعة صافية مرحة في رقصاتها الداخلية خلال عدم الزمان والفناء ، وسعت المكان وساعة الليلة برهة وجعلتهما على سعة العالم . ولما ودع كنشت ضيفه كان وجه الضيف قد تغير واستنار ، وكانت عيناه مغرورقتين بالدموع .

الفصل العاشر

اعدادات

نجح كنشت في تحطيم طبقة الثلج التي تراكمت على علاقته بديزنيوري ، وبدأ بين الاثنين اتصال حي وتبادل كان فيه انعاش لكليهما . ووافق ديزنيوري الذي عاش سنوات طويلة في الحزن المستكين على ما قاله كنشت في شأنه : كان ما به هو حنين الى الشفاء ، الى الوضوح ، الى المرح الكاستالي ، وكان ما به هذا هو الذي اجتذبه الى الاقليم التربوي مرة ثانية . وكان ديزنيوري يكثر من الحضور الى كاستاليا لأعمال اللجنة أو الديوان أو عندما لا تكون هناك أعمال في اللجنة والديوان ، وكان تيجولاريوس ينظر اليه نظرة الريب والحسد ولا يفتأ يراقبه ، وما مضى الا وقت قصير حتى كان الماجستر كنشت قد علم عن حياته كل ما كان يحتاج الى معرفته . لم تكن حياة ديزنيوري خارقة للعادة ولم تكن معقدة ، كما تصور كنشت بعد أقوال ديزنيوري الأولى... كان بلينيو ديزنيوري قد قاسى في شبابه ما علمنا من خيبة أمل وذلة أصابا كيانه المتحمس المتعطش الى العمل ، وبدلا من أن يتحول الى وسيط بين العالم وبين كاستاليا تحول الي منحرف معتزل مكتئب لم يوفق في الجمع بين عناصر أسرته وشخصيته الدنيوية والكاستالية في كل منسجم . ولكنه لم يكن فاشلا بمعنى الكلمة . فقد اتخذ في هزيمته وانصرافه رغم كل ما حدث وجها خاصا ومصيرا خاصا

أبقى عليهما . وبدت التربية في كاستاليا كما لو كانت قد أخفقت في حالته ، فلم تأته في أول الامر الا بالتصادمات وضروب خيبة الامل وانفرادية وانعزالية عميقة صعب عليه احتمالها . فلما وقع على طريق الانعزال وعدم التكيف المليء بالأشواك بدا عليه كأنه اضطر ليفعل الكثير حتى يبدو غريبا وحتى يضخم صعوباته . وكان وهو بعد طالب قد بدر الخلاف الشديد الذي لا وفاق بعده مع أسرته ومع أبيه خاصة . وكان أبوه من الساسة ، لا يعد من القادة الحقيقيين ، ولكنه كان شأن آل ديزنيوري جميعا ، يعتبر نفسه طوال حياته دعامة للسياسة المحافظة الموالية للحكومة وللحزب ، عدواً لكل التجديدات ، عدوا لمطالبة المهضومين بحقوقهم وأنصبتهم نافرا شكّاكا في كل من ليس لهم اسم ورتبة ، مخلصا يضحي من أجل النظام القديم ، ومن أجل كل ما يلوح له سليما مقدسا . وهكذا كان ، دون الاحساس بحاجات دينية ، صديقا للكنيسة ، وكان يقف موقف العداوة العنيدة ضد مساعي أجراء الأرض لتحسين حالهم رغم أنه لم يكن مجردا تماما من حب العدالة والنية الطيبة والاستعداد للخير والعون . وكان يبرر قسوته هذه بمنطقية صورية تعتمد على شعارات حزبه وعبارات برنامجه ، ولم يكن يقوده الى تعنته في الواقع اقتناع ولا تفهم ، بل كان يدفعه اليه اخلاص أعمى حيال أهل طبقته وتقاليد بيته ، وكانت شخصيته تتميز الى ذلك بشهامة وشرف وبالتقليل من شأن كل ما يبدو حديثا عصريا تقدميا .

هذا الرجل أحس بالخيبة والاستثارة والمرارة عندما ارتبط ابنه بلينيو وهو بعد طالب بحزب معارض تقدمي . فقد تكون في ذلك الوقت جناح يساري من الشباب في حزب بورجوازي حر قديم ، بقيادة فيراجوت[١] ، وهو نائب وخطيب ناشر ذو تأثير كبير مهول على الناس ، وصديق للشعب وبطل للحرية مبهور بنفسه متأثرا بذاته نوعا ما ، قام بالقاء محاضرات عامة

---

(١) Veraguth

في مدن المدارس العليا ليضم اليه الشباب الاكاديمي ، ووفق في دعوته وانضم اليه الاتباع من المستمعين المتحمسين ومن بينهم ديزنيوري الشاب . وكان ديزنيوري قد عانى خيبة الأمل من المدرسة العليا وسعى للبحث عن سند وعن بديل لأخلاق كاستاليا التي أصبحت في نظره مجردة من الجوهر ، وعن مثالية جديدة وبرنامج ، فلما سمع محاضرات فيراجوت انجذب اليها واعجب بانفعاله وجرأته على الهجوم وفكاهته ، ومسلكه القائم على الاتهام ، ومظهره الجميل ولغته الجميلة فاندمج في جماعة من الطلاب انبثقت عن مستمعي فيراجوت وراحت تدعو لحزبه وأهدافه . فلما علم والد بلينيو بذلك سافر الى ابنه من فوره وصرخ فيه لأول مرة في حياته صرخة الغضب ، واتهمه بالتآمر وخيانة الأب والعائلة وتقاليد البيت . وأمره بأن يصلح أخطاءه فورا وأن يفصم عرا ارتباطه بفيراجوت وحزبه . لكن طريقة الأب لم تكن الطريقة السليمة للتأثير على الابن الشاب الذي بدأ يحس في موقفه بنوع من الاستشهاد . وصمد بلينيو لعاصفة الأب وقال له انه لم يختلف الى مدارس الصفوة عشر سنوات ، والى الجامعة بضع سنوات أخرى ليتخلى بعد ذلك عن رأيه الخاص وحكمه الخاص ومفهومه الخاص عن الدولة والاقتصاد والعدالة ، ويترك لزمرة من البارونات الأنانيين أن يرسموا له الخطوط ليتبعها . وأضاف انه أعجب بمدرسة فيراجوت لأنه يتبع مثل عظماء الخطباء ولا يسعى الى مصالح خاصة أو مصالح طبقية ، بل يسعى الى شيء واحد في الدنيا هو العدالة المطلقة والانسانية . فانفجر ديزنيوري الكبير ، ضاحكا ضحكة أليمة ودعا ابنه الى أن يتم دراسته أولا قبل أن يندس في أمور الرجال ، ويتصور أنه يفهم من حياة الناس ومن العدالة أكثر مما فهمت صفوف أجيال كريمة جليلة هو سليلها المتدهور ، وخائنها الذي ينقض عليها بخيانته ويطعنها في ظهرها . وكان بين الاثنين شجار ومرارة واهانات راحت كل كلمة ينطق بها أحدهما تزيدها ، حتى انصرف الأب فجأة وكأنه لمح

وجهه الحانق المضطرب في المرآة فخجل خجلا باردا صامتا . منذ ذلك اليوم انتهت علاقة بلينيو القديمة الأليفة اللطيفة ببيت أبيه نهائيا لأن بلينيو ظل مخلصا لجماعته ولتحررها الجديد بل وأصبح قبل أن يتم دراساته تلميذ فيراجوت المقرب ومعاونه ومساعده ، وبعد سنوات قليلة ارتبط به برباط النسب وتزوج ابنته . أدت التربية في مدارس الصفوة اذن أو زادت صعوبة العودة الى ألفة العالم والوطن الى تحطيم توازن نفس ديزنيوري وشغل حياته بالمشاكل الفتاكة ، ثم وصلت به هذه الظروف الجديدة الى وضع صعب عويص . فقد تلقى شيئا قيما بلا شك ، تلقى نوعا من الايمان من الاقتناع السياسي ومن التبعية لحزب ، وكان له فيما تلقى ارضاء لحاجاته كشاب الى العدالة والتقدم ، ووجد في شخص فيراجوت معلما وزعيما وصديقا أكبر ، أعجب به وأحبه في أول الأمر بلا نقد ووجده يلوح كأنه يحتاج اليه ويقدره ، وتبين ديزنيوري أنه اكتسب اتجاها وهدفا وعملا ومهمة تملأ حياته . ولم يكن هذا شيئا قليلا ، ولكن ثمنه كان غاليا . فاذا كان الشاب قد رضي بضياع مركزه الطبيعي والوراثي في بيت أبيه وبين أبناء طبقته ، واذا كان قد رضي بأن ينبذ من طبقته الممتازة ، ويتحمل نبذها له وعداوتها له بمتعة متعصبة من نوع متعة الشهداء ، فقد ظلت أمامه أمور لم يستطع التغلب عليها قط ، وأبرزها الشعور الأليم العنيف الذي اعتمل في نفسه حيال ألم أمه الحبيبة التي وقفت بينه وبين أبيه في موقف عصيب ، انتهى بتقصير عمرها . فقد ماتت بعد زواج بلينيو بقليل . ولم ير بلينيو بيت أبيه بعد وفاة الأم الا نادرا حتى مات أبوه فباع البيت ، باع مقر العائلة العريق .

هناك أشخاص يمكنهم أن يحبوا مركزا أو وظيفة أو زيجة أو حرفة ضحوا من أجل الحصول عليها ، حبا سببه ما قدموا من تضحية ، ويعتبرونها سعادتهم ويرضوا بها . لكن حالة ديزنيوري كانت تختلف عن حالة هؤلاء . حقيقة أنه ظل مخلصا لحزبه ولزعيمه ولاتجاهه السياسي ولنشاطه ولزواجه

ولمثاليته ، لكن هذه الأمور تحولت بمضي الوقت في نظره الى مشاكل شأنها شأن كيانه كله . فهدأ حماس شبابه السياسي والفلسفي وأصبح الكفاح من أجل الحق على طول المدى شيئا لا يأتي الا بالقليل من السعادة ويستوي في ذلك مع التألم والتضحية من أجل العناد وصلابة الرأي . وزاد على ذلك ما أوتيه من خبرة وبلادة في ممارسته للمهنة . وانتهى به المطاف الى أن تشكك في أن التعلق بالحقيقة والحق هو السبب الحقيقي الذي جعل منه تابعا لفيراجوت ، تساءل عما اذا كان ذلك مجرد انسياق وراء مهارته الخطابية وسحره وبراعته عندما يظهر أمام الجمهور ، وتأثر بنبرة صوته الرنانة ، وضحكته الرائعة المليئة بالرجولة ، وميل الى مهارة ابنته وجمالها ، على الأقل بنسبة النصف . وشك الشاب شكا متزايدا فيما اذا كان والده باخلاصه لطبقته وتعنته مع الأجراء قد وقف بالفعل موقفا غير كريم ، وشك كذلك فيما اذا كانت لغة الضمير هي في نهاية المطاف الحكم الوحيد النافذ ، فاذا كانت كذلك فمعنى ذلك أنه ، بلينيو ، في موقف الباطل والظلم ، لأنه لا يعيش في أحضان السعادة والراحة والايمان والثقة والطمأنينة ، بل يعيش في القلق والشك والضمير المضطرب . أما زواجه فلم يكن زواجا تعسا فاشلا ، ولكنه كان مليئا بالتوترات والتعقيدات والمقاومات . كان زواجه على أية حال أحسن ما أوتي ، ولكنه لم يمنحه الهدوء والسعادة والبراءة وراحة الضمير التي كان يتوق اليها ، بل تطلب منه حيطة وثباتا وجهدا كبيرا . حتى ابنه الصغير الجميل الموهوب تيتو أصبح من وقت مبكر جدا سببا للصراع والدبلوماسية والسعي والغيرة ، وانتهى الأمر بهذا الابن الذي أفرط أبواه كلاهما في حبه وتدليله الى الانحياز الى أمه نهائيا والانضواء تحت لواء حزبها . كان هذا الأمر أشد وأمر ألم أحس به ديزنيوري في حياته وأكبر خسارة مني بها . لكنه لم يتحطم تحت وطأة ما حدث له وتغلب عليه ولاذ بالثبات الذي اعتاد عليه ، ثبات كريم ولكنه عسير ، قاس ، كئيب .

وبينما كان كنشت يتوصل الى هذه المعلومات بالتدريج من صديقه في أثناء زيارات ولقاءات ، كان ينقل اليه في مقابلها من خبراته ومشاكله الكثير . فلم يترك صاحبه يقف موقف من يدلي باعتراف ثم يتغير الوقت والجو فيأسف على ما أدلى من اعتراف ويود لو استطاع أن يستعيد اعترافه ، بل ثبت ثقة بلينيو وقواها بصراحته وخلوص نيته هو . وتفتحت حياته بالتدريج أمام صاحبه ، وبدت حياة بسيطة مستقيمة نموذجية منظمة وسط نظام هرمي واضح البنيان ، حياة مليئة بالنجاح والتقدير ، ولكنها كانت حياة أقرب الى أن تكون مفعمة بالتضحية ، حياة منعزلة شديدة الانعزال ، واذا كان بلينيو الآتي من الخارج لم يفهم الكثير من أمور كنشت فهما تاما ، فقد فهم الاتجاهات الرئيسية والاحساسات الأساسية ، وأبرز ما فهمه وأحس به من أمور كنشت هو سعي كنشت الى الشباب ورغبته في العمل مع تلاميذ لم يصبهم التشويه وفي القيام بعمل متواضع ليس فيه أبهة ولا اكراه الى التمثيل ، كأن يعمل مدرسا للغة اللاتينية أو الموسيقى في مدرسة صغيرة . ومن بين خطوات العلاج والتربية التي اتبعها كنشت مع مريضه بلينيو ، كانت استمالته اياه بصراحته الكبيرة ثم بالايحاء اليه بأنه ، بلينيو ، يستطيع أن يعينه ويخدمه ، واعطائه بذلك الباعث الى فعل ذلك . والحقيقة أن ديزنيوري نفع الماجستر بعض النفع ، لا يتصل بالمسألة الرئيسية ، ولكنه ينصب على ارضاء فضول كنشت وشوقه الى معرفة تفصيلات كثيرة عن الحياة الدنيوية .

ونحن لا نعلم السبب الذي حمل كنشت على أن يتجشم مهمة تعليم صاحبه المكتئب الابتسام والضحك ، ولا نعلم اذا كان كنشت قد فكر وهو يقوم بذلك في أن صديقه القديم قد يرد له جميله بخدمات مقابلة . حتى ديزنيوري ، وهو الشخص الذي كان ينبغي أن يكون على بينة من ذلك ، لم يكن في حال تجعله يصدق بامكانية تفكير كنشت في أمر من هذا القبيل .

وقد روى بعد ذلك بزمن : «عندما أحاول الآن أن أفسر لنفسي كيف بدأ صديقي كنشت في التأثير على شخص متواكل منقبض مثلي ، فانه يتضح لي أن طريقته كانت تعتمد في أكثرها على السحر ، بل وعلى العبث والمزاح . ولقد كان كنشت يعبث أكثر مما يعلم من حوله ، كان كثير الألاعيب ، كثير النكتة ، خبيرا بالحيل ، عليما بألعاب الحواة والتقمص والاختفاء والظهور فجأة . وأنا أعتقد أنه قرر في اللحظة الأولى لظهوري في ادارة كاستاليا أن يؤثر علي بطريقته ، أعني أن يوقظني وأن يحولني الى حال أفضل ، أو أنه اجتهد على الأقل منذ الساعة الأولى في أن يكتسبني . أما لماذا بذل معي الجهد ولماذا حملني على عاتقه ، فهذا ما لا أدريه . وأغلب ظني أن أمثاله من الناس يفعلون الكثير عن غير ارادة ، فيتصرفون تصرفا يشبه الانعكاس ، ويحسون أنفسهم وقد تحملوا بمهمة ، أو يسمعون محنة تناديهم فيلبون النداء من فورهم . ولقد وجدني شكاكا هيابا ، ولم يجدني مستعدا لأرتمي بين ذراعيه أو لألتمس منه العون ، بل وجدني قد تحولت من الصديق المتفتح القديم الذي يتحدث بما عنده ، الى انسان يائس مغلق ، ويبدو أن هذا العائق وهذه الصعوبة التي لا يستهان بها هي التي جذبته . فلم يتراجع رغم غلظتي وحقق ما كان يريد . واستعمل وسائل منها وسيلة فنية تتلخص في اظهار علاقتنا معا كعلاقة متبادلة وفي تصوير قوته كما لو كانت تقابل قوتي ، وقيمته كما لو كانت تناظر قيمتي ، وفي اخراج حاجتي الى العون على نحو يوحي بأن لديه حاجة الى العون مثلها . وأشار في حديثه الطويل الأول بيننا الى أنه كان ينتظر أن يحدث شيء مثل حضوري الى الاقليم ، بل انه كان يشتاق اليه ، ثم أطلعني بالتدريج على خطته الخاصة باعتزال المنصب ومغادرة الاقليم ، وأكد أنه يعتمد على مشورتي ومساعدتي وكتماني ، لأنه لم يتخذ غيري في العالم الخارجي صديقا . ولم يكن على خبرة به قط . واعترف بأنني سعدت بما سمعت ،

وأن حديثه هذا كان له أثره الكبير في وضع ثقتي به وارتمائي له طواعية . فقد صدقته كل التصديق . لكن كلامه لاح لي بمضي الوقت مريبا بعيدا عن التصديق ، ولم أكن أستطيع الجزم بأنه ينتظر مني شيئا ولا الى أي حد يريد مني فعلا شيئا ، كذلك لم أكن أستطيع الجزم بأن طريقته في اقتناصي كانت بريئة أو دبلوماسية ، ساذجة أو لئيمة ، صادقة أو مصطنعة فيها لعب . كان كنشت يفوقني وكان يفصله عني بعد وتفوق كبير ، وكان قد فعل بي خيرا كثيرا حال بيني وبين مجرد التجرؤ على الاسترسال في مثل هذه التساؤلات . ومهما يكن من أمر فانني حتى اليوم أعتبر بدعة تشابه موقفه وموقفي ، واعتماده على ميلي واستعدادي للخدمة قدر اعتمادي على ميله واستعداده للخدمة ، عبارة من عبارات الأدب وايحاء لطيفا جذابا استهواني . على أنني لا أستطيع القول الى أي حد كانت لعبته معي شعورية مقصودة ، متعمدة ، والى أي حد كانت رغم أي اعتبار آخر بسيطة ساذجة طبيعية . لأن الماجستر يوزف كان فنانا عظيما وكان لا يستطيع أن يقاوم الحافز الى التربية والتأثير والعلاج والمساعدة والانماء ولا يفرق من أجل ذلك بين الوسائل المختلفة ، ولكنه كان مع ذلك لا يفعل شيئا قط مهما صغر إلا باندماج كامل . ومن المؤكد انه اهتم بي في ذلك الوقت باعتباره صديقا وطبيبا عظيما ومرشدا ، لأنه لم يدعني الا بعد أن أيقظني وشفاني على قدر الامكان . لقد كان تصرفه آنئذ عجيبا يليق به : فبينما كان يتظاهر بأنه يطلب معونتي ليفلت من منصبه ، وبينما كان يتركني أوجه النقد الساذج ، الغليظ ، بل التشكيك والسباب الى كاستاليا ، ويسمعني مستحسنا ، وبينما كان هو نفسه يجتهد في الخلاص من كاستاليا ، اجتذبني فعلا الى كاستاليا وأخذ بيدي الى التأمل ورباني على الموسيقى الكاستالية ، والاندماج الكاستالي ، والمرح الكاستالي والشجاعة الكاستالية وغيّرني ، وحوّلني من شخص كان ، رغم حنينه اليكم ، يختلف عنكم

ويعاديكم ، الى واحد منكم ، وغيّر حبي البائس لكم الى حب سعيد » .

هكذا عبر ديزنيوري عن نفسه ، ولا شك في أنه كان على حق في الاشارة الى امتنانه واعجابه . واذا كانت تربية الصبية والشباب على أسلوب الطائفة باتباع مناهجنا القديمة المحققة أمرا غير مسرف في الصعوبة ، فان تربية رجل في نحو الخمسين من عمره أمر بالغ الصعوبة حتى اذا توفرت لديه النية الحسنة . ولم تؤد تربية كنشت لصديقه الى أن الصديق أصبح كاستاليا نموذجيا ، فلم يكن هذا هدفه ، ولكن الذي حدث هو أن كنشت وضع لنفسه أهدافا وحققها تماما : وتتلخص في تصفية عناده وحزنه وثقله المرير ، وتقريب روحه التي اعتراها الخوف الى الانسجام والمرح ، وابدال عدد من عاداته القبيحة بعادات طيبة . وطبيعي أن أستاذ لعبة الكريات الزجاجية لم يستطع القيام بكل الأعمال الصغيرة اللازمة لذلك بنفسه ، بل التمس لذلك ما في فالدتسل من جهاز وقوة ، حتى أعطى ديزنيوري أحد معلمي التأمل من هيرسلاند مقر ادارة الطائفة معه لكي يشرف بصفة دائمة على تمريناته في البيت . لكن كنشت احتفظ لنفسه بالخطة وبالتوجيه .

وحدث في العام الثامن لقيام كنشت بمنصب الأستاذية أن قبل الدعوة التي طالما وجهها اليه صديقه ديزنيوري لزيارته في بيته بالعاصمة . وذهب كنشت بعد موافقة رئاسة الطائفة ، وكان كنشت قريبا الى قلب الرئيس الكسندر ، لتأدية الزيارة في يوم من أيام العطلة ، تلك الزيارة التي كان يعلق عليها الكثير والتي كان رغم ذلك يؤجلها منذ عام لأنه من ناحية كان يريد أن يتأكد من صديقه ، ولأنه من ناحية ثانية كان يحس بخوف طبيعي من تلك الخطوة الأولى التي يخطوها الى ذلك العالم الذي أحضر صديقه بلينيو منه ذلك الحزن العنيد ، والذي تكتنفه أسرار هامة كثيرة . ووجد كنشت البيت الحديث الذي اتخذه صديقه بديلا لبيت العائلة القديم يسير بأمر سيدة كبيرة ذكية متحفظة . ووجد السيدة واقعة تحت سيطرة ابنها الصغير الجميل

الذي يسلك سلوكا فيه الجرأة أو قل فيه تجاوز لحدود الأدب ، ذلك الابن الذي بدا كل شيء كأنه يدور حول شخصه ، وبدا كأنه تعلم من أمه مسلكه الأناني الصلف المختلط بالمهانة نحو أبيه . وكان من في البيت جميعا يقفون من كل ما هو كاستالي موقف البرود والتشكك ، الا أن الأم والابن لم يتمكنا من الصمود طويلا في وجه شخصية الماجستر الذي كان في نظرهم يشغل منصبا فيه شيء من الغموض والقدسية والأسطورية . ومهما يكن من أمر فقد سارت الزيارة الأولى سيرا جامدا متكلفا . أما كنشت فكان تصرفه تصرف المراقب المتوقع الصامت ، وأما السيدة فقد تلقته بتأدب فيه برود ورسمية وصدود كامن في أعماقها ، كما يتلقى أصحاب بيت منيف ضابطا عظيما معاديا فرضت عليهم اقامته معهم فرضا . وأما الابن فكان أقل الجميع حرجا ولا بد أنه كثيرا ما شاهد بعين متفتحة متمتعة ناعمة مواقف من هذا النوع ولاح الأب كأنه يلعب دور الرب في البيت على نحو يزيد عما يفعل في العادة . كانت النغمة التي تصله بالسيدة نغمة رقيقة متحفظة فيها شيء من الخوف ، كأنها أدب يسير على أطراف أصابعه ، وكانت السيدة تحسن هذه النغمة وتصطنعها على نحو أيسر وأكثر طبيعية من زوجها . وكان الأب يحاول مع الابن مسلك الزمالة ، وكان يبدو كأنه تعود على استغلاله أو على رده في صلف . كان الاجتماع باختصار اجتماعا فيه تكلف شديد وفيه بعد عن البراءة وفيه حرارة وصهد من الدوافع المكبوتة ، اجتماعا مليئا بالخوف من حدوث انفجار أو اضطراب ، مليئا بالتوترات . وكان أسلوب السلوك والحديث ، كأسلوب البيت عامة ، يمتاز بالاسراف في الرقة والتصنع ، كأنهم لم يوفقوا في اقامة سد متين محكم أكيد ليصد ما قد يتعرضون له من تسلل أو هجوم . ولاحظ كنشت شيئا سجله : وهو أن جزءا كبيرا من المرح الذي عاد الى وجه بلينيو قد اختفى ثانية ، كان بلينيو يبدو في فالدتسل أو في مقر ادارة الطائفة في هيرسلاند كأنه قد تخلص تماما تقريبا من همه

وحزنه ، فاذا به في بيته يغتم ويبدو في حال تتطلب الفحص وتستدر الشفقة . كان البيت جميلا يشهد بالغنى والدلال والزخرف ، كان كل مكان به قد أثث حسب أبعاده ، وطلي بألوان منسجمة بين اثنين وثلاثة ، وكان به هنا وهناك عمل فني له قيمته . وأنعم كنشت النظر في أنحاء البيت . وأحس متعة بصرية تحولت الى شعور بأن البيت مسرف في الجمال وفي الكمال والتصميم وأنه يفتقر الى مستقبل والى حركة والى تحديد ، وتبين أن جمال هذه الأماكن وما بها من متاع فيه ما يشبه تحضير الأرواح وما يوحي بأنه يلتمس الحماية ، وأن هذه الغرف والصور والزهريات تحيط بحياة وترافقها وأن هذه الحياة كلها حنين الى الانسجام والى الجمال ، وأنها لا تبلغ من الانسجام والجمال الا العناية بهذا المكان المنسق .

وحدث بعد هذه الزيارة وما كان فيها من انطباعات بعضها غير مفرح ، أن أعطى كنشت صديقه واحدا من معلمي التأمل ليذهب معه الى البيت . ولقد أتت هذه الزيارة كنشت في جوها المنقبض المشحون بعلم لم يكن لديه ، بل ولم يكن يلتمسه ، وبعلم كان ينقصه وكان يريده من أجل صديقه . ولم تكن هذه الزيارة هي الزيارة الوحيدة التي قام بها كنشت لديزنيوري ، بل تبعتها زيارات أخرى ، وتناول الحديث فيها موضوعات التربية وابن ديزنيوري ، واشتركت الأم فيها اشتراكا فعالا . فقد حصل الماجستر بالتدريج على ثقة وميل هذه السيدة الذكية المرتابة . وحدث مرة أن قال كنشت على سبيل المداعبة انه من المؤسف أن الابن اللطيف لم يرسل في الوقت المناسب الى كاستاليا لينال فيها التربية ، فحملت السيدة الكلام محمل الجد واعتبرته لوما ودافعت عن نفسها قائلة : انه من المشكوك فيه غاية الشك أن يحظى تيتو بموافقة كاستاليا على قبوله ، فانه وان كان ذا موهبة ، صعب المعاملة ، وانها لن تسمح لنفسها قط بأن تتخذ أية خطوة ضد إرادة الابن فيما يتعلق بحياته ، خاصة وأن المحاولة التي

أجريت على أبيه قد منيت بالفشل . وأضافت انها وزوجها لم يفكرا قط في استخدام واحد من الامتيازات التي كانت عائة ديزنيوري العريقة تتمتع بها من أجل ابنهما لأنهما قطعا حبل الصلة بوالد بلينيو وبتقاليد الأسرة العريقة كلها . ثم راحت تقول وهي تبتسم ابتسامة أليمة ، انها علاوة على كل ذلك لا تستطيع مهما كانت الظروف أن تفترق عن ابنها لأنها لا تعرف لها في سواه ما يجعل حياتها جديرة بالحياة . واستغرق كنشت في التفكير في هذه الملاحظة التي خرجت من فمها عفوية أكثر منها مقصودة عن تفكير . معنى كلامها أن بيتها الجميل الراقي الرائع البديع وزوجها وسياستها وحزبها وتراث أبيها الذي كانت يوما ما تعبده ، كلها لا تكفي لمنح حياتها معنى وقيمة ، وان ابنها وحده هو الذي يعطي لحياتها القيمة والمعنى . ومعنى كلامها كذلك أنها تفضل أن تترك ابنها ينمو وسط هذه الظروف السيئة الضارة التي تسود بيتها وحياتها الزوجية على أن تنفصل عنه فيما يعود عليه بالخير والصلاح . كان هذا الاعتراف اعترافا عجيبا من امرأة ذكية تبدو متزنة عاقلة . ولم يستطع كنشت أن يساعدها مساعدة مباشرة كما فعل مع زوجها ، بل ولم يفكر حتى مجرد التفكير في محاولة ذلك . الا أن زياراته على ندرتها ، وتأثيره على بلينيو أدخلت اعتدالا وانذارا في أحوال هذه العائلة المكبوتة المضطربة . أما الماجستر فكان كلما زاد نفوذه وسلطانه في بيت ديزنيوري ، كلما تبين أن حياة أهل الدنيا هؤلاء كثيرة الغموض مهما أحسن معرفتها . على أننا لا نعلم عن زياراته في العاصمة وعما رآه وعاشه هناك الا القليل ونكتفي منه بما أشرنا هنا اليه .

ولم يكن كنشت قد اقترب من رئيس ادارة الطائفة في هيرسلاند الا بقدر ما كانت الظروف في الديوان تقتضيه . كان يراه في الجلسات العامة لهيئة التربية التي كانت تنعقد بكامل هيئتها في هيرسلاند ، وكان الرئيس في هذه الجلسات لا يقوم عادة الا بالاعمال الشكلية التمثيلية من استقبال للزملاء

وتوديعهم ، بينما كان المتحدث الرسمي يؤدي أهم أعمال الجلسة . وكان رئيس الادارة أيام تولي كنشت منصب الأستاذية رجلا في سن جليلة يحظى من كنشت بالتقدير الكبير ، ولكنه لم يكن يعطيه فرصة ليقلل مسافة البعد بينهما وظل كنشت ينظر اليه نظرة ترفعه عن مستوى البشر وتجعله أشبه شيء بالكاهن الأعظم ، ورمز المهابة والاستجماع ، والقمة الصامتة أو تاج بناء الادارة بل والنظام الهرمي كله . وحدث أن توفي هذا الرجل الجليل واختارت الطائفة خلفا له الرئيس الجديد الكسندر . وكان الكسندر هذا هو معلم التأمل الذي أعطته ادارة الطائفة منذ سنوات لصاحبنا يوزف كنشت في الفترة الأولى لتوليه المنصب ، ومنذ ذلك الحين والماجستر يحب هذا الرجل المثالي ويعجب به أشد الاعجاب ، كذلك الكسندر استطاع أن يلاحظ كنشت في ذلك يوميا باعتباره موضوع اهتمامه ومهمته وباعتباره شيئاً يشبه الجالس على كرسي الاعتراف أمامه ، استطاع أن يلاحظه ملاحظة شملت كيانه وحركاته كلها وأن يعرفه ويحبه . وظهرت الصداقة الكامنة بين الاثنين واتضحت واتخذت شكلها منذ اللحظة التي أصبح الكسندر فيها زميلا لكنشت ورئيسا للادارة فقد أصبحا يلتقيان كثيرا ويشتركان في أعمال معا . صحيح أن تلك الصداقة كانت تفتقر الى المخالطة اليومية والى خبرات صبيّ واحد ، ولكنها كانت تعاطفا بين زميلين يتضح في شيء من الدفء الزائد عند التحية والوداع وفي تفاهم متبادل سريع متكامل ، وفي لغو يدوم لحظات في فترات الاستراحة أثناء انعقاد الجلسات .

ومع أن رئيس الادارة الذي يطلق عليه كذلك اسم أستاذ الطائفة ، لا يزيد دستوريا قدرا على زملائه الأساتذة الآخرين . الا أن التقليد المتبع والقاضي بأن يقوم أستاذ الطائفة برياسة الجلسات التي تعقدها الادارة العليا جعلت له نفوذا كبيرا ظل يتزايد في عشرات السنين الأخيرة بتزايد اتجاه للطائفة الى الرهبنة والتأمل ، وان بقي هذا النفوذ محصورا في النظام الهرمي لطائفة وفي الاقليم دون غيره . وهكذا أصبح رئيس الطائفة وأستاذ لعبة الكريات الزجاجية

بالتدريج الجهبذين والممثلين الحقيقيين للفكر الكاستالي . واتخذت مادة تربية الفكر بالتأمل ومادة لعبة الكريات الزجاجية مكاناً وأصبحتا مادتين مميزتين لكاستاليا ، الى جانب المواد التقليدية التي ترجع الى أزمات سابقة على نشأة كاستاليا مثل النحو ، والفلك والموسيقى . لهذا لا ينبغي أن يغفل المرء عن قيمة تلاقي ممثلي المادتين الحاليين وارتباطهما معا برباط الصداقة ، كان تلاقيهما يعني لهما معا تأكيدا وترفيعا لمهابتهما وقسطا اضافيا من الدفء والرضا بالحياة ، وحافزا على الزيادة في تأدية ما عليهما من مهام تتلخص في أن يمثلا في شخصيهما النعمتين العميقتين القدسيتين ، والقوتين اللتين يحتكم عليهما العالم الكاستالي وفي أن يعيشا حياة تكون نموذجا يحتذى . كانت هذه العلاقة تعني اذن بالنسبة لكنشت رباطا جديدا ، ومقاومة جديدة للاتجاه الذي كان يعتمل في نفسه بقوة متزايدة ويحرضه على ترك كل شيء والانطلاق الي دائرة حياة جديدة من نوع آخر . لكن هذا الاتجاه ظل ينمو دون توقف . وقد أصبح هذا الاتجاه واضحا في شعوره منذ العام السادس أو السابع لشغله منصب الأستاذية ، وازداد قوة واتخذ في نفسه وفكره وهو رجل « اليقظة » مكانا شعوريا بلا وجل . ولعلنا نكون على حق ان قلنا انه منذ ذلك الوقت كان يفكر تفكيرا كثيرا في أنه سيودع منصبه في المستقبل وسيبرح الاقليم ـ وكانت هذه الفكرة تخالجه على نحو يشبه ثقة السجين بالخلاص تارة وتارة على نحو يشبه المريض بمرض عضال ومعرفته بالموت . وقد عبر كنشت عن فكرته هذه لأول مرة في حديثه الأول مع بلينيو ، صديقه القديم العائد ، وربما كان قصده من ذلك الحصول على ثقة صديقه الصموت المغلق وحمله على كشف ما بذاته ، وربما كان قصده هو أن يعطي عن طريق هذا التصريح ليقظته الجديدة ولجو حياته الجديد شريكا في المعرفة ، ويفتح لها مبدئيا بابا الى الخارج ويدفعها دفعة أولى الى التحقيق . واتخذت رغبة كنشت هذه فيما تلى ذلك من أحاديث مع ديزنيوري صورة العزم على ترك

نظام الحياة الحالي والتجرؤ على القفز الى نظام حياة جديد . وصار في تلك الأثناء يدعم صداقته ببلينيو بعناية ، وكان بلينيو متعلقا به لا برباط الاعجاب فحسب ، بل برباط المعترف لطبيبه بجميله اذا عالجه وشفاه مما به ، وأصبحت صداقته ببليينو جسره الى العالم الخارجي المشحون بالألغاز .

وليس لنا أن ندهش من أن الماجستر لم يكشف لصديقه تيجولاريوس سره ولم يطلعه على عزمه على الرحيل الا متأخرا . فقد كان كنشت يشكل صداقاته بنية طيبة وبقصد التشجيع ، ولكنه كان في الوقت نفسه ينظر اليها نظرة مستقلة دبلوماسية ويوجهها توجيها شعوريا مقصودا . وقد كان دخول بيلينيو في حياته مرة ثانية يعني بالنسبة لفريتس ظهور منافس له على المسرح يريد أن يحظى بشيء من قلب كنشت واهتمامه ، فلم يدهش كنشت عندما تصرف تيجولاريوس ازاء هذا في أول الأمر تصرف الغيرة العنيفة . ولعل الماجستر قد تلقى بالرضا تحفظ تيجولاريوس وغضبه منه في الفترة التي كان يسعى فيها للحصول على ديزنيوري والتي انتهت بحصوله عليه وبوضعه في مكانه اللائق به . على أن هذا التقرير كان يصلح لفترة ، لكنه لم يكن ليظل على الدوام ، فقد كان هناك تقدير أهم منه . كيف السبيل الى تشكيل رغبته في ترك فالدتسل ومنصب الماجستر تدريجيا ، على نحو يهضمه شخص مثل تيجولاريوس ؟ فهو عندما يترك فالدتسل ينتهي تماما في نظر هذا الصديق ، ولم يكن من الممكن أن يأخذ كنشت تيجولاريوس معه الى هذا الطريق الضيق الخطير الذي يريد أن يسلكه ، حتى ولو أبدى تيجولاريوس ، على خلاف المتوقع ، رغبة وشجاعة . وانتظر كنشت وفكر وتردد طويلا قبل أن يبلغ صديقه بنواياه . وأخيرا أطلعه عليها بعد أن استقر عزمه على الرحيل تماما . فقد كان مما يتعارض مع طبعه أن يترك صديقه طويلا في الجهل فيرسم الخطط وراء ظهره ويتخذ الخطوات دون علمه ونتائجها قد تمسه هو كذلك . وكان يبذل جهده ليجعل منه ، مثل بلينيو ،

أكثر من شريك في السر ، ليجعل منه بالفعل أو بالوهم مساعدا وشريكا في الفعل ، فان الفعل يساعد على تقبل كل وضع .

كان تيجولاريوس يعلم منذ وقت طويل بأفكار كنشت الخاصة بتوقع تدهور الكاستالية طبعا على قدر ما أراد كنشت أن يكشفها له وعلى قدر ما شاء هو أن يقبل منها . فلما قرر الماجستر أن يفاتح صديقه في الأمر ، بدأ من حيث وقف تيجولاريوس من أفكاره عن تدهور الكاستالية . وعلى عكس ما توقع كنشت ، ولرضاه الكبير ، تلقى تيجولاريوس ما أسر به كنشت اليه في هدوء ، وبدا كأنه يستلطف ويستظرف فكرة تقرير بعض الأساتذة القاء شرف المنصب عن ظهره ونفض التراب الكاستالي عن قدميه ، واختيار حياة على حسب ذوقه . كان تيجولاريوس على الدوام انعزاليا فرديا يعادي صب الناس في قالب واحد ويقف في صف الفرد ضد الادارة . وما أسهل اجتذابه الى مناهضة السلطة الرسمية بطريقة مبتكرة ومشاغبتها ، ومعاكستها . وهكذا اتضح لكنشت الطريق ، وراح ، وقد تنفس الصعداء ، وضحك في باطنه ، يعالج رد فعل الصديق . فتركه يعتقد أنه بفعله هذا يلعب لعبة على الادارة وعلى الموظفين الجامدين ، وجعل له في هذه اللعبة دور الشريك في العلم بها ، والشريك في اعدادها والشريك في المؤامرة . وكان البدء يحتاج الى طلب يتقدم به الماجستر الى الادارة ويضمنه عدد الاسباب التي أدت به الى الاستقالة من منصبه ويضمنه ايضاحا لها ، وعهد الماجستر الى تيجولاريوس بمهمة انشاء هذا الطلب . وكان عليه قبل كل شيء أن يتبنى أفكار كنشت ومفهومه التاريخي الخاص بنشأة كاستاليا ونموها وحاضرها ، ويجمع المادة التاريخية اللازمة لتدعيم رغبات كنشت واقتراحاته . ولم يبد عليه غضاضة من العمل في ميدان كان حتى ذلك الحين يرفضه ويزدريه ، ميدان التاريخ ، وعجل كنشت باعطائه التعليمات اللازمة لسير العمل . وهكذا تعمق تيجولاريوس بحماس وجلد في مهمته الجديدة ، على نحو ما

كان يتعمق بحماس وجلد في المهام الفريدة الغريبة . ووجد تيجولاريوس ، وهو الفردي العنيد ، لذة عجيبة حانقة تتفتق له عنها هذه الدراسات التي مكنته من اظهار الرؤساء وأصحاب المناصب على نواحي النقص والريبة فيهم ومن استفزازهم .

ولم يكن لكنشت في متعة صديقه الا بقدر قليل كقدر اعتقاده في نجاح جهوده . ان كنشت قد قرر أن يتحرر من أغلال حالته الراهنة وأن يتفرغ لمهام كان يحس أنها تنتظره ، ولكنه كان يعلم بوضوح أنه لن يستطيع غلبة الادارة بمبررات عقلية ولن يستطيع تكليف تيجولاريوس بجزء مما ينبغي انجازه . ولكنه كان يرحب بأن يستبقي تيجولاريوس الى جواره ويشغله ويلهيه في الوقت الذي بقي له . وعندما التقى كنشت ببلينيو ديزنيوري للمرة التالية حكى له حكايته مع تيجولاريوس وأضاف : «وها هو ذا صديقي تيجولاريوس ينهمك في العمل ويجد فيه تعويضا عما اعتقد أنه فقده بعودتك الى فالدتسل . ولقد شفيت غيرته أو أوشكت ، والعمل الذي يقوم به من أجلي وضد زملائي يسره بل ويسعده . لكن لا تعتقد يا بلينيو أني أتوقع شيئا من عمله سوى الخير الذي سيكون له هو منه . أما أن الادارة العليا ستوافق على الطلب الذي أنوي تقديمه ، فهذا أمر بعيد الاحتمال جدا ، وهي لن ترد على أحسن تقدير الا بانذار شديد لطيف . فهناك دستور نظامنا الهرمي نفسه يحول بين نواياي وبين تحقيقها ، ولن تعجبني ادارة تعزل أستاذ لعبة الكريات الزجاجية عندها بناء على طلب منه لسبب مقنع وتكلفه بالعمل خارج كاستاليا . وهناك علاوة على هذا الأستاذ الكسندر في ادارة الطائفة ، وهو رجل لا سبيل الى الانته . كلا ، سأقوم أنا وحدي بهذه المعركة . ولكن لندع تيجولاريوس يجرب نباهته! فلن نخسر شيئا اللهم الا القليل من الوقت ، وأنا أحتاج الى هذا القليل من الوقت على أية حال لأترك كل شيء ورائي منظما ، فلا يكون خروجي سببا في ضرر فالدتسل . وعليك

أنت في هذه الأثناء أن تعد لي عندكم مسكنا ، وتدبر لي عملا ، ولا مانع عندي من أن يكون بسيطا متواضعا ، وسأرضى ان احتاج الأمر بقبول وظيفة مدرس موسيقى ، فانني لا أريد الا بداية ، ولا أحتاج الا الى لوح للقفز» .

وكان رأي ديزنيوري أن تدبير هذه الأمور لن يصعب عندما يأتي حينها ، فبيته مفتوح لصديقه على الرحب والسعة . لكن كنشت لم يرض بذلك .

قال : «لا ، لا فائدة في أن أكون ضيفا . انني أريد عملا . هذا الى أن اقامتي في بيتك الجميل اذا زادت عن بضعة أيام ستزيد التوترات والصعوبات التي تعتمل في جنباته . وأنا كثير الثقة بك ، وأعلم أن زوجتك قد تعودت على زيارتي بظرفها ، ولكن هذا كله يتخذ وجها آخر على الفور ، عندما أتحول من زائر وماجستر لودي الى لاجئ وضيف مقيم» .

ورد بلينيو عليه قائلا : «انك تدقق وتتشدد جدا . وما عليك الا ان توقن بأنك عندما تتخلص من هنا وتتخذ لك مقرا في العاصمة ، ستتلقى دعوة كريمة للعمل على الأقل أستاذا في احدى المدارس العليا . لكن هذه الأشياء تحتاج الى وقت ، وأنت تعرف هذا ، ولن أستطيع أن أعمل شيئا من أجلك الا بعد أن تفرغ من التخلص من هنا تماما» .

فقال الأستاذ : «أصبت . وينبغي أن يظل قراري حتى ذلك الحين سرا . ولست أستطيع التقدم لهيئاتكم قبل أن تعلم الادارة هنا بقراري وتتخذ فيه ما ترى . هذا بديهي . ولكني لا أريد في مبدأ الأمر وظيفة عامة . ان مطالبي صغيرة ، أصغر مما يمكنك أن تتصور : لست أحتاج الا الى حجرة صغيرة ، والى قوت يومي ، وقبل هذا وذاك الى عمل ومهمة كمعلم ومرب . أريد تلميذا أو بعض التلاميذ أعيش معهم وأؤثر فيهم . ولست أفكر في مدرسة عليا الا قليلا جدا ، وأكثر تفكيري يتجه بي الى أن أصبح معلما خاصا لصبي أو نحو ذلك . ان ما أسعى اليه وأحتاجه ، هو مهمة بسيطة طبيعية هو انسان

في حاجة الي . أما التعيين في مدرسة عليا فسيعود بي من جديد الى مكان في جهاز اداري تقليدي مقدس آلي . وما أشتاق اليه هو عكس ذلك تماما » .

وأفصح ديزنيوري مترددا عن رغبة طالما حملها بين جنباته .

قال : «دعني أقترح عليك اقتراحا وأرجوك على الأقل أن تسمعه وأن توليه العناية ، وربما قبلته ، فقدمت إلى خدمة . لقد ساعدتني منذ اليوم الذي كنت فيه هنا ضيفك ، مساعدات كثيرة . ولقد عرفت حياتي وعرفت بيتي وحاله . ليس الحال فيه على ما ينبغي ولكنه الآن أحسن منه منذ سنوات . وأصعب ما يواجهني ، هو أمر علاقتي بابني . فابني مدلل شقي ، وقد جعل لنفسه في بيتنا موضعا ممتازا مصونا ، وسهل عليه هذا في السنوات التي كان فيها طفلا وكنا أنا وأمه نلتمس رضاه . ثم مال الى صف أمه ميلا واضحا وخرجت من يدي بالتدريج كل وسائل التربية الفعالة . وكنت قد وطدت نفسي على قبول هذه الحال ، بل وقبول حياتي الفاشلة كلها . كنت قد ركنت الى الاستسلام . أما الآن وقد شفيت الى درجة ما بما قدمت الي من عون ، فقد عاودت الأمل ، انك ترى الهدف الذي أريد أن أصل اليه ، اني سأفرح فرحا كبيرا لو أوتي تيتو ، وهو يجد في مدرسته الصعوبات ، مدرسا ومربيا يعتني به . ان رغبتي هذه رغبة أنانية وأنا أعرف ذلك ، ولست أعلم اذا كانت المهمة تستهويك . لكنك شجعتني على التقدم بهذا الاقتراح» .

فابتسم كنشت ومد اليه يده .

«أشكرك يا بلينيو . فان اقتراحك يقع من نفسي موقع الترحيب ولا يعدله في ذلك اقتراح آخر . ولا ينقصه الا موافقة زوجتك . وعليكما أن تقررا أن تتركا لي أمر ابنكما كله في البداية ، فلا بد ، لكي أحكم قبضتي عليه ، أن يحجز عنه تأثير بيت والديه . تحدث في الأمر مع زوجتك واحملها على قبول هذا الشرط ـ واسلك اليها سبيل الحيطة ، ولكما ما تشاءان من وقت!

ثم سأل ديزنيوري : «أتعتقد أنك تستطيع أن تبلغ مع تيتو شيئا ؟» .

«طبعا ، ولم لا ؟ فهو من سلالة طيبة ، وله هبات طيبة ورثها عن الوالدين كليهما ، ولا ينقصه الا جمع قواه في كل منسجم . وستتلخص مهمتي في ايقاظ هذا الانسجام في نفسه أو على الأصح في تقويته واخراجه الى منطقة الشعور ، واني لأقبل القيام بهذه المهمة بكل سرور» .

وهكذا شغل يوزف كنشت صديقيه بأمره كلا على طريقته . فبينما كان ديزنيوري في العاصمة يعرض على زوجته خططه الجديدة ويحاول صياغتها في صيغة تقبلها ، كان تيجولاريوس يجلس في صومعة بالمكتبة ، ويعد مادة للطلب الذي ينوي كنشت انشاءه . ولقد وجد له الماجستر في القراءة التي ساقه اليها ما جذبه حقا وصدقا . وانتهى أمر تيجولاريوس الى التحول من محتقر للتاريخ الى متيم به ، وخاصة بتاريخ فترة الحروب . وجمع تيجولاريوس باجتهاد ، وقد عرف عنه اجتهاده في اعداده للألعاب ، وشغف متزايد ، نوادر ذات دلالة ، من ذلك العصر الحالك الذي سبق نشأة الطائفة ، وأكثر منها اكثارا حتى ان صاحبه عندما تلقى العمل بعد أشهر ، لم يبق منه الا على ما يقرب من عشره .

وتكررت زيارات كنشت في هذه الفترة للعاصمة . وزادت ثقة زوجة ديزنيوري به فان الرجل السوي المنسجم ينفذ بسهولة الى من أثقلتهم التعقيدات والمشاكل . وانتهى الأمر بأن قبلت الزوجة خطة زوجها . ولسنا نعلم من أمر تيتو الا أنه قال للماجستر في غضون احدى زياراته قولا متبجحا ، يتلخص في أنه لا يحب أن يناديه الماجستر بـ«أنت» ، فالجميع حتى مدرسيه في المدرسة يناديه بـ«أنتم» . هنالك شكره كنشت بأدب جم ، واعتذر له ، ثم حكى له أن المدرسين في اقليمه ينادون التلاميذ والطلبة ومنهم من يكبرونه بكثير ، بـ«أنت» . وبعد الفراغ من المائدة رجا كنشت الصبي أن يخرج معه ويطلعه على طرف من المدينة . وأخذه تيتو في

هذه النزهة الى حارة فخمة في الحي القديم ، تصطف فيها بلا ثغرات تقريبا بيوت ترجع الى قرون وتنتسب الى عائلات رفيعة غنية ذات نفوذ . ووقف تيتو أمام أحد هذه البيوت الثابتة الضيقة العالية وأشار الى لوحة فوق البوابة وسأل : «أتعرفون ما هذا ؟» فردّ كنشت بالنفي ، فقال : « هذا هو رمز عائلة ديزنيوري ، وهذا بيتنا الأصلي القديم الذي ظل طوال قرون ثلاثة ملكا للعائلة . أما نحن فنقبع الآن في بيت عادي كبيوت الآخرين ، وما ذلك الا لأن أبي اتبع نزوة أتته بعد موت جدي فباع البيت الأصلي الجميل الجليل وابتنى بيتا حديثا ، بيتا لم يعد الآن حديثا . أيمكنكم فهم شيء من هذا القبيل ؟» .

فسأل كنشت بلطف : «أتأسفون على البيت القديم ؟» فرد تيتو بالايجاب وكرر السؤال : « أيمكنكم فهم شيء من هذا القبيل ؟» . فقال كنشت : «ان الانسان يستطيع فهم كل شيء عندما يدفعه الى النور . فالبيت القديم شيء جميل ، ولو كان البيت الجديد الى جانبه وكان عليه أن يختار بينهما ، لاختار الابقاء على القديم . حقا ، ان البيوت القديمة جميلة وجليلة ، وخاصة هذا البيت . كذلك قيام الانسان ببناء بيت جديد شيء جميل أيضا ، واذا كان لرجل مجتهد طموح الخيار بين البقاء في عش جاهز في دعة واستسلام وبين بناء عش جديد ، فعلينا أن نفهمه عندما يقع اختياره على البناء ويفضله على العش الجاهز . وعلى قدر ما أعرف أباك ولقد عرفته عندما كان في سنك وكان جريئا ثائرا ، فان بيع البيت وفقدانه لم يؤلم أحدا في الدنيا قدر ما آلمه . فقد كان يقف من أبيه ومن عائلته موقف الصراع ، ويبدو أن التربية التي تلقاها عندنا في كاستاليا لم تكن التربية المناسبة تماما له ، أو لنقل على الأقل انها لم تعصمه من بعض التصرفات التي اتسمت بالتعجل والهوج . ومن بين هذه التصرفات المتعجلة الهوجاء بيع البيت . وكان قصده من البيع أن يوجه ضربة الى تقاليد العائلة والى الوالد والى

الماضي كله والى الانتماء ، ويعلن الحرب عليها ، وهكذا فالأمر خليق أن يبدو لي قابلا للفهم . لكن الانسان أمره عجيب . فهناك فكرة أخرى لا تبدو اطلاقا بعيدة عن الاحتمال ، وهي أن من باع هذا البيت كان يريد ببيعه أن يلحق الألم بنفسه ، لا بالعائلة وحدها . فقد خيبت العائلة أمله وأرسلته الى مدارس الصفوة عندنا وأمرت به أن يربى على طريقتنا ثم تلقفته عند عودته بمهام ومطالب لم يكن قد أصبح على قدرها . ولكنني لا أريد أن أطيل الحديث عن التعليل السيكولوجي . المهم أن قصة بيع البيت تبين القوة التي يتخذها الصراع بين الآباء والأبناء ، والقوة التي يتخذها الكره ، أو الحب المتحول الى كره . هذا الصراع بين الآباء والأبناء لا تخلو منه حياة الشخصيات النشيطة الموهبة الا نادرا ، وتاريخ العالم مملوء بالأمثلة . وأنا لا أستبعد أن تنجب عائلة ديزنيوري ابنا يكرس حياته لاستعادة هذا البيت الى ملك العائلة ثانية مهما كان الثمن » .

فصاح تيتو : « أتحقونه لو فعل ذلك ؟ » .

« لست أريد أن أنصب من نفسي قاضيا يحكم عليه أيها الشاب . على أنه اذا أتى يوما ابن من عائلة ديزنيوري ، ووعى عظمة أسرته ، ووعى المسؤولية التي تلقيها عليه هذه العظمة في حياته ، واستطاع أن يخدم المدينة والدولة والشعب والحق والخير بقوته ، وزاد بما قدم من جهود قوة ، وحتى وفق فيما وفق اليه من أمور ، الى استعادة البيت أيضا ، فانه يكون رجلا خليقا بالاحترام ، وعلينا أن نرفع القبعة أمامه اعترافا منا بقدره . أما اذا لم يكن له في حياته هدف آخر سوى حكاية البيت ، فانه لن يزيد عن أن يكون مخبولا ، عاشقا ، منساقا وراء العاطفة ، ورجلا لم يعرف الصراع بين الابن الشاب وأبيه بمعناها الحقيقي ، وأنه يحمل ، بعد أن صار رجلا ، هذا الصراع في جنباته دائما . وفي استطاعتنا أن نفهم مثل هذا الرجل ، وأن نأسف له ، لكنه لن يزيد مجد عائلته . جميل أن تتعلق عائلة عريقة ببيتها

وتكنّ الحب ، لكن هذه العائلة لا يتجدد شبابها وتزيد عظمتها الا بقيام أبنائها بخدمة أهداف أسمى من الأهداف التي كانت للعائلة » .

واذا كان تيتو في أثناء هذه النزهة قد استمع الى ضيف أبيه بانتباه وميل ، فقد أظهر له في مناسبات أخرى الاعراض والعناد ، وقد كان يتوقع أن يكون لهذا الرجل الذي اتفق أبواه على التمسك به ـ وما أقل ما كان يتفقان ـ بسلطان سيضر بانطلاقه المدلل ، فكان يعامله أحيانا معاملة غير مهذبة بمعنى الكلمة . الا أنه كان يتبع غلطته بتأسف وبرغبة في عدم العودة الى مثلها ، فقد كان يسوء كبرياءه أن يتعرى أمام الأدب الصافي الذي كان الماجستر يحيط نفسه به ، كأنه القميص المعدني اللامع الذي يتدرع به الفارس . هذا الى أنه كان يحس بصفة عامة في قلبه الغرير الهمجي ، بأن الماجستر رجل يمكن أن يحبه المرء ويحترمه .

وقد أحس تيتو بهذا خاصة في نصف ساعة قضاها مرة مع كنشت وحده ، وكان ينتظر وصول الوالد الذي تأخر لبعض الأعمال . فلما دخل تيتو الحجرة رأى الضيف يجلس ساكنا مسبلا عينيه في وضع يشبه التمثال ، وكان السكون والهدوء يشعان منه وهو في هذا الوضع التأملي ، حتى أن الصبي خفف من خطوه وأراد أن يتسلل من الحجرة على أطراف أصابعه . وهنا فتح الجالس عينيه وحياه برقة ونهض وأشار الى بيانو بالحجرة وسأل الصبي عما اذا كانت الموسيقى تأتيه بالمتعة .

ورد تيتو بالايجاب وقال انه لم يتلق منذ وقت طويل دروسا في الموسيقى ولم يعد يتمرن لأنه ليس من التلاميذ الممتازين ولأن المدرسين في المدرسة يشقون عليه ، ولكنه كان على الدوام يجد متعة في الاستماع الى الموسيقى . ففتح كنشت البيانو وجلس اليه وتأكد من أنه مضبوط ثم عزف جملة « أندانتي » من موسيقى سكارلاتي ، كان قد اتخذها أساسا لتمرين من تمرينات لعبة الكريات الزجاجية منذ قليل . ثم كف عن العزف

ولاحظ أن الصبي يتابع بانتباه وحماس ، فشرح له في كلمات قليلة ما يحدث في تمرينات لعبة الكريات الزجاجية من هذا النوع على وجه التقريب ، فجزأ الموسيقى الى عناصرها وأظهر الصبي على أنواع من التحليل يمكن اتباعها في عملية التجزيء ، ونوه الى الطرق التي تتبع لترجمة الموسيقى الى رموز اللعبة القدسية . ولأول مرة نظر تيتو الى الأستاذ ، لا نظرته الى ضيف أو الى شخصية عالمة مشهورة يعرض هو عنها لأنها تطبق على احساسه الذاتي ، بل نظرته الى أستاذ يعمل ، الى رجل تعلم فنا رقيقا دقيقا وأصبح يمارسه ببراعة ، وتبين أن ذلك الفن وان لم يفهمه الا ظنا ، يتطلب انسانا بأكمله يتحمس له كل الحماس . ورضي احساسه بقيمة نفسه كل الرضاء ، لأن الماجستر اعتبره من الكبار النبهاء فصار يجتذب اهتمامه لهذه الأشياء المعقدة . وخلد تيتو الى السكون في نصف الساعة هذا وبدأ يفكر في المصادر التي ينبع منها ما لهذا الرجل العجيب من صفاء وهدوء مكين .

كان نشاط كنشت في الديوان من الوقت الأخير كبيرا كنشاطه فيه في الوقت العصيب الذي تولى فيه المنصب . فقد كان مصمما على أن يترك كل شؤون مهامه في حالة نموذجية : وقد تم له ما أراد ، وان فشل في الوصول الى هدف آخر ، وهو اظهار شخصيته بمظهر الشخصية التي يمكن العثور على بديل لها بسهولة . والأمور تجري عندنا في المناصب العلية هكذا تقريبا : الماجستر يعلو ، كأنه حلية علوية ، أو مدالية لامعة ، صدر الأشياء المتشبعة التي يتكون منها مجال منصبه . فهو يأتي وينصرف بسرعة وبخفة كأنه ملاك لطيف فيقول كلمتين ، ويومئ برأسه مرة ويلوح بيده تلويحة تعني تكليفا بمهمة ثم اذا به قد انصرف واتجه الى شيء آخر ، فهو يلعب على جهاز منصبه ، كما يلعب الموسيقي على آلته ، فلا يبدو عليه أنه يبذل جهداً أو فكرا ، والأمور تسير بذلك كما ينبغي لها أن تسير . لكن كل موظف في هذا الجهاز يعرف ما يحدث ان سافر الماجستر أو مرض أو تحتم الحصول على

بديل له ولو لمدة ساعات أو لمدة يوم واحد! وبينما كنشت يقوم مرة بجولة تفتيشية في الدولة الصغيرة ، في قرية اللاعبين ، ويبذل جهده في تحويل مهامه الى «شبحه» ، واعداده ليمثله في الوقت القريب ، تبين أن ذات نفسه قد انفصلت تماما عن كل هذه الأمور ، وابتعدت عنها ، وأن كل ما في هذا العالم الصغير المنظم فكريا من تحف ثمينة لا يسعده ولا يستهويه . ولاحت له فالدتسل وأستاذيته كأنهما وراءه ، كأنهما مكان عبره الى نهايته وحصل منه على الكثير وتعلم منه الكثير ، ولكنه لم يعد يستطيع أن يجتذبه بقوى وأنشطة جديدة . وظل يتضح له بالتدريج في وقت الانشقاق والتوديع البطيء أن السبب الحقيقي لتحوله الى شخص غريب في فالدتسل ولرغبته في الانصراف ليس هو معرفته بالاخطار التي تحدق بكاستاليا والاشفاق على مستقبلها ، بل هو وجود جزء في قلبه وفي روحه ظل خاليا عاطلا زمنا ، ثم قام يطالب بحقه في العمل .

ودرس مرة أخرى دستور ولوائح الطائفة دراسة عميقة ، وتبين أن انصرافه عن الاقليم ليس صعبا ولا مستحيلا كما كان يتصور في مبدأ الأمر . فقد كان من حقه أن يعتزل المنصب لأسباب في ضميره ، كذلك الحال مع الطائفة ، فلم يكن النذر محددا بالعمر كله ، وان ندر وجود أعضاء في الطائفة ، وامتنع وجود أعضاء في الهيئة العليا ، استعملوا حقهم هذا في الاعتزال . لا ، ان ما جعل خطوته تلوح له صعبة لم يكن القانون وصرامته ، بل كان روح النظام الهرمي ، والاخلاص والتمسك المتمكن من القلب . حقيقة أنه لم يكن يريد أن يهرب خفية ، بل أعد طلبا معقدا يلتمس به حريته ، وبذل الصغير تيجولاريوس في تدبيجه أقصى جهده . ولكنه لم يكن يعتقد أن الطلب سيؤدي الى نتيجة ايجابية . وتوقع أن المسؤولين سيهدئونه وينبهونه ويعرضون عليه القيام باجازة للراحة والاستجمام ، ربما الى دير ماريافلس الذي خلا من الأب ياكوبوس بموته منذ قليل ، وربما الى روما .

ولكنهم لن يقرروا تركه ـ هكذا كان اعتقاده ـ لأن تركه يتعارض مع تقاليد الطائفة . فلو تركته الطائفة ينصرف ، لكان معنى ذلك أنها تعترف بأن مطلبه صحيح وبأن الحياة في كاستاليا حتى في هذا المستوى العالي ، لا ترضي الانسان في بعض الأحوال ، بل وتعتبر في نظره زهدا وسجنا .

الفصل الحادي عشر

المنشور الدوري

وهكذا نقترب من نهاية قصتنا . وقد سبق أن أشرنا من قبل الى أن معلوماتنا عن هذه النهاية ناقصة ، وأنها تتخذ صفة الأسطورة أكثر من صفة التاريخ . فلنكتف بما أوتينا . ومن حظنا أننا وجدنا وثيقة صحيحة نضعها في متن هذا الفصل قبل الأخير من قصة حياة كنشت ، هذه الوثيقة هي الكتاب المفصل الذي بسط فيه أستاذ لعبة الكريات الزجاجية للادارة الأسباب التي دعت الى اتخاذه قراره وطلب فيه اعفاءه من منصبه .

ينبغي أن نقول ان يوزف كنشت لم يكن يعتقد في نجاح الكتاب الذي تطلب اعداده جهدا جهيدا كما علمنا ، بل انه في الساعة الحاسمة تمنى لو لم يؤلف الالتماس ويقدمه . فقد حدث له ما يحدث لكل الناس الذي لهم على الآخرين سلطان طبيعي وتلقائي أول أمره : هذا السلطان لا ينفذ هكذا بلا نتائج تعتري صاحبه ، واذا كان الماجستر قد فرح باجتذاب صديقه تيجولاريوس لما عقد عليه النية ، وجعل منه مشجعا ومعينا ، فان ما حدث كان أقوى من أفكاره ومن أمانيه . ولقد اجتذب تيجولاريوس أو أغراه الى عمل لم يعد هو ، وهو صاحبه ، يؤمن به ، ولكنه لم يستطع أن يتراجع عن التصرف في هذا العمل ، عندما أتى اليه صديقه به كاملا في النهاية ، ولم يكن يستطيع أن ينحيه جانبا أو يصرف النظر عن استخدامه دون أن يجرح

صديقه ويصيبه بخيبة الأمل ، خاصة وقد كان للصديق في تأدية هذا العمل تخفيف لألم الفراق الوشيك . ونكاد نعتقد أن آراء كنشت في ذلك الوقت كانت تتجه على الأحرى الى ترك المنصب دون أخذ ورد والانصراف دون تبيان الأسباب ، وكانت تفضل عدم سلوك طريق تقديم «الطلب» ، ذلك الطريق الملتوي الذي لاح له كالملهاة . لكن حرصه على صاحبه دفعه الى أن يربط جأشه مرة أخرى .

ولعلنا لو وجدنا مخطوط تيجولاريوس المجتهد كنا وجدنا فيه شيئا يستحوذ على اهتمامنا . وقد كان يتكون أساسا من مادة تاريخية جمعها بقصد الاثبات والتمثيل ، ولكنا لا نخطئ خطأ كبيرا ان اعتقدنا أنه ضمّنه نقدا لاذعاً طريفا للنظام الهرمي وللعالم ولتاريخ العالم على السواء . الا أنه حتى ولو كان هذا المخطوط موجودا ، وهذا أمر محتمل جدا ، ولو وضع تحت تصرفنا ، فانه كان سيتحتم علينا أن نصرف النظر عن نشره ، فليس كتابنا المكان المناسب لنشره .

والشيء الوحيد الذي يهمنا هو كيفية استخدام الماجستر لعمل صديقه . عندما أتم الصديق عمله وقدمه الى كنشت تقديما طنانا . تلقاه هذا بكلمات الشكر القلبي والتقدير ، ورجاه أن يتلوه عليه ، لأنه كان يعلم أن تيجولاريوس سيجد في التلاوة متعة . وجلس تيجولاريوس أياما عديدة الى الماجستر في حديقته - وكان الوقت صيفا - كل يوم نصف ساعة ، وتلا عليه الصفحات العديدة التي يتكون منها المخطوط ، تلاوة كثيرا ما تخللها ضحك عال من الاثنين . كانت أيام تلاوة المخطوط أياما جميلة في حياة تيجولاريوس . فلما تمت التلاوة اعتكف كنشت وألف مستعينا بأجزاء من مخطوط صديقه كتابه الى الادارة وهو ما نورده هنا بلا تعليق لأنه ليس بحاجة الى تعليق .

كتاب الماجستر لودي الى الهيئة التربوية

دفعتني ، أنا الماجستر لودي ، اعتبارات مختلفة الى أن أبعث اليكم برغبة لي من نوع خاص ، في كتاب منفصل ، كأنه الى حد ما كتاب خاص ، بدلا من أضمنها تقريري الرسمي العام . وأنا أرفق هذا الكتاب بالتقرير الرسمي الذي حان موعده وأتممته ، وأرجو أن يقضى فيه على النحو الرسمي ، وان كنت اعتبره كشيء يشبه المنشور الدوري لزملائي الأساتذة الآخرين .

من واجبات الماجستر أن ينبه الادارة الى العقبات التي تعترض تأديته الدقيقة المخلصة لمهام منصبه ، والى الأخطار التي تتعرض لها . وعلى الرغم من أني اجتهدت في خدمة منصبي بكل ما أوتيت من قوة ، فانني أرى أو أعتقد أن هناك خطرا يتهدده ، خطرا مكانه في نفسي ولكن أساسه ليس في شخصي وحدي ، أو على الأقل فأنا أعتبر الخطر المعنوي المتمثل في ضعف أهليتي الشخصية لمنصب أستاذ لعبة الكريات الزجاجية خطرا موضوعيا موجودا خارج حدود شخصي . وبعبارة أوجز : لقد بدأت أشك في كفاءتي للقيام قياما تاما بمهام منصبي ، لأني أرى أن الخطر يتهدد منصبي ، ويتهدد لعبة الكريات الزجاجية التي أرعاها . والهدف الذي يكمن وراء كتابي يتلخص في تنبيه الهيئة الى أن الخطر كائن والى أن هذا الخطر ، وقد آن لي أن اتبينه ، يدعوني بالحاح لأذهب الى مكان آخر غير المكان الذي أقف فيه . ولأسمحن لنفسي بتوضيح الموقف بمثل : كأن رجلا يجلس في حجرة على سطح مبنى وينهمك في عمل علمي دقيق ، فاذا به يلاحظ أن النيران اشتعلت في أسفل البيت ، فلن يفكر فيما اذا كان انقاذ البيت من مهام منصبه أو لا ولن يفكر فيما اذا كان من الافضل أن يعكف على تبييض ما يعد من جداول ، بل سيجري الى أسفل ويحاول انقاذ الدار . هكذا أجلس أنا في

الدور العلوي من بنائنا الكاستالي ، وأشتغل بلعبة الكريات الزجاجية ، وأعمل بآلات رقيقة حساسة ، وأتبين بالفطرة ، بالغريزة ، أن حريقا نشب في مكان ما أسفل البناء ، وأن بناءنا كله يتهدده الخطر ، فلا يحق لي أن أقوم بتحليل الموسيقى ، أو استخراج قواعد للعبة ، بل ينبغي أن أعجل بالذهاب الى حيث يتصاعد الدخان .

ان المؤسسة الكاستالية طائفتنا ومعهدنا العلمي التربوي بما فيه من لعبة الكريات الزجاجية وكل ما سواها يلوح للأخوة أفراد الطائفة شيئا بديهيا مفهوما بذاته ، كما يلوح للناس جميعا الهواء الذي يتنفسونه والأرض التي يقفون عليها . فلا يكاد أحد يفكر مرة في أن الهواء والأرض قد يتبددان ، أو يفكر في احتمال أن ينعدم الهواء وتختفي الأرض من تحتنا . لقد كان من حظنا أن نعيش ناعمين في عالم صغير نظيف مرح ، والغالبية العظمى منا تعيش ، وان بدا هذا عجيبا ، في خرافة تصور لها أن عالمنا هذا كان دائما موجودا وأنا دفعنا بالميلاد الى داخله . وأنا أيضا عشت سنوات شبابي في هذا الخيال اللذيذ ، بينما كانت الحقيقة الواقعة معروفة لي تماما ، أعني أنني كنت أعرف أنني لم أولد في كاستاليا ، بل أرسلتني بعض الادارات اليها والمدارس ودور المحفوظات ولعبة الكريات لم تكن عملا من أعمال الطبيعة ، بل هي مخلوقات خلقتها ارادة الانسان في وقت متأخر وأنها ـ شأنها شأن ما يعمل الانسان ـ زائلة . كل هذا كنت أعرفه ولكنه لم يكن يتخذ في مفهومي صفة الواقعية ، فلم أكن أنعم التفكير فيه ، بل أمر عليه مرورا عابرا ، وأنا أعرف أن ثلاثة أرباعنا أو أكثر سيعيشون في هذا الوهم العجيب اللذيذ وسيموتون فيه .

وكما أنه وجدت في الماضي قرون وآلاف السنين بلا طائفة وبلا كاستاليا ، ستأتي في المستقبل عصور مشابهة . واذا كنت أنا اليوم أذكر زملائي والهيئة الموقرة بهذه الحقيقة وأطالبهم بأن يوجهوا بصرهم الى

الأخطار التي تتهددنا ، وألعب هذا الدور غير المحبوب الذي يثير شيئا من السخرية ، دور النبي والنذير والواعظ في هذه اللحظة ، فانني مستعد لتلقي السخرية وكل أملي مع ذلك في أن يقرأ أكثركم كتابي الى آخره ، وأن يحققني بعضكم في بعض النقاط . وما أكثر ذلك لو حدث .

تتعرض مؤسسة مثل اقليمنا كاستاليا ، الذي هو دولة صغيرة للفكر ، لأخطار داخلية وأخطار خارجية . أما الأخطار الداخلية ، أو على الأصح بعضها ، فمعروفة لنا ، ونحن نلاحظها ونكافحها . ونحن لازلنا نرد بعض تلاميذ مدارس الصفوة لأننا نكتشف مميزات ودوافع لا سبيل الى اقتلاعها تجعلهم غير صالحين لجماعتنا خطيرين عليها . ونحن نعتقد أن أغلب هؤلاء التلاميذ ليسوا بشرا قليلي القيمة بل نعتقد فقط أنهم غير لائقين للحياة الكاستالية وحدها وأنهم بعد عودتهم الى الدنيا يجدون فيها ظروف حياة أكثر ملاءمة لهم وأنهم يصبحون من الرجال المجدين . وقد أثبتت خبرتنا في هذا المجال فعاليتها ، حتى ليمكننا أن نقول عن جماعتنا عموما انها متمسكة بقدرها وبأدبها وانها تقوم بمهمتها فتمثل طبقة سامية وطبقة نبيلة أرستقراطية من أهل الفكر ، وتنشئ أجيالا جديدة لها . ومن المحتمل ألا يكون فيمن يعيشون بيننا من ذوي الدناءة والشغب الا القدر الطبيعي المقبول . أما الأمر الذي لا يتجرد عندنا من العيب الا قليلا ، فهو زهو الطائفة وتكبر الطبقة ، ذلك التكبر الذي تندفع اليه ، اندفاع الغواية ، كل طبقة نبيلة أرستقراطية ، وكل وضع له امتيازات ، والذي تلام عليه كل طبقة نبيلة أرستقراطية على الدوام ، تارة بحق وتارة بغير حق . وتاريخ المجتمعات يبين أن هناك اتجاها فيها الى محاولة تكوين طبقة أرستقراطية ، تكون قمتها وتاجها ؛ ويبدو أن تكوين أي نوع من الأرستقراطية أو من حكم الممتازين هو ـ وان لم نعترف بذلك ـ هدف محاولات تكوين المجتمعات ومثلها الأعلى . ومن الممكن أن نتبين في المجتمعات على الدوام كيف أن

السلطة سواء كانت ملكية أو غير ملكية تظهر استعدادها لتشجيع الطبقة الأرستقراطية الناشئة فتمنحها الحماية والامتيازات ، سواء كانت هذه الارستقراطية سياسية أو غير سياسية ، قائمة على الحسب والنسب أو على الاختيار والتربية والتعليم . والارستقراطية المميزة المفضلة تقوى دائما تحت هذه الشمس ، ووقوفها في هذه الشمس وفي هذه الامتيازات يمثل في مرحلة من مراحل تطورها غواية تؤدي بها الى الفساد . فاذا اعتبرنا طائفتنا أرستقراطية وحاولنا أن نفحص أنفسنا على هذا الأساس لنتبين الى حد يبرر سلوكنا نحو الشعب ككل ونحو العالم ككل مكانتنا الخاصة ، والى حد تملكنا ما يميز الأرستقراطية من زهو وتعال وفخار وتظاهر بالعلم الواسع واعلان عن الاستفادة الجاحدة ، لاكتشفنا أشياء تقض مضاجعنا . من الممكن أن يكون الكاستالي الحالي صاحب طاعة لقوانين الطائفة ونشاط وكد واشتغال رفيع بأمور الفكر ـ ولكن ألا يفتقر الى بصيرة بمكانه في مجموع الشعب والعالم وتاريخ العالم ؟ هل له معرفة بأساس وجوده ، هل يعرف أنه كورقة أو زهرة أو فرع أو جذر في كيان عضوي حي يتبعه ، يعرف شيئا عن التضحيات التي يقدمها الشعب من أجله ، اذ يقدم له الغذاء والكساء ويمكنه من التعليم والقيام بالدراسات المختلفة ؟ هل يفكر كثيرا في معنى وجودنا ومكانتنا الخاصة ، وهل يتصور تصورا حقيقيا هدف طائفتنا وحياتنا ؟ ومع اعترافي بوجود استثناءات ، استثناءات كثيرة شهيرة ـ فاني أميل الى الاجابة على هذه الأسئلة كلها بالنفي . ربما كان الكاستالي المتوسط لا ينظر الى أهل الدنيا وغير العلماء بازدراء وحسد وكره ، ولكنه لا يعتبرهم أخوة ، ولا يرى أنهم هم الذين يقدمون له ما يقيم به أوده ، هذا الى أنه لا يحس مطلقا بمسؤوليته المشتركة لما يحدث في العالم الخارجي . هدف حياته في نظره رعاية العلوم من أجل ذاتها ، أو التنزه الممتع في حديقة الثقافة التي تود أن تكون عالمية دون أن تكون كذلك تماما .

وباختصار ، فهذه الثقافة الكاستالية ، هذه الثقافة السامية النبيلة التي أقف منها موقف الاعتراف بالجميل ، لا تتخذ في يدي غالبية أصحابها وممثليها صفة العضو والإله الموجهين توجيها فعالا الى أهداف لخدمة شيء رفيع أو وضيع عن قصد ، بل تميل الى المتعة الذاتية والمرح الذاتي والى تنشئة واستخراج أشياء فكرية خصوصية . وأنا أعلم أن هناك عددا كبيرا من الكاستاليين العادلين ذوي القيمة الرفيعة الذين لا يقصدون غير الخدمة فحسب ، أعني بهم المعلمين الذين تلقوا تعليمهم عندنا ، وخاصة أولئك الذين يقومون ، هناك في البلاد بعيدا عن جو الاقليم اللذيذ وما فيه من ألوان التدليل الفكري ، بمهمة ذات أهمية لا سبيل الى تقدير قيمتها في مدارس العام الخارجي . هؤلاء المعلمون الشجعان الذين يقومون بالعمل في خارج كاستاليا هم في الحقيقة وواقع الأمر الوحيدون بيننا الذين يحققون هدف كاستاليا بالفعل ، ويقدمون بعملهم للبلاد والشعب خيرا كثيرا نرد به بعض ما نناله . أما أن أسمى وأقدس واجب عندنا هو المحافظة للبلاد وللعالم على القاعدة الفكرية التي أثبتت جدارتها كعنصر أخلاقي عظيم الفعالية كذلك : وأعني بها حب الحقيقة الذي ينبني عليه الحق وغيره ، ـ فهذا شيء يعرفه كل واحد منا أخوة الطائفة . لكننا اذا أمعنا النظر في ذواتنا انتهينا الى أن أغلبنا سيضطرون الى الاعتراف بأن خير العالم والمحافظة على الأمانة والنقاوة الفكرية خارج اقليمنا الذي أبقينا عليه جميلا نظيفا الى هذا الحد لا يمثلان أهم هدف ، بل لا يتسمان بالأهمية قط ، وأن علينا أن نترك لهؤلاء المعلمين في الخارج مهمة حمل ديننا للعالم ، بما يقدمون من عمل وجهد مخلص ، ويبررون لنا بهذه الطريقة انغماسنا في متعة امتيازاتنا كلاعبي كريات زجاجية وفلكيين ورياضيين . ويرتبط بما أشرت اليه آنفا من تكبر ومن روح الطبقة اننا لا نهتم اهتماما كبيرا بما اذا كنا نستحق امتيازاتنا بجهدنا أم لا ، ان غير قليل منا يتوهمون أن العزوف عن الدنيا المادية ، حسب أوامر

الطائفة ، هو فضيلة من الفضائل التي تمارس من أجل ذاتها ، في حين أن أقل ما يقابلها هو أن البلاد هي التي تمكننا من الحياة حياتنا الكاستالية .

وأنا أكتفي بالاشارة الى هذه العيوب والأخطار الداخلية ، وهي وان كانت تثير القلق ، لا تضر وجودنا طويلا في العصور الهادئة . لكننا نحن أهل كاستاليا لسنا مرتبطين بأخلاقنا وعقلنا فحسب ، بل مرتبطين ارتباطا جوهريا بحالة البلاد وبإرادة الشعب . فنحن نأكل لقمتنا ، ونستعمل مكتباتنا ، ونوسع مدارسنا ودور محفوظاتنا الآن ـ فاذا لم يعد لدى الشعب رغبة في تمكيننا من ذلك أو اذا عجزت البلاد عن تمكيننا من ذلك ، نتيجة لقحط أو حرب الخ ، فمعنى ذلك نهاية حياتنا ودراستنا توا . أما الأخطار التي تتهددنا من الخارج فهي أن تعتبر بلادنا ذات يوم كاستاليا وثقافتنا ترفا لا نستطيع الاستمرار في الكلف به ، بل وان تحول نظرتها الينا نحن من نظرة طيبة فيها الفخار بنا الى نظرة تتمثلنا كمتطفلين ومؤذين وكذابين وأعداء .

وأنا لو حاولت أن أضع هذه الأخطار تحت عيني الكاستالي المتوسط ، لكان لزاما علي أن أوضحها بأمثلة من التاريخ ، ولاصطدمت حينذاك بمقاومة سلبية ، وبنوع من الجهل والبلادة أكاد أصفهما بالصبيانية . فأنتم تعلمون أن الاهتمام بتاريخ الدنيا لدينا أهل كاستاليا ضعيف للغاية ، ويفتقر الكثيرون منا لا الى الاهتمام بالتاريخ فحسب ، بل الى تقديره حق قدره واحترامه . ولقد اجتذبني هذا العزوف عن الاشتغال بالتاريخ وما يختلط به من بلادة وتكبر الى البحث في أصله فوجدت له سببين . أولهما أن مضامين التاريخ ـ ولا أتحدث هنا عن تاريخ الفكر والثقافة الذي تحظى مضامينه عندنا بالرعاية الكبيرة ـ تتسم في نظرنا بسمة الدونية ، ومعرفتنا بتاريخ الدنيا تصوره لنا كما لو كان مكونا من صراعات غاشمة على السلطة والنعيم والبلاد والمواد الخام والمال باختصار على أشياء مادية كمية ، أشياء نعتبرها نحن لا فكرية وحقيرة . القرن السابع عشر في اعتبارنا هو عصر ديكارت وباسكال

وفروبرجر وشوتس وليس كرومويل أو لويس الرابع عشر[١] . وثاني السببين لخوفنا من التاريخ العالمي يتمثل ، في تقديري ، في ريبتنا الموروثة ، والتي لها من الأسباب ما يبرر أكثرها ، ريبتنا حيال طريقة معينة من طرق النظر الى التاريخ ، وكتابته كانت شائعة محبوبة في عصر التدهور الذي سبق انشاء طائفتنا ، طريقة لا يمكننا بحال من الأحوال أن نوليها ثقتنا : وتتمثل هذه الطريقة فيما يسمى بفلسفة التاريخ ، تلك التي بلغت أطرف ازدهار لها ، وفي نفس الوقت أخطر تأثير لها عند هيجل[١] . ثم قادت في القرن الذي تلاه الى أقبح تشويه للتاريخ واهدار لأخلاقية حب الحقيقة . والشغف بما يسمى بفلسفة التاريخ يدخلنا حسب تقديرنا في المميزات الرئيسية لهذا العصر المتدهور فكريا الممتلئ بالصراعات السياسية الواسعة على السلطة ، الذي نسميه أحيانا «عصر الحروب» ونسميه غالبا «عصر صحافة التسلية» . ولقد نشأت ثقافتنا الحالية ونشأت هي والطائفة وكاستاليا على أنقاض ذلك العصر على اثر مكافحة ما له من فكر أو على الأحرى من «لا فكر» والتغلب عليه . ويرتبط بغرورنا الفكري موقفنا من تاريخ العالم وخاصة من العالم الحديث موقفا يشبه موقف الناسك والزاهد في عصر المسيحية الأول من مسرح العالم . فالتاريخ يتمثل لنا كسوق من الغرائز والأذواق المتغيرة والشغف بالجديد ، من العنف والتحطيم والحرب ، من الوزراء الطموحين ، والجنرالات المرتشين ، من المدن المنسوفة ، وننسى بسهولة أن هذا مظهر واحد من مظاهر التاريخ الكثيرة . وننسى قبل كل شيء أننا نحن قطعة من التاريخ ، اننا شيء نشأ وأصبح ، شيء مصيره الموت ان فقد القدرة على استمرار النمو والتحور . نحن أنفسنا تاريخ ، ومسؤولون عن تاريخ العالم وعن مكانتنا مسؤولية مشتركة . واننا لنفتقر الى الشعور بهذه المسؤولية عندنا جدا .

---

(١) Cromwell, Schutz, Froberger, Pascal, Descartes, Hegel. Louis XIV

فاذا ألقينا نظرة الى تاريخنا نحن ، الى عصور نشأة الأقاليم التربوية الحالية في بلادنا وفي غير بلادنا ، والى نشأة الطوائف والنظم الهرمية المختلفة التي تدخل طائفتنا في زمرتها ، وجدنا أن نظامنا الهرمي ووطننا ، كاستاليا العزيزة ، لم ينشئهما قط أناس عزفوا عن تاريخ العالم وتكبروا عليه مثلنا . لقد بدأ سلفنا ومؤسسو اقليمنا عملهم في نهاية عصر الدمار ، في عالم متهدم . ولقد تعودنا على تفسير ظروف العالم في ذلك الوقت ، الذي بدأ بما سمي بالحرب العالمية الأولى تفسيرا من جانب واحد ، ودرجنا على القول بأن الفكر لم يكن فيه شيئا له قيمة وأنه كان في يد أصحاب السلطة العتاة وسيلة منضوية طيعة من وسائل الكفاح يستعملونها من حين لآخر ، وأن ذلك كان نتيجة لفساد عصر صحافة التسلية . ومن السهل أن نتبين اللافكرية والوحشية التي جرت بها الصراعات على السلطة تلك التي أشرنا اليها . وأنا اذا كنت أسميها باللافكرية ، فلست أفعل ذلك لأني لا أرى منجزاتها الهائلة ذكاء ومنهجا ، وانما لأننا تعودنا وحرصنا على النظر الى الفكر على أنه ارادة للحقيقة بالدرجة الأولى ، والظاهر أن ما استهلك من فكر في تلك الصراعات لم يكن يرتبط بارادة الحقيقة بأي رباط . وكان من سوء حظ هذا العصر أن الاضطراب والديناميكية اللذين نجما عن الزيادة الهائلة في عدد السكان لم يجدا أمامهما نظاما اخلاقيا ثابتا نوعا ما يتصدى لهما . وكانت هناك بقية من نظام أخلاقي طغت عليها الشعارات في ذلك الوقت ، وما أكثر الوقائع الفظيعة العجيبة التي جرت في غضون هذه الصراعات . وامتلأت الدنيا باضطراب هائل كما امتلأت من قبل أيام لوتر وانقسام الكنيسة قبل أربعة قرون ، وتكونت جبهات حربية في كل مكان ، وحدث عداء مميت مرير فجأة في كل مكان بين ما هو قديم وما هو حديث ، بين الوطن والانسانية ، بين الأحمر والأبيض . ونحن أبناء العصر الحاضر لم نعد قادرين على استعادة مضامين ومعاني كل هذه الشعارات والنداءات ،

واستعادة ما كان لـ«الأحمر» ولـ«الأبيض» من سلطان ومن ديناميكية داخلية ، فما بالك بفهمها والاحساس بها . نرى في أوروبا كلها ، بل في نصف المعمورة ـ كما رأى القدماء في عصر لوتر ـ حزبين : مؤمنين وكفرة ، شبابا وشيوخا ، مكافحين من أجل الأمس ومكافحين من أجل الغد ، ينقضون بعضهم على البعض الآخر في حماس أو في يأس ، وكثيرا ما أدى الانقسام الى جبهات الى انقسام مقابل له في خرائط البلاد وفي الشعوب والعائلات . وليس لنا أن نشك في أن ذلك العمل كله كان في نظر غالبية المصارعين من أجله ، أو زعمائهم ، عملا سليما ، له معنى بالغ الرفعة ، كذلك لا يحق لنا أن ننكر على كثير من الزعماء والمسؤولين في هذه الصراعات نوعا من حسن النية القوي ، أو كما كانوا يقولون في ذلك الوقت ، نوعا من المثالية . كان الكفاح والتقتيل والتخريب يسير في كل مكان على قدم وساق ، وكان الجانبان يعتقدان أن صراعهما صراع ضد الشيطان ، وجهاد في سبيل الله .

أما عندنا فقد هوى ذلك العصر الغاشم المليء بالتحمسات العالية ، والكراهية الغاشمة ، والآلام التي لاسبيل الى التعبير عنها ، الى نوع من النسيان ، لا يكاد الانسان يفهمه لأنه مرتبط ارتباطا وثيقا بنشأة مؤسساتنا كلها وبالشروط التي سبقتها والأسباب التي دعت اليها . وربما أمكن بعض الهجائين مقارنة هذا النسيان بالتناسي الذي يصطنعه المغامرون الذين يرفعون الى مصاف النبلاء أو الذين يصلون الى مراتب عليا ، يصطنعونه ازاء حسبهم ونسبهم . ينبغي أن نبقي هذا العصر المليء بالحروب نصب أعيننا . ولقد قرأت عددا من وثائق هذا العصر وركزت اهتمامي على مسلك أهل الفكر فيه أكثر من تركيزه على الشعوب المقهورة والمدن المنسوفة . كان حال أهل الفكر عصيبا ، وأكثرهم صعبت عليه المقاومة . فسقط الشهداء بين العلماء كما سقط الشهداء بين رجال الدين ، ولم تضع شهادتهم في هذا العصر المليء بالفظائع ، ولم يضع مثلهم فيه هباء . المهم أن غالبية أرباب

الفكر لم يقبلوا ظلم عصر الطغيان ، فمنهم من استسلم للطغاة ووضع هباته ومعلوماته ومناهجه تحت تصرفهم . وقد اشتهرت كلمة قالها أحد أساتذة الجامعة في جمهورية المساجيتيين[1] : « ليست الكلية هي التي تقرر حاصل ضرب اثنين في اثنين ، بل الذي يقرر ذلك هو السيد الجنرال » . ـ ومنهم من وقفوا موقف المعارضة عندما تمكنوا من اللوذ بأرض تظللها الحماية نوعا ما ، وأصدروا الاحتجاجات . ويروي أن مؤلفا ذا شهرة عالمية ـ على حسب ما ورد عند تسيجنهالس ـ وقع في ذلك الوقت في عام واحد ما يزيد على مائتين من هذه الاحتجاجات والانذارات والنداءات الموجهة الى العقل... الخ ، وربما كان عددها أكثر مما قرأ . أما الغالبية فقد تعلمت الصمت ، وتعلمت كذلك البرد والجوع والتسول والاختفاء من الشرطة ، فماتوا قبل الأوان ، وحسدهم من لم يموتوا بعد على موتهم المبكر . وانتحر عدد لا يحصى . ولم يعد من الممتع أو المشرف أن يكون الانسان عالما أو أديبا : فمن وضع نفسه في خدمة الحاكمين وشعاراتهم وجد منصبا وعيشا ، ولكنه نال احتقار زملائه ، وأحس غالبا بوخز الضمير ـ أما من رفض هذه الخدمة ، قد جاع وعاش مهدر الدم في البؤس أو المنفى الى أن يموت . وتمت في هذا الوقت عملية تصفية بالفظاعة والقسوة التي لم يسمع أحد لها بمثيل . وتدهور البحث العلمي بسرعة ، الا ما كان منه في خدمة أهداف الحرب ، والسلطة ، وتدهورت المدارس كذلك . أما تاريخ العالم فقد فسرته كل من الأمم القائدة لصالحها خاصة ، فأصبح مبسطا ، محرفا ، وأصبح لفلسفة التاريخ ولصحافة التسلية نفوذ وصل الى قلب المدارس نفسها .

كفانا الآن تفصيلات . كانت تلك الأوقات أوقاتا عصيبة غاشمة ، أوقاتا فوضوية مضطربة تذكر بالعصور البابلية ، لم يتفاهم فيها الشعوب والأحزاب ، الكبار والصغار ، الأحمر والأبيض . وكانت نهايتها الترف والبؤس الكافيين

(١) Republik Der Massageten

تتمثل في حنين الجميع حنينا قويا الى التفكير ، والى ابتكار لغة مشتركة ، والى النظام والخلق ، والى المعايير النافذة ، والى أبجدية وجدول ضرب لا تفرضه مصالح السلطة الحاكمة وتغيره في لحظة . ونشأت حاجة هائلة الى الحقيقة والحق والعقل والى التغلب على الفوضى . وكان هذا الفراغ الذي نشأ في نهاية عصر تعسفي متجه الى الخارج فحسب ، وكان حنين الجميع حنينا شديدا ملحا على نحو لا يوصف الى البداية بداية جديدة والى النظام ، هو الذي أدى الي ظهور كاستاليا والى وجودنا . فقد بدأت جماعة المفكرين الحقيقيين القليلة الشجاعة ، التي جاعت حتى أشرفت على الموت ، والتي ظلت مع ذلك صلبة لا تلين ، بدأت تحس بمقوماتها ، وشرعت في تربيتها الذاتية الزاهدة البطلة تصنع لنفسها نظاما ودستورا ، وراحت تعمل مرة ثانية في كل مكان في جماعات صغيرة أوضئيلة ، وتزيل الشعارات وتبني من الأساس الأول نشاطا فكريا ، وتربية وبحثا علميا وثقافة .ونجح البناء وتحول من بداياته الفقيرة البطولية ببطء الى بناء بديع ، وخلق على مر أجيال الطائفة وهيئة التربية ومدارس الصفوة ودور المحفوظات والمصاحف والمدارس الفنية والمعاهد ولعبة الكريات الزجاجية ، أما نحن اليوم فاننا نسكن هذا البناء الذي يكاد المرء يقول أنه مسرف في الترف باعتبارنا الورثة المنتفعين . ولنكرر قولنا مرة أخرى ، اننا نسكن فيه كضيوف لا يعلمون بشيء ويركنون الى الراحة والدعة ، ولسنا نريد أن نعرف شيئاً عن التضحيات البشرية الهائلة التي قامت عليها جدران أساسنا ، ولسنا نريد أن نعرف شيئا عن الخبرات الأليمة التي أصبحنا نحن ورثتها ، لسنا نريد أن نعلم شيئا عن تاريخ العالم الذي أنشأ بنياننا أو رضي به ، والذي يحملنا أو يسكت علينا والذي سوف يرفع بعدنا بعض الكاستاليين والأساتذة ، والذي سوف يهدم بنياننا ويلتهمه مرة كما يهدم ويلتهم كل ما ينشئ .

ولأعد الآن من التاريخ ، الى النتيجة التي تنطبق على اليوم وعلينا

وهي : أن نظامنا وطائفتنا تجاوز كلاهما ذروة الازدهار والسعادة ، التي يسمح سير أحداث العالم الغامض بها أحيانا لما هو مرغوب جميل . ونحن الآن في تدهور ربما يطول زمنا طويلا ، ولكننا على أية حال لن نجد لنا شيئا أعلى وأجمل وأفضل مما ملكنا ، فطريقنا يتجه الى أسفل . اننا فيما أعتقد قد وصلنا تاريخياً الى مرحلة التهدم . وسيأتي هذا التهدم بلا شك ، لن يأتي اليوم ولا غدا ولكنه سيأتي بعد غد . وأنا لاأستنتج هذا من تقييم أخلاقي مسرف في الأخلاقية لمنجزاتنا وقدراتنا فحسب ، بل استنتجه أيضا وعلى نطاق أوسع من الحركات التي أراها تستجد في العالم الخارجي . فهناك أوقات عصيبة تقترب ، والناس يحسون في كل مكان بوادرها ، أوقات سيغير فيها العالم مرة أخرى مركز ثقله . هناك تغيرات في السلطة والنفوذ في مرحلة الاعداد ولن تتم هذه التغييرات بغير حرب وبغير عنف . هناك تهديد لا للسلام فحسب ، بل وللحياة والحرية آت من الشرق الأقصى . وحتى اذا التزمت بلادنا وسياستنا الحياد ، وقرر شعبنا كله بالاجماع (وهذا ما لن يفعله) الحفاظ على ما لديه والاخلاص للمثل العليا الكاستالية ، فان ذلك لن يفيد شيئا . وهناك من نواب البرلمان من يقولون الآن بوضوح من حين لآخر ان كاستاليا ترف غال على البلاد . فإذا طرأت حاجة للتسلح الحربي الجدي ، للدفاع فقط ، وهذا ما سيحدث قريبا ، فسينتهي الأمر الى اجراءات تقشف شديدة سيصيبنا منها الكثير ، مهما كانت الحكومة من حسن النية . نحن نفخر بأن طائفتنا وما تقوم به من ضمان دوام الثقافة الفكرية لا يكلفان البلاد الا تضحيات متواضعة نسبية . وهذه التضحيات اذا ما قورنت بتضحيات عصور أخرى ، خاصة عصر صحافة التسلية المبكر بما كان فيه من مدارس عليا فاخرة ، ومستشارين عديدين ومعاهد بديعة ، تضحيات ليست كبيرة فعلا ، تضحيات ضئيلة اذا قورنت بالتضحيات التي التهمتها الحرب وابتلعها التسليح في عصر الحروب . لكن هذا التسليح ربما يصبح عما قريب اسمى

مطلب ، وربما يسيطر الجنرالات على البرلمان مرة ثانية ، واذا خير الشعب بين التضحية بكاستاليا وبين التعرض لخطر الحرب والفناء ، فإننا نعلم الاتجاه الذي يتخذه تصويته . عندئذ ستزدهر في الحال بلا شك ايديولوجية حربية تتملك الشباب خاصة ، وستزدهر فلسفة شعارات لن يستحق العلماء والعلم واللاتينية والرياضية والثقافة والفكر ـ الحياة في تقديرها الا بقدر تمكنهم وتمكنها من خدمة أهداف الحرب .

هذه الموجة الآن في الطريق ، وستطيح بنا يوما ما . ربما سيكون في ذلك خير وضرورة . ولكننا حتى الآن ، أيها الزملاء المبجلون ، نمتلك بقدر تبصرنا فيما يجري من أمور وبقدر يقظتنا وشجاعتنا تلك الحرية المحدودة في التصميم والتصرف ، التي منحها الانسان والتي تجعل تاريخ العالم تاريخ الانسان . في استطاعتنا إن أردنا أن نقفل أعيننا لأن الخطر مايزال بعيدا نسبيا ، وربما أتيح لنا ، نحن أساتذة اليوم ، أن نموت في فراشنا هادئين ، قبل أن يتضح هذا الخطر للجميع ويقترب . أما في نظري أنا ، بل وفي نظر آخرين غيري بلا شك ، فلن يكون هذا الهدوء هدوء الضمير المرتاح . لهذا فلست أريد أن أدبر أمر منصبي وألعب ألعاب الكريات الزجاجية هادئا معتمدا على أن ما سيأتي من عظائم الأمور لن يجدني حيا . كلا ، نما يبدو لي ضروريا أن أذكر أننا نحن المنصرفين عن السياسة نتبع تاريخ العالم ونساعد على عمله . لذلك قلت في مطلع كتابي هذا ان عملي في منصبي منقوص أو مهدد ، فأنا لا أستطيع أن أحول بين جزء كبير من أفكاري واهتماماتي وبين الاحاطة بالخطر القادم . كل ما أفعله هو أنني أمنع خيالي من اللعب بالأشكال التي يمكن أن تتخذها المصيبة اذ تصيبنا وتصيبني . ولكنني لا أستطيع أن أصم أذني عن سؤال : ماذا ينبغي علينا ، وماذا ينبغي علي فعله لمقاومة الخطر ؟ وأسمح لنفسي بكلمة في هذا .

لست أود أن أمثل مطلب افلاطون بأن يكون للعالم ، أو على الأصح

للحكيم ، الحكم في الدولة . فقد كانت في وقت أفلاطون أكثر شبابا منها الآن . ولم يكن أفلاطون ، على الرغم من أنه صمم ما يشبه الكاستاليا ، كاستاليا قط ، بل كان أرستقراطيا في حسبه ونسبه ، وكان من سلالة الملوك . كذلك فنحن أرستقراطيون ، ونكون طبقة أرستقراطية ، ولكنها أرستقراطية الدم . ولست أعتقد أن البشر سيوفقون يوما في تكوين أرستقراطية حسب وفكر معا ، والا لكانت هي الأرستقراطية المثالية ، وهكذا ستظل هذه الأرستقراطية حلما . ونحن أهل كاستاليا ، رغم ما لنا من أخلاق ومهارة ، لانصلح للحكم ، ولو اضطررنا يوما للحكم ، لما حكمنا بالقوة والسذاجة اللذين يعتمد عليهما الحاكم الحقيقي ، ليتعرض للاهمال مجالنا الحقيقي واهتمامنا الحقيقي ، ألا وهو رعاية حياة فكرية نموذجية . وما يحتاج الانسان ليحكم ، كما يعتقد بعض المفكرين والمغرورين الى الغباء والقوة الغاشمة ، وانما يحتاج الى متعة دائمة بنشاط يتجه الى الخارج ، وحب لتقمص الغايات والأهداف ، ويحتاج بلا شك كذلك الى نوع من السرعة وعدم التردد في اختيار الطرق الموصلة الى النجاح . وتلك صفات لا يصح أن يتخذها العالم ـ ولسنا نريد أن نسمي أنفسنا حكماء ـ تلك صفات ليست للعالم : لأننا نرى أن التأمل أهم من العمل ، ولقد تعلمنا في معرض اختيار الوسائل والمناهج للوصول الى أهدافنا أن نكثر من مساءلة الضمير ومن الشك ما أمكن . اذا فليس لنا أن نحكم وليس لنا أن نمارس السياسة . فنحن خبراء في البحث والفحص والتحليل والقياس ، نحن الحفاظ على كل الأبجديات وجداول الضرب والمناهج المتثبتين منها على الدوام ، نحن الوزانون الذين يدمغون المعايير والأوزان . نحن بلا شك أكثر من هذا بكثير ، ربما نكون في بعض الأحيان مجددين ومكتشفين ومغامرين وفاتحين ومؤولين ، أما وظيفتنا الأولى والبالغة الأهمية التي يحتاج الشعب الينا ويحافظ علينا من أجلها فهي تنقية منابع العلم كلها . ربما كان تحويل

الباء الى ألف عملا كبيرا عبقريا في ميدان التجارة أو السياسة ، لكنه لدينا عمل لا يمكن قط أن يتصف بهذه الصفات .

في العصور القديمة كان يطلب من المفكرين فيما كان يسمى بالعصور «العظيمة» وفي حالات الحرب والانقلابات أن يشتغلوا بالسياسة أحيانا . كانت هذه هي الحال خاصة في عصر صحافة التسلية المتأخر الذي كان يطالب بأمور منها : اشتغال الفكر بالسياسة أو العسكرية . كان أن تقرر أن يصادر الفكر ويستغل كوسيلة من وسائل الحرب ، كما صودرت أجراس الكنائس وصبت منها مواسير المدافع ، وكما عبئ أولاد المدارس الصغار لتكملة الكتائب التي منيت بخسائر كبيرة في الأرواح .

ونحن بطبيعة الحال لا يمكن أن نقبل مثل هذا المطلب . ولا حاجة بي الى التعليق بكلمة واحدة على حالة العالم الذي ينتزع في سوط الأزمة من منصته أو مكتبه ليجند ، أو حالة العالم الذي تفرض عليه الظروف أن يتطوع للحرب ، أو حالة العالم الذي يتحتم عليه أن يعاني الصعوبات المادية البالغة القسوة حتى الجوع . فكلما علت ثقافة الانسان ، وكلما عظمت الامتيازات التي كان يتمتع بها ، كلما كانت التضحيات التي ينبغي عليه تقديمها في الأزمات كبيرة . وأملي أن يفهم كل الكاستاليين هذا مرة فهمهم الأمور العادية الواضحة . ونحن عندما نبدي استعدادنا للتضحية برفاهيتنا وهناءتنا وحياتنا من أجل الشعب عندما يدهمه الخطر ، فلا يعني هذا أننا نضحي كذلك بالفكر والتقاليد والأخلاق التي يتسم بها نشاطنا الفكري في سبيل اهتمامات اليوم والشعب أو الجنرالات . والجبان من يهرب من الجهود والتضحيات والأخطار التي يتعرض لها شعبه . والجبان الخائن أيضا هو من يخون مبادئ الحياة الفكرية من أجل مصالح مادية ، من يكون مثلا على استعداد ليترك لأصحاب السلطان أن يقرروا حاصل ضرب اثنين في اثنين! إن التضحية بحب الحقيقة ، وبالأمانة الفكرية ، وبالاخلاص لقوانين ومناهج الفكر من أجل مصلحة أخرى

مهما كانت ، حتى مصلحة الوطن نفسه ، خيانة . فاذا حدث في صراع المصالح والشعارات أن تعرضت الحقيقة لخطر فقدان القيمة والتخريف والاغتصاب ، كما يتعرض الفرد له ، وكما تتعرض له اللغة والفنون وكل كائن عضوي ، وكل ما استنبط ونمى نماء فنيا جميلا ، فان واجبنا الوحيد يتلخص آنئذ في المقاومة ، وفي انقاذ الحقيقة أعني انقاذ السعي وراء الحقيقة . باعتباره أسمى ما في إيماننا . والعالم ـ سواء كان خطيبا أو كاتبا أو معلما ـ الذي يقول الخطأ ، وهو يعلم أنه الخطأ ، أو يساند الأكاذيب والتحريفات وهو يعلم أنها كذلك ، لا يسلك فحسب مسلكا مضادا للقوانين الحيوية الأساسية ، بل يصيب شعبه ، رغم ما قد يظهر غير ذلك من نجاح وقتي ، بالأذى الشديد ، لأنه يفسد الهواء والأرض ، والطعام والشراب ، ويسمم التفكير والحق ويعين كل شر وكل عدو يهدد الشعب بالابادة .

فلا ينبغي اذن أن يصبح الكاستالي رجل سياسة ، وانما ينبغي في حالة الضرورة أن يضحي بنفسه ، دون أن يضحي قط باخلاصه للفكر ، والفكر لا يكون خيرا كريما الا في طاعته للحقيقة ، فاذا خانها ، وتخلى عن احترامه لها ، ولان للمال والاغراء ، أصبح هو الشيطانية في أقوى صورها ، أصبح شيئا أبشع من البهيمية الحيوانية الغريزية فان تلك البهيمية تتصف على أية حال بشيء من براءة الطبيعة .

وأنا أترك لكل منكم ، أيها الأخوان الأجلاء ، مهمة التفكير في ماهية واجبات الطائفة عندما تتعرض البلاد وتعرض الطائفة للخطر . وستختلف في ذلك المفاهيم . أما أنا فلي مفهومي ، وقد توصلت بعد تفكير في المسائل التي أثرتها هنا الى صورة واضحة لواجبي ومسعاي . ويدفعني هذا الى التقدم بطلب شخصي الى الهيئة الموقرة أختم به مذكرتي .

وأنا بين الأساتذة الذين تتكون منهم هيئتنا أبعدنا عن العالم الخارجي باعتباري الماجستر لودي . فأستاذ الرياضة ، وأستاذ فقه اللغة ، وأستاذ

الطبيعة ، وأستاذ التربية ، والأساتذة الآخرون يعملون في مجالات متصلة بالعالم الخارجي ، ففي المدارس العادية غير الكاستالية في البلاد كلها يتكون أساس منهج التعليم من اللغة والرياضة ، كذلك في المدارس العليا العادية غير الكاستالية تدرس الطبيعة والفلك ، والموسيقى يمارسها حتى الجهلاء . كل هذه العلوم والمواد قديمة جدا ، أقدم من طائفتنا بكثير ، وستظل بعد طائفتنا حية . أما لعبة الكريات الزجاجية فهي وحدها ابتكارنا الخاص ، وتخصصنا وطفلنا المحبوب ولعبتنا ، انها التعبير النهائي المتمايز لطريقتنا الكاستالية القحة في أعمال الفكر . وهي في الوقت نفسه أثمن جوهرة في كنزنا وأحبها الينا ، ولكنها في الوقت نفسه أقلها فائدة وأكثرها تعرضا للكسر . وهي أول ما سيفنى اذا تعرض وجود كاستاليا للخطر ، لا لأنها أكثر ما نملك قابلية للكسر فحسب ، وانما لأنها تلوح للجاهل بلا شك أكثر ما في كاستاليا استحقاقا للقذف . فاذا اتجهت الدولة الى توفير المصروفات التي يمكن الاستمرار بدونها ، فسوف تقلل مدارس الصفوة ، ويختصر الاعتماد المخصص للمحافظة على المكتبات والمتاحف وتزويدها بالجديد ثم يحذف في النهاية ، وتقلل وجبات الطعام التي نتناولها ، ولا تجدد الملابس التي نرتديها ، أما العلوم والمواد الرئيسية فسوف تترك كلها قائمة باستثناء لعبة الكريات الزجاجية . فالرياضة ضرورية لاكتشاف مدافع جديدة ، أما أن نسف قرية اللاعبين والقضاء على لعبتنا يضر البلاد والشعب ، فهذا الشيء لن يصدقه أحد وآخر من قد يصدقه العسكريون . فلعبة الكريات الزجاجية اذن هي أكثر ما في بنائنا تطرفا وتعرضا للخطر . وربما كان هذا هو السبب الذي جعل الماجستر لودي ، وهو المشرف على هذا الفرع الغريب على العالم ، هو أول من تنبأ بالزلزال القادم وعبر للهيئة عن احساسه به .

فأنا اذن أعتبر لعبة الكريات الزجاجية في حكم الفانية اذا حدثت اضطرابات سياسية وخاصة حربية . ستذوي سريعا حتى ولو ظل أفراد

يتعلقون بها مخلصين ولن تكون لها عودة . لأن الجو الذي سيأتي على أثر عصر حرب جديد ، لن يفسح لها صدره . ستختفي كما اختفت عادات بديعة في تاريخ الموسيقى ، مثل جوقات المغنين المحترفين حول عام ١٦٠٠ أو الموسيقات المزخرفة أيام الآحاد بالكنائس حول عام ١٧٠٠ . في ذلك الوقت سمعت آذان البشر أنغاما لا يمكن لعلم أو لسحر أن يستعيدها الآن بصفائها الملائكي المنير . كذلك لعبة الكريات الزجاجية لن يطويها النسيان ، ولكنها ستتحول الى شيء لا سبيل الى استرجاعه ، وسيطلق من سيعكفون بعد ذلك على دراستها ودراسة نشأتها وازدهارها ونهايتها الزفرات ويحسدوننا على تمكننا من الحياة في عالم صاف فكري سالم معتنى به .

وعلى الرغم من أنني ماجستر لودي ، فلست أرى من واجبي ، أو من واجبنا ، أن نحول دون انتهاء اللعبة أو أن نؤجل فناءها . فإن الجميل والأجمل معرضان للفناء مذ يصبحان تاريخا وظاهرة على وجه الأرض . هذا شيء نعلمه ، ونحزن له ، ولا نحاول جادين تغييره ، لأنه لا سبيل الى تغييره . فاذا سقطت لعبة الكريات الزجاجية فسوف تكون في ذلك خسارة لكاستاليا وللعالم ، ولكن العالم لن يحس هذه الخسارة الا قليلا لأنه سيكون في ذلك الوقت مشتغلا وسط الأزمة اكبرى بإنقاذ ما يمكن إنقاذه . من الممكن أن تؤدي الهيئة التربوية عملها بغير ماجستر لودي ، ولكن كلمة «ماجستر لودي» تعني ، ما كدنا ننساه ، تعني في أساسها وجوهرها شيئا آخر غير ذلك التخصص الذي انكمشت فيه ، كلمة «ماجستر لودي» تعني في الأصل بكل بساطة مدرس . وسوف تزيد حاجة بلادنا الى المدرسين ، الى المدرسين المجيدين الشجعان ، كلما زاد تعرض كاستاليا للخطر وكلما زاد عدد ما ينقص منها من جواهرها الثمينة لن نحتاج الى أحد قدر حاجتنا الى المدرسين ، الى الرجال الذين يعلمون الشباب القدرة على القياس والحكم ويكونون قدوة لهم في احترام الحقيقة وطاعة الفكر وخدمة الكلمة . ولا ينطبق هذا فقط وبالدرجة

الأولى على مدارس الصفوة عندنا ، تلك المدارس التي سينتهي وجودها يوما ما الى نهاية ، وانما ينطبق على مدارس العالم في الخارج حيث يتربى ويتعلم المواطنون والفلاحون وأرباب الحرف والجنود والسياسيون ما كان هناك أولاد وما كان الأولاد صالحين للتربية . هناك في هذه المدارس أساس احياة الفكرية في البلاد ، وليس أساسها في معاهد كاستاليا وفي لعبة الكريات الزجاجية . ولقد زودنا ، كما قلت ، البلاد بالمعلمين والمربين : وهؤلاء هم أحسننا . لكن ينبغي علينا أن نفعل أكثر من هذا الذي فعلناه . ولا يليق بنا أن نركن الى أن تيار الموهوبين سينساب دائما الينا آتيا من مدارس الخارج ويعيننا على الإبقاء على اقليمنا كاستاليا . انما ينبغي علينا أن نعترف بأن ذلك العمل المتواضع المثقل بالمسؤولية في المدارس ، في مدارس العالم خارج كاستاليا هو أكثر أجزاء مهمتنا أهمية وشرفا ، وأن ننميه .

وبهذا أكون قد وصلت الى الطلب الشخصي الذي أود أن أقدمه الى الهيئة الموقرة . أرجو الهيئة أن تعفيني من منصبي كماجستر لودي وأن توكل إليّ مدرسة عادية بالبلاد خارج كاستاليا ، مدرسة صغيرة أو كبيرة ، وأن تسمح لي بأن أنشئ بالتدريج رعيلا من اخوان الطائفة يحترفون التدريس ، وأثق في أنهم سيعينوني مخلصين على جعل مبادئنا الأساسية لحما ودما في شباب أهل العالم .

وأرجو أن تتكرم الهيئة الموقرة بفحص طلبي والأساس الذي يبرره بصدر رحب وبإصدار الأوامر الي في شأنه .

أستاذ لعبة الكريات الزجاجية

ملحوظة :

وأسمح لنفسي هنا بأن أورد كلمة من كلمات الأب المبجل ياكوبوس سجلتها عنه في درس من دروسه الخاصة التي لا أنساها :

«قد تأتي عصور من الارهاب والبؤس الشديد . فاذا كان من المقدر أن يكون من البؤس سعد ، فلا يمكن إلا أن يكون ذلك السعد فكريا ، يتجه الى الوراء لانقاذ ثقافة العصور القديم ، ويتجه الى الأمام ليمثل في صفاء ورضا ، الفكر في عصر يمكن أن ينحاز للمادة كلية ، اذا لم يتجه اليه هذا السعد الفكري» .

ولم يكن تيجولاريوس يعلم مدى قلة ما بقي من عمله في مذكرة كنشت التي لم يرها في صيغتها النهائية هذه ، وإنما رأى تيجولاريوس صيغتين قديمتين مسهبتين منها . وأرسل كنشت الكتاب وانتظر رد الهيئة بقلق أقل بكثير جدا من قلق صديقه . وقرر كنشت ألا يستمر في اخبار تيجولاريوس بالخطوات التي يعتزم القيام بها بعد ذلك ومنعه من العودة الى الحديث عن هذا الموضوع ، ونبهه الى أن وصول رد الهيئة سيتأخر بلا شك وقتا طويلا .

فلما وصل الرد أسرع مما تصور كنشت ، لم يعلم تيجولاريوس منه شيئا . وكان كتاب هيرسلاند ينص على ما يلي :

إلى السيد المبجل الماجستر لودي في فالدتسل

أيها الزميل صاحب القدر الرفيع!

اطلعت إدارة الطائفة ومجلس الأساتذة باهتمام غير عادي على منشوركم الدوري المفعم بالود الحار والفكر الثاقب . وقد استحوذت النظرات التاريخية الى الوراء وكذلك النظرات المهمومة الى المستقبل على اهتمامنا ، ولا شك أن نفرا منا سيفسحون في أفكارهم مجالا لهذه الاعتبارات المثيرة والتي تعتمد في جزء كبير منها على أسباب تبررها ، وسيجدون فيها الفائدة والنفع . تبينا بالفرح والتقدير ، جميعا ، أن التفكير الذي تملك روحكم ، تفكير كاستالية خالصة كريمة ، وحب أصبح طبيعة ثانية فيكم ، لاقليمنا ولما فيه من حياة وأخلاق وعادات ، حب تملكه الهم بل وتملكه الآن شعور بالخوف . كذلك أحطنا بالفرح والتقدير بما تميز به هذا الحب

من نغمة شخصية راهنة ، ومن استعداد للتضحية ورغبة في العمل ، ومن جد وحماس ومن ميل الى البطولية . وإننا لنرى في كل هذه الصفات شخصية أستاذ لعبة الكريات الزجاجية ولنتبين فيها همته وناره وجرأته . ولكم يناسبه ويتفق مع شخصيته ، وهو تلميذ البندكتيني الشهير ، إنه لا يتخذ التاريخ هدفا علميا خالصا في حد ذاته ، ولا يدرسه كمتأمل جامد في جهد يشبه اللعب الاستطيقي ، بل يطبق المعرفة التاريخية مباشرة على اللحظة وعلى العمل وعلى الاستعداد للمعاونة والمساعدة! ولكم يتناسب وشخصيتكم ، أيها الزميل الجليل ، أن يكون هدف أمانيكم الشخصية أمرا متواضعا الى هذه الدرجة ، فلا يسير بكم الى مهام سياسية أو بعثات سياسية ، أو وظائف ذات نفوذ وفخار ، بل ينحصر في أن تكونوا ماجستر لودي ، مدرسا!

هذه هي بعض الانطباعات والأفكار التي تخالج الانسان عندما يقرأ منشوركم الدوري للمرة الأولى ، تخالجه تلقائيا ، وقد تساوت لدى غالبية الأساتذة أو تشابهت . ولم تستطع الهيئة أن تتخذ قرارا اجماعيا فيما يختص بالحكم على بقية ما أوردتم من معلومات وتنبيهات والتماسات . وتناولت الجلسة التي عقدت لهذا الغرض مناقشة رأيكم عن الخطر الذي يتهدد وجودنا ومدى صحته ، ومناقشة مقدار هذا الخطر وقربه الزمني ، واشتدت المناقشة ، وحملت غالبية الأساتذة هذه المسائل محمل الجد وتحمست لمعالجتها . إلا أن الاقتراع لم يجمع غالبية الأصوات لصالح الرأي الذي ارتأيتموه في هذه المسائل ، وقد حظيت قدرتكم على التصور ، وسعة نظركم في المسائل السياسية التاريخية بالتقدير ، أما افتراضاتكم ، أو لنقل تنبؤاتكم ، فلم تنل في تفصيلاتها وفي مجموعها القبول والتصديق . كذلك مسألة مدى اشتراك الطائفة والنظام الكاستالي في الابقاء على فترة السلام التي طالت طولا خارقا للعادة ، بل مدى اعتبارهما ـ الطائفة الكاستالية والنظام الكاستالي ـ بصفة عامة أساسية عاملين من عوامل التاريخ السياسي

والظروف السياسية ، لم يوافق على رأيكم فيها الا القليلون ، وكانت موافقتهم مقرونة بتحفظ . أما رأي الأغلبية فكان ينص على أن الهدوء الذي شمل قارتنا بعد انتهاء عصور الحروب يرجع جزئيا الى الاعياء والنزيف العام الذي نجم عن الحرب الفظيعة السابقة ، ويرجع فوق ذلك الى أن أوروبا كفت عن أن تكون نقطة التهاب في تاريخ العالم ومجال صراع على السيطرة والنفوذ . ولا يمكن ، دون التشكيك في فضائل الطائفة ، أن ينسب الانسان للفكرة الكاستالية ، لفكرة ثقافة فكرية سامية في ظل تهذيب الروح على أساس تأملي ، قوة تشكل التاريخ في الحقيقة ، أن ينسب اليها تأثيرا حيويا على أحوال العالم السياسية ، فما أبعد مثل هذا الحافز ومثل هذا الطموح عن الفكر الكاستالي . وقد تليت في الجلسة كلمات جادة في الموضوع أكدت أنه ليس من ارادة كاستاليا ومقصدها أن تؤثر تأثيرا سياسيا على السلام والحرب ، وأنه لا يمكن الحديث عن مقصد من هذا النوع ، لأن كل ما هو كاستالي قائم على العقل ، ودائر في مجال المعقول ، وهو شيء لا يمكن قوله عن تاريخ العالم الا اذا وقع الانسان في تهويمات لاهوتية شعرية من قبيل فلسفة التاريخ ، واعتبار جهاز التقتيل والابادة الذي تعتمد عليه الدول التي تصنع التاريخ شيئا يتبع مناهج العقل العالمي . كذلك تدل نظرة سريعة الى تاريخ الفكر على أن عصور ازدهار الفكر الكبرى لا يمكن تعليلها أبدا بظروف سياسية ، و أن الثقافة أو الفكر أو الروح لها على الأرجح تاريخها الخاص بها الذي يسير بجانب ما يسمى بتاريخ العالم ، أي بجانب الصراعات التي لا تهدأ حول السلطة المادية ، كأنه تاريخ ثان خفي مقدس وغير مخضب بالدم وطائفتنا لا تشتغل الا بهذا التاريخ المقدس الخفي وحده ، دون التاريخ «الحقيقي» الغاشم للعالم ، ولا يمكن أبدا أن يكون واجب الطائفة الاهتمام بالتاريخ السياسي أو مساعدته على التكون .

ربما كان وضع برج السياسة الدولية فعلا كما ألمح منشوركم الدوري ،

وربما كان غير ذلك ، وليس للطائفة على أية حال الا أن تتخذ حياله موقف الانتظار وسعة الصدر . وهكذا أدى الاقتراع الى رفض رأيكم القائل بأنه ينبغي علينا أن نعتبر وضع هذا البرج من الفلك بمثابة نداء يدعونا الى اتخاذ موقف فعال ، رفضه بأغلبية الأصوات ضد بعض أصوات موافقة . أما رأيكم الخاص بالوضع العالمي الحالي واشارتكم الى المستقبل القريب ، فقد كان لهما تأثير على غالبية الزملاء ، بل انهما أحدثا في بعض السادة شعورا بالتعجب والدهشة ، ومع ذلك ورغم تعبير كثير من المتحدثين عن احترامهم لمعلوماتكم وفطنتكم ، لم تصوت الأغلبية الى جانبكم ، بل على العكس . وكان الاتجاه السائد في هذا المجال هو اعتبار آرائكم جديرة بالاهتمام ، ولكنها مسرفة في التشاؤم .

وتساءل أحد الأعضاء عما اذا كان تصرف الماجستر الذي يحاول ارهاب الهيئة بصور قاتمة عن أخطار ومصائب وهمية وشيكة ، لا يستحق أن يوصف بأنه تصرف خطير أو آثم أو على الأقل سخيف . وأضاف أنه لا يشك في أنه يحق للماجستر أن يذكر بأن الأشياء جميعا مصيرها الى الفناء ، وينبه كل انسان ، وخاصة أصحاب المناصب العالية ، ذات المسؤولية بحقيقة الموت ، ولكن التعميم العدمي وتبشير طبقة الأساتذة كلها ، والطائفة جميعها ، والسلم الهرمي قاطبة بأن نهايته وشيكة ، فهذا هجوم دنيء على راحة الروح وعلى خيال الزملاء ، واساءة الى الهيئة ذاتها والى قدرتها على العمل . فلا يمكن أن يكسب نشاط الماجستر شيئا عندما يذهب كل يوم الى عمله وهو يفكر في أن منصبه وعمله وتلاميذه ومسؤوليته أمام الطائفة ، وحياته من أجل كاستاليا وفي كاستاليا ، ستنتهي غدا أو بعد غد وتصبح أثرا بعد عين . واذا كان كلام هذا العضو لم ينل تأييد الأغلبية ، فقد نال على الأقل بعض الاستحسان .

ونحن نكتفي بهذا البلاغ القصير ، ونقف مستعدين لأية مناقشة

شفهية ، ولقد رأيتم ، أيها الأجل ، من مذكرتنا الموجزة أن منشوركم الدوري لم يحدث الأثر الذي توقعتموه . ويرجع فشله في معظمه الى أسباب موضوعية ، الى اختلافات فعلية بين آرائكم وأمانيكم الحالية وآراء الغالبية وأمانيها . هذا بالاضافة الى أسباب شكلية ، فانه يلوح لنا على الأقل أن مناقشة شفهية مباشرة بينكم وبين الزملاء كانت أحرى بالانتهاء نهاية أكثر انسجاما وايجابية بكثير . وليست هذه الصورة المكتوبة التي ضمنتها منشورات الدوري هي وحدها التي أساءت فيما نعتقد الى مطلبك ، بل أساء اليه أكثر منها ، هذا الرابط غير المألوف في علاقاتنا بين مذكرة من زميل وطلب خاص . ويرى أغلب الأساتذة في هذا الخلط محاولة تجديد بائسة ، والبعض يعتبرونها غير مقبولة .

وهكذا نصل الى أعوص نقطة في المسألة كلها ، نصل الى طلبكم اعفاءكم من المنصب واستخدامكم في التعليم خارج كاستاليا . وكان ينبغي على الطالب أن يعلم مقدما بأن الهيئة لا تنظر الى طلب جاف مسبب على هذا النحو الغريب ، وبأنها لا يمكن أن تستحسنه وتقبله بالمرة . فالهيئة تجيب طبعا بـ«لا» .

ماذا يصبح أمر نظامنا الهرمي ، اذا لم يعد من شأن الطائفة والهيئة وضع كل واحد في المكان المناسب له! الام تتحول كاستاليا اذا قام كل شخص بتقييم شخصه ومواهبه وكفاءاته بنفسه واختار حسب تقييمه هذا وظيفته ؟ اننا نوصي أستاذ لعبة الكريات الزجاجية بأن يفكر في هذا الأمر لحظات ، ونكلفه بالاستمرار في ادارة منصبه الجليل الذي وكلنا قيادته اليه .

بهذا تتحقق رغبتكم في الحصول على رد على ملتمسكم . ونحن ان لم نستطيع أن نقدم لكم الرد الذي توقعتموه ، نرجو أن نعبر لكم عن تقديرنا للقيمة الحافزة المنبهة التي لوثيقتكم . ونحن نرجو أن نتناقش في مضمونه شفهيا ، وفي أقرب وقت ، لأن رئاسة الطائفة رغم ايمانها بأن في امكانها أن

تعتمد عليكم ، تحس بالقلق نتيجة للفقرة التي وردت في مذكرتكم والتي تتحدثون فيها عن قلة كفاءتكم على الاستمرار في ادارة المنصب أو تعرضها للخطر .

وقرأ كنشت الكتاب دون أن ينتظر منه شيئا ، ولكنه قرأه بأعظم انتباه . أما أن الادارة تحس «بالقلق» ، فهذا أمر استطاع أن يتصوره ، بل واعتقد أن في امكانه استنتاجه من بادرة معينة . فقد كان هناك منذ وقت قليل في قرية اللاعبين ضيف من هيرسلاند يحمل بطاقة شخصية عادية وتوصية من رئاسة الطائفة ، والتمس اعتباره ضيفا لعدة أيام مدعيا أنه يريد أن يعمل في الأرشيف والمكتبة ، ورجا أن يسمح له بالاشتراك في الاستماع الى محاضرات كنشت كضيف . كان هذا الضيف هادئا ، نبيها ، متقدما في السن ، ودخل في كل غرف وأقسام القرية ، واستفسر عن تيجولاريوس ، وذهب مرارا الى مدير مدرسة الصفوة بفالدتسل الذي أرسل ليتبين الحال في قرية اللاعبين ، وليكتشف هل هناك اهمال ، هل الماجستر بصحة جيدة ، وهل يقوم بمهامه ، وهل الموظفون مجدون ، وهل التلاميذ يحسون بالقلق . وبقي الرجل أسبوعا كاملا لم يختلف عن محاضرة واحدة من محاضرات كنشت . وقد لفت انتباهه ودخوله في كل مكان نظر اثنين من الموظفين . ولا بد أن رئاسة الطائفة كانت تنتظر تقرير هذا الجاسوس قبل أن تبعث الى الماجستر بردها .

فما الرأي في رد الهيئة ، ومن يا ترى ألفه ؟ لم يكن الأسلوب ليكشفه ، لأنه كان أسلوب الدواوين غير الشخصي ، الأسلوب الذي تطلبته المناسبة . لكن تحسس الأسلوب برفق كشف ما في الكتاب من خصوصية وشخصية لم تظهر عند القراءة الأولى . كان أساس الكتاب كله يتلخص في روح الطائفة الهرمية والنظام والعدل وحب النظام . كان من الواضح ، ان طلب كنشت لم يلق الترحيب ، بل أثار القلق والغضب والبلبلة وأن كاتب الرد قرر الرفض

بمجرد الاطلاع على الطلب دون الانتظار للتأثر بأحكام الآخرين . وكان أمام التعنت والرفض حركة أخرى واحساس آخر ، كان أمامهما تعاطف واضح ، وتأكيد لأحكام لطيفة ودية وآراء رقيقة خفيفة ، قيلت في الجلسة التي ناقشت طلب كنشت . فلم يشك كنشت في أن الكسندر ، رئيس ادارة الطائفة ، هو الذي ألف الرد .

وصلنا هنا الى منتهى طريقنا ، ونرجو أن نكون قد قلنا عن حياة يوزف كنشت كل ما هو جوهري . والمجال مفتوح أمام كاتب سيرة آخر في المستقبل ليجمع تفصيلات عن نهاية هذه الحياة ويسجلها .

ونحن نصرف النظر عن تصوير الأيام الأخيرة للماجستر ، فلسنا نعرف عنها أكثر مما يعرف كل طالب من طلاب فالدتسل ، ومهما اجتهدنا فلن نتفوق على «أسطورة أستاذ لعبة الكريات الزجاجية» التي تناقلتها الأيدي في نسخ مختلفة يبدو أن نفرا من تلاميذ الأستاذ الراحل المقربين هم الذين ألفوها . فلنختم بهذه الأسطورة كتابنا .

الفصل الثاني عشر

الأسطورة

عندما نسمع أحاديث الزملاء عن اختفاء أستاذنا وعن أسباب هذا الاختفاء وعن صواب أو خطأ مقرراته وخطواته ، وعن مغزى أو سخف مصيره ، فانها تثيرنا على نحو ما تثيرنا مناقشات ديودور الصقلي[١] للأسباب الظنية لفيضانات النيل ، ويبدو لنا من غير المفيد ، بل من الخطل ، زيادة هذه المناقشات باضافة أخرى اليها ، وتساورنا الرغبة ، بدلا من تنكب ذلك الطريق ، في رعاية ذكرى الأستاذ في قلبنا ، الأستاذ الذي انتقل بعد رحيله الغامض من هنا الى العالم الخارجي ، انتقل الى أخرى أكثر غرابة وغموضا . لهذا قررنا تخليدا منا لذكراه الغالية أن نسجل كل ما بلغ أسماعنا من أخبار عن تلك الأحداث .

بعد أن قرأ الأستاذ الخطاب الذي أبلغته فيه الهيئة رفضها طلبه ، أحس رعدة خفيفة ، ورطوبة وتجردا ، فعرف أن الساعة قد حانت ، وأن التردد والتريث لا مكان لهما . وكان الاحساس الخاص الذي أسماه «يقظة» معروفا لديه ، يساوره في اللحظات الحاسمة من حياته ، وكان ذلك الاحساس المنعش المؤلم في وقت معا ، يجمع بين الوداع وبين الرحيل ، ويهز أعماق اللاشعور كأنه عاصفة في الربيع . ونظر الى ساعته فتبين أن موعد الحصة

(١) Diodorus Siculus

سيحل بعد ساعة ، فقرر أن يستغل هذه الساعة في التأمل وذهب لذلك الى حديقة الماجستر الساكنة . ورافقه في طريقه الى الحديقة بيت من الشعر خطر بباله فجأة :

«فان لكل بداية سحرا...» .

فردده لنفسه دون أن يعلم الشاعر الذي قرأه لديه ، لكن بيت الشعر أثر فيه وأعجبه ولاح كأنهَ يناسب خبرة الساعة كل المناسبة . وجلس في الحديقة على مقعد انتثرت عليه الأوراق الذابلة الأولى ، ونظم تنفسه واجتهد في تهدئة ذاته ، حتى غاص بقلب صاف في التأمل ، فانتظم برج هذه اللحظة في صور عامة فوق شخصية . ولما سلك طريق العودة ، عاوده بيت الشعر مرة أخرى ففكر فيه وتبين أن نصه يختلف عما خطر بباله . وشحذ ذاكرته ، فأضاءت فجأة وساعدته ، فردد البيت بنصه :

«فإن لكل بداية سحرا
يقينا ويعيننا على الحياة» .

ولم يكتشف مصدر هذين البيتين الا في المساء بعد أن ألقى الدرس وانجز الكثير من الأعمال اليومية ، اكتشف أن البيتين لم تتضمنهما قصيدة شاعر قديم ، بل تضمنتهما قصيدة من القصائد التي كتبها هو عندما كان تلميذا وطالبا ، وكانت تلك القصيدة تنتهي بالبيت التالي :

«هيا يا قلبي ودّعهم والتمس شفاءك!» .

واستدعى كنشت في المساء نفسه نائبه وأخبره أنه سيرحل غدا لأجل غير مسمى . ودفع اليه بالأوراق الجارية وعليها تأشيرات موجزة ، وودعه توديعا رقيقا عاديا كما اعتاد أن يودعه قبل أن يرحل لعمل من أعمال الديوان .

وكان كنشت قد رأى منذ وقت طويل أن يترك تيجولاريوس دون أن يعلمه برحيله حتى لا يثقل عليه بالوداع . وكان على كنشت أن يتصرف

هكذا ، من ناحية حتى لا يثقل على صديقه ، ومن ناحية ثانية لكي لا يتلف خطته كلها . وسوف يستطيع تيجولاريوس أن يتكيف مع خطوة تكون قد تمت وانتهت ، أما اذا وقف من كنشت موقف المودع فجأة فسيندفع حتما الى تصرفات غير لطيفة يفقد فيها السيطرة على نفسه . بل لقد فكر كنشت في أن يرحل دون أن يراه مرة أخيرة ، ولكنه عندما أنعم الفكر تبين أن رحيله على هذا النحو سيشبه الهرب من الصعب . فاذا كان من الحذق والصواب أن يجنب الصديق مشهدا صعبا وانفعالا وفرصة للانسياق في حماقات ، فليس من الحذق والصواب المبالغة في هذا الى هذه الدرجة . وكان الوقت آنئذ قبل موعد النوم بنصف ساعة ، هكذا كان في استطاعته أن يلتمس تيجولاريوس دون أن يقلق أحدا . وكان الليل يخيم على الفناء الداخلي الفسيح وهو يجتازه الى صومعة صديقه وقرع الباب وهو يحس احساسا عجيبا : هذه هي المرة الأخيرة! ووجده وحده فحياه ، ورد تيجولاريوس التحية مسرورا ، وكان يقرأ فترك الكتاب وطلب الى الزائر أن يجلس .

وبدأ كنشت حديثه قائلا : «لقد تذكرت اليوم قصيدة ، أو على الأصح أبياتا منها . ولعلك تعرف أين توجد القصيدة كلها ؟» .

ثم تلا البيت : «فإن لكل بداية سحرا...» .

ولم يبذل المعيد جهدا طويلا ، بل عرف القصيدة بعد تفكير قليل ، ثم نهض واستخرج من درج مخطوط قصائد كنشت ، المخطوط الأصلي الذي كان كنشت قد أهداه اياه مرة . فبحث فيه واستخرج منه ورقتين تحملان الصيغة الأولى للقصيدة وقدمها للماجستر .

وقال تيجولاريوس مبتسما : «ليقرأ الأستاذ الجليل بنفسه . تلك هي ، منذ أعوام طويلة ، المرة الأولى التي تتذكرون فيها هذه القصائد» .

ونظر كنشت في الورقتين باهتمام وتأثر . لقد كتبهما عندما كان طالبا

أثناء اقامته في معهد دراسات شرق آسيا ، وأحس كنشت بماض بعيد ينظر اليه من خلالهما ، ووجد كل شيء يحدثه عن قديم توارى في النسيان ، ثم صحا مرة ثانية يحمل التنبيه والألم ، كل شيء ، الورق الذي علته الصفرة ، الخط الفتي ، الشطوب والتصويبات في النص . ولاح لكنشت أنه يذكر العام والفصل الذي نشأت فيه هذه الأبيات ، بل ويذكر اليوم والساعة ويذكر كذلك ذلك الاحساس القوي المختال الذي ملأه وأسعده والذي عبر عنه في هذه الأبيات . ولقد كتب هذه الأبيات في يوم من تلك الأيام الخاصة التي أتته فيها تلك الخبرة الروحية التي أسماها « يقظة » .

وكان واضحا أن عنوان القصيدة قد نشأ قبل القصيدة نفسها ، وكان يعتبر البيت الأول فيها ، كان هذا العنوان مكتوبا بخط عاصف وحروف كبيرة ، وكان :

«استعلاء!» .

وبعد مدة ، في وقت آخر ، وفي حالة نفسية أخرى وفي ظروف أخرى ، شطب هذا العنوان وعلامة التعجب ، وكتب بدله عنوان آخر بحروف أصغر وأرق وأكثر تواضعا ، وكان :

« درجات » .

وتذكر كنشت كيف كان في ذلك الوقت يهيم بفكرة هذه القصيدة فكتب فوقها كلمة «استعلاء!» ، كنداء وأمر وتذكير لنفسه ، وعزم تجددت صياغته وتجدد تدعيمه ، عزم على توجيه نشاطه وحياته هذه الوجهة ، عزم على الاستعلاء وعلى العبور الصافي الحاسم ، وعلى ملء كل مكان وترك كل مكان وكل مسافة وراء ظهره . وقرأ لنفسه بصوت خفيض بعض الأجزاء :

«علينا أن نجتاز في مرح وصفاء المكان بعد المكان
وألا نتعلق بأي مكان تعلقنا بالوطن ،
فروح العالم لا تريد أن تقيدنا وأن تضيق علينا

بل تريد أن ترفعنا درجة بعد درجة ، وأن توسع علينا » .

ثم قال : «لقد نسيت هذه الأبيات سنين طويلة ، ولما خطر ببالي اليوم مصادفة بيت منها ، لم أعرف من أين لي به ، ولم أعرف أنه من شعري . فما رأيك فيها اليوم ؟ وهل تثير فيك شيئا ؟ » .

وفكر تيجولاريوس ثم قال : «ان حالي مع هذه القصيدة عجب . فانها من قصائدكم القليلة التي لم أحبها تماما ، والتي وجدت فيها شيئا نفرني وضايقني . ولم أعرف قديما ما هو بالضبط . أما اليوم ، فأعتقد أني أراه . ان قصيدتكم ، أيها المبجل ، تلك التي عنونتموها بالأمر «استعلاء!» ، ثم غيرتم عنوانها ، بحمد الله ، بعد ذلك ، ووضعتم لها عنوانا أفضل بكثير ، لم تعجبني قط ، لأنها كانت تحتوي على شيء من الأمر ومن الوعظ أو من طريقة المدرسين . فاذا أمكن تخليصها من هذا العنصر ، أو غسل هذا اللون وابعاده عنها ، فانها ستكون واحدة من أجمل قصائدكم ، هذا ما خطر ببالي الآن مرة أخرى . وعنوانها الجديد «درجات» يعبر تعبيرا لابأس به عن مضمونها ، وكان يمكنكم أن تسموها «موسيقى» أو «جوهر الموسيقى» ، وهما عنوانان من النوع نفسه ، أو من نوع أفضل ، لأن القصيدة اذا جردناها من الناحية الأخلاقية الوعظية عبارة عن تأمل في جوهر الموسيقى ، أو لنقل عبارة عن مدح للموسيقى ، ولوجودها الدائم ، ولصفائها وتصميمها ومرونتها سعيها الدائب واستعدادها للاستمرار في الجري ، ولترك المكان ، أو جزء المكان الذي وطأته منذ قليل . فلو بقيت القصيدة قاصرة على هذا التأمل أو على مدح روح الموسيقى ، ولو لم يتملككم على ما يبدو لي طموح المربي في ذلك الوقت ويدفعكم الى تحويلها الى انذار أو عظة ، لكانت درة كاملة . أما القصيدة بصورتها الحالية فتبدو لي مسرفة في التعليم وفي الانطباع بروح المدرس ، بل تبدو لي مريضة بعلة فكرية . انها من أجل التأثير الأخلاقي تساوي بين الموسيقى والحياة ، وهذا أمر أقل ما يقال فيه انه غير مؤكد وانه

غير متفق عليه ، انها تجعل من المحرك الطبيعي المجرد عن الأخلاق الذي يحرك الموسيقى ، «حياة» ، تريد أن تربينا وتنمينا بنداءات وأوامر . باختصار هذه القصيدة تزيف رؤيا ، تزيف شيئا فريدا جميلا رائعا وتحوله الى أهداف تعليمية وتستغله من أجلها ، وهذا ما يصدني عنها » .

وانصت الماجستر متمتعا برؤية صديقه ينساق الى حرارة غاضبة ، كان يحب أن يراه فيها .

وقال مازحا مزاحا قليلا : « أتحب أن تكون على حق! أنت على أية حال على حق فيما قلته عن العلاقة بين القصيدة والموسيقى . وفكرة « اجتياز الأماكن » ، الفكرة الأساسية في أبياتي ، أتت دون علم مني ودون استبصار مني بها ، من الموسيقى فعلا . أما أني أفسدت الفكرة وزيفت الرؤيا فهذا ما لا أعرفه ، ربما كنت على حق . وأنا عندما كتبت هذه الأبيات لم أكن أعالج الموسيقى ، بل كنت أعالج خبرة ، كنت أعالج الخبرة التي أظهر التشبيه الموسيقي لي فيها ناحيته الأخلاقية وتحول في الى ايقاظ وتنبيه ونداء للحياة . وصيغة الأمر وفي التعليم ، لأن الأمر والتنبيه لا يتجهان الا الي أنا . وهذا شيء كان يمكنك أن تعلمه وحده ، أو أن تستنتجه ، يا عزيزي ، من البيت الأخير . يتلخص الموضوع في أنني رأيت رأيا ، أو عرفت معرفة ، أو أبصرت في باطني رؤيا ، وأردت أن أثبت مضمون ومغزى هذا الرأي في نفسي وأصيح به فيها . ولهذا بقيت القصيدة في ذاكرتي دون علم مني . وسواء كانت هذه الأبيات جيدة أو رديئة ، فقد بلغت هدفها ، وعاش تنبيهها لي في نفسي ، ولم تنطو وراء اسدال النسيان . وها هي ذي اليوم ترن في سمعي كأنها جديدة ، لقد كانت خبرة صغيرة جميلة ، ولن يتلفها لي تهكمك عليها . ولقد حان وقت الرحيل . ما أجمل الأوقات ، أيها الزميل ، التي كنا فيها طلبة نسمح لأنفسنا مرارا بخرق نظام البيت ، ونسهر الى وقت متأخر من الليل نتحادث ونتناقش . لم أعد أستطيع فعل ذلك الآن للأسف بعد أن صرت ماجسترا » .

فقال تيجولاريوس : «آه ، الامكانية موجودة ، وما يحتاج الأمر الا الى شجاعة» .

فوضع كنشت يده على كتفه ضاحكا .

«اذا كان الأمر أمر شجاعة يا عزيزي ، فسأقدر على أعمال تختلف عن ذلك تماما . طابت ليلتك أيها المشاغب القديم! » .

وترك الصومعة مسرورا . ولما سار في الأروقة والأفنية الخالية عاد اليه جده ، عاد اليه جد الوداع . والتوديع يثير على الدوام صورا من الذكريات ، والصورة التي خطرت له وهو في الرواق كانت صورته عندما سار في فالدتسل وقرية اللاعبين لأول مرة وهو صبي وتلميذ مستجد يقطعها وكله أمل وتوقع ، ثم أحس احساسا نافذا أليما وسط الأشجار والمباني الساكنة الغارقة في رطوبة الليل ، أن هذه الأشياء تتراءى لعينيه للمرة الأخيرة ، وأنه يستمع للمرة الأخيرة الى سكون ونعاس القرية بالليل بعد عجيج النهار ، وأنه يرى النور الصغير فوق بيت البواب ينعكس للمرة الأخيرة في حوض النافورة ، وأنه يرى للمرة الأخيرة سحب الليل تسير فوق أشجار حديقة الماجستر . فقطع بخطوه البطيء كل طرق وحنايا قرية اللاعبين ، وأحس رغبة في أن تنفتح مرة بوابة حديقته وفي أن يدخل ، لكن المفتاح لم يكن لديه ، وساعد عدم وجود المفتاح معه على التخلص من أحاسيسه وعلى الرجوع الى فكره . فعاد الى مسكنه وكتب بعض الرسائل ، ومن بينها رسالة يبلغ فيها ديزنيوري بوصوله الى العاصمة ، ثم تخلص عن طريق تأمل دقيق من حركات نفسه في تلك الساعة ، ليصحو في الغد قويا لآخر عمل له في كاستاليا ألا وهو التحدث مع رئيس الطائفة .

ونهض الماجستر في صباح اليوم التالي في الساعة المعتادة ، وطلب العربة ورحل ، ولم يلاحظ رحيله الا القليلون ، وحتى هؤلاء لم يفكروا في شيء . وانطلق عبر الصباح المتشرب بالضباب المبكر الى هيرسلاند ،

فوصلها نحو الظهر ، وطلب ابلاغ الماجستر الكسندر ، رئيس ادارة الطائفة بوصوله . وكان كنشت يحمل معه علبة معدنية صغيرة جميلة ملفوفة في منديل ، أخرجها من درج سري في ديوانه وأخذها معه ، وكان فيها شارات منصبه والأختام والمفاتيح .

واستقبلوه في حجرة الديوان «الكبيرة» بادارة الطائفة بعلامات الدهشة ، فلم يكد يحدث من قبل أن ظهر ماجستر في الرئاسة دون اعلان سابق أو دعوة ، وقدموا له ما يقدم للضيف بتكليف من رئيس الطائفة ، ثم فتحوا له صومعة للراحة في الرواق القديم وأبلغوه أن الرئيس الجليل يرجو أن يتمكن من الفراغ له في بحر ساعتين أو ثلاث ساعات . فطلب نسخة من لوائح الطائفة وجلس فقرأها وتأكد للمرة الأخيرة من سهولة وشرعية ما عقد عليه العزم ، رغم أنه حتى تلك اللحظة كان يجد استحالة في التعبير عن مغزى عزمه ومسبباته بكلمات . وتذكر جملة في اللوائح جعلته في الأيام الأخيرة من عصر حريته ـ عندما كان شابا يدرس ـ يتأمل فيها ، في اللحظة التي سبقت قبوله في الطائفة . فقرأها مرة ثانية واستغرق في التأمل ، وأحس كيف أنه الآن يختلف اختلافا بينا عن أيام كان معيدا هيابا . كانت الجملة تنص على الآتي : «اذا استدعتك الهيئة العالية لتتولى منصبا فاعلم : ان كل ترق في درجات المناصب ليست خطوة الى الحرية بل خطوة الى القيد . وكلما زاد سلطان المنصب ، كلما زادت الخدمة صعوبة . وكلما زادت قوة الشخصية ، كلما زاد استهجان التعنت» . كم طنّ هذا كله في سمعه قديما نهائيا حاسما ، وكم تغير معنى بعض الكلمات ، خاصة الكلمات الشائكة مثل «قيد» ، «ارادة» ، «شخصية» ، وتحول في نظره الى العكس! وكم كانت هذه الجمل جميلة واضحة ثابتة مدهشة غنية بالايحاء ، وكم لاحت لعقله شابة مطلقة مجردة عن الزمن ، وصادقة من أولها الى آخرها! لعلها كانت تتصف بهذه الصفات فعلا ، لو كانت كاستاليا هي العالم ، العالم الكامل المتنوع

المتكامل ، ولم تكن عالما صغيرا وسط العالم ، وقطعة جريئة تعسفية منه! لو كانت الأرض مدرسة صفوة ، وكانت الطائفة المجتمع الذي يضم الناس جميعا ، وكان رئيس الادارة هو الله ، لكانت هذه الجمل وهذه اللوائح رائعة الكمال! لو كان كل ذلك على ما ذكرت ، فما كان أجمل الحياة وما كان أعظم ازدهارها وبراءتها! ولقد كان كل شيء قديما بالفعل كذلك ، ولو عاش في الزمن القديم لرآه كذلك : الطائفة والفكر الكاستالي يمثلان ما هو الهي وما هو مطلق ، والاقليم يساوي العالم ، والكاستاليون يساوون الانسانية ، وأما ما كان من الانسانية غير كاستالي فكان يساوي عالما في دور الطفولة ودرجة تمهيدية للاقليم ، وأرضا بكرا تنتظر الخلاص والزرع وتنظر الى كاستاليا نظرة الاحترام وترسل اليها من حين لآخر زائرين محبوبين مثل بلينيو شابا .

وما أعجب أمره هو ، يوزف كنشت ، وما أعجب أمر فكره! ألم يعتبر طريقته هذه الخاصة في التبصر والمعرفة ، وخبرته هذه بالواقع تلك التي أسماها يقظة ، في الأوقات الماضية ، بل بالأمس ، بمثابة تقدم تدريجي الى قلب العالم ، الى مركز الحقيقة ، بمثابة شيء مطلق ، بمثابة طريق أو تقدم لا يتمه الانسان الا تدريجيا ، ولكنه في الفكرة مستمر ومستقيم ؟ ألم يلح له قديما في شبابه الاعتراف بالعالم الخارج متمثلا في شخصية بلينيو هو يقظة وتقدم وشيء قيم صحيح تماما ، ثم ابتعد عنه عمدا باعتباره كاستاليا ؟ ثم عاد هذا الاعتراف فأصبح مرة ثانية شيئا صائبا تقدميا ، بعد شك طال سنين وهب نفسه بعده للعبة الكريات الزجاجية وللحياة الفالدتسلية . ثم تكرر الأمر عندما ترك الأستاذ توماس يضمه الى صفوف القائمين بالخدمة ، وترك أستاذ الموسيقى يضمه الى الطائفة ، وأخيرا عندما تركهم يرسمونه أستاذا . كانت هذه كلها خطوات صغيرة أو كبيرة على طريق يلوح مستقيما ـ ولكنه الآن لم يقف ، وهو في نهاية الطريق ، في قلب الدنيا ، وفي وسط الحقيقة ، ولم تكن اليقظة الحالية سوى فتح للعينين

ودخول في موقف جديد ، وانتظاما في أبراج جديدة . وها هو ذا الطريق الوضاح الحاسم المستقيم الذي ساقه الى فالدتسل والى ماريافلس والى الطائفة والى منصب الأستاذية ، يسوقه الآن الى الخارج مرة ثانية . وكانت سلسلة الأعمال التي تمثل اليقظة ، سلسلة من التوديعات في الوقت نفسه . وكانت كاستاليا ولعبة الكريات الزجاجية ، والأستاذية موضوعات مرت عليه ليفحصها وينهيها ، وأماكن يجتازها الواحد بعد الآخر ويعلو من أحدها الى ما فوقه . وها هي ذي تقع كلها خلفه . والظاهر أنه عندما كان يفكر ويتصرف على عكس ما يفكر ويتصرف اليوم ، كان يعرف أو يحس بشيء من الشك ، الم يضع فوق تلك القصيدة التي كتبها وهو طالب ، وعالج فيها الدرجات والتوديعات ، الهتاف «استعلاء!» ؟

وهكذا تشكل طريقه بشكل دائري ، أو بشكل بيضاوي أو حلزوني ، أو بشكل آخر غير المستقيم ، والظاهر أن المستقيم لا وجود له الا في الهندسة ، ولا صلة له بالطبيعة والحياة . وقد ظل يتبع مخلصا تذكيره لذاته ، وحفزه نفسه كما عبر عنهما في القصيدة ، حتى بعد أن نسي القصيدة ونسي اليقظة الماضية ، حقيقة أن اتباعه اياهما لم يكن كاملا مجردا عن الترددات والشكوك والتحورات والصراعات ، ولكنه اجتاز الدرجات الواحدة بعد الأخرى ، والأماكن المكان بعد المكان بشجاعة واستجماع وصفاء . حقيقة أنه لم يكن يشع نورا كأستاذ الموسيقى العجوز ، ولكنه كان مجردا من العتب والبلبلة والزلل والخيانة . فاذا كان هو الآن يرتكب الزلل والخيانة حسب المفاهيم الكاستالية ، واذا كان يتصرف ضد كل أخلاق الطائفة فيما يلوح من أجل شخصيته هو ، يعني اذا كان يتصرف تصرف التعنت ، فانما يتصرف طبقا لروح الشجاعة والموسيقى ، يعني بايقاع ثابت وفي مرح وصفاء ، وليكن ما عدا ذلك ما يكون . ولو استطاع أن يوضح للآخرين ما اتضح له من أن «تعنت» تصرفه الحالي ليس في الحقيقة الا خدمة وطاعة ،

ومن أنه لا يسير الى حرية ، بل يسير الى قيود جديدة مجهولة فظيعة ، وأنه ليس هاربا ، بل مطلوبا ، ليس سائرا حسب هواه ، بل مطيعا ، وأنه ليس السيد ، بل الضحية! وما أمر الفضائل ، الصفاء ، الحفاظ على المعايير ، الشجاعة ؟ لقد صغرت ولكنها ظلت باقية ، لم يعد هناك ذهاب ، بل كان هناك انسياق ، ولم يعد هناك استعلاء ارادي ، بل كان هناك دوران في المكان حول الواقف وسطه ، وهكذا فقد تغير أمر الفضائل وان بقيت واحتفظت بقيمتها وسحرها ، أصبحت الفضائل موافقة بدلا من الرفض ، طاعة بدلا من التهرب ، أصبحت تتلخص أيضا في أن يتصرف الانسان الحياة بلا فحص وخداع الذات ويقبل ذلك الانعكاس الذي يلوح كأنه تصرف ذاتي ومسؤولية ، وفي أن يعتبر الانسان ـ لأسباب مجهولة ـ أنه خلق ليفعل أكثر مما يتصرف ، وليتصرف بالفطرة أكثر مما يتصرف بالفكرة ، آه ، ما كان أمتع حديث في هذا مع الأب ياكوبوس!

كانت أفكار وتهويمات من هذا النوع هي صدى تأمله . والظاهر أن «اليقظة» لم تكن تدور حول الحقيقة والمعرفة ، بل كانت تدور حول الواقع وخبرته ومعاناته . فالانسان في حالة اليقظة لا يندفع مقتربا من صميم الأشياء ، مقتربا من الحقيقة ، بل يعي ، ويقوم أو يعاني اتخاذ موقف من الأنا حيال الوضع الراهن للأشياء . في حالة اليقظة لا يجد الانسان قوانين ، بل يصل الى قرارات ، لا يقع الى مركز العالم بل الى مركز الشخصية الخاصة ذاتها . لهذا كان ما يتلقاه الانسان في حالة اليقظة هذه شيئا تصعب حكايته ، شيئا يستعصي على القول والتعبير استعصاء عجيباً . والتعبيرات التي قد تأتي من هذا المجال من مجالات الحياة لا تبدو ذات صلة بأهداف اللغة . فاذا حدث أن وجدنا بصفة استثنائية رجلا استطاع أن يسير في فهم ثمرة اليقظة خطوة الى أمام ، فلا بد أن يكون ذلك الرجل الذي فهم ، رجلا في وضع مشابه ، رجلا يعاني شيئا مماثلا ، رجلا في حالة يقظة كذلك . وقد

تمكن تيجولاريوس أحيانا من فهم كنشت نوعا ما ، وتمكن بيلينو من فهم قسط أكبر من قسط فريتس . ومن غيرهما ؟ لا أحد .

وبدأ الظلام يخيم ، وكان كنشت غارقا في لعب أفكاره ، عندما قرع أحدهم الباب . فلما لم يصحَ كنشت توا ولم يجب ، انتظر الواقف بالباب قليلا ثم كرر المحاولة بقرع رفيق . وهنا رد كنشت ، ونهض وذهب مع الرسول الذي قاده الى مبنى الرياسة ثم الى مكتب الرئيس دون استئذان آخر . وأقبل الأستاذ الكسندر عليه .

وقال : «لقد أتيتم للأسف بغير سابق انذار ، واضطررتم للانتظار والشغف يملؤني الان لأعلم ما أتى بكم هكذا فجأة . أرجو ألا يكون شيء سيء قد حدث ؟

فضحك كنشت : «لا ، لم يحدث شيء سيئ . ولكن هل أتيت فعلا على غير انتظار منكم ؟ ألا يمكنكم التنبؤ بما ساقني الى هنا ؟» .

فنظر الكسندر بجد وهم في عينيه . ثم قال : «طبعا يمكنني أن أخمن هذا وذاك . وقد فكرت على سبيل المثال في هذه الأيام أن مسألة كتابكم الدوري لم تنته بلا شك الى نهاية . وقد تحتم على الهيئة يا سيدي أن تجيب اجابة موجزة ، وربما في اتجاه وبلهجة خيبت توقعكم» .

فرد كنشت قائلا : «لا ، فأنا في الحقيقة لم أنتظر غير ما حوته رسالة الهيئة من معنى . أما لهجة الرد فقد أحسنت الي . لأني أحسست أن كاتب الرد وجد مشقة بل أحس بالحزن ، ووجد في نفسه حاجة الى أن يمزج الرد السيء المخجل المر بعض الشيء بقطرات من العسل ، وقد وفق في ذلك توفيقا عظيما ، وأنا أعرف له جميله .»

«فهل قبلتم مضمون الكتاب أيها المبجل ؟»

«أحطت به علما ، وفهمته ، ووافقت عليه . فلم يكن من الممكن أن يحمل الي الرد الا رفض مطلبي ، والتذكرة الرفيقة . وقد كان منشوري

الدوري شيئا غير مألوف ، شيئا مقلقا للهيئة ، هذا شيء لم يساورني فيه شك قط . وكان يتخذ شكلا غير مناسب لهدفه ، نظرا لاحتوائه على مطلب شخصي لي . لذلك فلم أكن أتوقع الحصول على رد غير الرفض . »

فقال الرئيس بشيء من الحدة : « يسرنا أنكم تبينتم ذلك ، وأن كتابنا لم يفاجئكم بما يؤلمكم . هذا جميل منكم . ولكن هناك شيئا لا أفهمه . اذا كنتم عند تأليف وارسال الكتب ـ وأرجو أن أكون قد أصبت في فهمكم ؟ ـ لم توقعوا له النجاح ولم تنتظروا الحصول على رد بالايجاب ، بل كنتم واثقين من فشله ، فلماذا أتممتم منشوركم الدوري ، وهو عمل كبير ، وبيضتموه وأرسلتموه ؟ » .

فنظر إليه كنشت نظرة ودية وقال رداً على ذلك : « سيدي الرئيس ، لقد كان لكتابي مضمونان وهدفان ، ولست أعتقد أن الاثنين جميعاً لم يحققا النجاح الكامل . فكتابي يتضمن رجاء خاصاً بإعفائي من منصبي وباستخدامي في أماكن أخرى ، وأنا أعتبر هذا الرجاء الخاص شيئا ثانويا ، فما ينبغي على الماجستر الا أن يؤخر أموره الشخصية ما أمكنه التأخير . ولقد رفض رجائي ، وعليّ أن أتكيف مع هذا الرفض . ولكن منشوري الدوري يتضمن أشياء أخرى كثيرة غير هذا الرجاء الشخصي ، انه يتضمن كمية كبيرة من الوقائع ، بعضها أفكار اعتبرت من واجبي أن أضعها تحت نظر الهيئة لتحيط بها علما وتتأملها . ولقد قرأ الأساتذة جميعا ، أو قرأ أغلبهم بياناتي ، ولست أقول تحذيرات ، وربما تناول بعضهم كلامي كطعام غير مستساغ فأعرضوا عنه ، ولكنهم على أية حال تناولوه ، وأدخلوا في أنسهم ما اعتقدت أن عليّ أن أقوله . أما أنهم لم يتلقوا كتابي بالاستحسان والقبول ، وانما أسعى لاثارة القلق وهز النفوس . ولو صرفت النظر عن ارسال كتابي للأسباب التي ذكرتموها ، لأسفت أشد الأسف . وسواء أكان مفعولها كبيرا أو صغيرا ، فقد كانت صيحة موقظة ، وكانت نداء » .

فقال الرئيس متردداً : «هذا صحيح . ولكن اللغز لم يحل . اذا كنتم تريدون ايصال تحذيرات ونداءات وتنبيهات الى الطائفة ، فلماذا أضعفتم مفعول كلماتهم الذهبية أو أتلفتموه بربطها برجاء شخصي لم تكونوا أنتم أنفسكم تتوقعون له التحقق ولم تكونوا تؤمنون بامكانية تحقيقه ؟ هذا ما لا أفهمه . وربما اتضح لي هذا عندما نناقش الموضوع كله ، المهم أن نقطة الضعف في منشوركم الدوري هي : ربطكم النداء بالطلب والانذار بالرجاء . وان الانسان ليعتقد أنكم لم تكونوا بحاجة الى استعمال الطلب كمطية يركبها خطاب المنذر . كان في مقدوركم أن تتصلوا بسهولة شفهية ، وتحريرية ، بزملائكم ان أردتم أن تهزوا نفوسكم وتوقظوها ، وتتركوا الطلب يسير في طريقه الرسمي» .

ونظر كنشت اليه نظرة ودية ، وقال ببساطة : «نعم ، وما كنتم على حق . ومع ذلك ـ أرجو أن تعيدوا النظر الى هذه المسألة العويصة! فأمر التحذير والطلب لي أمراً عادياً مألوفاً من أمور كل يوم ، بل هما يرتبطان معاً برباط يتمثل في أنهما كلاهما خارقين للمألوف ، وفي أنهما نشآ من أزمة واتخذا مكاناً خارج حدود المتعارف عليه . فليس من المألوف ولا من العادي أن يحث انسان بغير سبب ملح زملاءه على تذكر ما في وجودهم من تعرض للفناء ومن تأرجح في الشك ، كذلك ليس من الأمور العادية المألوفة أن يطلب أستاذ كاستالي تعيينه في وظيفة مدرس خارج كاستاليا . وعلى هذا فالمضمون يناسب أحدهما الآخر . وفي رأيي أن القارئ الذي يحمل كتابي محمل الجد لا بد أن يصل من قراءته الى نتيجة هي : أن كاتبه ليس رجلاً معتوهاً يعرض تهيؤاته ويقوم بوعظ زملائه ، بل هو رجل يجد في أفكاره جهداً مريراً ، يستعد لاعتزال منصبه ومكانته الرفيعة وماضيه ، والابتداء من جديد في مكان متواضع ، لأنه قد سئم المنصب الرفيع والسلام والرفعة والسلطان وتمنى أن يتخلص منها ويرميها . هذه النتيجة ـ ومازلت أتكلم

متقمصا أفكار قرائي ـ تؤدي الى استنتاجين محتملين : اما أن يكون كاتب هذه العظة الأخلاقية مجنونا بعض الجنون للأسف ، فلا يصح التفكير في استمراره كماجستر ـ وأما أن لا يكون كاتب هذه العظة المضايقة في ظاهره مجنونا ، بل سويا صحيحا ، فيكون وراء عظاته وضروب تشاؤمه شيء غير الهوى والسفه ، ألا وهو الواقع والحقيقة . على هذا النحو تصورت عملية التفكير التي تجري في رؤوس القراء وأعترف أنني أخطأت التقدير . فبدلا من أن يقوي الطلب والنداء أحدهما الآخر ، تعرض الاثنان للتنحية والعزوف ، ولم يؤخذا مأخذ الجد . والحقيقة أنني لم أحزن ولم أفاجأ بالرفض ، لأنني ، كما قلت ، كنت رغم كل شيء أنتظره ، ولا بأس من أن أعترف بأنني أيضا كنت أستحقه . فقد كان طلبي الذي لم أعتقد في نجاحه ، حركة واصطناعاً وشكلا لا أكثر . »

وازداد وجه الماجستر الكسندر جدا بل تجهما . ولكنه لم يقاطع محدثه .

واستأنف كنشت حديثه : «لم أكن وأنا أرسل الطلب آمل أن أتلقى ردا مناسبا ولم أكن أمني نفسي به ، كذلك لم أكن مستعدا لقبول اجابة الرفض معتبرا اياها حسما نهائيا على طاعته» .

«ـ لم تكونوا مستعدين لقبول قرار الهيئة باعتباره قرارا حاسما ـ هل ما سمعت صحيح ، يا أستاذ ؟ بهذه الجملة والسؤال قاطعه الرئيس ، وهو يحرص على الضغط على كل نبرة وابراز كل لفظ . والظاهر أنه قد تبين ما في الموقف من جد تام» .

فانحنى كنشت انحناءة رفيقة وقال : «نعم ، بكل تأكيد ، ما سمعتم صحيح . لقد كان الأمر كما ذكرت ، لم أكن أعتقد في امكانية نجاح طلبي ، ورغم ذلك قررت أن أرسل طلبا ، وفاء بما يتطلبه النظام والشكل وكنت بتقديمي الطلب أعطي الطائفة الموقرة في يدها فرصة لحسم الأمر بطريقة

لطيفة . فاذا لم يكن لديها ميل لهذا الحل فقد عزمت على ألا أقف ليهدئني البعض ، بل عزمت على العمل» .

فسأل الكسندر بصوت خفيض : «العمل كيف ؟» .

«كما يأمرني قلبي وعقلي . ولقد قررت اعتزال منصبي والقيام بعمل خارج كاستاليا حتى بغير تكليف واجازة من الهيئة» .

وأغمض رئيس الطائفة عينيه وبدا كأنه لم يعد يسمع ، وعرف كنشت أنه يقوم بالتمرين الاضطراري الذي يحاول رجال الطائفة بواسطته في حالات الخطر المفاجئ أن يؤكدوا لأنفسهم سيطرتهم على أنفسهم واطمئنانهم الداخلي ، ذلك التمرين الذي يرتبط بوقف التنفس مرتين طويلتين عندما تكون الرئتان فارغتين . ونظر كنشت الى وجه الرجل الذي يحمل مسؤولية الموقف الحرج الذي صار اليه ، ورآه يشحب قليلا ، ثم يستعيد لونه بعد تنفس بطيء مبتدئ من عضلات البطن ، ونظر الى عيني الرجل الذي أجله وأحبه تنفتحان مرة ثانية وتنظران جامدتين هائمتين ثم تصحوان بعد ذلك وتقويان . ثم نظر برعب خفيف الى العينين الصافيتين ، الثابتتين المربوطتين على الدوام برباط الحزم ، في وجه رجل نشأ على الطاعة والأمر ، ورأى هاتين العينين تقعان عليه وتتأملانه ببرود حازم ، وتتفحصانه ، وتحكمان عليه . وتحتم على كنشت أن يتحمل هذه النظرة طويلا .

وأخيرا قال الكسندر بصوت هادئ : «اعتقد أنني فهمتكم الآن . لقد تعبتم منذ وقت طويل من المنصب ومن كاستاليا أو أرقتكم الرغبة في الحياة حياة العالم . ولقد قررتم أن تطيعوا هذا الميل أكثر من طاعتكم القوانين والواجبات الملقاة عليكم ، كذلك لم تكن لديكم حاجة الى الثقة في الطائفة والى اللجوء اليها لطلب المشورة والعون . وقد وجهتم الينا الطلب اكمالا للشكل واراحة لضميركم ، وكنتم تعلمون أن الطلب لن يجد منا القبول ، ولكنكم كنتم تريدون الاعتماد عليه اذا وصل الأمر الى مناقشة شفهية بيننا .

ولنفترض أن تصرفكم الخارق للعادة يعتمد على أسباب ، وأن مقاصدكم شريفة وكريمة ، وهذا ما لا يمكنني أن أتصور سواه . فكيف أمكنكم البقاء في المنصب هذا الوقت الطويل وتسيير أموره في الظاهر تسييرا لا غبار عليه ، طالما كان قلبكم يعج بمثل هذه الأفكار والنوايا والقرارات ، وكنتم في داخلكم كالهارب من السلاح ؟ » .

فقال أستاذ لعبة الكريات الزجاجية بود لم يتغير : « لقد أتيت الى هنا لأتناقش معكم في كل هذه الأمور ، وأجيب على كل سؤال لكم ، ولقد قررت وأنا أطرق طريقي على هواي ألا أغادر هيرسلاند وألا أبارح داركم ، الا بعد أن أطمئن على أن موقفي وعملي قد نالا بعض الفهم » .

وفكر الأستاذ الكسندر بما سأل متردداً : « هل يعني هذا أنكم تتوقعون مني أن أوافق على مسلككم وعلى خططكم ؟ » .

« آه ، لست أفكر قط في الحصول على موافقة . انما آمل وأتوقع أن أكون مفهوما منكم وأن أبقي على بقية من تقديركم عندما أرحل . وهذا هو الوداع الوحيد الذي بقي لي هنا . فقد بارحت فادتسل وقرية اللاعبين اليوم الى الأبد » .

وأغمض الكسندر عينيه مرة ثانية لعدة لحظات ، فقد نزلت عليه أخبار هذا الرجل غير المفهوم بغتة فأذهلته .

ثم قال : « الى الأبد ؟ اذا فأنتم لا تفكرون في العودة الى منصبكم ؟ لابد أن أقول أنكم تجيدون المفاجأة . لي سؤال اذا سمحتم : أمازلتم تعتبرون أنفسكم أستاذ لعبة الكريات الزجاجية ؟ » .

ومدّ كنشت يده الى العلبة الصغيرة التي أحضرها معه .

وقال : « كنت أستاذ لعبة الكريات الزجاجية حتى أمس ، وأرى أني أخلع عني هذه الصفة اليوم عندما أعيد الى يديكم للطائفة الأختام والمفاتيح بحالتها لم يمسها شيء ، كذلك تركت في قرية اللاعبين كل شيء في نظام سترونه ان ذهبتم للتفتيش » .

ونهض رئيس الطائفة ببطء من كرسيه ، وبدا تعبا كأنما أصابته شيخوخة مفاجئة .

ثم قال جافا : «لنترك صندوقكم الصغير وشأنه اليوم . واذا كان قبول الأختام يعني في الوقت نفسه تمام اعتزالكم المنصب فلست أنا صاحب صلاحيات ذلك . اذ لا بد أن يحضر على الأقل ثلث أعضاء الطائفة كلها . لقد كان لكم قديما فهم كثير بهذه التقاليد والرسميات القديمة ، أما هذه الطريقة الجديدة فلا قبل لي بها . ربما تكرمتم فأجلتموني الى الغد لنلتقي ونستأنف الحديث ؟» .

«أنا ، يا سيدي الجليل ، رهن اشارتكم تماما . وأنتم تعرفونني وتعلمون منذ سنين احترامي لكم ، وصدقوني عندما أؤكد لكم أنني لم أغير من احترامي لكم قيد أنملة . وأنتم الشخص الوحيد الذي أودعه قبل أن أغادر الاقليم ، وليس سبب هذا التصرف الذي أقدمت عليه وهو منصبكم كرئيس الطائفة فقط ، بل شخصكم أيضا . وكما أعدت الأختام والمفاتيح الى يديكم ، أرجو يا سيدي بعد أن ننتهي من مناقشتها ، أن تحلوني من عهدي كعضو في الطائفة» .

ونظر الكسندر في عينيه حزينا متسائلا وكتم زفرة في صدره . ثم قال : «دعوني الآن وحدي أيها المبجل ، فقد أعطيتموني هموما تكفي يوما بأكمله ،أعطيتموني مادة كافية للتفكير . فكفانا اليوم . وغدا نستأنف الحديث ، فاحضروا الى هنا قبل الظهر بساعة .»

وودع الماجستر بحركة مهذبة ، وقد أحدثت هذه الحركة المليئة بالامتثال والمليئة بأدب متعمد يقصد به الغرباء لا الزملاء ، . أحدثت بأستاذ لعبة الكريات الزجاجية ألما يفوق الألم الذي أحدثته به كل الكلمات .

وأخذه طالب الى مائدة الضيوف ليتناول وجبة العشاء وأخبره أن الأستاذ

الكسندر قد اعتزل ليقوم بتمرين طويل ، وأنه يفترض أن السيد الأستاذ لا يريد اليوم رفقة ، وأن حجرة الضيوف قد أعدت له .

كانت زيارة أستاذ لعبة الكريات الزجاجية وأخباره مفاجئة تماما لالكسندر ، وان كان منذ حرر رد الهيئة على كتابه ، يتوقع حضوره ذات يوم ، ويفكر في المناقشة المنتظرة بقلق رفيق . أما أن الماجستر المتحلي بالطاعة المثالية والمراسم المرعية ، والتواضع ، والرقة القلبية ، يأتي اليه يوما بغير سابق اعلان ، فيعتزل منصبه دون تشاور سابق مع الطائفة ، ويصفع بهذه الطريقة المذهلة كل عادة وتقليد ، فهذا ما كان يستبعده استبعاده المستحيل . حقيقة ، وهذا ما ينبغي الاعتراف به ، أن مسلك كنشت ولهجته وتعبيرات حديثه ، وأدبه الرفيق كانت هي هي ، ولكن ما أفظع ما اتصف به مضمون أخباره وروحها مما يمرض ، ويباغت ، ويغرب ويتعارض مع الكاستالية! ولم يكن هناك من ، اذا رأى الماجستر لودي وسعه ، يمكنه أن يشتبه في أنه مريض أو مجهد أو ثائر أو فاقد السيطرة على نفسه ، وقد أثبتت التحريات الدقيقة التي قامت بها الطائفة أخيرا في فالدتسل أن الحياة والعمل في قرية اللاعبين لا يعتورهما أدنى ارتباك أو اضطراب أو اهمال . ومع ذلك فقد وقف هذا الرجل الرهيب . ، الذي كان أحق زملائه الى الرئيس حتى الأمس ، فسلم الصندوق الذي يحوي شارات منصبه ، كما يسلم حقيبة السفر ، وقال أنه لم يعد ماجستر ولم يعد عضوا في الطائفة ، ولم يعد كاستاليا من اخوان الطائفة ، وأنه أتى على عجل ليودع الرئيس . كان هذا الموقف بالنسبة للرئيس أفظع وأعوص وأقبح موقف ساقه اليه منصبه كرئيس للطائفة . ولقد بذل جهدا كبيرا ليظل متمالكا نفسه .

وبعد ذلك ؟ هل ينبغي عليه أن يلجأ الى اجراءات شديدة مثل وضع الماجستر لودي في حبس كريم على الفور ، الآن ، هذا المساء ، وارسال رسالة عاجلة الى أعضاء الهينة جميعا واستدعائهم للاجتماع ؟ ولكن شينا في

نفسه صده عن ذلك . وماذا يمكن أن تحققه هذه الإجراءات ؟ لن تؤدي بالماجستر كنشت الا الى الذلة ، ولن تحقق لكاستاليا شيئا ، وان حققت له شخصيا ، باعتباره رئيسا ، شيئا من التخفيف وتبرئة الضمير ، فلا يقف وحده مسؤولا أمام المعاند الصعب . واذا كان في هذه المسألة المشؤومة شيء يمكن اصلاحه ، أو مجال للتوجه بنداء الى احساس كنشت بالشرف ، أو امكانية لتغيير فكره ، فلن يكون ذلك الا في حديث خاص معه . كان أمر حسم هذا الصراع المرير أمر كنشت والكسندر دون سواهما . وبينما الكسندر يفكر هذا التفكير ، اعترف لكنشت في نفسه بأنه أساسا يتصرف تصرفا سليما كريما ، اذ يعتزل الطائفة التي لم يعد يعترف بها ، بينما يذهب اليه ، الى الرئيس ، للمعركة الأخيرة والوداع . وكان يوزف كنشت هذا ، حتى وهو يفعل المصنوع والمكروه ، مطمئنا الى مسلكه وأدبه .

وقرر الأستاذ الكسندر أن يثق في هذا التقدير وأن يبعد جهاز الديوان كله عن الأمر . الآن بعد أن وصل الى هذا القرار ، بدأ يفكر في تفصيلات المسألة ويتساءل عما اذا كان الماجستر في تصرفه مصيبا أو مخطئا ، خاصة وأن الماجستر يبدو مقتنعا تماما بصدقه وبشرعية الخطوة الفظيعة التي يقوم بها . وبينما هو يحاول أن يرد نية أستاذ لعبة الكريات الزجاجية الجريئة الى نص وأن يربطها بقوانين الطائفة التي لم يكن هناك من يجيد معرفتها أكثر من كنشت ، تبين أن يوزف كنشت لم يخرق النص الحرفي للوائح ولم ينو خرقها ، لأن النص الحرفي ، الذي لم يختبر منذ عشرات السنين لمعرفة مدى صلاحيته في التطبيق ، يترك لرعايا الطائفة في كل وقت حرية الاعتزال اذا هم تخلوا في الوقت نفسه عن حقوق كاستاليا والحياة في جماعتها . فاذا أعاد كنشت أختامه ، وأعلم الطائفة باعتزاله وذهابه الى العالم الخارجي ، فانه يفعل شيئا لم يسمع به من قبل ، يفعل شيئا غير مألوف ، شيئا مفزعا ، وربما شيئا غير لائق ، ولكنه لا يرتكب مخالفة ضد النص الحرفي للوائح

الطائفة . وقد كان اقدامه على فعل هذه الخطوة غير المفهومة والتي لا تتعارض مع القانون من ناحية النص والشكل ، علنا وليس وراء ظهر الرئيس ، بل تحت بصره ، شيئا يزيد على ما يلزمه به حرف اللوائح . ولكن كيف وصل الرجل المبجل ، وهو دعامة من دعامات النظام الهرمي الى هذا ؟ وكيف التمس لنيته ، التي هي رغم كل شيء هرب من السلاح ، النص المكتوب ، وهناك الكثير من القواعد غير المكتوبة ، والتي لا تقل قدسية وإلزاما ، تمنعه منعا ؟

وسمع الساعة تدق ، فانتزع نفسه من الأفكار غير المفيدة ، وذهب للاستحمام ، ثم عشر دقائق في أداء متقن لتمرينات تنفس ، واتخذ سبيله الى صومعة التأمل ليختزن قبل النوم ساعة من القوة والهدوء في نفسه ، ثم لم يفكر في هذا الأمر حتى الصباح .

وفي اليوم التالي قاد طالب صغير الماجستر كنشت من حجرة الضيوف الملحقة بادارة الطائفة الى الرئيس ، ورآهما يتبادلان التحية . ولفت نظره ، وهو المتعود على رؤية أساتذة التأمل وضبط النفس والحياة معهم ، في شكل الأستاذين وحركتهما وتحيتهما شيئا خاصا ، شيئا جديدا عليه : درجة عالية جدا غير مألوفة من الاستجماع والصفاء . لم تكن التحية ، كما حكى لنا ، هي التحية المألوفة بين اثنين من حملة الرتب العليا ، تلك الحياة التي كانت عادة تجري كالمراسم المرحة البسيطة أو الحركة الاحتفالية الفرحة ، أو التنافس في الأدب والخضوع والتواضع الشديد . بل كانت كأن غريبا ، كأن بعض أساتذة اليوجا قدم من سفر بعيد ، فأتى الى الرئيس ليعبر له عن التقدير ، وليقدم له فروض الاحترام ، وليقيس نفسه به . كانت الكلمات والحركات شديدة التواضع والقلة ، وكان وجها الأستاذين الجليلين ونظراتهما ممتلئتين بالسكون والحزم والاستجماع من ناحية ومن ناحية ثانية بتوتر خفي ، وظهرا كأنهما متعرضان للأشعة السينية أو محملان بالتيار

الكهـرباني . هذا كل مـا رآه الراوي من اللقـاء . واخـتـفى الاثنان الى داخل الحجرات ، وربما دخلا حجرة الأستاذ الكسندر الخاصة ، وبقيا معاً ساعات عديدة لم يسمح لأحد بالدخول عليهمـا . وقد بلغتنا أنباء من حديثهما استقيناها من روايات السيد النائب ديزنيوري ، وكـان يوزف كنشت قد قص عليه طرفا مما جرى بينه وبين الكسندر من حديث .

بدأ الرئيس حديثـه بقولـه : «لقد فـاجأتمـوني بالأمس وأوشكتم على اطاحة سيطرتي على نفسي . ولقد قضيت الوقت حتى الآن أفكر في الأمـر ، فلم يتغـيـر رأيي بالطبع ، فـأنا عـضـو في الهـيـئة وفي ادارة الطـائفـة . والنص الحـرفي للوائح يعطيكم الحق في اعـلان اعـتـزالكم وترككم منصبكم . وقـد تبينتم أن منصبكم يضايقكم وأحسـسـتم بالحاجـة الى تجربة الحيـاة خـارج الطائفة . فماذا لو اقترحت عليكم التجرؤ على هذه المحاولة ، لا على أساس قـراراتكم العنيـفـة ، بل كنوع من الاجـازة الطويلـة أو الاجـازة الى أجل غـيـر مسمى وطلبكم يرمي أصلا الى ما يشبه ذلك» .

فقال كنشت : «لا يشبهه تمـاما . فلو قبل طلبي ، لبقيت في الطـائفة ، لكن لما بقيت في المنصب . ان ما تقترحونه من اقتراح ودي ، لن يكون الا تهربا . هذا بـالاضافة الى أن فـالدتسل ولعبة الكريات الزجاجية لن ينتفعا الا قليلا بماجستر يقوم باجازة طويلة أو غير محددة المدة فيغيب ولا يعلم أحد عنه هل سيعود أو لا يعود . وحتى لـو أتى بعد عام أو عامين ، فلن يكون فيـمـا يتـصل بتخـصصه ، لعبـة الكريات الزجاجيـة ، قد زاد علمـا ، بل قل علما» .

الكسندر : «أو ربما يكون قد تعلم الكثير وعرف بالخبرة أن العالم في الخارج يختلف عما تصور ، وأنه لا يحتاج اليه كمـا أن العالم ليس بحاجة اليه ، ثم عاد هادئا وفرح بالبقاء في القديم ذي القيمة المؤكدة» .

كنشت : «ان طيبتكم لتتجاوز الحد . وأنا أشكر عليها لا أستطيع مع

ذلك أن أقبلها . ان ما أبحث عنه ليس شفاء لفضول أو ارضاء لشهوة الى حياة العـالم ، بل هو الانطلاق . ولست أريد أن أذهب الى العالم وأنا أحمل في جيبي ضمانا بالعودة في حالة خيبة الأمل ، لا أريد أن أسافر سفر المسافر الحذر الذي يجول بنظره في العالم قليلا . بل أريد جرأة وصعوبة وخطرا ، فأنا جائع في الواقع الى المهام والأعمال ، بل الى الحرمان والآلام . فهل أسمح لنفسي بأن أرجوكم ألا تتمسكوا باقتراحكم الطيب وبمحاولتكم ادخال التردد الى نفسي واستعادتي ؟ فلن تؤدي هذه المحاولة الى شيء . وان زيارتي لكم ستفقد قيمتها وقدسيتها اذا أتتني بموافقة متأخرة على طلبي دون رغبة مني فيها الان . ثم أنا لم أقف في مكاني ثابتا بعد تقديمي الطلب ، بل سرت في طريقي الذي هو كل شيء بالنسبة لي ، قانوني ووطني وخدمتي » .

فأومأ الكسندر برأسه موافقا متنهدا . ثم قال صابرا : «لنفترض اذن أنكم في الواقع لا تلينون وأنه لا سبيل الى تغيير رأيكم ، وأنكم على عكس ما يبدو ، لا تعيرون السلطة والعقل والطيبة سمعا كالمجنون الهائج أو العملاق الذي لا يستطيع انسان أن يعترض طريقه . وسأصرف النظر مؤقتا عن محاولة حملكم على تغيير رأيكم والتأثير عليكم . فقولوا لي اذن ما أتيتم من أجل قوله ، قصوا علي قصة سقوطكم ، اشرحوا لي الأعمال والقرارات التي تفزعوننا بها! وليكن كلامكم اعترافا أو تبريرا أو اتهاما ، فسأسمعه على أي وجه» .

فهز كنشت رأسه : المجنون الهائج يتقدم الآن بشكره ويعبر عن سروره . ليس لدي اتهام أريد عرضه ، وما أريد قوله ـ وان كان من الصعب صعوبة غير معقولة أن أعبر عنه بكلمات ـ يتخذ في نظري صورة التبرير ، وليكن في نظركم اعترافا » .

ومال الى ظهر الكرسي الوثير ثم نظر الى أعلى حيث كانت آثار باهتة

من رسم قديم تهيم على قبة السقف ، من أيام كانت هيرسلاند ديرا ، وتمثل في هيئة الحلم تخطيطات رقيقة من خطوط وألوان وزهور وزخارف .

« أتتني فكرة امكان الملل من الأستاذية واعتزالها لأول مرة بعد تعييني أستاذا للعبة الكريات الزجاجية بشهور قليلة . كنت أجلس ذات يوم وأقرأ في كتيب ينسب الى سلفي الشهير في زمانه الأستاذ لودفيج فسرمالر ، سجل فيه متبعا تقويم الديوان شهرا بشهر ، تنبيهات ونصائح لخلفه . وقرأت بينها حضا على التفكير في حفل لعبة الكريات الزجاجية للعام التالي من الآن ، فاذا لم يجد الانسان في نفسه ميلا له أو لم تسعفه الخواطر ، فليعد له نفسه بالتركيز . فلما قرأت هذا الحض وأنا أستاذ جديد ، ابتسمت قليلا متشبثا بمهارة الشباب ، لهموم ومخاوف الرجل العجوز الذي كتبه ثم ما لبثت أن أحسست بشيء من الجد والخطر والتهديد والحزن ينبثق منه . فلما أطلت التفكير فيه وصلت الى قرار هو : اذا أتى يوم أنزل بي فيه التفكير في احتفال لعبة الكريات الزجاجية القادم الهم بدلا من البهجة ، والخوف بدلا من الفخار ، فسأعتزل منصبي فورا وأعيد شارات الأستاذية الى الطائفة ، ولن أعذب نفسي في ابتكار لعبة جديدة . كانت تلك هي المرة الأولى التي تشغلني فيها فكرة من هذا النوع ولكني لم أعتقد آنئذ بعد أن تغلبت على المتاعب الأولى للتمرن على أعمال المنصب وامتلأ شراعي بالريح في امكانية تحولي الى رجل مسن يسأم العمل والحياة ، ووقوفي ضجرا مغضبا محتارا حيال مهمة اتوصل الى أفكار جديدة لألعاب جديدة من ألعاب الكريات الزجاجية . المهم أن القرار تكون في نفسي . ولقد عرفتموني ، أيها السيد الجليل في ذلك الوقت معرفة جيدة ، ربما تفوق معرفتي أنا بنفسي ، فقد كنتم مستشاري ومتلقي اعترافي في الفترة العصيبة الأولى لي في المنصب ولم تتركوا فالدتسل الا منذ وقت قصير » .

ونظر الكسندر اليه نظرة فاحصة . ثم قال : « لم أتلق في حياتي تكليفا أجمل من تكليف ذلك الوقت ، ولقد كنت آنئذ مسرورا منكم ومن نفسي

على نحو لا يحدث الا نادرا . واذا صح أن الانسان لا بد أن يدفع ثمن كل شيء جميل في الحياة ، وقد حان الوقت لأدفع ثمن احساسي العظيم في ذلك الوقت . لقد كنت في ذلك الوقت فخورا جدا بكم وهذا ما لم يمكني اليوم أن أكونه واذا أحست الطائفة بسببكم بخيبة أمل ، واهتزت من فعلكم كاستاليا ، فاني أعتبر نفسي شريكا في المسؤولية . فربما كان الأحرى بي في ذلك الوقت الذي كنت فيه مرافقا ومستشارا لكم ، أن أطيل مقامي في قرية اللاعبين عدة أسابيع أخرى وأن اشتد معكم وأراقبكم مراقبة أكثر دقة . »

وقابل كنشت نظرته بنظرة مرحة . وقال : « لا عليكم أن تقسوا هكذا على ضميركم . والا لذكرتكم ، يا سيدي ، بتنبيهات وجهتموها الي كلما كنت كماجستر مستجد ، أشق على نفسي في معالجة واجباتي ومسؤولياتي ، لقد قلتم لي في ساعة كهذه الساعة كلاما يطوف الآن بمخيلتي : لو كنت أنا الماجستر لودي ، شخصا شريرا أو عديم الكفاءة ، وفعلت كل ما لا يليق أن فعله ماجستر ، بل وتعمدت وأنا في مركزي العالي أن أحدث أكبر ضرر ممكن ، فلن يوثر هذا في كاستاليا الحبيبة الا تأثير حصوة صغيرة ألقيت في بحيرة : ستظهر بعض موجات صغيرة ودوائر ، ثم ينتهي الأمر . فان نظامنا الكاستالي راسخ مكين ، وروحه لا يمكن أن تتأثر بمؤثر . أتذكرون ؟ لا ، يا سيدي ، انكم لا تحملون معي مسؤولية محاولاتي أن أكون كاستاليا ردينا ما أمكن ، وأن أحدث بالطائفة أكبر ضرر ممكن . وأنتم تعلمون أنني لن أستطيع أن أضر بسلامكم ضررا ذا بال . ولأستمر الآن في روايتي . ـ أما أني منذ بداية تقلدي الأستاذية قد اتخذت هذا القرار ولم أنسه ، بل حفظته لأنفذه الآن ، فهذا أمر يرتبط بخبرة روحية صادفتها من حين لآخر ، خبرة روحية أسميها « يقظة » . وأنتم تعلمون بها ، فقد حكيت لكم عنها عندما كنتم تقومون لدي بعمل المرشد والـ« جورو »[1] .

---

(١) الجورو Guru = مرشد روحي عند البوذيين . (المترجم)

وشكوت لكم في ذلك الوقت من أن هذه الخبرة أصبحت تتحاشاني وتهرب مني الى بعيد منذ تقلدت المنصب ، فتزداد بعدا .

فأكد الرئيس ذلك بقوله : «نعم أذكر ذلك ، ولقد كنت في ذلك الوقت أدهش لقدرتكم على هذا النوع من الخبرة ، وهي لا تظهر عندنا الا قليلا ، أما في الخارج فهي تظهر في أشكال مختلفة جدا : عند العباقرة مثلا ، وخاصة عند الساسة وقواد الجيش ، ثم عند أناس ضعاف مرضى نوعا ما ، قليلي الموهبة عموما ، مثل العرافين ، والوسطاء النفسانيين والمتخاطرين . وقد بدا لي في ذلك الوقت أنه لا صلة تصلكم بهذين النوعين من الناس ، أبطال الحرب ، والعرافين والمنجمين ، بل كنت أعتبركم حتى الأمس أحد خيار أعضاء الطائفة ، تتسمون بالأناة والوضوح والطاعة . لاح لي أنكم لا تناسبون بحال من الأحوال التعرض لبلاء والتماس الأصوات الغامضة ، ربانية كانت أو شيطانية ، أو منبثقة من أعماقكم أنتم . ولهذا فسرت أحوال «اليقظة» كما وصفتموها لي ، بأنها مجرد شعور بالنمو الشخصي . وكان مصداقا لتفسيري أن هذه الخبرات الروحية اختفت زمنا طويلا : فقد كنتم حديثي عهد بمنصب ، وكنتم قد تلقيتم مهمة كانت تبدو عليكم كالمعطف المتسع اتساعا شديدا ، وكان عليكم أن تزدادوا نموا حتى تملأوه . ولكن خبروني : هل اعتقدتم أن هذه الايقاظات ايحاءات قوى عليا وبلاغات أو نداءات من ميادين حقيقية موضوعية خالدة ، أو حقيقية الهية ؟ »

فقال كنشت : «وهكذا نصل الى مهمتي الحالية ومشكلتي الصعبة الآن ، وهي التعبير بكلام عما ظل على الدوام يمتنع عن الكلام ، تحويل أمر الى «عقلي» وقد اتضح أنه «خارج حدود ما هو عقلي» . لا ، لم أفكر أبدا أن هذه الايقاظات تمثلات لرب أو لشيطان أو لحقيقة مطلقة . وانما اتخذت هذه الخبرات وزنها وقوتها الاقناعية من واقعيتها ، لا من مضمون حقيقة أو مصدر سام أو رباني أو ما شاكل ذلك . ان هذه الخبرات واقعية واقعية هائلة ، تبدو

لنا كما يبدو الألم الجسماني العنيف أو الحدث الطبيعي المفاجئ كالعاصفة أو الزلزال ، تبدو لنا مشحونة بواقعية وحاضرية وتماسك ، أكثر من الأوقات والظروف العادية . انها لطمة الريح التي تسبق العاصفة وتدفعنا معجلين الى البيت وتحاول أن تنتزع الباب من قبضتنا ـ أو ألم الاسنان الشديد الذي يلوح كأنه يركز في الفك كل التوترات والآلام والصراعات الموجودة في العالم تلك أشياء ربما استطعنا بعد حدوثها بزمن ، ان شئنا ووجدنا في أنفسنا ميلا الى أمثال هذه الفكاهات ، أن نشرع في هز واقعها أو الشك في معناها ، أما في الساعة التي نعانيها فيها فانها لا تقبل أدنى شك بل تغص بالواقع الى درجة الانفجار . ويقظتي لها في نظري نوع من الواقعية الرفيعة المشابهة ، ولهذا أطلقت عليها هذا الاسم . وانني لأحس في تلك الساعات كأني كنت غارقا وقتا طويلا في النوم أو النعاس ، ثم أفقت وصفوت وزدت قدرة على الوعي كما لم أكن قط . ولحظات الآلام الشديدة أو الصدمات ، حتى في تاريخ العالم ، لها ضرورتها المقنعة ، فهي تشعل احساسا بالحاضر المحزن والتوتر . فاذا نتج عن الصدمة عندئذ جمال ونور أو نتج عنها جنون وحلكة ، فسيتخذ ما يحدث ، على أية حال مسحة العظمة والضرورة والأهمية ، وسيفترق عما يحدث كل يوم افتراقا بينا ، ويبزه كلية .

ثم استأنف كلامه بعد فترة تنفس : «أو دعوني أحاول معالجة هذا الأمر من ناحية أخرى . أتذكرون أسطورة القديس كريستوفوروس[1] ؟ نعم ؟ كان هذا الكريستوفوروس رجلا عظيم القوة والشجاعة ، ولكنه لم يكن يريد أن يكون سيدا يحكم ، بل كان يريد أن يخدم ، كانت الخدمة قوته وفنه ، وكان يجيد فهمها كل الاجادة . الا أنه لم يكن يخدم من هب ودب . كان يشترط فيمن يخدمه أن يكون أعظم وأقوى سيد . وكان اذا سمع عن سيد يفوق في القوة السيد الذي يقوم بخدمته ، ذهب اليه وعرض عليه خدماته . ولقد

(١) Christophorus

أعجبني هذا الخادم العظيم دائما ، ولا بد أني أشبهه بعض الشبه . أو على الأقل فقد قمت في الفترة الوحيدة من حياتي التي كنت فيها أملك أمر نفسي ، في سني الدراسة ، بالتفكير المتردد الطويل في السيد الذي ينبغي أن أخدمه . وصددت طويلا عن لعبة الكريات الزجاجية ، رغم أنني كنت قد تبينت أنها أقيم وأخص ثمرة في اقليمنا ووقفت منها موقف الريبة . وكنت قد تذوقت الطعم المعلق في مصيدتها وعلمت أنه لا يوجد على الأرض شيء أكثر منها سحرا وتميزا ، ولاحظت في وقت مبكر أن هذه اللعبة الخلابة لا تتطلب لاعبا ساذجا يمارسها في وقت فراغه مساء ، بل تتطلب من اتخذها لنفسه ، تتطلبه وتجذبه لخدمتها . فلما أقدمت على تكريس نفسي وقواي واهتماماتي لهذا السحر الى الأبد ، ثارت غريزة في ، وثار احساس ساذج في ميال الى كل بسيط كامل صحيح ، وحذرني من روح قرية اللاعبين الفالدتسلية ، وحذرني من روح المتخصصين المسرفين في التخصص والمهرة المسرفين في المهارة ، هذه الروح الواقعية العظيمة الغنية بجهودها ، والتي تنفصل عن الحياة وعن الانسانية ككل ، وتنحسر في عزلة متعالية . ولقد ساورني الريب سنين عددا ، وفحصت ومحصت ، حتى نضج قراري واخترت اللعبة رغم كل شيء . اخترت اللعبة ، لأنني كنت أحس في نفسي ذلك الدافع الذي يدفعني الى التماس أعظم تحقيق لشخصيتي وخدمة أعظم سيد دون سواه » .

فقال الماجستر الكسندر : « فهمت . ولكني أصطدم دائما بالسبب نفسه الذي أرجع اليه تصرفاتكم العجيبة ، سواء اتبعت تصوري للموضوع أو تصويركم له . لديكم احساس مفرط بشخصكم ، أو لديكم تبعية له ، وليس هذا قط أمر الشخصية العظيمة . ومن الممكن أن يكون الانسان نجما من الطراز الأول في الموهبة وقوة الارادة والجلد ، ومع ذلك يكون في مركز المنظمة التي يتبعها حيث يتحرك معها بلا صعوبة أو تضييع للجهد والطاقة . وهناك انسان آخر تكون له المواهب نفسها ، أو ربما تكون له مواهب أكثر

جمالا ، ولكن المحور لا يمر بالمركز بالضبط فتكون النتيجة أنه يبعثر نصف قوته في حركات ناحية الخارج تضعفه هو وتبلبل ما حوله . ولا بد أنكم من هذا النوع الأخير . على أنني لا بد أن أعترف بأنكم عرفتم كيف تخفون ذلك أعظم الاخفاء . ولكن ذلك لم يؤد الا الى زيادة تفريغ البلاء الآن بالقدر نفسه . انكم تحكون لي عن القديس كريستوفوروس ولا بد أن أقول تعليقا على حكايته انه اذا كانت شخصيته تتصف بشيء عظيم مؤثر ، فانها لا يمكن أن تكون مثلا نموذجيا للخادم في نظامنا الهرمي . من أراد أن يخدم ، فعليه أن يخدم السيد الذي عاهده دون تفريق بين سراء وضراء ، ودون نية خفية ترمي الى تركه الى أحسن منه ، ان وجد من هو أحسن منه . فان الخادم اذا فعل ذلك ، جعل نفسه قاضيا لسادته ، وهذا هو بالضبط ما تفعلون . انكم تريدون أن تخدموا أعظم سيد ، وتقطعون في أمر مركز السادة الذين تختارون من بينهم من تخدمونه بأنفسكم » .

وأنصت كنشت باهتمام ، ليس بدون أن يعلو وجهه ظل من الحزن . ثم راح يقول : «ان حكمكم جدير بالاحترام ، ولم أكن أتوقع غيره . ولكن دعوني أكمل قصتي . أصبحت اذن أستاذ لعبة الكريات الزجاجية ، واعتقدت فترة طيبة من الزمن أنني بالفعل أخدم أعظم السادة . أو على الأقل فقد صور لي صديقي ديزنيوري ، المدافع عنا في المجلس الاتحادي ، تصويرا واضحا أشد الوضوح ، كيف كنت قديما لاعبا ماهرا وشابا من الصفوة أتميز بالكبر والزهو والخيلاء والعجرفة . ودعوني الآن أشرح لكم المعنى الذي كان لكلمة «استعلاء » في نظري منذ سنوات الدراسة و«اليقظة» . صادفتني هذه الكلمة ، على ما أعتقد ، عندما كنت أقرأ فيلسوفا من عصر التنوير أشار به عليّ الأستاذ توماس فون دره ترافه ، ومنذ ذلك الحين وهذه الكلمة تلوح لي مثلها مثل كلمة «يقظة» ، ككلمة سحرية حقة ، تشجعني وتحثني وتسليني وتعدني الكثير . ونويت أن تكون حياتي استعلاء ، أن تكون تقدماً من

خطوة الى خطوة ، وأن تجتاز المكان الذي تخلفه وراءها الى مكان آخر ، كالموسيقى تترك موضوعا الى موضوع ، وتنتهي من ايقاع وتبدأ آخر ، لا تتعب ولا تنام بل تظل دائما يقظة ، حاضرة حضورا كاملا . وقد لاحظت فيما يتعلق بخبرات اليقظة أن هناك مثل هذه الدرجات والأماكن وأن الفترة الأخيرة من كل مرحلة من مراحل الحياة تحمل لونا خفيفا من الذبول والرغبة في الموت في ذاتها يقودها الى مكان جديد ، الى اليقظة ، الى بداية جديدة . وأنا أنقل اليكم هذه الصورة الخاصة بالاستعلاء حتى تكون وسيلة لديكم قد تساعدكم على فهم حياتي . وكان قراري بالتخصص في لعبة الكريات الزجاجية خطوة هامة ، كذلك كان قرار انخراطي الأول في صفوف النظام الهرمي . وفي منصبي كماجستر مررت بدرجات مشابهة . وكان أعظم ما أفدته من المنصب ، هو اكتشافي أن عزف الموسيقى ولعب لعبة الكريات الزجاجية ، لا يمثلان وحدهما النشاط الذي يجلب السعادة ، هناك أيضا التعليم والتربية . واكتشفت بمضي الوقت تدريجيا أن السعادة التي تأتيني بها التربة تزيد كلما كان من أقوم بتربيتهم صغارا لا تشوبهم شائبة وقادني هذا ، وغيره ، بمضي السنين ، الى أنني رجوت أن يكون لي تلاميذ صغار ، وتمنيت لو أصبحت مدرسا بمدرسة ابتدائية ، يعني أن خيالي اشتغل من حين لآخر بأمور خارجة عن حدود منصبي » .

وصمت فترة للراحة . وقال الرئيس «انكم تزيدون دهشتي ، يا أستاذ . انكم تتحدثون عن حياتكم ، فلا تتكلمون الا عن خبرات خاصة ذاتية ، وأماني شخصية وتطورات ومقررات شخصية! والحقيقة أنني لم أكن أعلم أن كاستاليا في مركزك ينظر الى نفسه والى حياته على هذا النحو .»

كان في صوته نبرة بين اللوم والحزن آلمت كنشت ، ولكنه تمالك نفسه وصاح : «اننا أيها الأجل ، لا نتحدث الآن عن كاستاليا والادارة والنظام الهرمي ، بل نتحدث عني ، وعني فقط ، نتحدث عن سيكولوجية

رجل ، اضطر الى أن يسبب لكم متاعب كبيرة . وليس لي أن أتحدث عن تصريفي لمهام منصبي ، وتأديتي واجبي وقيمتي أو عدم قيمتي ككاستالي وكماجستر . فان تصريفي مهام منصبي شأنه شأن الناحية الظاهرية من حياتي مفتوح أمامكم ، وتستطيعون التحقق منه ، ولن تجدوا فيه الكثير مما يستوجب العقاب . وانما يدور الأمر هنا حول شيء آخر ، وهو توضيح الطريق الذي سلكته فردا والذي يقودني الآن الى خارج فالدتسل ، والذي سيقودني غدا خارج كاستاليا . فاستمعوني برهة من فضلكم!

ومعرفتي بوجود عالم خارج اقليمنا الصغير لا يرجع الفضل فيها الى دراساتي التي لم يكن العالم يظهر فيها الا كماض سحيق ، بل يرجع الى زميلي في التلمذة ديزنيوري ، الذي كان ضيفا من الخارج ، والى اقامتي لدى الآباء البندكتينيين والأب ياكوبوس . كان ما رأيته من العالم بعيني رأسي قليلا ، ولكنني تلقيت عن طريق هذا الرجل فكرة عما يسمى تاريخا ، وربما وضعت بذلك أساس عزلتي التي لذت بها بعد عودتي من الدير الى الاقليم . والحقيقة أنني عندما عدت الى الاقليم وجدته أرضا تكاد تكون بلا تاريخ ، واقليما من العلماء ولاعبي الكريات الزجاجية ، مجتمعا رفيعا جدا لطيفا جدا بدا لي أني الوحيد فيه الذي يعرف شيئا عن العالم ويشغف به ويميل اليه . وكان في الاقليم كثير مما يعوضني عن ذلك ، كان فيه رجال احترمتهم أكبر الاحترام وكان لي في زمالتهم شرف مخجل مسعد لي ، وكان فيه عدد كبير من المهذبين المثقفين ، وكان فيه عمل كاف وتلاميذ موهوبون مهذبون كثيرون . ولكني كنت قد اكتشفت عند الأب ياكوبوس أنني لست كاستاليا فحسب ، بل انني أيضا انسان ، وأن العالم ، العالم كله يهمني ويطالبني بالاشتراك في الحياة فيه . وتبع هذا الاكتشاف ظهور حاجات وأمنيات وطلبات والتزامات لم يكن لي أن أشبعها . كانت حياة العالم في رأي الكاستالي ، شيئا متخلفا قليل القيمة ، كانت حياة اضطراب وغلظة وأهواء

ولهو ، ولم تكن شيئا جميلا مأمولا مرغوبا . لكن العالم والحياة فيه كان أكبر وأغنى بكثير من التصورات التي يكونها عنه الكاستالي ، كان مليئا بالتحول وبالتاريخ وبالبدائية التي تظل الى الأبد جديدة . ربما كان العالم مضطربا لم يتكون نهائيا ، ولكنه كان وطن وأرض المصائر جميعا ، والانتفاضات كلها ، والفنون جميعا ، والانسانية قاطبة ، كان للعالم اللغات والشعوب والدول والثقافات ، وكان العالم هو الذي أنتجنا وأنتج كاستاليا ، وسيكون العالم هو الذي يرى كل هذه الأشياء تموت ، ويعيش هو بعدها . ولقدأيقظ أستاذي ياكوبوس في حبا لهذا العالم ، حبا ظل ينمو على الدوام ويلتمس غذاء ، ولم يكن بكاستاليا شيء يغذيه ، كان الانسان هنا خارج العالم ، كان الانسان هنا عالما صغيرا كاملا لا ينمو ولا يتحول » .

وتنفس نفساً عميقا وصمت لحظة . فلما لم يقل الرئيس شيئا وظل ينظر اليه أوماً كنشت برأسه ايماءة تدل على التفكير وأردف يقول : « وحملت حملين سنين عديدة ، كان علي من ناحية ثانية أن أقضي في أمر حبي . وكان واضحا في ذهني من أول الأمر أنه لا يصح أن يخسر المنصب شيئا نتيجة حبي هذا ، بل على العكس ، كنت أرجو له أن يكسب منه ويستفيد . فاذا حدث أني أديت عملي على نحو أقل كمالا وجودة مما يتوقع الناس من ماجستر ، وهذا ما لا أرجوه ، فقد كنت أعرف أنني في قلبي أكثر يقظة وحيوية من كثير من الزملاء الذي لا تشوبهم شائبة ، وأنني أمنح تلاميذي ومعاوني هذا وذاك . وكنت أعتبر مهمتي هي توسيع وتنشيط الحياة والتفكير الكاستالي ببطء ورقة وبدون قطيعة مع التقاليد ، ونقل دم جديد اليها من العالم والتاريخ . وقد شاءت المقادير الجميلة أن يحس ويفكر رجل من رجال العالم في الوقت نفسه في خارج كاستاليا الشيء نفسه ، ويحلم بصداقة وتمازج بين كاستاليا والعالم وكان هذا الرجل هو : بلينيو ديزنيوري » .

وزمّ الأستاذ الكسندر فمه قليلا ثم قال : «نعم ، لم أكن أتوقع قط أن يكون لهذا الرجل أثر طيب عليكم ، كذلك لم أتوقع أن يكون لصفيكم المختل تيجولاريوس أثر مفرح عليكم . لقد كان ديزنيوري اذن هو الذي بلغ بكم في النهاية الى قطيعة الطائفة ؟» .

كنشت : «لا يا سيدي ، ولكنه ساعدني على ذلك بعض المساعدة ، دون علم منه . فقد أنفذ شيئا من الهواء الى سكوني ، واتصلت عن طريقه بالعالم الخارجي ، فاستطعت عندئذ أن أرى أنني بلغت نهاية طريقي هنا ، وأنني فقدت ما كان عملي يشعرني به من متعة وأن الوقت قد حان لكي أنهي عذابي . ورأيت أنني قد قطعت مرحلة ، واجتزت مكلفا وكان هذا المكان هو كاستاليا» . وهنا قال الكسندر ملاحظة وهو يهز رأسه : «يا له من تعبير ذلك الذي استخدمتموه! كأن لم تكن كاستاليا مكانا له من الضخامة ما يكفي لشغل الكثيرين طوال حياتهم شغلا كريما! أتعتقدون فعلا جادين أنكم قهرتم هذا المكان وسبرتم أغواره ؟» .

فصاح الآخر بقوة : «آه لا ، لم يحدث قط أني اعتقدت شيئا من هذا النوع . وأنا عندما قلت انني بلغت نهاية هذا المكان ، فقد قصدت فقط أني فعلت ما استطعت أن أفعله هنا كفرد في منصبي . لقد بلغت منذ فترة الحد الذي سيتحول عنده عملي كأستاذ لعبة الكريات الزجاجية الى تكرار دائم وتمرين فارغ وشكل يعوزه الايمان أحيانا . ولقد حان الوقت لأكف عن ذلك» .

فتنهد الكسندر : «هذا هو مفهومكم ، وليس هذا هو مفهوم الطائفة ولوائحها . وليس من الأمور الجديدة ولا العجيبة أن تعتري أخا من اخوان الطائفة تقلبات مزاجية أو يتعب من عمله أحيانا . وفي اللوائح ما يرشده الى الطريق الذي يستعيد به الانسجام والتركيز . فهل نسيتم هذا ؟» .

كنشت : «لا أعتقد أني نسيته ، أيها المبجل . ولكم مطلق الحرية في

أن تفتشوا على تدبيري أمور منصبي ، ولقد وضعتموني منذ قليل ، بعد أن تلقيتم منشوري الدوري ، تحت المراقبة وبعثتم من راقب الحال في قرية اللاعبين . ولقد تبينتم أن العمل يُؤدى ، وأن الديوان والأرشيف منظمان ، وأن الماجستر لودي لا يتأثر بمرض ولا نزوة . والفضل يرجع الى هذه اللوائح ـ التي علمتموني اياها على نحو ممتاز ـ في أنني لم أفقد القوة وسعة الصدر . ولكن هذا كلفني جهدا كبيرا . وهأنذا أكلف نفسي جهدا لا يقل عن الجهد السابق ، لأقنعكم بأن ما يدفعني ويحركني ليس تقلبات مزاجية وليس نزوات ولا شهوات . وسواء وفقت في ذلك أو لم أوفق ، فانني أصر على أن تعترفوا بأن شخصي وجهدي كانا حتى آخر لحظة فتشتم فيها عليهما ، مفيدين صالحين . فهل أطلب منكم الكثير ؟ » .

فطرف الأستاذ الكسندر بعينيه في شيء من التهكم .

ثم قال : «سيدي الزميل ، انكم تتحدثون معي كما لو كنا شخصين عاديين يتحدثان حديثا لا يلزم . وهذا لا ينطبق الا عليكم فأنتم الآن بالفعل شخص عادي . أما أنا فلست كذلك ، ان كل ما أفكر فيه وأقوله ، لا أقوله أنا ، بل يقوله رئيس ادارة الطائفة ، وهو مسؤول حيال هيئة عن كل كلمة . ان ما تقولونه هنا اليوم لن يؤدي الى نتائج ومستتبعات ، فمهما كان كلامك من الجد ، فانه لا يزيد عن أن يكون كلام شخص عادي يتكلم في مصلحته هو . أما أنا فالديوان والمسؤولية مستمران بالنسبة لي ، وما أقوله وأفعله هنا ، يمكن أن يؤدي الى نتائج ومستتبعات . انني أمثل حيالكم وحيال مسألتكم الهيئة . ولا يستوي أن تقبل الهيئة تصويركم للوقائع وتعترف بها ، والعكس . ـ انكم تصورون لي الأمر كما لو كنتم ، بغض النظر عن بعض أفكار خاصة في رأسكم ، حتى الأمس كاستاليا وأستاذا لا تشوبه شائبة ، وتذكرون أنكم قد تعرضتم حقيقة لوساوس ومؤثرات من قبيل التعب من المنصب ، ولكنكم كافحتموها دائما وقهرتموها . فلنفترض أني قبلت ذلك ،

فكيف أفهم اذن المعضلة الهائلة المتمثلة في أن الماجستر الذي كان حتى الأمس لا تشوبه شائبة ، يهرب من السلاح اليوم فجأة ؟ ان المشكلة تسهل علي اذا تصورت أستاذا اعترت نفسه التغييرات منذ وقت طويل واعتل ، وكان يعتبر نفسه على الدوام كاستاليا جيدا لا يعيبه عيب ، ولكنه لم يكن في الحقيقة كذلك . ثم انني أسأل نفسي عن السبب الذي يجعلكم تعقدون أهمية كبيرة على تقرير أنكم كنتم حتى آخر وقت أستاذا مخلصا لواجباته . وما دمتم قد خطوتم الخطوة ، وقطعتم حبل الطاعة ، وارتكبتم الهروب من السلاح ، فلا معنى أن تهمّكم مثل هذه التقريرات» .

ورفض كنشت : «ولم لا اهتم بها ، بعد اذنكم ، أيها السيد المبجل ؟ انها سمعتي واسمي والذكرى التي سأخلفها ورائي هنا . وترتبط بها امكانية عملي من أجل كاستاليا في الخارج . ولست أقف هنا لأنقذ شيئا من أجلي ، أو لأحصل على موافقة الهيئة على خطوتي . فأنا أتوقع أن زملائي سيشكّون في مسألتي في المستقبل وسينظرون اليها كظاهرة مشكلة . ولست أريد أن أعتبر خائنا أو مجنونا ، فهذا حكم لا يمكن أن أقبله . لقد أقدمت على شيء كان عليم أن ترفضوه ، ولقد أقدمت عليه لأنه كان علي أن أقدم عليه ، لأنه كان مفروضا علي ، لأنه كان بعثتي ورسالتي التي أومن بها ، والتي حملتها بارادتي . فاذا لم تعترفوا لي بهذا فقد فشلت ، وكان حضوري اليكم وحديثي معكم بلا جدوى» .

فأجاب الكسندر : «انكم تقصدون الى أمر واحد ، تقصدون الى الحصول على اعتراف بأن ارادة الفرد يحق لها في بعض الظروف أن تخرق القوانين التي أؤمن بها على أن أمثلها . وليس من الممكن أن أؤمن في وقت واحد بنظامنا من ناحية ، ومن ناحية أخرى بحقكم الخاص في خرق هذا النظام ـ أرجو ألا تقاطعوني . وفي استطاعتي أن أعترف لكم بأنكم مقتنعون على ما يبدو بحقكم وبمعنى الخطوة التي تقدمون عليها وتؤمنون بالقيام بما

تنوون عليه كأنه بعثة ورسالة . أما أني أوافق على هذه الخطورة ، فهذا شيء لا تتوقعونه مني بلا شك . وقد نجحتم على أية حال في صرفي عن فكرتي الأولى التي كانت تستهدف استعادتكم وحملكم على تغيير قراركم . وأنا أقبل استقالتكم من الطائفة وسأقوم بابلاغ الهيئة خبر اعتزالكم منصبكم بمحض ارادتكم . ولا طاقة لي ، يا يوزف كنشت ، على أكثر من هذا » .

وأشار أستاذ لعبة الكريات الزجاجية اشارة تعني الرضا ، ثم قال في سكون : « أشكركم يا سيدي الرئيس ، لقد سلمتكم العلبة الصغيرة من قبل وسأسلمكم الآن بعض مذكرات عن أحوال الأمور في فادتسل وخاصة عن المعيدين وعن بعض الأشخاص الذين يلوح لي أنهم يصلحون لخلافتي في المنصب » .

واستخرج ورقات مطبقة من جيبه ووضعها على المائدة ، ثم نهض وكذلك نهض الرئيس ، فاتجه اليه كنشت ، ونظر في عينيه بود حزين وانحنى ثم قال : « كنت أنوي أن أرجوكم أن تصافحوني وداعا ، ويبدو أن علي أن أصرف النظر الآن عن ذلك . لقد كنتم دائما انسانا عزيزا علي بنوع خاص ، ولم يغير يومنا هذا من الأمر شيئا . وداعا ، أيها العزيز ، وداعا أيها المبجل » .

وبقي الكسندر ساكنا وقد علاه شيء من الشحوب ، وبدا عليه لحظة كأنه يريد أن يرفع يده لمصافحة الراحل ، وأحس أن عينيه تبللتا بالدموع ، فطأطأ رأسه ردا على انحناءة كنشت وتركه ينصرف .

فلما أقفل المنصرف الباب وراءه ، ظل الرئيس واقفا ساكنا ، ينصت الى الخطوات المبتعدة ، ولما توارى وقع الخطوة الأخيرة ، راح يقطع الحجرة جيئة وذهابا ، الى أن تناهت الى أسماعه خطوات أخرى في الخارج تبعها قرع رفيق على الباب . ودخل الخادم الشاب وأعلن أن هناك زائرا يريد أن يحدثه .

«قل له انني سأستطيع مقابلته بعد ساعة وانني أرجوه أن يوجز حديثه عندما يأتي فأمامي عمل عاجل . ـ لا ، انتظر! اذهب أيضا الى المستشارية واطلب الى الأمين الأول أن يجمع الهيئة بكامل أعضائها عاجلا الاجتماع يعقد بعد غد ، وقل له أن يكتب على الدعوة أن تكامل أعضاء الهيئة لهذا الاجتماع ضروري وأنه لا يقبل عذر متغيب الا اذا كان المرض الشديد . ثم اذهب الى رئيس البيت وقل له انني سأرحل غدا مبكرا الى فالدتسل وانه ينبغي أن تعد العربة لهذه الرحلة في الساعة السابعة...»

فقال الشاب : «بعد اذنكم ، هناك عربة السيد الماجستر لودي تحت أمركم» .

الرئيس : «كيف هذا ؟» .

فرد الشاب : «لقد أتى سيادته أمس بالعربة ، وقد ترك الدار الآن وقال انه سيكمل سفره سائرا على قدميه وسيترك العربة هنا تحت تصرف الهيئة» .

«حسنا . سأركب غدا العربة الفالدتسللية . أعد علي التنبيهات من فضلك» .

فاعاد عليه الخادم : «سيستقبل الزائر بعد ساعة وعليه أن يوجز . وعلى الأمين الأول أن يدعو الهيئة الى اجتماع بكامل أعضائها بعد غد ، ولا يقبل كعذر سوى المرض الشديد . وغدا رحلة الى فالدتسل بعربة السيد الماجستر لودي» .

وتنفس الأستاذ الكسندر الصعداء عندما انصرف الشاب . وذهب الى المنضدة التي جلس اليها مع كنشت ، فرنت في نفسه خطا ذلك الانسان غير المفهوم الذي أحبه أكثر من الناس جميعا والذي سبب له هذا الألم الشديد . لقد أحب هو هذا الرجل منذ الأيام التي رافقه فيها وقدم له فيها مساعداته ، وأحب فيه خصلة من خصاله وهي مشيته ، مشية محددة ثابتة الإيقاع ،

ولكنها خفيفة كأنها خطو في الهواء ، مشية فيها الجلال وفيها الطفولة ، مشية بين حركة الكاهن وحركة الرقص ، مشية عجيبة لطيفة كريمة كانت تناسب كنشت ووجهه وصوته على نحو رائع . وكان هذه المشية تناسب بالقدر نفسه طريقة كنشت الخاصة في الكاستالية والأستاذية ، وطريقته في السيادة والمرح تلك التي اذا ما قورنت بالطريقة الأرستقراطية التي كان سلفه الأستاذ توماس يصطنعها ، ذكرت أحيانا بطريقة أستاذ الموسيقى القديم البسيطة التي كانت تأخذ بمجامع القلوب . لقد رحل اذن ، هذا المتعجل ، سائرا على الأقدام الى مكان مجهول ، ولن يراه مرة ثانية الى الأبد ، ولن يسمع ضحكته مرة ثانية ولن يشاهد يده الجميلة ذات الأصابع الطويلة بعد الآن وهي ترسم رموز جملة من جمل لعبة الكريات الزجاجية . ومد يده الى الأوراق التي كانت على المائدة وبدأ يقرؤها . كانت تحتوي على وصية موجزة ، مختصرة وموضوعية ، تستعمل الكلمات بدلا من الجمل الكاملة ، وتهدف الى التسهيل على الهيئة عملها الوشيك في مراقبة قرية اللاعبين واختيار ماجستر جديد . وكان الكلام والخط يحملان طابع شخصية يوزف كنشت الفريدة التي لا يمكن خلطها بغيرها مثل وجهه وصوته ومشيته . ولسوف يصعب على الهيئة العثور على رجل من مستواه ليخلفه ، فقد كان الرجال الحقيقيون وكانت الشخصيات الحقيقية من الندرة بمكان ، وكان العثور على شخصية كنشت صدفة وهبة ، حتى هنا في كاستاليا ، في اقليم الصفوة .

وجد كنشت في المشي متعة ، فقد مرت السنوات دون أن يسير على قدميه أسفارا ، ولقد حاول أن يتذكر آخر رحلة قام بها على الأقدام ، فلاح له كأن آخر مرة تجول فيها على قدميه ، كانت تلك التي أعادته من دير مريافلس الى كاستاليا والى حفل اللعبة السنوي الذي خيم عليه موت صاحب السعادة الماجستر توماس فون درترافه ، وسارت به هو الى خلافة هذا الماجستر . وكان كنشت اذا عاد بذاكرته الى تلك الأوقات بل وحتى الى سنوات دراسته

والى خميلة البوص ، أحس كأنه ينظر من غرفة جافة باردة الى مناطق فسيحة فرحة مشمسة والى ما لا سبيل الى استرجاعه ، الى ما أصبح جنة الذكريات ، وكانت هذه الذكرى على الدوام ان لم يختلط بها الحزن ، تتمثل له كنظرة الى البعيد ، الى الآخر ، الى ذلك الشيء الذي يختلف عن اليوم وكل يوم اختلافا غامضا مهيبا . أما الآن ، في عصر هذا اليوم المنير الصافي من شهر سبمتبر الذي يصطبغ بألوان القرب القوية ، وبظلال البعد الرقيقة رقة الأنسام ، الناعمة نعومة الأحلام ، المتقلبة بين الأزرق والبنفسجي ، فلم تعد تلك الرحلة القديمة التي قام بها على الأقدام تطل عليه وهو يتجول على راحته ، وينظر على مهل ، كشيء بعيد وكفردوس يطل الى داخل اليوم المتخاذل ، بل لقد أصبحت رحلة اليوم شبيهة برحلة الماضي وأصبح يوزف كنشت يشابه تمام الشبه يوزف كنشت في الماضي ، لقد أصبح كل شيء جديدا مليئا بالأسرار والفائدة ، لقد أصبح من الممكن أن يعود كل ما مضى وأن ينضم اليه الكثير من الجديد . لم يطل عليه النهار والعالم منذ زمن طويل كما أطلا عليه اليوم رفيقين جميلين بسيطين . ونفذ فيه فيض السعادة بالحرية ، وبتقرير أمر نفسه بنفسه وغمره كأنه خمر قوية ، وما أطول شوقه الى هذا الاحساس بهذه الخفقة وهذا الوهم الخلاب! وفكر فتذكر الساعة التي مسه فيها هذا الاحساس اللذيذ قديما وتملكه كأنما ربطه بالأغلال ، كان ذلك في حديث مع الماجستر توماس وتحت نظره اللطيف الساحر ، وتذكر كذلك الاحساس الفظيع الذي تملكه في الساعة التي فقد فيها حريته . لم يكن ذلك الاحساس ألما ولم يكن وجعا حارقا ، بل كان على الأحرى خوفا وقشعريرة خفيفة في أعلى الظهر واحساسا عضويا محذرا متركزا فوق الحجاب الحاجز ، وتغيرا في درجة الحرارة وخاصة في ايقاع الشعور بالحياة . هذا الاحساس بالخوف وبالانتفاض المهدد من ماضيه بالاختناق ، والذي تملكه في تلك الساعة من القدر ، هذا الاحساس أتاه اليوم ما عادله أو شفاه .

وكان كنشت قد قرر في أثناء رحلته الى هيرسلاند ألا يندم على شيء بحال من الأحوال مهما حدث هناك . أمل اليوم فقرر أن يمتنع امتناعا تاما عن التفكير في تفصيلات محادثاته مع الكسندر ، وصراعه معه ، أو صراعه من أجله ، وأن يفتح نفسه كلية للاحساس بالراحة والحرية ، ذلك الاحساس الذي ملأه كما يمتلئ الفلاح بعد انتهاء يومه بالاحساس بالراحة بعد الضنى ، وتبين كنشت أنه قد ولد وأنه لا يحمل مسؤولية شيء ، ورأى نفسه لبرهة شخصا مستغنى عنه تماما مهملا تماما ، غير ملزم بعمل أو بتفكير وأحاط به النهار المنير ، الملون البراق رقيقا ، كله صورة ، وكله حاضر ، بلا مطالب ، بلا أمس وبلا غد . وكان من حين لآخر يتغنى أثناء سيره بنشيد من أناشيد المارشات ويحس بالرضاء ، وكان قد تعلم هذه الأناشيد كتلميذ من الصفوة واعتاد أن يغنيها وهو تلميذ صغير في ايشهولتس عند القيام برحلات على ثلاثة أو أربعة أصوات ، أتته من فجر حياته الصافي ذكريات صغيرة منيرة ونغمات تطير عابرة كأنها أناشيد الأطيار .

ووقف تحت شجرة كريز أوراقها مالت الى الاصطباغ بالحمرة ، وجلس على الكلأ . ومد يده الى جيبه العلوي وأخرج شيئا لم يكن الأستاذ الكسندر يتوقع أنه أخذه معه ، أخرج نايا صغيرا من الخشب ونظر اليه برقة ، ولم يكن هذا الناي قد انتقل الى حوزته الا منذ وقت قصير ، منذ حوالي نصف عام ، وتذكر وهو يتأمل هذه الآلة الصغيرة الساذجة التي تشبه ما يستخدمه الأطفال ، تذكر بسرور اليوم الذي انتقل فيه هذا الناي الى حوزته . كان في ذلك الحين قد سافر الى مونتيبورت ليتناقش مع كارلو فيرومونته في بعض موضوعات الموسيقى النظرية ، ودار الحديث فيما دار حول آلات النفخ الخشبية في بعض العصور ، ورجا صديقه أن يريه مجموعة الآلات الموسيقية المونتبورتية . وسارا الى مخزن به آلات موسيقية للمدارس . ورأى كنشت هناك صندوقا مليئا بأمثال هذا الناي الصغير ، فتأمل نايا منها وجربه وسأل

صديقه عما اذا كان له أن يأخذ هذا الناي الصغير معه . فضحك كارلو ورجاه أن ينتخب له واحدا وحصل ضاحكا على توقيعه على ايصال بالاستلام ، وشرح له بمنتهى الدقة تكوين الناي وطريقة العزف عليه وتكنيك العزف . وأخذ كنشت اللعبة الصغيرة الجميلة ، وقرر أن يتعلم ويتمرن عليها ، لأنه لم يعزف منذ كان صبيا في ايشهولتس آلة من آلات النفخ قط . واستعمل علاوة على السلالم الموسيقية كراسة من الألحان القديمة كان فيرومونته قد نشرها ليستعملها المبتدئون ، وصار يعزف من حين لآخر وكثيرا ما انطلقت من حديقة الماجستر أو من حجرة نومه نغمات الناي الرقيقة . وكان كنشت أبعد ما يكون عن اجادة الناي اجادة الأستاذ ، ولكنه تعلم عددا من الأناشيد الجماعية والأغاني وحفظ ألحانها عن ظهر قلب ، بل حفظ كلمات بعضها . وحضرة في تلك الساعة نشيد مناسب للمقام وردد بعض أبيات منه لنفسه :

كانت رأسي وأعضائي .
ممددة راقدة
وهأنذا أهب واقفا
فرحا مرحا
وانظر الى السماء ببصري .

ثم وضع الناي على شفتيه ونفخ اللحن ، ونظر الى البعد البراق الرفيق ناحية الجبال العالية المترامية ، وسمع النشيد المرح ينطلق في نغمات التي الحلوة ، وأحس نفسه راضيا عن السماء والجبال والأغنية والنهار مندمجا فيها . وتمتع بالقصبة الخشبية الملساء المدورة بين أصابعه وخطر بباله أنه لا يمتلك سوى الرداء الذي يستر بدنه والناي الذي بين أصابعه ، خرج بهما من فالدتسل . وكانت هناك أشياء تجمعت حوله على مر السنين واتخذت صفة الملك الخاص ، وأخصها مذكرات ومقتطفات وما شاكل ذلك . لكنه تركها كلها وراءه لتستعملها قرية اللاعبين كما يحلو لها . أما الناي الصغير فأخذه

معه وفرح به وبرفقته ، وما أكثر تواضع ورقة هذا الرفيق السمير!

وفي اليوم التالي وصل الجوال العاصمة وذهب الى بيت ديزنيوري . فنزل اليه بلينيو وقابله على الباب بالعناق .

وصاح : «لقد انتظرناك بشوق وقلق . لقد قمت أيها الصديق بخطوة عظيمة نرجو أن تأتينا جميعا بالخير . ولكن كيف تركوك تنصرف! ان هذا أمر لم أكن لأصدقه!» .

فضحك كنشت وقال : «ولكنك ترى أنني هنا . وسوف أحكي لك طرفا من القصة عندما يأتي الظرف المناسب . أما الآن فأريد قبل كل شيء آخر أن أسلم على تلميذي وعلى زوجتك ، وأن أناقش معكم كل أمور منصبي الجديد الذي يدفعني شوق كبير الى تقلده» .

فاستدعى بلينيو خادما وكلفها بأن تحضر ابنه في الحال .

فقالت : «سيدي الصغير ؟» وقد بدت عليها الدهشة ، ثم أسرعت بينما أخذ رب الدار صديقه الى حجرة الاستقبال وصار يحكي له عما أعده لقدومه ولحياته مع تيتو . وتبين أن كل شيء جرى ترتيبه حسب رغبات كنشت ، وفهمت أم تيتو هذه الترتيبات بعد أن عارضتها قليلا في بادئ الأمر ، وتبعتها . وكانت هذه الترتيبات تقضي بأن يعيش كنشت وتيتو الفترة الأولى في بيت صغير تملكه عائلة ديزنيوري في الجبال على شاطئ بحيرة ، واسمه «بلبونت» ، وتقوم خادم عجوز على خدمتهما ، وقد سافرت الخادم فعلا لتعد كل شيء لقدومهما واقامتهما . ولم تكن هذه الاقامة كما هو واضح لتدوم الا فترة قصيرة ، حتى بداية الشتاء على أقصى تقدير ، ولكنها كانت بما تقضي به من عزلة تتسم بأهمية ايجابية معينة . كذلك كان من الأشياء المفرحة أن تيتو كان يحب الجبال ويحب بيت «بلبونت»(١) ، وكان رحيله للاقامة هناك شيئا يسعد به أو يفعله دون اعتراض . وخطر ببال

---

(١) Belpunt

ديزنيوري أنه يمتلك مجموعة من الصور تمثل البيت والمنطقة ، فأخذ كنشت الى حجرة المكتب وبحث عن الصور حتى وجدها وقدمها الى صديقه ليرى البيت وحجرة الفلاحين والمدفأة الفخارية والتكعيبات ومكان الاستحمام على البحيرة ، ومسقط المياه .

وسأل ديزنيوري صديقه سؤالا عابرا : «أيعجبك هذا البيت ؟ هل تعتقد أنك ستنعم بالسكنى فيه ؟» .

فقال كنشت هادئا : «ولم لا ؟ ولكن تيتو ؟ لقد مضى وقت طويل منذ أرسلت في طلبه» .

ثم تجاذبا أطراف الحديث قليلا ، وتناهت الى الأسماع خطوات في الخارج ، وانفرج الباب ، ودخل شخص لم يكن تيتو ولم تكن الخادم التي أرسلت في طلبه ، بل كانت أم تيتو ، السيدة ديزنيوري ، فنهض كنشت لتحيتها ومدت يدها اليه وابتسمت له ابتسامة فيها بعض الود المتكلف ، فتبين أن هذه الابتسامة المهذبة تخفي وراءها تعبيرا عن القلق والغضب . وما كادت تفرغ من كلمات الترحيب القليلة حتى التفتت الى زوجها وازاحت عن نفسها بعنف خبرا أثقل عليها .

صاحت : «انه لمن المؤلم حقا أنه يكون الصبي قد اختفى الى حيث لا سبيل الى العثور عليه» .

فقال بلينيو مهدئا : «لعله خرج للنزهة وسوف يعود .»

فقالت الأم : «ليس هذا محتملا للأسف ، فقد اختفى منذ صباح هذا اليوم ولاحظت غيابه منذ وقت مبكر .»

ـ «ولِمَ لم أعلم بذلك الا الآن فقط ؟

ـ «لأنني كنت أتوقع في كل ساعة أنه سيعود ولم أكن أريد أن أثيرك بغير فائدة . ثم اني أفكر في مبدأ الأمر أن غيابه شيء يوجب الهم ، بل ظننت أنه خرج للنزهة . ولم يساورني القلق الا عند الظهر لما تبينت أنه لم

يعد ، ولم تكن أنت في البيت اليوم على الغداء ، ولو أتيت الظهر لعلمت الخبر . وحتى في ذلك الوقت كنت أقول لنفسي ان غيابه لا يزيد عن أن يكون اهمالا منه . ولكن الأمر لم يكن كذلك» .

فقال كنشت : «أتسمحين لي بسؤال ؟ هل كان الصبي يعلم بمقدمي الوشيك وبنواياكم حياله وحيالي ؟» .

فردت قائلة : «بالطبع ، يا سيادة الماجستر ، وبدا راضيا أو يكاد بهذه النوايا أو على الأقل كان أقرب الى نفسه أن تكون أستاذه من أن يبعث به الى أي مدرسة أخرى مرة ثانية .»

وكان رأي كنشت : «اذن فلا بأس . لقد تعود ابنكم ، يا سيدتي ، خاصة في الفترة الأخيرة على حرية كبيرة جدا ، فمن المفهوم أن يكون احتمال الدفع به الى مرب ومعلم دقيق تقديرا قاسيا في نظره . ولهذا هرب في اللحظة التي كان المفروض أن يدفع به فيها الى المعلم الجديد ، لا على أمل أن يفلت من مصيره بالفعل ، بل على الأحرى ، وهو يظن أن هذا التأجيل لن يجعله يخسر شيئا . ولعله أراد علاوة على ذلك أن يعطي لوالديه وللمدرس القادم صدمة خادعة وأن يعبر عن عناده حيال عالم الكبار والمعلمين جميعا» .

وارتاح ديزنيوري الى أن كنشت لم يغضب للفعلة التي فعلها تيتو ، وتملكه الهم والقلق ، وتوقع قلبه المحب لابنه بأن خطرا يمكن أن يحدق بالصبي . وفكر ، ربما هرب الصبي هربا جديا ، أو ربما قرر أن ينتحر ؟ آه ، لقد بدا كل ما أهمل وأخطئ في تربية هذا الصبي كأنه يريد أن ينتقم لنفسه في اللحظة التي تقرر فيها اصلاحه .

وأصر ، على عكس ما نصحه به كنشت ، على التصرف ، على اتخاذ اجراء ، وأحس بعجزه عن قبول الضربة ساكنا معانيا ، وتطور الى قلق وثورة عصبية لم يعجبا صديقه قط . وهكذا تقرر أن يذهب من يستفهم عنه في

بعض البيوت التي كان يتردد فيها على رفاق له في مثل سنه . وفرح كنشت عندما انصرفت السيدة ديزنيوري لتتخذ اللازم نحو تنفيذ هذا ، وتركت له صديقه وحده .

وقال كنشت : «بلينيو ، انك تعبر بوجهك تعبيرا كأن الناس حملوا اليك ابنك ميتا ، ان ابنك لم يعد طفلا صغيرا ، ولايمكن أن يكون قد وقع تحت عجلات عربة أو أكل من ثمار الشجر السام[1] . فتمالك نفسك ، يا عزيزي . وما دام ابنك لم يأت ، فاسمح لي بأن أتخذك بدلا منه تلميذا لحظة . وقد لاحظت تصرفاتك قليلا ، وتبينت أنك لست على ما يرام . فالبطل المصارع عندما يتلقى ضربة أو لكمة ، تتحرك مجموعاته العضلية من تلقاء ذاتها الحركات الضرورية فتتمدد أو تنقبض وتعينه على السيطرة على الموقف . فكان ينبغي عليك يا تلميذي بلينيو ، في اللحظة التي تلقيت فيها الضربة ـ أو ما اعتبرته أنت على سبيل المبالغة ضربة ـ أن تستخدم أول وسيلة للدفاع عن حدوث هجمات نفسية ، وهي التركيز على التنفس الخاضع للسيطرة الدقيقة . لقد فعلت عكس ذلك تماما فتنفست كالممثل الذي يمثل دور الاضطراب . ان تحصينك رديء ، ويبدو أنكم يا أهل العالم متعرضون بشكل خاص للآلام والهموم ، وفي هذا تورط وفيه تأثر ، بل فيه عظمة خاصة عندما يكون الأمر أمر آلام حقيقة ويكون للشهادة معنى . أما التخلي عن الدفاع في وقائع كل يوم فليس سلاحا يتسلح به الانسان ، وسوف أهتم بأن يتسلح ابنك تسلحا أفضل منك اذا كان ثمة حاجة الى ذلك . والآن تكرم يا بلينيو وقم معي ببعض التمرينات حتى أتبين ما اذا كنت حقيقة قد نسيت ما تعلمته منها تماما أم لا » .

صرف كنشت صديقه عن طريق تمرينات تنفس أعطاه أوامر دقيقة

---

(١) ثمرة اسمها Tollkirschen تقابل بالفرنسية Belladone وقد جاء في قاموس البخاري أمامها : ست الحسن . لفاحة . ليمونة جبلية ـ وهي ثمرة سامة لونها أسود . المترجم .

تنظيمها ، صرفه عن تعذيب نفسه وشفاه منه ، وبعد ذلك وجده ميالا للاستماع الى المبررات العقلية وللتخلص من الرعب والقلق . ثم ذهبا الى حجرة تيتو في الدور العلوي ، وتأمل كنشت مسرورا الاضطراب الذي تناثرت فيه حاجيات الصبي ، ومد يده الى كتاب موضوع على منضدة صغيرة ، فوجد ورقة مدسوسة فيه يبرز طرفها ، واذا هي خطاب من المختفي . فقدمها الى ديزنيوري وضحك وتهلل وجهه كتب تيتو الى والديه يخبرهما أنه قام اليوم مبكرا وسافر وحده الى الجبال وأنه سينتظر المدرس الجديد في بلبونت . ورجا أن يسمحا له بهذه المتعة الصغيرة ، قبل أن تقيد حريته تقييدا مرهقا ، وأضاف أنه أحس بنفور لم يتغلب عليه من القيام بهذه الرحلة في رفقة المعلم ، كالمراقب والمعتقل . وكان رأي كنشت : «هذا شيء مفهوم . سألحق به اذن غدا وسأجده في بيتك الريفي . أما الآن فاذهب أنت الى زوجتك وأخبرها الخبر» .

وساد بقية هذا اليوم جو من الصفاء والهدوء . وفي المساء ألح بلينيو على كنشت أن يحكي له ما جرى في الأيام الماضية ، فحكاها له باختصار ، وخاصة محادثتيه مع الأستاذ الكسندر . وفي المساء ذاته كتب كنشت شعرا عجيبا على ورقة يمتلكها الآن تيتو ديزنيوري . ولكتابة هذا الشعر قصة :

كان رب الدار قد تركه قبل العشاء ساعة بمفرده فرأى كنشت دولابا مليئا بالكتب القديمة أثار فضوله . كانت تلك متعة نسيها في غضون سنوات الزهد ، أو أوشك ، وخطرت له الآن وذكرته في أعماق ذاته بسنوات دراساته : متعة الوقوف أمام كتب مجهولة واستخراج كتاب منها كيفما اتفق يكون تذهيبه أو عنوان مؤلفه أو حجمه أو لون جلده مناسبا للمزاج في تلك اللحظة . وراح بادئ ذي بدء يمر عابرا على عناوين الكتب على كعوبها فتبين أنها كتب أدب من القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، وأخيرا استخرج كتابا منها مجلدا بالقماش جذبه عنوانه «حكمة

البرهمي[1] » ، وتصفح الكتاب وهو واقف أولا ثم جلس يتصفحه فوجده يضم مئات من قصائد الحكم ، يضم خليطا عجيبا من البلاغة التعليمية والحكمة الحقيقية ، من التفاهة ومن الروح الشعرية الحقيقية . ولم يكن الكتاب العجيب المؤثر في نظره يفتقر الى الباطنية ، ولكن قصائده كانت في أوزان فظة كأنها سويت في البيت ، ولم تكن أجمل قصائده تلك التي كانت الحكمة أو العظة فيها تسعى الى شكل ، بل كانت أجمل قصائده هي تلك التي عبر فيها الشاعر عن ذات نفسه وعن قدرته على الحب ، وعن اخلاصه وحبه للناس وعن خلقه المتسم بصفاء ونقاء بورجوازي . وبينما هو يحاول أن يتعمق في الكتاب بمزيج من الاحترام والتندر ، لفتت نظره أبيات تركها تنفذ الى داخل نفسه بالرضاء والقبول وهو يبتسم ويومئ لها برأسه ، كأنها أرسلت اليه اليوم خاصة له مناسبة ليومه . كانت هذه الأبيات هي :

انا نحب أن ننظر الى الأيام العزيزة تنقضي
لنجد أعز منها ينمو مكانها :
نباتا نادرا ، نزرعه في الحديقة
ابنا نربيه ، أو كتيبا نكتبه .

وسحب درج المكتب وبحث عن ورقة فوجدها ونقل عليها الأبيات . ثم أراها لبلينيو وقال عنها : لقد أعجبتني الأبيات لأن فيها شيئا خاصا : انها جافة وعميقة في الوقت نفسه! وهي تناسبني وتناسب موقفي الحالي ومزاجي . فاذا لم أكن بستانيا ولم أكن لأكرس أيامي لرعاية نبات نادر فأنا معلم ومرب ، وأنا في سبيلي الى مهمتي ، الى الابن الذي أريد أن أربيه وما أكثر فرحي بذلك! أما مؤلف هذه الأبيات الشاعر « روكرت » فيبدو أنه عرف العواطف الثلاث الكريمة كلها ، فكان بستانيا ومعلما وأديبا ، ويبدو أن حبه

---

(١) المقصود هو كتاب « حكمة البرهمي » Die Weisheit Des Brahmanen للأديب الشاعر الفيلسوف المستشرق الألماني الشهير فريدرش روكرت (١٧٨٨ ـ ١٨٦٦) Ruckert Friedrieh . (المترجم)

الكتابة كان يحتل المكان الأول لأنه ذكره في الآخر في أهم جزء من القصيدة ، وأنه كان مغرما بموضوع هذه العاطفة لأنه يرقق من ألفاظه معها فيقول كتيبا بدلا من أن يقول كتابا . هذا شيء مؤثر » .

فضحك بلينيو وقال : «من يعلم ربما كان هذا التصغير الجميل من صنعة صانع القوافي والبحور الذي احتاج في هذا الموضع الى كلمة ذات مقطعين بدلا من الكلمة ذات المقطع الواحد »[١] .

فدافع عنه كنشت قائلا : «لسنا نريد أن نبخس الرجل . وان الشاعر الذي كتب في حياته عشرات الآلاف من الأبيات لا يمكن أن يدع ضرورة وزنية تتحكم فيه . لا ، انصت الي ، واسمع كيف ترن العبارة خجولة رقيقة : « كتيبا نكتبه! » وربما لم يكن الحب وحده هو الذي جعل من « كتاب » « كتيبا » ، وكان التجميل والتحلية سببا آخر . ربما ، بل الظاهر أن هذا الشاعر ، كان منهمكا في عمله لدرجة أنه أحس بتعلقه بكتابة الكتب احساسه بالعاطفة والشغف . وفي هذه الحالة لا تكون كلمة « كتيب » ذات معنى وجرس يفيد الحب فحسب ، بل يفيد كذلك التجميل والتحويل والتعذير ، كحال اللاعب الذي لا يدعو الآخر الى لعبة ، بل الى «لعيبة» ، أو الشارب الذي لا يطلب كأساً بل يطلب « كؤيسا » . وهذه كلها احتمالات . وأيا ما كان الأمر فان الشادي صاحب الأبيات قد نال موافقتي وميلي في شأن الكتيب الذي يريد أن يكتبه والصبي الذي يريد أن يربيه . فأنا لم أعرف العاطفة المتمثلة في الرغبة في تربية الأولاد فحسب ، بل عرفت كذلك حب كتابة الكتب ، عاطفة لا تبعد عن نفسي مطلقا . والان وقد تحررت من المنصب ، اكتسبت الفكرة شيئا جذابا لذيذا ، وأصبحت أريد أن أكتب كتابا في ساعات فراغ بالي واعتدال مزاجي ، لا بل أكتب « كتيبا » ، «مؤلفا» صغيرا لأصدقائي وأصحاب الأفكار الشبيهة بأفكاري» .

---

(١) كلمة Buchlein تتكون في الأصل من مقطعين وكلمة Buch من مقطع واحد . (المترجم)

فسأل ديزنيوري شغوفا : «في أي موضوع ؟»

ورد كنشت قائلا : «آه ، هذا ما لا يهم ، المهم أن تكون تلك الفرصة لي لأتشرنق ولأنعم بسعادة الاستحواذ على وقت فراغ كبير . ولن يهمني الا النغمة ، وستكون وسطا بين التبجيل ورفع الكلفة ، بين الجد واللعب ، نغمة أخرى غير نغمة التعليم ، نغمة المكاشفة والتبليغ الودي بهذا وذاك من الأمور التي أعتقد أني أحطت بها وتعلمتها . وطريقة كتلك التي اصطنعها «فريدرش روكرت» ومزج فيها بين التعليم والتفكير ، بين البلاغ والثرثرة في أبياته ، ليست طريقتي ، ولكن فيها شيء لطيف يؤثر في نفسي ، فهي شخصية وليست متعنتة ، وهي عابثة ولكنها تربط نفسها بقواعد شكلية قوية ، وهذا شيء يعجبني . ولكني لن أصل الى مباهج ومشاكل كتابة الكتيبات قريبا ، فقد استجمعت نفسي لأمر آخر . وربما ازدهرت لي في المستقبل سعادة التأليف على نحو ما تتماثل لمخيلتي ، أعني معالجة الأمور على نحو رقيق دقيق ، لا بقصد المتعة المعتزلة وحدها ، بل وأنا أفكر دائما في بعض أصدقائي الطيبين وبعض قرائي الأخيار» .

وفي الصباح التالي بدأ كنشت رحلته الى بلبونت ، وكان ديزنيوري قد صرح له بأنه يريد أن يرافقه الى هناك ، ولكن كنشت رفض ذلك رفضا باتا وكاد أن يوبخه عندما حاول أن يقنعه ، وقال : «سيكون أمام الصبي عمل كثير عندما يواجه المعلم الشديد الجديد ويهضمه فليس لنا أن نفرض عليه فوق ذلك رؤية أبيه ، تلك التي لن تسعده الان بالذات الا في عسر كبير» .

فلما استقل العربة التي استأجرها له ديزنيوري للرحلة وسارت به عبر صباح منعش من شهر سبتمبر ، عاد اليه مزاجه المعتدل الذي كان له أثناء الرحلة أمس . وكان يتحدث الى السائق كثيرا ويجعله يقف أو يبطئ السير عندما يجتذبه منظر طبيعي ، كذلك كان يعزف على الناي الصغير . كانت الرحلة جميلة مثيرة ، من العاصمة والمنخفض الى الجبال الأمامية ثم الجبال

العالية ، ومن الصيف المشرف على نهايته تدريجيا الى الخريف . وعند الظهر تقريبا بدأت المرحلة الأخيرة من الصعود عبر منحنيات كبيرة في غابات ابرية دب فيها الجفاف ، ومارة بنهيرات جبلية ترغي وتزبد بين الصخور ، عابرة جسورا ودورا ذات نوافذ صغيرة وأسوار قوية ، الى عالم جبلي صخري يزداد قسوة ووعورة وتزدهر في قسوته وجده جنان صغيرة ذات أزهار ازدهارا مضاعفا جميلا .

كان البيت الريفي الصغير الذي وصل اليه في نهاية المطاف يقع على بحيرة جبلية ويتوارى في صخور رمادية لا يكاد يظهر من بينها . ولما نظر اليه كنشت عند وصوله تبين على الفور القسوة بل الظلمة التي يتميز بها أسلوب بنائه الملائم للجبل العالي الوعر ، ثم علت ابتسامة صافية وجهه فملأته بشرا ، عندما رأى بالباب المفتوح شخصا واقفا ، صبيا يلبس جاكتة ملونة وبنطلونا قصيرا ، لا بد أن تلميذه تيتو ، فتنفس الصعداء ارتياحا وامتنانا ، على الرغم من أنه لم يكن قد قلق قلقا حقيقيا جادا بشأنه . فاذا كان تيتو هنا وأقبل الى الباب يحيي المعلم ، فمعنى هذا أن كل شيء على ما يرام ، وأنه لا مكان لما توقعه في الطريق من امكان حدوث تعقيدات .

وأقبل الصبي نحوه مبتسما هاشا باشا مضطربا بعض الاضطراب وساعده على النزول من العربة وقال : «لم أتصرف عن سوء نية عندما تركتكم تقومون بالرحلة وحدكم» . وقبل أن يجد كنشت وقتا للاجابة ، أضاف تيتو في ألفة . «وأعتقد أنكم فهمتم قصدي ، وإلا لكنتم أحضرتم أبي معكم . ولقد بعثت اليه أخبره بأنني وصلت بالسلامة» .

وصافحه كنشت ضاحكا وتبعه الى البيت فحيته الخادم وأنبأته أن العشاء وشيك . فلما رقد في السرير ارضاء لحاجة غير عادية ، ليرتاح قليلا وقبل تناول الطعام ، تبين أن الرحلة الجميلة بالعربة أرهقته ارهاقا شديدا ، بل وأنهكت قواه ، وبينما كان يقضي المساء في التحدث مع تلميذه والاطلاع

على مجموعاته من الزهور الجبلية والفراش أحس تعبه يزداد ، وأحس شيئا كالدوار وكالفراغ في الدماغ لم يكن له عهد به ، وشعر بضعف وباضطراب في النبض . ولكنه بقي جالسا مع تيتو حتى وقت النوم المتفق عليه ، واجتهد في اخفاء ما ألم به . واندهش التلميذ لأن الماجستر لم يقل كلمة واحدة عن بداية الدراسة والجدول والشهادات الأخيرة وما شاكل ذلك ، وتجرأ على استغلال هذا الجو الطيب فاقترح على الأستاذ أن يقوما في الغد برحلة طويلة ليتعرف الأستاذ بالمكان الجديد . فقبل الأستاذ اقتراحه مسرورا .

وأضاف كنشت الى قبوله قوله : «ان نزهة الغد تفرحني سلفا ، وأرجوكم الان أن تتكرموا علي بصنيع ، فقد تبينت عند ملاحظة مجموعة النباتات التي تقتنونها انكم تعلمون عن نباتات الجبل أكثر مما أعلم بكثير . وأن أهداف وجودنا معا أن نتبادل المعلومات ونتكيف أحدنا مع الآخر . فلنبدأ بأن تقوموا بامتحان معلوماتي القليلة عن النبات وبمساعدتي على التقدم في هذا المجال» .

ولما تمنى أحدهما للآخر ليلة سعيدة ، كان تيتو راضيا ، يعقد نيته على الخير . وقد أعجبه هذا الماجستر كنشت مرة أخرى . لم تكن بكنشت حاجة الى كلمات ضخمة من كلمات العلم والفضيلة وكرم الفكر وما شاكل ذلك من الكلمات التي يستعملها أساتذة المدارس مع التلاميذ ، كان هذا الرجل المرح اللطيف يحمل في نفسه وفي حديثه شيئا يلزم من يستمع اليه ويستثير المساعي والقوى الكريمة الطيبة الشهمة السامية فيه . ربما كان من الممتع أو من المفيد أن يخدع التلميذ أي مدرس من مدرسي المدارس أو يحتال عليه ، أما هذا الأستاذ فلا يمكن أن يفكر المرء حياله أفكارا من هذا النوع . لقد كان ـ نعم ماذا وكيف كان ؟ ـ فكر تيتو فيما أعجبه في هذا الرجل الغريب وفيما أثر فيه وأخضعه ، فوجد أن كرمه وسموه والسيادة التي يتسم بها . كان هذا هو الذي جذبه اليه أكثر من أي شيء آخر . كان هذا

السيد كنشت راقيا رفيعا ، كان سيدا ، كان رجلا نبيلا ، رغم أن أحدا لم يعرف أسرته ، وربما كان أبوه إسكافياً . كان أكثر رفعة وسموا من أغلب الرجال الذين عرفهم تيتو ، بل ومن أبيه أيضا . لقد واجه الصبي الذي كان يقدر الغرائز والتقاليد البورجوازية لأسرته ولم يكن يغفر لأبيه خروجه عليها ، واجه هنا لأول مرة الأرستقراطية الفكرية ذات التربية ، واجه تلك القوة التي تستطيع في بعض الظروف السعيدة أن تصنع المعجزات وأن تتجاوز بقفزة واحدة في جيل واحد سلما من الأجداد ومن الأجيال ، وتجعل من ابن الأسرة الوضيعة أرستقراطيا رفيعا . وتحركت في نفس الصبي المتأجج الفخور فكرة مفادها أنه ربما كان من واجبه ومما يشرفه أن ينتسب الى هذا النوع من الأرستقراطية وأن يخدمه ، وأنه ربما كان معنى الدنيا يقترب هنا منه ويضع له أهدافه ، يقترب منه في شخصية هذا المعلم الذي ظل سيدا كاملا رغم ما يتسم به من رقة وظرف .

ولم يأو كنشت على الفور الى فراشه رغم أن حاجته الى الراحة كانت شديدة . فقد بذل جهدا جهيدا ليستجمع نفسه أمام الصبي الذي كان بلا شك يراقب تعبيره وتصرفه وصوته ، حتى لا يلحظ تعبه العجيب الذي ظل يتزايد ، أو توعكه أو مرضه . والظاهر أنه وفق في ذلك . أما الآن فكان عليه أن يواجه هذا الفراغ ، وهذا التوعك ، وهذا الدوار المخيف وهذا التعب الشديد ، الذي كان في الوقت نفسه قلقا ، يواجهه ويسيطر عليه ، بأن يفهمه أولا ويتعرف عليه . ولم يصعب تحقيق هذا وان احتاج تحقيقه الى وقت طويل . لم يكن لمرضه من سبب سوى رحلة اليوم التي حملته من المنخفض الى المرتفع البالغ علوه ألفين من الأمتار في وقت قليل . ولم يتحمل هذا الارتفاع المفاجئ الذي لم يتعود عليه منذ رحلاته القليلة في صباه . وفكر أنه ربما ظل يوما أو يومين يعاني من توعكه ، فاذا لم ينصرف التوعك فعليه أن يعود مع تيتو والخادم الى العاصمة ، ويكون تصميم بلينيو ، وخطته في بلونت الجميلة قد

فشل . وسيكون هذا شيئا يؤسف له ، ولكنه لن يكون مصيبة كبيرة .

وبعد أن فكر كنشت هذه الأفكار تمدد على السرير وأمضى الليلة دون أن ينام الا قليلا ، يستعرض رحلته منذ وداع فالدتسل تارة ، وتارة يحاول تهدئة نبضات قلبه وأعصابه المضطربة . كذلك فكر في تلميذه كثيرا تفكيرا يخالطه الرضا ولا تنتظمه خطط معينة ، ولاح له من الأفضل أن يروض هذا المهر الكريم الذي يكثر الجماح بالبشاشة والتعويد ، وألا يلجأ الى التعجل أو القهر . وفكر في أن يسير بالصبي تدريجيا الى الشعور بمواهبه ومقوماته ، وأن يغذي فضوله الكريم ، ونهمه الرفيع ، الذي يعطي القوة لحب العلوم والفكرة والجمال . كانت المهمة جميلة ، ولم يكن تلميذه موهبة فتية طيعة يوقظها ويصبها في القالب المناسب فحسب ، بل كان بصفته وحيد رجل بورجوازي ذي نفوذ ومال ، سيدا من سادة المستقبل ، وواحدا من أولئك الذين يشكلون البلد والشعب اجتماعيا وسياسيا ، ومعدا ليكون قدوة وقائدا . ولقد حملت كاستاليا اثما حيال هذه الأسرة العريقة ، أسرة ديزنيوري ، فلم تقم بتربية أبي تيتو هذا عندما دفع به اليها تربية عميقة عمقا كافيا ، ولم تمنحه القوة ليصلب عوده في موقفه الصعب بين الدنيا والفكر ، ولم يؤد هذا فقط الى أن بلينيو الشاب اللطيف تحول الى انسان تعيس يحيا حياة رديئة غير متوازنة ، بل أدى أيضاً الى الإساءة الى الابن الوحيد والزج به الى مشكلة الأب . كان من الممكن معالجة ذلك وتحسينه ، كان من الممكن التكفير عن الاثم ، وكان يسره أن يقوم هو بهذه المهمة ، ويبدو له وقوع هذه المهمة عليه بالذات أمرا ذا معنى ، عليه هو ، العاصي الذي يبدو كالمنشق على كاستاليا .

وفي الصباح ، عندما أحس بحياة تدب في البيت ، نهض فوجد عند السرير برنس حمام جاهز ، فلبسه فوق ملابس نومه الخفيفة وسار كما بين له تيتو في العشية خلال باب البيت الخلفي الى طريق بين المقفول والمفتوح يربط كابينة الاستحمام والبحيرة بالبيت .

وتماثلت البحيرة الصغيرة أمامه رمادية خضراء ساكنة ، وفي الناحية الأخرى لاح له سفح صخري عال منحدر يقطع السماء الصباحية الرقيقة الخضراء الباردة بقمة حادة مسننة ويتسم في الظل بالوعورة والبرودة . وكانت الشمس قد طلعت على ما يبدو خلف هذه القمة ، وتناثر نورها هنا وهناك في شكل شظايا ضئيلة على حافة حجرية مائلة ، ولن تمر الا دقائق حتى تظهر الشمس على الجزء المسنن من الجبل وتتجاوزه فتفيض بالنور على البحيرة والوادي المرتفع . وتأمل كنشت بانتباه ، فوجد هذه بالصورة التي أحس أن سكونها وعبوسها وجمالها شيء غير مألوف له ، شيء يهمه وينبهه . وشعر أكثر من الأمس أثناء الرحلة بالثقل والبرودة والغرابة الجليلة التي يتسم بها عالم الجبال العالية ، الذي لا يبش في وجه الانسان ولا يدعوه اليه ولا يكاد يتحمله . ولاح له عجيبا وذا معنى أن تقوده خطوته الأولى في سبيل الحرية الجديدة في حياة العالم الى هذا المكان بالذات ، الى هذه العظمة الساكنة الباردة .

وظهر تيتو يلبس لباس البحر وحيى الماجستر وقال وهو يشير الى الصخور في الناحية المقابلة : «لقد أتيتم في الوقت المناسب ، فستطلع الشمس حالا ، آه ، ما أجمل المنظر هنا!» وأومأ كنشت اليه برأسه مستحسنا . وكان كنشت يعلم أن تيتو يصحو مبكرا ، وأنه يجيد العدو والمصارعة والتجوال ، وأنه يمارس هذا كله كنوع من الاحتجاج على مسلك الأب اللين الذي يركن الى الراحة تماما كما يعاف الخمر للسبب نفسه . وكانت هذه العادات والميول تؤدي بطبيعة الحال الى الشغف بالطبيعة والفتوة الى احتقار الفكر ـ والظاهر أن آل ديزنيوري يميلون جميعا الى المبالغة بالفطرة ـ لكن كنشت رحب بها وقرر أن يستغل المشاركة في ممارسة الرياضة كوسيلة لاجتذاب الصبي المتأجج وترويضه . وكانت تلك وسيلة بين وسائل أخرى عديدة ، ولم تكن أهمها ، فقد كانت الموسيقى وسيلة تؤدي

الى أبعد منها بكثير . كذلك لم يخطر بباله بطبيعة الحال أن يباري الشاب في التمرينات البدنية أو أن يبزه . انما كان يريد الاكتفاء بالمشاركة العادية ليبين لتلميذه أنه ليس جبانا وليس من القابعين بين الجدران .

ونظر تيتو شغوفا الى قمة الصخر المعتمة التي تموج وراءها السماء بين نور الصباح . فاذا قطعة من الحجر تبرق بشدة كأنها معدن ملتهب يوشك على الانصهار ، واذا القمة تستقيم وتبدو فجأة كأنها أكثر انخفاضا ، كأنها تنصهر وتهبط ، وخرجت من الثغرة المتأججة الشمس الوضاحة الرائعة . وغمر الضوء في الحال الأرض والبيت والكابينة وشاطئ البحيرة في هذه الناحية ، وأحس الشخصان الواقفان في الأشعة القوية بدفء النور اللطيف . أما الصبي فقد امتلأ بجمال اللحظة البديع وبالشعور السعيد بشبابه وقوته فمدد أطرافه بحركات ايقاعية من ذراعيه تبعها جسمه كله ، كأنه يحتفل في رقصة حماسية بمطلع النهار ، ويعبر عن قبوله الداخلي للعناصر التي تموج وتشع حوله . وطارت خطواته سعيدة مهللة ناحية الشمس المنتصرة ، ثم تراجعت أمامها في اجلال ، وجذبت الذراعان الممدودتان الجبل والبحيرة والسماء الى قلبه ، ولاح وهو يركع كأنه يمجد الأرض الأم ، وبدا وهو يبسط يديه كأنه يمجد مياه البحيرة ، ويقدم شبابه وحريته وشعوره الباطني المتأجج بالحياة قربانا الى هذه القوى . وانعكس نور الشمس على كتفيه السمراوين ، وكانت عيناه شبه مغمضتين من النور الباهر ، وتصلب الوجه الفتي كالقناع كأنه يعبر عن جد متحمس متعصب .

كذلك الماجستر كان مأخوذا بمنظر طلوع النهار في تلك العزلة الساكنة ، متأثرا بها . أما ما ملك نفسه أكثر من هذا المنظر ، فكانت حركة الصبي أمام عينيه ، ورقصته التي أداها تحية للصباح والشمس ، تلك الرقصة التي رفعت الصبي الفج ذا النزوات الى حد العبادة ، وأظهرت المشاهد على أعمق وأكرم ميوله واتجاهاته في لحظة مفاجئة منيرة كشافة ، مثل الشمس

التي ضمت بظهورها وادي بحيرة الجبل البارد البهيم وأنارته . لقد بدا له الشاب أكثر قوة وأهمية مما ظن حتى ذلك الحين ، وبدا له أيضا أكثر شدة ووعورة ، أكثر بعدا عن الفكر وأكثر جاهلية ووثنية . كانت هذه الرقصة المعبرة عن العيد والقربان ، التي أداها الشاب المتحمس تحمسا يشمل الكون بأسره ، كانت شيئا أكثر من خطب وقصائد بلينيو شابا ، لقد رفعته درجات ، ولكنها جعلته يظهر أكثر غرابة وغموضا ، أبعد من أن يصله نداء المنادي .

وتملك الحماس الصبي نفسه دون أن يدري هو نفسه كيف جرى له ذلك . فلم تكن الرقصة التي أداها رقصة معروفة سبق أن أداها أو حاولها ، ولم تكن حركة شعائرية عرفها أو ابتدعها للاحتفال بالشمس والصباح ، وكان ـ كما تبين فيما بعد ـ يشترك في رقصته أو تلبسه بالسحر : هواء الجبل ، والشمس ، والصبح ، والشعور بالحرية ، ويشترك فيها كذلك بقدر لايقل عن سابقه ، التحول المنتظر والمرحلة الجديدة من حياته الفتية ، متمثلة في شخصية الماجستر اللطيفة ، التي تدفع في الوقت نفسه الى الاحترام ، ولقد اجتمعت في هذه الساعة الصباحية في مصير الشاب تيتو وفي روحه أشياء كثيرة جعلتها تتميز على آلاف من الساعات الأخرى بالسمو والعظمة والقدسية . ففعل دون علم ، ودون نقد ، ودون ريب ، كل ما كانت اللحظة السعيدة تتطلبه منه ، فرقص مؤديا صلاته ، وصلى للشمس ، وأعرب في حركات متفانية عن فرحه وايمانه بالحياة وتقواه ، وقدم فخورا مستسلما روحه التقية قربانا الى الشمس والالهة ، والى الشخص الذي أعجب به واحترمه ، الى الحكيم والموسيقي ، الى أستاذ اللعبة السحرية القادم من المناطق الغامضة المحفوفة بالأسرار ، الى مربيه وصديقه في المستقبل .

استمر هذا كله دقائق فقط وما أشبه بنشوة النور عند الشروق . ونظر كنشت متأثرا الى المشهد العجيب الذي تحور فيه تلميذه وكشف فيه النقاب

أمـام عينيـه عن نفسـه ، والذي تمـاثل له فيـه جديدا غـريبـا كامل القيمـة ومسـاويا له . كان الاثنان واقفين على الطريق بين البيت والكابينة ، غارقين في نور الشـرق ، ثائرين من دوامـة ما أحسـا به منذ قليل ، ومـا كاد تيـتو يفـرغ من الحركة الأخيرة لرقصته ، ويصحو من نشوة سعادته ، حتى وقف كحيـوان منعـزل فوجئ أثنـاء لعبـه ، وتبين أنه ليس بمـفـرده وأنه لم يحس ويفعل شيئا غير مألوف فحسب ، بل قد أوتي مشاهدا يقف الى جواره . وفي سرعة البـرق اتبع أول خاطر خطر له ليمكنه من الافلات من موقـفـه ، الذي تبين بغتة أنه موقف خطير مخجل على نحو ما ، ومن النفاذ خلال سحر هذه اللحظات العجيبة التي أحاطت به كشرنقة وتملكته وغلبته .

واتخذ وجهـه الذي كان حتى هذه اللحظة قـاسيـا كالقناع . مجردا من العمـر والسنين اتخذ تعبيرا صبيـانيا فيه شيء من الحِق ، وكأنـه انسـان أوقظ فجأة من نوم عميق ، ثم ثنى ركبتيه قليلا ، ونظر الى وجه المعلم في بلادة ودهشة ثم رد ذراعه اليمنى بسرعة مفاجئة كأن شيئا مهما وقع أو أوشك أن يفلت ، واتخذت ذراعـه وضع الاشـارة الى الضفـة الأخرى من البحيـرة التي كانت كـالنصف الآخـر من البحيـرة واقـعة في الظل الوارف الذي كان الجبل الصخري المغمور بأشعة الصباح يجمعه ويضمه عند قاعدته .

ثم صاح مسرعا متحمسـا حمـاس الصبية : «اذا سبحنا بسرعة أمكننا أن نصل الشاطئ الآخر قبل الشمس» .

وما كاد تيتو ينطق بهذه الكلمات ، ويصدر الأمر بمباراة الشمس سباحة حتى انطلق بقفزة هائلة الى البحيرة مادا رأسه الى أمام واختفى في البحيرة ، كأنه لا يستطيع ، اما عن اعتداد بالنفس ، أو عن ارتباك ، أن يصطنع سرعة أكبر يهرب بها أو أن يأتي عملا أكبر يواري في النسيان المشـهد الاحتفـالي السـالف . وتطاير المـاء وتسـاقط عليه ، ثم مرت لحظات ظهـر بعدها رأسـه وكتفاه وذراعاه وأخذ يبتعد على صفحة الماء الخضراء المائلة الى الزرقة .

ولم يكن كنشت عندما خرج الى هنا قد فكر في الاستحمام أو العوم ، فقد كان الجو باردا برودة تزيد على احتماله ، وكانت صحته بعد الليلة التي أمضاها في شبه مرض على غير ما يرام . ولكنه الآن ، في هذه الشمس الجميلة ، وبعد أن استحثه ما رآه منذ قليل ، ودعاه تلميذه دعوة الرفاق ، وجد التجرؤ على السباحة عملا لا يخيفه ولا ينفره . وكان أشد ما يخشاه أن يهبط وأن يضيع ما مهدته وأعدته هذه الساعة الصباحية ، ان هو ترك الصبي وحده وخيب أمله برفض هذا النشاط البدني اعتمادا على أسباب من التعقل . حقيقة ان احساسه بالقلق والضعف الذي تملكه نتيجة تسلق الجبل بسرعة حذره من مغبة الاندفاع ، لكنه قال في نفسه أنه ربما تغلب على هذا الاحساس والتوعك بسرعة ان هو هاجمه هجوما عنيفا . وكان النداء أقوى من التحذير ، والارادة أقوى من الغريزة . وخلع البرنص سرعة وتنفس نفسا عميقا وألقى بنفسه الى الماء في المكان الذي ألقى تيتو فيه الى الماء بنفسه .

وتلقته البحيرة التي تستمد ماءها من الثلج الدائم عندما ينصهر والتي لا يتحملها حتى في أشد أيام الصيف الا من قوى صلابته بالتمرين عليها . تلقته هذه البحيرة ببرودة ثلجية عنيفة ، وكان كنشت يتوقع رعشة قوية ، ولكنه لم يعمل حساب هذه البرودة القارسة ، التي أحاطت به مثل اللهيب المتأجج ، وراحت تنفذ فيه بعد لحظة من الحريق والغليان . وطفا كنشت بعد القفزة الى السطح سريعا ، فرأى تيتو أمامه سابحا ، وأحس الثلوجة والغلظة والعداوة تحصره حصرا مريرا : ولكنه ظل يؤمن بأنه يصارع من أجل تقليل البعد بينه وبين تيتو ، ومن أجل بلوغ هدف السباق ، ومن أجل الحصول على تقدير الصبي وزمالته واجتذاب نفسه ، كما كان يصارع الموت الذي هاجمه وحاصره . وظل يكافح بكل قواه ليحفظ المسافة بينه وبين الصبي مادام قلبه ينبض .

ونظر السباح الفتي كثيرا وراءه ليرى برضاء أن الماجستر تبعه الى الماء . ثم أرجع البصر مرة أخرى فلم يره ، فتملكه القلق ، فأرجع البصر كرتين ونادى وعاد أدراجه مسرعا ليعاونه . ولكنه لم يجده ، وظل يبحث سابحا وغائصا عن الغريق حتى خارت قواه أيضا في البرودة القارسة المريرة . ووصل الي البر مترنحا فاقد النفس فرأى البرنص على الشاطئ ، فرفعه وشرع تلقائيا يدلك به جذعه وأطرافه ، حتى تدفأ جلده المتصلب من شدة البرد . وجلس في الشمس كالنشوان يحملق في الماء الذي كانت خضرته الزرقاء الباردة تطل عليه الان عجيبة فارغة غريبة شريرة ، وأحس الحيرة والحزن العميق يتملكانه عندما اختفى ضعفه الجسماني وظهر باختفائه الاحساس بما حدث ولافزع منه .

وقال تيتو في نفسه وقد تملكه الفزع ، ويلاه ، انني أحمل اثم موته! وأحس الان ، حيث لم يعد هناك مجال للاعتداد بالنفس أو للمقاومة ، أحس في ألم قلبه كيف أحب هذا الرجل . ومع احساسه بالاشتراك في حمل اثم موت الأستاذ ، احساسا لم يلبث وجدانه أن ثار عليه ، أتاه في رعدة قدسية خاطر يشبه التفكير يصور له أن هذا الاثم سيغير منه ومن حياته وسيتطلب منه شيئا أعظم بكثير مما تطلب هو من نفسه .

ـ النهاية ـ

المؤلفات التي خلّفها يوزف كنشت

- قصائد التلميذ والطالب
- السّير الثلاث

قصائد التلميذ والطالب

شكوى

لم نؤت كيانا . لسنا إلا نهرا ،
ننساب راضين في كل الأشكال :
في النهار ، في الليل ، في الكهف وفي الكنيسة ،
نسير خلالها يدفعنا الظمأ الى كيان .

وهكذا نملأ الشكل بعد الشكل دون أن نرتاح ،
وليس هناك شكل يصبح وطننا وسعادتنا وبؤسنا ،
اننا دائما نسير في الطريق ، اننا على الدوام ضيوف ،
لا ينادينا حقل محراث ، ولا ينمو لنا خبز .

لسنا نعلم ما يريد الرب منا ،
انه يلعب بنا ، بالطين في يده ،
بالطين الصامت المتشكل ، الذي لا يضحك ولا يبكي ،
الذي يُعجن ، ولا يُسوى بالحرق أبدا .

تارة نجمد الى حجر! وتارة ندوم!
وحنيننا الى هذا دائم الحركة ،
ولكنه يظل أبداً رعدة خائفة ،
ولا يستحيل أبدا الى راحة في طريقنا .

تلاق

الثابتون أبدا والساذجون
لا يحتملون بالطبع شكّنا .
ويشرحون لنا ببساطة أن العالم مسطح
وأن أسطورة الأعماق هراء .

لأنه لو كانت هناك فعلا أبعاد أخرى
غير البعدين الطيبين المألوفين للناس منذ القدم ،
فكيف يمكن أن يعيش انسان آمنا ،
وكيف يعيش انسان بلا هَم ؟

فكيما نحقق سلاما .
دعونا نحذف بعدا .

فاذا كان الثابتون مخلصين حقا ،
وكان النظر الى الأعماق خطيرا الى هذا الحد ،
فإن البعد الثالث أمر يمكن صرف النظر عنه .

ولكن لنا في السّر أن ...

جميلة ، فكرية ، رقيق كالزخارف العربية ،
تبدو حياتنا مثل حياة الجنيات
تدور في رقصات لطيفة حول العدم
الذي ضحينا له بكياننا وبحاضرنا .

جمال الأحلام ، لعب لطيف ،
كأنه نفس نسمة ، مضبوط في صفاء ،
وتحت سطحك الصافي عميقا يبرق
حنين الى الليل ، والى الدم ، والى الوحشية .

في الفراغ تدور ، بلا قسر ولا قهر ،
حرّة حياتنا ، مستعدة دائما للعب ،
ولكن لنا في السر أن نميل الى الواقع
الى التوليد والولادة ، الى الألم والموت .

حروف

انا نمسك بالريشة أحيانا
ونكتب رموزا على ورقة بيضاء ،
تقول هذا وذاك ، وكل انسان يعرفها ،
تلك لعبة ، لها قواعدها .
فاذا أتى انسان وحشي أو انسان من القمر
وأخذ مثل هذه الورقة ، مثل هذا الحقل المقسم ذي الرموز ،
وتفحصه شغوفا بعينيه ،
لتمثلت له منه صورة عجيبة للدنيا ،
ولطالعته قاعة من الصور السحرية الغريبة .
لرأى الـ« أ » و« ب » كانسان وحيوان ،
كعيون وألسن وأطراف تتحرك ،
هادئة رزينة هناك ، مندفعة بغرائز هنا ،
ولقرأها كخطى الطيور في الثلج ،
ولجرى ووقف وعانى وطار معها
ورأى امكانيات الخليقة كلها
تهيم كالأشباح من خلال الرموز السوداء الجامدة ،
وتنزلق على الزخارف ذات الأحرف ،
لرأى الحب يتأجج ، ولرأى الآلام تنتفض .
ولاندهش وضحك وبكى وارتعد ،

لأن وراء القضبان ذات الأحرف في هذه الكتابة ، تبدو له
الدنيا كلها في اندفاعها الزعمى
مصغرة ، في رموز
مقصرة بحجم الأقزام ، مسحورة ، تسير سيرا متصلبا
معتقلة ، يشبه بعضها بعضا ،
حتى يصبح الدافع الحيوي والموت ، الشهوة والألم ،
أخوين ، لا يكاد يمكن التفريق بينهما......
وأخيرا يصيح هذا الوحشي
من خوف لا يحتمل ، ويوجج نارا
ويسجد ويتلو التهجدات
ويدفع الورقة البيضاء ذات الرموز الى اللهب .
وربما أحس ناعسا
كيف يعود هذا اللاعالم ، هذا السحر ،
هذا الشيء غير المحتمل ثانية الى ما لم يكن أبدا ،
فيمتص ويروح الى أرض لا مكان لها ،
وربما تنهد وابتسم وشفي .

أثناء قراءة فيلسوف قديم

ما كان بالأمس ممتلئا سحرا ونبلا
ثمرة قرن من الأفكار المختارة ،
يبهت فجأة ، ويذبل ويتجرد من المعنى ،
كنوتة موسيقية ، حذفت من سطورها

العلامات والمفاتيح . فضاع
من البناء مركز ثقله السحري ، فترنح
متهتها ، وتهدم وتمزق ـ
وكان يلوح انسجاما ـ ودوى صداه الى الأبد .

وهكذا يمكن أن يتجعد وجه حكيم قديم
كنا نحبه ونعجب به
ويذوي في ارتعاد نوره الفكري البراق بعد أن ينضج للموت
في لعبة تجعدات صغيرة حائرة أليمة .

وهكذا يمكن أن يتحول احساس سام في نفسنا ،
ولم نكد نحس به ، الى كره مقطب ،
كأن فكرة تسكنه منذ وقت طويل .
بأن كل شيء سائر لا محالة الى العفن والذبول والموت .

وفوق وادي الجثث المقرف هذا
يتحرك فيّ ألم ولكن دون أن يناله العطب ،
يتحرك الفكر وكله حنين ولهيب متأجج ،
يحارب الموت ويجعل نفسه خالدا .

لاعب الكريات الزجاجية الأخير

لعبته ، كريات ملونة ، في يده ،
يجلس مكبّاً عليها ، وحوله البلاد
خربتها الحرب والطاعون ، وفوق الأطلال
ينمو اللبلاب ، وفي اللبلاب يطن النحل .
وسلام واهن يخترق رنين لحنه المكتوم
العالم ، عمر شيخ ساكن
والعجوز يعد كرياته الملونة ،
هنا يمسك كرية زرقاء ، كرية بيضاء ،
وهنا يختار كبيرة ، ثم صغيرة
وينظمها في حلقة للعب .
كان قد كبر قديما في اللعب بالرموز ،
وكان أستاذا في فنون كثيرة ، ولغات كثيرة .
كان عالما بالدنيا ، كثير الترحال ،
كان رجلا مشهورا ، معروفا حتى القطبين ،
حوله على الدوام تلاميذ وزملاء .
فبقي الان ، هرما ، هالكا ، وحيدا ،
لا يلتمس بركته تلميذ ،
ولا يدعوه ماجستر الى مناقشة ،
نهم ضاعوا ، ضاعت كذلك المعابد والمكتبات .

والمدارس الكاستالية ... والعجوز يرقد
في حقل الأطلال ، والكريات في يده ،
رموز مقدسة ، كانت قديما تعني شيئا ،
أما الآن فقد أصبحت زجاجا ملونا محطما ،
تتدحرج بلا صوت من بين يدي الموهوب
وتضيع في الرمل ...

عن توكاته لباخ [1]

صمت أزلي يحملق ... ظلمات تسود...
فإذا بشعاع ينبثق من كسر متعرج في السحاب ،
ويلتقط أعماق العالم من العدم الأعمى ،
ويبني أماكن ، ويقلب الليل بنور ،
ويحيل القمة والذروة الى ملامح ، والسفح والهوّة ،
ويجعل الهواء ،أزرق هشا ، والأرض جامدة .

ويشق الشعاع خلاقا الى عمل وحرب
الحامل ذا البذرة النامية :
فيشتعل العالم الهالع براقا .
فيتحور ما تقع عليه بذرة النور ،
وينتظم ، وتدوي البذرة البديعة
بمدح للحياة ، وبانتصار نور الخالق .

ثم ، يهتز الشعاع متقدما ناحية اللّه راجعا الى اللّه ،
وينفد خلال ما يحرك الكائنات جميعا
الى روح الأب ، نفادا عظيما .

---

(١) «التوكاته» قطعة موسيقية خفيفة غالبا ما تسبق «الفوجة» ، وقد اشتهر الموسيقي العظيم باخ فيما اشتهر بها . (المترجم)

فيصبح رغبة وحاجة ، لغة وصورة ونشيدا ،
ويقوس العالم بعد العالم الى أقواس انتصار كنيسة ،
ويكون غريزة وفكرا وكفاحا وسعادة وحبا .

حلم

كنت ضيفا في دير بالجبل ،
ودخلت ، عندما ذهب الجميع الى الصلاة ،
قاعة للكتب . في بهجة نور المغرب
لمعت هادئة على الحائط بحروف
عجيبة كعوب ألف مجلد من البرشمان .
فتناولت ممتلئا شغفا بالعلم وسحرا
أول كتاب ، كتجربة ، وقرأت :
« الخطوة الأخيرة الى تربيع الدائرة » .
ففكرت سريعا أن آخذ هذا الكتاب معي!
وكتابا آخر من الحجم الكبير مجلدا بالجلد المذهب
على كعبه عنوان بالحروف الصغيرة :
« كيف أكل آدم من الشجرة الأخرى »...
من الشجرة الأخرى ؟ من أية شجرة : شجرة الحياة!
وهكذا كان آدم خالدا ؟ لم يكن من العبث اذن ،
على ما رأيت ، اني أتيت الى هنا ، ولمحت
كتابا كبيرا كعبه وقطعه وحوافيه
تشع في ظلال بألوان الطيف العديدة .
كان عنوانه المرسوم باليد :
« المعاني المقابلة للألوان والأنغام .

اثبات أن كل لون وانكسار
يقابله نوع من الأنغام يتبعه كإجابة له» .
لكم تلألأت لي مفعمة المعنى
جوقات الألوان! وبدأت أحس ،
وكل لمسة لكتاب أكّدت احساسي :
ان تلك مكتبة الفردوس .
كل الأسئلة التي ألحت علي ،
وكل ضروب الظمأ التي حرقتني ،
لها هنا جواب ، وكل جوع له خبز
من الفكر محفوظ هنا . لأنني كلما سألت
مجلدا بنظرة سريعة ، وجدت لكل مجلد
عنوانا مكتوبا ينبئ بالكثير .
كان لكل حاجة هنا شفاء ،
كانت هنا كل الثمار دانية القطف ،
كل الثمار التي يتمناها كل تلميذ ،
والتي يتلهف على الحصول عليها جرينا كل أستاذ .
كان هناك المعنى ، المعنى الأعمق الأصفى ،
لكل حكمة ، وشعر وعلم ،
كانت هناك القوة السحرية لكل سؤال
ومعها المفاتيح والمصطلحات ، كانت هناك
أرق روح الفكر محفوظة في كتب عظيمة
سرية لم يسمع بها سامع .
كانت هناك
مفاتيح لكل نوع

من الأسئلة والأسرار
ملكا لمن تمنحها له منة الساعة السحرية .

فوضعت ، وكانت يداي ترتعشان ،
على منضدة للقراءة أحد من هذه المجلدات ،
وحللت رموز الكتابة المصورة السحرية ،
تماما كما يفعل الانسان في الحلم
كثيرا ، ما لم يتعلمه أبدا ، بسهولة اللعب وبنجاح .
وبعد قليل كنت فرحان
في الطريق الى أماكن فكرية ذات نجوم ، داخلا في الأبراج الفلكية ،
حيث تقابلت فيها كل ما رأت
الأمم من وحي ومن فكر متخذ صورا ،
تراث خبرة عالية عمرها آلاف السنين ،
تقابلت منسجمة ارتباطات جديدة مجددة ،
يعتمد بعضها على بعض
ويفر شابا من المعارف والرموز والابتداعات القديمة
على الدوام سؤال جديد أسمى مما قبله ،
حتى أني وأنا أقرأ في دقائق أو ساعات ،
سرت مرة ثانية طريق الانسانية كلها ،
وتلقيت من علومها القديمة والحديثة
كلها ، في ذاتي معناها العميق .
قرأت ورأيت أشكال الكتابة المصورة
تنتظم اثنين اثنين ، ثم ترجع ،
وتترتب لرقصة جماعية ، ثم تتفرق

وتنصب في تشكيلات جديدة ،
أشكال رمزية عديدة كررتها المرايا المتقابلة ،
تتخذ معاني جديدة لا تنتهي ولا تفرغ .

وبينا أنا هكذا مبهور من المناظر ،
أبعد النظر عن الكتاب لاراحة العينين هنيهة ،
رأيت : أنني لم أكن هنا الضيف الوحيد .
كان يقف في القاعة متجها الى الكتب ،
رجل عجوز ، ربما أمين المحفوظات ،
رأيته جادا ، منهمكا في عمله ،
مشغولا عند الكتب ، ولاح لي ذا أهمية ،
أهمية غريبة ، أن أعرف نوع ومعنى
العمل الكاد . فرأيت هذا الرجل الهرم
يتناول بيده المسنة الرقيقة
كتابا ، فقرأ ما كان على كعب الكتاب
مكتوبا ، ونطق بفمه الشاحب
العنوان كأنه يتنسمه ـ عنوانا خلابا ،
ضمان ساعات قراءة لذيذة!
ومسحه رفيقا باصبعه القادر على المسح ،
وكتب مبتسما عنوانا جديدا ، عنوانا آخر ،
عنوانا آخر مختلفا تماما ، ثم راح يتجول
ومد يده الى كتاب آخر ، تارة هنا ، تارة هناك ،
فيمسح عنوانه ، ويكتب عنوانا آخر .

فنظرت اليه حيران وقتا طويلا وعدت ،
لما تمنع عقلي على الفهم ،
الى الكتاب الذي قرأت فيه
سطورا قليلة . لكني لم أجد
سلاسل الصور التي نعمت بها لتوي ،
وانفصل عالم الرموز ولاح كأنه
يفرّ مني ، ولم أكن قد جلت به الا قليلا ،
وكان يغص بمعنى العالم .
ترنّح ودار ولاح كأن السحاب يغطيه ،
وينساب بعيدا دون أن يخلف وراءه شيئا
إلا بريقا رماديا على برشمان فارغ .
وعلى كتفي أحسست يدا
فرفعت بصري ، فاذا الشيخ المجد يقف بجانبي
فنهضت . وتناولت مبتسما
كتابي ، فتملكتني رعدة
مثل الارتعاش ، وانزلق اصبعه
كالاسفنج عليه . وعلى الجلد الفارغ
كتب عناوين جديدة ، وأسئلة ووعودا جديدة ،
كتب أحدث انعكاسات لأقدم الأسئلة
وريشته تفصل الحروف تفصيلا .
ثم أخذ معه صامتا الكتاب والريشة .

عبادة

في البداية كان يحكم الأمراء الأتقياء
كانوا يباركون الحقل والقمح والمحراث ويمارسون
تقديم القرابين ورعاية المعايير في جنس
أولئك الناس الذين بهم ظمأ

الى السيادة العادلة للألهة ،
تلك التي تحفظ في توازن الشمس والقمر ،
اللذين لا يعرف جرماهما المشعان من الأزل الى الأبد ،
عالم الألم وعالم الموت .

وانقرضت السلالة المقدسة لأبناء الآلهة ،
وبقيت الانسانية وحيدة
في ترنح الرغبة والألم ، بعيدا عن الكيان ،
في تحول أبدي بلا معيار وبلا قدسية ،

لكن فكرة الحياة الحقيقية لم تمت
والمهمة التي علينا ، هي أن نستمر في المحافظة
أثناء الأفول والتدهور ، عن طريق لعبة الرموز والتشبيه والغناء
على تنبيه التقوى القدسية .

ربما يتبدد الظلام يوما ،
ربما تتحول الأزمان مرة ،
وتحكم الشمس من جديد كربّة ،
وتتقبل القرابين من أيادينا .

فقاعات صابون

من دراسات وأفكار سنين كثيرة كثيرة
راح رجل عجوز متأخرا يقطر
عمل عمره ، الذي نسج لاعبا
في طياته المجعدة حكمة حلوة .

وطالب مجد مندفع يمتلئ لهيبا ،
أكثر من الاجتهاد في المكتبات ودور المحفوظات
وحرقة الطموح ،
عمل فتي ممتلئ في أعماقه بالعبقرية .

وجلس صبي ينفخ في القصبة ،
ويملأ بنفسه فقاعات صابون ملونة ،
وكل فقاعة تقرظ وتمدح كنشيد ،
وهو يعطي روحه كلها في نفخ الفقاعات .

والثلاثة جميعا ، الشيخ والصبي والطالب ،
يخلقون من رغوة «مايا»(١) العوالم
ولكن فيها يستبين مبتسما
النور الخالد ، ويتأجج أكثر سعادة .

---

(١) سيرد شرح «مايا» في «السير الهندية» . (المترجم)

بعد قراءة كتاب «نقد الكفار»[1]

يلوح لنا أن الحياة كانت قديما أكثر صدقا ،
وأن العالم كان أكثر انتظاما ، والأفكار أكثر وضوحا ، وكانت
الحكمة والعلم في غير انقسام .
كان هؤلاء القدماء يعيشون حياة أكثر امتلاء وصفاء ،
القدماء الذين نقرأ عنهم فيما كتب أفلاطون والصينيون
وفي كل الكتابات عجبا ـ
آه ، وكلما دخلنا في معبد الأكويني
الأكويني ، ذي المقاييس الجميلة ،
لاح لنا عالم الحقيقة الناضجة الحلوة
الصافية يحيينا من بعيد :
كل شيء هناك لاح لطيفا ، طبيعة يحكمها الفكر ،
والانسان مفطور من الله والى الله ،
والقانون والنظام معلنان في شكل جميل ،
وكل شيء مدوّر في كل بلا كسر .
وبدلا من ذلك ، يلوح لنا نحن المتأخرين ، كأننا
محكوم علينا بالصراع ، والزحف خلال الصحارى القفرة ،
والشك والتهكمات المريرة ،

(١) المقصود هو كتاب توماس فون أكوينو باللاتينية « Summa Contra Gentiles » الذي يناصر الديانة المسيحية على مذهب ابن رشد . (المترجم)

وأننا لم نمنح سوى الاندفاع والحنين .

فاذا حدث لأحفادنا
ما حدث لنا : سينظرون الينا نظرة ترفعنا عن قدرنا ،
ويروننا سعداء حكماء ، لأنهم لن يسمعوا
من الجوقات المضطربة الشاكية لحياتنا
سوى الصدى المنسجم ، والأساطير التي تروي رواية جميلة
عن المآسي والصراعات التي خبت نيرانها .
وربما أصبح الرجل منا الذي لا يثق في نفسه الا أقل الثقة ،
والذي يسأل ويشك أكثر السؤال والشك ، من
يمتد تأثيره الى الأزمان القادمة
ويتعلم شبابها اقتداء بقدوته .
وربما حسد أولئك من كان الشك يؤرقه تأريقا
واعتبروه سعيدا من السعداء ،
لم يعرف حصرا ولا خوفا ،
وظنوا أن الحياة في زمانه كانت نعيما
وأن سعادته كسعادة الأطفال .

ففينا تعيش روح من الروح الخالدة ،
تعتبر أرواح كل الأزمان اخوة لها :
روح تبقى بعد اليوم ، لا أنت ولا أنا .

درجات

كما تذوي كل زهرة ويتزحزح كل شباب
أمام الشيخوخة ، تزدهر كل درجة من درجات الحياة ،
تزدهر كل حكمة وكذلك كل شباب .
في وقته ، وليس له أن يدوم أبدا .
ولا بد أن يكون القلب عند كل نداء من نداءات الحياة
مستعدا للوداع وللبدء الجديد ،
وأن يرتبط بشجاعة وبلا حزن
ارتباطات جديدة ، أخرى .
وفي كل بداية سحر
يحمينا ويساعدنا على الحياة .

وعلينا أن نجتاز في مرح المكان بعد المكان ،
وألا نرتبط بمكان ارتباطنا بالوطن ،
فروح العالم لا تريد أن تقيدنا وتضيق علينا ،
بل تريد أن ترفعنا درجة درجة ، وتوسع علينا .
وما نكاد نألف بيئة ألفتنا للدار
ونأنس اليها ، حتى يتهددنا الخمول ،
أما من كان مستعدا للرحيل والسفر
فيستطيع أن يقتلع نفسه من التعود الذي يشل .

ربما أرسلتنا ساعة الموت أيضا ونحن شباب
الى أماكن جديدة ،
ولن ينتهي أبدا نداء الحياة لنا...
فهيا يا قلب ، ودّع والتمس الشفاء!

لعبة الكريات الزجاجية

موسيقى الكون وموسيقى الأساتذة الكبار
نحن مستعدون لاستماعها خاشعين ،
ولحفل صاف مستعدون

أن نحضر الأرواح المبجلة للأزمنة ذات الفضل .
وندع السر يرفعنا
سر الكتابة الرمزية السحرية ، التي
جرى ليجمد في سحرها ما لا شاطئ له ، ما كان عاصفا ، ولتجمد الحياة
متحولة الى تشبيهات صافية واضحة .

وترن كالبللور ، شبيهة برموز النجوم ،
وكان خدمتها هي معنى حياتنا ،
ولا يمكن أن يسقط انسان من دوائرها ،
إلا الى المركز المقدس .

السّيَر الثلاث

صانع المطر

حدث هذا قبل آلاف السنين في وقت كانت السيادة فيه للنساء : وكانت الأم والجدة تحظى في القبيلة بالاحترام والطاعة ، وكان مولد البنت شيئا أعظم بكثير من مولد الابن .

وكانت تعيش في القرية جدة تبلغ من العمر مائة عام أو تزيد ، وكان الناس يحترمونها ويهابونها كالملكة ، رغم أنها لم تكن منذ يذكر الناس ، تُحرك ساكنا أو تقول كلمة . وكانت في كثير من الأيام تجلس عند باب كوخها ، ويجلس حولها حشد من أقاربها الذين يقومون على خدمتها ، وتأتي نساء القرية للتعبير لها عن احترامهن ، ولمحادثتها في شؤونهن ، ولاطلاعها على أولادهن وللحصول على بركتها لهم ، وكانت الحوامل تأتين رجاء أن تلمس بطونهن وتسمي أولادهن المنتظرين . وكانت الجدة تضع يدها أحيانا وأحيانا كانت تومئ برأسها أو تهز رأسها أو تظل ساكنة دون حركة . كانت لا تتكلم الا نادرا . ولكنها كانت موجودة . كانت تجلس وتحكم ، تسدل الشعر الأبيض المصفر في خصل رقيقة حول وجهها الجلدي الثاقب الشبيه بوجه النسر ، كانت تجلس وتتلقى التبجيل والهدايا والالتماسات والأخبار والحكايات والشكايات ، تجلس ويعرفها الجميع ، ويعرفون عنها أنها أم سبع بنات ، وجدة وأم جدات العديد من الأحفاد وأبناء الأحفاد ، تجلس حاملة على قسماتها الغائرة وتحت جبينها الأسمر الحكمة والتقاليد والقانون والعادات وشرف القرية .

وكانت أمسية من الربيع ، يجللها السحاب ويطبق عليها الظلام مبكرا .

وأمام الكوخ المتخذ من اللبِن جلست ، لا العجوز ، بل ابنتها ولم تكن أقل شيباً ، وجلالاً ، وسنّاً من أمها بكثير . كانت جالسة تستريح ، وكان مقعدها عتبة الباب ، وهي حجرة مسطحة يوضع عليها في الجو البارد فراء ، وجلس أيضا في نصف دائرة حولها جلسة القرفصاء على الأرض أو في الرمل أو في الكلأ ، بعض الأطفال والنساء والصبية . كانوا يقعدون هنا كل مساء اذا لم يهطل مطر أو يتساقط ثلج ، لأنهم كانوا يريدون أن يسمعوا ابنة الجدة الكبيرة وهي تحكي قصصا أو تنشد حكما . وكانت الجدة الكبيرة قديما هي التي تحكي القصص وتنشد الحكم ، أما الآن فقد تقدمت بها السن الى حد حال بينها وبين ذلك وجعلها قليلة الكلام ، وتكوّرت في مكانها ابنتها وراحت هي تحكي القصص ، وكانت قد ورثت القصص والحِكم عن الجدة الكبرى ، وورثت عنها أيضا الصوت والشكل والجلال الساكن في التصرف والتحرك والتكلم ، وكان صغار السن من المستمعين يعرفونها خيرا من أمها ، بل ولم يعودوا يعرفون شيئا عن أنها تحل محل أخرى في نقل حكايات وحِكم القبيلة . كان فمها يتفجر منه في الأمسيات ينبوع المعرفة ، وكانت تحفظ تحت شعرها الأشيب القبيلة ، ويسكن وراء جبهتها ذات التجاعيد الرقيقة ذكرى الوطن وروحه . وكان في القبيلة شخص ثالث عليم علاوة عليها وعلى الجدة الكبرى ، ولكنه كان منطويا في الخفاء ، رجلا غامضا صموتا هو : صانع الطقس أو صانع المطر .

وكان يقعد بين المستمعين الى القصص والحكم الصبي كنشت والى جانبه بنت صغيرة ، اسمها «أدا»(١) . وكان كنشت يحب هذه البنت ويرافقها ويحميها ، لا عن حب حقيقي ، فلم يعلم في سنه الصغير ما الحب ، وانما لأنها كانت ابنة صانع الأمطار . وكان كنشت يحترم صانع المطر ويعجب بها جدا ، ولا يعجب بأحد قدر اعجابه به الى جانب الجدة الكبرى

Ada *

وابنتها . ولكنهما كانتا من النساء . كان من الممكن أن يحترمهما وأن يهابهما ، ولكنه لم يكن من الممكن أن يفكر أو يتمنى أن يصبح مثلما كانا . ولم يكن صانع المطر رجلا يمكن الاقتراب منه ، ولم يكن من اليسير على صبي أن يلزم جواره . كان على الصبي أن يسلك سبلا دوارة اليه ، ومن هذه السبل الاهتمام بابنته . فكان كثيرا ما يأخذها من كوخ صانع المطر البعيد ليجلسا معاأمام كوخ العجوز وليسمعاها تروي وتنشد ، ثم يعيدها الي البيت بعد ذلك . وهكذا فعل اليوم وقعد بجانبها في زمرة المستمعين في الظلام وراح ينصت .

وكانت الجدة تحكي اليوم عن قرية الساحرات ، قالت :

« يوجد أحيانا في بعض القرى امرأة طبعها شرير لا تريد لأحد خيرا والغالب ألا ترزق هاته النسوة أولادا . ويحدث أحيانا أن تكون الواحدة منهن شريرة الى درجة تجعل القرية ترفض وجودها بينها ، فتعمد الى أخذها بالليل ، والقاء زوجها في الاغلال ، وضربها بالعصي ، وطردها الى الغابات والمستنقعات ، ولعنها وتركها في العزلة . ثم تفك أغلال الزوج ، ويكون له ، ان لم يكن تقدم في السن ، أن يتخذ امرأة أخرى . أما الطريدة ، فان لم تمت ، فانها تظل تهيم في الغابات والمستنقعات ، وتتعلم لغة الحيوان ، وتظل تهيم وتجول حتى تجديوما قرية يقال لها قرية الساحرات ، فيها الشريرات من النساء جميعا اللاتي طردن من القرى ، مجتمعات في قرية اتخذنها لهن . فيعشن هناك يفعلن الشر ويمارسن السحر ، ويجتذبن الأطفال الصغار خاصة ، لأنهن لم يرزقن أطفالا ، يجتذبنهن من القرى العادية ، فاذا ضل طفل في الغابة ولم يعد أبدا ، فلعله لم يغرق في مستنقع أو لم يلتهمه الذئب ، بل اجتذبته ساحرة الى سبل التيه ، ثم أخذته الى قرية الساحرات . وفي الوقت الذي كنت فيه صغيرة ، وكانت جدتي كبيرة القرية ، ذهبت بنت مع أخريات ذات مرة الى أشجار التوت البري وظلت تجمع التوت حتى تعبت

وغلبها النعاس . كانت البنت صغيرة فغطتها الحشائش ووارتها ، وسار الأطفال طريقهم ، ولم يتبينوا غيابها ، فلما بلغوا القرية وكان الليل قد حل ، تبينوا أن البنت ليست بينهم . وراح الشبان يبحثون وينادون في الغابة حتى اشتد الظلام ، فعادوا أدراجهم بدونها . أما الصغيرة فلما استيقظت سارت في الغابة وسارت ، وكلما أخذها الخوف أسرعت الخطى ، ولكنها لم تكن تعلم أين هي ، وظلت تسير وتبتعد عن القرية الى مكان لم تطأه قدم انسان وكانت البنت تحمل حول رقبتها خيطا من الليف فيه سن حلوف أهداه اليها أبوها وكان قد أتى به من الصيد وخرقه بشظية من الحجر وسلك فيه خيط الليف بعد أن غلاه ثلاثا في دم الحلوف وتلا عليه تعاويذ ، وكان من يحمل سنا من هذا الضرب لا يمسه بعض السحر . وخرجت امرأة من بين الشجر . وكانت ساحرة ، فاصطنعت وجها حلوا وقالت : «أهلا بك أيتها الصبية الحلوة ، هل ضللت الطريق ؟ تعالي وأنا أعيدك الى بيتك» فسارت الصغيرة معها ، وخطر ببالها أن أمها وأباها قالا لها ألا تظهر أحدا غريبا على سن الحلوف ، فحلت أثناء سيرها السن من الخيط خفية ودسته في حزامها . وسارت المرأة الغريبة بالبنت ساعات ، وكان الليل مخيما ، حتى أتيا قرية ، لم تكن قريتنا ، بل قرية الساحرات . فزجت الساحرة البنت الى حظيرة مظلمة وغلقت الأبواب ، أما الساحرة فذهبت الى كوخها ونامت . وفي الصباح قالت الساحرة : « هل معك سن حلوف ؟ » فقالت البنت : «لا ، لقد كان معي سن حلوف ، وضاع مني في الغابة» ، وأرتها خيط الليف ولم يكن به سن . فأحضرت الساحرة اناء حجريا ، به طين ، وبالطين ثلاثة أعشاب نامية فيه . فنظرت البنت الى الأعشاب وسألت عن أمرها . فأشارت الساحرة الى العشب الأول وقالت : «هذا حياة امك .» ثم أشارت الى العشب الثاني وقالت : «وهذا حياة أبيك» . ثم الى الثالث وقالت : «وهذا حياتك أنت» . وطالما كانت هذه الاعشاب خضراء نامية ، كنتم أحياء أصحاء . فاذا ذبل

أحدها ، فمعنى هذا أن الشخص الذي يمثل حياته مريض ، فاذا اقتلع عشب منها ، كما سأقتلع الآن أحدها ، فلا بد أن يموت من يمثل حياته . ثم أمسكت عشبا ، العشب الذي يمثل حياة الأب بأصابعها وطفقت تشده فلما اجتذبته قليلا وظهر جزء من الجذر الأبيض ، أطلق العشب زفرة عميقة...

وعند هذه الكلمة قفزت البنت الصغيرة الجالسة بجانب كنشت ، كأن حية عضتها ، وصرخت صرخة وهربت من فورها . وكانت قد كافحت الخوف الذي سببته لها القصة ، طويلا ، ولم تعد الآن تتحمله . وضحكت امرأة عجوز . وكان بين الجالسين المستمعين من استبد بهم خوف لا يقل عن خوف الصغيرة ، ولكنهم تماسكوا أنفسهم ، وظلوا جالسين . أما كنشت ، فما كاد يصحو من حلم الاستماع والخوف ، حتى قفز هو الاخر وجرى وراء البنت . واستمرت الجدة العجوز في حكايتها . كان كوخ صانع المطر بقرب بركة ، فسار كنشت في اتجاه بركة القرية يبحث عن الهاربة . وحاول أن يجتذبها بزوم وغناء وأزير وبصوت كالذي تحدثه النسوة عندما يجتذبن الدجاج ، صوت طويل حلو يتعمد السحر . فنادى :« أدا » ثم غنى « أدا ، أدالين[1] ، تعالي! أدا ، لا تخافي ، أنا كنشت » وكرر الغناء مرارا وتكرارا ، وقبل أن يسمعها أو يراها أحس فجأة يدها الناعمة الصغيرة تندس في يده . كانت واقفة على الطريق تسند ظهرها الى حائط بعض الأكواخ ، وتنتظر ، منذ وصلها صوت ندائه . والتصقت به وهي تتنفس الصعداء ، وتتمثله طويلا قويا كالرجل الكبير .

وسألها : « هل خفت ؟ » ثم قال لها : « لم يكن لخوفك داع ، فليس هناك من يريد بك سوءا ان الجميع يحبون أدا . تعالي ، نذهب الى البيت » . وكانت لاتزال ترتعش وتطلق الزفرات قليلا ، فهدأت بعض الهدوء ورافقته شاكرة مليئة بالثقة .

---

(١) صيغة التدليل من « أدا » . (المترجم)

ولاح من باب الكوخ نور أحمر ضعيف يتلألأ ، وفي داخل الكوخ كان صانع المطر يقعد منحنيا على الموقد وشعره المسدل يبرق بين أبيض وأحس ، وكان قد أشعل نارا وراح يطبخ شيئا في اناءين صغيرين . وألقى كنشت قبل أن يدخل مع أدا ، عدة نظرات فضولية الى الداخل ، فتبين أن ما يطبخه الرجل وينقله من اناء الى اناء ليس طعاما وقد كان الوقت علاوة على ذلك وقتا متأخرا لا يطهي الناس فيه طعاما . لكن صانع المطر كان قد سمعه ، فصاح : «من يقف بالباب ؟ تقدم ، أدخل! هل أنت أدا ؟» ثم وضع غطاء على إنائه الصغير وأحاطه بالجمر والرماد والتفت حوله .

وكان كنشت لايزال ينظر متلصصا الى الاناء الصغير الغامض ، وأحس بالفضول وبالهيبة والضيق معا ، احساسا عاوده كلما وضع رجله في هذا الكوخ . كان كثيرا ما يدخل الكوخ ويصطنع لنفسه العلل والمناسبات ما أمكنه ، ولكنه كان يحس دائما بهذا الاحساس المدغدغ المحذر من الضيق الرفيق ، الذي يتصارع فيه الفضول الشديد والفرح والخوف . ولا شك أن الرجل الهرم قد رأى أن كنشت يسير منذ مدة في أعقابه ويظهر في كل مكان الى جانبه ، كأنه صياد يتعقب صيده ، ويعرض عليه بغير كلام خدماته ورفقته .

ونظر اليه «تورو»[1] صانع المطر بعيني الكواسر البراقتين وسأله في برود : «ماذا تريد هنا ؟ أليس هناك وقت من النهار لزيارة الغرباء في أكواخهم ، يا بني ؟!» .

«لقد أحضرت أدا الى البيت ، يا معلم تورو : كانت عند الجدة الكبيرة ، وكنا معا نسمع حكاياتها عن الساحرات ، وفجأة استبد بها الخوف وصرخت فرافقتها الى هنا» .

فالتفت الأب الى صغيرته وقال : «أنت خوافة يا أدا! وما يحق للبنات

---

(١) Turu

النابهات أن تخشين الساحرات . وأنت بنت نبيهة ماهرة ، أليس كذلك ؟ » .

ـ « بلى ، ولكن الساحرات يجدن أفانين الشر ، وان لم يكن لدى المرء سن حلوف... » .

فقال : « هكذا! أتريدين سن حلوف ؟ لابأس . ولكني أعرف شيئا أحسن من سن الحلوف . أعرف جذرا سآتيك به ، علينا أن نبحث عنه في الخريف وأن نقتلعه فهو يحفظ البنات النابهات الماهرات من كل سحر بل ويزيدهن جمالا » .

فابتسمت أدا وسرت ، وكانت قد هدأت منذ أحاطت بها رائحة الكوخ وطالعها قبس النار . وسأل كنشت في استحياء : « ألا يمكنني أن أذهب للبحث عن الجذر ؟ فلا أحتاج الا الى أن تصفه لي... » .

فزر تورو عينيه وقال بلا غضب ولكن بشيء من السخرية . « هذا شيء يتمنى كثير من الصبيان معرفته . وما زال هناك وقت ، ربما في الخريف » .

فتراجع كنشت واختفى في اتجاه بيت الصبيان الذي ينام فيه . فلم يكن له والدان ، بل كان يتيما ، وكان لذلك يجد سحرا في مرافقة أدا وفي الذهاب الى كوخها .

وكان صانع المطر تورو لا يحب الكلام ، لا يحب أن يسمع نفسه ولا أن يسمع الآخرين ، وكان الكثيرون يعتبرونه شخصا غريب الأطوار . وكان البعض يرون فيه متزمتا . ولكنه لم يكن كذلك . كان على أية حال يعرف مما يجري حوله أكثر مما ينسب الناس الى ما في شروده من علم العلماء واعتزال المعتزلين . كان يعرف فيما يعرف أن هذا الصبي النبيه الماهر يجري وراءه ويراقبه ، لاحظ ذلك من أول الأمر ، منذ عام أو أكثر . وكان يعرف تمام المعرفة معنى ذلك . كان لذلك معنى كبيرا بالنسبة للصبي ، ومعنى كبير بالنسبة له هو الشيخ . كان يعني أن الصبي يعشق صناعة المطر ، ولا يشتاق لشيء أكثر من اشتياقه علمها وكان يوجد على الدوام صبي من هذا النوع في

المنطقة ، وكم أتى من قبل أمثاله . أما البعض فكان من السهل تنفيرهم وتخويفهم ، وأما البعض الآخر فلم يكن ينفرهم ولا يثبط همتهم ، وقد لازمه اثنان سنين طويلة ملازمة التلاميذ والصبيان ، وقد تزوجا في قرى بعيدة واحترفا صناعة المطر وجمع الأعشاب . ومنذ ذلك الحين بقي تورو وحيدا ، وكان رأيه أنه اذا اتخذ صبيا مرة أخرى ، فليكن له خليفة . هكذا كان الأمر دائما ، وهكذا كان الصواب ، وهكذا كان الأمر الذي لا يمكن أن يكون غير ذلك : صبي موهوب يظهر ويتعلق بالرجل الذي يرى أن يجيد حرفته اجادة المعلم والأستاذ ويلاحقه . وكان كنشت موهوبا ، كان لديه المطلوب اذن ، وكان لديه بعض ميزات تشفع له : النظرة الفاحصة الحادة الحالمة أولا ثم الاحتياط والسكون في السلوك ، وكان لديه في تعبير الوجه والرأس احساس وتوقع ويقظة وتفتح للأصوات والروائح كأنه الطائر أو الصياد . كان من الممكن بلا شك أن يصبح هذا الصبي عالما بالجو ، أو ربما أصبح ساحرا . كان من الممكن استخدامه . لكن الأمر لم يكن عاجلا ، فقد كان الصبي صغيرا ، ولم يكن هناك ما يدعو لاطلاعه على أن جوهره قد بان ، فلم يكن من اللازم أن تبسط له المهمة أو أن يوفر عليه طريق . فاذا تبين أن من الممكن تخويفه وارهابه وهزه وتثبيط همته ، فلن تكون هناك خسارة في فقدانه . عليه أن ينتظر وأن يخدم وأن يلف ويدور ويتقرب الى الأستاذ .

وتمشى كنشت خلال الليلة الداخلة ، تحت سماء ذات سحب ونجمين أو ثلاثة ، ناحية القرية ، راضيا محبورا . ولم تكن القرية تعرف شيئا من الملذات والجمال والترف مما يلوح لنا أهل اليوم شيئا عاديا لا غنى عنه بل ويتمتع به حتى أفقرنا ، لم تكن تعرف ثقافة ولا فنونا ، ولم تكن تعرف غير الألواح المتخذة من اللبن بيوتا ، ولم تكن تعرف الآلات المصنوعة من الحديد أو الصلب ، وكانت تجهل أشياء مثل القمح والنبيذ ، ولو رأى الناس في ذلك العصر اختراعا كالشمعة أو القنديل لاعتبروها أعاجيب باهرة كذلك

كانت حياة كنشت وكان عالمه المتخيل لا تقل ثروة ، كانت الدنيا تحيط به كسر لا نهاية له وككتاب من الصور ، وكان يغزو منها كل يوم قطعة ، من حياة الحيوان النبات الى السماء ذات الأبراج ، وكانت هناك بين الطبيعة الصامتة الغامضة ، وبين روحه المنفردة المتنفسة بصدر الصبي الهياب ، كل القرابة وفي الوقت نفسه كل التوتر والخوف والشغف والرغبة في التملك التي تطيقها نفس البشر . فاذا لم يكن في عالمه علم مكتوب ، وتاريخ ، وكتاب ، وأبجدية ، وكان كل ما يقع على بعد ثلاث أو أربع ساعات من قريته شيئا يجهله تمام جهله ، ولا يبلغه قط ، فقد كان يعيش في قريته حياة كاملة وكان يشارك في حياة القرية كل المشاركة . وأعطته القرية ، والوطن ومجتمع القبيلة بقيادة الأمهات كل شيء يمكن أن يعطيه الشعب والدولة للبشر : أرضا مليئة بآلاف الجذور يدخل هو في تكوينها كليفة من أليافها ويشترك في كل أمر من أمورها .

سار راضيا ، وكانت الريح تهمس وتقرقع في الأشجار بالليل ، وفاحت رائحة التربة الرطبة والسمار والطمي ، ورائحة دخان نبات اشتعل ولما يتم جفافه : رائحة دهنية حلوة بعض الشيء كانت تدل على الوطن أكثر من أي شيء غيرها . وفي النهاية عندما اقترب من كوخ الصبيان فاحت رائحة الكوخ ، رائحة الصبيان ، رائحة أجسام صغار البشر . وزحف في سكون تحت الحصيرة الى الدفء والظلمة المتنفسة ، فتمدد فوق فرشته وفكر في قصة الساحرات ، وفي سن الحلوف وفي أدا وفي صانع المطر وآنيته فوق النار ، حتى أخذه النعاس .

وأقبل تورو نحو الصبي بخطى شحيحة . فلم يسهل عليه أمره ، لكن الصبي بقي دائما على الخط ، يحس شيئا يجذبه نحو الشيخ دون أن يعرف كنهه بالضبط . وكان الشيخ في بعض الأحيان يستطيع وهو في أبعد مكان في الغابة أو المستنقع أو المرج ، أن ينصب فخا أو يشم أثر حيوان ، أو يحفر

على جذر أو بذرة ، أن يشم فجأة رائحة نظرة الصبي الذي تبعه منذ ساعات ، صامتا متخفيا ينظر اليه . وكان أحيانا يتظاهر بأنه لم يلحظه ، وأحيانا يزوم ويبعده غاضبا ، وأحيانا يشير اليه أن يأتي فيبقيه بجانبه يوما يكلفه بأعمال ، ويريه هذا وذاك ، ويمتحنه ، ويلقي عليه أسماء بعض الأعشاب ، ويأمره أن يأتيه بماء أو بأن يشعل له نارا ، وكان يعرف في كل عمل يقوم به حركات وفوائد وأسرار وتعاويذ يشحذ احاطته اياها نفس الصبي شحذا . وفي النهاية عندما كبر كنشت شيئا ما ، أبقاه الى جواره دائما واعترف به صبيا له : لم يعد صبيا ، بل أصبح صبيا لدى صانع الطقس ، وكان معنى ذلك : أنه اذا صمد وأظهر كفاءة فسيصبح خليفته .

من الساعة التي نقل الشيخ فيها كنشت الى كوخه ، رفع الحاجز بينهما ، لا حاجز الهيبة والطاعة ، بل حاجز الريبة والتحفظ . استسلم تورو اذن لكنشت ولمحاولته الملحة أن يكسبه ، ولم يعد له أمل سوى أن يجعل منه صانع طقس مجيد وخليفة له خليقا به . لم يكن هناك لتعليم الصبي هذه الحرفة مفاهيم أو مذهب أو طريقة أو كتابة أو أعداد لم تكن هناك الا كلمات قليلة ، وكانت حواس كنشت هي التي تلقي من الأستاذ الرعاية والتربية وتفوق في ذلك ما يتلقاه عقله . وكان التعليم يشمل كنزا كبيرا من التقاليد والخبرة ، كل ما يعرفه الناس آنذاك عن الطبيعة ، ولا يكتفي بالحفظ والممارسة بل يتجاوزهما الى النقل الى الاخرين . وهكذا تفتحت في بطء واشراق أمام الصبي تركيبة محكمة من الخبرات والملاحظات والغرائز وعادات البحث ، ولم يكن فيها الا فيما ندر شيء يمكن رده الى مفاهيم ، كان كل شيء يتقدم للحواس لتحسه وتتعلمه وتختبره . أما أساس أو محور هذا العلم فكان معرفة القمر ومراحله وتأثيراته ، وكيف يمتلئ ويختفي باستمرار ، تسكنه أرواح الموتى ، ويبعثها الى مولد جديد ، مُخليا مكانها لموتى جدد .

وكما علق ذلك المساء وما حدث فيه من انصراف عن رواية القصص الى الانيتين الصغيرتين في فرن الشيخ في ذاكرة كنشت ، علقت ساعة أخرى في ذاكرته ، ساعة بين الليل والصباح : اذ أيقظه الأستاذ المعلم قبل منتصف الليل بساعتين وخرج معه في الظلمة الحالكة ليريه الاشراقة الأخيرة لهلال يتحول الى المحاق . وجلسا معا ، الأستاذ المعلم يلوذ بسكون وصمت ، والشاب يرتعش قليلا من الهيبة وقلة النوم وسط تلال بالغابة على مسطح حجري بارز ، جلسا مدة طويلة حتى ظهر القمر الرقيق في المكان الذي عينه الاستاذ وبالشكل والميل الذي عينه ، خطاً لينا منحنيا . وحملق كنشت ، خائفا مأخوذا في النجم الصاعد ببطء ، السابح في رقة على جزيرة سماوية بين ظلمات السحب .

وقال صانع المطر وهو يعد الأيام على أصابعه : «سيغير القمر شكله قريبا ويمتلئ من جديد ، فيأتي وقت زراعة القمح الأسمر» . ثم غرق مرة ثانية في صمته السابق ، وتكور كنشت كالمتروك وحده ، على الحجر اللامع بما تجمع عليه من الندى وكان يرتعش من البرودة ، وأتى من أعماق الغابة نعيق بومة طويل . وفكر الشيخ طويلا ثم نهض ووضع يده على شعر كنشت وقال بصوت خفيض كأنه صادر من حلم : عندما أموت ستطير روحي الى القمر ، وستكون أنت في ذلك الوقت رجلا ، وتكون لك زوجة هي أدا ابنتي . وعندما تلد لك ابنا تعود روحي في ابنكما ، وستسميه تورو على اسمي» .

وأنصت الصبي مندهشا ، ولم يجرؤ على النطق بكلمة ، وارتفع الهلال الرقيق والتهمته السحب الى نصفه . مست الشاب ، على نحو عجيب ، فكرة عن ترابطات واتصالات وتكررات ومقاصات كثيرة بين الأشياء والأحداث ، ووجد نفسه لدهشته مشاهدا ومشاركا في مواجهة السماء الغريبة الليلية ، حيث ظهر ، فوق الغابات المترامية والتلال ، الهلال الرقيق الحاد كما تنبأ الأستاذ بالضبط . وبدا له الأستاذ عجيبا ملفوفا في آلاف من الأسرار : اذ

يفكر في أن روحه ستقيم في القمر ، ثم تعود في انسان آخر يكون ابن كنشت ، ويحمل اسمه هو . ولاح له المستقبل عجيبا مفتوحا شفافا في بعض مواضعه كالسماء ذات السحب ، وتكشف له القدر ، وتصور المعرفة بالمستقبل والقدر والحديث عنهما ، كنظرة الى أعماق أماكن لا تدركها الأبصار وتملؤها العجائب ويسودها النظام أيضا . ولاح له لحظة أنه يستطيع أن يفهم بفكره كل شيء ويعرف ويسمع كل شيء : سير النجوم الساكن المطمئن في أعاليها ، حياة الناس والحيوان ، مجتمعاتها وعداواتها ، ولقاءاتها وصراعاتها ، كل كبيرة ككل في رعدة فكر أولى أتته دفعة واحدة ، ورأى أو أحس نفسه منتظما في هذا الكل داخلا فيه ، كشيء منتظم ، تام الانتظام تحكمه القوانين ويكشفه الفكر . كانت تلك هي الفكرة الأولى له عن الأسرار العظمى ، وجلالها ، وعمقها ، وامكانية معرفتها ، مسته كيد الأرواح ، في برودة الغابة بساعة بين الليل والصباح ، على صخرة فوق آلاف الذرى الهامسة . لم يستطع أن يتكلم عنها في ذلك الوقت ، ولم يستطع أن يتكلم عنها طوال حياته ، ولكنه فكر فيها مرات ، بل كانت تلك الساعة حاضرة في ذهنه بخبرتها في كل ما تعلم وخبر بعد ذلك . كانت تنبهه : «فكر ، فكر في أن كل هذا موجود ، في أنه بين القمر وبينك وبين تورو وأدا أشعة وتيارات ، وأن هناك الموت ، وهناك أرض الأرواح وهناك العودة من هناك ، وأن هناك في قلبك ردا على كل الصور وكل الظواهر في الدنيا ، وأن كل هذا يهمك ، وأن عليك أن تفهم من كل شيء ما يستطيع الانسان أن يفهمه! » هكذا كان كلام الصوت . وكانت تلك هي المرة الأولى التي سمع فيها كنشت صوت الفكر وجاذبيته وطلبه والتماسه السحري . لقد سبق له أن رأى القمر يتجول على صفحة السماء ، وسمع صيحة البومة بالليل ، وسمع من فم الأستاذ ، رغم قلة كلامه ، كلمات حكمة أو تأملات فريدة ـ لكن ما جرى في ساعة اليوم ، كان جديدا ، مختلفا ، كان فكرة عن الكل مسته ، كان

احساسا بالارتباطات والعلاقات والنظام الذي ينتظمه ويجعله شريكا في المسؤولية . فمن مَلَك مفتاح ذلك لم يكن قادرا على معرفة الحيوان من آثار أقدامه ، أو النبات من بذرته فحسب ، بل على معرفة العالم ككل : النجوم ، الأرواح ، الناس ، الحيوان ، الأدوية ، السموم ـ معرفة الأشياء كلها كمجموع ، واستبانة النصف الثاني للشيء من نصفه الأول . كان هناك صيادون مهرة يستقرئون أكثر من غيرهم الأثر والروث والشعرة والبقية المتخلفة عن الحيوان : كانوا يعرفون من شعرتين ضئيلتين نوع الحيوان ، بل واذا ما كان صغيرا أو مسنا ، ذكرا أو انثى . وكان هناك من الناس من يتنبأون بالطقس لأيام قادمة ، بالنظر الى شكل السحب ، أو بشم رائحة في الجو ، أو بالتطلع الى مسلك معين يسلكه حيوان أو نبات . وكان أستاذه ومعلمه ذا قدرة في ذلك لا يصل اليها غيره ولا تخطئ الا ما ندر . وكان هناك من أوتوا مهارة فطرية : كان هناك أولاد يستطيعون اصابة الطير بحجر على بعد ثلاثين خطوة ، دون أن يكونوا قد تعلموا ذلك ، كانوا يستطيعون ذلك هكذا ، بلا جهد سابق ، بل بسحر أو منة ، كان الحجر يطير من يدهم من تلقاء نفسه ، وكأن الحجر كان يريد أن يصيب الهدف ، وكأن الطير ـ كان يريد أن يصاب . وكان هناك آخرون يستطيعون التنبؤ بالمستقبل : فيعرفون هل سيموت المريض أو سيعيش ، وهل سترزق الحامل بابن أو ببنت . وكانت ابنة الجدة الكبرى مشهورة بذلك ، كذلك صانع المطر كان على ماروج الناس عنه يمتلك شيئا من هذا العلم . ولاح لكنشت في تلك اللحظة أنه لا بد أن الشبكة الضخمة للترابطات لها مركز يمكن منه رؤية ومعرفة كما كان وما سيكون . فمن وقف في هذا المركز ، جرى اليه العلم كما يجري الماء الى الوادي ، وكما يجري الأرنب الى الكرنب ، وأصابت كلمته بحدة ودقة كالحجر في يد الموهوب في التصويب ، وجمع في ذاته بقوة الفكر كل هذه المواهب والقدرات المنفردة العجيبة وشغلها : ذلك هو الانسان الكامل

الحكيم الذي لا يعلو عليه أحد . وكان طريق الطرق ، والهدف ، وقدسية الحياة ومعنى الحياة في رأيه هو أن يصبح هذا الرجل ، أو أن يقترب منه أو أن يكون في طريقه اليه . هكذا أحس كنشت ، وما نحاول نحن قوله عن ذلك بلغتنا ذات المفاهيم ، لا يمكن أن يؤدي شيئا من رعشة خبراته ولهيبها . هذه اليقظة بالليل ، وهذا السير خلال الغابة المظلمة الساكنة المليئة بالخطر والغموض ، وهذا الثبات فوق الحجرة العالية في برودة الصباح ، وظهور شبح القمر الرقيق ، وكلمات الرجل الحكيم القليلة ، والانفراد بالأستاذ في ساعة فوق كل ساعة ، كل هذا أحسه كنشت كاحتفال وسر ، وحفظه كاحتفال للأخذ بيده الى العلم ، ولقبوله في الزمرة والشعائر المقدسة ، وادخاله في صلة خدمة وشرف بما لا يمكن تسميته ، بسر العالم . ولم يكن من الممكن أن تتحول هذه الخبرة وشبيهاتها الى كلمات ، وكانت هذه الفكرة أكثرها بعدا واستحالة : «هل أنا وحدي الذي أخلق هذه الخبرة ، أم هل هي خبرة واقعية موضوعية ؟ هل يحس الأستاذ ما أحس به ، أم هل يضحك علي ؟ هل أفكاري في هذه الخبرة أفكار جديدة ، خاصة ، فريدة ، أم هل أدرك الأستاذ وغيره نفس الشيء وفكروا نفس الأفكار ؟» لا ، لم تكن هذه الانعكاسات والتمييزات موجودة ، كان كل شيء هو الواقع ، كان ممتلئا مشربا بالواقع ، كالعجين والخميرة . السحاب ، القمر ، المسرح السماوي المتغير ، الأرض الجيرية المبللة الباردة تحت القدم الحافية برودة الندى الرطبة المنسابة في قطرات في هواء الليل الشاحب ، رائحة الوطن المسلية المختلطة بين دخان الموقد ورائحة الفرشاة المتخذة من أوراق الشجر ، والفراء الذي كان الأستاذ يتشح به مقلوبا ، ونبرة الجلال ، ونعمة الشيخوخة والاستعداد للموت التي في صوت الأستاذ ، كل هذا كان فوق الواقع ، واندفع الى الفتى بعنف ونفذ الى حواسه . وانطباعات الحواس تمثل بالنسبة للذكريات أرضا مغذية أكثر عمقا من أحسن النظريات ومناهج التفكير .

كان صانع الأمطار من القليلين الذين كانوا يمارسون حرفة ، وينشئون فنا خاصا ومقدرة خاصة ، لكن حياته اليومية لم تكن من الناحية الظاهرية تختلف عن حياة الاخرين جميعا اختلافا كبيرا . كان موظفا كبيرا يتمتع بالسمعة والتقدير ويتلقى عشورا وأجرا من القبيلة طالما كلف بعمل في صالح المجموع ، وما كان هذا ليحدث الا في مناسبات خاصة . أما مهمته الهامة العظيمة بل المقدسة ، فكانت تحديد يوم بذر كل نوع من أنواع الثمار والأعشاب في الربيع . وكان يقوم بهذه المهمة معتمدا اعتمادا دقيقا على وضع القمر وعلى قواعد موروثة أو على خبرة خاصة . أما الاحتفال ببداية البذر بنثر حفنة من القمح والبذور في أرض الجماعة ، فلم يكن من عمله ، رغم سمو قدره ، بل كان عمل الجدة الكبرى نفسها أو أكبر قريباتها سنا . وكان الأستاذ يعتبر أهم شخصية في القرية في الحالات التي كان يقوم فيها بممارسة حرفة صانع الطقس . وكان هذا يحدث عندما تطبق فترة جفاف أو رطوبة أو برودة طويلة على الحقول وتهدد القبيلة بالمجاعة ، فتقع على تورو مهمة التماس الوسائل المعروفة ضد الجفاف وسوء المحصول : أضحيات ، ابتهالات ، توسلات . وتحكي الأسطورة أنه في حالات الجفاف العنيدة أو المطر المنهمر بلا نهاية ، تلك التي تفشل فيها كل الوسائل الأخرى ولا يؤدي التوسل والالحاح والتهديد فيها الى تغيير فكر الأرواح ، كانت الجماعة تلجأ الى وسيلة أخيرة ناجعة . يروى أنها راجت في أيام الأمهات والجدات ، وهي التضحية بصانع الطقس نفسه . ويقال أن الجدة الكبرى عاصرت هذا ورأته رأي العين .

كان للأستاذ علاوة على الاهتمام بالجو ، مهمة أخرى خاصة ، هي تحضير الأرواح ، واعداد الأحجبة ومواد السحر ، والطبابة في بعض الأحوال التي لا تدخل في شأن الجدة الكبرى . وفيما عدا ذلك كان الأستاذ تورو يعيش عيشة الاخرين . فكان يساعد عندما يصيبه الدور ، في اعداد الأرض

العامة للزراعة ، وكان يعتني بحديقته الخاصة المجاورة لكوخه . وكان يجمع الثمار وأنواع عيش الغراب والحطب ويخزنها . وكان يصيد ويقتنص ويربي عنزا أو اثنين . كان كفلاح في مستوى الآخرين ، أما كصياد وقناص وجامع أعشاب فلم يكن يشبه الآخرين ، بل كان فريدا في نوعه وعبقريا وكان يشاع عنه أنه يعرف الكثير من الحيل والسبل والوسائل والفوائد الطبيعية والسحرية . فكان يروي مثلا أن العقدة التي يعقدها لاقتناص حيوان تمسك الحيوان على نحو يستحيل معه عليه الفرار ، وكان يعرف طريقة لتطبيب وتطعيم طعم السمك بوسائل خاصة فيجلب الجمبري ، وكان من الناس من يعتقد أنه يفهم لغة بعض الحيوان . أما مجاله الخاص ، فكان مجال علمه السحري : رصد القمر والنجوم ، معرفة علامات الجو ، التنبؤ بالطقس وبالنمو ، والاشتغال بكل ما يؤثر تأثيرا سحريا . وهكذا كان مشهورا كعارف وجامع لتلك المخلوقات من عالم النبات والحيوان ، التي تستعمل للعلاج وللسم ولحمل السحر والبركة والوقاية من المصائب . كان يعرف ويجد كل عشب ، حتى أكثر الأعشاب ندرة ، كان يعرف متى وأين يزدهر وكيف يأتي ببذرة ، ومتى يصح البحث عن جذوره . كان يعرف ويجد كل أنواع الحيات والسلاحف ، ويجيد تبين القرون والحوافر والمخالب والشعر ، ويتقن معرفة الشواذ والسواقط ، والمشوهات ، والأشكال المرعبة والأشباح ، ويعرف أمر البصيلات والتضخمات والعقد التي تعتور الخشب والورق والحب والنقل والقرن والحافر .

وكان على كنشت أن يتعلم بحواسه ، بقدمه ، ويده ، وعينه ، وحس جلده ، وأذنه ، وشمه أكثر من عقله ، وكان تورو يعلمه بالقدوة والمشاهدة أكثر مما يعلمه بالكلام والتدريس . وكان يندر أن يتكلم الأستاذ كلاما متصلا ، وحتى اذا تكلم كلاما متصلا ، كانت كلماته محاولة لتوضيح حركاته المؤثرة تأثيرا خارقا للعادة . كان تعلم كنشت يختلف عن تعلم صبي

القناص أو الصياد ، وكان كنشت سعيدا جدا لأنه كان يتعلم ما كان في نفسه فحسب . كان يتعلم الترصد والانصات والتلصص والملاحظة والحذر واليقظة والاحساس والاقتفاء . لكن الصيد الذي كان هو وأستاذه ومعلمه يتبعانه ، لم يكن فحسب ثعلبا وحية وسلحفة وطيرا وسمكا ، بل كان : الفكر ، الكل ، المعنى ، العلاقة . كانا يسعيان الى تحديد الطقس العابر المتغير ، ومعرفته وتخمينه والتنبؤ به ، والى معرفة الموت الراقد في الثمرة السامة وعضة الثعبان ، والى كشف السر الذي يربط بين السحب والعواصف وبين أحوال القمر وتأثيرها على البذور والنمو وعلى ترعرع الحياة وعطبها في الانسان والحيوان . كانا يهدفان الى الهدف نفسه الذي هدفت اليه العلوم والصنائع في آلاف السنوات التالية ، الى السيطرة على الطبيعة والقدرة على اللعب بقوانينها ، ولكنهما كانا يسلكان طريقا مختلفة كل الاختلاف . فلم ينفصلا عن الطبيعة ولم يسعيا الى النفاذ الى أسرارها عنوة ، ولم يعارضا الطبيعة ويعادياها ، بل كانا جزءا منها ، يستسلمان لها في احترام . ومن المحتمل أن يكونا قد عرفا الطبيعة خيرا منا وتصرفا معها تصرفا أكثر نباهة . وكان هناك أمر استحال عليهما استحالة تامة ، ولم يخطر لهما حتى في أكثر أفكارهما تطرفا : وهو الشعور بأنهما منجذبان الى الطبيعة وعالم الأرواح بلا خوف والخضوع لهما أو الشعور بأنهما يفوقان الطبيعة . كان هذا أمرا مستحيلا عليهما ، ولا يخطر لهما بفكر ، ويلوح لهما من المحال أن تكون لهما علاقة ، غير علاقة الخوف ، بقوى الطبيعة والموت والشياطين . كان الخوف يقف فوق حياة الانسان سيدا ، يبدو التغلب عليه ضربا من المحال . أما تلطيفه ، وتقييده في أشكال ، وأما التحايل عليه وتغطيته بأقنعة ، ووضعه منظما في الحياة ككل ، فكان السبيل اليه هو النظم المختلفة للتضحية . كان الخوف هو التغطية الذي وقعت تحته حياة هؤلاء الناس ، ولو لم يكن هذا الضغط ، لتخلصت حياتهم من الرعب ، ولضاع منها أيضا ما فيها من قوة

وشدة . فمن استطاع أن يرفع جزءا من الخوف الى احترام وتقوى ، فقد كسب كسبا عظيما ، وكان الناس من هذا النوع ، الناس الذين تحول خوفهم الى تقوى ، خيار العصر ومتقدميه . وكانت التضحية كثيرة منوعة الأشكال ، وكان جانب بعينه من هذه التضحيات وشعائرها يدخل في مجال عمل صانع الطقس .

والى جانب كنشت كبرت في الكوخ الصغيرة أدا ، كانت بنتا جميلة ، وكانت حبيبة الشيخ ، فلما أتى الوقت المناسب ، زوّجها الأستاذ الشيخ من تلميذه . ومنذ ذلك اليوم أصبح كنشت مساعد صانع المطر ، وقدمه تورو الى أم القرية على أنه صهره وخليفته وكلفه بتمثيله في بعض الأعمال والمهام . وبمضي الفصول والسنين استغرق صانع المطر كلية في تأمل اعتزالي بحكم سنه ، وترك لكنشت منصبه كله ، فلما مات ـ وقد وجد ميتا ، قاعدا أمام نار الموقد ، منحنيا فوق بعض الأواني الصغيرة ، المملوءة بمواد سحرية ، وقد حرقت النار طرفا من شعره الأبيض ـ كان كنشت قد عرف في القرية منذ وقت طويل كصانع المطر . وطلب كنشت من مجلس القرية أن يدفن الأستاذ المعلم دفنة مشرفة ، وحرق فوق قبره ضحية هي حمل كبير من الأعشاب والجذور الكريمة اللذيذة الشافية . ومضى على هذا وقت طويل ورزق كنشت أولادا كثيرين من أدا ، امتلأ بهم الكوخ ، وكان من بينهم ابن اسمه تورو : في شخصه عاد الشيخ من رحلة الموت الى القمر .

وجرى على كنشت ما جرى على أستاذه في أيامه . تحول جزء من خوفه الى تقوى والى فكر ، وبقي جزء من سعيه الشاب ومن حنينه العميق حيا ، ومات جزء آخر وضاع في أثناء تقدمه في السن في العمل وحب أدا والاهتمام بأدا والأولاد . وكان أعظم حب ، وأهم بحث ، وقفا على القمر وتأثيره على الفصول والظروف المناخية . وفي هذا المضمار بلغ كنشت شأو أستاذه ثم بزه . ولما كان نمو القمر وتواريه يرتبط أوثق الارتباط بموت

الانسان ومولده ، ولما كان أشد وأعمق ما يعانيه الانسان من خوف هو الخوف من حتمية الموت ، فقد اكتسب كنشت ، مبجل القمر والعارف به ، من علاقته الوثيقة الحية بالقمر ، علاقة مقدسة صافية بالموت . ولما تقدمت به السن كان خضوعه للخوف من الموت أقل من غيره من الناس . كان يستطيع أن يتكلم مع القمر كلام التبجيل ، بين التوسل والرقة ، وكان يعرف أنه مرتبط به في علاقات فكرية رقيقة ، وكان يعرف حياة القمر معرفة دقيقة ويشترك في حركاته ومصائره اشتراكا عميقا ، فيعيش اختفاءه وتجدده كسر من الأسرار في ذاته ، وكان يعاني معه ويفزع عندما يحل بالقمر نكبة أو يتعرض القمر لأمراض ومخاطر وتحورات وآفات ، أو يفقد بريقه أو يغير لونه ، أو يظلم حتى يوشك على الانطفاء . كان كل انسان في ذلك الوقت يهتم بالقمر ويرتعد من أجله ويعتقد باقتراب محنة ومصيبة متمثلة في خسوفه ، ويحملق خائفا في وجهه العجوز المعتل . وفي ذلك الوقت بالذات كان يتضح أن صانع المطر كنشت كان يرتبط بالقمر ارتباطا أعمق من ارتباط الاخرين ، ويعلم من أمره أكثر من سواه . كان يعاني نصيبه ، وكان يحزن ويضيق قلبه ، ولكن تذكره لمثل هذه الأحداث كان أحد وأقوى ، وكانت ثقته أثبت أساسا ، كان ايمانه بالخلود وبالعودة وبتصحيح وقهر الموت الأعظم . كذلك كان استسلامه أعظم قدرا ، كان في تلك الساعات يجد في نفسه استعدادا لمشاركة الكوكب مصيره الى الأفول والتجدد ، بل كان أحيانا يحس شيئا كالجرأة ، كالشجاعة والتصميم المتطرف و يدفعه الى معاندة الموت بالفكر ، والى تقوية ذاته بالاستسلام لمصائر فوق انسانية . ولقد انتقل شيء من هذا الى كيانه وأحس به الآخرون : فكانوا يرون فيه عالما وتقيا ورجلا عظيم الهدوء قليل الخوف من الموت ذا علاقة طيبة بالقوى(١) .

(١) أي الأشياء والظواهر التي لا سيطرة للناس عليها والتي تسمت فيما بعد بالآلهة . (المترجم)

وتعرضت مواهبه وفضائله للابتلاء الشديد مرارا فلم تهن ؛ كان عليه ذات مرة أن يصمد طوال فترة من الجدب والجو القاسي ، استمرت عامين أو أكثر ، وكانت أعظم ابتلاء تعرض له في حياته . اذ بدأت المنغصات والعلامات الرديئة عند البذر الذي كان قد تأجل عن موعده ، ثم أصاب النبات النحس والضر الذي لم يسبق له مثيل حتى تلف تماماً . فجاعت الجماعة وجاع كنشت معها جوعا أليما ، وكان من الأشياء العظيمة أنه صمد هذا العام المرير ، ولم يفقد ، وهو صانع المطر ، الايمان والنفوذ ، بل أعان القبيلة على تحمل المصيبة بتواضع ، وبشيء من رباطة الجأش . فلما جاء العام التالي بعد شتاء قاس مات فيه الكثيرون ، تكرر السوء والبؤس السابق وأجدبت الأرض العامة في الصيف نتيجة جفاف عنيد ، وتكاثرت الفيران تكاثرا فظيعا ، وظلت توسلات صانع المطر الفريدة وتضحياته لا تجدي ولا تؤدي الى نتيجة وكذلك الاحتفالات العامة وجوقات الطبالين ، والابتهالات الجامعة ، وتبين أن صانع المطر لا يستطيع هذه المرة أن يصنع مطرا ، فلم يكن هذا الأمر اليسير ، واحتاج الموقف العصيب الى رجل من نوع غير عادي ، ليحمل المسؤولية ، وليقف ثابتا في مواجهة الشعب المفزع الثائر . ومر أسبوعان أو ثلاثة أسابيع ، وقف فيها كنشت وحده ووقفت في مواجهته الجماعة كلها ، ووقف في وجهه الجوع ، واليأس ، والاعتقاد الشعبي القديم في أن التضحية بصانع المطر نفسه هي التي ترضي القوى . وقد انتصر بالامتثال ، فلم يعارض التضحية بل عرض أن يضحي بنفسه ، وفي الوقت ذاته اشترك بجهد كبير ، واخلاص تام في تخفيف المحنة ، فاكتشف مرارا بعض أماكن مياه ، مرة بئرا ، ومرة مجرى ، وحال دون نفوق الحيوان وسط الكارثة الشديدة ، وحال بين أم القرية في ذلك الوقت الجدة الكبرى التي تملكها اليأس البشع وبين الوهن العصيب المهلك ، بما قدمه اليها من عون ونصيحة وتهديد وسحر وصلاة وقدوة وتخويف ، حال بينها وبين الاستسلام والتصرف

الأحمق . واتضح في ذلك الوقت المضطرب المنكوب أن الرجل تزيد الحاجة اليه بقدر زيادة توجيهه حياته وتفكيره نحو الأمور الفكرية والأمور التي تتجاوز الحدود الشخصية ، وبقدر زيادة ما تعلمه من التبجيل والملاحظة والرجاء والخدمة والتضحية . وتركت السنتان الفظيعتان اللتان كادتا توقعانه ضحية ، سمعة عالية له وثقة ، لا بين جماعة الذين لا يحملون مسؤولية ، بل بين القلائل الذين يحملون المسؤولية ويستطيعون الحكم على رجل مثله .

سارت حياته اذن بأنواع من الابتلاء على هذه الشاكلة ، حتى بلغ سن الرجولة المتقدمة ووقف على ذروة حياته . كان قد عاون في دفن جدتين كبيرتين من جدات القبيلة وفقد ابنا جميلا في السادسة أكله الذئب ، وتغلب على مرض عضال دون معونة من آخرين ، وعالج نفسه وحده . وعانى من الجوع والبرد ، كل هذا ترك أثرا في وجهه ، وفي نفسه . وتبين أن أولى الفكر يثيرون في الآخرين نوعا معينا عجيبا من النفور والصد ، فيلقون التقدير من بعيد ويلتمسون في المصائب حقيقة ، ولكنهم لا يجدون منهم حبا وتقديرا كتقدير المرء صاحبه ، بل يلقون الاعراض . كذلك تبين أن المريض أو المنكوب يتلقى التعاويذ والكلمات السحرية الموروثة أو المخترعة قبولا أحسن من قبوله النصيحة العاقلة ، وأن الانسان يفضل تحمل التعب والتفكير الظاهري ، على تغيير ما في نفسه ، أو فحصها ، وأنه يعتقد في السحر أسهل مما يعتقد في العقل ، ويعتقد في العبارات المنمقة أسهل مما يعتقد في الخبرة : وتلك أشياء يبدو أنها لم تتغير كثيرا في آلاف السنين التي تعاقبت بعد ذلك . كما تزعم بعض كتب التاريخ . وتعلم أيضا أن الانسان المفكر الباحث لا يصح أن يفقد الحب ، وأن عليه أن يواجه أماني وحماقات الناس بلا تكبر ، وليس له مع ذلك أن يجعلها تتملكه وتسيطر عليه ، وتعلم أن الفرق بين الحكيم والدجال ، بين الكاهن والمدعي ، بين الأخ المعين ، والمستغل المتطفل ، خطوة واحدة وأن الناس يفضلون بكثير

أن يدفعوا للص وأن يستسلموا للدجال ، على أن يقبلوا معونة مجانية تقدم لهم مخلصة بلا أنانية ، ويفضلون الدفع بالمال والبضاعة على الدفع بالثقة والحب ، وأنهم يخدعون بعضهم البعض ، ويتوقعون أن يقعوا في الخديعة . كان من الضروري أن يتعلم المرء أن ينظر الى الانسان نظرته الى كائن ضعيف أناني جبان وأن يفهم مدى اشتراكه في كل هذه الصفات والدوافع الشريرة ، ومع ذلك أن يعتقد ويوطد نفسه على أن الانسان فكر وحب أيضا ، وأن شيئا فيه يصد الغرائز ويسعى الى السمو . ولكن هذه أفكار خالصة ذات صياغة عالية لم يكن كنشت يقدر عليها . أو لنقل : أنه كان في الطريق اليها ، وأن طريقه كان سيمر بها وإليها .

وبينما هو يسير في هذا الطريق ويتوق الى أفكاره ، كان يعيش في الحسيات وفي الانبهار بالقمر وبرائحة العشب وبأملاح الجذور وبطعم قشر وباستنباط نباتات الدواء ، وطبخ المراهم ، والاندماج في الطقس والجو ، كان يكوّن في نفسه قدرات لا نملكها نحن أهل العصور المتأخرة ولا نفهمها الا نصف الفهم . وأهم هذه القدرات كانت بطبيعة الحال : صناعة المطر . ربما بقيت السماء بعض المرات قاسية وبدت كأنها تسخر بفظاعة من جهوده ، ولكنه صنع المطر مئات المرات ، صنعه في كل مرة بطريقة توشك أن تكون جديدة . حقيقة أنه لم يكن ليتجرأ على تغيير أو ترك أقل قليل في التضحية أو في شعائر التوسلات والابتهالات وموسيقات الطبول ، ولكن هذا لم يكن سوى الجزء الرسمي العام من نشاطه والناحية الظاهرية من منصبه وكهنوته ، ولقد كان جميلا حقا وكان مثيرا لروع الاحساسات ، أن تستجيب السماء في ليلة انقضى يومهافي التضحيات والمواكب : فيمتلئ الأفق بالسحاب وتهب الريح برائحة الرطوبة وتسقط القطرات الأولى . إلا أنه كان لذلك يحتاج الى فن صانع المطر ليختار اليوم المناسب حتى لا يسعى كالأعمى الى ما لا يجدي . كان للمرء حقا أن يتوسل الى القوى وأن ينهال

عليهـا بالرجـاء ، ولكن التـزام الرقـة والاعتـدال والخـضـوع والإرادة كـان ضروريا . وقد عرف كنشت أشياء أحسن من خبرات النجاح والتقبل الجميلة المنتصرة ، أشياء لم يكن يعلم بها غيره ، وحتى هو لم يكن يعرفها الا في خجل وعن طريق الحواس أكثر منه عن طريق الفـهم . كانت هناك أوضاع للطقس وتوترات في الهواء والدفء وغيوم ورياح ، وأنواع من رائحة الماء والطين والغبـار وكـانت هناك تهـديدات ووعـود وأمـزجـة ونزوات لشـيـاطين الطقس ، كان كنشت يحسها في جلده وشعره وحواسه كلها احساسا تنبؤياً واحساسا مصاحبا ، حتى لم يكن هناك ما يفاجئه منها ، ولم يكن هناك ما يخيب أمله بينها . لقد كـان يركـز الطقس في ذاته ويـهتـز باهتـزازاته ، أو يحمله بطريقة ما في نفسه ، حتى كان يأمر السحب والرياح : لا أمر التعنت والنزوة ، بل أمر هذا الارتباط والاتصال الذي يلغي الفرق بينه وبين العالم ، بين الداخل والخارج إلغاءً نهائياً . حين ذاك كـان يقف منتشيا ينصت ، أو يقعد منتشيا ، يفتح كل مسامه ، ويحس بحياة الأهوية والسحب في داخله ، بل ويتجاوز ذلك الى توجيهها وتوليدها مثلنا تقريبا عندما نوقظ في داخلنا جملة من الموسيقى نعرفها تمام المعرفة ونعيدها . كان لا يحتاج الا الى حبس أنفاسه ـ فاذا الريح أو الرعد قد سكت . كان لا يحتاج الا الى امالة أو هزة رأسه ـ فاذا المطر ينهمر أو يكف ، كان لا يحتاج الا الى التعبير عن توازن قواه المتصارعة بابتسامة ـ فاذا السحاب يتفرق ، والزرقة الرقيقة الصافية تبدو . وكـان في بعض الأوقات التي يصف فيها مزاجه وتنتظم فيه روحه على نحو خاص ، يحمل طقس الأيام القادمة ، متنبئا به تنبؤا دقيقا في ذاته ، كأن دمه يحفظ النوتة الموسيقية الكاملة التي يتم العزف في الخارج طبقا لها . وكانت تلك أحسن وأطيب أيامه ، ومكافآته وهناءاته .

فاذا انقطع هذا الاتصال الداخلي بالخارج ، وبدأ الطقس والعالم غريبين غـير مـفـهـومين ، كـانت الانتظامـات في داخله مـضطربة كـذلك ، والتيـارات

مقطوعة ، وأحس بأنه ليس صانع مطر بحق ، وأحس بأن منصبه ومسؤوليته عن الطقس والمحصول أحمال مؤرقة لا حق له فيها . في تلك الأوقات كان كنشت يحب بيته ويطيع أدا ويعينها ، ويشترك معها في أعمال البيت اشتراكا فعالا ، ويصنع للأولاد ألعابا وأدوات ، ويطبخ أدوية . كان يحتاج الى الحب ويحس دافعا يحركه الى الا يكون بينه وبين غيره من الرجال فرق والى أن ينضوي للعادات والتقاليد تماما ، والى أن يستمع الى الحكايات السخيفة التي تحكيها امرأته وجاراتها عن حياة وصحة وحركة الآخرين . أما في الأوقات الطيبة فكان لا يرى في البيت الا قليلا ، كان يسيح في الخارج ، يصيد ويقتنص ويبحث عن جذور ويقعد في الحشائش ، أو يتكور في شجرة ، يشم وينصت ، ويقلد أصوات الحيوان ، ويوقد النيران ويقارن بين دخانها وبين أشكال سحاب السماء ، ويشرب جلده وشعره بالضباب والمطر والهواء والشمس وضوء القمر ، ويجمع فوق ذلك ، كما كان أستاذه تورو يصنع في حياته ، الأشياء التي يبدو الجوهر والشكل كأنما يتبعان فيها مجالات أخرى ، والتي يبدو كأن الحكمة الطبيعية أو المزاج الطبيعي يظهران فيها جزء من قواعد لعب الطبيعة وأسرار خلقها ، أشياء تجمع المختلفات في ذاتها ، مثل : عقدة من غصن عليه وجه انسان أو حيوان ، قطعة من الظلط صقلها الماء وعليها تعريق وكأنها خشب ، بذور غريبة الشكل أو متوأمة ، حجر بشكل الكلية أو القلب ، ويقرأ الرسوم المخططة على ورقة شجر ، والخطوط المتشابكة على رأس قوقعة ويخمن فيها شيئا غامضا ، فكريا ، محتملا ، ممكن الحدوث في المستقبل . سحر الرموز ، فكرة أولى عن العدد والكتابة ، تحويل اللانهائي كثير الأشكال الى شيء مبسط ، الى نظرية ، الى مفهوم . لأن كل هذه الامكانيات لفهم العالم بالفكر كانت موجودة فيه ، بلا أسماء ولا مسميات حقا ، ولكن في غير استحالة واستعصاءعلى الفكر ، في حالة البذرة والبرعم ، ولكن داخلة في كيانه ، ونامية فيه نموا عضويا ، متصلة بصفاته

الخاصة . ولو استطعنا أن نرجع وراء صانع المطر وعصره البعيد البدائي عدة آلاف من السنين ، لالتقينا ، فيما نعتقد بالانسان وبالفكر الذي لا أول له . والذي كان يتضمن كل شيء وكل الأشياء التي أخرجها فيما بعد .

ولم يكن من نصيب صانع الطقس أن يخلد واحدة من أفكاره التخمينية ولا أن يقترب بها من الاثبات الذي ما كانت تلوح له بحاجة اليه . فلم يكن واحدا من مبتكري الكتابة الكثيرين ، ولا من مبتدعي الهندسة أو الطب أو الفلك . وبقي حلقة مجهولة في السلسلة ولكنه كان حلقة لا غنى عنها ككل حلقة : اذ نقل ما تلقاه ، وأضاف اليه ما حصل عليه توصل اليه . وكان لكنشت أيضا تلاميذ ، فنشأ صبيّين على مر السنوات ليكونا من صناع المطر وخلفه أحدهما بعد موته .

واستمر كنشت أعواما طويلة يمارس مهنته ويعيش كيانه ، لا يتسمع عليه أحد ولا يقطع عليه عزلته قاطع ، حتى راح صبي ، لأول مرة ـ وكان ذلك بعد فترة جدبة وقحط ـ يزوره ، ويراقبه ، ويلاحظه ويمجده ويلاحقه ، صبي دفعه دافع الى أن يعالج صناعة المطر ، ويصبح أستاذا . وأحس كنشت احساسا كئيبا في قلبه بعودة تجربة صباه وانقلابها وشعر الى ذلك بشعور مطبق منبه : يقول له أن الشباب ولى ، وان ظهر الحياة قد انتهى وان الزهرة قد تحولت الى ثمرة . تصرف حيال الصبي على عكس ما كان يفكر ، تصرَف تورو العجوز معه قديما ، وتشكل هذا المسلك الجاف المنفر المؤجل تلقائيا ، غريزيا ، فطريا ، ولم يكن تقليدا للأستاذ الراحل ، ولا نتيجة لاعتبارات أخلاقية وتربوية ، تصور له أن يترك الشاب في أول الأمر مدة طويلة تحت الاختبار ، وأن يصعب عليه الدخول الى كشف الأسرار ، ولا يسهلها له قط ، وما الى ذلك . لا ، بل لقد تصرف كنشت حيال صبيانه هذا التصرف هكذا تلقائيا ، كما يتصرف الشخص الغريب الأطوار عندما تتقدم به السن ، أو كما يتصرف العالم الغريب الأطوار حيال تلاميذه والمعجبين به :

مضطربا ، خجولا ، مبعدا ، مستعدا للهرب ، مليئا بالخوف على عزلته الجميلة وحريته ، وتجواله في الغابات الموحشة ، وصيده وجمعه الحر المنعزل ، واستغراقه في الحلم والاستماع ، مليئا بالحب الغيور لعاداته وهواياته وأسراره وتأملاته كلها . فلم يعانق الصبي الهياب الذي اقترب منه بشغف وتبجيل ، ولم يساعده قط على التغلب على تردده ولم يشجعه ، ولم يعتبر مقدم الصبي إليه فرحة ومكافأة وتقديرا ونجاحا لطيفا ، ولم ير فيه رسولا من عالم الآخرين اليه يصرح له بالحب ، لم ير هذا في سعي الصبي اليه ، وانجذابه نحوه ، وشعوره بأنه موهوب لخدمته في أمر أسراره . لا ، لقد أحس بمسعى الصبي اليه في أول الأمر كاقلاق ثقيل لراحته ، وكتدخل في حقوقه وعاداته ، وكسرقة لاستقلاله الذي رأى الآن كيف يحبه . فناهض هذا وابتكر الكثير من الحيل والتهربات والمعاذير لطمس آثاره أمامه والافلات والفرار منه . ولكنه في ذلك لم ينته الا الى ما انتهى اليه تورو قديما معه صبيا ، فقد بدأ قلبه يلين شيئا ، فشيئا ، ومقاومته تتعب قليلا قليلا وتنصهر ، وبدأ يتبين أنه كلما تقدم الصبي اتجه وفتح قلبه له قليلا قليلا ، ثم رحب بطلبه ، وقبل سعيه ، وقام بواجب التعليم واتخاذ التلاميذ ، ذلك الواجب الثقيل الذي لا مفر منه ، الذي يفرضه القدر ، ويريده الفكر . وكان عليه أن يودع بالتدريج الحلم والاحساس والتمتع بالامكانيات اللانهائية والمستقبل المتنوع أعظم التنوع . ووقف مكان الحلم بالتقدم اللانهائي وبمقعد الحكمة ، التلميذ ، وقف كحقيقة واقعة صغيرة قريبة ذات مطالب ، كدخيل يتسبب في اقلاق راحة البال ، ولا يمكن رده ولا صرفه ، كطريق فريد لا طريق غيره الى المستقبل الحقيقي ، الى الواجب الوحيد الأهم ، الطريق الوحيد الضيق الذي كانت حياة صانع المطر وأعماله وأفكاره وتوقعاته لتسلكه اتقاء الموت وابتغاء الاستمرار في برعم جديد صغير . وأخذ المهمة على عاتقه مطلقاً الزفرات ومبتسما .

وفي هذا المجال الهام الممتلئ بأعظم المسؤولية من مجالات منصب صانع المطر ، مجال نقل الموروث وتربية جيل جديد ، أصابته خبرة مريرة ، ومحنة غير متوقعة . كان الصبي الأول الذي سعى اليه واتخذه بعد انتظار ورد طويل أستاذا ، ولد اسمه مارو[١] سبب له خيبة أمل لم يمكن التغلب عليها نهائيا مطلقا . كان الصبي خانعا متملقا ، لعب مدة طويلة دور المطيع طاعة غير مشروطة ، ولكنه يفتقر الى هذه وتلك من الصفات ، كان يفتقر قبل كل شيء آخر الى الشجاعة ، كان يخاف الليل والظلمة خاصة ، وكان يحاول أن يخفي ذلك عن كنشت ، ولكنه لاحظه واعتقد فترة طويلة أن تلك بقية من طفولة ستضيع حتما . ولكن تلك البقية لم تضع . وكان هذا التلميذ ، يفتقر أيضا الى القدرة على الاندماج المتجرد عن الذات وعن الهدف في الملاحظة وفي أعمال المهنة وفي خطواتها وفي أفكارها وتخميناتها . كان نبيها ، وكان ذا فهم صاف سريع وكان يتعلم بسهولة واتقان كل ما يمكن تعلمه بلا اندماج تام فيه . وتبين بالتدريج أنه يهدف الى أهداف ونوايا أنانية ، كان لا يريد أن يتعلم صناعة المطر من أجلها . كان قبل كل شيء آخر يريد أن يصبح ذا قدر ، وأن يتمكن من لعب دور بارز ومن أحداث أثر وطني ، كان له غرور الموهوب ، لا جلال صاحب الرسالة . كان يسعى الى نيل الاستحسان ويتفاخر أمام أقرانه بمعلوماته وأفانينه الأولى ـ كذلك هذا كان من الممكن اعتباره من الطفولة وتوقع تحسنه بالزمن . ولكنه لم يكن يسعى الى الاستحسان فحسب ، بل كان يسعى الى السيطرة على الآخرين والى الحصول على ميزات . فلما بدأ الأستاذ يلحظ ذلك فزع وصد قلبه عن الصبي تدريجيا . أما هذا الصبي فمني بفشل ذريع مرتين أو ثلاث مرات بعد أن تعلم عند كنشت عدة سنوات . فصور له غروره مرة أن يقوم وحده بعلاج طفل مريض ببعض الأدوية لقاء هدايا ، وأن يقوم في كوخ من الأكواخ

(١) Maro

بالتعويذ ضد وباء الجرذان ، فهذا عاد الى أعمال شبيهة بعد تهديد ووعيد من أستاذه ، عزله الأستاذ وأقاله من التلمذة ، وعرض الموضوع على الجدة الكبرى ، وحاول أن يمسح الشاب الجاحد الذي لا خير فيه من ذاكرته .

ولكن التلميذين اللذين اتخذهما بعده عوضا عنه ، وخاصة التلميذ الثاني وهو ابنه تورو . وكان كنشت يحب ابنه الصغر هذا وتلميذه الأخير حبا جما ، وكان يعتقد أنه سيكون له شأن أكثر من شأنه هو ، وكان واضحا أن روح الجد قد عادت فيه . وأحس كنشت بالرضاء الذي يقوي الروح عندما رأى أنه ينقل مجموع علمه وايمانه بالمستقبل الى انسان هو ابنه الذي يحمل اسم جده ، يمكنه في أي يوم أن ينزل له عن المنصب ، اذا اشتد عليه التعب والنصب . لكن التلميذ الأول الفاشل لم ينصرف تماما عن ذاكرته ، فقد أصبح في القرية رجلا ، ان لم يحظ بالاحترام الكبير ، فقد حظي لدى الكثيرين بالحب والنفوذ ، وتزوج وأصبح ما يشبه المشعوذ الهازل المحبوب ، بل وأصبح الطبال الأول في جوقة الطبالين ، وكان عدوا لدودا وحاسدا لصانع المطر يلحق به صنوفا من الأذى كبيرة وصغيرة . ولم يكن كنشت رجلا يهتم بعقد الصداقات والمجالسة ، بل كان يحتاج الى الوحدة والحرية ، ولم يكن قط يسعى الى التقدير والحب ، الا حب وتقدير الأستاذ تورو قديما . هكذا قدر له أن يحس ماذا يعني أن يكون للمرء عدو وحاقد ، وقد أفسد هذا عليه أياما في حياته .

كان مارو من هذا النوع من التلاميذ الذي يتصف بموهبة كبيرة ، ومع ذلك يقع من المعلمين موقع الانسان الثقيل غير المحتمل . لأن موهبته ليست قوة نامية من أسفل ومن الداخل الى الخارج ومبنية على أساس عضوي ، وليست ميزة رقيقة كريمة لطبيعة جيدة ، ودم نشيط وخلق مجد ، بل هي شيء عابر ، عفوي ، بل مغتصب أو مسروق . والتلميذ الضعيف الخلق حتى اذا كان ذا فهم عظيم وخيال براق ، يؤدي بالأستاذ الى الارتباك الذي لاريب

فيه : اذ عليه أن يعلم هذا التلميذ الموروث من المنهج وأن يجعله قادراً على المشاركة في الحياة الفكرية ـ عليه في الوقت نفسه أن يحس أن واجبه الأسمى الحقيقي هو حماية العلوم والفنون من تهافت من لا يملكون الا مواهب فقط . فليس المعلم خادم التلميذ ، وانما المعلم والتلميذ يخدمان الفكر معا . وهذا هو السبب الذي يحس المعلم من أجله حيال بعض المواهب الباهرة بالهيبة والرعب . فان مثل هذا التلميذ يزيف معنى ويفسد عملية التعليم . وكل تشجيع لتلميذ له القدرة على البراعة ، وليست له القدرة على الخدمة يعني في أساسه اتلاف الخدمة أو هو نوع من خيانة الفكر . ونحن نعلم من التاريخ فترات من حياة الشعوب حدث فيها اضطراب عميق في النظم الفكرية وشهدت تهافتا من أولئك الذين لا يملكون سوى المواهب على قيادة الجماعات والدارس والأكاديميات والدول ، وجلس في المناصب كلها أناس لهم مواهب عالية أرادو أن يحكموا كل شيء ولم يكونوا يستطيعون أن يخدموا . ولا شك أنه من الصعب التعرف على هذا النوع من المواهب قبل أن يتحكم في قواعد مهنة فكرية وازاحتها بالقسوة اللازمة الى طرق المهن غير الفكرية . ولقد أخطأ كنشت بعض الخطأ فأكثر من الصبر وأطال منه مع تلميذه مارو ، فأسر الى شخص يتملكه السعي الى المناصب وتتملكه السطحية بحكمة كانت خسارة فيه . وكانت النتائج أصعب عليه مما توقع .

وأتى عام ـ وكانت لحية كنشت قد علاها الشيب ـ لاح فيه النظام بين السماء والأرض مختلا مضطربا بفعل شياطين لهم قوة وخبث من نوع غير عادي . وبدأت الاضطرابات في الخريف مخيفة هائلة أرعبت كل نفس حتى أعمق أعماقها وأطبقت عليها بالخوف ، بمنظر سماوي لم يره أحد من قبل ، كان ذلك بعد فترة تساوى الليل والنهار ، تلك الفترة التي كان صانع المطر يحييها دائما بتعظيم وتقوى وتأمل ويراقبها بانتباه متزايد . فأتى مساء خفيف كثير الريح ذو برودة ، وكانت السماء صافية كالزجاج لا

يشوبها الا سحاب مضطرب قليل كان يهيم على ارتفاع شاهق ويطيل بقاء حمرة الشمس الغاربة طولا غير مألوف : حمرة في شكل حزم ضوئية مندفعة مقلقلة رغوية في الفضاء الكوني البارد الشاحب . وكان كنشت قد أحس بشيء منذ عدة أيام ، شيء كان أقوى وأعجب مما كان يحس به في مثل هذا الوقت من كل سنة ، عندما كانت الأيام تبدأ في القصر ، أحس بعمل القوى في الفضاء السماوي ، وبخوف الأرض ، والنباتات والحيوانات ، وبقلق في الجو ، أحس بشيء مقلقل ، منتظر ، خائف ، يوحي بالكثير في الطبيعة كلها ، كذلك السحب الصغير التي التهبت واضطربت طويلا في تلك الساعة من المساء كانت من علامات المحنة ، وكانت حركاتها المختلجة التي لا تتناسب مع الريح التي تهب على الأرض ، وكان لها نور أحمر عاند طويلا حزن الخفوت والانطفاء ، ثم لما أصابه البرد واختفى توارت هي كذلك . كانت الدنيا هادئة في القرية ، وتفرق الزوار والأطفال المستمعون منذ مدة طويلة الا طفلين كانا يعبثان ويجريان أما من عداهم من الناس فكانوا في أكواخهم بعد أن تناولوا الطعام منذ مدة طويلة . واستغرق الكثيرون في النوم ، لم يصح منهم الا القليل ، مثل صانع المطر الذي ظل يلاحظ السحب الحمراء بلون الشفق . وراح كنشت يقطع الحديقة الصغيرة خلف كوخه جيئة وذهابا يفكر في السحاب ، ثائرا لا يهدأ ، وكان يجلس أحيانا على جذع شجرة مقطوع كالمقعد بين بعض الشجيرات ليستريح قليلا . فلما انطفأت آخر شمعة في السحاب ظهرت النجوم فجأة واضحة على صفحة السماء الصافية المخضرة المتلألئة ببقايا النور ، وما لبثت النجوم أن زادت عددا واشتدت نورا واحتل عشرة أو عشرون المكان الذي كان يبدو فيه نجمان أو ثلاثة . كان صانع المطر يعرف كثيرا من هذه النجوم ومن مجموعاتها وعائلاتها ، وكان قد رآها آلاف المرات ، وكانت عودتها الى الظهور تحمل في طياتها ما يهدئ الروع ، كانت النجوم تبعث السلوى ،

حقيقة أنها كانت باردة بعيدة في أعاليها ولا تشع دفئا ولكنها كانت ثابتة توحي بالثقة ، وتصطف اصطفافا دقيقا يبين النظام ويبعث على الاعتقاد في الدوام . واذا لاحت النجوم في ظاهرها غريبة بعيدة مناقضة للحياة على الأرض ولحياة الانسان ، واذا بدت جامدة لا تتأثر بحرارة الانسان وخلجاته وآلامه وانجذاباته ، متعالية في جلالها وخلودها الرفيع البارد تعاليا يوشك أن يكون تهكما من الإنسان وحياته ، فانها رغم هذا لا تعدم أن تكون ذات صلة بنا ، بل لعلها تعمل على توجيهنا وحكمنا ، والعلم الانساني والتحكم الفكري اذا وصل الى اطمئنان وسمو فكري على ما هو فان شابه النجوم وأشع مثلها في سكون بارد ونشر سلوى تختلج برعدة فاترة ونظر نظرة خالدة فيها شيء من السخرية . هذا ما تمثل لصانع المطر مرارا ، وان حق انه لم يكن يتصل بالنجوم صلته الوثيقة المثيرة الدائمة بالقمر العظيم القريب الرطب ، بالسمكة السحرية السمينة في البحر السماوي ، فانه كان يبجل النجوم تبجيلا عميقا ويرتبط بها ارتباطا فيه نوع من الايمان . وكان يميل الى النظر اليها ويجعلها تؤثر فيه ويقدم الى نظراتها الساكنة الباردة ما لديه من صغر ودفء وخوف ، وكثيرا ما كان يعتبر ذلك استحماما أو تجرعا لشراب فيه شفاء .

كانت النجوم تطل اليوم كما كانت تطل على الدوام ، لكنها كانت شديدة الوضوح تبدو كأنها صقلت صقلا قاسيا في ذلك الجو الرقيق الجامد ، لكن صانع المطر لم يجد في نفسه الهدوء اللازم للاستسلام اليها ، فقد كانت هناك قوة آتية من أماكن مجهولة تجذبه وتؤلمه في مسامه وتمص في عينيه وتوثر عليه تأثيرا ساكنا دائما كالتيار أو كالخلجة المنذرة . والى جواره في الكوخ لمع في حمرة نور جمر الفرن الدافئ الخفيض ، وانسابت الحياة الصغيرة الدافئة ، وأقبل نداء وضحك وتثاؤب ، وتنفست رائحة بشرية ، ودفء انساني وأمومة ونوم أطفال ، ولاحت هذه الأشياء كأنها

تزيد الليل المقترب عمقا ، وتزيد النجوم بعدا وتدفعها الى ارتفاع وبعد لا يحيط بهما العقل .

وبينما كنشت يسمع صوت أدا في الكوخ تهدئ طفلا ، وتترنم بما يشبه النشيد العذب ، بدأت الكارثة في السماء ، الكارثة التي حفظتها ذاكرة القرية السنين والأعوام . فبدا هنا وهناك شبكة النجوم الهادئة اللامعة ضوء يهتز ويلتهب كأن خيوط تلك الشبكة التي لم تدركها الأبصار من قبل قد اشتعلت نارا ، وتساقطت كالأحجار الملقاة نجوم تتأجج ما تلبث أن تنطفئ وتهوي في الفضاء مائلة ، هنا واحدة وهناك اثنتان وهنا مجموعة ، وما تكاد العين تترك النجمة الواقعة الأولى ويتأهب القلب بعد تحجره للنبض مرة ثانية ، حتى تهاوت الأنوار في خط مائل معوج في السماء أسرابا قوامها العشرات والمئات ، واندفعت زرافات لا عداد لها كأن عاصفة صامتة تدفعها مائلة عبر الليل الساكن أو كأن خريفا حل بالكون واقتلع النجوم كأوراق ذابلة في شجرة السماء ودفعها في صمت الى العدم . تطايرت النجوم كالأوراق الذابلة أو كقطع الثلج بالآلاف المؤلفة في سكون مرعب واختفت وراء جبال الغابة الجنوبية الشرقية التي لم يحدث من قبل قط أن غرب فيها نجم ، وراحت في مكان لا قاع له .

ووقف كنشت متصلب القلب ، مرتعد العينين ، ثاني الرأس ناحية الظهر ، ينظر نظرة مذهولة دائمة الى تلك السماء الملعونة التي تبدلت من حال الى حال ، يريد ألا يصدق عينيه ولا يستطيع الا أن يوقن كل اليقين بالمصيبة النازلة . وكان ككل من أبصر المنظر الفظيع في تلك الليلة يعتقد أنه يرى النجوم المعروفة تترنح وتهوي ويتوقع أن يرى القبة السماوية ، ان لم تبتلعه الأرض توا ، وقد اسودت وفرغت . وعرف بعد برهة ما لم يؤت الآخرون القدرة على معرفته ، عرف أن النجوم المعروفة مازالت هنا وهناك في مكانها وان سقوط الأنجم لا يمس الأنجم القديمة المعروفة المألوفة ، بل

يحـدث في الفـراغ الأوسط بين السـمـاء والأرض ، وتبـين أن هذه الأنوار الساقطة أو المقذوفة التي تبدو وتختفي بسرعة أنوار جديدة تتوهج بنار لها لون آخر غير لون نار الأنجم الصحيحة . وكان له في هذه الملاحظة سلوى وراحة ، واستطاع اعتمادا عليها أن يفيق الى نفسه . على أنه اذا صح أن هذه الأنجم أنجم جديدة فانية يملأ عجيجها الهواء ، فانها رغم ذلك كانت فظيعة شريرة تحمل المصيبة والخراب ، وأطلق كنشت من حلقه الجاف زفرات عميقة . ونظر من ناحية الأرض ، تسمع في كل الاجاهات ليتبين ما اذا كان هو وحده الذي يرى هذا المنظر الرهيب أو كان هناك آخرون يرون ما يرىٰ . وما لبث أن تناهى اليه من الأكواخ الأخرى أنين وتنهد وصراخ أطلقه الفزع والرعب . لقد رأى الآخرون المشهد الذي رآه ، وبالغوا فيه بصيحاتهم ، وأثاروا التائهين والنائمين حتى تملك القرية كلها الخوف والرعب . وحمل كنشت المسؤولية والزفرات العميقة تنطلق من شفتيه ، حملها فقد كانت المصيبة تمسه قبل غيره باعتباره صانع المطر ، باعتباره المسؤول نوعا ما عن نظام السماء والهواء . ولكم تنبأ بالمصائب العظيمة أو أحس بها قبل حدوثها : فيضانا ، عواصف ثلجية ، عواصف ضخمة ، ومهد لها لدى الأمهات والكبيرات وحذرهن ، فحال دون أخطار شديدة ، ووضع نفسه وعلمه وشجاعته وثقته في القوى العليا بين القرية وبين اليأس . فلماذا لم يتنبأ بالمصيبة هذه المرة ويتخذ اللازم في أمرها ؟ لماذا لم يقل كلمة واحدة لانسان عن الحدس الغامض المحذر الذي تملكه ؟

ورفع الحصيرة عن باب الكوخ ونادى زوجته بصوت منخفض . فجاءت تحمل أصغر الأطفال على صدرها ، فحمل عنها الطفل ووضعه على القش ثم تناول يدها ووضع اصبعا على شفتيه ليحضها على الصمت وساقها خارج الكوخ ورأى أن وجهها الهادئ الصبور قد تبدل بالخوف والرعب .

وهمس في أذنها بحدة : «ينبغي أن ينام الأولاد ولا ينبغي أن يروا من

هذا شيئنا ، أسمعت ؟ لا تدعي أحدا من الأولاد يخرج حتى ولا تورو ، والزمي الكوخ أنت أيضا » .

وتردد مضطربا لا يعلم ماذا يبين من أفكاره ثم أضاف بإيمان : «لن يجري لك وللأولاد شيء » .

وصدقته وان لم يشف وجهها وروحها من الرعب الذي استبد بهما .

وراحت تسأله وهي تعبر عليه بنظرها لتحملق في السماء : «ماذا هناك ؟ هل فيما أرى سوء كبير ؟» .

فقال في رقة : «فيه سوء ، واعتقد أنه سيكون سوءا كبيرا . ولكن المصيبة لن تمسك ولن تمس الصغار ، فالزموا الكوخ وأحكمي اقفال الحصيرة ، أما أنا فلا بد أن أذهب الى الناس وأتحدث اليهم . ادخلي يا أدا » .

ودفعها خلال فتحة الكوخ ، وأقفل الحصيرة جيدا ، ثم وقف قليلا ينظر الى حركة النجوم الدائمة ومال برأسه وأطلق الزفرات من قلب حزين مثقل واتجه الى القرية بسرعة يشق الليل الى كوخ الجدة الكبرى .

وهناك وجد نصف القرية مجتمعا يضج ضجيجا مكتوما ، ويترنح ترنحا شلّه الخوف وحبسه أو أوشك ، ترنحا فيه الرعب وفيه اليأس . كانت هناك نساء وكان هناك رجال استسلموا بغيظ وشهوة الاحساس بالرعب وباقتراب فناء الكون ، فوقفوا مبهورين جامدين أو راحوا يحركون أطرافهم حركات لا سيطرة لهم عليها ، وكانت هناك امرأة علا الزبد فاها . وكانت أخرى ترقص وحدها رقصة يائسة فاضحة وتقتلع أثناء الرقص شعرها خصلة خصلة . وتحقق كنشت من أن الأمور سارت سيرها وأن الجميع ضاعوا أو أوشكوا تحت تأثير الجو المذهل وسحر النجوم المتهاوية وأصبحوا كالمجانين ، وربما اجتمعوا لرقصة صاخبة من الجنون والغيظ والرغبة في تحطيم الذات ، كانت تلك آخر فرصة لجمع ذوي لشجاعة واللب وتقوية عضدهم . أما الجدة الكبرى فكانت

هادئة ، كانت تعتقد أن نهاية الكون قد حلت ، ولكنها لم تكن تتصدى لها ، بل كانت تبدي للقدر وجها جامدا قاسيا يوشك في تصلبه أن يكون ساخرا . وحملها كنشت على أن تستمع اليه ، فحاول أن يبين لها أن النجوم القديمة التي كانت موجودة دائمة ما زالت موجودة ، ولكنها لم تستطع أن تفهم مقالته ، إما لأن عينيها لم تعد لهما القدرة على الابصار والتأكد ، وإما لأن تصورها للنجوم وعلاقتها بها كانت تختلف تماما عن تصور وعلاقة صانع المطر فلم يتفاهما . فهزت رأسها وظلت على سخريتها الجسورة . فلما توسل كنشت اليها ألا تدع الناس في ثورتهم وخوفهم نهبا لأنفسهم وللشياطين ، وافقت . وتكونت حولهما مجموعة صغيرة من الخائفين الذين لم يصلوا الى درجة الجنون والذين كانوا على استعداد للانضواء تحت قيادة قائد .

وكان كنشت حتى اللحظة التي سبقت وصوله يرجو أن يتحكم في الرعب الذي استولى على الناس بالمثل والقدوة والعقل والكلام والشرح والحض والنصح ، لكن حديثه مع الجدة الكبرى بين له أن الوقت لم يعد مناسبا لذلك . كان يرجو أن يجعل الآخرين يشتركون في خبرته وأن يجعل خبرته هدية ينقلها اليهم ، كان يرجو أن يؤدي كلامه اليهم الى حملهم على فهم ما توصل اليه من أن النجوم كلها أو جلها لم تسقط ولم تذريها عاصفة كونية ، والى تحويلهم نتيجة لهذا من الفزع اليائس الحائر الى الملاحظة الفعالة والى التغلب على ما ألم بهم من سوء . لكنه تبين أنه لم يعد في القرية الا القليل ممن يمكن التأثير عليهم مثل هذا التأثير ، وتبين أن الوقت اللازم لاستمالتهم يكفي ليبلغ بالباقين جميعا الى الجنون التام . لا ، لم يكن هذا المجال مجال العقل والكلام النبيه الذكي . فاذا لم يكن من الممكن التغلب على الخوف المميت بوضع العقل مكانه ، فقد كان من الممكن توجيه هذا الخوف وتنظيمه ومنحه شكلا ووجها وتحويل الاضطراب اليائس للمجانين

الى وحدة ثابتة قوية ، الى جوقة قوامها أصوات فردية ثائرة هائمة على وجهها . وبدأ كنشت العمل من فوره ونجحت الطريقة . تقدم الناس ورتّل كلمات الصلاة المعروفة التي تبدأ بها عادة مراسم الحزن والاستغفار ، ورثاء جدة أو يوم التضحية والاستغفار في حالة الأخطار العظمى مثل الأوبئة والفيضانات . صاح كنشت بالكلمات بايقاع أكده بالتصفيق ثم راح يميل على الايقاع نفسه وهو يصيح ويصفق حتى أوشك أن يلمس الأرض ، ثم نهض ، واذا بعشرة أو عشرين يتبعون حركاته بمثلها ، ووقفت الجدة الكبرى وتمتمت بكلمات ذات ايقاع وحركت التمايلات الشعائرية باشارات صغيرة منها . وكان كل من يأتي من الأكواخ الأخرى يدخل في الايقاع ويندمج في روح الحفل ، وسقط جماعة من المهاويس على الأرض خائري القوى أو بلا حراك ، ومن لم يسقط تملكه ترتيل الجوقة وايقاع التمايلات والتحرك بالعبادة وقهره واجتذبه . لقد نجحت طريقة كنشت . ووقف في مكان القطيع الهائج اليائس المجنون شعب من المصلين يريد التضحية والاستغفار ويرتاح وقوي لأنه لا يحبس الخوف من الموت في قلبه ولا يصرخ فيه كل بمفرده ، بل ينتظم في جوقة منسقة تتكون من كثيرين يقومون باحتفال له ايقاع مضبوط يبغي التوسل . في مثل هذا التمرين تعمل قوى كثيرة ، وأقوى سلوى فيها الرتابة التي تضاعف الاحساس بالجماعة ، وأنجع دواء فيها هو الاتزان والاعتدال هو الايقاع والموسيقى .

وبينما السماء الليلية تتغطى كلها بجيش النجوم الساقطة التي تشبه الشلال المنهمر ذا القطرات النورية ، وبينما الشلال يقذف بقطراته النارية مدة تبلغ الساعتين ، كان فزع القرية يتحول الى استسلام وتقى ، الى تهجد واستغفار ، واتجه الى السماوات الساقطة من نظامها خوف الناس وضعفهم في شكل نظام وانسجام شعائري . وقبل أن يبدأ حراك النجوم في الاستكانة والانهمار الرفيق ، كانت المعجزة قد حدثت ، وأطلقت قوة شافية ، فلما

بدأت السماء تهدأ بطيئا وتشفى مما بها ، كان المستغفرون المتعبون قد أحسوا الاحساس الشافي وهدّءوا القوى بتمرينهم ، وأعادوا الى السماء نظامها .

لم ينس الناس ليلة الرعب بل ظلوا يتحدثون عنها طوال الخريف والشتاء ، واتخذ حديثهم عنها بعد قليل نغمة غير نغمة الهمس والتوسل ، نغمة حديث كل يوم ، وأصبح حديثهم عنها يقوم على الرضا القائم على التغلب على مصيبة تغلب الشجعان . وكانوا يتمتعون بالتفصيلات ، كل يريد أن تكون دهشته بالمصيبة دهشة خاصة ، كل يريد أن يكون هو أول من اكتشفها ، وكان هناك من يتجرأ الآن على التفكه على أمور فظيعة مهولة . ولقد كان لهذه الواقعة أثرها الخاص في القرية : فقد عاش الناس خبرة كبيرة ، وحدث بينهم شيء!

ولم يشترك كنشت في هذا الاتجاه ولم يشترك في خفوت الخبرة ونسيانها فقد ظلت الخبرة الفظيعة في علمه انذارا لا ينسى ، ظلت نذيرا لا يهدأ ، ولم يعتقد أن الأمر انتهى نهاية تامة بالموكب والصلاة والاستغفار . بل كانت تلك الحادثة تزداد معنى كلما بعدت في الماضي ، وكان يكثر التفكير فيها حتى أصبح مفكرا مفسرا . كان يرى أن هذه الواقعة في حد ذاتها مشهد طبيعي معجز ، وأنها معضلة ذات اتجاهات كثيرة : كان يرى أن من أوتي فرصة مشاهدة هذه الواقعة ، يمكنه أن يفكر في أمرها طول حياته . ولم يكن هناك في القرية الا انسان واحد يمكنه أن ينظر الى سقوط الأنجم بتوقعات مشابهة وبأعين مماثلة ، كان ذلك هو ابنه وتلميذه تورو ، أما تأكيدات أو تصويبات أي شاهد آخر عدا تورو فكانت لا تهم كنشت في قليل أو كثير . ولكنه تركه في تلك الليلة ينام ، وكان كنشت كلما أطال التفكير في السبب الذي دعاه يترك تورو نائما ويتخلى عن الشاهد والمراقب الجاد الوحيد عند تلك الحادثة الفريدة ، قوي في نفسه الاعتقاد بأنه أحسن

التصرف واتبع تنبيها حكيما . فقد أراد أن يقي أهله هذا المنظر ، وأراد أن يقي صبيه وزميله بصفة خاصة ، فلم يكن يحب أحدا حبه اياه . لهذا أخفى عنه سقوط الأنجم ، وكان كنشت يؤمن بفائدة النوم خاصة للشباب وكان من ناحية ثانية ، ان لم تخنه الذاكرة ، قد فكر لحظة المصيبة ومن أول بادرة لها أنها نذير سوء يقع في المستقبل ولا يمس غيره هو ، صانع المناخ . كان الرأي عنده أن شيئا يوشك أن يحدث ، وأن خطرا وتهديدا يأتيان من تلك الدائرة التي يربطه بها منصبه ، وأنها مهما اختلفت في الشكل لا تقصد سواه . وقد اتخذ من البادرة الهائلة نذيرا وفرارا يتمثل في أن يواجه الخطر يقظا قويا وأن يعد نفسه له روحيا وأن يقبله وألا يصغر أمامه ويضيع كرامته . وكان يرى أن القدر الوشيك يتطلب رجلا ناضجا شجاعا ، وأنه لذلك لا خير في دس الابن في هذا الأمر وجعله يشترك بالمعاناة أو العلم فيه ، خاصة وأنه لم يكن يعرف على وجه التحقيق ما اذا كان الانسان الصغير الغرير في مستوى المشكلة أم لا .

ولقد غضب الابن تورو جدا بطبيعة الحال لفوات فرصة مشاهدة المشهد العظيم وتضييعه الفرصة في النوم . ومهما اتجه تفسير المشهد من أوجه ، فقد كان على أية حال شيئا كبيرا ربما لا يعود الى الحدوث مرة ثانية في حياته ، لقد راحت منه خبرة وأعجوبة كونية ، وغضب من أبيه لهذا فترة طويلة . لكن هذا الغضب ما لبث أن توارى ، فقد عوض عليه أبوه ما ضاع منه برقة واهتمام أكبر واصطحبه أكثر من ذي قبل الى كل أعمال منصبه ، واجتهد اجتهادا أكثر في تربية تورو ليكون في نهاية المطاف رجلا كاملا ما أمكن وليكون خلفا واعيا عليما له . واذا كان كنشت يقل من التحدث اليه عن واقعة سقوط النجوم ، فقد كان يزيد من الأخذ بيده أخذا متزايدا الى أسراره وأساليبه وعلمه وبحثه ويصطحبه في جولاته وتجاربه وبحوثه الطبيعية التي كان لا يصطحب معه اليها إنساناً .

وأتى الشتاء ثم ولى ، وكان شتاء رطبا لطيفا . ولم تسقط أنجم ولم تحدث أمور عظيمة خارقة للمألوف ، وبقيت القرية هادئة ، يذهب الصيادون فيها مجتهدين الى الصيد ، وتقرقع على العمدان فوق أسطح الأكواخ في كل مكان حزم جلود الحيوان التي جفت وتجمدت ، وكان الناس يجرّون فوق كتل من الخشب الناعم على الثلج أحمالا من الخشب يأتون بها من الغابة . وفي وقت البرودة القصير ماتت امرأة عجوز من أهل القرية ولم يتمكن الناس من دفنها على الفور ، وظلت الجثة أياما عديدة قابعة متجمدة من البرودة عند باب الكوخ حتى ذاب الثلج .

فلما أتى الربيع أكد جانبا من التوقعات السيئة التي توقعها صانع الطقس . فقد كان ربيعا رديئا جدا خانه القمر وتجرد عن البهجة والحركة والعصارة ، وظل القمر متأخرا دائما ، ولم تجتمع العلامات المختلفة المنبئة بيوم البذر معا في يوم واحد ، وكانت زهور الغابة فقيرة في ازدهارها وماتت البراعم المقفلة على الغصون قبل أن تتفتح . وحزن كنشت حزنا شديدا وان لم يظهر حزنه ، لكن أدا وتورو لاحظا ما به من هم يؤرقه ويقض مضجعه . واستعمل كنشت علاوة على التهجدات والتوسلات المألوفة تضحيات خاصة شخصية ، فراح يطبخ للشياطين أمزجة عطرة ، منبهة ، شهية ، وقص لحيته وحرق شعره في ليلة المحاق بعد خلطه بالراتنج وبقشر الخشب المبلل فأحدث دخانا كثيفا . وتحاشى ما أمكنه ، الاحتفالات العامة وأضاحي الجماعة وتوسلاتها الجماعية وجوقاتها ذات الطبول ، وأطال ما أمكنه في جعل جو هذا الربيع اللعين مشكلة شخصية من مشاكله الخاصة . على أنه اضطر الى رفع تقرير الى الجدة الكبرى عن أمر يوم البذر بعد أن تأخر طويلا ، وكان له في هذا الأمر أيضا محنة ومصيبة . فلم تستقبله الجدة الكبرى رغم أنها كانت تكن له الصداقة وتحنو عليه وتميل الى أفكاره ، كانت متوعكة ملازمة الفراش ، وكانت أختها تقوم بواجباتها ومهامها ، وكانت تلك

الأخت فاترة تجاه صانع المطر وأفكاره ، وكانت تفتقر الى الشخصية المستقيمة الصارمة التي كانت لأختها وتميل نوعا ما الى اللهو والعبث ميلاً ساق اليها الطبّال الدّجال مارو الذي عرف كيف يمهد لها ساعات لطيفة ويتملقها ، وكان مارو عدو كنشت . وأحس كنشت في اللقاء الأول بالفتور والنفور ، رغم أن العجوز لم تعارضه بكلمة واحدة . بل قبلت مقترحاته وأفكاره القائلة بالانتظار وعدم التعجيل بالبذر والتضحية والمواكب واستحسنتها ، لكن العجوز استقبلته استقبالا فاترا وعاملته كأنه قليل الرتبة ، ورفضت رغبته في أن يلقى الجدة الكبرى وفي أن يعد لها ترياقاً . وعاد كنشت حزيناً كمن حل به الفقر ، وتكون في فمه مذاق قبيح ، وراح يجتهد بطريقته أسبوعين في احداث جو يسمح بالبذر . لكن الطقس اتبع اتجاهاته الباطنية ووقف منه موقف العناد والتهكم والعداوة ولم يفلح معه سحر أو تضحية . وكان على صانع المطر أن يذهب مرة اخرى الى أخت الجدة الكبرى ليرجوها الصبر والتأجيل ، وتبين من فوره أنها قد تكلمت في أمره مع مارو التافه ، لأنها في أثناء الحديث عن ضرورة تحديد يوم البذر أو الأمر بمواكب التوسل ، مثلت دور العليمة واستعملت تعبيرات لا يمكن إلا أن تكون قد تعلمتها من مارو تلميذ صانع المطر السابق . والتمس كنشت لنفسه ثلاثة أيام أخرى ، فأعاد من فوره ترتيب الطالع كله وجعله أكثر خيراً وملاءمة وحدد ليوم البذر اليوم الأول من الربع الثالث للقمر . ووافقت العجوز وتلت كلمة الموافقة الرسمية ، وأعلن القرار على القرية كلها واستعد الناس لحفل البذر . وبعد أن بدت الأمور برهة كأنها عادت الى الانتّظام ، عادت الشياطين تظهر حنقها . فماتت الجدة الكبرى في اليوم السابق على اليوم الذي حدد لحفل البذر وتحتم تأجيل الحفل وجعل اليوم يوم دفن الجدة . كان حفل الدفن حفلاً من الطراز الأول ، اتخذ فيه صانع المطر مكاناً بعد أم القرية الجديدة وأخواتها وبناتها ، وارتدى حلة مواكب الابتهالات الكبيرة ووضع

على رأسه قبعة عالية مدببة من جلد الثعلب ، وسار الى جانبه ابنه تورو يساعده ويقرع له صاجات الخشب . وكُرِّمت الميتة وأختها التي خلفتها في مكانها تكريماً عظيماً . وكان مارو بطبوله يندفع الى أمام ويجد الاستحسان والتقدير . كانت القرية تبكي وتحتفل وتتمتع بالنحيب والعيد وبموسيقى الطبول والتضحية ، كان اليوم يوماً جميلاً في نظر الجميع ، لكن البذر تأجل . وكان كنشت يقف كريماً متمالكاً نفسه لكنه كان حزيناً حزناً كبيراً عميقاً ، فقد أحس كأنه وهو يدفن الجدة الكبرى يدفن معها خير أوقات حياته .

وبعد مضي وقت قليل تم البذر بناء على رغبة الجدة الجديدة ، وكانت له أبهة خاصة . وسار الموكب حول الحقول وبذرت الجدة الكبرى الحفنة الأولى من البذور في أرض الجماعة وكانت أخواتها تسير الى جانبيها وكل واحدة تحمل كيساً من البذور تغرف منه الكبرى . وتنفس كنشت الصعداء عندما تم الاحتفال .

لكن الثمرة التي بذرت في هذا الحفل لم تكن لتأتي ببهجة ولتنتج محصولاً ، فقد كان العام عام سوء . وأخذ الجو في هذا الربيع والصيف بعد أن انتكس إلى شتاء وبدأ بالثليج يعرض أفانين اللؤم والعداوة ، حتى في الصيف عندما غطى الحقول نبات هزيل قصير نحيل أتت الخاتمة واكتملت المصيبة بجفاف لم يسبق له مثيل ولم يسمع به انسان من قبل . كانت الشمس الأسبوع تلو الأسبوع تغلي في بخار أبيض من الحرارة ، فجفت الجداول الصغيرة ، وبقي من بركة القرية مستنقع صغير قذر تنعم به الفراشات وتنمو فيه جماعات الناموس الفظيعة ، وتشققت التربة الجافة تشققات عميقة ومرض المحصول ومات . وكان السحاب يتجمع من حين لآخر ولكن البرق لم يعقبه مطر ، واذا حدث أن سقطت قطرات من المطر ، فقد كانت ريح شرقية جافة تتبعها وتدوم أياماً طويلة ، وكثيراً ما كانت الصواعق تصيب الأشجار العالية وتحرق أوراقها الجافة ويندلع فيها لهيب عاجل .

وفي يوم من الأيام قال كنشت لابنه : «تورو ، لن ينتهي هذا الأمر على خير ، فإن الشياطين جميعاً تقف في وجهنا . ولقد بدأت المحنة بسقوط الأنجم ، ولسوف تأتي هذه المحنة على حياتي ، فيما أرى . وعليك أن تنتبه الى أمر : اذا ضُحي بي ، فقم على الفور بمهام منصبي ، واطلب أول ما تطلب أن يحرق جسمي ويرش رماده على الحقول كلها . وسوف يحل عليكم شتاء فيه جوع كبير ، لكن المصيبة ستنتهي . وعليك أن تلتفت الى ألا يمس أحد تقاوى الجماعة ، وأن تكون عقوبة مسها الاعدام . وستكون السنة القادمة خيراً من الحالية وسيقول الناس : هذا من فضل صانع الطقس الجديد » .

وساد القرية يأس ، وراح مارو يثير الفتنة ، حتى تعدد من وجهوا التهديد والسباب الى صانع المطر . ومرضت أدا واعتراها القيء والحمى ولزمت الفراش . ولم تستطع المواكب والتضحيات والجوقات الطويلة المؤثرة ذات الطبول أن تصلح شيئاً ، وكان كنشت يقودها لأن قيادتها كانت من صلاحياته ، ولكن الناس عندما كانت تتفرق كانت تترك كنشت يقف وحده وتتحاشاه كالمنبوذ . وعلم كنشت ما يرتب له ، وعلم أن مارو طلب من الجدة الكبرى أن يضحى به . وخطا كنشت الخطوة الأخيرة من أجل شرفه ومن أجل ابنه : فألبس تورو الحلة البهية وأخذه الى الجدة الكبرى وأوصى به أن يعين خلفا له واعتزل منصبه واقترح أن يُضحى به . ونظرت اليه برهة نظرة فيها فضول وتفحص ثم أومأت برأسها وقالت : نعم .

وتمت التضحية في اليوم ذاته ، ولو لم يكن مرض التهاب الأمعاء قد أقعد الكثيرين لكانت القرية كلها قد خرجت للاشتراك في هذا الاحتفال ، كذلك أدا كانت مريضة . أما تورو فقد سار بحلته الرسمية وعلى رأسه القبعة الطويلة المدببة وكادت ضربة شمس أن تودي بحياته وحضر الأعيان والكبراء وذوو الجاه إلا من كان منهم مريضاً ، وأتت الجدة الكبرى وأختاها الكبيرتان ، وأتى رئيس جوقة الطبول ، مارو . وسار وراء هؤلاء في غير نظام

جمع من الشعب . ولم يوجه أحد من الناس السباب الى صانع المطر السابق ، بل سار الجميع صامتين آسفين . واتجهت المسيرة الى الغابة ناحية فسحة مستديرة من الأرض كان كنشت قد حددها للتضحية به . وكان غالبية الرجال يحملون بلطهم الحجرية ليشتركوا في تجهيز حطب الحريق . فلما وصلوا الى الفسحة المستديرة أوقفوا صانع المطر في الوسط ووقفوا حوله في دائرة صغيرة ، ووقف حشد آخر بعيداً . ولما لزم الجميع الصمت الحائر المرتبك ، تكلم صانع المطر نفسه وقال : «لقد كنت صانع المطر فيكم ، ولقد أحسنت القيام بعملي سنين كثيرة ما استطعت الى ذلك سبيلاً . ولقد وقفت الشياطين كلها في وجهي ، وأصبح كل ما أفعله من أمور ينتهي الى الفشل . لهذا قررت أن أضحي بنفسي استمالة الشياطين . وسيكون ابني نورو صانع المطر الجديد . هيا اقتلوني ، وعندما أموت فاتبعوا تعليمات ابني اتباعاً دقيقاً . وداعاً! من سيقتلني ؟ أوصي بمارو الطبال أن يقتلني ، فهو أصلح رجل لهذه المهمة» .

وصمت كنشت ، ولم يتحرك من الناس أحد . ووقف تورو أحمر الوجه ، وعلى رأسه قبعة الفراء الثقيلة ، ينظر معذباً في الدائرة حوله وكان أبوه يزم فمه ساخرا . وأخيراً دبت الجدة الكبرى مغيظة بقدمها وأشارت الى مارو وصاحت فيه : «تقدم! تناول البلطة واقتله! » وتقدم مارو والبلطة بين يديه الى معلمه السابق ، وكان كرهه له قد زاد عن أي وقت مضى ، ورأى السخرية على الفم العجوز الصامت فتألم تألماً مريراً . ورفع البلطة وحركها الى أعلى فوق رأسه وثبتها مصوباً إياها الى الضحية ، وركز نظره الى كنشت ينتظر حتى يقفل عينيه . ولكن كنشت لم يقفل عينيه ، بل فتحها صامدة ونظر الى الرجل ذي البلطة نظرة تكاد تكون مجردة من التعبير ، أما ما تبينه الناس فيها من تعبير فكان شيئاً بين الحنو والسخرية .

وألقى مارو البلطة بعيداً وتمتم : «لن أقتله .» ثم اندس في جماعة

الوجهاء واختفى فيهم . وضحك البعض ضحكة خفيفة . أما الجدة الكبرى فكانت قد شحبت من الغيظ ومن حنقها على مارو الجبان التافه وعلى صانع المطر المعتد بنفسه . فلوحت لرجل من الكبار ، رجل وقور جليل ، كان يقف مستنداً على بلطته ويبدو كأنه خجل من هذا المنظر الكئيب . فتقدم وهز رأسه للضحية في تحية قصيرة ، فقد كانا يعرفان بعضهما البعض منذ الطفولة ، فأقفلت الضحية عينيها بإرادتها ، اقفلتها تماماً وأمالت الرأس قليلاً . وضرب الشيخ بالبلطة فهوت الضحية . ولم يستطع تورو صانع المطر الجديد أن يتكلم كلمة ، وراح يأمر باجراء اللازم بحركات منه . وبعد قليل كان الحطب قد أعد ووضع الميت فوقه . وكان أول ما عمله تورو هو اشعال النار بخشبتين مقدستين .

كاهن الاعتراف

حدث هذا أيام كان القديس هيلاريون على قيد الحياة وكان طاعناً في السن ، إذ كان يعيش في مدينة غزة رجل اسمه يوزفوس فامولوس عاش حياة الدنيا حتى بلغ الثلاثين من عمره أو تعداها ودرس كتب الكفر والالحاد ، وهدته امرأة كان يلاحقها الى دين الله والى حلاوة الفضائل المسيحية فقبل التعميد المقدس ، وتاب عن ذنوبه وجلس الى أقدام كهنة المدينة يستمع خاصة الى الحكايات الجميلة اللطيفة عن حياة الزاهدين الأتقياء في الصحراء ويتابع هذه الحكايات بشغف بالغ ، حتى سلك وهو في السادسة والثلاثين الطريق التي سبقه إليها القديسان بولس وأنطونيوس ونهج نهجها بعدهما عدد من الأتقياء . وسلم مابقى من ماله الى الشيوخ ليوزعوه على فقراء المدينة وودع أصدقاءه على باب البلدة وهام الى الصحراء مخلفاً وراءه الدنيا الجميلة ، وقاصداً الحياة الفقيرة التي يحياها المستغفرون التائبون .

وحرقته الشمس وقددته سنوات طويلة : كان يحك بركبتيه الحجر والرمل وهو يصلي ، ويصوم حتى مغرب الشمس ثم يفطر على قليل من البلح . وكان إذا أرّقته الشياطين بالإثارة والسخرية والغواية قهرهابالصلاة والاستغفار والتضحية بذاته ، على نحو ما نجد في قصة حياة الآباء الصالحين . وكان يقضي ليالي طويلة ينظر هاجعاً الى النجوم ، وكانت النجوم تثيره وتربكه ، فكان يقرأ طوالعها التي تعلّم قديماً أن يتبين فيها حكايات الآلهة ورموز الطبيعة البشرية ، وكان هذا علماً يكرهه الكهنة كل الكره ولكنه كان لايزال يشتغل به بخياله وفكره منذ تحوّل من الكفر الى الايمان .

كان الزهاد يعيشون في كل مكان يطلع فيه شيء من الخضرة على ماء بئر وسط البيداء القاحلة أو تبدو فيه واحة صغيرة أو كبيرة ، كانوا يعيشون اما منعزلين ، وإما مندمجين في جماعات صغيرة على نحو ما يرى الانسان في صورة بالكامبوسانتو عند بيزا[1] ويمارسون حياة الفقر وحب القريب ، ويتبعون «سبيل الموت» يريدون أن يموتوا من الدنيا ومن ذاتهم ليصلوا عبر الموت الى المخلّص ، الى النور ، الى الخلود . كانت الملائكة والشياطين تزورهم ، وكانوا ينظمون الأناشيد ، ويطردون الشياطين ، ويعالجون ويباركون ويلوحون كمن يريد أن يضطلع بمهمة اصلاح شهوة وغلظة وطمع عصور فاتت وعصورقادمة بموجة عارمة من التحمس والافراط في التخلي عن الدنيا . وكان نفر منهم أصحاب عادات قديمة جاهلية لتنقية النفس ، ومناهج وتمرينات عملية روحانية كانت متقدمة في آسيا منذ قرون عديدة ، لكن أحداً لم يكن يتكلم عنها ، والحق أن مناهج وتمرينات اليوجا لم يكن هناك من يعلمها ، وأنها كانت ممنوعة ضمن مامنعتها المسيحية من أمور الكفر والجاهلية .

وكانت حرارة هذه الحياة تكون في بعض هؤلاء التائبين هبات خاصة ، هبات الصلاة ، هبات العلاج بالمسح باليد ، التنبؤ ، طرد الشيطان ، الحكم والعقاب ، السلوى والمباركة . كذلك كانت في يوزوفوس هبة نائمة ، بدأت تزدهر في الوقت الذي بدأ شعره فيه يقل ويضعف . كانت تلك الهبة هي هبة الانصات . فكان إذ أتى أخ من بعض المضارب الأخرى أو أتى أحد أبناء الدنيا بضمير ثائر وحكى له عن أعماله وآلامه وما حدث له من إثارة وما ارتكب من ذنب ، وقص عليه قصة حياته وكفاحه من أجل الخير ثم فشله في الكفاح أو خسارته وتألمه وحزنه ، عرف كيف يحسن الانصات وكيف يفتح للمتكلم أذنه وقلبه وكيف ينهمك في قصته وكيف يتقبل ألمه وحزنه ويخفيه

---

(١) Camposanto, pisa. Paulus, Antonius, Josephus, Famulus, Hilarion

في نفسه وكيف يفرغ ما بالشخص ولا يتركه إلا وقد ارتاح . وقد تملكته بالتدريج بمضى السنين هذه الناحية من النشاط وحولته الى آلة في يدها ، حولته الى أذن يثق فيها الناس . كان يتصف بفضائل هي الصبر والسلبية المستحكمة والكتمان الشديد .وظل عدد الناس الذين يقدمون إليه يتزايد على الدوام ، يريدون أن يكشفوا له عما يختلج بصدورهم وأن يفرغوا ما بهم من آلام مكتومة ، وكان بعض هؤلاء بعد أن يقطعوا طريقاً طويلاً ليصلوا الى عشه المتخذ من الغاب لايجدون في أنفسهم بعد تحيته الحَريّة والشجاعة على الاعتراف ، فإذا هم يشيحون بوجههم ويخجلون ويضنون بذنوبهم ويتنهدون ويصمتون صمتاً طويلاً ، ساعات طوالا ، وكان هو يعامل كل واحد جامداً سواء تكلم راغباً أو كارهاً ، سلساً أو متعثراً ، سواء أخرج أسراره غاضباً أو اهتم بها .وكان يسوى بين الناس تسوية تامة ، يستوي لديه من يتهم الله ومن يتهم نفسه ، من يصغر ذنوبه ومن يكبرها ، من يعترف بقتل ومن يعترف بعدم العفة ، من يشكو من حبيبة غير مخلصة ومن يشكو من تضييع مستقبله . وكان لا يفزع اذا حكى له أحدهم عن مخالطة الشياطين ومصادفة ابليس ، وكان لا يغضب اذا أطال أحدهم في الكلام وقص أشياء كثيرة ثانوية وكتم الموضع الأصلى كتمانا بيّنا ، ولم يكن يضيق ذرعا اذا حكى له شخص عن ذنوب من نسج خياله . وكان كل ما ينفذ في سمعه من شكاو واعترافات واتهامات ومخاوف يلوح شبيها بالماء في رمال الصحراء فلم يظهر عليه أنه كان يحكم على ما يسمع أى حكم أو يحس بحنان أو احتقار للمعترف ، ومع هذا ، أو ربما لهذا السبب ، كان كل ما يعترف المعترفون له به لا يضيع في الفراغ . بل يتحور في القول والاستماع ويخف وينحل... وكان نادرا ما ينذر أو يحذر ونادرا جدا ما يعطى نصيحة أو أمرا ، فلم يكن هذا على ما يبدو من شأنه ، وكان المعترفون يحسون على ما يبدو بأن ذلك ليس من عمله . أما عمله فكان حفر الثقة والانصات الصبور

الجميل ، ومساعدة الاعتراف بهذه الطريقة على اتخاذ شكله الكامل ، وتحويل ما تكوّم وتجمّد في نفوس المعترفين الى تيار منساب يتلقاه ويحيطه بالصمت والكتمان . ولم يكن يفعل في نهاية الاعتراف الفظيع أو الاعتراف البسيط ، المتكلف أو المتعالي ، الاّ حض المعترف على الركوع بجانبه وتلاوة الصلاة ، ثم يطبع على جبينه قُبلة قبل أن يصرفه .لم يكن من مهمته تحديد أنواع من التكفيرات أو العقوبات ، وكان يحس أنه لم يؤت صلاحية النطق بالغفران على نحو ما يفعل القساوسة ، ولم يكن الحكم على الذنوب أو مواراتها من مهمته . وكان بِصمته يبدو كمن دفن مْا سمع وأسلمه للماضي . وكان بصلاته مع المعترف بعد الاعتراف يبدو كأنه يقبل ما سمع ويعترف به كأخ وشبيه . وكان بقبلته يبدو كأنه يبارك المعترف مباركة أخوية أكثر منها كهنوتية ، حنونة أكثر منها رسمية .

وانطلقت سمعته في المنطقة المحيطة بغزة ، وعرفه الناس عن بعد ، وكثيرا ما ذكر الناس اسمه مع اسم كاهن الاعتراف العظيم الجليل والزاهد ديون بوجيل[1] الذي سبقت شهرته اياه بعشر سنين وكان ذا قدرات مختلفة تماما ، فقد كان الأب ديون مشهورا بأنه يستطيع أن يقرأ في النفوس التي تطمئن اليه قراءة أكثر دقة وسرعة مما تستطيع الكلمات المقولة ، حتى انه كثيرا ما كان يفاجىء المعترف المتردد بالخطايا التي لم يعترف بها . كان هذا العارف بالنفوس الذى سمع يوزف عنه كثيرا من القصص العجيبة والذي ما كان يجرؤ قط على مقارنة نفسه به ، ناصحا كريما للنفوس الضالة وقاضيا عظيما ومعاقبا ومُنظّما : كان يفرض الكفارات وعقوبات النفس والحج وكان يعقد الزيجات ، ويحمل المتعادين على التصالح ، وكانت له سلطة كسلطة المطران . كان ديون يعيش قرب عسقلان ولكن أصحاب الحاجات كانوا يأتونه حتى من القدس ومن الأماكن البعيدة .

---

(١) Dion Pugil

كان يوزفوس فامولوس ، مثله غالبية الزهاد التائبين ، قد كافح سنين طوالا كفاحا شديدا مريرا . فاذا كان قد خلف حياة الدنيا وترك وراءه ماله وبيته وودع المدينة بمغرياتها الدنيوية الحسية المنوعة ، فقد أخذ معه نفسه ، وكانت نفسه تضم غرائز البدن والروح التي تدفع بالانسان الى المحنة والغواية ،فكافح ، أول ماكافح ، البدن وكان قاسيا صعبا معه ، فعوّده على الحر والبرد ، على الجوع والعطش ، على الندب والجروح ، حتى ذوى وجف . ولكن ما بقي فيه من هيئته القديمة كان لا يفتأ يأتي الى جسمانه النحيل ويؤرقه بالشهوات والنزوات والأحلام الحمقاء،ويفاجئه بها ويغيظه . ونحن نعلم أن الشيطان يهتم اهتماما خاصا بالهاربين من الدنيا وبالتائبين . فلما التمسه في بعض الاحيان الباحثون عن السلوى المحتاجون الى الانابة رأى في ذلك لمسة من لمسات المنة وأحس في الوقت نفسه شيئا خفف عليه حياته الخشنة : فقد تلقى معنى ومضمونا يتجاوز ما كان قد أوتي من قبل ، وتحمل بمهمة وأصبح يستطيع خدمة الآخرين وأصبح يستطيع خدمة الله كآلة من آلاته يستعيد بها اليه أرواح العباد . ولقد كان شعور يوزف في ذلك شعورا عظيما رفيعا بحق . ولكن مجريات الأمور بينت له أن نعم الروح تتبع ما في الأرض وأنها قد تصبح غوايات وحبائل . فكثيرا ما أحس اذا ما جاءه جائل على رجليه أو على مطية وقف أمام كهفه الصخرى يطلب شربة ماء ويرجوه أن يستمع الى اعترافه ، كثيراً ما أحس خفية بالرضا والفرحة وبالسرور من ذاته وبالغرور وحب الذات ، ففزع من هذا الاحساس عندما تبينه فزعا عميقا ، وكثيرا ما رجا الله راكعا على ركبيته أن يسامحه وتوسل اليه ألا يأتي اليه صاحب اعتراف بعد ذلك ، من الأكواخ المجاورة حيث الاخوة التائبون ومن القرى والمدائن ، بعد أن تبين أنه غير جدير بذلك . ولكنه كان اذا انقطع المعترفون عنه فترة لا يحسن حالا ، فاذا تبع الانقطاع عود وجد نفسه في خطيئة جديدة : وحدث أن

شعر عند الاستماع الى هذه أو تلك الاعترافات بخلجات من البرود أو الفتور أو الاحتقار تجاه صاحب الاعتراف . وتجشم هذه الصراعات وهو يطلق الزفرات وجعل أوقاتا يقوم فيها بعد الفراغ من الاستماع الى اعترافات المعترفين بتمرينات للتواضع وبالاستغفارات وحده . كذلك فرض على نفسه ان يعامل المعترفين جميعا كأخوة وان يعاملهم بالاحترام وان يزيد من الاحترام كما قلّ قدر المعترف ؛ وكان يتلقى المعترفين كأنه يتلقى رسلاً من الله أتوا اليه ليبتلوه .وهكذا وصل بمضي السنين ، في وقت جد متأخر ، الى نوع من الاتزان في التصرف وبدا لمن يعيشون قربه رجلا لا غبار عليه وجد في الله سلامه .

إلا ان السلام شيء حي لا بد أن ينمو أو يصغر ككل شيء حي ، لا بد ان يتكيف وأن يتجاوز المحن ويجتاز التغيرات والتحورات . كان هذا شأن السلام أيضا في حالة يوزفوس فامولوس ، كان سلاما ضعيفا ، يظهر تارة ويختفي تارة أخرى ،كان تارة يقترب كالشمعة يحملها الانسان في يده ، وكان تارة يبعد كالنجم في سماء الشتاء . وبمضى الوقت كانت هناك خطيئة وغواية من نوع خاص ، من نوع جديدتثقل عليه اثقالا وتنغص عليه حياته .ولم تكن تلك الحركة قوية عنيفة في العاطفة أو ثورة واشتداداً في الغرائز ، بل كانت على مايبدو ضد ذلك . كانت شعورا سهل الاحتمال في مراحله الأولى حتى ليكاد الرجل يغفله اغفالا ، شعورا بغير آلام وبغير حرمان ، كانت حالة نفسية سلبية تتمثل في اختفاء الفرحة ونقصانها وتواريها تماما . وكما أنه توجد أيام لا تسطع فيها الشمس ولا ينهمر فيها المطر ، بل تظل فيها السماء ساكنة منطوية على نفسها ، رمادية ، لا تسود ، حارة مطبقة ، لا تتوتر الى درجة العصف ، كذلك كانت أيام يوزف المتقدم في السن ، كانت أيامه هي اصباحات لا يمكن تفريقها عن الأمسيات ، أعياد لا يمكن تفريقها عن الأيام العادية ، ساعات من الهمة لا

يمكن تفريقها عن ساعات الفتور والخور الا قليلا ، كانت أيامه تنساب كسولة في تعب مشلول وفتور . واعتقد الرجل ان ما به مصدره شيخوخته ،وحَزن . وقَد حزن لأنه كان يتوقع أن تأتيه شيخوخته التدريجية من خبو نار غرائزه وانفعالاته بصفاء ويسر في حياته وأن تتقدم به خطوة نحو الانسجام الذي يتوق اليه والى راحة النفس الناضجة التي تمناها ، فلما بدت الشيخوخة على غير ما كان يرجو ، ولم تأته الا بهذا البوار المتعب الحزين المطبق ، وبهذا الشعور بالتخمة المستعصية . كان يحس بالتخمة من كل شيء : مجردالوجود ، من التنفس ، من نوم الليل ، من الحياة في كهفه على حافة الواحة الصغيرة ، من حلول المساء ومن حلول الصباح ، ومن عبور المسافرين والحجاج وراكبي الجمال والحمير ،وخاصة من أولئك الذين يقصدونه بقدومهم وزيارتهم ،أولئك الناس من ذوي الغباء والخوف والايمان الصبياني الذين يلتمسونه ليقصوا عليه حياتهم وذنوبهم ومنغصاتهم ووساوسهم واتهاماتهم لأنفسهم . وتصور في بعض الأحيان أنه كما أن النبع المائي الصغير في الواحة ينساب في جدول ثم يسير سيرا قصيرا يجف بعده ويموت في الرمال الجرداء كذلك اعترافات المعترفين جميعاً وحكاياتهم لذنوبهم ولأحداث حياتهم ووخزات ضمائرهم ، كبرت أو صغرت ، جدت أو هزلت تنساب في أذنه بالعشرات والمئات وتتجدد دائما كما تنساب مياه النبع في الرمال الجرداء . لكن اذنه لم تكن ميتة كرمل الصحراء ، بل كانت حية ولم تكن تقوى على الاستمرار في الشرب والبلع والتجرع لقد أحست بالتعب وبأنها قد أسيء استخدامها وقد ملئت بما يزيد على طاقتها ، وتمنت أن يتوقف انسياب الكلمات وخريرها وانسياب الاعترافات والهموم والشكاوى وأن يأتي السكون والموت والهدوء فيحتل مكان هذا السيل المنهمر الذي لا ينتهي الى نهاية . نعم ،لقد اشتاق الى نهاية ، لقد حل به التعب ، لقد زاد الأمر وفاض وأصبحت حياته بلا معنى وبلا قيمة ، بل لقد

أحس في بعض الأحيان بوسوس له أن يضع حدا لحياته وأن يعاقب نفسه ويأتي عليها ، وأن يفعل ما فعل يهوذا الخائن ، فيشنق نفسه : وكما هرب إليه الشيطان في مراحل مبكرة من حياته الانعزالية التائبة رغبات وتصورات وأحلام وشهوات حسية دنيوية ودسها في نفسه كذلك أتاه الآن يبتليه بتهيؤات انتحارية حتى كان لايمسك غصن الشجرة الا ويختبر صلاحيته في تحمل جثته كمنتحر ، ولا ينظر الى صخرة مائلة في المنطقة الا ليتبين ما اذا كانت تصلح ليهوي عليها الى الموت . ولقد قاوم الغواية ووقف في وجهها ولم يضعف ، ولكنه كان يعيش يومه في لهيب من كراهية الذات والرغبة في الموت ، وثقلت عليه العيشة وأصبحت الحياة شيئا لا طاقة له على احتمالها .

الى هذا الحد وصل يوزف . وحدث ذات مرة كان يقف على مرتفع من تلك المرتفعات الصخرية ، فرأى عن بعد بين السماء والأرض شخصين أو ثلاثة أشخاص في حجم ضئيل ، واعتقد أنهم من المسافرين أو الحجاج ، أو من أولئك الذين يقصدونه للاعتراف ـ وفجأة تملكته حاجة قوية لا تقاوم تدفعه الى الفرار عاجلا والى ترك المكان والانصراف عن هذه الحياة . ولقد تملكته هذه الحاجة تملكا عنيفا حتى تغلبت على أفكاره ومخاوفه كلها وأطاحت بها ، وكان من الطبيعي أن تساوره الأفكار والانتقادات والمخاوف ، فكيف يمكن لتائب تقي أن يتبع بعض الدوافع دون أن تعتريه خلجات الضمير ؟ فجرى وعاد الى كهفه ، الى مكان قضى فيه سنين طويلة من الكفاح ، مكان شهد الكثير من الانتفاضات والهزائم وفي سرعة خالية من التروي أخذ حفنتين من التمر وكرعة من الماء ووضعها في خرج قديم علّقه على كتفيه وتناول عصاه وترك السلام الأخضر في داره ، وراح هاربا ثائرا ، هاربا من الله ومن الناس ، هاربا مما كان يعتبره أعظم خير ويعتبره عمله ومهمته . وسار في مبدأ الأمر مسرعا كالطريد كما لو كانت

الأشخاص التي تبينها في الأفق لمطارديه وأعدائه . ولكن السرعة ما لبثت أن هدأت في الساعة الأولى من سيره ، وأحس من الحركة بتعب لطيف ، وفي الوقفة الأولى التي ركن اليها لم يتناول طعاما ، لأنه اعتاد عادة مقدسة ألا يتناول طعاما قبل مغرب الشمس ، وبدأ عقله الذى اعتاد على التفكير في العزلة ينشط ويمس تصرفه المندفع ولا يرفضه رغم ما ظهر فيه من بعد عن التعقل بل ينظر اليه مستحسنا لأنه وجد فيه للمرة الأولى منذ وقت طويل عملا بريئاً لا غبار عليه . كان تصرفه هربا مفاجئا بغير سابق تفكير ولكنه كان هربا لا يتسم بسوء أو عار . وقد ترك مكانا لم يكن قد نما النمو الكافي لشغله . وقد اعترف بهربه لنفسه ولمن استطاع أن ينظر اليه بفشله ، وبأنه صرف النظر عن معركة لا جدوى منها وأقرّ بأنه المغلوب المهزوم فيها . وقد وجد عقله أن هروبه هذا ليس عملا عظيما بطوليا قدسيا ، ولكنه عمل صريح يبدو أنه كان لا مفر من القيام به . وتعجب الآن من أنه لم يقم بالهرب الا متأخرا هذا التأخير الطويل المسرف في الطول وتعجب من أنه تحمل ما تحمل هذا الوقت الطويل المسرف في الطول . وأحس الآن بأن صراعه وعناده الذي داوم عليه في مكانه المفقود كان غلطة ، كان معركة وتقلصا من أنانيته ، من بقايا الرجل التي ظلت به ، وتبين الآن أنه فهم لماذا أدى هذا العناد الى نتائج خبيثة شيطانية الى هذا التمزق والفتور النفسى والى الهوس الشيطاني بالرغبة في الموت وتحطيم الذات . صحيح أن المسيحى لا ينبغى أن يقف من الموت موقف العدو ، وصحيح أن التائب النائب القديس ينبغي أن يقدم حياته ضحية ولا يبخل بها ، ولكن التفكير في الانتحار كان تفكيرا شيطانيا من أوله الى آخره ، كان تفكيرا لا يمكن أن ينشأ الا في نفس انسان عليها حفيظ من الجن وليس من الملائكة . وجلس الرجل برهة ضائعا مأخوذاً أخذته هزّة شديدة وبدت له حياته التي ودعها على بعد أميال طويلة قطعها جائلا واضحة ماثلة

في شعوره ، حياة رجل دبّت فيه الشيخوخة وهو يلهث وييأس ويجد أنه أخطأ الهدف وتعذب عذابا شديدا من جراء الغواية الفظيعة التي كانت توسوس له أن يشنق نفسه كخائن المسيح . فاذا كان الآن يفزع فزعا شديدا من الانتحار ، فقد كان فزعه يختلط ببقية من معرفة قديمة من عصور الجاهلية قبل المسيحية تحيط بعادة عتيقة للتضحية بالانسان ، كان يختار لها الملك أو القديس أو أفضل أهل القبيلة ،كثيرا ما كان يقتل المختار نفسه بيده .ولم يكن ما يفزعه هو أن عادة مقيتة من عادات العصور القديمة الجاهلية دوت في نفسه ، وانما أفزعه تصوره موت المسيح على الصليب كتضحية بشرية قام بها المسيح عمدا . والحقيقة أنه أن أحس التذكر كان في خلجات رغبته في الانتحار شيء من هذا التصور ، كان فيها دافع متوحش عنيد شرير الى أن يضحي بنفسه وأن يقلد المسيح تقليدا غير مسموح به أو أن يلمح بطريقة غير مسموح بها الى أن المسيح لم يوفق تماما في مهمة التخليص . وفزع فزعا شديدا عندما فكرّ هذه الفكرة ، لكنه أحس أنه قد أفلت من هذا الخطر .

وظل يتأمل طويلا في أمر ذلك التائب يوزف الذى قد صار إليه والذى لجأ الى الهرب بدلا من تقليد يهوذا أو المصلوب ، وأسلم نفسه بذلك من جديد الى يد الله . ونما في نفسه الخجل والحزن كلما زاد وضوح تصوره للجحيم الذى هرب منه ، واندفعت المصيبة الى حلقه شبيهة بعض خانق تحول الى دافع لا سبيل الى احتماله وانتهى فجأة نهاية مهدئة له اذ انفجر باكيا وانهمرت الدموع من عينيه فخففت عنه تخفيفا بليغاً! . آه لطالما استحال عليه البكاء! انهمرت الدموع الغزار ولم تستطع العينان رؤية شيء ، ولكن الاحساس بالاختناق المميت زال عنه ،فلما عاد الى نفسه وأحس بطعم الملح على شفتيه وتبين أنه يبكي اعتقد أنه عاد طفلا مرة ثانية ولم يعد يعرف عن المنغصات شيئا . فابتسم وخجل قليلا من بكائه ثم هب واقفا واستأنف

تجواله . هناك تبين أنه كالصبي وأنه لم يعد فيه كفاح ولا ارادة ، وأحس تخفيفا وكأن هناك من يقوده ، وكأن صوتا خيرا بعيدا يناديه ويجتذبه ، كما لو كانت رحلته عودة الى الوطن لا هربا . وتعب حتى العقل تعب وسكت أو استراح أو توارى كشيء يمكن الاستغناء عنه .

وفي مكان الماء الذي لاذ به يوزف ليقضي الليلة ، كانت قافلة من الجِمال تستريح ، صرف يوزف النظر عن الدخول مع المسافرين في كلام واكتفى بتحيتهم بتلويحة من يده ، فقد كان بينهم امرأتان . فلما أظلمت الدينا أكل بعض التمر وصلى ورقد للنوم ، فسمع حديثا بين رجلين ، أحدهما شاب والآخر شيخ ، كانا يرقدان قريبا منه . وكان الحديث الذى سمعه جزءاً صغيرا من حديث طويل دار بينهما وحال الهمس دون تمكنه من الاستماع الى البقية . لكن الجزء الذى سمعه أثار اهتمامه وانتباهه وقضى نصف الليلة يفكر في أمره .

سمع صوت الشيخ يقول : «من الخير أنك تريد أن تذهب الى رجل تقي لتعترف له . فهؤلاء الرجال يحيطون بالكثير من الامور ، ويفهمون أكثر من أكل الخبز ، بل ان منهم من يعرف السحر ، فاذا صاح في السبع الثائر بكلمة صغيرة ، انكمش السبع وضم ذيله اليه وانصرف . ان لهم القدرة على ترويض السباع ، صدقنى ، بل لقد حفر السباع مرة قبر رجل قديس روّضهم ، حفروا القبر عندما علموا بوفاته ثم دفنوه وغطوه بالتراب تغطية جميلة ، وظلوا ليلا ونهارا يقفون على قبره لحراسته اثنين اثنين زمنا طويلا . وليست السباع وحدها هى ما يروضه هؤلاء الناس . فلقد روض أحدهم قائدا رومانيا كان وحشا هائلا وفاجرا من كبار الفجار في عسقلان أخذه الى الصلاة ، وألان قلبه الشرير ، حتى صغر الرجل وخاف وأصبح كالفأر الهارب ، يبحث عن حجر يتوراى فيه . ولم يعد انسان يعرفه بعد ذلك لفرط صغره وسكونه . الا أن الرجل مات بعد ذلك بقليل ، وهذا شيء يبعث على التفكير» .

ـ « القديس ؟ » .

ـ « لا . القائد . وكان اسمه فارو[1] . فمنذ أنبه الرجل القديس وأيقظ ضميره انهار بسرعة وأصيب مرتين بالحمى ومات بعد ثلاثة أشهر . ولم يكن موته على أية حال خسارة . ولكنى كثيرا ما فكرت في أن الزاهد لم يطرد منه الشيطان فقط ، بل لا بد أنه قرأ عليه تعويذة خسفت به الأرض » .

ـ « أيفعل هذا الرجل على هذه الدرجة من التقوى ؟ هذا ما لا أستطيع تصديقه » .

ـ « صدق أو لا تصدق يا عزيزي . لكن الرجل كان منذ أخذه القديس قد تحور ، ولا أرى أن أقول قد سحر . فلما مرت ثلاثة أشهر ... » .

ساد الصمت برهة . وعاد الأصغر يقول : « هناك زاهد تائب يسكن هنا في مكان ما قريب ، ويعيش على نبع صغير حياة منعزلة على الطريق الى غزة واسمه يوزفوس ، اسمه يوزفوس فامولوس . سمعت عنه الكثير » .

ـ « هكذا . وماذا سمعت ؟ » .

ـ « سمعت أنه تقي تقوى مفزعة وأنه لا ينظر الى امرأة أبدا . حتى اذا مرت بعض الجِمال وكانت عليها امرأة قاعدة ، حتى لو كانت متحجبة بحجاب سميك ، فانه يدير ظهره ويتوراى من فوره الى كهفه . ويذهب اليه اناس كثيرون ، كثيرون جدا ، للاعتراف » .

ـ « لا يمكن أن يكون أمره عجيباً الى هذه الدرجة ،والا لكنت سمْعت به أنا أيضا . وماذا يستطيع صاحبك فامولوس غير ذلك ؟ » .

ـ « هه ، الناس يذهبون اليه للاعتراف ، ولو لم يكن طيبا عليما لما جرى الناس اليه . ويقولون عنه انه لا يكاد ينطق بكلمة ، وأنه لا يوبخ ولا يؤنب ولا يعاقب ولا يفعل شيئا مما شاكل ذلك ، وانه رجل لطيف بل وخجول » .

---

(١) varro

ـ «نعم ، فماذا يفعل اذن اذا كان لا يوبخ ولا يعاقب ولا يفتح فاه ؟» .

ـ «يقال انه ينصب ويزفر زفرات عجيبة ، ويرسم الصليب » .

ـ «هه ، ان لكم قديسا عجيباً بسيطاً في هذه الناحية! أرجو ألا تكون من الحمق بحيث تجري وراء هذا الرجل الصامت» .

ـ «بل هذا هو ما أنوي فعله . ولسوف أجده ، وما مكانه ببعيد . ولقد رأيت هذا المساء أخا فقيرا يقف بهذا المشرب ، فلأسألنّه غدا ، فان هيئته تدل على أنه من أهل الله» .

فثار الشيخ : «دع زاهد النبع يقبع في كهفه! فإنه رجل كل ما عنده أنه ينصب ويزفر ويخاف النساء ولا يستطيع غير ذلك! لا ، سأقول لك الى من تذهب . حقيقة أن مكانه بعيد عن عسقلان بكثير ، ولكنه أحسن كهنة الاعتراف اطلاقا . اسمه «ديون» ويطلقون عليه اسم ديون بوجيل أي المصارع لأنه يصارع الشياطين جميعا ، واذا أتاه رجل يعترف له بأفعال قبيحة فانه يا عزيزي ، لا يصمت ولا يزفر ، بل يعالج العلاج الشافي الناجع . يقولون انه ضرب البعض ضربا مبرحا ، وجعل البعض يبحثون على الحصى ليلة كاملة بركبتين عاريتين ثم كلفهم بالتبرع للفقراء بأربعين قرشاً . انه رجل بمعنى الكلمة يا صديقي ، اذهب اليه وسترى عجبا ، انه عندما ينظر اليك ترتعد عظامك وتحس بنظراته تنفذ فيك وتخترقك . انه رجل لا يزفر ، بل رجل يفهم ما يفعل ،فاذا كان هناك شخص لا يستطيع النوم هادئا أو يرى أحلاما مزعجة أو تهيؤات أو ما شاكل ذلك وذهب اليه فانه كفيل بأن يعيده الى صوابه . ولست أقول لك هذا ترديدا لكلام سمعته من ثرثرة النساء ، بل أقوله لك عن خبرة ، فقد كنت عنده بنفسي . نعم كنت عنده أنا نفسي ، أنا العبد المسكين التمست ديون ، المصارع ، الولي . ذهبت اليه مسكينا بائسا أحمل في ضميري العار والدنس ، وانصرفت عنه صافيا نظيفا كنجم الصباح ، أقسم على هذا . لا تنس : اسمه ديون ولقبه بوجيل . التمسه في

أقرب فرصة وسترى عجبا . ولكم طلب منه النصح مديرون وشيوخ ومطارنة » .

فقال الآخر : « نعم سأفكر في الأمر إن أتيت مرة الى تلك المنطقة . أما اليوم فهو اليوم ، وهنا هو هنا ، ومادمت أنا اليوم هنا ، وما دام بوزفوس في مكان قريب ، وما دمت قد سمعت عنه خيرا كثيرا... » .

ـ « خيرا كثيرا! ماذا أوقعك في هذا الفامولوس الى هذا الحد ؟ » .

ـ « أعجبنى فيه أنه لا يؤنب ولا يوبخ . هذا شيء يعجبنى . ولست قائدا ولست مطرانا ، أنا رجل من عامة الناس ، أنا رجل أقرب الى الخجل مني الى أية صفة أخرى ، ولا قِبل لي على احتمال النار والكبريت . وأصدقك القول أنني لا أجد غضاضة في أن يعاملني الرجل برقة ولطف ، هذه طبيعتي » .

ـ « هذا شيء يحبه البعض . المعاملة الرفيعة! عندما تكون قد فرغت من الاعتراف والتفكير وتأدية العقوبة وتطهرت ، فلا بأس من أن يعاملك كاهن الاعتراف معاملة رفيقة ، أما عندما تكون قذرا منتنا كابن آوى تقف أمام كاهن الاعتراف والقاضي! » .

ـ « شأنك . لا يصح أن يرتفع صوتنا ، فالناس يريدون أن يناموا » .

وفجأة ضحك ضحكة ساخرة مسرورة كتمها بين أسنانه وقال « لقدحكى لي البعض عنه شيئا مضحكا » .

ـ « عمن ؟ » .

ـ « عنه ، عن الزاهد يوزفوس . فقد اعتاد عندما يفرغ المعترف من حكاياته أن يحييه ويباركه ويطبع على خده أو جبينه قبلة للوداع » .

ـ « هكذا ، أيفعل هذا ؟لقداتخذ عادات مضحكة فعلا » .

ـ « وهو خجول مع النساء كما علمت . ويحكى أن عاهرة من الناحية تزيت بزي الرجال وذهبت اليه فلم يلحظ شيئا وسمع حكاياتها الكاذبة الى آخرها ،فلما فرغت من الاعتراف انحنى أمامها وقبلها على رؤوس الأشهاد » .

وبدأ الشيخ يضحك ضحكة عاتية فقال له الشاب : «هست! هست!» ، ولم يسمع يوزف بعد ذلك الا ضحكة مكتومة استمرت برهة .

ونظر الى السماء فوجد الهلال يقف حادا رفيعا وراء تيجان النخيل وارتعد من برودة الليل . يا للعجب! لقد صوره ،كالمرأة الممسخة ، حديث المسافرين الليلي صورة برزت فيها أمام عينيه هينته وبرز فيها دوره الذى تنكر له .هكذا اذن سمحت احدى العاهرات لنفسها بالعبث به على النحو . ولكن هذا ليس أكثر ما في الامر من سوء ، وإن كان فيه ما يكفيه من السوء . المهم أنه فكّر طويلاً في حديث الرجلين الغريبين . ثم غلبه النعاس في وقت متأخر جدا ،ونام لأنه وصل في تفكيره الى شيء أصبح النوم معه ممكنا . وصل به تفكيره الى نتيجة وقرار نام عليهما الى مطلع النهار هادئا .

كان قراره قرارا لم يستطع أصغر الاثنين أن يتخذه ، قرارا باتباع نصيحة أكبرهما والتماس ديون ، الملقب ببوجيل ، وكان قد سمع به منذوقت طويل تملكه اليوم ما أنشده الأكبر من مدح له . لا بد أن كاهن الاعتراف وقاضي الأرواح صاحب النصائح الشهير هذا سيجد له نصيحة وحكما وعقوبة وطريقا . فقرر أن يضع نفسه بين يديه ويعتبره ممثلا لله ويقبل راضياً ما سيأمره به .

وفي اليوم التالى ترك المحطة وكان الاثنان نائمين وتجول تجوالا عنيفا بلغ به منطقة كان يعلم أن جماعة من الأخوة الأتقياء يقطنونها وكان يريد أن يتجه عن طريقها الى عسقلان .

ولما وصل في المساء تماثلت له بقعة صغيرة خضراء بهيئة الواحة ، رأى الأشجار تشرع هاماتها ،وسمع صوت ماعز ، واعتقد أنه يرى في الظل الأخضر خطوط أسقف أكواخ وأنه يقترب من بشر ، فلما اقترب أحس كأن نظرة وقعت عليه . فوقف وراح ينظر حواليه فرأى تحت الأشجار الأولى شخصا جالسا مستندا الى جذع شجرة ، رجلا مسنا ذا لحية بيضاء بلون الثلج ووجه

جليل قاس جامد ، ينظر اليه ويبدو عليه أنه كان ينظر اليه منذ فترة . كانت نظرة الرجل الهرم ثابتة حادة خالية من التعبير كأنها نظرة رجل معتاد على الملاحظة ولكنه غير كلف بالفضول والمواساة ، رجل يدع الناس والأشياء تقترب منه فيسعى عندئذ الى التعرف عليها دون أن يجتذبها أو يدعوها .

فقال يوزف : «الصلاة على يسوع المسيح!» فرد الشيخ بهمهمة .

فأردف يوزف : «بعد اذنك ، هل أنت غريب مثلي أم من سكان هذا المكان الجميل ؟» .

فرد ذو اللحية البيضاء : «غريب» .

- «فربما استطعت أيها الجليل أن تقول لي هل يمكن بلوغ طريق عسقلان من هنا ؟» .

فقال الشيخ : «ممكن» . ثم قام متثاقلا يحرك أعضاءه الجامدة فاذا هو عملاق نحيل . وقف ينظرالى الأفق البعيد الخالي المترامي ، فأحس يوزف أن هذا العملاق العجوز قليل الميل الى التحادث ، ولكنه أراد أن يتجرأ فيلقي عليه سؤالا أخيرا .

فقال بأدب : «هل تسمح لي أيها الجليل بسؤال وحيد» . ورأى عيني الرجل ترجعان من الأفق البعيد وتنظران اليه ببرود واهتمام .

- «هل تعرف المكان الذي يقيم فيه الأب ديون ، الملقب بديون بوجيل ؟» .

فقطب الغريب حاجبيه قليلا وازدادت نظرته برودا .

وقال موجزا : «أعرفه» .

فصاح يوزف : «تعرفه ؟» «اذن فقل لي عليه فان رحلتي متجهة اليه ، الى الأب ديون» .

ونظر اليه الرجل الطويل المسن نظرة فاحصة من عليائه وتركه مدة طويلة ينتظر الرد . وعاد الى جذع شجرته فجلس متثاقلا علي الأرض وأشار

الى يوزف بيده اشارة تأمره بالجلوس كذلك . فأطاع يوزف الاشارة ،وأحس عند قعوده بالتعب الشديد في أعضائه ثم مالبث أن نسى التعب وركز اهتمامه كله على الشيخ . كان الشيخ يلوح غارقا في التفكير وعلى وجهه الجليل تعبيرعن ألم قديم وحيد يحبسه كبرياؤه وجلاله .

ومضى وقت طويل الى أن اتجهت اليه نظرة الشيخ الجليل مرة ثانية . وراحت هذه النظرة تفحصه بحدة شديدة . وفجأة ألقى الشيخ سؤالا في لهجة الأمر . «من أنت يا رجل ؟» .

فقال يوزف : «أنا تائب ، ولقد عشت أعواما طويلة عيشة المعتزلين» .

- «هذا واضح . ولكني أسالك من تكون ؟» .

- «اسمى يوزف ، ولقبي فامولوس» .

فلما قال يوزف اسمه قطب الشيخ ، الذي ظل ساكنا لا يتحرك ، حاجبيه تقطيبا شديدا حتى تورات عيناه برهة ، فقد بدا متأثرا مفزوعا أو مخيب الظن عند سماع رد يوزف . أو ربما كان التقطيب نتيجة لتعب شديد في العينين ، أو لفتور الانتباه أو لعارض بسيط من عوراض الوهن ، كما يحدث للمسنين . المهم أنه بقي في سكوته التام ، يطبق جفنيه برهة ، فلما فتح عينيه لاحت نظراته مختلفة أو لاح ، ان أمكن هذا ، كأنه ازداد شهخوخة ، ووحدة وتحجرا وانتظارا . وفرج شفتيه ببطء ليسأل : «لقد سمعت عنك . هل أنت من يذهب الناس اليك للاعتراف ؟» .

فرد يوزف بالايجاب مضطربا يحس بتعرف الرجل عليه كأنه تعرية وتجريد له ويخجل للمرة الثانية من الالتقاء بسمعته وشهرته . وعاد الشيخ يسأل بطريقته الموجزة : «وتريد أن تلتمس ديون بوجيل ؟ فماذا تريد منه ؟» .

- «أريد أن أعترف له» .

- «وماذا ترجو من وراء ذلك ؟» .

ـ «لا أعرف . ولكني أثق فيه ، بل انه ليبدو لي كأن هناك صوتا أو توجيها من أعلى هو الذى يبعث بي إليه» .

ـ «وماذا بعد أن تنتهي من الاعتراف إليه ؟» .

ـ «سأفعل ما يأمرني به» .

ـ «هب أنه نصحك أو أمرك بشيء خاطئ ؟» .

ـ «لن أبحث فيما اذا كان أمره خطأ أوغير ذلك ، سأطيع» .

فلم ينبس الشيخ ببنت شفة… وكانت الشمس قد غاصت غوصا عميقا في الأفق ، وصاح طائر في أوراق الشجرة . ونهض يوزف عندما وجد الشيخ يلوذ بالصمت . وعاد مرة ثانية الى موضوعه في خجل .

ـ «لقد قلت انك تعرف المكان الذي يمكنني أن أجد فيه الأب ديون . فهل لي أن أرجوك أن تدلني عليه وتصف لي الطريق إليه ؟» .

فزم الشيخ شفتيه في ابتسامة خافته وسأله سؤالا رفيقا : «هل تعتقد أنه سيرحب بك ؟» .

وفزع يوزف من السؤال فزعا عجيبا ولم يرد بشيء بل وقف محتارا . ثم قال : «فهل لي أن آمل أن أراك مرة ثانية ؟» .

فحرك الشيخ يده حركة تنم عن التحية وأجاب : «سأنام هنا وسأظل مقيما الى بعد شروق الشمس بقليل . اذهب الآن فانك تعبان جوعان» .

فحيا يوزف تحية الاحترام وأتى القرية الصغيرة عند حلول الشفق .

كان يعيش فيها ، عيشة شبيهة بعيشة الأديرة أناس يقال لهم المعتزلون وهم مسيحيون من مختلف المدن والمناطق اتخذوا لهم في هذه العزلة مسكنا واستسلموا . بلا منغصات ، لحياة بسيطة صافية من السكون والتأمل . وكانوا يحصلون على الماء والطعام والفراش . فلما حل بهم يوزف لم يثقلوا عليه بالسؤال والحديث فقد لاحظوا ما به من تعب . وقام أحدهم فصلى صلاة المساء واشترك الجميع مع سجدا وردوا عليه في ختامها آمين . والحق

أنه لو نزل في هذه الجماعة في وقت غير هذا الوقت ، لاهتم بأمرها ولوجد فيها خبرة وبهجة ، ولكنه الآن يحمل شيئا واحدا في نفسه . وفي الصباح المبكر أسرع يوزف عائدا الى الرجل الهرم حيث تركه بالأمس . فوجده يفترش الأرض وينام ملفوفا في حصير رقيق فجلس بعيدا تحت الأشجار ينتظر صحوه . وما لبث النائم أن قلق واستيقظ وخرج من الحصير ونهض متثاقلا ومدد أعضاءه الجامدة ثم ركع على الأرض وأدى الصلاة .فلما وقف ، اقترب منه يوزف وانحنى ساكتا .

فسأل الغريب : «هل أكلت ؟» .

ـ «لا . فقد اعتدت ألا آكل في اليوم الا مرة واحدة بعد غروب الشمس . هل أنت جوعان أيها الجليل ؟» .

ـ «كلانا على سفر ، ولسنا شبابا ، وخير لنا أن نأكل لقمة قبل أن نستأنف الرحيل» .

ففتح يوزف خرجه وقدم اليه شيئا من تمره . وكان قد تلقى من الطيبين الذين أمضى الليل فيهم رغيفا من البرغل فاقتسمه مع الشيخ .

فلما فرغا من الطعام قال الشيخ : «يمكننا أن نذهب» .

فصاح يوزف مسرورا : «هه ، هل نرحل معا ؟» .

ـ «لا شك . فقد رجوتني أن أقودك الى ديون . تعال» .

فنظر اليه يوزف مندهشا مسروراً وصاح قائلاً : «يا لطيبتك!» وأراد أن يسترسل في الشكر والثناء فأسكته بحركة خشنة من يده .

وقال «الطيب هو الله وحده . لنذهب الآن ، ولنرفع الكلفة بيننا ، فما شأن المراسيم والتأدب المفرط بين اثنين من الزاهدين ؟» وخطا الرجل الطويل وتبعه يوزف . وكان النهار قد طلع . وبدا الدليل كأنه يعرف الاتجاه والطريق معرفة أكيدة وقال لصاحبه انهما سيصلان قرب الظهر الى مكان ظليل سيستريحان فيه ساعات القيظ . ولم يدر بينهما حديث آخر في الطريق .

فلما بلغا المكان الظليل بعد ساعات من الحر استراحا في ظل صخور مشقوقة وراح يوزف يتحدث الى دليله . فسأله كم يوما من السير أمامهما حتى يبلغا ديون بوجيل .

فقال الشيخ : «هذا من شأنك» .

فصاح يوزف : «من شأني ؟ لوكان هذا من شأني لوددت أن أقف اليوم بين يديه» .

وبدا على الشيخ أنه غير ميال للحديث الآن .

وقال مقتضبا : «سنرى» . ثم رقد على جانبه وأغمض عينيه . ولم يشأ يوزف أن ينظر اليه في تعاسة فانتحى جانبا ورقد فغلبه النعاس على غير رغبة منه ، لأنه قضى أغلب الليلة بلا نوم . وأيقظه الدليل لما جاء وقت الرحيل .

وفي وقت بين العصر والمغرب بلغا مكانا فيه ماء وشجر وكلأ ، فشربا واغتسلا وقرر الشيخ أن يبقيا هنا . لكن يوزف لم يكن موافقا واعترض في خجل .

قال : «لقد قلت لى اليوم ان موعد وصولي الى الأب ديون من شأني . وأنا مستعد أن أسير الساعات الآن ان استطعت أن أبلغه اليوم فعلاً» .

فقال الآخر : «هه لا ، لقد قطعنا اليوم مرحلة كافية» .

وراح يوزف يقول : «عفوا ، ولكن ألا تفهم تلهفي ؟» .

ـ «أفهمه . ولكنه لا يفيد شيئا» .

ـ «فلماذا قلت اذن انه شأني ؟» .

ـ «هو كما قلت . فاذا ما تأكدت من نيتك في الاعتراف واستعددت ونضجت للاعتراف ، فستستطيع أن تعترف» .

ـ «اليوم ؟» .

ـ «اليوم» .

ونظر يوزف مندهشا في الوجه الساكن العجوز .

فصاح مأخوذا : «هل هذا ممكن ؟ هل أنت الأب ديون ؟» .

فأوما الشيخ برأسه .

وقال له بلطف : «استرح هنا تحت هذه الأشجار ، ولكن لا تنم بل استجمع نفسك ، وأنا أيضا أريد أن أستريح وأن أستجمع نفسي ثم قل لي ما تريد أن تقوله لي» .

وهكذا رأى يوزف نفسه فجأة عند هدفه ، وتعجب من أنه لم يتعرف على الرجل الجليل ويفهمه قبل الآن بعد أن سار بجانبه يوما بطوله . واعتزل وركع وصلى وركز أفكاره على ما سيقوله لكاهن الاعتراف . وبعد ساعة عاد الى ديون وسأله عما اذا كان مستعدا .

وكان ديون مستعدا . وبدا ما رآه منذ سنين وما بدا كأنه فقد معناه وقيمته بالزمن ينساب من شفيته كقصة ، كشكوى ، كسؤال ، كاتهام ذاتي ، قصة حياته كمسيحي وكزاهد تلك التي أراد بها النقاء والخلاص والشفاء والتي انتهت هكذا الى الاضطراب والغموض والشك واليأس . كذلك حكى ما خبره منذ قليل ، حكى عن هربه وعن احساسه بالحل وبالأمل ينبعان من هذا الهرب ، وقص عليه قراره بالرحيل الى ديون وعن كيفية التقائه به وشعوره على التو بالثقة فيه والحب له ، وان وجد فيه أثناء اليوم برودا وعجبا بل وتلونا .

وكانت الشمس قد مالت للمغيب عندما أتما حديثهما . وسمع الشيخ ديون القصة باهتمام لا يهن ، وامتنع عن كل مقاطعة وكل سؤال كذلك عندما انتهت القصة والاعتراف لم تخرج كلمة واحدة من بين شفيته . ثم نهض متثاقلا ونظر الى يوزف في ود كبير وانحنى عليه وقبله على جبينه ورسم الصليب . ومضت مدة طويلة تبين يوزف بعدها أن تلك هي الحركة الصامتة الأخوية المجردة من الحكم التي اعتاد هو كذلك أن يصرف بها المعترفين .

وأكلا بعد ذلك بقليل ، وأديا صلاة الليل وركعا . وفكر يوزف برهة وغرق في التفكير فقد كان يتوقع لعنة وحديثا من أحاديث العقاب والتوبيخ ولكنه لم يجد ما يخيب أمله أو يقلقه ، ، فقد كفته نظرة ديون وقبلته الأخوية ، فهدأت نفسه وغرق بعد ذلك في نوم لطيف .

وأخذه الشيخ في الصباح بلا كلام كثير وقاما برحلة يوم طويلة ثم اتبعاها بمثيلاتها أربعة أو خمسة أيام ، حتى وصلا الى مقر ديون . وأقاما به يساعد يوزف ديون بأعماله اليومية الصغيرة ويتعرف على حياته اليومية ويشاركه فيها ، ولم تكن حياته تختلف كثيرا عن الحياة التى عاشها أعواما طوالا . وها هو ذا يعيش مع آخر في ظله وحمايته حياة أخرى تماما . وكان يأتي من القرى المجاورة على الدوام من يلتمسون النصح ويريدون الاعتراف . وكان يوزف في أول الأمر يسرع بالانسحاب والابتعاد ثم يعود الى الظهور بعد انصرافهم . وكثيرا ما كان ديون يناديه ويستبقيه كما ينادي السيد خادمه ، فيطلب اليه أن يأتي بماء أو يقوم بعمل ما ، فلما تحمل ذلك بعض الوقت اعتاد يوزف على أن يستمع معه الى بعض الاعترافات الا اذا رفض المعترف وجوده وكان اشتراكه لا يغضب الكثيرين ، الغالبية ، بل كانوا يرحبون بعدم الجلوس وحدهم مع بوجيل المخيف أو الوقوف أمامه أو الركوع عنده ، ويفضلون أن يكون المساعد حاضرا ، ذلك المساعد الذي ينظر نظرة ودية ويسارع في الخدمات . وهكذا تعلم يوزف الطريقة التى يتبعها ديون في الاستماع الى الاعترافات وفي النطق بكلام المواساة وفي التدخل والتوبيخ والعقاب والنصح . وكان نادرا ما يسمح لنفسه بالسؤال ، سمح لنفسه مرة بالسؤال عندما حضر عالم أو مفكر كان على سفر .

وكان لهذا العالم أو المفكر أصحاب من السحرة والمنجمين . وفي أثناء وقفته للراحة من عناء السفر جلس ساعة أو ساعتين عند الزاهدين الكبيرين . كان رجلا مهذبا متكلما يطيل الحديث العالم الجميل عن النجوم

وعن الرحلة التي قام بها الانسان والآلهة منذ البداية حتى نهاية عمر العالم مارين بكافة ديار الحيوان . تكلم عن آدم ،الانسان الأول وكيف أنه ويسوع المصلوب رجل واحد وذكر الخلاص عن طريقه وقال عنه انه تحول آدم من شجرة المعرفة الى شجرة الحياة ، واعتبر حية الفردوس حامية النبع الأول والأعماق الحالكة التي تأتي من مياهها الليلية كل الأشكال والناس والآلهة . واستمع ديون الى هذا الرجل باهتمام وكان يتكلم لغة سريانية مختلطة بكثير من الاغريقية ، وتعجب يوزف لهذا بل وجد فيه ما ينفره وأنكر على ديون أنه لم يرد هذه الأخطاء الجاهلية بحماس وغضب ، ولم يدحضها ويستهجنها ، بل بدا كما لو كانت الأحاديث الذكية التي يلقيها المسافر العلامة تعجبه وتستميله ، فلم يكتف بالاستماع والتركيز بل ابتسم وهز رأسه مرارا عند بعض كلمات المتحدث كما لو كانت تعجبه .

فلما انصرف هذا الرجل سأل يوزف بلهجة الاهتمام أو اللوم : « كيف استمعت بهذا الصبر الى إلحاد هذا الكافر ؟ نعم ، لقد استمعت اليه ، على ما بدا لي ، لا بالصبر بل بالميل وبشيء من اللذة لم تتصد له ؟ لماذا تحاول نقض كلام هذا الرجل ومعاقبته حمله على الايمان بربنا ؟ » .

فهز ديون رأسه على عنقه الرفيع ذي الثنيات وردبقوله : «ولم أرد عليه لأن ردي ما كان ليجدى شيئاً ، أو على الأحرى لأنني لم أجد لدى قدرة على ذلك . فلا شك أن هذا الرجل متفوق في الكلام والتركيب ومعرفة الأساطير والنجوم ، ولو تكلمت لما وجدت ما أرد به عليه . ثم انه ليس من شأني يا بني ولا من شأنك أنت ، أن تواجه انسانا بادعاء أن ما يؤمن به كذب وهراء . وأعترف لك بأنني أنصت الى هذا الرجل الذكي بنوع من المتعة ، ولا يمكن أن تكون قد فاتتك ملاحظة ذلك . كانت متعة لي لأنه كان يتكلم كلاما ممتازاً وكان يعلم الكثير ولأنه كان يذكرني بصباي ، لأنني في صباي كنت أشتغل بمثل هذه الدراسات والمعارف . وأمور الأساطير التى تحدث عنها الغريب حديثه الجميل

ليست أخطاء . انها تصورات وكنايات دين لم نعد بحاجة إليها لأننا اتخذنا دين المسيح المخلص الوحيد لنا دينا . أما أولئك الذين لم يصلوا الى ديننا أو الذين لا يمكن أن يصلوا اليه ، فدينهم المنحدر من حكمة آبائهم القديمة ، دين له احترامه بحق . حقيقة أن ديننا يا عزيزي دين آخر يختلف عن ذلك الدين كل الاختلاف ، ولكن ذلك لا يحق لنا أن نصف تعاليم الديانات الأخرى بالخطأ والهراء والكذب اعتمادا على أن ديننا لا يحتاج الى نظرية النجوم والأزل ، والمياه الأولى ، وآهات الالم ، وماشاكل ذلك من تشبيهات وكنايات .

فصاح يوزف : «ولكن ديننا ، هوالدين الأحسن ، ولقد مات يسوع من أجل الناس جميعا ، وينبغي على من يعرفون ديننا أن يكافحوا المذاهب القديمة وأن يضعوا الدين الصحيح مكانها!» .

فقال ديون هادئا : «هذا ما فعلناه منذ زمن طويل ، أنت وأنا وكثيرون غيرنا . لقد آمنا لأن دين المخلص وقوته وموته الهادف الى تخلصينا قد تملكنا . أما هؤلاء المؤمنون بالاساطير والأبراج الفلكية والمذاهب القديمة فلم يتملكهم ما تملكنا ، وليس من حقنا أن نغصبهم على أن يتملكهم ما تملكنا ، ألم تلاحظ يا يوزف كيف كان هذا العالم بالأساطير يحسن الكلام ويبرع فيه وكيف كان يتقن معالجة الصور والأيقونات والتشبيهات والرموز ؟ كل هذا يدل على أن هذا الرجل لا يعاني من ألم شديد وعلى أنه راض وعلى أن حاله على مايرام . إذ لابد أن تسوء حال المرء لا بد أن تسوء جدا ، ولابد أن يعاني الألم والخيبة والمرارة واليأس والقرف حتى تتكون لديه حاجة الى الخلاص الى الدين القائم على الخلاص ، وحتى يفقد متعته بحكمة أفكاره وتوافقها ، ويجشم نفسه مشقة الاتجاه الى الايمان بمعجزة التخليص . لا ، يا يوزف لندع هذا الكافر العالم ، في حاله الطيبه ، لنتركه في سعادة حكمته وأفكاره وبلاغته! ولعله اذا كان الغد أو في العام القادم او بعد عشر سنين يعاني ألماً يحطم له حكمته وفنه ، ربما يقتل له البعض زوجه الحبيبة أو ابنه الوحيد ، أو يصيبه مرض أو يحل به

الفقر . فإن قابلناه عندئذ فلنهتم به ، ولنقص عليه الطريقة التى حاولنا بها أن نتغلب على الألم . فاذا سألنا : « لماذا لم تخبروني بذلك أمس أو قبل عشر سنين ؟ » ـ فلنجب : « لم تكن حالك في ذلك الوقت سيئة سوءاً كافياً » .

وأخذه الجد وصمت برهة ، ثم أضاف وكأن أحداً أخرجه من أحلام ذكرياته : « ولطالما عبثت قديما بحكم الآباء وتمتعت ، حتى وأنا في الطريق الى الصليب ، بالتفلسف في اللاهوتيات ، ووجدت فيه كذلك حزنا . وكان أغلب ما يشغل فكرى هو خلق العالم ، وأن العالم كان المفروض أن يكون طيبا كله ، فالكتاب يقول : « ورأى الله كل ما عمله فاذ هو حسن جدا » . والحقيقة أن العالم لم يكن طيبا كاملا إلا في لحظة واحدة ، لحظة الفردوس ، وفي اللحظة التالية دبت الخطيئة واللعنة الى الكمال ، لأن آدم أكل من تلك الشجرة التي حرم عليه الأكل منها . وكان هناك أصحاب مذاهب يقولون : « إن الرب الذي صنع الخليقة وصنع معها آدم وشجرة المعرفة ليس هو الرب الواحد الأعلى ، بل هو جزء منه أو هو رب دونه ، هو فاطر العالم (دميورج)[1] ، وأن الخليقة ليست طيبة ، بل انها خليقة فاشلة وقد لعنت لمدة قدرها عمر الدينا وأسلمت للشر ، حتى قرر « هو » نفسه ، الرب الواحد الروح ، أن يضع عن طريق ابنه نهاية لعصر اللعنة ، ومنذ ذلك القرار ، حسب رأيهم وحسب ما اعتقدت أنا أيضا ، بدأت مرحلة موت وفناء صانع العالم وخليقته ،كذلك الدنيا تفنى تدريجيا وتذبل ، الى أن يأتي عصر لا يكون فيه خلق ولا عالم ولا لحم ولا شبق ولا ذنب ولا تناسل جسماني ولا مولد ولا موت . لقد نسبنا الى خالق العالم ، أكثر من نسبتنا الى الانسان الأول ، مسؤولية الشر الحالي الذي حل بالعالم ، وكان رأينا أنه لو كان خالق العالم هو الرب حقيقة لكان من اليسير عليه أن يخلق آدم خلقا آخر أو يجنبه الغواية . وهكذا انتهينا في استنتاجاتنا الى إلهين ، الإله الخالق والإله الأب ، ولم نتورع عن لوم الأول .

---

(١) Demiurg

بل كان هناك من تقدموا خطوة أخرى . وادعوا أن الخلق لم يكن خلق الله بل خلق الشيطان . واعتقدنا أننا بنباهتنا نساعد المخلص ونساعد عصر الروح القادم فأنشأنا لأنفسنا آلهة وعوالم ، ووضعنا نظما للعالم وتناقشنا وتشاحنا وبالغنا في ممارسة اللاهوت . حتى أصبت ذات يوم بالحمى ومرضت مرضا أوشك بى على الموت . وكنت في هذيان الحمى لا أكف عن الاشتغال بأمر فاطر العالم ، وأقود الحروب وأسفك الدماء ، وكانت المخاوف والأوهام التي تساورني تزداد على الدوام فظاعة ، حتى اعتقدت في ليلة بلغت الحمى فيه ذورتها أنني أقتل أمي لأحل نفسى من مولدي الجسماني . وظل الشيطان في هذيان الحمى تلك يطاردني وبوسائله كلها ، ولكنني شفيت من المرض ، وعدت مخيبا لأمل أصدقائي القدامى الى الحياة مرة ثانية رجلا بليدا صامتا مجردا من الفكر استعاد قوته الجسمانية ولكن لم يسترد حبه للتفلسف . لأنني كنت في أيام وليالي شفائي أحس في كل لحظة من لحظات صحوي بالمخلص معي وأحس بالقوة تصدر منه وتدخل فيّ ، فلما شفيت تماما حزنت حزنا شديدا لأنني لم أعد أحس بقربه . وبدلا من الاحساس بقربه وجدت أنني لم أعد أحس بحنين الى ذلك القرب ، وتبينت انني كلما أنصت الى الجدل والتفلسف ، كلما تعرض ذلك الحنين ـ وكان خير ما عندي ـ لخطر الضياع يتوه في أفكار وكلمات كما يتوه الماء في الرمال . الخلاصة ، يا عزيزي ، أنني وضعت حدا للنباهة واللاهوتيات وانضممت الى زمرة البسطاء . ولكني لا أريد أن أمنع أو أحط من شأن من يعرف كيف يتفلسف ويعالج أمور الأساطير ويلعب مثل هذه الألعاب ، التى كنت قد جربتها قديما . وإذا كان قد تحتم عليّ في ذلك الوقت أن أنظر الى الله الخالق واللّه الروح ، الى الخليقة والتخليص كألغاز لا أعرف لتداخليها ولتعاصرها حلا ، فعليّ الآن أن أرضى بعدم تحويل الفلاسفة الى مؤمنين . فليس هذا من مهمتي » .

وذات مرة أتى رجل واعترف بالقتل والزنا ، وبعدها قال ديون

لمساعده : «القتل والزنا ، هذا شيءيلوح للانسان لعينا عظيما ، وهو في الواقع شيء قبيح . ولكنني أريد أن أقول لك ، يا يوزف ، إن أهل العالم هؤلاء لسوا مذنبين بالمعنى الكامل للكلمة . فكلما حاولت أن أضع نفسي في جلدهم وأفكر بعقليتهم ، تبينت أنهم كالأطفال بالضبط . ليسوا شجعانا ، وليسوا طيبين ، وليسوا كراما ، فهم أنانيون شرهون متعجرفون غضبون ، هذا صحيح ، ولكن هم في الواقع أبرياء ، كما الأطفال أبرياء » .

فقال يوزف : «ولكنك مع ذلك تحاسبهم حسابا عسيرا وتصور لهم الجحيم أمام أعينهم» .

ـ «لهذا السبب . فهم أطفال ، وعندما يأتون بما يثقل الضمير ويريدون الاعتراف ، فهم يريدون أن يؤخذوا مأخذ الجد ، وأن يصرفوا على نحو جاد... هذا هو رأيي على الأقل . أما أنت فقد اتجهت اتجاها آخر عندما تتلقى الاعتراف ، فلم تؤنب ولم تعاقب ولم تفرض كفارات بل كنت باشاً ليّنا وكنت تصرف الناس بعد الاعتراف بقبلة أخوية وهذا شيء لا أريد أن ألومك عليه لا ، ولكني لا أستطيع أن أفعل فعلك» . فقال يوزف مترددا : «طبعا ، ولكن قل لي ، لماذا لم تعاملني بعد أن اعترف لك كما تعامل المعترفين الآخرين ، بل قبلتنى صامتا ولم تنطق بكلمة عقاب ؟» .

فركّز ديون بوجيل نظرته النافذة عليه وسأله : «هل كان ما فعلت صوابا ؟» .

ـ لا أقول أن ما فعلت جانبه الصواب . لقد كان صوابا والا لما أتاني الاعتراف بهذه الفائدة وهذا الارتياح .

ـ اذن فقد قضي الأمر . كذلك فرضت عليك آنذاك تكفيرا قاسيا طويلا وان لم أفرضه بالكلام . لقد أخذتك معي وعاملتك كخادمي وأعدتك عنوة الى العمل الذى كنت قد هربت منه .

وأشاح بوجهه ، فقد كان عدو الكلام الكثير . لكن يوزف عاند هذه المرة .

ـ لقد كنت تعلم مقدما أنني سأكون مطيعا فقد وعدتك بالطاعة قبل الاعتراف ، بل وقبل أن أعرف من أنت . لا ، قل لي : هل كان هذا هو السبب الذى جعلك تتصرف معي هذا التصرف ؟

فخطا الآخر بضعة خطوات جيئة وذهابا ، ثم وقف أمامه ووضع يده على كتفه وقال : «أبناء العالم أطفال يا بني والقديسون لا يأتون إلينا للاعتراف . أما نحن ، نحن الآثمون الحقيقيون ، نحن أصحاب المعرفة والتفكير ، الذين أكلنا من شجرة المعرفة ، ولا ينبغي أن نتعامل معا كالأطفال الذين نضربهم بالعصا ثم نرسلهم . نحن لا نجري بعد الاعتراف والتفكير ، ونرمح في دنيا الأطفال حيث يحتفل الناس بالأعياد ويشتغلون بالتجارة ويقتلون أنفسهم أحيانا ، نحن لا نخبر الخطيئة كحلم صغير سيئ نبعده عنا بالاعتراف والتضحية : نحن باقون في الذنب ، ولسنا أبرياء مطلقا ، نحن مذنبون دائما ، نحن مقيمون في الذنب وفي حرق الضمير ، ونحن نعلم أننا لن نستطيع أن نكفر عن ذنبنا الأكبر ، الهم إلا اذا تعطف الله علينا بعد موتنا وأدخلنا في رحمته . هذا هو ، يا يوزف ، السبب الذى جعلنى امتنع عن وعظك ، وفرض الكفارات عليك أو عليّ . فليس ما نشتغل به هو الانحراف أو عمل شيء ، إن ما نشتغل به هو البراءة . لهذا لايمكن للواحد أن يعالج صاحبه بالعقاب انما يمكنه أن يطمئنه بالمشاركة في المعرفة وبالحب الأخوي . ألم تكن تعرف هذا ؟» .

فرد يوزف بصوت خفيض : «هو ذاك . كنت أعرف ذلك» .

فقال الشيخ موجزاً : «إذن فلا داعي لتضييع الوقت في اللغو» ، واتجه الى الحجر أمام الكوخ ، ذلك الحجر الذي كان معتاداً أن يصلي عليه .

ومرت سنوات ، وظل الضعف يعتري الأب ديون ويزداد عليه . وكان يوزف يساعده في الصباح لأنه لم يكن يستطيع أن ينهض وحده . وكان الأب ديون يذهب عندئذ الى الصلاة ، ولم يكن بعد الصلاة يستطيع أن ينهض وحده . فكان يوزف يساعده على النهوض ويجلسه ، فيظل جالساً طول

النهار ينظر الى الأفق البعيد . كان هذا يجري في بعض الأيام ، وفي بعضها الآخر كان الشيخ يستطيع النهوض وحده . كذلك لم يكن يستطيع الاستماع الى الاعترافات في كل يوم ، وكان إذا اعترف أحدهم عند يوزف ناداه ديون وقال له : «إن نهايتي تقترب يا بني ، نهايتي تقترب . قل للناس : إن يوزف خليفتي . فإذا أراد يوزف أن يمنع عن نفسه أو أن يقول كلمة ، نظر إليه الشيخ نظرته الرهيبة التي تنفذ في الانسان كالشعاع الثلجي» .

وفي يوم من الأيام كان ديون قد نهض بلا عون وبدا أقوى من المعتادفنادى يوزف إليه واقتاده الى ناحية على حافة حديقتهما الصغرى

وقال له : «ادفنّي في هذا المكان عندما أموت . وسنحفر القبر سوياً فمازال عندنا من الوقت ما يكفي . هات الفأس» .

وكانا يحفران كل يوم في الصباح المبكر قطعة صغيرة . فإذا كان ديون قوياً رفع بالجاروف عدة مرات تراباً ، بتعب ، ولكن بنوع من المرح ، كما لو كان هذا العمل يأتيه بمتعة .

ولم يكن هذا المرح يتركه طول النهار ، لقد كان دائم البهجة منذ أن بدأ يحفر في القبر .

وقال ذات مرة أثناء العمل لصاحبه : «أزرع على قبري نخلة . ولعلك تأكل من ثمارها . فإن لم تعش حتى تأكل من ثمارها ، فسيأكل آخر من ثمارها . ولقد زرعت من حين لحين شجراً ، ولكن ما زرعته كان قليلاً ، قليلاً جداً . ويروى عن البعض أنهم قالوا ، لا يجوز أن يموت المرء قبل أن يزرع شجرة ويخلف ابناً . وأنا أترك شجرة وأتركك أنت ، فأنت ابني» .

كان أكثر صفاء ومرحاً من أيام عرفه يوزف ، وكان يزداد صفاء ومرحاً يوماً بعد يوم . وذات مساء عندما أظلمت الدنيا ، وكانا قد أكلا وصليا ، نادى يوزف من مخدعه ورجاه أن يبقى عنده برهة وجيزة .

وقال له بلطف ولم يكن التعب أو النعاس يبدوان عليه : «أريد أن أقص

عليك شيئاً . أما زلت تذكر يا يوزف كيف عشت أوقاتاً سيئة في صومعتك قرب غزة وكيف سئمت حياتك ؟ ثم كيف لذت بالهرب وقررت أن تلتمس الشيخ ديون وتحكي له قصتك ؟ وكيف التقيت بالرجل الهرم في قرية الأخوان عندما كنت تسأل عن مكان ديون بوجيل ؟نعم . ألم تكن شبه معجزة أن الرجل الهرم الذي سألته كان هو ديون نفسه ؟ وأريد أن أحكي لك كيف جرى ذلك . فقد كان الأمر عجباً وكان لي أيضاً كالمعجزة .

أنت تعرف ما يحدث للناسك وكاهن الاعتراف عندما تتقدم به السن ويكون قد استمع الى اعترافات كثيرة من مذنبين يعتبرونه مجرداً من الذنوب ، ويرون فيه قديساً ، ولا يعرفون أنه في الذنب أعتى منهم . عند ذلك يبدو له نشاطه كله هباء منثور ، ويبدو له ما كان في نظره مقدساً هاماً- أعني أن الله وضعه في هذا المكان وكرمه ليستمع الى دنس الناس وقذارة النفوس البشرية ويخفف عنها ـ يبدو له الآن حملا ثقيلا مفرطا في الثقل ، يبدوله كلعنة ، وينتهي به الأمر الى الغضب من كل مسكين يأتي اليه بذنوب الأطفال ، والى الرغبة في التخلص منه وفي التخلص من نفسه ، حتى ولو كان ذلك بشنق نفسه بحبل على فرع شجرة . هذا ما جرى لك ، والآن أتت ساعة اعترافي ، وها أنذا أعترف : لقد جرى لي ما جرى لك ، لقد اعتقدت أنني عار عن الفائدة ، وأنني منطفئ فكريا وأنني لم أعد أقوى على احتمال حضور الناس أصحاب الثقة إليّ ورفعهم ودنسهم وعفنهم إليّ بعد أن عجزوا عن التغلب عليه وحدهم وقد عجزت أنا أيضا عن أن أتغلب عليه .

وكنت قد سمعت عن تائب ناسك اسمه يوزفوس فامولوس وسمعت أن الناس يحبون الذهاب إليه للاعتراف . وكان الكثيرون يفضلون الذهاب اليه على المجيء إليّ ، فقد قيل إنه رجل رقيق لطيف ، وانه لا يطلب من الناس شيئا ، ولا يوبخهم وانه يعاملهم كأخوة ويصرفهم بقبله . ولم تكن الطريقة طريقتي كما تعلم ، بل أنني لما سمعت بها في المرات الأولى خلتها ساذجة

مسرفة في الطفولة .أما في الوقت الذي تشككت فيه من طريقتي الخاصة ومن قيمتها فقد امتنعت عن الحكم على طريقة يوزف وادعاءالتفوق عليها في المعرفة . وتساءلت عن قدرات هذا الرجل . وعلمت أنه أصغر مني سناً وان كان قريبا من الشيخوخة مثلي ، فسرني هذا ، لأنني ما كنت لأثق في شاب بسهولة . وشعرت أنني منجذب الى هذا الرجل فقررت أن أحج الى يوزفوس فامولوس وأن أعترف له بما ألم بي وأرجوه النصيحة فإن لم تكن لديه نصيحة ، فسلوان وتعضيد . وخفف قرارى شيئا مما في نفسى وأحسن إليها .

وبدأت الرحلة واتجهت بحجي الى الناحية التي قيل إنه يقيم بصومعة بها . وكان الأخ يوزف في هذه الأثناء قد مرّ بما مررت به وفعل فعلتي ، وقام كل منا بالهرب لالتماس النصح عند الآخر .فلما رأيته ،قبل أن أعثر على كوخه ، عرفته من حديثه الأول ، فقد بدا كالرجل الذي كنت أتوقعه . ولكنه كان هاربا ، وكان سيئ الحال مثلي أو أسوأ ولم يكن ينوي الاستماع الى الاعترفات ، بل كان يريد أن يعترف هو وأن يضع مصيبته في يد غريبة . وجدت في هذا آنئذ خيبة أمل عجيبة ، وحزنت أشد الحزن .فاذا كان هذا اليوزف ، الذي لم يكن يعرفني ، قد تعب من مهمته وتشكك في معنى حياته ـ ألا يبدو أن ذلك يعني أن ما بنا ليس شينا وأن إحساسنا بالفشل وتضييع العمر ليس إلا هراء ؟

فقصصت عليك ما تعلم ، واسمح لي أن أوجز . وقضيت تلك الليلة قرب القرية وحيدا ، بينما نمت أنت عند الرهبان ، وتأملت وتقمصت فكر هذا اليوزف وقلت في نفسي : ماذا يفعل عندما يعلم غداً أنه هرب هروبا بلا ثمرة وأنه وضع ثقته في بوجيل بلا فائدة وأن بوجيل قد هرب مثله ومسته الوساوس مثله ؟ وكلما ازددت تعمقا فيه كلما أحزنني حال هذا اليوزف وكلما لاح لي أنه أتاني من عند إله لأعرفه وأعرف نفسي وأعالجه وأعالج نفسي . عندئذ استطعت أن أنام ، وكانت الليلة قد انقضت الى نصفها . وفي اليوم التالي أتيت وحججت معي وأصبحت ابناً لي .

لقد أردت أن أحكي لك هذه القصة ـ وأنا أسمع أنك تبكي . ابك ففي البكاء خير لك . لقد أصبحت كثير الكلام أفرط فيه أكثر مما يليق وأرجوك أن تسمع مني ما سأقوله الآن كذلك وأن تقبله في قلبك : ان الانسان عجيب ، وما أقل ما يمكن الاعتماد عليه ، وليس من المستبعد أو المحال أن يأتي وقت تعود اليك فيه هذه الآلام والوساوس وتحاول التغلب عليك . فلأدعو الله لك أن يرسل إليك عند ذاك ابناً لطيفاً صبورا مواسيا كما أرسل لى فيك ابنا لطيفا صبورا مواسيا! أما فيما يختص بفرع الشجرة الذى جعلك الشيطان تحلم به ، وبالمسكين يهوذا الاسخريوطي ، فأقول لك : إنه ليس ذنبا وغباء فحسب أن يعد الانسان لنفسه ميتة من هذا النوع ، رغم أنه من اليسيرعلى المخلص أن يغفرهذا الذنب أيضا ، انما هو شيء مؤسف أليم أن يموت انسان في مثل هذا اليأس . ان الله لا يرسل الينا اليأس ليقتلنا ، بل يرسله إلينا ليوقظ فينا حياة جديدة . أما اذا أرسل الله الينا الموت يا يوزف ، وفصلنا عن الأرض والجسد دعانا الى هناك ، فتلك فرحة عظيمة .انه النوم بعد التعب وانزال الثقل عن الكاهل بعد طول تحمله ، انه شيء لذيذ بديع . ومنذ حفرنا القبر ـ ولا تنس النخلة التي عليك أن تزرعها عليه ـ ، منذ بدأنا نحفر القبر ، وفرحي ورضائي يزدادان عما كانا في الأعوام الماضية كلها .

لقد تكلمت كثيرا ، يا بني ، ولابد أنك تعبت . فاذهب ونم اذهب الى الكوخ . وليكن الله معك!» .

وفي اليوم التالي لم يأت ديون الى صلاة الصبح ولم يدع يزوف اليه . فارتاب يوزف في الأمر ودخل هادئا الى الكوخ وسار الى فراش ديون فوجده قد مات ووجد وجهه يضيء بابتسامة منيرة برئية .

فدفنه ، وزرع شجرة على قبره وعاش الى العام الذى طرحت فيه النخلة ثمارها الأولى .

السيرة الهندية

كان أحد أمراء الشياطين الذين قتلهم بالرمح الهلالي في معارك وحشية ـ أو على الأصح الذين قتلهم الجزء الذي تحول منه في هيئة ما الى انسان ـ قد عاد مرة ثانية الى دائرة الأشخاص وتسمى باسم «رافانا» وعاش كأمير محارب على شاطىء الجنج العظيم . كان هذا الأمير هو أبو دازا أما أم دازا فقد ماتت مبكرة وتزوج الأمير بعدها امراة جميلة ذات طموح ولدت له ابنا ، ومنذ مولد ذلك الابن والمرأة تعتبر دازا حجرعثرة في سبيلها . و كانت تتمنى أن ترى ابنها «نالا» لا دازا ، وهو المولود الأول ، يُرسم حاكما خليفة لأبيه ، فعملت على أن توقع بين دازا وبين أبيه ، وعزمت على أن تنتهز أول فرصة مناسبة لتبعده عن الطريق وتتخلص منه . ولكن واحدا من براهمة بلاط رافانا وكان عليما بأمور القرابين والأضاحي ، واسمه فازوديفا ، كشف نيتها وعرف بفطنته كيف يفسد خطتها . فقد حزن على الصبي الصغير وكان يعتقد أنه ورث عن أمه المتوفاة استعدادا للتقوى وإحساساً بالجق والعدل . فشمل دازا بعينه حتى لا يمسه سوء وأخذ ينتظر فرصة لينتزعه من زوجة أبيه .

وكان الراجا رافانا يمتلك قطيعا من البقر المقدس أهل به لـ«براهما» . وكان لبن هذا البقر زبده كثيرا مايقدم قربانا للاله . وكان هذا القطيع من البقر ينعم بأفضل مراعي البلاد لا يشاركه فيها شريك . وفي يوم من الأيام أتى بعض الرعاة القائمين على هذا القطيع ليسلم شحنة من الزبد وليبلغ أن

(١) Vasudeva, Nala, Dasa, Ravana, Vischnu

المنطقة التي كان البقر حتى ذلك الحين يرعى فيها قد تعرضت لجفاف متزايد وأن الرعاة اتفقوا على دفع البقر ناحية الجبل الى منطقة لا يجف علفها ولا ينضب ماؤها حتى في أجف الأوقات . وكان هذا الراعي رجلا لطيفا مخلصا ، ، فأسر إليها البرهمي فازوديفا بسره . وفي اليوم التالي اختفى الأمير دازا بن رافانا ولم يجده أحد ، وكان فازوديفا والراعي هما الوحيدان اللذان يعلمان بسر اختفائه . فقد أخذه الراعي معه الى الجبل حيث كانت الأبقار ترعى ، فانضم دازا اليهاوالى الرعاة مسرورا وأصبح واحدا من صبيان الرعاة ، وتعلم كيف يرعى البقر ويسوقه وتعلم أن يحلب وأن يلعب مع العجول وكان ينام تحت الشجر ويشرب اللبن الصراح وكان روث البقر يلتصق بأقدامه العارية . وسر الصبي لهذه الحياة كل السرور ، وتعرف على الرعاة وعلى البقر وعلى الحياة التي يحبونها ، وعرف الغابة وأشجارها وثمارها ، وأحب المانجو ، والتين البري وشجر الفارنجا ، وأحب اصطياد جذور اللوتس الحلوة من الماء في برك الغابات الخضراء وكان في أيام الأعياد يتزين بتاج من الزهور البرية الحمراء . وتعلم أن يحتاط من حيوان البرية وأن يتحاشى النمر ، وأن يصادق المونجو الذكي والقنفذ اللطيف ، وأن يقبع طوال فصل الأمطار في كوخ مظلم ، كان الأولاد فيه يلعبون ألعاب الأطفال ويتغنون بالأناشيد ويصنعون السلال والحصر . ولم ينس دازا وطنه الأول وحياته السابقة نسياناً تاماً ، ولكنها ما لبثت أن تشكلت في مخيلته بشكل الحلم .

وذات يوم نزل القطيع أرضا أخرى فذهب دازا الى الغابة يريد أن يبحث عن عسل . وكانت الغابة منذ عرفها محببة الى نفسه ، ولاحت له هذه الغابة الجديدة جميلة جمالا فريدا ، كان الضوء فيها يتلوى بين الأوراق والغصون كأنه ثعابين من الذهب ، وكانت أهازيج الأطيار وحفيف الأوراق وأصوات القردة تندمج معا في باقة لطيفة تكاد تضيء مثل باقة الضوء ، وكانت الروائح

وعبائر الزهور والأخشاب والأوراق والمياه والطحالب والحيوانات والثمار والطين والأرض تهفو وتتداخل ثم تنفض قوية حلوة غليظة رقيقة موقظة منومة ، فرحة ومحزنة . وأحيانا يهمس ماء في فجوة من الغابة لا تبلغها الأبصار ، وأحيانا ترقص فراشة خضراء ناعمة كالمخمل ذات بقع سوداء وأخرى صفراء فوق زهرات بيضاء وأحياناً يقرقع غصن ويميل في وسط الاخشاب الظليلة الزرقاء وتهوي أوراق وسط أوراق . أو يصيح حيوان يرى الظلمات أوتصوت قردة شرسة مع أهلها . ونسي دازا البحث عن العسل ، وبينما هو ينصت الى بعض الطيور الصغيرة المزركشة اللامعة ، رأى بين بعض الأشجار العالية المنضمة الى ما يشبه الغابة الصغيرة في قلب الغابة الكبيرة ، رأى أثرا يمتد الى بعيد ، شيئا يشبه الطريق ، مدقا ضنيلا ضيقا ، فلما نفذ اليه في صمت وحذر واتبعه اكتشف تحت شجرة ذات جذوع كثيرة كوخا صغيرا ، شيئا يشبه الخيمة المدببة متخذا من الأغصان المضفرة ، ووجد بجانب الكوخ على الأرض رجلا جالسا معتدل الجلسة لا يتحرك وقد وضع يديه على قدميه مربعا ، ورأى تحت شعره الأبيض وجبينه العريض عينيه تميلان الى الأرض خاليتين من النظرات ، مفتوحتين ولكنهما لا تنظران الا الى الداخل . ففهم دازا أن الرجل قديس وأنه يوجي ، فلم يكن أول رجل من هذا النوع يقع عليه بصره ، كان هؤلاء رجالا أجلاء اصطفتهم الآلهة ، وكان من الخير أن يمنحهم من استطاع منحا وأن يظهر لهم الإنسان الاحترام والتقدير . لكن هذا الرجل الذي جلس أمام كوخه الصغير الجميل المستور جلسة معتدلة مدليا ذراعيه وغارقا في التأمل أعجب الصبي اعجابا كبيرا ،وبدا له أكثر غرابة وجلالا من كل من رآهم قبله . وكانت تحيط بهذا الرجل الذي كان يجلس وكأنه يهيم في الهواء ويبدو رغم نظرته الزائغة كأنه يرى كل شيء ، كانت تحيط به هالة من القدسية ، ودائرة من الجلال ، وموجة ونار من قوة لظى اليوجا ، لم يستطع الصبي أن يقطعها أو ينفذ خلالها بتحية أونداء . فقد كان

جلاله وكانت عظمته ، وكان النور المتجه من الداخل الى الخارج الساقط على وجهه ، وكان الاستجماع والصلابة الفولاذية في تقاطيعه ، كانت كلها ترسل موجات واسعة كان هو يجلس على عرش في وسطها كأنه القمر . وكانت قوته الروحية المركزة ، وإرادته المعقودة في سكون ترسم حوله دائرة سحرية حتى كان الانسان يحس ازاءها : ان هذا الرجل يستطيع بمجرد النية أو التفكير ، وبدون رفع بصره ، أن يقتل وأن يعيد الميت الى الحياة .

كان اليوجي أكثر سكونا من الشجرة ، فان الشجرة بأوراقها وأغصانها تتنفس وتتحرك ، ساكنا كصنم من الحجر ، هكذا جلس اليوجي في مكانه ، وهكذا ثبت الصبي في مكانه منذ اللحظة التي رآه فيها ، ثبت كأنه ألقي في الأغلال أو انجذب الى سحر تمثال . وقف الصبي يحملق في الأستاذ ، فرأى بقعة من نور الشمس على كتفيه وبقعة من نور الشمس على احدى يديه الساكنتين ، ورأى البقعتين تتجولان ببطء ورأى بقعا أخرى تستجد فبدأ في وقفته ودهشته يفهم أن بقع الشمس لا علاقة لها بهذا الرجل شأنها شأن أناشيد الأطيار وأصوات القردة في الغابة وراحت تشم بشرته وتزحف مسافة فوق وجنته ثم تنهض وتطير ، وشأن الحياة المنوعة التي تتصل في الغابة كلها . أحس دازا بهذا كله ، أحس بكل ما تراه العينان وتسمعه الأذنان ، بكل ما هو لطيف وكل ما يثير الخوف ، ووجد أن هذا كله لا يتصل بأية صلة بالرجل المقدس : فالمطر لا يبرده ولا يثير غيظه ، والنار لا تستطيع أن تحرقه ، فقد أصبحت الدنيا كلها حوله قشرة مجردة عن المعنى . وكان يتفرع من ذلك تفكير مضمونه أن العالم كله في الحقيقة ليس الا لعبة وقشرة ،ليس الا نسمة وتجعيدة من الأمواج فوق أعماق مجهولة ، ليس فكرة ، بل شيئاً يشبه الرعدة الجسمانية والدوار الخفيف ، كان هذا التفكير يتفرع من ذلك وينطلق الى الأمير الراعي المشاهد ، فيتحول عنده الى احساس بالفزع والخطر وبالانجذاب في رغبة ملحة . فقد احس أن اليوجي

قد نفذ خلال قشرة العالم أو خلال العالم السطحي الى قاع الكون ، الى سر الأشياء جميعاً ، لقد اخترق الشبكة السحرية للحواس واخترق ألعاب الضوء والأصوات والألوان والأحساسات ولفظها وأقام بجذور ثابتة فيما هو جوهري لا يتغير . ورغم أن الصبي قد تلقى العلم قديماً على يد البراهمة واستضاء بشيء من النور الفكري ، فإنه لم يفهم هذا بالعقل ولم يكن في وضع يمكنه من التعبير عنه بالألفاظ ، ولكنه أحس بذلك كرعدة من الاحترام والأعجاب بهذا الرجل ، أحس بذلك كحب له وكحنين الى أن يعيش حياة كالتي يحياها هذا الجالس الغارق في التأمل . هكذا وقف دازا ، وقد ذكره هذا الشيخ على نحو عجيب بأصله ، بسلالة الأمراء والملوك ،وأخذه التأثر وهو يقف على حافة هذه الغابة ، فترك الأطيار تطير والأشجار تسوق أحاديثها الرقيقة ذات الحفيف ، ترك الغابة غابة ، والقطيع قطيعاً ، واستسلم للسحر ، وراح ينظر الى الراهب المتأمل ، وقد أخذه السكون الغامض والابتعاد العجيب في شخصيته ، وأخذه الهدوء الوضاح في جبينه ، والعزم والتصميم في تصرفه ، والتركيز الكامل في صلاته .

ولم يكن بعد ذلك يستطيع أن يحدد الوقت الذي أمضاه عند الكوخ ، هل كان ساعتين أو ثلاث ساعات ، أو كان أياماً . فلما انصرف عنه السحر ، وعاد يتبع الطريق الضيق بين الاشجار في سكون ، ويبحث عن السبيل للوصول الى خارج الغابة ، وانتهى الى مروج المرعى والى القطعان ، كان يفعل ما يفعل دون وعي ، فقد كانت روحه مازالت أسيرة السحر ، ولم يفق إلا عندما ناداه واحد من الرعاة . كان هذا الراعي يصيح فيه موبخاً يلومه على طول غيابه ، فلما نظر إليه دازا نظرة المندهش الذي لا يفهم لتوبيخه معنى ، سكت الراعي من فوره ، متعجباً من نظرة الصبي الغريبة الفريدة ومن مسلكه الوقور العظيم . وراح بعد برهة يسأله : «أين كنت يا عزيزي ؟ هل رأيت إلهاً أم لقيت شيطاناً ؟» .

فقال دازا : «كنت في الغابة ، ذهبت إليها لأبحث عن عسل . ثم نسيت ، لأني رأيت هناك رجلاً ، ناسكاً ، كان يجلس غارقاً في التأمل أو في الصلاة ، ولما رأيته ورأيت كيف يضيء وجهه ، اضطررت للوقوف والتطلع إليه ، وقتاً . وأريد في المساء أن أعود إليه وأن أحمل إليه العطايا ، فإنه رجل مقدس» .

فقال الراعي : «افعل هذا . احمل إليه لبناً وزبدة حلوة ، فالواجب أن نحترم القديسين وأن نعطيهم» .

ـ «ولكن بم أناديه» .

ـ «لا حاجة بك الى مناداته يا زادا ، يكفي أن تنحني أمامه وأن تضع العطايا على الأرض ، وتنصرف» .

وهكذا فعل الصبي . ظل برهة يسير الى أن وجد المكان ولم يجد أحداً أمام الكوخ ولم يجرؤ على الدخول في الكوخ نفسه ، فوضع عطاياه أمام باب الكوخ على الأرض وابتعد .

وكان ، طالما بقي الرعاة قريبين من هذا المكان ، يحمل كل يوم الهبات الى الناسك . وذهب مرة بالنهار الى هناك ووجد الرجل الجليل يتأمل ، ولم يقاوم هذه المرة أيضاً إغراء التماس بعض هذه القوة والسعادة التي يشعها القديس على المشاهد السعيد . كذلك بعد أن ترك الرعاة المنطقة ، وساعد دازا في دفع القطيع الى مراع أخرى ، لم يستطع أن ينسى ما رأى في الغابة ، وكان كعادة الصبيان يسترسل أحيانا وحده في الحلم ويرى نفسه ناسكاً عليماً باليوجا . لكن الوقت مر على هذه الذكرى وعلى هذا الحلم فبهتا ، خاصة وأن دازا نما وأصبح شاباً قوياً وانهمك في ألعاب وصراعات أمثاله من الشباب انهماكاً شديداً . لكن لمحة وأثراً خفيفاً بقيا في نفسه ، كما لوكان ما فقده من الامارة ستعوضه عظمة اليوجا وقوتها . وذات يوم بينما كانوا قرب المدينة ، أتى أحد الرعاة بخبر يقول إن المدينة توشك

أن تحتفل بعيد عظيم : فقد حدد الأمير العجوز رافانا ، بعد أن وهنت قوته واعتلّت صحته حدد يوماً يخلفه فيه ابنه نالا وينادي منها في نفسه منذ الطفولة أثر ذكرى ، وليسمع الموسيقى وليشاهد الموكب ومباريات النبلاءوليطلع مرة على عالم أهل المدينة والعظماء الذي كانت تجري به الأساطير والحكايات ، والذي سمع ـ فيما يشبه الأسطورة أو الحكاية أو يقل عنهما ـ أنه كان مرة عالمه هو أيضا . وكان الرعاة قد تلقوا أمرا بأن يوردوا للبلاط حملاً من الزبد لأضاحي العيد ، وكان دازا من حسن حظه واحداً من ثلاثة قرر كبير الرعاة أن يقوموا بمهمة حمل الزبد الى البلاط .

ووصلوا البلاط في اليوم السابق على الحفل ليسلموا الزبد ، وأخذه منهم البرهمي فازوديفا ، فقد كان هو المكلف بأمور القرابين والأضاحي . وعرف فازوديفا الشاب . واشترك الرعاة الثلاثة في الحفل بشغف بالغ فرأوا في الصباح المبكر البرهمي يدبر أمر الأضاحي والقرابين ورأوا الزبد الذهبي اللامع يشتعل نارا ويتحول الى لهيب يرتفع الى السماء ، والى دخان يختلط بالدسم يعلو الى ما لانهاية ويعجب الآلهة . رأوا في موكب العيد الأفيال تحمل هوادج يجلس عليها الفرسان وفوقها سقوف مذهبة ، ورأوا عربة الملك المحلاة بالزهور ورأو الراجا الشاب «نالا» ، وسمعوا الموسيقى العاصفة . كان كل شيء رائعا مدهشا ، ومضحكا أيضا ، أو على الأقل في نظر دازا . كان دازا مذهولاً مبهورا من الضوضاء ومن العربات ومن الخيول المطهمة ، ومن كل هذه الأبهة والتبذير المفرط ، ومن الراقصات ذوات الأطراف النحلية الصلبة كعيدان اللوتس ، واللاتي سبقن عربة الأمير برقصهن ، ومن عظمة المدينة وجمالها . ولكنه رغم هذا كان وسط الفرحة والنشوة يتأمل كل هذا بعقلية الراعي الذي يحتقر المدينة . ولم يفكر قط في أنه باعتباره الابن الأول أحق من أخيه غير الشقيق «نالا» الذي لم يعد يذكره قط بالتبجيل والتقديس والاحتفال وركوب العربة المحملة بالأزهار . ولم

يعجبه الشاب نالا على أية حال ، فقد بدا له غبيا ، شريرا ،مدللا ، مغرورا ، لا يُحتمل يزهو بنفسه زهوا شديدا ، وكم ود أن يبث به وهو يلعب دور الأمير وكم ود أن يلقنه درسا . ولكن الفرصة لم تكن سانحة لذلك . وما لبث دازا أن نسي وانشغل بالأشياء الكثيرة التي كانت تعرض للنظر والسمع والتي كان يضحك منها أو يتمتع بها . وكانت نسوة المدينة ذوات جمال وجرأة ونظرات مثيرة وحركات وتعبيرات ، وسمع الرعاة الثلاثة كلمات ظلت تطن في آذانهم زمنا طويلاً . كانت هذه الكلمات تختلط بالتهكم ، فإن مسلك أهل المدينة مع الرعاة كان كمسلك الرعاة مع أهل المدينة ، كل طائفة تحتقر الأخرى . لكن الرعاة ذوي الجمال والقوة ، الذين تغذوا على اللبن والجبن ، وعاشواالعام كله في العراء ، أعجبوا نسوة المدينة اعجابا شديداً .

فلما عاد دازا من هذا العيد ، كان قد أصبح رجلا ، فراح يلاحق البنات ، وينازل الشباب ويلاكم ويصارعهم ويتغلب عليهم .وذات يوم نزلوا أرضا أخرى ذات كلأ ضئيل ومياه راكدة فيها الغاب والبوص . هنالك رأى بنتا جميلة اسمها برافاتي[1] وأحبها حبا جنونيا . كانت هذه البنت ابنة فلاح . ولقد بلغ حب دازا لها وهيامه بها درجة جعلته ينسى كل ماعداها وينبذه ، لا يريد الا أن يطلب يدها . فلما ترك الرعاة المنطقة بعد بعض الوقت ، لم يستمع لهم ولنصحهم وتحذيرهم ، بل ودعهم وودع حياة الرعاة التي كان قد أحبها حبا جما ، وآثر الاستقرار والزواج من برافاتي . وكان يحرث حقول الذرة والأرز التي يستأجرها حموه ويساعد في الطحن وفي قطع الحطب . وبنى لزوجته كوخا من البوص والطين وأقفله عليها حتى لا يراها أحد والظاهر أن دازا وقع تحت قوة عارمة ، يدل عليها انصرافه عن متعه السابقة ، وعاداته السابقة ، وإخوانه السابقين ، وتغيير شكل حياته ، وقبوله الدخول في غرباء ليلعب فيهم دور الصهر ، وهو دور لا يحسد عليه رجل . لقد كانت برافاتي

(١) Pravati

ذات جمال عظيم ،جاذبية شديدة تشع من وجهها ومن بدنها ، فأعمت دازا عن كل شيء سواها ، حتى بدا مستسلماً لهذه المرأة استسلاماً كاملاً . والحق أنه كان ينعم لديها بسعادة كبيرة . والناس يقصون عن بعض الآلهة والقديسين حكايات تفيد أنهم وقعوا في سحر امرأة ساحرة فظلوا منشغلين بها الأيام والشهور والأعوام منصهرين فيها ،غارقين في المتعة ، لاهين عن الأعمال والالتزامات الأخرى . وهكذا كان الحظ والحب الذي تمناه دازا لنفسه . لكن الذي حدث له فعلاً في تلك الأثناء كان من نوع آخر . فلم تدم سعادته طويلاً . دامت نحو عام ، ولم يكن هذا العام ممتلئاً بسعادة صافية خالصة ، بل كانت تشوبه المنغصات ، من قبيل مطالب استفزازية طلبها حموه ، واثارات من اخوة زوجته ، وتقلبات أظهرتها زوجته الشابة . ولكنه كان يسكن اليها ، ينسى كل شيء ، فقد كان لابتسامتها سحر يجذبه ، وكان يتمتع بقربها ، ويتمثلها جنة من المتعة وافرةالزهور والعبائر والظلال...

لم تكن سعادته قد أتمت عاماً بأكمله ، عندما حلت بالمنطقة ذات يوم الضوضاء وجلبة . إذ ظهر رسل يركبون الخيول أعلنوا أن الراجا الشاب يوشك على الوصول ، ثم وصل الراجا الشاب تالا نفسه برجاله وخيوله وموكبه ليصطاد بالمنطقة . وضربت الخيام هنا وهناك ، وسمع الناس صهيل الخيول وصفير الأبواق . ولم يهتم دازا لهذا الحدث ، بل ظل يعمل في الحقل والطاحونة ، تحاشى الصيادين ورجال البلاط . وذات يوم عندما عاد الى كوخه ، لم يجد امرأته في الكوخ ، وكان قدحرم عليها الخروج في تلك الأيام تحريما شديدا ، فأحس حزا في صدره وتوقع مصيبة توشك أن تقع فوق رأسه . فأسرع الى حميه فلم يجد برافاتي لديه ، ولم يجد انسانا رآها ، فزاد خوفه الذي كان يطبق على صدره . وراح يبحث في حقل الكرنب وفي الحقول الأخرى ، وصار أياما ينتقل بين داره ودار حميه ، ويترقب في الغيط ، وينزل في الآبار ، ويصلي من أجلها ، ويناديها ويستجديها ويلعنها ويتلمس آثار

الأقدام وأخيرا كشف لـه أصغر أشقاء زوجته ، وكان لايزال صبيا ، السر وقال له أن برافاتي عند الراجا ، تسكن في خيمته ، وتركب فرسه فأحاط دازا بمضرب خيام نالا بحيث لا يراه أحد وحمل معه نبلته التي كان يستعملها أيام كان مع الرعاة . وكان يقترب من خيمة الأمير كلما توانى الحراس عن حراستها لحظة من نهار أو من ليل ، لكن الحراس كانوا يسرعون في كل مرة ويضطرونه الى الهرب . وقبع في غصون شجرة اتخذ فيها فراشا ، واختفى فيها يراقب مضرب الخيام ، فرأى الراجا ، وكان يعرف منظره منذ يوم الاحتفال بالمدينة ويكرهه من ذلك الحين ، رآه يركب حصانه ويبتعد ثم يعود ساعات وينزل من فوق الحصان ويفتح باب الخيمة ، فاذا بها امرأة شابة رآها دازا تتحرك في ظل الخيمة وتحيي القادم ، وكان على وشك النزول من الشجرة لما تبين أن هذه المرأة هي برافاتي بعينها . هكذا تأكد ، وهكذا ازداد انقباض قلبه . وبقدر ما كانت سعادة حبه لبرافاتي كبيرة ، كان الآن ألمه وغضبه وشعوره بالفقدان وبالاهانة . وهذا هو حال الانسان الذي يركز طاقة الحب لديه كلها على أمر واحد ، اذا ضاع ، تهدم كل شيء ووقف مسكينا وسط الحطام وظل دازا يوما وليلة يهيم على وجهه في غابات المنطقة ، وكان كلما ارتاح قليلا ألح عليه بؤسه وحز في قلبه ودفعه ليجري وليتحرك ، وليحس أن عليه أن يجري ويجول الى نهاية العالم والى نهاية حياته ، التى فقدت قيمتها وبريقها . الا أنه لم يكن يجري الى بعيد ، الى أرض مجهولة ، بل كان يلزم مكان مصيبته ، ودور حول الكوخ والطاحونة والحقول وخيام الصيد الأميرية . وفي النهاية توراى في الأشجار فوق الخيمة وقعد يتلصص بمرارة حامية وكأنه حيوان مفترس جوعان توارى في مخبأ من ورق الشجر ، الى أن أتت اللحظة التى جمع لها آخر ما كان لديه من قوة ، لحظة أن خرج الراجا أمام الخيمة . فتدلى في هدوء من بين الأغصان وصوب حجرا بالنبلة الى جبهة المقيت فأصابه فوقع على ظهره فاقد الحراك . ولم

يكن هناك انسان حاضرا ، أو هكذا لاح الأمر ، فقد انساب هدوء عميق عجيب مخيف اجتاز عاصفة الشهوة ومتعة الانتقام ، وخيم على المكان لحظة . وقبل أن يعلو الصياح ويتجمع الناس حول المضروب ، كان دازا قد اختفى في الغابة واتجه ناحية الوادي الى البوص البري .

وبينما كان يقفز من الشجرة ويحرك النبلة في غمرة الاحساس بالفعلة ويرسل الموت منها ، أحس كأنه بذلك يطفئ حياته أيضا ، ويودع آخر ما لديه من قوة ويلقي نفسه ـ عندما يلقي الحجر ـ الى هاوية العدم ، يريد الفناء ، لقاء سقوط العدو المقيت على الأرض جثة هامدة . أما الآن وقد أجابت تلك اللحظة غير المتوقعة من السكون على الفعلة فقد جذبته شهوة الحياة ، ولم يكن يعرف عنها حتى ذلك الحين شيئا ، من خلال الهاوية المفتوحة ، وتملكه دافع غريزي تسلط على حواسه وأعضائه ، وأمره بأن يسرع الى الغابة والى الدغل وأن يهرب ويتوراى عن الانظار . فلما وجد ملجأ وأفلت من الخطر الداهم ، شعر بما حدث... وانهار متهالكا لاهثا يلتمس نفسا يتنفسه ، خائر القوى يفسح في ذاته مجالا للتفكير المتزن ، فشعر بخيبة الأمل وبكره لهروبه وبقائه على قيد الحياة . وما كاد نفسه ينتظم ويهدأ ما به دوار حتى راح عنه هذا الشعور المقيت الباهت مفسحا مكانا لعناده ولإرادته في الحياة ، وعادت إليه فرحته الوحشية بفعلته .

ونشط البحث في المنطقة القريبة منه عن الفاعل ، واستمرت المطاردة يوما بطوله ، وأفلت ببقائه ساكنا في مخبنه ، ولم يجرؤ الباحثون على التوغل اليه خوفا من النمر . كان يقل من النوم ، يرقد مترقبا ، يزحف مسافة ثم يعود الى السكون ، وفي اليوم الثالث كان قد عبر سلسلة التلال ودخل في الجبال العالية .

وقادته حياته الهائمة الى هذا والى ذلك المكان ، وزادته قسوة وفتورا ونباهة واستسلاما ، ولكنه كان بالليل لا يفتأ يحلم ببرافاتي وبسعادته

الماضية - أو بما كان يطلق عليه الاسم - ويحلم بالمطاردة والهرب ، احلاما مرعبة محزنة ، فحلم مرة أنه يهرب من خلال الغابات ، وأن المطاردين يتبعونه من خلفه بالطبول والأبواق ، وأنه يحمل عبر الغاب والمستنقع وعبر الدغل والأشواك وفوق الجسور العفنة المتحطمة شيئا ، حملا ، صرة ، شيئا ملفوفا ، خفيا ، مجهولا ، لا يعلم عنه إلا أنه شيء ثمين وأنه لا ينبغي أن يفلت من بين يديه بحال من الأحوال ، شيئا قيما معرضا للخطر ، كنزا أو عرضا مسروقا ، ملفوفا في قماش ، في قماش ملون عليه رسم بني محمر وأزرق كقماش ثوب العرس الذى ارتدته برافاتي - حلم اذن ، انه وهو يحمل هذا الحمل أو الكنز أو العرض المسروق يهرب وسط أخطار وأهوال تحت أغصان منخفضة جدا وفوق صخور مرتفعة جدا ومائلة فيمر على حيات ويجتاز مسالك ضيقة متشابكة ، فوق أنهار مليئة بالتماسيح ، الى أن يكل فيقف لاهثا ، ينقض عقد الرباط الذى يمسك الحمل ، فيحلها العقدة بعد الأخرى ويبسط القماش فيجد أن الكنز الذى يستخرجه منه وهو رأسه هو . هكذا عاش متورايا أو متجولا ، لا يهرب من الناس بل يتحاشاهم . وذات يوم ساقه تجواله الى منطقة مرتفعة غنية بالكلأ ، أعجبه جمالها وصفاؤها ، وبدت له كأنها تحييه ، وكأنه يعرفها : تارة تتخذ شكل المرتع الذى تتهادى زهراته في خفة ، وتارة شكل مجموعة من أشجار الصفصاف يعرفها ،تذكره بوقت بريء صاف لم يكن فيه يعرف الحب والكره ولا الغيرة والانتقام . كانت تلك المنطقة هي المراعي التي رعى فيها مع رفاقه القطيع في وقت هو أصفى أوقات شبابه أصبح الآن ينظر اليه من أعماق الماضي البعيد الذي لا سبيل الى استرجاعه . وأجاب حزن حلو في قلبه على الأصوات التى هفت تحييه ، وعلى الريح الهفهافة بين أشجار المراعي الفضية ، وعلى نشيد الجداول الصغيرة الفرحة السريعة ، وعلى أناشيد الأطيار وعلى طنين النحل الذهبي . كان للمنطقة صوت وعبير الوطن والملجأ ، ولم يحدث له قط ، وهو الجائل الهائم

المعتاد على حياة الرعاة ، أن أحس بتبعية الأرض كدار ووطن كما أحس هنا .

وسار في هذه الأرض اللطيفة تصحبه هذه الأصوات في نفسه وتقوده ، وترافقه أحاسيس العائد الى الوطن . وأحس للمرة الأولى بعد شهور طويلة أنه ليس غريبا مضطهدا هاربا محكوما عليه بالموت ، وأنه منبسط الصدر ، لا يفكر في شيء ، ولا يشتاق الى شيء وأنه مندمج في الحاضر الهادئ الصافي القريب ، وأنه شاكر ، مندهش قليلا من نفسه ومن هذه الحالة النفسية الجديدة الغريبة التى يعانيها ناعما مغتبطا ، ومندهشاً من هذا الانشراح المجرد من الرغبات ، ومن هذا الصفاء المجرد من التوتر ، ومن هذه الطريقة اليقظة المجدية من التمتع والتأمل .وأحس دازا بشيء يجذبه عبر المراعي الى الغابة ، تحت الأشجار ، الى الظلمة المختلطة ببقع من الشمس منتثرة ، واشتد احساسه بالعودة وبالوطن ، وقاده هذا الاحساس الى طرق كانت أقدامه تلوح كما لو كانت تعرفها ، الى أن وصل الى دغل ، الى غابة صغيرة وسط الغابة الكبيرة ، والى كوخ صغير جدا كان اليوجي يجلس أمامه ساكنا لا يتحرك ، اليوجي الذي رآه وقدم اليه اللبن ذات مرة في الماضي .

وظل دازا واقفا كأنما صحا من نوم . كان كل شيء على حاله ، لم ينقض زمن هنا ، ولم يحدث قتل ولا ألم . والظاهر أن الوقت والحياة وقفا ساكنين هنا صلدين كالبللور في هدوء وخلود . وتأمل دازا الشيخ وعاد الى قلبه الاعجاب والحب والحنين الذى أحس به عندما رأى الرجل لأول مرة . وتأمل الكوخ وقال في نفسه أن الكوخ يحتاج قبل حلول موسم الأمطار القادم الى ترميم . وتجرأ على الخطو خطوات داخل الكوخ ونظر الى ما يحتويه . لم يكن به كثير ، بل كان ما به يوشك ألا يكون شيئا ، كان به فراش من ورق الشجر ، واناء متخذ من القرع به بقية من ماء ، وكيس فارغ

من القش . فأخذ الكيس وذهب به الى الغابة يبحث عن طعام ، فأتى بفاكهة وبنخاع شجر حلو ، ثم أخذ الاناء وملأه ماء قراحا . وبهذا تم له فعل ما يمكن فعله هنا . ما أقل ما يحتاج المرء ليعيش! ثم قعد على الأرض وغرق في أحلام اليقظة . كان مسرورا بالراحة والحلم في الغابة ، وكان مسرورا بنفسه وبالصوت المدوي في أعماقه ، والذي قاده الى هنا ، الى هذا المكان الذي أحس فيه صبياً بشيء كأنه الطمأينة والسعادة والوطن .

وهكذا بقي عند الصامت . جدد له فراشه ، وبحث له ولنفسه عن طعام ، وأصلح الكوخ القديم ، وبدأ يبنى كوخا ثانيا لنفسه على مسافة قليلة من الأول . وبدا الشيخ كأنه يرضى به ، أو على الأصح لم يكن من الممكن أن يتبين الانسان هل أحس الشيخ بوجود دازا أو لم يحس به اطلاقا . فقد كان الشيخ عندما ينهض من تأمله يذهب الى الكوخ لينام أو ليأكل لقمة ، أو ليسير في الغابة خطوات قليلة ولا يفعل غير ذلك البتة . عاش دازا قريبا من الشيخ الجليل كالخادم قرب أحد العظماء ، أو على الأصح كحيوان من الحيوانات الأليفة المنزلية أو كالطير المروض أو كالمونجو قرب الانسان ، يخدم ولا يبدو . ولما كان قد مضى من عمره وقتا طويلا هاربا متوارياً ، مرتابا مثقل الضمير يتوقع الاضطهاد دائما ، فقد أفادته الحياة الهادئه والعمل اليسير وجوار انسان لا يلوح عليه أنه يحس بوجوده ، فائدة كبيرة الى حين . فكان ينام ولا يحلم أحلاما مزعجة ، وكان ينسى أحيانا نصف نهار أو أحيانا النهار بطوله ما جرى له . ولم يفكر في المستقبل ، وكان كل ما يأمله في المستقبل هو أن يبقى هنا ويتلقى على يد اليوجي ما يدخل به الى سر حياة النساك فيصبح هو أيضا يوجي وينال نصيباً من اليوجية ومن عدم الاكتراث المتسم بالكبرياء . وكان قد بدأ يقلد تصرفات الشيخ ، ويجلس مثله القرفصاء بلا حركة . وينظر مثله الى عالم مجهول فوق واقعي ويتجاهل كلما يحيط به . وكان سرعان ما يتعب وسرعان ما تتصلب أطرافه ويؤلمه

ظهره ، وتؤرقه الحشرات وتتملكه احساسات مختلفة ، أحس فراغا وخفة وهياما كما يرى الانسان أحيانا في بعض الأحلام اذ يمس الأرض بين الفينة والفينة مسا خفيفا ثم يرتفع توا ويهيم كأنه قطعة من سحاب . وفي تلك اللحظات تكشف له ما يمكن أن يحس به الانسان عندما يهيم على الدوام وعندما يتخلص بدنه وروحه من ثقلهما ، فيتحرك في نفس حياة أكثر عظمة وصفاء وسموّا ، مرتفعا متعاليا داخلا في حياة أخرى لا زمن فيها ولا تحور . ولكن ما أحس به لم يكن الا لحظات مما يشبه الظن . وكان يفكر عندما يعود خائبا من تلك اللحظات الى المألوف ، ان عليه أن يبذل جهده ليجعل الشيخ الأستاذ معلما له ، ليأخذ بيده الى تمريناته ، والى فنونه السرية وليجعل منه يوجيا . ولكن كيف السبيل الى هذا ؟ لقد لاح له أن الشيخ لن يراه بعينيه ولن يكلمه بألفاظ أبدا . فكما كان الشيخ وراء النهار ووراء الزمن ، وراء الغابة والكوخ ، كان وراء الكلمات أيضاً .

لكن الشيخ تكلم ذات يوم كلمة . كان دازا قد دخل في وقت لازمته الأحلام فيه بالنهار والليل ، حلوة مؤرقة ، أوقبيحة مقلقة ، تدور تارة حول امرأته برافاتي ، وتارة حول مخاوف حياة الهارب التي يحياها . ولم يكن بالنهار يتقدم في اليوجا ، كان لا يحتمل القعود والتمرين طويلا ، وكان لا يستطيع أن يمنع نفسه من التفكير في النساء وفي الحب وكان كثير التجوال في الغابة . ربما كان الجو مسؤولاً عن ذلك ، فقد كان ساخنا تهب فيه رياح . وأتى يوم من هذا النوع الرديء ، اشتد فيه طنين الناموس ، وحلم دازا بالليل حلما قاسيا ترك في نفسه الخوف والانقباض . ولم يعرف عندما استيقظ من مضمونه شيئا ، اللهم إلا إحساساً بالانقلاب الحرام المخجل الى أحوال سابقة ومراحل قديمة من حياته . وجلس طوال النهار حزينا مضطربا حول الكوخ ، يلعب مرة بهذا العمل ومرة بذلك ، ويجرب التأمل أكثر من مرة ، فما تلبث حمى الاضطراب أن تتملكه على الفور ، فترتعد أطرافه

ويحس تنميلا في قدميه ولهيبا في ظهره ، ولم يكن يحتمل الحال إلا لحظات ينظر بعدها خجلا الى الشيخ الذى يقعد في وضع بديع ووجهه بعينيه المتجهتين الى الداخل يهيم في صفاء ساكن بكر كتاج الزهرة .

فلما نهض اليوجي في ذلك اليوم واتجه الى كوخه ، واعترض دازا طريقه وكان ينتظر هذه اللحظة منذ وقت طويل ، وقال له وهو يحس أشد الخوف : « لا تؤاخذني أيها الجليل عن اقتحامي راحتك . فأنا أبحث عن الطمأنينة ، أبحث عن الهدوء ، أريد أن أعيش مثلك وأن أصبح مثلك . انظر إليّ ، فلم أزل شابا ، ولكني قاسيت ألما كثيرا ، لقد لعب القدر بي لعبا فظيعا . ولدت لأكون أميرا فأصبحت راعيا ، ولما أصبحت راعيا كبرت سعيدا قويا كالعجل الفتي ، بقلب مفعم بالبراءة . ففتحت عينيّ على النساء ، وما أن رأيت أكثرهن حسنا حتى وضعت حياتي في خدمتها ونلتها ، ولو لم أنلها ، لمتّ . وتركت أصحابي الرعاة وتقدمت لأحصل على يدها ، وحصلت عليها وأصبحت صهرا ، وكان علي أن أؤدي العمل الشاق ، ولكن برافاتي كانت لي وكانت تحبني ، أو اعتقدت أنا أنها كانت تحبني ، فقدكنت كل مساء أعود إليها فأرتمي بين ذراعيها وأرقد مستندا الى قلبها . ثم أتى الراجا الى المنطقة التي طردت منها صبيا ، أتى وأخذ مني برافاتي ، وشاء القدر أن أراها بين ذراعيه . كان ألمي عند ذاك أشد ألم ، فغيرني وغيّر حياتي . فقتلت الراجا ، وارتكبت جريمة القتل وعشت حياة المجرم المطلوب ، وأحسست كأن كل شيء يسعى ورائي للامساك بي ، ولم أجد طمأنينة في ساعة من حياتي حتى أتيت الى هنا . أنا انسان طائش ، أيها الجليل ، أنا قاتل ، وربما قبض عليّ ومزقت اربا . لك أعد أستطيع احتمال الحياة الفظيعة التي أحياها ، وأريد أن أتخلص منها » .

واستمع اليوجي الى انفجار دازا هادئا مسبل العينين . ثم فتح عينيه وركزهما على وجه دازا ، في نظرة صافية نافذة جامدة توشك ألا تكون

محتملة ، نظرة مستجمعة منيرة ، وبينما كان يتأمل وجه دازا ويفكر في حكايته العجولة ، رسم فمه ابتسامة ثم ضحكة ، ضحكة صامتة وهز رأسه وقال وهو يضحك هكذا : «مايا! مايا!» .

وبقي دازا واقفاً مضطربا خجولا ، راح الآخر يتمشى قليلا على الطريق الضيق بين الأشجار قبل أن يتناول الطعام ، كان يتمشى متزنا منتظما جيئة وذهابا ثم عاد الى الكوخ وعاد وجهه يتخذ التعبير المألوف ، موجها نظره الى مكان آخر غير مكان ظواهر العالم . فماذا كانت هذه الضحكة التي أجابت على دازا المسكين خارجة من هذا الوجه الدائم الجمود! لقد فكر طويلا في هذا الأمر . هل كانت هذه الضحكة حسنة النية أم كانت ساخرة ، تلك الضحكة الفظيعة في اللحظة التى اعترف فيها دازا يائسا متوسلا ، هل كانت مواسية أو مستهجنة ؟ هل كانت الهية أم شيطانية ؟ هل كانت انبساط الحكيم من طيش الآخرين ؟ هل كانت رفضا أم وداعا أم طردا ؟ أم هل كانت نصيحة وحضا لدازا على تقليده والضحك معه ؟ لم يستطع أن يحل اللغز ، وان ظل طوال الليل يفكر في تلك الضحكة التي بدت تلخص حياة العجوز وسعادته وبؤسه ، وراح يقلب هذه الضحكة بين أسنان أفكاره كما يقلب الانسان بين اسنان فمه جذرا جامدا له مذاق ورائحة . وكذلك قلب واجتهد في الكلمة التي قالها الشيخ في وضوح وصفاء وسرية وسرور وضحك : «مايا! مايا!» وكان دازا يعرف نصف ما تعنيه الكلمة ، ويخمن النصف الآخر ، كذلك الطريقة التي نطق بها الضاحك ، كانت توحي بمعنى . مايا ، كانت هي حياة دازا ، وشباب دازا ، وسعادة دازا الحلوة ، وبؤسه المرير ، مايا كانت برافاتي الجميلة ، مايا كانت الحب ولذته ، مايا كانت الحياة كلها . حياة دازا وحياة الناس أجمعين ، وكل شيء كان في نظر هذا اليوجي الهرم «مايا» ، كان شيئا يشبه عبث الطفولة ، يشبه التمثيلية والمسرحية والخيال ، كان لا شيء في جلد مزركش ، كان فقاعة صابون ،كان شيئا يمكن أن يضحك الانسان منه بمتعة ما ويحتقره في الوقت

نفسه ، ولا يأخذه مأخذ الجد بحال من الأحوال .

وإذا كانت حياة دازا قد انتهت وبُتّ في أمرها في نظر اليوجي الشيخ بكلمة مايا ، فانها لم تكن في نظر دازا نفسه كذلك ، لكم ود أن يصبح يوجيا ضاحكا وألا يرى في حياته سوى مايا ، ولكن ما كان قد نسيه حينا هنا في الملجأ من أمور الاعياء والهرب ، قد عاد حيا يقظا منذ أيامه ولياليه المضطربة . وتأكد من أن أمل تعلمه فن اليوجا فعلا ، أو التمكن من تقليد الشيخ ، أمل ضعيف جدا . ـ فماذا استفاد من اقامته في هذه الغابة ؟ لقد كانت اقامته فيها اقامة في ملجأ ، استطاع فيه أن يتنفس ويستجمع قواه ، ويعود الى التعقل ، وكان هذا شيئا كثيرا . وربما كان البحث عن قاتل الأمير قد انتهى في البلاد وكان في استطاعته أن يضرب في الأرض دون خطر كبير . فقرر أن يرحل في اليوم التالي ، فالدنيا واسعة ولا حاجة به الى البقاء في هذا الركن الصغير الى الأبد . وكان لقراره هذا أثر مطمئن في نفسه .

وأراد أن يرحل في الصباح الباكر التالي ، لكنه عندما صحا من نوم طويل ، كانت الشمس قد ارتفعت في السماء ، وكان اليوجي قد بدأ تأمله ، ولم يشأ دازا أن يرحل بلا وداع ، وكان علاوة على ذلك يريد منه شيئا . وهكذا انتظرالساعة بعد الساعة ، الى أن نهض الرجل وفردأطرافه وراح وجاء... فقطع طريقه وانحنى له مرارا ولم ينته إلا عندما وجه أستاذ اليوجا نظرة إليه متسائلاً . فقال متواضعا : «أيها الأستاذ ، سأسير في طريقي ولن أقطع عليك هدوءك بعد الآن ، فاسمع ، أيها الخليل العظيم ، انني أتوجه اليك هذه المرة كذلك برجاء . لقدصحت في « ماريا » وضحكت عندما قصصت عليك حياتي . وأنا سأتوسل اليك أن تخبرني بشيء عن المايا » .

واتجه اليوجي الى الكوخ ، ونظر الى دازا نظرة تأمره أن يتبعه . ومد الشيخ يده الى إناء وقدمه الى دازا أمره أن يغسل يديه . ففعل دازا مطيعا . ثم سكب الأستاذ بقية الماء في الأعشاب ومد الاناء الى الشاب وأمره أن

يحضر ماء قراحا . فأطاع دازا وجرى وقلبه ينبض بخلجات الوداع ، وهو يسير في المدق الى النبع ، للمرة الأخيرة يحمل الاناء الخفيف اللامع ، المتآكل الحافة ، ويدفعه في سطح الماء الذي ارتسم عليه انعكاس الأعشاب والنباتات وتيجان الأشجار وقباب هاماتها وارتسمت عليه السماء الزرقاء الحلوة في بقع مضيئة متناثرة ، وأظهر كذلك في ظل داكن وجهه وهو ينحني عليه للمرة الأخيرة . ودس الأناء في الماء بطيئا ممتلئا بالأفكار ، وأحس اضطراباً ولم يستطع أن يصل الى بر الوضوح ويعرف لماذا يحس احساسا غريبا ، ولماذا يحس بالحزن بعد أن قرر أن يرحل ، رغم أن الشيخ لم يدعه للبقاء .

وقعد على حافة النبع وتناول شربة ماء ، ثم نهض حذرا يحمل اناء الماء وأراد أن يسلك أقصر الطرق ، فتناهى الى أذنه صوت خلب لبه وأفزعه في وقت معا ، صوت سمعه في بعض أحلامه ، وفكر فيه بحنين مرير ساعات كان فيها يقظا . كان الصوت حلوا ، فيه طفولة ، يجتذبه عبر ظلمة الغابة ،حتى ارتعد قلبه من الخوف ومن الرغبة . كان الصوت صوت برافاتي ، صوت زوجته . كانت تناديه : « دازا » . وتلفت حوله مكذباً ، وإناء الماء لايزال بين يديه ، فإذا بها تظهر من بين الأشجار نحيلة لدنة ممشوقة الساقين ، برافاتي الحبيبة التي لم ينسها ، برافاتي الخائنة . ووقع الإناء من يديه ، وجرى ناحيتها . ووقفت أمامه تبتسم خجلة بعض الخجل ، تنظر إليه بعيون المها ، ولما اقترب منها تبين أنها تقف على صندل من الجلد الأحمر وتلبس ملابس جميلة ثرية ، وتعتصم بأسورة ذهبية وتتحلى بأحجار كريمة لامعة ملونة في شعرها الأسود . فانتفض راجعاً . هل مازالت خليلة أمير ؟ ألم يقتل هو الأمير نالا ؟ أما زالت تسير متزينة بهداياه ؟ كيف تسمح لنفسها وهي تتحلى بهذه الحلى والأحجار الكريمة بالتقدم نحوه والنطق باسمه ؟

كانت أجمل من أي وقت مضى ، وقبل أن يتمكن من سؤالها ، وجده

يضمها بين ذراعيه ويغرق جبينه في شعرها ، ويرفع وجهها اليه ويقبلها على فيها . وبينما هو في ذلك أحس كأن كل شيء عاد إليه وأصبح ملك يمينه ، السعادة ، الحب ، الرغبة في الحياة ، الحنان . وما لبث أن بعد بفكره عن الغابة وعن الناسك وعن التأمل واليوجا ونسيها . كذلك إناء الناسك اليوجي تركه حيث وقع ولم يفكر في إعادتهاإلى صاحبه ، و اتجه هو وبرافاتي الى حافة الغابة . وراحت برافاتي تحكي له بسرعة كيف أتت الى هذا المكان وماذا جرى وحدث من أمور .

كان ما حكته يثير العجب . وجرى دازا الى حياته الجديدة على نحو يثير الدهشة ويأخذ باللب ويذكر بالحكايات الخرافية . لم يستعد برافاتي وحدها ، ولم يتأكد من موت غريمه المقيت نالا فحسب ، ولم يأته خبر توقف طلبه كقاتل فقط ، بل لقد أصبح هو ، دازا ابن الأمير الذي نشأ بين الرعاة ، الوريث الشرعي ونودي به أميراً . وعلم أن أحد البراهمة وأحد الرعاة المتقدمين في السن ، ذكرا الناس بقصة ابعاده حتى أصبحت القصة على كل لسان ، وهكذا تغير الأمر وأصبح الرجل الذي طال البحث عنه باعتباره قاتل «نالا» لينال العذاب والقتل ، يبحث عنه في طول البلاد وعرضها ليصبح راجا وليدخل مدينة أبيه وقصر أبيه دخولاً رسمياً عظيماً . كان حلماً . وأجمل ما أعجب دازا هو أن الحظ شاء أن تكون برافاتي ، دون غيرها من الرسل ، هي التي وجدته وحيته لأول مرة . وعند حافة الغابة وجد خياماً ، يتعالى منها الدخان ورائحة الشواء ، ولقيت برافاتي من حاشيتها التحية ، وبدأ احتفال على الفور عندما أعلن دازا ، زوجها ، عن نفسه . وكان بين الحاضرين رجل ، كان زميلاً لدازا أيام وجوده بين الرعاة ، وكانه هو الذي دل برافاتي وحاشيتها على هذا المكان باعتباره واحداً من الأماكن التي كان يتردد عليها وضحك الرجل مسروراً عندما عرف دازا وجرى إليه وأوشك أن يربت على كتفه ويعانقه ولكنه تذكر أن زميله القديم أصبح راجا ، فوقف أثناء الجري فجأة

كأن شللاً أصابه ، ثم تقدم الى الأمام في أدب وأدى التحية المهذبة بانحناءة عميقة . ولكن دازا أنهضه وناداه باسمه وعانقه وسأله أن يتمنى أمنية . فتمنى الراعي عجلا ، فمنحه ثلاثة من خيرة العجول . وقدم الناس الى الأمير الجديد ، قدم اليه الموظفون ، وكبار الصيادين ، وبراهمة البلاط ، فتقبل تحياتهم . ومدت المائدة وعزفت الموسيقى والقيثارة والناي ، وكان حفلا بدا لدازا كالحلم . لم يكد يصدق أن ما يجري له هو الحقيقة ، لكنه صدق حقيقة أولى ، هى برافاتي ، زوجته الشابة التى ضمها بين ذراعيه .

واقترب الموكب على مراحل قصيرة من المدينة ، وسبق الى المدينة رسل أبلغوا الخبر السعيد ، أن الراجا الشاب قد عثر عليه وأنه يقترب من المدينة . ولما ظهرت المدينة للأنظار كانت مليئة بقرع الطبول والدفوف . وأقبل تجاه موكب المهراجا ، موكب البراهمة يلبسون الثياب البيضاء ، وعلى رأس البراهمة خليفة فازوديفا الذى أرسله قبل نحو عشرين عاما الى الرعاة ومات منذ مدة قصيرة . وحيوه وأنشدوا الأناشيد وكانوا قد أشعلوا نارا عظيمة للقرابين أمام القصر المنيف الذي قادوه إليه .

وأخذ دازا الى داره ، وفيه تكررت التحيات وكلمات التبريك والترحيب . أما في الخارج فظلت البلدة تحتفل الى وقت متأخر من الليل .

وتلقى دازا كل يوم على يد اثنين من البراهمة دروسا في العلوم الضرورية لمنصبه واشترك في القرابين ، وحكم وتمرس في فنون الفروسية والحرب . وعلمه أحد البراهمة اسمه جوبالا(١) السياسة ، وحكى له أحواله وأحوال اسرته وحقوقها ومطالب أبنائه في المستقبل وبصره بأعدائه . فنبه أولا الى أم «نالا» التي جردته قديماً من حقوقه ، وأرادت أن تعتدي على حياته ، والتي أصبحت الآن تعتبر دازا قاتل ابنها ، وهربت واحتمت بالأمير المجاور جوفندا(١) ، وعاشت في قصره ، وكان هذا الأمير جوفندا وأسرته من

---

(١) Govinda, Gopala

قديم الزمان أعداء لأجداد دازا وكانت بينهم الحروب لمطالبتهم بأجزاء من مملكة دازا . أما الجار الجنوبي الأمير جايبالي ، فقد كان صديقا لوالد دازا ، ولم يكن يحب «نالا» . وهكذا كان من أهم واجبات دازا أن يزوره ويقدم له العطايا ويدعوه الى العيد القادم .

واندمجت السيدة براتي في طبقتها النبيلة كل الاندماج ، وعرفت كيف تظهر بمظهر الأميرة ، ولاحت في ثيابها الجميلة وحليها رائعة الجمال كما لو كانت منذ مولدها من مستوى لا يقل عن مستوى مولاها وزوجها وعاش الزوجان في سعادة الحب ، العام بعد العام ، وكانت سعادتهما تضفي عليهما بريقا ونورا كمن أنعم الله عليهم ، فاحترمها الشعب واحبهما . فلما ولدت له بافاتي بعد طول انتظار ابنا جميلا ، اكتملت سعادة الأمير ، واسماه رافانا باسم أبيه . وبعد مولد هذا الابن أصبح للمملكة وللسلطة ،للبيوت والحظائر ، والمخازن الألبان وللأنعام والخيول ضعف ما كان لها من معنى ومن أهمية ومن قيم ومن بهاء : كانت كل هذه الأملاك جميلة ممتعة لأنها كانت تحيط ببرافاتي وتكسوها وتحليها وتكرمها ، أما الآن فقد ازدادت جمالا ومتعة وأهمية فقد أصبحت أيضاً ميراثا لابنه وسعداً له في المستقبل .

كانت متعة برافاتي تتركز خاصة في الاحتفالات وفي الأبهة وفي الترف في الملبس وفي الزينة وفي الخدم والحشم ، أما متعة دازا فكانت تتركز خاصة في حديقته التي زرع فيها أشجارا نادرة قيمة ونقل اليها الببغاوات والطيور الملونة ، وصار يذهب اليها كل يوم ليطعمها وليتحدث معها . كذلك اجتذبه العلم اليه ، فتعلم على أثر تتلمذه المثمر على البراهمة شعرا كثيرا وحكماً كثيرة ، وتعلم فن القراءة والكتابة ، وعين كاتبا لديه كان يتقن اعداد صفحات من ورق النخيل ويجعل منها لفائف للكتابة ، وكلفه بأن ينشىء له مكتبة . وفي هذه المكتبة ، بين الكتب ، اتخذ حجرة صغيرة ثمينة ذات حيطان من الخشب الكريم حفرت فيه بكثرة أشكال تمثل حياة الآلهة ، وكان

يدعو اليه البراهمة ، صفوة العلماء والمفكرين من الكهنة ويستمع الى مناقشاتهم في خلق العالم وفي «مايا» الفيشنو الأكبر ، وفي الفيدات المقدسة ، وفي قوة التضحية وفاعلية الكفارة التي تفوق قوة التضحية والتي يستطيع بها الانسان العادي أن يخيف الآلهة ويجعلها ترتعد منه ارتعادا . وكان البراهمة الذين يحسنون الكلام والمناقشة والجدل يتلقون من هدايا عظيمة ، فكان منهم من يتلقى بقرة جميلة جائزة له على انتصاره في مناقشة محتدمة . وكان مما يثير الضحك والاشفاق أحيانا ، أن العلماء الكبار بعد فراغهم من تلاوة حكم الفيدات وشركها والارتفاع بها الى أعلى السماوات والنزول بها الى أعمق البحار ، كانوا يخرجون فخورين منتفخي الأوداج بما تلقوا من هدايا التكريم ، أو يدخلون في شجار عنيف من أجلها .

وكان الأمير دازا بصفة عامة يرى في ثرواته وفي سعادته وفي حديقته وفي كتبه وفيما يتصل بالحياة وبالانسان أشياء عجيبة شكلية مؤثرة ومضحكة في نفس الوقت ، كهؤلاء البراهمة ذوي الحكمة والغرور معاً ـ ناصعة وحالكة ، مرغوبة ومستهجنة . فكان يمتع نظره بزهرات اللوتس العائمة على برك حديقته وبتشكيلات الألوان البراقة في ريش الطواويس والدجاج ، البري والبشروش ، وبالنقوش المذهبة في قصره أحيانا ، ويجد فيها شيئا إلهياً ، ويعتقد أنها تتأجج بالحياة الأبدية ، ولكن هذه الأشياء كانت في أحيان أخرى ، بل كانت في الوقت نفسه ، تلوح له كأشياء غير واقعية ، غير ملونة ، غير يقينية ، تميل الى الفناء والانحلال ، وتتسم باستعداد للارتداد الى الهيولية والفوضى . فكما اتضح في حالته هو ، الأمير دازا ، اذ كان أميراً ثم راعيا ، ثم هبط فأصبح قاتلا وانسانا مهدر الدم ، وأخيرا عاد فارتفع وأصبح أميراً ، تحركه قوى مجهولة ، ولا يعرف شيئا من أمر غده وبعد غده كذلك مايا في لعبها بالحياة ، فيها الرفعة وفيها الضعة ، فيه الخلود وفيها الموت ، فيها السمو وفيها السخرية . وبدت ، حتى هي ، الحبيبة ، حتى

برافاتي الجميلة ، تجردت مرات من سحرها وبدت له سخيفة مضحكة ، وأصبحت تتزين بأساور كثيرة جدا وتنظر بكبرياء وفخار وتجتهد لتكون في مشيتها ذات جلال عظيم مفرط .

كان يفضل على الحديقة وعلى الكتب ابنه الصغير رافانا ، الذى حقق أمل حبه ووجوده وأصبح هدف حنانه وقلقه ، كان طفلا رقيقا ،كان أميرا حقيقيا خالصا ، له عينان كعيون المها مثل أمه ، وميل الى التفكير والخيال كأبيه . وكان أحيانا عندما يرى الصغير واقفا أمام شجرة من شجر الزينة أو قاعداً على سجادة ، غارقا في تأمل حجرة أو لعبة مزخرفة أو ريشة طير ، رافعا حاجبيه سارحا محدقا بعينيه ، يعتقد أن الابن يشبهه شبها كبيرا . وكان يحبه حبا جما عرف مقداره عندما تحتم عليه أن يتركه مرة ويغيب عنه زمنا .

فقد جاء ذات يوم رسول مسرع من المناطق المتاخمة لبلاد جاره جوفندا وأعلن أن رجالا من عند جوفندا اخترقوا الحدود وسرقوا ماشية واختطفوا عددا من الرجال . فأخذ دازا عدته على الفور واصطحب معه رئيس الحرس الخاص وبضع عشرات من الخيول ونفرا من الرجال وانطلق لمطاردة اللصوص . ولما حمل ابنه لحظة الرحيل في يديه وقبله تأجج الحب في قلبه شبيها بنيران من الألم . وتحول هذا الألم الناري الذي فاجأه وانطلق اليه كنذير من المجهول ، تحول الى معرفة والى فكرة أثناء السير الى العدو . فقد راح دازا وهو يمتطي صهوة الحصان يفكر في السبب الذي من أجله جلس على الجواد وراح يعدو هكذا عنيفا سريعا في دروب الأرض . ما هي هذه القوة التي تضطره الى مثل هذا العمل والجهد ؟ ففكر وتبين أنه في قرار قلبه لا يهتم ولا يأسف لسرقة حيوان وأناس على الحدود ، وتبين أن السرقة واهانة حقوق الأمير لا تستنفره الى الغضب والى العمل ، وكان الأحرى به أن يقابل خبر سرقة الماشية بابتسامة حنان . ولكنه رأى أنه لو كان قد قابل

الرسول بهذه الابتسامة لكان قد ظلمه ، بعدأن وصل خائر القوى من العدو والجري بالبلاغ ، ولكان قد ظلم أيضا أولئك الذين تعرضوا للسرقة والذين تعرضوا للأسر والسبي والابعاد من وطنهم وحياتهم المسالمة والوقوع في العبودية والحياة في الغربة . ولكان أضر برعاياه الآخرين الذين لم ينلهم بالسوء أيضاً ، بصرفه النظر عن الانتقام الحربي ، ولصعب عليهم تحمل تصرفه هذا . ولما فهموا معنى تقاعس أميرهم عن نصرتهم وحماية أرضه ، ولانتهى أمرهم الى صرف النظر عامة عن توقع عونه أو انتقامه عند حدوث أمر من الأمور العنيفة . وتأكد من أن السير الى الانتقام واجب عليه . ولكن ما هذا الواجب ؟ ما أكثر الواجبات التى نتجاهلها دون أن ينتفض قلبنا أقل انتفاضة! فما هو السبب الذي من أجله لا يدخل واجب الانتقام ضمن الواجبات التي يصح اهمالها ؟ لماذا يلوح له جديرا بالاهتمام الشديد ويملك عليه نفسه ؟ وما كاد هذا السؤال يطرأ ويصل الى قلبه حتى رد عليه قلبه على الفور ، بأن انتفض مرة أخرى من ألم فراق رافانا الأمير الصغير . فاذا كان الأمير ليقبل قيام الآخرين بسرقة حيوانه وخطف رجاله دون أن يتعرض للغاصبين بالمقاومة ، فيؤدي هذا الى زيادة اقتراب السرقة والنهب والعنف من حدود بلاده ثم الى وقوف العدو أمامه واصابته ، فيما يحدث به أشد الآلام قوة ومرارة ، في ابنه! سيخطف الأعداء ابنه ، خلفه وولي عهده ، وسيقتلونه وربما عذبوه ليموت ، وهذا أشد الآلام نكاية ، أشد بكثير من موت برافاتي . لهذا اذن امتطى صهوة الجواد متحمسا ، ولهذا تمسك بواجباته وأخلص لها . فلم يصبح دازا أميرا مخلصا لواجباته عن احساس منه بضياع الحيوان أو الأرض ، أو عن طيبة تجاه رعاياه أو عن تحمس لاسم أبيه ، بل عن حب عنيف أثيم مجنون لابنه ، وعن خوف عنيف جنوني من الألم الذى يمكن أن يحدث فيه فقدان هذا الطفل .

الى هذا الحد من التفكير وصل دازا أثناء ركوبه الحصان . أما رجال

جوفندا فلم يتمكن من اللحاق بهم ومعاقبتهم ، كانوا قد لاذ وا بالفرار مع ما سرقوا ونهبوا . ولكنه أراد أن يبين ارادته القوية ويبرهن على شجاعته فنفذ في حدود الجار وأتلف قرية من قراه ، ونهب منها بعض الحيوان واستعبد بعض الناس . واستمرت " حملة عدة أيام عاد بعدها مظفرا الى الوطن . وأثناء عودته راح يفكر ويمعن التفكير ، وقد بدا عليه السكون والحزن ، فقد اتضح له أنه تورط بنفسه وبعمله في شبكة خبيثة أحاطت به وتملكته وجردته من كل أمل في الخلاص منها .ففي حين كان ميله الى التفكير والى التأمل الهادئ والى الحياة الوديعة البريئة يزداد وينمو ، كان ينمو من الناحية الأخرى اضطرار الى العمل والى الاضطراب مصدره حبه لرافنا وخوفه عليه وقلقه من أجله حياته ومستقبله ، فأثمر العطف شجارا وأثمر الحب حربا . فقد دفعته رغبته في العدل وفي عقاب المجرم الى أن ينهب قطيعا والى أن ينزل الرعب في أهل بعض القرى والى أن يسبي نفرا من الأبرياء والى ما يؤدي اليه ذلك من تكرار الانتقام والعنف الى أن تتحول حياته كلها وبلاده كلها الى حرب والى عنف وصليل سلاح . كانت هذه الفكرة أو الصورة الخيالية هي التي أحلت به الكدر والسكون عند عودته الى داره .

وكذلك لم يخلد الجار العدو الى السكينة . بل جدد هجماته وعمليات النهب التي بدأها . وتحتم على دازا الخروج لمعاقبته ولرده ، فاذا هرب العدو ، رضي بأن يقوم جنوده وقناصوه بإنزال الضرر بالجار . وزاد عدد الجنود في العاصمة وكانوا يركبون الخيول ويحملون السلاح ، ورابط الجنود بصفة دائمة في بعض القرى المتاخمة للحدود لحمايتها ، وتعددت اللجان العسكرية والاستعدادات الحربية . ولم يستطع دازا أن يفهم معنى وفائدة الحرب الصغيرة المستمرة أبدا ، وساءه ما يصيب المنكوبين من ضر ، وما يحيق بالبعض من موت ، وحزن على حديقته وعلى كتبه التى اضطر الى الانصراف عنها ، وحزن على ما كان في أيامه وفي قلبه من طمأنينة .

وتحدث مع جوبالا البرهمي في هذا الأمر مرارا ، ومع زوجته برافاتي أكثر من مرة . وكان رأيه أن يسعى الى الالتجاء الى واحد من الأمراء المرموقين كحكم لكي يعيد السلام وأن يعلن استعداده للتنازل عن بعض المراعي والقرى في السبيل . لكن دازا لقي من مستمعيه خيبة الأمل وتبين أن البرهمي وأن زوجته لا يريدان الاستماع الى مثل هذا الكلام .

وأدى الخلاف في الرأي ، مع برافاتي الى مناقشات عنيفة انتهت بالقطيعة . وأعلن هو لها في صيغة التوسل والإلحاح أسبابه وبين لها أفكاره ، ولكنها كانت تعتبر كل كلمة ينطق بها موجهة الى شخصها لا موجهة ضد الحرب وضد التقتيل الذي لا مبرر له . وقالت له في حديث ملتهب طويل ان العدو في خطته يعتمد على طبيعة دازا وحبه للسلام (وكانت تقصد خوفه من الحرب) فيرغمه على السلام المرة بعد المرة ، ويقتطع منه كل مرة أرضا وشعبا ، حتى ينتهي في النهاية الى اضعاف دازا اضعافا يمكنه من القيام بالحرب الصريحة ليجرده من البقية الباقية . فليس الأمر ، على ما قالت له ، أمر قطعان أو قرى ، أو أمر ميزات ومساوئ ، ان الأمر أمر الكل بأكمله ، الأمر أمر البقاء أوالفناء . وأضافت انه اذا لم يكن دازا يعلم واجبه نحو مركزه ونحو ابنه وزوجته فان عليها أن تعلمه اياه . وكانت عيناها تتأججان وكان صوتها يرتعش . والحق أنه لم يرها منذ زمن طويل في هذا الحسن وفي هذه العاطفة المتحمسة اللذين بدت بهما حينذاك ، لكنه لم يشعر الا بالحزن .

واستمرت حوادث الحدود واستمرت أعمال العنف ، حتى جاء موسم الأمطار الطويل فأوقفها الى حين . وكان بلاط دازا ينقسم الى حزبين ، حزب السلام ، وكان حزبا صغيرا يتبعه علاوة على دازا عدد قليل من البراهمة المتقدمين في السن ومن الرجال المفكرين المهووسين بالتأمل . ولكن حزب الحرب ، حزب برافاتي وجوبالا ، كان هو حزب الأغلبية الذى يتبعه الكهنة والضباط . ولقد جدوا في التسلح ، وكانوا يعلمون أن العدو المجاور يجد في

التسلح هو الآخر . وتعلم الصغير رافانا التصويب على يد كبير القناصة ، وكانت أمه تأخذه الى الاستعراضات العسكرية كلها .

وكان دازا في ذلك الوقت يفكر في الغابة التي عاش فيها زمناً حياة اللاجئ المسكين ، ويفكر في الشيخ الأشيب الذي كان يعيش هناك واهباً عمره للتأمل . كان يفكر في هذا الرجل ويجده في حاجة لالتماسه والعودة اليه وطلب نصيحته . ولكنه لم يكن يعرف ما اذا كان الرجل مايزال على قيد الحياة ولم يكن متأكدا من أن الرجل سيستمع اليه وينصحه . ثم لو حدث وكان الرجل مازال حيا وأعطاه نصيحة ، فلن تغير هذه النصيحة شيئا ، وسيسير كل شيء في طريقه . فالتأمل والحكمة من الأشياء الطيبة الكريمة التي يلوح أنها لا تنمو إلا بعيدا ، إلا على هامش الحياة . أما من كان يعوم في تيار الحياة ويصارع أمواجه فأعماله لا شأن لها بالحكمة ، انها تحدث ، كالقدر ، لأنها يجب أن تحدث أو تعانى . حتى الآلهة لا تعيش في سلام دائم أبدي وفي حكمة أبدية دائمة ، بل تتعرض للأخطار والخوف والصراع والتعارك ، كما عرف من الحكايات الكثيرة التي تحكى عنها . فانتهى الأمر بدازا الى الكف عن مجادلة برافاتي ، والى الاهتمام بالاستعراضات العسكرية ، وتوقع حدوث الحرب ، وتنبأ بوقوع الحرب في أحلام مثيرة رآها في منامه ، وبدأ بدنه ينحل ووجهه يظلم كلما نظر الى السعادة والى لذة الحياة تذبل وتبهت . لم يبق له إلا حب ابنه ، ذلك الحب الذى كان كالوردة الحمراء المتأججة في حديقته الصائرة الى الجدب . وكان يعجب من أمر الانسان ومن كمية الفراغ والسخف التي يستطيع تحملها ، ومن قدرته على التعود على القلق والسأم ، وكان يعجب أيضا من أمر هذا الحب الخائف الحائر كيف يزدهر في قلب يلوح مجردا من العاطفة وكيف يشتد ازدهاره ويعنف . واذا كانت حياته غاية عن المعنى ، فانها لم تعدم نواة ومركزا تدورحوله ، فقد كانت تدور حول حبه لابنه . من أجله كان ينهض صباحا في المعسكر ، ويقضي يومه في أعمال

وجهود تهدف الى الحرب والى أشياء يكرهها ويمقتها تماما . من أجله كان يرأس لجان القادة ويسير أعمالها بصبر ويجتهد في تشكيل قراراتها على نحو يتسم بالتأني وعدم الارتماء التام الأحمق في المغامرة .

وكما أصبحت متعة الحياة والحديقة والكتب بالتدريج أمورا غريبة عليه مخلصة له ، أو أصبح هو بالتدريج غريبا عليها غير مخلص لها ، كذلك أصبحت أيضا تلك التي كانت سعادته ونعيمه أعواما طوالا . فقد بدأت برافاتي بالسياسة وأحس دازا في تلك المرة التي ألقيت عليه فيها درسا تفكهت فيه على خوفه من الاثم وحبه للسلام ووصمتهما بالجبن وتحدثت ، محمرة الوجنتين بكلمات متأججة عن شرف الأمير والبطولة والعار النازل ، وأحس دازا آنئذ بالألم والدوار وتبين الى أي حد بعدت امرأته عنه أو بعد هو عنها . ومنذ ذلك الحين والهوة بينهما تتسع وتتسع دون أن يفعل أحدهما شيئا لتضييقها . وكان المفروض أن يقوم دازا بهذا الجهد لأنه هو الذي تبين وجود الهوة وهو الذي رأى أنها تزداد وتصبح أكبر هوة ، بل وتصبح هوة الفناء بين الرجل والمرأة عموما ، بين «نعم» و «لا » ، بين الروح والجسد . وكان عندما يرجع ببصره الى الوراء ، يعتقد أنه يجد فيه الأمور واضحة كلها : كيف حولته برافاتي قديما ، برافاتي الجميلة الساحرة ، الى محب ولهان ، ولعبت به حتى انفصل عن رفاقه وأصدقائه الرعاة وعن حياة الرعاة الصافية ، وعاش من أجلها في الغربة وفي الكد ، كصهر في بيت أناس من غير الأخيار استغلوا حبه الولهان فأثقلوا بالعمل الشاق . ثم ظهر نالا وكان ظهوره بداية المصيبة . فاستولى نالا على امرأته ، أغرى الراجا الغني الأنيق ذو الثياب الجميلة والخيام الفاخرة والخيول والخدم والحشم ، المرأة المسكينة التى لم تتعود على الأبهة ـ ولا بد أن ذلك الاغراء كان أمرا سهلا عليه . ولكن ـ هل كان يمكنه بالفعل أن يغويها بسهولة وسرعة اذا كانت في قرارة نفسها مخلصة مهذبة ؟ اذن لقد أغواها الراجا أو أخذها وأحدث به أقبح

ألم عرفه في حياته . أما هو ، دازا ، فقد انتقم وقتل سارق سعادته ، وكانت لحظة تنفيذ ذلك لحظة انتصار عظيم . ولكنه اضطر بعد اتمام الفعل الى الهرب ، وعاش الأيام والأسابيع والشهور في الأدغال والغابات مهدر الدم ، لا يثق في انسان . فماذا فعلت برافاتي في تلك الأثناء ؟ لم يحدث أن تكلما في هذا الموضوع قط . على أية حال فالمؤكد أنها لم تهرب لتلحق به ، ولم تبحث عنه وتعثر عليه إلا عندما نودي به أميرا بعد اكتشاف المجهول من نسبه وحسبه ، واحتاجت إليه لتعتلي العرش وتنتقل الى القصر . حينذاك ظهرت وانتزعته من الغابة ومن جوار الناسك الجليل ، ثم جاء من ألبسوه الثياب الفاخرة وجعلوه راجا . ولم يكن هذا كله الا أبهة وسعادة غرورة ـ أما الواقع : ماذا ترك وماذا وجد بدلا منه ؟ لقد ترك ما ترك لينال بدلا منه ، أبهة الأمير وواجباته التي كانت في أول الأمر يسيره ثم ظلت تزداد صعوبة ، لينال زوجته الجميلة الضائعة ، وساعات الحب الحلوة معها ، ثم لينال الابن ولينال حب الابن والقلق المتزايد عليه وعلى حياته وسعادته وما أدى اليه ذلك من وقوف الحرب على الأبواب . هذا هو ما أتى به برافاتي عندما وجدته عند النبع في الغابة . فماذا ترك وضيّع ؟ لقد ترك سلام الغابة والوحدة التقية ، وضيّع جيرة اليوجي المقدس وقدوته ، وضيّع أمل التحول الى تلميذ له وخلافته ، وأمل الحصول على راحة النفس العميقة الثابتة المنيرة التي ينعم بها الحكماء ، وأمل الحصول على الخلاص من مصارع ومشاعر الحياة . لقد أغوته برافاتي بجمالها ، وأوقعته في حبائل المرأة وأصابته بعدوى طموحها فضل الطريق الوحيد الى الحرية والسلام . على هذا النحو تصور اليوم تاريخ حياته وكان تاريخ حياته في الواقع يبدو على هذا النحو أمام الفهم ولا يحتاج إلا القليل من التعديل والكتمان والحذف ليكون . فقد حذف دازا مثلا أنه لم يكن تلميذا للناسك ، بل كان على وشك الانصراف عنه بارادته . والانسان عندما ينظر الى الماضي يبدل بعض الأمور .

أما برافاتي فكانت تنظر الى هذه الأشياء نظرة أخرى ، على الرغم من أنها كانت أقل من زوجها استغراقا في التفكير . كانت لا تفكر في نالا أي تفكير . وكانت ترى ، ان لم تخنها الذاكرة ، أنها هي وحدها التي وضعت أساس سعادة دازا وأنها وحدها هي التي أتته بالسعادة ، فقد نصبته راجا ، ووهبته ابنا ، وغمرته بالحب وبالسعادة ، لتجده في النهاية غير خليق بالعظمة غير جدير بمخططاتها الكبيرة . لأنها كانت ترى بوضوح أن الحرب القادمة لا يمكن إلا أن تؤدي الى تحطيم جوفندا والى مضاعفة سلطانها وممتلكاتها . وبدلا من أن يفرح دازا بهذا ويشاركها بحماس شديد ، اذا به يتمتع ، بطريقة غير مناسبة للأمراء في تقديرها ، ويرفض الحب والغزو ، ويفضل أن يظل خاملا عند أزهاره وأشجاره وببغاواته وكتبه يشيخ الى جوارها . أما «فيشفاميترا»[1] فرجل آخر ، قائد الفرسان ، الذي يليها في التحمس للحرب القادمة وللانتصار . إن أية مقارنة تعقد بين الرجلين لا يمكن إلا أن تؤدي الى ترجيح كفة هذا القائد .

ورأى دازا كيف تصادق زوجته هذا الفيشفاميترا ، وكيف تشتد في الاعجاب به وفي السرور من اعجابه بها ، هذا الضابط المرح الشجاع الذي ربما اتصف بالسطحية وبعدم المهارة ، والذي كان ذا ضحكة قوية وأسنان جميلة قوية ولحية مهذبة . رأى دازا هذه بمرارة وبازدراء ، وبتجاهل ساخر كان يصطنعه اصطناعا . ولم يكن يتجسس عليهما ولم يكن يريد أن يعرف هل تتجاوز صداقة الاثنين حدود المسموح به وحدود الأدب أم تلتزمها . بل نظرالى غرام برافاتي بهذا الفارس الجميل ، نظر الى حركتها هذه التي ميزت بها هذا الرجل على زوجها بعد أن حطت من بطولته ، بالاهمال ، البليد في ظاهره المرير في باطنه الذي تعود أن ينظر به الى الأحداث جميعا . أما أن يؤول ذلك على أنه خيانة وعدم اخلاص من جانبها ، أو على أنه تعبير عن

---

(١) Vischwamitra

احتقارها لأفكاره ،فذلك أمر ما كان يهتم له ، كان يهمه أنه هناك وأنه يتطور وينمو ويتقدم ناحيته كالحرب أوكالقدر وإنه لا وسيلة لعلاجه أو لوقفه الا بقبوله واحتماله في هدوء ، وكان القبول والاحتمال ـ لا الهجوم والغزو ـ هما التعبير الوحيد عن طريقة دازا في الرجولة وفي البطولة .

وسواء لزم اعجاب برافاتي لقائد الفرسان أو اعجابه هو بها حدود الأخلاق والمسموح ، أو لم يلزمها ، فقد كانت برافاتى ، في تقديره ، أقل تحملا للذنب منه . لأنه هو دازا ، المفكر الشكاك ، كان بالفعل يميل أكبر الميل الى اعتباره السبب في ضياع سعادته ، أو الى اشتراكها في مسؤولية وقوعه وتورطه في الحب وفي الطموح وفي الثأر وفي أعمال النهب ، وكان ينزع في تفكيره الى جعل المرأة والحب والشهوة مسؤولة في الدنيا عن صراع العواطف والرغبات ، عن الزنى والموت والقتل والحرب . ولكنه مع ذلك كان يعرف أن برافاتي ليست المذنبة وليست السبب ، بل الضحية ، فهى لم تصنع جمالها ولم تصنع حبه لها ولا يمكن أن تكون مسؤولة عنهما ، ويعرف أنها لا تزيد عن أن تكون ذرة صغيرة في شعاع الشمس ، موجة في تيار ، وأنه الوحيد الذى كان عليها إن شاء أن ينصرف عن المرأة والحب والظمأ الى السعادة والطموح ، وأن يبقى راعيا راضيا بين الرعاة أو أن يسعى الى التغلب على مامصيره الفناء في ذاته عن طريق اليوجا . ولقد ضيع الفرصة ولم يفعل ، ولم يكن ممن اختارهم القدر للأعمال العظيمة ، أو لم يخلص لاختيار القدر له للأعمال العظيمة ، لأنه كان جبانا ، وامرأته على حق في وصفه بهذه الصفة . ولكنه حصل منها على هذا الابن ، هذا الصبي الجميل الرقيق ، الذي يخاف عليه كل هذا الخوف ، والذى يعطي وجوده وحياته هو معنى وقيمة . كانت تلك سعادة عظيمة ، كانت سعادته . ولقد ثمن هذه السعادة بالألم وبالمرارة في قلبه ،بالاستعداد للحرب والموت ، بالشعور بأنه يتقدم نحو حتفه . وكان الراجا جوفندا يجلس هناك في بلاده يستمع الى

نصيحة واثارة أم نالا المقتول ، أم من أغوى امرأته وخلف له ذكرى قبيحة ، وتكررت هجماته واستفزازاته . ولو تمكن دازا من التحالف مع الراجا القوي « جايبالي » لرجح ميزان القوى لصالحه ، ولفرض السلام على جاره فرضا . ولكن هذا الراجا ، رغم ميله الى دازا ، كان يتصل بصلة القرابة بجوفندا . فرد محاولات دازا الدخول معه في تحالف ، ردا رفيعا مهذبا . ولم يعد هناك مجالا للتراجع ، ولم يعد هناك مكان للأمل في العقل أو في الانسانية . واقتربت المصيبة وكان من المحتم معاناتها . وكان دازا يوشك أن يتمنى اقتراب الحرب ، ونزول الصواعق التي تجمعت وتأهبت ، وسرعة الأحداث التي لم يعد الى اتقائها من سبيل . وعاد يلتمس الأمير جايبالي ، وتبادل معه العبارات الرقيقة دون جدوى ، وراح ينصح بالاعتدال والصبر ، ولكنه كان يأخذ أهبته . وكان الحديث في المجلس الحربي يدور حول أمر واحد وهو : هل يجيب الجيش على أول هجوم للعدو بالزحف داخل بلاده ومحاربته ، أم هل ينتظر أن يقوم العدو بهجوم عام حتى يظهر العدو أمام الشعب وأمام العالم أجمع بمظهر المذنب هادم السلام ؟

ولم يكن العدو مهتما بمثل هذه الأفكار ، فأنهى مشاورات المجلس العسكري في الجانب الآخر وتردد بالهجوم المفاجيء .ورسم في هذا الهجوم خطة عملية نهب كبيرة ، جذبت دازا بسرعة ومعه القائد وخيرة رجاله الى الحدود وبينما هم في الطريق ، نزل العدو بقوته الأساسية الى البلاد ، وتوجه رأسا الى عاصمة دازا واحتل الأبواب وحاصر القصر . فلما علم دازا بذلك أخذ طريق العودة من فوره وعلم أن زوجته وابنه محبوسان في القصر المحاصر ، أن المعارك الدامية تجري في الشوارع ، فانقبض قلبه بألم عنيف وحزن كلما فكر في أهله وفي الأخطار المحدقة بهم . ولم يكن دازا في ذلك الوقت رجل الحرب الكاره الحريص ، بل كان شخصا آخر ، اشتعلت فيه نيران الغضب والألم وراح يدفع رجاله ناحية العاصمة ، وما أن وصلها حتى

وجد المعركة محتدمة في الشوارع ، فاندفع ناحية القصر وراح يضرب في العدو كالمجنون ، حتى خارت قواه في مغرب اليوم الدامي ووقع على الأرض مصابا بجراح كثيرة .

فلما عاد الى صوابه ، وجد نفسه أسيرا ، وتبين أن المعركة خسرت ، وأن المدينة والقصر في يدي العدو . وحمل الى جوفندا موثوقا ، وحياه المنتصر ساخرا وساقه الى حجرة . كانت تلك الحجرة هي الحجرة ذات الحيطان المزخرفة المحفورة المذهبة ذات المخطوطات . وهناك كانت تجلس على واحدة من السجاجيد امرأته برافاتي معتدلة ، متحجرة الوجه ، وكان الحرس المسلحون يقفون وراءها . وكان الصبي يرقد في حجرها كالزهرة المقطوعة ، كان الولد الرقيق يرقد ميتا ، معتم الوجه ، وثوبه ملطخ بالدماء . ولم تلتفت المرأة عندما دخل زوجها عليها ، ولم تنظر اليه ، بل كانت تحملق بليدة في الميت الصغير . وتبين دازا أنها تغيرت تغيرا عجيباً ، وتبين بعد برهة أن شعرها الأسود الفاحم قد علاه الشيب البراق . ولابد أنها ظلت جالسة هكذا زمنا طويلا تحمل الصبي في حجرها ، جامدة الوجه ، كأنها تتقنع بقناع .

وصاح دازا : «رافانا! رافانا ، ابني زهرتي!» وسجد وهوى وجهه على رأس الميت ، كان يسجد كالمصلي أمام المرأة الخرساء وأمام الصبي ، يبكيهما ويمدحهما معا . وشم رائحة الدم والموت تختل بعبير زيت الزهر الذى دهن به شعر الصبي ونظرت برافاتي نظرة جامدة الى الاثنين .

ولمس بعضهم كتفه . كان من لمسه أحد رجال جوفندا ، وقد أشار له أن يقف ، وأخذه بعيدا . ولم يقل كلمة لبرافاتي ولم تقل له هى كلمة .

ووضع موثوقا في عربة حملته الى بلد جوفندا وزجت به في السجن هناك ، فحلت أغلاله الا بعضها ، ، وأتاه جندي بإناء ماء وضعه له على الأرض الحجرية ، ثم تركه وحده وأقفل الباب وأوصده . وكان الجرح الذي في كتفه

يلتهب كأنه النار ، فمد يده الى اناء الماء وبلل يديه ووجهه . وكان يريد أن يشرب ، ولكنه منع نفسه عن الشرب ، حتى يموت سريعا . وتساءل الى متى تستمر حاله هكذا ، الى متى تستمر حاله هكذا ، الى متى! كان يتوق الى الموت ، كما يتوق حلقه الى الماء . ويعتقد أن الموت سيضع نهاية للعذاب في قلبه ، وسيمحو صورة الأم والابن الميت منه . ورق التعب والضعف له وسط العذاب ، فمال ونام .

ولما بدأ يصحو من نومه القصير ، أراد أن يفرك عينيه ، فلم يستطع . فقد كانت يداه مشغولتين ، كانت يداه تمسكان بشيء ، وتشجع وفتح عينيه ، فلم يجد حوله حيطان سجن ، بل وجد ضوءاً أخضر ينساب قويا في أوراق الشجر والطحالب ، وأنعم النظر فإذا الضوء يمسه كضربة قوية بلا صوت ، كضربة شبيهة بالرعدة والانتفاضة تنطلق بين العنق والظهر ، وحدق البصر فاتحا عينين واسعتين : فاذا به يقف في الغابة ممسكا في كلتا يديه باناء مملوء ماء ، وعند قدميه نبع يضيء بلون أخضر ولون أدكن ، وتذكر أن الكوخ هناك وراء الدغل وأن اليوجي عنده ينتظره بعد أن أرسله ليحضر له ماء ، اليوجي الذي ضحك ضحكة عجيبة عندما رجاه دازا أن يزيده علما بأمر «المايا» . لم يفقد دازا لا معركة ولا ابنا . لكن اليوجي حقق له رغبته وعلمه ما المايا : قصر وحديقة ، مكتبة ومجموعة من الأطيار ، هموم أمير وحب أب ، حرب وغيرة ، حب لبرافاتي ، وشك عنيف فيها ، كل هذا كان عدما ـ لا لم يكن عدما ، كان «مايا»! وقف دازا متأثرا ، وانحدرت الدموع من عينيه فوق خديه ، وارتعدت يداه وسقط الاناء الذى ملأه لتوه بالماء للناسك ، وسال الماء على الحافة وعلى قدميه ، وأحس كأن أحداً قطع جزءا من جسمه ، أو جزءا من رأسه ، وأحس فراغا في نفسه ، فجأة أخذت منه أعوام طوال عاشها ، وشك تملكه ووصل به الى عتبة الموت ، أخذت منه وانطفأت وتحولت الى عدم ـ وفي الوقت نفسه لم تتحول الى عدم . فقد

كانت الذكرى موجودة ، بقيت الصورة في نفسه ، فمازال يرى برافاتي جالسة معتدلة جامدة بشعر شاب فجأة ، وابنها في حجرها كما لو كانت خنقته ، كما لو كان صيدا تتدلى أطرافه الذابلة من فوق ركبتيها الى الأرض . ما أسرع وما أعمق وما أفظع تعلم ما «المايا»! لقد زجت هذه الأشياء إليه ، أعوام مليئة بالأحداث مرت عليه في لحظة ، كان كل ما طاف به أحلاما ، وان ظهر قويا بالواقع . ربما كان كلما طاف به أحلاما ، وان ظهر قويا كالواقع . وربما كان كل شيء آخر حدث قبل ذلك حلما ،حكايات دازا ابن الأمير ، حياته بين الرعاة ، زواجه ، ثأرة من نالا ، التماسه الناسك . لقد كانت صورا كالصور التي يجدها الانسان على حائط قصر مزخرف ويعجب بها وبما فيها من زهور ونجوم وطيور وقرود وآلهة قابعة في ورق الشجر . وهل ما مر عليه وطاف بعينيه الآن ، صحوة من الامارة والحرب والسجن ، ووقوفه عند النبع ، وهذا الاناء الذي أهرق منه لتوه شيئا من الماء ، وكل مافكر من أفكار ـ من المادة نفسها ، حلم ، خداع ، مايا ؟ وهل سيكون كل ما سيمر عليه في المستقبل ويلوح لبصره وتلمسه يداه الى يوم مماته ، من مادة أخرى ، مختلفة النوع ؟ كله لعب ، وظاهر ، رغوة وحلم ، مايا ، كله لعبة الحياة ذات الصور الجميلة الفظيعة الباهرة المريبة ، بما فيها من رغبات متقدة وآلام ملتهبة .

وظل دازا واقفا كالمذهول أو المشلول . واهتز اناء الماء مرة ثانية بين يديه وانهمر الماء على الأرض وعلى أصابع قدميه ترى... ماذا يفعل الآن ؟ هل يملأ الاناء مرة ثانية ويحمله الى اليوجي ، ويدعه يسخر منه لما عاناه في الحلم من أمور كثيرة ؟ لم يكن هذا العمل جذابا . فترك الاناء يقع على الأرض ، وأفرغه من الماء ، وألقاه في الطحلب . وجلس على الخضرة وبدأ يفكر تفكيرا جادا .لقد كفاه ما رأى في الحلم والتهويم ، لقد كفاه هذا النسيج المتشابك من الخبرات ، من الموت والآلام ، التي تقبض القلب

وتجمد الدم ثم تتحول الى مايا فجأة ، وتترك الانسان كالمجنون ، لقد شبع من كل شيء ، ولم يعد يريد لا المرأة ولا الولد ولا العرش ولا النصر ولا الثأر ولا السعادة ولا النباهة ولا السلطان ولا الفضيلة . لم يعد يتوق إلا الى الراحة ، الى النهاية ، لم يعد يتمنى شيئا آخر سوى وقف هذه العجلة الدائمة الدوران ، هذا العرض الدائم من الصور التي لا تنتهي الى نهاية . وصار يتمنى أن يبلغ بنفسه الراحة وأن يطفئ نفسه ، تلك الأمنية التي تمنتها في معركته الأخيرة ، عندما نفذ في أعدائه ، وضرب ذات اليمين وذات الشمال ، وأحدث الجراح وتلقى الجراح حتى وقع خائر القوى . ثم ماذا ؟ ثم تأتي فترة اغماء أو نعاس أو موت . وبعد ذلك مباشرة يصحو الانسان ، ويقدر على ادخال تيارات الحياة الى قلبه ، وادخال الفيض الفظيع الجميل المفزع من الصور الى عينيه من جديد ، وهكذا الى ما لا نهاية بلا توقف الى أن يحل الاغماء الآخر ، الى أن يحل الموت التالي . وربما كان الموت فترة ، وربما كان استراحة قصيرة ضئيلة ، أو تنفسا ثم تستمر الحياة بعد ذلك ويصبح الانسان مرة أخرى شكلا من الأشكال العديدة في معترك الحياة المضطرب النشوان المرتاب . لا ، ليس هناك انطفاء ، ليست هناك نهاية .

ودفعه الاضطراب الى الوقوف على قدميه . اذا لم يكن هناك في هذا المعترك اللعين راحة ، واذا لم تكن أمنيته الوحيدة الملحة قابلة للتحقق ، فليس أمامه الا أن يملأ الاناء بالماء ويحمله الى هذا الرجل العجوز الذي أمره بإحضار ماءدون أن يكون له أن يأمره بشيء . كان ما طلب منه خدمة ، كان تكليفا ، وكان في امكانه أن يطيع ، وكان في امكانه أن يعصي ، وكانت الطاعة أفضل من القعود والتفكير في طرق الانتحار ، ثم ان الطاعة والخدمة كانتا أكثر سهولة وبراءة واستساغة من السيطرة وحمل المسؤولية ، على قدر معرفته . اذن فاحمل يا دازا الاناء واملأه بالماء على خير ما تستطع واحمله الى سيدك! فلما بلغ الكوخ استقبله الأستاذ بنظرة غريبة ، نظرة فيها

تساؤل بسيط ،وفيها مواساة ، وفيها شيء من المرح والموافقة ، نظرة شبيهة بنظرة صبي كبير الى صبي صغير ، يراه آتيا من مغامرة متعبة مخجلة من مغامرة فيها ابتلاء للشجاعة والجرأة . هذا الأمير الراعي ، هذا الشاب الذي لاذ به ، عاد من النبع ولم يفعل أكثر من ذلك ، وأحضر ماء ولم يغب عنه إلا ربع ساعة . ولكنه على أية حال أتى من سجن ، وفقد امرأة وابناً وامارة وعاش عمر انسان وألقى نظرة الى العجلة الدوارة . وربما أوقظ هذا الشاب قبل الآن مرة أو مرات ، وتنفس ملء فمه واقعاً ، وإلا لما أتى الى هنا ، ولما بقي هذه المدة . والظاهر أنه أوقظ الآن وأصاب يقظة صحيحة وأصبح ناضجاً نضجاً يؤهله لسلوك الطريق الطويل . وسيحتاج تعليم هذا الشاب اتخاذ الوضع الصحيح والتنفس تنفساً صحيحاً فترة لا تقل عن سنة .

بهذه النظرة التي احتوت أثراً من المواساة الطيبة واشارة الى علاقة قامت بينهما ، العلاقة بين المعلم والتلميذ ـ أتم اليوجي مراسيم قبول التلميذ . وقد طردت هذه النظرة من رأس التلميذ الأفكار التي لا فائدة منها وضمته الى التربية والى الخدمة . وليس في حياة دازا بعد ذلك شيء يحكى ، فقد اكتمل حدوث الباقي فيما وراء الصور والحكايات . فلم يترك الغابة بعد ذلك .

فهرس

هيرمان هيسه

نوبل ١٩٤٦

- ولد في ٢ تموز ١٨٧٧ من أبوين مبشرين في الهند .
- ترك دراسة الكهنوت الاعدادية ، وعمل ميكانيكياً ، ثم كتبياً ، ثم تحول نهائياً الى الكتابة .
- تجنس بالجنسية السويسرية بعد أن استقر فيها بعد عام ١٩١٩ .
- ينتمي الى الرومانسية الألمانية ، ويجسد في أدبه الشعور بالعزلة الروحية .
- من أبرز مؤلفاته «بيتر كامنزينت» ١٩٠٤ ، «ديميان» ١٩١٩ ، «ذئب البراري» ١٩٢٧ ، «الموت العاشق» ١٩٣٠ .
- نشر ديوانين من الشعر (١٩٢٢) و(١٩٢٩) .
- توفي في ٩ آب ١٩٦٢ .

ISBN => 2-84305-099-5
EAN => 9782843050992